تفسير القرآن الكريم

المسمى

ضياء التأويل

في

معاني التنزيل

تأليف

العلامة أبي محمد عبد الله بن محمد بن عثمان

الملقب بفوديو بن عثمان بن صالح

رحمه الله تعالى

الجزء الأول

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الناشر

الحاج محمد علي الحلبي

[illegible]

نبذة في التعريف بالتفسير وبمؤلفه رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد فيقول راجي عفو ربه المجيد أبو بكر محمود إنه قد طالعت كتاب الشيخ عبد الله ابن فودي ، ضياء التأويل في معاني التنزيل ، بأمر من قبل مولانا القائم بالأمور الدينية والدنيوية في بلادنا السيد الحاج أحمد تِرْدُون سكتو بن إبراهيم بن أمير المؤمنين أبي بكر تِنْ رَابا بن أمير المؤمنين محمد بلو بن الشيخ الأكبر عثمان بن فودي ، فوجدت أن الكتاب يحتوى على الصفات التي وصفه بها صاحبه في أول مقدمته بل يزيد بمحاسن بما فضله على سائر كتب التفاسير التي وصلت إلينا . وإنه كتاب لم ينسج على منواله ولم يسبق صاحبه أحدٌ إلى وضع مثله ولم يلحقه في شأوه لاحق .

نبذة من سيرة المؤلف

هو الأستاذ أبو محمد عبد الله بن محمد الملقب بفودي بن عثمان بن صالح بن هارون ابن محمد الملقب بِغُرْدُوْ بن جِبْ بن محمد سَمْبُو بن أيوب بن ماسران بن بُوبَ بَابَ بن موسى جَكَلْ الذى وصل بقبيلته أهل تور إلى هذه البلاد وهم قوم من بلاد فوت تور غرب بلاد نيجيريا . وتلكَ القبيلة هي أصل الفلاتين فيما نسمع ولغتهم هي لغة الفلاتين ، سبقوا الفلاتين إلى بلاد هوسا أى نيجيريا اليوم بسبع سنين فيما نسمع وأصلهم من نصارى الروم أو من بني إسرائيل . وصلت إليهم جيوش الصحابة فآمن ملكهم وتزوج بنته عقبة ابن عامر المجاهد الصحابي أمير الغرب ؛ فولدت قبيلة فلان المشهورة . وجدّ قبيلة المؤلف روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله . وأم روم نسمة بنت إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام . وأم المؤلف حواء بنت محمد بن عثمان بن حَمّ بن عال المتقدم ذكره في عمود نسبه .

ولد المؤلف رضى الله عنه سنة ألف ومائة وتسعة وسبعين هجرية . وتوفى وهو ابن ست وستين سنة أول سنة خمس وأربعين ومائتين بعد ألف من الهجرة النبوية

على صاحبها أفضل السلام . وهو رحمه الله كما وصفه ابن أخيه محمد بلو فى كتابه ، إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور ، بأنه هو وزير الشيخ عثمان الأكبر وركنه الأيمن وشقيقه الأقرب . وكان رحمه الله العالم العلامة النظارة الفهامة شيخ الشيوخ المصنف المفسر المحدث الراوية الحافظ المقرئ المجود النحوى اللغوى البيانى المتفنن الآخذ من كل فن بأوفر نصيب الراتع من كل علم مرعاه الخصيب الخطيب الشهير آخر السادات الأعلام وخاتمة النظار ذا التحقيقات الشهيرة البديعة والأبحاث الأنيقة الفريدة المتفق على علمه وعدمه من قل سماح الزمان بمثله ، ومن الأفراد السنية ، فى فنون الشرع له القدم الراسخ والرحب الواسع فى كل مشكل ؛ سيف الله على ذوى البدعة ، معدن الصدق ومنبع العلم ، وزناد الفهم ، كان راوية فى تحقيق العلوم ، مفرط الاطلاع على المنقول والفنون جامع شتات العلوم ، فاضل وقته وأعجوبة أوانه .

أما نشأته فإنه رحمه الله نشأ فى بيت علم وصلاح ، قرأ القرآن على أبيه ثم انتقل إلى أخيه الأكبر الشيخ عثمان وكان صنوه بينهما نحو من اثنتى عشرة سنة . فتركه أبوهما فى يده وهو فى سن الثالثة عشرة . قال هو عن نفسه فى كتابه ، إيداع النسوخ : ومن شيوخى الذين أخذت العلم عنهم أمير المؤمنين شقيق عثمان بن محمد وأمنا حواء بنت محمد بن عثمان بن حم بن عال . وأمها رقية بنت العالم المشهور فى قبيلتنا محمد سعد بن لادان بن إدريس بن إسحاق ابن ماسران . وفضائل أمير المؤمنين هذا مشهورة سارت بها الركبان شرقا وغربا فلا نطول بذكرها . وقد تركنى أبى فى يده بعد قراءة القرآن وأنا ابن ثلاثة عشرة سنة . فقرأت عليه العشرينيات والوتريات والشعراء الستة وأخذت منه علم التوحيد من الكتب السنوسية وشروحها وغيرها وأخذت منه الإعراب من الآجرومية والملحة والقطر ونحوها وشروحها . وأخذت منه علم التصوف الذى التخلق والذى التحقق ما استغنيت به إن شاء الله عن غيره ، وأخذت منه من كتب الفقه مايعرف به فرض العين كالأخضرية والعشماوية ورسالة ابن أبى زيد وغيرها ، وأخذت منه تفسير القرآن من أول الفاتحة إلى آخر القرآن مرارًا لا أعرف قدرها ، وأخذت منه علم الحديث دراية كالعراقى ورواية كالبخارى ما مرتى على غيرها ، وأخذت منه علم الحساب القريب منه اليسر ، وحصل لى بحمد الله التبصر فى الدين من فيضان نوره ومن تواليفه المفيدة العربية والعجمية ، فما ألف كتاباً من أول تواليفه إلى الآن إلا كنت أول من نقله عنه غالبا . وصحبته احضر وسفرا مافارقته منذ أنا يافع إلى أن حصل لى الآن قريب

من خمسين سنة والحمد لله على ذلك، اه وله شيوخ كثيرون غير من تقدم ذكره وقد ذكرهم في كتابه إيداع النسوخ منهم الشيخ جبريل شيخ الشيخ عثمان القائل فيه الشيخ :

إن قيل فيَّ بحسن الظن ما قيل • فموجة أنا من أمواج جبريل

ولولا خوف التطويل لسقت جميع كتاب إيداع النسوخ هنا ليعلم الواقف عليه أنه كم لله ثملها أهل هذا القطر المبارك وأنه إلى اليوم لم يدرك أول المتأخرين منهم آخر المتقدمين فسبحان من يودع ما شاء من حكمته فيمن شاء من خلقه .

الشيخ عبد الله كرامات كثيرة منها غزارة علمه الدالة عليها كثرة مؤلفاته التي لا يقل عددها عن مائة كتاب مع ماهو فيه من الأشغال الشاقة في وقت الحرج وقلة الراحة . فهو قطب رحى جهاد الشيخ عثمان وقائد الجيوش وشيخ المدارس وإمام المساجد ووزير أمير المؤمنين ومدبر السياسة ومؤسسها ومقيم العدل ورايته ومع ذلك هو الكاتب الناسخ ، والمؤلف المتقن ، والشاعر الناثر ، والناظم المحلل . وفي كل فن له كتاب شامل . فله من الكتب في التفسير وفنونه ضياء التأويل في معاني التنزيل . والفرائد الجليلة نظمُ مافي التوشاوى من علم التفسير . ومفتاح التفسير نظم مافي الإتقان والنقاية في علم التفسير للإمام السيوطي ، وسلالة المفتاح وكفاية ضعفاء أهل السودان . وفي الفقه والشريعة خلاصة الأصول في علم أصول الفقه وضياء الحكام وضياء السياسات وتقريب الضروري من علوم الدين . وفي علم النحو كتابه البحر الذي فضله على ألفية السيوطي في النحو وله ألفية أيضاً سماها بالحصن الرصين ، في الصرف . وفي المنطق له مفتاح التحقق وفي العروض والقوافي له فتح اللطيف وفي التوحيد وعلم الكلام نظم العقيدة الوسطى للسنوسي وشرحها ونظم النقاية للسيوطي وألف كتابا أيضا وسماه مفتاح الأصول . وغير ذلك في مواضيع شتى ومقاصد مختلفة مابين منظوم ومبسوط وإنشاء وشرح أو تعليق كأنه هو المقصود بقول الشاعر :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

لله در أمير المؤمنين محمد بلو حيث رثاه بقوله :

إن الرزية لارزية مثلها	رزء غدا الإسلام منثلماً به
خطب جليل حل من فقد الذي	في العلم ليس له أخ من مشبه
وعفت مدارس العلوم وأوحشت	أركانها من فقد قاضي نحبه
تبكي فنون الشرع من فقدانه	لاسيما التفسير جاد بسكبه

علم الحديث الفقه والفتوى به … والنحو والتصريف لان بجنبه
علم البيان كذا اللغات بكت له … والعلم مات لفقده في صوبه
فالناس فوضى ما لهم جهالة … راق له أو من يطب بطبه
بل أقفرت منه مساجد زانها … بصلاته فيها يؤم بصحبه
ومنابر فيها غدا يعلو بها … في خطبة قد أوحشت من نصبه
فبكى عليه بكاءها بحنينها … وبكت مسالكه لها من لجبه
وعلت منازل زانها بصلاته … وصيامه وتلاوة من حزبه
ومطالعات في العلوم بأسرها … والعلم يندبه بأعلى صعبه
وبجمعه ونظامه لشتاتها … ومؤلفات في العلوم بكتبه
وبكت كما تبكي العساكر إذ خلت … من ضيغم بعراء أو في شعبه
كم قادها لكتائب وبجنده … في جنده انتصرت به في حربه
تبت يدا الفقرا تولى غيرهم … فالصبر بعد الخصب جاء بجدبه

هذا وإذا أردنا أن نأتي بجميع خصائص المؤلف فلن نستطيع لها حصراً بل المقصود بهذه العجالة تقديم ما يستصبح به من يريد أن يقرأ كتابه ويعرف أن القريحة التي أنتجته أمرها جليل . فربما ينظر في الكتاب بعين الاستفادة والإفادة .

وبحمد الله قد حصلنا على نسخة قديمة موافقة لنسخة الأصل كتبت في حياة المؤلف واستمرت محفوظة في « فواند » بلد المؤلف ومأوى قبره . وقد أثبتنا ذلك بتقرير الشيخ إبراهيم بن أمير فواند محمد بشر حفيد المؤلف ووارث نوره طول الله عمره وأدام نفعه للمسلمين آمين . ؟

مقـــدمة المؤلف :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، ثم بيّن للناس ما نزّل إليهم ليدّبّروا آياته ويتذكروا بها تذكيراً ؛ وكشف معانى آيات محكمات هنّ أم الكتاب وأخر متشابهات هنّ رموز الخطاب تأويلا وتفسيراً ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم عليه وعليهم تسليما كثيراً .

وبعد : فهذا لما اشتدت إليه حاجة الراغبين ، وإلحاح الملحين : أن أكتب لهم تفسيراً يفهمون به كتاب الله مع الاعتماد فيه على أرجح الأقوال وإعراب ما يحتاج إلى الإعراب منه والتنبيه على القراءات المشهورة بقيدة قراءة نافع رواية ورش عنه ، إذهى قراءتنا فى هذه البلاد ، وبيان الأحكام الشرعية مع رعى مذهب مالك فيها : إذ هو مذهبنا فى الأحكام الشرعية الفرعية والتنبيه على ما يتعلق بالبلاغة ؛ فأجبتهم إلى ذلك راجياً من الله تيسيره وثوابه . وسميته : ـــ

ضياء التأويل ، فى معانى التنزيل

واعلم أن علم التفسير علمٌ يعرف به فهم كتاب الله تعالى المنزل وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه واستمداد ذلك من علم النحو واللغة والتصريف وعلم المعانى والبيان والبديع وأصول الدين والفقه وأصول الفقه والقراءات وعلم أسباب النزول والناسخ والمنسوخ . قال البيضاوى : علم التفسير هو رأس العلوم الدينية ومبنى قواعد الشرع لا يليق لتعاطيه والتصدّى التكلم فيه إلا مَن برع فى العلوم الدينية كلها أصولها وفروعها وفاق فى الصناعات العربية والفنوّن الأدبية بأنواعها . وقال أبو عبيد : التفسير والتأويل بمعنى واحد . وقال أبو العباس الأزدي : النظر فى القرآن من وجهين ، الأول : من حيث هو منقول وهى جهة التفسير وطريقة الرواية والنقل . والثانى : من حيث هو معقول وهى جهة التأويل وطريقة الدراية والعقل . قال الله تعالى ، إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ، فلا بدّ من معرفة اللسان العربىّ فى فهم القرآن العربىّ ، فيعرف الطالب الكلمة وشرحها وإعرابها ، ثم ينتقل إلى معرفة المعانى ظاهراً وباطناً فيوفى لكل منها حقه اه . قلت : فالتفسير هو القطع على الله بأنه عنى بهذا اللفظ هذا للمعنى لم يجز إلا بالنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، والتأويل هو ترجيح أحد المحتملات بدون القطع فيه ، والله أعلم .

تفسير : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

واعلم أن البسملة آية من آيات القرآن إجماعاً في سورة النمل ، وهل هي آية أول كل سورة من آيها ؟ وهو قول ابن المبارك وغيره . أو هي آية من الفاتحة فقط ؟ وهو قول الشافعي . أو لم تكن آية أول كل سورة بل كتبت أول السور للفصل بها ؟ وهو قول مالك . والباء في (بسم) متعلقة بمحذوف تقديره : اقرأوا ، أو نقرأ ، ولم يقل : بالله ، للتبرك بذكر اسمه ، ولم تكتب الألف لكثرة الاستعمال ، وطوّلت الباء عوضاً عنها ، و (الله) علمٌ على المعبود بحقّ و (الرحمن) صفة مبالغة معناها أنه انتهى إلى غاية الرحمة ، وهي صفة تختص بالله ، وهي أبلغ من الرحيم (والرحيم) أبلغ من الراحم : لأن راحماً يقال لمن رحم ولو مرة واحدة ، والرحيم لمن كثر منه ذلك ، والرحمن النهاية في الرحمة . قاله عبد الرحمن الثعالبي .

سورة فاتحة الكتاب

مكية — سبع آيات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ والفاتحة في الأصل مصدرٌ كالعافية سمي به أول ما يفتتح به الشيء من باب إطلاق المصدر على المفعول ، لأنها يبدأ بكتابتها في المصاحف وبقراءتها في الصلاة ، ويقدّر في أولها : قولوا ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ، جملة خبرية قصد بها الثناء على الله بمضمونها من أنه تعالى مالك لجميع الحمد من الخلق ومستحق لأن يحمدوه ، والحمد : هو الثناء على الجميل الاختياري من نعمة أو غيرها ، والمدح : هو الثناء على الجميل مطلقاً ، تقول : حمدت زيداً على علمه ، ولا تقول : حمدته على حسنه ، بل مدحته . والشكر : مقابلة النعمة بالثناء قولا وعملا واعتقاداً ، فهو أعمُّ منهما من وجه وأخص من وجه . ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ مالك جميع الخلق ، وغلب في جمعه بالياء والنون أولو العلم على غيرهم وهو من العلامة لأنه علامة على موجده . والربُّ في الأصل بمعنى التربية وهو تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً ثم وصف به للمبالغة كالعدل . وقيل : هو نعت من ربّه يربّه فهو ربٌّ ولا يطلق على غير الله إلا مقيداً ﴿ الرَّحْمَٰنِ ﴾ لجميع خلقه ﴿ الرَّحِيمِ ﴾ للمؤمنين : نعت بعد نعت لا تأكيد ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ الجزاء وهو يوم القيامة وخصّ بالذكر لأنه لا ملك ظاهراً فيه لأحدٍ إلا لله تعالى ، وقرأ الكسائي وعاصم ، مالك يوم الدين ، فمعناه مالك الأمر كله في يوم القيامة ، أي هو موصوف بذلك دائماً ، كغافر الذنب ، فصح وقوعه صفة للمعرفة ، وتخصيص اليوم بالإضافة لتعظيمه ، وتفرّد الله تعالى فيه بنفوذ الأمر وإجراء هذه الأوصاف على

الله تعالى : من كونه موجداً للعالمين ربًا لهم ، منعماً عليهم بالنعم كلها ، ظاهرها وباطنها ، عاجلها وآجلها ، مالكا لأمرهم يوم الثواب والعقاب ، للدلالة على أنه الحقيق بالحمد ، لا يستحقه على الحقيقة سواه ، فإنّ ترتب الحكم على الوصف ، يشعر بعليته له ، وللإشعار من طريق المفهوم ، على أن من لم يتصف بتلك الصفات لا يستأهل لأن يُحمد ، فضلا أن يُعبد ، ليكون دليلا على ما بعده ، وهو إياك نعبد ، فالوصف الأول لبيان ماهو الموجب للحمد ، وهو الإيجاد والتربية ، والثانى والثالث للدلالة على أنه متفضلٌ لذلك ، مختار فيه ، لا لسوابق الأعمال . والرابع لتحقيق الاختصاص فإنه مما لا يقبل الشركة فيه بوجهٍ ما ، وتضمن الوعد للحامدين . والوعيد للمعرضين ، ولما ذكر الحقيق بالحمد ، ووصف بهذه الصفات التى يتميز بها عن غيره ، وتعلق العلم بمعلوم معين خوطب بقوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ أى يا من هذا شأنه نخصك بالعبادة من توحيد وغيره . ونطلب منك المعونة على العبادة وغيرها ، والعبادةُ أقصى غاية الخضوع والتذلل ومنه : طريق معبد : أى مذلل ، ولذلك لا تستعمل إلا فى الخضوع والتذلل لله تعالى ، والمراد بالاستعانة هُنا طلب المعونة فى المهماتِ كلها ، وفى أداءِ العباداتِ والضمير المستكن فى الفعل للموحدين . وقدّم المفعول للتعظيم ، والاهتمام به والدلالة على الحصر ، وكرر الضمير للتنصيص على أنه المستعان به لا غيرُ وقدمت العبادة على الاستعانة لتوافق رءوس الآى ، وليعلم أن تقديم الوسيلة على طلب الحاجة أدعى إلى الإجابة ، أو لما نسب المتكلم العبادة إلى نفسه أوهم أنه يصدر منه فعقبه بقوله : وإياك نستعينُ ليدل على أن العبادة لا تكون إلا بمعونةٍ منه . وقيل الواو للحال ، أى نعبدك مستعينين بك ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ بيان المعونة المطلوبة والهداية دلالة بلطف ، أى أرشدنا إليه ، ويبدلُ منه بدلَ الكلّ ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ بالهداية والاستقامة ، من النبيينَ والصديقينَ والشهداء والصالحين . وصراطهم : هو طريق الحق ملة الإسلام وقرأ قنبل عن ابن كثير : السراط ، سراط الذين ، بالسين ، والباقون بالصاد ، وهو لغة قريش ، والثابت فى الإمام ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ وهم اليهود ﴿ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ وهم النصارى . وغير بدلٌ من الذين على معنى أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من الغضب والضلال ، أو صفة له مبينة أو مقيدة ، واعترض البدلية بأن أصل ، غير ، الوصفية والإبدال بالوصف ضعيف ، وأجيب بأن « غيراً » يستعمل استعمال الأسماء نحو غيرك يفعل كذا ، فصح وقوعه بدلا واعترض الوصفية بأن « غيراً » لا تتعرف : فإذا قلت رأيت غيرك فكل شىء سوى المخاطب فهو غيره . وأجيب بأنه قد يتعرف بالإضافة كما هنا ؛ لأنه أضيف إلى ماله ضدٌ واحدٌ وهو المنعم عليه ؛ فيتعين تعين الحركة من غير السكون ، وعن ابن كثير نصبه على الحال من الضمير المجرور والعامل « أنعمت » قاله البيضاوى ، و « عليهم » فى محل الرفع لأنه نائب مناب الفاعل ؛ و « لا » مزيدة لتأكيد مافى « غير » من معنى النفى ؛ فكأنه قال لا المغضوب عليهم ولا الضالين ، والضلال : العدول عن الطريق السوىّ عمداً . أو خطأ ؛ وإنما أكد بلا للفرق بين الطريقتين

لتجتنب كلٌّ منهما ، فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به ، واليهود فقدوا العمل والنصارى العلم ، ولذلك كان الغضب لليهود ، والضلال للنصارى ؛ لأن من علم وترك العمل استحق الغضب . بخلاف من لم يعلم ، والحاصل أن كلا من اليهود والنصارى ضالٌ مغضوب عليه ؛ لكن أخص أوصاف اليهود الغضب ، وأخص أوصاف النصارى الضلال ؛ وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم المغضوبُ عليهم اليهود ، والضالين النصارى ، والله أعلم .

سورة البقرة

مدنية : مائتان وست أو سبع وثمانون آية

(بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، الٓمٓ) الله أعلم بمراده بذلك (ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ) أى هذا القرآن ، والكتاب فى الأصل مصدر كتب : جَمَعَ ، سمى به المفعول مبالغة وأل فيه لاستغراق الصفات أى الكامل ، وفيه فخامة بعد إشارة ورمز (لَا رَيْبَ) شك (فِيهِ) أنه من عند الله لوضوحه وسطوع برهانه . وجملة النفى خبرٌ مبتدؤه ذلك . والإشارة به للتعظيم (هُدًى) خبرٌ ثانٍ : هادٍ (لِّلْمُتَّقِينَ) ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك : أى الصائرين إلى التقوى بامتثال الأوامر واجتناب النواهى ، لاتقائهم بذلك النار ، واعلم أن ما تقدَّم أربع جُملٍ تقرر اللاحقة منها السابقة . ولذا لم يدخل العاطف بينها على ما علم فى باب الوصل والفصل فـ « الٓمٓ » جملة على تقدير هذا الٓمٓ دلت على أن المتحدى به هو المؤلف من جنس ما يركبون منه كلامهم . و « ذلك الكتاب » جملة ثانية على جعل ذلك مبتدأ . والكتاب خبره . وهى مقررة لجهة التحدى . لأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال وقوله « لا ريب فيه » جملة ثالثة . تشهد على كماله بنفى الريب عنه . وإثبات الحق واليقين له . وهو أعلى الكمال . وقوله « هدى للمتقين » جملة رابعة مؤكدة لكونه حقاً لا يحوم الشك حوله ، وإن شئت قلت فى الجمل تستتبع السابقة منها اللاحقة استتباع الدليل للمدلول ، وبيانه أنه لما نبه أولا على إعجاز المتحدى به ـ من حيث أنه من جنس كلامهم وقد عجزوا عن معارضته ـ استنتج منه أنه الكتاب البالغ حدّ الكمال . واستلزم ذلك أن لا يتشبث الريب بأطرافه وما كان كذلك فلا محالة أنه هدى للمتقين . وفى كل واحدة من الجمل نكتة ذات جزالة ؛ ففى الأولى الحذف والرمز إلى المقصود مع التعليل . وفى الثانية فخامة التعريف . وفى الثالثة تأخير الظرف حذراً من إيهام الباطل فى باقى الكتب . وفى الرابعة الحذف والتوصيف بالمصدر البالغة . وإيراده منكَّراً للتعظيم وتخصيص الهدى بالمتقين باعتبار الغاية وتسمية المشارف للتقوى متقياً إيجازاً وتفخيماً ، قاله البيضاوى . ثم بين المتقين بقوله (ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ) يصدقون (بِٱلْغَيْبِ) بما غاب عنهم من البعث

والجنة والنار أو بالقلوب أو حال كونهم غائبين عن الناس . فالباء للتعدية أو للآلة أو للمصاحبة . وعدّىَ بالباء لتضمنه معنى الاعتراف . والإيمان شرعاً : تصديق ما علم ضرورة أنه من دين محمد صلى الله عليه وسلم كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ ﴾ أى يعدّلون أركانها : من أقام العود إذا قوّمه . يعنى يأتون بها بحقوقها الظاهرة من الفرائض والسنن والباطنة من الخشوع والإقبال بالقلب إلى الله والصلاة فعلة من صلى إذا دعا كالزكاة من زكى . وإنما سمى الفعل المخصوص بها لاشتماله على الدعاء ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ أعطيناهم والرزق اسم لكل ماينتفع به وأصله الحظ والنصيب . لكن المراد هنا الحلال لقرينة المدح ﴿ يُنفِقُونَ ﴾ يخرجونه عن أيديهم فى طاعة الله من سبل الخير من الفرض والنفل ، وتقديم المفعول للاهتمام به والمحافظة على رءوس الآى . وإدخال « من » التبعيضية عليه للكف عن الإسراف المنهى عنه ، وتخصيص الصلاة والزكاة بالذكر لأنهما أمهات الأعمال النفسانية والمالية الداعية لسائر الطاعات وتجنب المعاصى . وعطفهما على الإيمان يدل على أن الإيمان ليس منهما ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ من القرآن ﴿ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ من التوراة والإنجيل وغيرهما . وقيل هذه الآية فى مؤمنى أهل الكتاب وما تقدم فى مؤمنى العرب . وكلهم من جملة المتقين ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ يعلمون والإيقان حصول العلم بلا شك ولا شبهة بعد أن لم يكن للاستدلال ، ولذا لا يوصف به علم البارى تعالى ولا العلوم الضرورية . والآخرة تأنيث الآخر ، صفة الدار بدليل (تلك الدار الآخرة) فغلبت كالدنيا ، ونافع يحذف الهمزة ويلقى حركتها على اللام ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ عَلَىٰ هُدًى ﴾ رشد وبصيرة ﴿ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ لا يبلغ كنهه غيره ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون بالجنة ، والناجون من النار ، وأصل الفلح : القطع ، فهم المقطوع لهم بخيرى الدنيا والآخرة ، وكرر فيه اسم الإشارة تنبيها على أن اتصافهم بتلك الصفات يقتضى كل واحد من الأثرين ، وأن كلا منهما كاف فى تمييزهم بها عن غيرهم ، ووسّط العاطف لاختلاف مفهوم الجملتين ، وهم ضمير الفصل ، يؤكد النسبة ويفيد اختصاص المسند بالمسند إليه .

قال البيضاوى : تأمل كيف نبه سبحانه على اختصاص المتقين ، بنيل ما لا يناله أحد من وجوه شتى : بناء الكلام على اسم الإشارة للتعليل مع الإيجاز : وتكريره وتعريف الخبر وتوسط الفصل لإظهار قدرهم والترغيب فى اقتفاء آثارهم : والله أعلم . وهنا انتهت آيات المؤمنين لقول مجاهد : أربع آيات من أول البقرة فى المؤمنين : واثنتان فى الكافرين وثلاث عشرة فى المنافقين . ثم بعد ذلك دعا الكل إلى التوحيد وأثبت دليله : ثم أثبت الرسالة بدليلها كما يأتى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى الذين علم الله أنهم يموتون كفاراً : كأبى جهل وأبى لهب ونحوهما والكفر إنكار ما علم بالضرورة مجىء الرسول به : وإنما عدّ نحو شد الزنار كفراً لأنه يدل على تكذيبه : لا أنه بنفسه كفر ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾ وسواء بمعنى الاستواء نعت به : كما نعت بالمصادر ، وهو مرفوع خبر إنّ وما بعده مرتفع به على الفاعلية ،

كأنه قيل إن الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه ، أو هو خبر لما بعده ، بمعنى : إنذارك وعدمه سيان . والإنذار : الإعلام مع التخويف ، وفى الهمزتين التحقيق وإبدال الثانية ألفاً لورش وتسهيلها ، وإدخال ألف بين المسهلة والأخرى ، وتركه ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ جملة مفسرة لإجمال ما قبلها فيما فيه الاستواء ؛ فلا محل لها ، أو حال مؤكدة ، أو بدل عنه أو خبر إن ، والجملة قبلها اعتراض بما هو علة الحكم ؛ وفائدة هذا الإنذار حصول الثواب للمبلغ ، مع إلزام الحجة البلغ إليهم ، ولذا قال عليهم ولم يقل عليك ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ طبع عليها واستوثق ، فلا يدخلها خير وهو تعليل الحكم السابق وبيان لما يقتضيه . والمعنى : حكم على قلوبهم بالكفر فهى لا تعى خيراً ولا تفهمه ﴿ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ أى مواضعه ، فلا ينتفعون بما يستمعونه من الحق ، ووحد السمع لأنه مصدر وكرر «على» إيذاناً لشدة الختم باستقلال كل واحد منهما بالحكم . ﴿ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ غطاء فلا يبصرون الحق . والغشاوة : فعالة تبنى لما يشتمل على الشىء كالعصابة والعمامة . قال البيضاوى : لاختم ولا تغشية على الحقيقة ، وإنما المراد بهما إحداث هيئة فى نفوسهم تمرنهم على استحباب الكفر والمعاصى واستقباح الإيمان والطاعات إلى آخر ما قال . وقال عبد الرحمن الثعالبى : الصحيح أن هذا الختم حقيقة لا مجاز ؛ فقد جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم : «إن العبد إذا أذنب ذنباً نكتت نكتة سوداء فى قلبه ، إلى آخر ما قال ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أى قوى دائم فى الآخرة ، والعذاب كل مايشق على الإنسان ، ويمنعه مراده ، أصله المنع . قال البيضاوى فيه وعيد وبيان لما يستحقونه ، والعذاب كالنكال بناء ومعنى تقول : عذب عن الشىء ونكل عنه إذا أمسك ، ومنه الماء العذب لأنه يقمع العطش ، ثم اتسع فأطلق على كل ألم فادح ؛ وإن لم يكن نكالا أى عقاباً يردع الجانى عن المعاودة ، فهو أعم منهما . وقيل اشتقاقه من التعذيب الذى هو إزالة العذب كالتقذية والتمريض ، والعظيم نقيض الحقير ؛ والكبير نقيض الصغير ؛ فكما أن الحقير دون الصغير ، فالعظيم فوق الكبير . ومعنى التوصيف به أنه إذا قيس بسائر ما يجانسه قصر عنه وحقر بالإضافة إليه ، ومعنى التنكير فى الآية أن على أبصارهم غشاء ليس ما يتعارفه الناس : وهو التعامى عن الآيات ولهم من الآلام العظام نوع عظيم لا يعلم كنهه إلا الله . اه ولما افتتح الله سبحانه هذه السورة بشرح حال الكتاب ، وساق بيان من آمن به ومن كفر به ظاهراً وباطناً ، ثلث بالقسم الثالث المذبذب بين القسمين وهم المنافقون الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم وهم أخبث الكفرة ؛ ولذا طول فى بيان خبثهم وجهلهم واستهزائهم ، وتهكمهم بأفعالهم وسجل على عمههم وطغيانهم وضرب لهم الأمثال ، فقال ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أصله أناس حذفت همزته تخفيفاً وعوض عنها حرف التعريف واشتقاقه من الأنس والظهور . كما سمى الجن جناً لاجتنانهم ، وأل فيه للجنس أو للعهد : أى الذين كفروا وهو فى محل رفع خبر مبتدؤه ﴿ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ أى يوم القيامة لأنه آخر الأيام ومن موصوفة إذ لا عهد أى ناس يقولون أو موصولة على العهد أى الذى يقول مراداً

به ابن أبيّ وأصحابه ونظراؤهم ﴿وَمَاهُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ روعي فيه معنى من وفى ضمير «يقول» لفظها، ولم يقل وما آمنوا تأكيداً ومبالغة في التكذيب لأن إخراج ذواتهم من عداد المؤمنين أبلغ من نفي الإيمان عنهم في ماضي الزمان ولذا أكد النفي بالباء ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بإظهار خلاف ما أبطنوه من الكفر ليدفعوا عنهم أحكامه الدنيوية. والخدع أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه من المكروه لتزله عما هو بصدده. وأصله الستر والإخفاء، ومنه المخدع للخزانة والمفاعلة هنا من واحد كعاقبت اللص، وذكر الله تحسين. لأن يخادعون بيان ليقول أو استئناف بذكر ما هو الغرض منه، إلا أنه أخرج في زنة فاعل للمبالغة إذ هو أبلغ من فعل جاء بلا مقابلة معارض ﴿وَمَا يُخَادِعُونَ﴾ بالألف لنافع وابن كثير وأبي عمرو. وقرأ الباقون وما يخدعون ﴿إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ لأن وبال خداعهم راجع إليهم فيفتضحون في الدنيا بإطلاع الله نبيه على ما أبطنوه ويعاقبون في الآخرة ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن خداعهم لأنفسهم لتمادي غفلتهم والشعور: الإحساس كأن رجوع ضرر الخداع إليهم شيء ظاهر كالمحسوس لايخفى إلا على من عدم الحواس ومشاعر الإنسان حواسه ومنه الشعار ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شك ونفاق. فهو يمرض قلوبهم أي يضعفها تألماً على ما يفوتهم من الرياسة. وحسداً على ما يرون من ثبات أمر الرسول يوماً فيوماً ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ بما أنزله من القرآن لكفرهم به، وبما يرون من إعلاء أمر النبي صلى الله عليه وسلم وإشادة ذكره، ويحتمل أن يراد بالمرض: ما يداخل قلوبهم من الجبن حين شاهدوا شوكة المسلمين، وإمداد الله لهم بالملائكة. وقذف الرعب في قلوب الكفار، ثم يزيد الله ذلك بما يزيد من نصرة المؤمنين على الأعداء والتبسط في البلاد، وقيل قوله فزادهم الله مرضا، دعاء عليهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم. ﴿بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ﴾ بالتشديد لنافع وابن كثير وأبي عمرو، وابن عامر، أي نبيّ الله، وبالتخفيف لعاصم وحمزة والكسائي، أي في قولهم آمنا ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي لهؤلاء عطف على يكذبون أو يقول والقائل الله أو الرسول أو بعض المؤمنين ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والتعويق عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وتهييج الحروب والفتن بمخادعة المسلمين، وموالاة الكفار، بإفشاء الأسرار إليهم، وبإظهار المعاصي والإهانة بالدين، فإن الإخلال بالشرائع والإعراض عنها، مما يوجب الهرج ويخل بنظام العالم ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ بين الناس بالمداراة، وليس ما نحن عليه بفساد، هذا رد للناصح على سبيل المبالغة، لأن إنما للحصر، وإنما قالوا ذلك لأنهم تصوروا الفساد بصورة الصلاح لما في قلوبهم من المرض، كما قال تعالى: أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً، قال تعالى رداً عليهم ﴿أَلَا﴾ للتنبيه ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم مفسدون. وهذا من أبلغ الرد لاستئنافه وتصديره بحرف التأكيد، ألا المنبهة على تحقيق ما بعدها، وإن المقررة للنسبة وتعريف الخبر، وتوسط الفصل لرد ما في قولهم: إنما نحن مصلحون، من التعريض بالمسلمين والاستدراك بلا يشعرون.

﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس﴾ من تمام النصح لهم ، وما مصدرية أو كافة ، واللام في الناس للجنس : والمراد به الكاملون في الإنسانية ، العاملون بقضية العقل : أو للعهد ، والمراد به الرسول ومن معه ، والمعنى آمنوا إيماناً مقروناً بالإخلاص متمحضاً عن شوائب النفاق ، مماثلا لإيمانهم . ﴿قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء﴾ أي الجهال وأصل السفه : الخفة والطيش ، وهو نقيض الحلم ، ولا يطلق على الجاهل الساكت ، وإنما يطلق على السليط ، وإنما سفهوهم لاعتقادهم فساد رأيهم ، وتحقير شأنهم ، بكون أكثرهم فقراء وموالي ، كبلال وصهيب ، قال تعالى رداً عليهم ﴿ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾ وهو أبلغ الرد . وإنما فصلت الآية بلا يعلمون ، والتي قبلها بلا يشعرون . لأنه أكثر طباقاً لذكر السفه ، ولأن الوقوف على أمر الدين والتمييز بين الحق والباطل ، مما يفتقر إلى نظر وتفكر ، وأما النفاق وما فيه من الفتن والفساد فإنما يدرك بأدنى تفطن وتأمل فيما يشاهد من أقوالهم وأفعالهم ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴾ هذه بيان لمعاملتهم مع المؤمنين والكفار ، وما تقدمت بيان لمذهبهم ، فلا تكرار ، وأصل ولقوا» لقيوا ، حذفت الضمة للاستثقال ، ثم الياء لالتقائها ساكنة مع الواو ، لحركت القاف بحركة تجانس الواو ، ولقيه : صادفته واستقبله . ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾ رؤسائهم يقال خلا بفلان وإليه : انفرد معه ، وإلى أبلغ لأن فيه دلالة الابتداء والانتهاء . وفي البخاري قال مجاهد : إلى شياطينهم أصحابهم من المنافقين والمشركين اه [من] القسطلاني . سموا شياطين لأنهم ماثلوهم في تمردهم وهم المظهرون كفرهم وإضافتهم إليهم للمشاركة في الكفر ، وهو استعارة ، والإضافة قرينة اه والشيطان : المتمرد من الجن والإنس والدواب ، ونونه عند سيبويه أصلية من شطن : بعد لبعده من رحمة الله أو زائدة من شاط : احترق . ﴿قالوا إنا معكم﴾ أي في الدين خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية . والشياطين بالاسمية المؤكدة بإن . لأنهم قصدوا بالأولى دعوى إحداث الإيمان ، وبالثانية تحقيق شأنهم على ما كانوا عليه ﴿إنما نحن مستهزئون﴾ بهم بإظهار الإيمان تأكيد لما قبله ، لأن المستهزئ بالشيء المستخف به . مصر على خلافه ، أو بدل منه لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر ، أو استئناف ؛ فكأن الشياطين قالوا لهم لم تقولون عندهم آمنا فأجابوا بذلك ، والاستهزاء الاستخفاف والسخرية . يقال هزئ واستهزأ ، بمعنى ، والمعنى : إنا نجهل محمداً وأصحابه ، ونسخر بهم بإظهار الإسلام فرد الله عليهم بقوله ﴿الله يستهزئ بهم﴾ يجازيهم باستهزائهم عقاباً ، كما سمي جزاء السيئة سيئة ، أو يعاملهم معاملة المستهزئ : إما في الدنيا من إجراء أحكام المسلمين عليهم واستدراجهم بالإمهال حتى يقعوا في العذاب . وإما في الآخرة : روي أنه يفتح لهم وهم في النار باباً إلى الجنة فيسرعون نحوه ، فإذا وصلوا إليه سد عليهم الباب وردوا إلى النار ، وذلك قوله : فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴿ويمدهم﴾

يزيدهم من مد بمعنى أمهل ، فإنه يعدى باللام ، ويدل عليه قراءة ابن كثير «ويمدهم» من أمد .
ومد وأمد بمعنى واحد ، لكن أكثر استعمال المد فى الشر والإمداد فى الخير . وعن مجاهد : معناه
يمهلهم ﴿فِى طُغْيَانِهِمْ﴾ تجاوزهم الحد فى الكفر بضم الطاء وكسرها ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون تحيرا ، والعمه فى
البصيرة : وهو التحير فى الأمر كالعمى فى البصر ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ اختاروها
عليه واستبدلوها به ، أى استبدلوا الكفر بالإيمان الذى تمكن لهم لأن الباء تصحب المتروك ،
أو استبدلوا الإيمان الفطرى بالضلالة التى اختاروها وأصل الشراء بذل الثمن لتحصيل ما يطلب من
الأعيان ، فاستعير للإعراض عما تمكن منه محصلا به غيره من المعانى أو الأعيان ولذا رشحت
الاستعارة بقوله ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ أى ما ربحوا فيها بل خسروا رأس مالهم ، لمصيرهم إلى النار
المؤبدة عليهم ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ لطرق التجارة ، فإن المقصود منها سلامة رأس المال والربح
وهؤلاء ليس لهم ربح ولا رأس مال ، ولما حقق الله حالهم فى المعاملة والتحير والخسران ، عقبها
بضرب المثل لها ، زيادة فى التوضيح ، لأن المثل يؤثر فى القلوب مالا يؤثر وصف الشىء فى نفسه ،
إذ يجعل الخفى كالجلى ؛ والغائب كالشاهد ؛ فقال﴿مَثَلُهُمْ﴾ صفتهم فى نفاقهم والمثل فى الأصل النظير ، ثم
قيل فى القول السائر فى عرف الناس ؛ يعرف به معنى الشىء مع غرابته : ثم استعير لكل حال أو
صفة أو قصة لها شأن فيها غرابة ؛ والمعنى حالهم الغريبة الشأن ﴿كَمَثَلِ﴾ الفوج ﴿الَّذِى اسْتَوْقَدَ﴾
أوقد ﴿نَارًا﴾ فى ظلمة . والنار : جوهر لطيف محرق من نار ينور تحرك ونفر ؛ لأن فى النار حركة ،
وتنكيرها مؤذن بعظمها . ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ﴾ النار ﴿مَا حَوْلَهُ﴾ أى المستوقد فأبصر واستدفأ وأمن
ما يخافه ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أطفأه ؛ وجمع الضمير مراعاة لمعنى الذى ؛ لأنه بمعنى الفوج : كما قدرناه
أولا ، وأضاء يكون متعديا ولازماً ، وعلى اللزوم : فأضاءت أسند إلى ما ، والتأنيث ، لأن ما حوله
أشياء وأماكن ، أو إلى ضمير النار : وما موصولة بمعنى الأمكنة نصب على الظرفية . أو مزيدة
«وحوله» ظرف ؛ وأصل الحول الدوران : ولذا قيل للعام حول ، لأنه يدور ، «ذهب الله» جواب
لما . وقال «بنورهم» ولم يقل بنارهم ؛ لأنه المراد من إيقادها : أو استئناف أجيب به اعتراض سائل
يقول ما بالهم شبهت حالهم بحال مستوقد انطفأت ناره والضمير للمنافقين ، والجواب محذوف
أى طفئت وإسناد الإذهاب إلى الله إعلام بأن الإطفاء حصل بسبب خفى . أو أمر سماوى : كريح
أو مطر ، وعدى الفعل بالباء دون الهمزة مبالغة : لما فى الباء من معنى الاستصحاب والاستمساك
«وما يمسك فلا مرسل له» ولذا عدل عن الضوء إلى النور ، إذ لو قال ذهب الله بضوئهم لاحتمل
بقاء النور ، والغرض إزالته بالكلية عنهم ، ولذا أكده بقوله ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾
ما حولهم متحيرين عن الطريق خائفين فكذلك المنافقون أمنوا من القتل وأكل الأموال بإظهار كلمة

الإيمان . فإذا ماتوا جاءهم الخوف والعذاب ، وأصل الظلمة : المنع ، لأنها تمنع الرؤية وبالغ فى جمعها وتنكيرها و «ترك» فى الأصل بمعنى طرح ، وله مفعول واحد ، فضمن معنى صيّر ، فجرى مجرى أفعال القلوب وقيل ظلماتهم ظلمة الكفر ، وظلمة النفاق ، وظلمة يوم القيامة «يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم» ثم أوضح عدم هدايتهم بقوله هم ﴿صُمٌّ﴾ عن الحق فلا يسمعونه سماع قبول ﴿بُكْمٌ﴾ خرس عن الخير فلا يقولونه ﴿عُمْيٌ﴾ عن طريق الهدى فلا يرونه ، وهو تشبيه بليغ فى الأصح لا استعارة ، لأن المشبه به مذكور ، وهم المنافقون ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ عن الضلالة التى اشتروها إلى الهدى الذى باعوه ، أى لا يطلبون الإقالة ، والفاء للدلالة على أن اتصافهم بالأحكام السابقة : سبب لتحيرهم واحتباسهم ولما شبه الله المنافقين فى التمثيل الأول بالمستوقد ناراً ، وإظهار الإيمان بالإضاءة وانقطاع الانتفاع بانطفاء النار ، شبه القرآن معهم بالصيب : لأن القلوب تحيا به إحياء الأرض بالمطر : وما يتعلق الكفار به من الشبه بالظلمات وما فيه من الوعد والوعيد : بالرعد والبرق وما يصيبهم من الأفزاع من جهة المؤمنين بالصواعق : فقال عاطفاً على كاف كمثل الذى ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ أى أو مثل القرآن معهم كصيب : ويحتمل أن يقال أو مثل المنافقين كذوى صيب : أى أصحاب مطر أصله صيوب من صاب يصوب : أى ينزل ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ السحاب ﴿فِيهِ﴾ أى السحاب ﴿ظُلُمَاتٌ﴾ متكاثفة ظلمة الغمام وظلمة الليل وظلمة تتابع المطر ﴿وَرَعْدٌ﴾ هو الملك الموكل به . وقيل صوته ﴿وَبَرْقٌ﴾ لمعان سوطه الذى زجر به : وهما فى الأصل مصدرا رعد وبرق : ولذا لم يجمعا وتنكير صيب : لأنه أريد به نوع من المطر شديد وتعريف السماء للدلالة على أن الغمام منطبق بآفاق السماء كلها : وقيل المراد بالسماء السحاب كما تقدم : واللام لتعريف الماهية ﴿يَجْعَلُونَ﴾ أى أصحاب الصيب ﴿أَصَابِعَهُمْ﴾ جمع إصبع مثلث الهمزة والباء : أى أناملهم ﴿فِي آذَانِهِمْ مِنَ﴾ أجل ﴿الصَّوَاعِقِ﴾ جمع صاعقة : شدة صوت الرعد مع النار : والصاعقة يطلق على كل هائل مسموع ، أو مشاهد ، لئلا يسمعوها ، ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ من سماعها ، وجملة يجعلون مستأنفة استئنافاً بيانياً ، كأن قائلا قال كيف حالهم مع شدة ذلك ؟ فقال يجعلون إلى آخره ، وأطلق الأصابع موضع الأنامل مبالغة : قال البيضاوى : الصاعقة قطعة رعد هائل معها نار ، لا تمر بشىء إلا أتت عليه . من الصعق وهو شدة الصوت وقد يطلق على كل هائل ، ويقال صعقته الصاعقة إذا أهلكته بالإحراق أو شدة الصوت ، وقرئ من الصواقع ، وهى فى الأصل إما صفة لقطعة الرعد أو للرعد ، والتاء للمبالغة أو مصدر كالعافية ، وحذر الموت نصب على العلة ، وكذلك هؤلاء ، يعنى الكفار أو المنافقين إذا نزل القرآن ، وفيه ذكر الكفر المشبه بالظلمات والوعيد عليه المشبه بالرعد ، والحجج البينة المشبهة بالبرق يسدون آذانهم لئلا يسمعوه فيميلوا إلى الإيمان ، وترك دينهم وهو عندهم موت ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ علماً وقدرة ، فلا

فلا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط ، أو جامعهم فى النار والجملة اعتراضية لا محل لها ﴿ يَكَادُ ﴾ يقرب ﴿ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ يأخذها بسرعة استئناف ثان ، كما تقدم ، وقرئ بكسر الطاء ﴿ كُلَّمَا ﴾ أى كل وقت ﴿ أَضَاءَ ﴾ البرق ﴿ لَهُمْ ﴾ مشى أو مسلكا ﴿ مَشَوْا فِيهِ ﴾ أى فى ضوئه ﴿ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ ﴾ المسالك ﴿ قَامُوا ﴾ وقفوا تمثيل لإزعاج ما فى القرآن من الحجج قلوبهم وتصديقهم بما سمعوا فيه مما يحبون ، ووقوفهم عما يكرهون ، «وكلما» ظرف للتكرار عاملها جوابها ، وهو مستأنف ثالث كما تقدم . وأضاء متعد كما قدرنا أو لازم بمعنى كلما لمع لهم ، وكذا أظلم ، وإنما قال مع الإضاءة «كلما» ومع الإظلام «إذا» لأنهم حراص على المشى فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها ، ولا كذلك التوقف ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ ﴾ بقصيف الرعد ﴿ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ الظاهرة بوميض البرق ، كما ذهب بالباطنة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى مَشىءٍ شاءه ﴿ قَدِيرٌ ﴾ ومنه إذهاب ما ذكر «ولو» حرف شرط ، يدل على انتفائه لانتفاء الجواب ضرورة : انتفاء الملزوم عند انتفاء لازمه ، وفائدته التنبيه على أن تأثير الأسباب فى مسبباتها مشروط بمشيئته . واقع بقدرته ، والشيء مختص بالموجود ، لأنه فى الأصل مصدر شاءه يطلق بمعنى شاءٍ ، تارة اسم فاعل ، فيتناول البارى تعالى ، كما قال «قل أى شىء أكبر شهادة قل الله» وبمعنى مشىءٍ اسم مفعول ، أى مشىءٍ وجوده ، وما شاء الله وجوده فهو موجود فى الجملة ، وعليه قوله إن الله على كل شىء قدير ، وهذان التمثيلان كلاهما فى المنافقين ، والثانى أبلغ لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر ، ولذا أخر وعطف بأو التى للتخيير ، إعلاما بأنهما سواء فى استقلال كل واحدة منهما بوجه التمثيل فبأيهما مثلت فأنت مصيب ، وإن مثلت بهما جميعاً ، فكذلك ، والصحيح أنهما من جملة التمثيلات المركبة ، وهى أن تشبه كيفية منتزعة من مجموع تضامت أجزاؤه وتلاصقت ، حتى صارت شيئاً واحداً ، بأخرى مثلها ، كقوله تعالى مثل الذين حُمّلوا التوراة ... إلى ... أسفاراً . لا المفردة ، وهى تشبيه أفراد بأمثالها نحو «وما يستوى الأعمى والبصير ... الآية» ، ومن جعلهما فى اليهود ، قال مثلهم فى انتظارهم خروج محمد صلى الله عليه وسلم كالمستوقد ناراً ، فلما خرج كفروا به ، وهو كإذهاب النور . أو مثلهم كمن هو فى صيّب . ثم أصابه ما تقدم والله أعلم . ولما ذكر فرق المكلفين بأوصافهم أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات تنشيطاً للسامع بأمر العبادة وتفخيما لشأنها ، وجبر كلفتها بلذة المخاطبة فقال ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ وحّدوه . وأخلصوا له العبادة ويا حرف لنداء البعيد وشبهه لعظمته كيا الله ، أو غفلته كما هنا ، وهو مع المنادى جملة مفيدة ، لأنه نائب مناب فعل ، وأىّ : اسم مبهم جعل وصلة إلى نداء المعرّف باللام ، لئلا يجمع بين حرفى تعريف ، وأعطى حكم المنادى وأجرى عليه المقصود بالنداء ، وصفاً موضحاً له ، والتزم رفعه إشعاراً بأنه المقصود ، وأقحمت بينهما «ها» التنبيه تأكيداً ، وكلما نادى الله عباده له : فهو من الأمور العظام التى حقها أن يتفطنوا لها ويقبلوا

بقلوبهم عليها، وأكثرهم عنها غافلون، حقيق بأن ينادى له بالآوكد «والناس» يعم الموجودين وقت النزول لفظاً ومن سيوجد لما تواتر من دينه عليه السلام أن مقتضى خطابه وأحكامه شامل لمن يجيء إلى قيام الساعة إلا من خصه الدليل. وإنما قال «ربكم» تنبيها على أن موجب العبادة الربوبية، وهو أمر للكفار بالدخول فيها وللمؤمنين بالمداومة عليها ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ اخترعكم على غير مثال سبق صفة جرت عليه للتعظيم والتعليل والتقييد والتوضيح من جهة خطاب المشركين ﴿وَ﴾ خلق ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ تقدمكم بالذات والزمان منصوب معطوف على الضمير المنصوب فى خلقكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بعبادته عقابه، وهو حال من الضمير فى اعبدوا، كأنه قال اعبدوا ربكم راجين أن تدخلوا فى المتقين الفائزين بالهدى والفلاح، المستوجبين لجوار الله تعالى، نبه على أن التقوى منتهى درجات السالكين: وهو التبرى عن كل شيء سوى الله إلى الله، وأن العابد ينبغى أن لا يغتر بعبادته، ويكون ذا خوف ورجاء، والآية تدل على أن الطريق إلى معرفة الله تعالى، والعلم بوحدانيته واستحقاقه للعبادة، هو النظر فى صنعه، والاستدلال بأفعاله. وأن العبد لا يستحق بعبادته عليه ثواباً، فإنها لما وجبت عليه. شكراً لما عدده عليه من النعم، كان كأجير أخذ الأجرة قبل العمل، و «لعل» هنا على بابها من الترجى والتوقع، كما قال سيبويه ورؤساء اللسان: لأنها فى حيز البشر، أى إذا تأملتم حالكم مع عبادة ربكم، رجوتم لأنفسكم التقوى، ولا حاجة لما قال السيوطى هنا ولعل فى الأصل للترجى، وفى كلامه تعالى للتحقيق، ثم أومأ إلى إحسان آخر يجب شكرهم عليه. فقال ﴿الَّذِي جَعَلَ﴾ أى صيَّر ﴿لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً﴾ بساطاً بإبراز بعض جوانبها عن الماء مع ما فى طبعه من الإحاطة بها، أى صيرها متوسطة بين الصلابة واللطافة حتى صارت مستعدة لأن يقعدوا ويناموا عليها، كالفراش المبسوط ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ قبة مضروبة عليكم، والسماء: اسم جنس يقع على الواحد والمتعدد: وقيل واحده سماءة، والبناء مصدر سمى به المبنى، وكل من فراشاً وبناء مفعول ثان لجعل إن كان بمعنى صيَّر، وحال إن كان بمعنى أوجد ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ عطف على جعل ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أى من أنواع الثمرات وألوان النبات ﴿رِزْقاً لَكُمْ﴾ تأكلونه وتعلفون به دوابكم، ومن الأولى للابتداء، سواء أريد بالسماء السحاب، لأن كل ما علاك سماء، أو الفلك: فإن المطر يبتدئ من السماء إلى السحاب، ومنه إلى الأرض على ما دلت عليه الظواهر: ومن الثانية للتبعيض. إذ لم يخرج كل الثمرات بالمطر، أو للتبيين. ورزقاً مفعول به، بمعنى المرزوق ولكم صفة رزقاً إن أريد به المرزوق، ومفعول له إن أريد به المصدر، كأنه قال رزقاً إياكم ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً﴾ أمثالا تعبدونهم كعبادته تعالى ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه الخالق ولا يخلقون ولا يكون إلها إلا من يخلق: وقوله «فلا تجعلوا» نهى معطوف على اعبدوا، أو نفى منصوب بإضمار «أن» جوابا له. والفاء للسببية: إذ المعنى من خصكم بهذه النعم فلا ينبغى أن يشرك به. ولما كان

مضمون الآيتين الأمر بعبادة الله والنهي عن الإشراك به والإشارة إلى دليل ذلك ذكر الحجة على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم فقال ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ شك ﴿ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن أنه من عند الله ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ أي المنزل ومن للبيان : أي هي مثله في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم والإخبار عن الغيب . والسورة : قطعة من القرآن لها أول وآخر : باسم خاص به من النبي صلى الله عليه وسلم أقلها ثلاث آيات وواوها أصلية منقولة من سور المدينة ؛ لأنها محيطة بطائفة من القرآن . أو من السورة التي هي الرتبة ؛ لأن السور كالمراتب ، يترقى فيها القارئ أو لها مراتب في الطول والقصر ، أو في الفضل وثواب القراءة ؛ أو واوها مبدلة من الهمزة من السؤرة البقية والقطعة من الشيء . وقوله «من مثله» صفة سورة أي كائنة من مثله ، ومن للتبعيض أو التبيين وإضافة عبدنا للتنويه والتنبيه أنه مختص به . منقاد لحكمه ﴿ وَادْعُوا ﴾ لطلب العون والنصر على ذلك ﴿ شُهَدَاءَكُمْ ﴾ جمع شهيد : الحاضر أو القائم بالشهادة المراد آلهتهم التي يزعمون أنها تشهد لهم يوم القيامة أنهم على الحق ، أو من يشهد لهم أنهم أتوا مثل القرآن ﴿ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ أي غيره لتعينكم متعلق بادعوا أو بشهداءكم ومعنى « دون » في الأصل الانخفاض والقرب ؛ لأنه أخفض مكان من غيره . ومنه الشيء الدون ثم كثر استعماله للتفاوت في الأحوال والرتب « زيد دون عمرو » لمعنى التجاوز والتخطي لحد إلى آخر ، والمعنى : وادعوا للمعارضة من حضركم أو رجوتم معونته من إنسكم وجنكم وآلهتكم غير الله ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنه من كلام البشر ، وجواب « إن » محذوف دل عليه ما قبله . ولما عجزوا عن ذلك قال تعالى ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ ما ذكر فيما مضى لعجزكم ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ ذلك أبداً فيما يستقبل لظهور إعجازه : اعتراض بين الشرط وجوابه وهو ﴿ فَاتَّقُوا ﴾ بالإيمان بالله وأنه ليس من كلام البشر ﴿ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا ﴾ بالفتح ما توقد به النار ، وقرئ بالضم مصدراً أي سبب وقودها ﴿ النَّاسُ ﴾ الكفار ﴿ وَالْحِجَارَةُ ﴾ كأصنامهم منها أو هي حجارة الكبريت فهي أشد توقداً وأبطأ خموداً وألصق بالبدن يعني أنها مفرطة الحرارة تتقد بما ذكر لا كنار الدنيا تتقد بالحطب ونحوه ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ هيئت ﴿ لِلْكَافِرِينَ ﴾ يعذبون بها ، جملة مستأنفة أو حال لازمة . وفي الآية دليل على أنها مخلوقة ﴿ وَبَشِّرِ ﴾ أخبر ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ صدقوا بالله ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ من الفروض والنوافل ﴿ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ ﴾ حدائق ذات شجر ومساكن ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ﴾ أي تحت أشجارها وقصورها ﴿ الْأَنْهَارُ ﴾ أي المياه فيها والنهر الموضع المتسع الذي يجري فيه الماء ، لأن الماء ينهره أي يحفره ، وإسناد الجري إليه مجاز ، لكن في الحديث « أنهار الجنة تجري على سطح الأرض من غير أخدود » وجملة وبشر عطف على الجملة السابقة ، والمقصود عطف حال من آمن بالقرآن ووصف ثوابه على حال من كفر به . وكيفية عقابه على ما جرت به العادة الإلهية أن يشفع الترغيب بالترهيب تنشيطاً لاكتساب ما ينجي وتثبيطاً عن اقتراف ما يردي ، والبشارة : الخبر السار وإنما أمر الرسول عليه الصلاة

والسلام أو عالم كل عصر أو كل أحد يقدر على البشارة بأن يبشرهم ولم يخاطبهم بالبشارة كما خاطب الكفار إيذاناً بأنهم أحقاء بأن يبشروا وقرئ وبُشّر الذين آمنوا على البناء للمفعول عطفاً على أعدت . والصالحات : جمع صالحة من الصفات الغالبة التي تجرى مجرى الأسماء ، كالحسنة : ما سوغه الشرع من الأعمال والتأنيث على تأويل الخصلة واللام فيها للجنس ، وعطف العمل على الإيمان مرتباً للحكم عليها إشعاراً لأن السبب في استحقاق البشارة مجموع الأمرين ، وفيه دليل على أنها خارجة عن مسمى الإيمان إذ الأصل أن الشيء لا يعطف على نفسه ، والجنة المرة من الجن مصدر جنه إذا ستره سمى به الشجر ، لالتفاف أغصانه للمبالغة ، لأنه يستر ما تحته سترة واحدة : ثم البستان لما فيه من الأشجار المتكاثفة ثم سمى بها دار الثواب لما فيها من الجنان ، وجمعها وتنكيرها لكثرتها كما ورد أنها ثمانية أو سبع ، وفي كل واحدة منها مراتب متفاوتة على حسب تفاوت الأعمال والعمال ؛ واللام في « لهم » يدل على استحقاقهم إياها للإيمان والعمل بجعل الشارع ومقتضى وعده فضلا ، واللام في الأنهار للجنس أو للعهد ، والمعهود الأنهار المذكورة في قوله تعالى « أنهار من ماء ... الآية » والنهر بالفتح والسكون : المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر : وفي الحديث : قال عليه السلام : « إن أمتي يوم القيامة ثلثا أهل الجنة ؛ وفي الترمذي وابن ماجه « أهل الجنة عشرون ومائة صف : ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم » انتهى : وكني بهذا بشارة ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا ﴾ أطعموا ﴿ مِنْهَا ﴾ من تلك الجنات ﴿ مِنْ ثَمَرَةٍ ﴾ أي من أي ثمرة ﴿ رِزْقاً قَالُوا هَٰذَا الَّذِي ﴾ أي مثل ما ﴿ رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ أي قبله في الجنة لتشابه ثمارها أو في الدنيا : وجعل ثمر الجنة من جنس ثمر الدنيا لتميل النفس إليه أول ما يرى ؛ فإن الطباع مائلة إلى المألوف ﴿ وَأُتُوا بِهِ ﴾ أي بالمرزوق في الجنة أو في الدارين ﴿ مُتَشَابِهاً ﴾ يشبه بعضه بعضاً . لوناً وخلقة ويخالفه طعماً . أو متشابها في النبل والجودة : فلا يكون فيه ما يفضله غيره ، وجملة «كلما رزقوا» صفة ثانية لجنات أو مستأنفة لبيان أن ثمارها مثل ثمار الدنيا ؛ و«كلما» نصب على الظرف و«رزقا» مفعول به ، ومن الأولى والثانية للابتداء واقعتان موقع الحال ؛ والمعنى كل حين رزقوا مرزوقا مبتدأ من الجنات من ثمراتها : قيد الرزق بكونه مبتدأ من الجنات وابتداؤه منها بابتدائه من ثمرة : فصاحب الحال الأولى رزقا وصاحب الحال الثانية ضميره المستكن في الحال : حكي عن الحسن أن أحدهم يؤتى بالصحفة فيأكل منها ثم يؤتى بأخرى فيراها مثل الأولى : فيقول هذا الذي رزقنا من قبل : فيقول الملك : كل فاللون واحد والطعم مختلف ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ ﴾ من الحور وغيرها ﴿ مُطَهَّرَةٌ ﴾ من الحيض وكل قذر وسوء الخلق : فالتطهير يستعمل في الأجسام والأخلاق والأفعال وقرئ : مطهرات ، وهما لغتان فصيحتان : يقال : النساء فعلت وفعلن فالجمع على اللفظ والإفراد على تأويل الجماعة . ومطهرة أبلغ من طاهرة ومتطهرة : لأن المطهر هو الله . والزوج يقال للذكر والأنثى : وهو في الأصل لما له

قرين من جنسه ﴿ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ماكثون أبداً لايفنون ولايخرجون . والخلود فى الأصل الثبات المديد ، دام أو لم يدم ؛ ولذا قيل للأحجار خوالد . ولو كان وضعه للدوام لكان التقييد بالتأبيد فى قوله «خالدين فيها أبداً» لغواً لكن المراد به هنا الدوام لما يشهد له من الآيات والسنن . ولما تقدمت أنواع من التمثيل عقب ذلك ببيان حسنه وما هو الحق له والشرط فيه . وهو أن يكون على وفق الممثل له من الجهة التى تعلق بها التمثيل فى العظم والصغر والخسة والشرف دون الممثل ؛ فإن التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعنى الممثل له ، حتى يبرز فى صورة المحسوس . فقال رداً لقول اليهود ، لما ضرب الله المثل بالذباب فى قوله «وإن يسلبهم الذباب» ، والعنكبوت فى قوله «كمثل العنكبوت» ، ما أراد الله بذكر هذه الأشياء الخسيسة . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ﴾ أى لا يترك ترك من يستحي ﴿ أَن يَضْرِبَ ﴾ يجعل ﴿ مَثَلًا مَّا ﴾ أىّ مثل كان ﴿ بَعُوضَةً ﴾ مفرد البعوض وهو صغار البق ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ أكبر منها . والمعنى لايترك بيانه لما فيه من الحكم . ومثلا مفعول لأن يضرب . وأن بصلتها مخفوض المحل عند الخليل بإضمار من ، ومنصوب بإفضاء الفعل إليه بعد حذفها عند سيبويه . وما إبهامية نكرة تزيد النكرة قبلها إبهاماً كقولك أعطنى كتاباً ما ، أى أىّ كتاب كان . وبعوضة عطف بيان لـ «مثلا» ، ويحتمل أن «ما» زائدة لتأكيد الخسة . «وبعوضة» فعولة من البعض بمعنى القطع ، غلب على هذا النوع ، والحياء انقباض النفس عن القبيح مخافة الذم . وهو ضد الوقاحة التى هى الجرأة على القبائح من غير مبالاة ويخالف الخجل بأنه انحصار النفس عن الفعل مطلقاً . والمراد بالحياء عند الله لازمه الذى هو الترك . ومعنى «ما فوقها» إما مازاد عليها فى الجثة أى لايستحي ضرب المثل بالبعوض فضلا عما هو أكبر منه . أو فى المعنى الذى جعلت فيه مثلا وهو الصغر والحقارة كجناحها . فإنه عليه السلام ضرب به مثلا للدنيا ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ﴾ المثل ﴿ ٱلْحَقُّ ﴾ الثابتُ الواقع موقعه الذى لايسوغ إنكاره ﴿ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ وأما حرف تفصيل يفصل به ما أجمل ويؤكد به ماصدّر ويتضمن معنى الشرط . ولذلك يجاب بالفاء قال سيبويه : أما زيد فذاهب معناه مهما يكن من شىء فزيد ذاهب أى هو ذاهب لا محالة . انتهى . وفى تصدير الجملتين بأما مدح بليغ لأمر المؤمنين . وذم بليغ للكافرين على قولهم ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ تمييز ، أى : بهذا المثل ؟ و «ما» استفهام إنكار : مبتدأ و «ذا» بمعنى الذى بصلته : خبره ، ويحتمل أن تكون «ما» مع «ذا» اسما واحداً بمعنى : أى شىء ، منصوب المحل على المفعولية . والأحسن فى جوابه الرفع على الأول والنصب على الثانى ؛ ليطابق الجواب السؤال ؛ وإنما لم يقل : وأما الذين كفروا فلا يعلمون وعدل إلى فيقولون : لأن قولهم هذا يكون دليلا واضحاً على جهلهم ، إذ مرادهم : أى فائدة فيه ؟ قال تعالى فى جوابهم ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ ﴾ أى بهذا المثل ﴿ كَثِيرًا ﴾ عن الحق لكفرهم به ﴿ وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ من المؤمنين

لتصديقهم به ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ الخارجين عن طاعته فغلب الجهل على عقولهم وقابلوه بالإنكار ، وقد علموا أن الناس ما زالوا يضربون الأمثال بمثل ذلك ، يقولون : أعز من مخ البعوض ؛ وآكل من السوس . وأضعف من بعوضة ، وأجرأ من الذباب ، وجملة « ويضل به » جواب « ماذا » أى إضلال كثير وإهداء كثير : وضع الفعل موضع المصدر للإشعار بالحدوث والتجدد . وأصل الفسق : الخروج عن القصد ، والفاسق فى الشرع الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة : و « الفاسقين » منصوب بيضل ؛ لا بالاستثناء لأنه مفرغ ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ ﴾ ما عهده إليهم فى الكتب من الإيمان بمحمد أو عهده يوم الميثاق فى « ألست بربكم » والجملة صفة الفاسقين للذمّ ، وتقرير الفسق ، والنقض : فسخ التركيب ، وأصله فى طاقات الحبل ، واستعماله فى إبطال العهد من حيث أن العهد يستعار له الحبل لما فيه من ربط أحد المتعاهدين بالآخر ﴿ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ توكيده عليهم ، والميثاق : اسم لما يقع به الوثاقة وهى الإحكام . والمراد : ما وثق الله به عهده من الآيات والكتب . ويحتمل أن يكون بمعنى المصدر و « من » للابتداء ؛ فإن ابتداء النقض بعد الميثاق . قال عبد الرحمن الثعالبى : وكل عهد جائز بين المسلمين فنقضه لا يحل بهذه الآية ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ من الإيمان بالنبى صلى الله عليه وسلم والرحم وغير ذلك . و « أن » بدل من ضمير به فى محل جر بدل نكرة من معرفة ؛ أو نصب بدل اشتمال من « ما » أو رفع بتقديره : هو أن يوصل ، والأمر : هو القول الطالب للفعل ، قيل مع العلوّ وقيل مع الاستعلاء ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ بالمعاصى والتعويق عن الإيمان ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ المغبونون لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم بسبب استبدالهم النقض بالوفاء والقطع بالوصل ؛ والفساد بالصلاح ، وعقابها بثوابها . ولما وصفهم بالكفر وسوء المقال والفعال : خاطبهم على طريق الالتفات بالتوبيخ على الكفر ، مع علمهم بحالهم المقتضية خلاف ذلك ؛ فقال ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ ﴾ قد ﴿ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ نطفة فى الأصلاب أو أجساماً لا حياة لها فى الأرحام ﴿ فَأَحْيَاكُمْ ﴾ فى الأرحام بنفخ الروح فيكم والاستفهام للتعجب من كفرهم مع قيام البرهان أو للتوبيخ والمعنى أخبرونى على أى حال تكفرون ؟ وعطف فأحياكم بالفاء لاتصاله بما عطف عليه من غير تراخ بخلاف البواقى ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ بالبعث من القبور ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ تردون بعد الحشر فيجازيكم بأعمالكم وكيف محله نصب حال من الضمير فى تكفرون : أى معاندين تكفرون إنكار للحالة التى يقع عليها الكفر : فهو أبلغ من أتكفرون ؛ فإن قيل : إن علموا أنهم كانوا أمواتاً فأحياهم ثم يميتهم لم يعلموا أنه يحييهم ثم إليه يرجعون ؟ قلت : تمكنهم من العلم بهما بالدلائل منزل منزلة علمهم فى إزالة العذر . وقرأ يعقوب ترجعون بفتح التاء فى جميع القرآن ؛ ومعنى الرجوع هنا الصيرورة كقولهم الميت رجع إلى ربه ، وقولهم رجع أمرنا إلى فلان ؛ ولما بين

الله دلائل التوحيد والنبوة : والوعد على الإيمان والوعيد على الكفر كذلك : وأكد ذلك بعد النعم عليهم العامة والخاصة واستقباح صدور الكفر منهم معها : إذ عظام النعم يوجب عظم معصية المنعم، أشار إلى نعمة أخرى، إذ نعمه لا تحصى فقال ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى الأرض وما فيها ﴿جَمِيعاً﴾ حال من « ما » لتنتفعوا به فى دنياكم ودينكم بالنظر إلى ما فيه من العجائب الدالة على صانع قادر حكيم عليم . والتذكر بملاذها نعيم الآخرة ، وبمكارهها عذاب الآخرة . وهذه الآية بيان لنعمة أخرى ، وهى خلق ما يتوقف عليه بقاؤهم ويتم به معاشهم والتى قبلها لخلقهم وما بعده ، ومعنى لكم أى لأجلكم ، واستدل به على أن أصل الأشياء بعد البعثة الإباحة إلا لدليل الحظر ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى ﴾ قصد بعد خلق الأرض ﴿ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ اسم جنس مفرده سماءة ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ الضمير يرجع إلى السماء لأنها فى معنى الجمع الآيلة إليه ، أى صيرها كما فى آية أخرى فقضاهن ﴿ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ مجملا ومفصلا ، أفلا تعتبرون أن القادر على خلق ما ذكر ابتداء وهو أعظم منكم ، قادر على إعادتكم وقيل معنى سوّاهن ، عدلهن ، مصونة من العوج ، وحينئذ فسبع سموات بدل أو تمييز كقولهم رُبه رجلا ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ كلهم ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يخلفنى فى تنفيذ أحكامى فيها ، وهو آدم عليه السلام ونوابه من أبنائه من الأنبياء وورثتهم لأن كل نبى استخلفه الله فى عمارة الأرض وسياسة الناس ، والآية تعداد لنعمة ثالثة تعم الناس كلهم ، فإن خلق آدم وإكرامه ، وتفضيله على ملائكته بأن أمرهم بالسجود له إنعام يعم ذريته ، وإذ ظرف للماضى . منصوب باذكر مقدراً ، أو بما دلت عليه الآية المتقدمة مثل وبدأ خلقكم إذ قال : فالجملة حينئذ معطوفة على «خلق لكم» داخلة فى حكم الصلة . والملائكة جمع ملأك على الأصل ، والتاء لتأنيث الجمع وهو مقلوب مألك من الألوكة وهى الرسالة : لأنهم رسل الله إلى الناس . وهم أجسام لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة ، و « جاعل » بمعنى مصير متعد إلى مفعولين وهما : فى الأرض ، وخليفة . لأنه بمعنى الاستقبال معتمد على مسند إليه ، ويجوز أن يكون بمعنى خالق . والخليفة : من يخلف غيره وينوب منابه ، والهاء للمبالغة . وأخبر الملائكة ماذكر ليسألوا عن حكمة الاستخلاف فيعرفوه قبل كون الخليفة لتعظيمه وإظهار فضله الراجح على ما فيه من المفاسد كما يأتى ولتعليم العباد المشاورة ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بالمعاصى ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ يريقها بالقتل، عرفوا ذلك بإخبار من الله ، أو تلقٍّ من اللوح ، أو قياس على بنى الجانّ ، لأن الله لما خلق الأرض أسكن فيها الجن وأسكن فى السماء الملائكة ، فأفسدت الجن فى الأرض ، فبعث إليهم طائفة من الملائكة فطردتهم إلى جزائر البحار ورءوس الجبال وأقاموا مكانهم وأخبرهم الله أنه يريد أن يخلف آدم وبنيه فى الأرض ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ ملتبسين ﴿ بِحَمْدِكَ﴾ أى نقول : سبحان الله وبحمده ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ننزهك عما

لايليق بك : فاللام زائدة ، والجملة حال ، أى فنحن أحق بالاستخلاف . واعلم أن سؤالهم استكشاف عما خفى عليهم فى حكمته كسؤال المتعلم معلمه عما يختلج فى صدره ، وليس باعتراض على الله ولاطعن فى بنى آدم على وجه الغيبة فإنهم أعلى من أن يظنوا بذلك . والحاصل أنهم سألوا حكمة ترجيح بنى آدم على الملائكة المعصومين فى الاستخلاف ، ولذا أجابهم الله تعالى إجمالا بقوله ﴿قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَالَا تَعْلَمُونَ﴾ من المصلحة فى استخلاف آدم ، وأن ذريته فيهم المطيع والعاصى فيظهر العدل بينهم والفضل وفيه بيان أن الحكمة تقتضى إيجاد ما يغلب خيره ، فإن ترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير ، فخلق الله آدم من الأرض بأن قبض منها قبضة من جميع ألوانها وعجنت بالمياه المختلفة ، وسوّاه ونفخ فيه الروح فصار حيا مستعدا لإدراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات والمتخيلات والموهومات . وألهمه معرفة ذوات الأشياء وخواصها وأسماءها وأصول العلم وقوانين الصناعات وكيفية آلاتها . كما قال تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ﴾ بخلق العلم الضرورى له ﴿الْأَسْمَاءَ﴾ أى أسماء المسميات بأن أراه الأجناس التى خلقها وعلمه أن هذا مثلا فرس، وهذا بعير، وهكذا ﴿كُلَّهَا﴾ حتى القصعة والقصيعة بكل اللغات و «آدم» اسم أعجمى فطلبُ الاشتقاق فيه تعسف ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ أى المسميات ، وفيه تغليب العقلاء ﴿عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ والعرض إظهارك الشىء عرضا لتعرف حاله ﴿فَقَالَ﴾ تبكيتا لهم وتنبيها على عجزهم عن أمر الخلافة ، فإن التصرف والتدبير وإقامة العدل قبل تحقيق المعرفة محال ﴿أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ المسميات ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنكم أحق بالاستخلاف لعصمتكم . واستخلافهم لايليق بالحكيم ، وهذا وإن لم يصرحوا به فهو لازم مقالهم ، وجواب الشرط دل عليه ما قبله ﴿قَالُوا﴾ اعترافا بالعجز والقصور وإعلاما بأن سؤالهم استفسار لااعتراض وقد بان لهم ماخفى عليهم من فضل الإنسان والحكمة فى استخلافه وإظهارا لشكر نعمه بما أظهر لهم وكشف لهم ، ومراعاة للأدب بتفويض العلم كله إليه ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيها لك عن الاعتراض نصب على المصدرية بفعل واجب الحذف ولايكاد يستعمل إلا مضافا ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ إياه وليس فيه علم الأسماء ، وما : فى كل رفع بدل من موضع «لاعلم» والعلم بمعنى المعلوم ﴿إِنَّكَ أَنْتَ﴾ تأكيد للكاف ﴿الْعَلِيمُ﴾ غير المعلم ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما قضى ، الذى لايخرج شىء عن علمه وحكمته ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ﴾ أى الملائكة ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أى المسميات فسمى كل شىء باسمه وذكر حكمته التى خلق لها «وأنبأهم» بمعنى أعلمهم قرئ بقلب الهمزة وحذفها بكسر الهاء فيهما ولكن قراءتنا بالإسكان والتحقيق ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ﴾ تعالى توبيخا لهم واستحضارا لقوله «أعلم مالاتعلمون» ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ما غاب فيهما مما كان وما يكون وفيه تعريض بمعاتبتهم على ترك الأولى وهو أن يتوقفوا عن السؤال إلى أن يبين لهم ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ تظهرون من قولكم «أتجعل فيها» إلى آخره ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ من أنكم أحق بالخلافة أو أنه تعالى

لا يخلق أفضل منكم ولا أعلم وهذه الآيات تدل على شرف الإنسان ، ومزية العلم وفضله على العبادة وأنه شرط فى الخلافة وأن العلم يصح أن ينال من الله من غير معلم آخر ، وأن اللغات توقيفية ، فإن الأسماء تدل على الألفاظ بخصوص أو عموم ، وتعليمها تبيين معانيها وذلك يستدعى سبق وضع والأصل أن لا يكون من غير الله فيكون من الله وأن مفهوم الحكمة زائد على مفهوم العلم ، لذكر الحكيم بعد العليم ، وأن علوم الملائكة وكمالاتهم تقبل الزيادة ، وأن آدم عليه السلام أفضل من الملائكة ، لأنه أعلم منهم ، وأنه تعالى يعلم الأشياء قبل حدوثها . ذكر كل ذلك البيضاوى ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ كلهم ﴿ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ سجود تحية بالانحناء ، أو سجود عبادة لله إلى آدم تكرمة له كالصلاة إلى الكعبة اعترافاً بفضله ، واتفقت الأمة أن السجود لم يكن لآدم سجود عبادة بل إما كسلام الأعاجم بالانحناء أو وضعه قبلة كالسجود للكعبة وهو الأقوى وقد نسخ الله جميع ذلك . وقوله « وإذ قلنا » معطوف على إذ المتقدمة وخطابه تعالى الملائكة بالسجود متقرر قديم فى الأزل بشرط وجودهم وفهمهم وهكذا جميع أوامر الله تعالى ونواهيه ومخاطباته . والقصة بأسرها نعمة رابعة ، وأصل السجود التذلل وهو فى الشرع وضع الجبهة على قصد العبادة ، وقيل إنما أمروا بجعل آدم قبلة تفخيما لشأنه لكونه أنموذجا للموجودات كلها ونسخة لما فى العالم الروحانى والجسمانى وذريعة لهم إلى كمالاتهم ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ اسمه عزازيل ويكنى أبا الحارث وهو أبو الجن استثناء متصل إن كان من الملائكة ومنقطع إن لم يكن منهم ولم ينصرف لعجمته وتعريفه . قال الجاحظ : إن الجن والملائكة جنس واحد فمن طهر منهم فهو ملك ومن خبث منهم فهو شيطان ، ومن كان بين بين فهو جن . قاله النسفى فى مدارك التنزيل وقوله تعالى ﴿ أَبَىٰ ﴾ أى امتنع من السجود ﴿ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ عن أن يتخذه وصلة فى عبادة ربه ، محله نصب على الحال ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ فى علم الله أو برده الأمر لا بترك العمل به ، وفى الآية استقباح الاستكبار وأنه قد يفضى بصاحبه إلى الكفر . وفيها الحث على الائتمار بالأمر وترك الخوض فى سره وأن الأمر للوجوب . وأن الأعمال بالخواتم ولما كان آدم فى الجنة بلا مؤنس خلقت حواء من ضلعه الأيسر وهو نائم فاستيقظ فقال : من أنت ؟ فقالت : زوجتك ، أسكن إليك وتسكن إلى . قال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ ﴾ تأكيد للضمير المستتر ، ليعطف عليه ﴿ وَزَوْجُكَ ﴾ حواء بالمد ﴿ الْجَنَّةَ ﴾ أى جنة الخلد وهى فى السماء السابعة ومعنى « اسكن » لازم الإقامة ، والأمر للإذن ﴿ وَكُلَا مِنْهَا ﴾ من ثمارها ﴿ رَغَدًا ﴾ أى أكلا واسعاً طيباً لا حجر فيه صفة مصدر محذوف ﴿ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ من أى مكان من الجنة لا تضييق عليكما : وسع عليهما إزاحة للعذر فى التناول من الشجرة المنهىّ عنها من بين أشجارها الفائتة للحصر . وقال : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ بالأكل منها وهى الحنطة أو الكرم أو التين أو غيرها ﴿ فَتَكُونَا ﴾ مجزوم عطفاً على « تقربا » أو منصوب جوابا للنهى أى تصيرا ﴿ مِنَ الظَّٰلِمِينَ ﴾ العاصين الضارين أنفسهما لمخالفتى . وأصل الظلم : وضع الشىء فى غير محله ، وفى قوله « ولا تقربا » إلى آخره

مبالغات تعليق النهي بالقرب الذي هو من مقدمات التناول مبالغة في تحريمه ووجوب الاجتناب عنه وتنبيهاً على أن القرب من الشيء يؤدي إلى الوقوع فيه وهو من قربه كسمعه وأما قرب منه : دنا ؛ فهو لازم ككرم . ولم يذكر في القاموس قرب على وزن فعل بالفتح إلا قرب الإبل، ونحوها سارت ليلا لطلب الماء كنصر وكثيراً ما أرى في شروح الحديث كالقسطلاني وغيره يقربه بضم الراء . ولا أدرى هل هو من تداخل اللغات أو له مادة كنصر والله أعلم . وفيه أن الوقوع في المنهي يصير المرء ظالماً ؛ لأن الفاء تفيد السببية ، سواء جعلته للعطف على النهي أو الجواب له ولما سكنا الجنة وأحباها حسدهما الشيطان لما طرد بسببهما في قوله « اخرج منها فإنك رجيم » ثم وصل إليهما ابتلاء لهما ، والله أعلم كيف وصل ، قيل : إنما منع الدخول في الجنة على وجه التكرمة لا على الوسوسة، وقيل : قام بالباب متنكراً وناح نياحة أحزنتهما وهو أول من ناح ، فقالا : ما يبكيك ؟ قال : أبكى عليكما تموتان فتفارقان نعيم الجنة ، فاهتما لذلك ، ثم قال لآدم « يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد » وقاسمهما بالله أنه ناصح لهما فأكلا منها ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَٰنُ﴾ إبليس أذهبهما وقرأ حمزة « فأزالهما » نحاهما ﴿عَنْهَا﴾ عن الجنة بغروره ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من النعم والكرامة ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ إلى الأرض أي أنتما بما اشتملتما عليه من ذريتكما أو هما وإبليس ﴿بَعْضُكُمْ﴾ بعض الذرية ﴿لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ من ظلم بعضكم بعضاً ، أو معنى العداوة التي بين المؤمنين وإبليس ، والجملة حال من ضمير . اهبطوا : استغنى فيها عن الواو بالضمير ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع قرار على وجهها أو في القبور أو قرار ﴿وَمَتَاعٌ﴾ أي بلغة تتمتعون بها من نباتها وغيره ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ وقت انقضاء آجالكم بالموت أو إلى يوم القيامة ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ﴾ فاعل تلقى أي أخذ ﴿مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ مفعول « تلقى » أي ألهمه إياها، وفي قراءة لابن كثير بنصب « آدم » ورفع « كلمات » أي جاءته وهي « ربنا ظلمنا أنفسنا » الآية، فدعا بها ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ قبل توبته وامرأته تابعة له ، وأصل التوب : الرجوع ، والمراد الرجوع عن الأحوال المذمومة إلى المحمودة بالاعتراف بالذنب والندم عليه والعزم على أن لا يعود إليه ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ كثير التوب على عباده الذي يقبل التوبة مرة بعد مرة وإن كثرت ، ولا يقال لغير الله التواب ﴿الرَّحِيمُ﴾ المبالغ في الرحمة بهم ، وفي الجمع بين الوصفين : وعدٌ للتائب بالإحسان مع العفو ، واعلم أن أكل آدم وحواء من الشجرة لم يكن بقصد المخالفة لأمر الله واستحلال لها ، ولكنهما اغترا بحلف إبليس وظنا أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً فنسيا العهد بغروره ، فأكلا ـ والمؤمن يخدع ـ ثم تاب الله عليهما ؛ وقد تولى القاضي عياض بيان ذلك في الشفاء، والله أعلم ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا﴾ من الجنة ﴿جَمِيعًا﴾ حال لفظاً تأكيد معنى ، وكرر الهبوط للتأكيد لشدة العناية بإزالهم أو لاختلاف المقصود ؛ فالهبوط الأول من الجنة إلى السماء الدنيا والثاني من السماء الدنيا إلى الأرض ، : فأهبط آدم بسرنديب بالهند ، وحواء بجدة : وإبليس بالأبلة ؛ والحية بأصبهان ، أو ليعطف عليه ﴿فَإِمَّا﴾ فيه إدغام نون إن الشرطية في ما المزيدة لتأكيد

إن ، ولذا حسن تأكيد الفعل بالنون وإن لم يكن فيه معنى الطلب ﴿ يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾ بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿ فَمَنْ ﴾ شرط مرتفع محلا مبتدأ خبره ﴿ تَبِعَ هُدَايَ ﴾ فآمن بي وعمل بطاعتي ، وجواب الشرط الثاني ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ في المستقبل ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ في الآخرة أو على ما خلفوا ، والشرط الثاني مع جوابه جواب الشرط الأول ، وكرر لفظ الهدى ولم يضمر لأنه أراد بالثاني أعم من الأول وهو ما أتى به الرسل ، والثاني ما أتاه واقتضاه العقل : فالخوف على المتوقع والحزن على الواقع نفى عنهم العقاب وأثبت لهم الثواب على آكد وجه وأبلغه ، ولما وعد المؤمنين أوعد الكافرين فقال عاطفاً على « فمن تبع » إلى آخره قسيما له وهو ﴿ وَالَّذِينَ ﴾ لم يتبعوا هداي بل ﴿ كَفَرُوا ﴾ بآياتنا في قلوبهم ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ بألسنتهم ، والآية في الأصل : العلامة الظاهرة ، وفي العرف : طائفة من كلمات القرآن تميزت عن غيرها بفصل ، والمراد بها الآيات المنزلة أو ما يعمها ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ لا مقر لهم سواها فصاروا أصحابها ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ماكثون فيها أبدا لا يفنون ولا يخرجون : فيه دليل على أن الكافر مخلد في النار وأن غيره لا يخلد فيها بمفهوم قوله « هم فيها خالدون » ، ولما ذكر الله دلائل التوحيد والنبوة والمعاد وعدد النعم العامة على جميع الناس تقريراً لها : خاطب أهل الكتاب والعلم خصوصاً بتذكير نعم خاصة بهم ليذكروها ويوفوا بعهده في اتباع الحق ويكونوا أول من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه فقال ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أولاد يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، وإسرائيل : لقب له معناه بالعبرانية : صفوة الله ، وقيل : عبد الله ، وذكر لقبه ليتذكروا معناه فيقتدوا به في العبودية وتصفية الأعمال لله ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ بتعليم ما لا يعلم غيركم وإدراك زمن النبي صلى الله عليه وسلم أو على آبائكم من الإنجاء من فرعون وفلق البحر وتظليل الغمام وغير ذلك بأن تشكروها بطاعتي ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي ﴾ باجتناب النواهي وامتثال الأوامر ومنه الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم . يقال أوفيت بالشيء إذا بالغت في إتمامه ، أو هو ضد الغدر . والعهد : الاحتفاظ بالشيء حالا بعد حال ﴿ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ الذي عهدته إليكم من الثواب عليه بدخول الجنة والعهد يضاف إلى المعاهد والمعاهد ، ولعل الأول مضاف إلى الفاعل والثاني إلى المفعول ، والظاهر أن كليهما مضاف إلى المفعول ، والمعنى : أوفوا بما عاهدتموني من الإيمان والطاعة أوف بما عاهدتكم من حسن الإثابة ﴿ وَإِيَّايَ ﴾ ارهبوا إن كنتم راهبين شيئا ﴿ فَارْهَبُونِ ﴾ خافوني في ترك الوفاء وغيره دون غيري ، وناصب « إياي » محذوف دل عليه « فارهبون » ، لأنه قد أخذ مفعوله وهي الياء المحذوفة وهو آكد في إفادته التخصيص من « إياك نعبد » ، لما فيه مع التقديم من تكرير المفعول والفاء الجزائية الدالة على تضمين الكلام معنى الشرط كما قررنا أولا ، والرهبة : خوف معه تحرز ، والآية متضمنة للوعد والوعيد دالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد وأن المؤمن ينبغي أن لا يخاف أحداً إلا الله تعالى ، ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ ﴾ من القرآن حال كونه ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ﴾ من التوراة في التوحيد والنبوة

والقصص والمواعيد والعدل بين الناس والنهى عن المعاصى والفواحش ومعكم : نصب على الظرفية والعامل فيه الاستقرار ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ﴾ حزب أو فريق ﴿كَافِرٍ بِهِ﴾ من أهل الكتاب لأن من خلفكم تبع لكم فإثمهم عليكم ، بل يجب أن تكونوا أول مؤمن به لمعرفتكم به ، والضمير فى « به » عائد على محمد صلى الله عليه وسلم وقيل على القرآن ، وقيل على التوراة لأن صفة محمد وكثيراً مما يقول فيها ، فمن كذبه كذب التوراة وأول ضد الآخر وزنه أفعل فاؤه وعينه واوان عند سيبويه ولم يتصرف منها فعل لاعتلال فائه وعينه وقال الكوفيون أصله « أوأل » من وأل : نجا ، أبدل الهمزة الثانية واواً مفتوحة وأدغم الأولى فيها ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ تستبدلوا ﴿بِآيَاتِي﴾ التى فى كتابكم من نعت محمد صلى الله عليه وسلم أو بالقرآن والإيمان بالجائى به ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عوضا يسيرا من الدنيا أى لا تكتموها خوف فوات ما تنالونه من سفلتكم من الرياسة والمال أو من الرشا التى يحرفون الحق ويكتمونه بها وعبّر عنها بالثمن موافقة للفظ اشتروا ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ خافونى فى ذلك دون غيرى ، وإعرابه كما تقدم ، أى : فاتقونى بالإيمان واتباع الحق والإعراض عن الدنيا . ولما كانت الآية السابقة مشتملة على ما هو كالمبادئ لما فى الآية الثانية فصّلت بالرهبة التى هى مقدمة التقوى ، والخطاب بها لما عم العالم والمقلد : أمرهم بالسلوك ، والخطاب بالثانية لما خصّ أهل العلم : أمرهم بالتقوى التى هى منتهاه ، ثم عطف على ما تقدم قوله ﴿وَلَا تَلْبِسُوا﴾ تخلطوا ﴿الْحَقَّ﴾ الذى أنزلته عليكم ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الذى تغيرونه وتخترعونه وتكتبونه حتى لا يميز بينهما أو لا تجعلوا الحق ملتبسا بسبب خلط الباطل الذى تكتبونه فى خلاله أو تقولونه : فالباء للاستعانة أو السببية . قال أبو العالية : تقول اليهود : محمد نبيّ مبعوث . لكن إلى العرب لا إلينا ، فإقرارهم ببعثه حق ، وقولهم لا إلينا : باطل . انتهى ﴿وَ﴾ لا ﴿تَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ نعت محمد فى التوراة بقولكم : لا نجد فى التوراة صفة محمد ، وتكتموا : مجزوم معطوف على تلبسوا ، أو منصوب جوابا للنهى بإضمار أن ، والواو للجمع . المعنى لا تجمعوا بين لبس الحق بالباطل وبين كتمان الحق ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق وأنكم لابسون كاتمون فإنه أقبح : فإن الجاهل قد يعذر . ولما أمرهم بأصول الإسلام . أمرهم بفروعه فقال عاطفا على ما تقدم : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أى صلاة المسلمين وزكاتهم ، فإن غيرهما كلا صلاة ولا زكاة ، والزكاة من زكا الزرع نما : لأن إخراجها يستجلب البركة فى المال أو من الزكاة : الطهارة ، لأنها تطهر المال وصاحبه من الخبث والبخل ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ محمد وأصحابه : لأن اليهود لا ركوع فى صلاتهم . أى : أسلموا واعملوا عمل الإسلام ، أو خص الركوع لأنه أثقل عليهم فى الجاهلية . ونزل فى أحبار المدينة وكانوا يأمرون سرا من نصحوه من أقربائهم وأصدقائهم باتباع محمد ولا يتبعونه ويأمرون بالصدقة ولا يتصدقون وإذا أتوا بالصدقات ليفرقوها خانوا فيها ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ المعروف : إيمان بمحمد وغيره ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ تتركونها فلا تأمرونها به ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾

توبيخ وتبكيت ، أى التوراة وفيها الوعيد على مخالفة القول العمل وعلى الخيانة وترك البر ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ سوء فعلكم فترجعون . فجملة النسيان محل الاستفهام الإنكارى أى التوبيخ على ترك العمل لا على الأمر به لأن الأمر بالحسن حسن وإن لم تعمل به ، لكن قلما نفعت موعظة من لم يعظ نفسه ، والبر : التوسع فى الخير بجمع جميع الطاعات ولذا قيل فى ثلاثة فى عبادة الله ، ومراعاة الأقارب ، ومعاملة الأجانب . والنسيان : السهو ، وأصله الترك ، إلا أن السهو يكون لما علمه الإنسان ولما لم يعلمه ، والنسيان ما عزب بعد حضوره وقيل بالعكس ، وفى الآية : الأمر بشهود صلاة الجماعة . ولما أمرهم بما يشق عليهم من ترك الرياسة والإعراض عن المال ، عالجهم بقوله : ﴿وَٱسْتَعِينُوا﴾ على أموركم وحوائجكم ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ الحبس للنفس على ما تكره ومنه التوكل على الله فى انتظار النجح والفرج ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ بأن تصلوها صابرين على ما يجب فيها من الإخلاص ودفع الوسواس ورعى الخشوع واستحضار علم القيام بين يدى الله . أفردها بالذكر تعظيا لشأنها وجمعها أنواع العبادات النفسانية والمالية من الطهارة وستر العورة وصرف المال فيهما والتوجه إلى الكعبة والعكوف للعبادة وإظهار الخشوع بالجوارح وإخلاص النية بالقلب ومجاهدة الشيطان ومناجاة الحق وقراءة القرآن والتكلم بالشهادتين وكف النفس عن الأطيبين . وفى الحديث أنه عليه السلام كان إذا حزبه أمرٌ بادر إلى الصلاة . ويجوز أن يراد بها الدعاء ، وقيل : الخطاب لليهود لما عاقهم عن الإيمان الشره وحب الرياسة أمروا بالصبر وهو الصوم لأنه يكسر الشهوة ، والصلاة لأنها تورث الخشوع وتنفى الكبر ﴿وَإِنَّهَا﴾ الصلاة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ ثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ الساكنين إلى الطاعة فتهون عليهم لتوقع ما اذخر لهم . والخشوع : هيئة فى النفس يظهر منها على الجوارح سكون وتواضع ، والخشوع يظهر فى الجوارح ، كما أن الخضوع وهو اللين والانقياد يكون فى القلب ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ يوقنون ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ﴾ بالبعث أو يتوقعون لقاءالله ونيل ما عنده ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ فى الآخرة فيجازيهم بأعمالهم ، فلذلك ارتاضوا بها وبغيرها حتى أن منهم من يستلذ بها . قال عليه السلام «وجعلت قرة عينى فى الصلاة» ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ بالشكر عليها بطاعتى ، كرر نداءهم تأكيدا وتذكيراً التفضيل الذى هو أجل النعم خصوصا وربطه بالوعيد الشديد تخويفا لمن غفل عنها وأخلّ بحقوقها ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ﴾ أى آباءكم : عطف على «نعمتى» أى اذكروا نعمتى وتفضيلى إياكم ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عالمى زمانكم ﴿وَٱتَّقُوا﴾ خافوا ﴿يَوْمًا﴾ أى ما فيه من الحساب والعذاب ﴿لَّا تَجْزِى﴾ أى لا تقضى فيه ﴿نَفْسٌ﴾ مؤمنة ﴿عَن نَّفْسٍ﴾ كافرة ﴿شَيْـًٔا﴾ من الحقوق التى لزمتها أو شيئاً من الجزاء ، فيكون نصبه على المصدر وإيراده منكراً مع تنكير النفس للتعميم والإقناط الكلى ، والجملة صفة ليوما ، والعائد محذوف أى فيه ﴿وَلَا يُقْبَلُ﴾ بالياء للجمهور والتاء لابن كثير وأبى عمرو ﴿مِنْهَا﴾ من المؤمنة ﴿شَفَٰعَةٌ﴾ للكافرة أى ليس لها شفاعة

متقبل ، فما لنا من شافعين ، وهو رد لقول اليهود إن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا ﴾ من الكافرة ﴿ عَدْلٌ ﴾ فداء يعدل المفدى ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ لا يمنعون من عذاب الله تعالى ، والضمير لما دلت عليه النفس الثانية المنكرة الواقعة فى سياق النفى من النفوس الكثيرة وتذكيره بمعنى العباد والأناسىّ والنصرة أخص من المعونة لاختصاصها بدفع الضير والآية فى الكفار فلا دلالة فيها على نفى الشفاعة لأهل الكبائر كما قالت المعتزلة للأحاديث المتواترة التى تردهم ، ثم فصل ما أجمله فى قوله « اذكروا نعمتى » عاطفاً عليه عطف الخاص على العام قوله ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم ﴾ آباءكم ، والخطاب به وبما بعده للموجودين فى زمن نبينا بما أنعم على آبائهم تذكيراً لهم بنعمة الله ليؤمنوا ﴿ مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ أهله وأتباعه وأصل آل : أهل ، أو أول ، وهو مختص بذوى الأقدار . وفرعون : لقب لكل من ملك من العمالقة بمصر ولعتوّهم اشتق منه : تفرعن الرجل ، إذا عتى وتجبر ، وفرعون موسى : مصعب بن ريان أو ابنه وليد من بقايا عاد ، روى أنه من أهل اصطخر ، ورد مصر فاتفق له فيها الملك ﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾ يولونكم ، من سامه خسفاً إذا ولاه ظلماً ، وأصل السوم الذهاب فى طلب الشىء كأنه قال يبغونكم ويذيقونكم ﴿ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ أشده وأقبحه ، والجملة حال من ضمير نجيناكم ، والسوء مصدر ساء يسوء ، ونصبه على المفعول الثانى ليسومونكم ، والأول « كم » ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ المولودين بيان لما قبله ، وأصل الذبح الشق ، والتشديد للتكثير ، وقرئ بالتخفيف ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ ﴾ يستبقون ﴿ نِسَآءَكُمْ ﴾ لقول بعض الكهنة له : إن مولوداً يولد فى بنى إسرائيل يكون سبباً لذهاب ملكك . وفى الأعراف يقتلون تنويعاً وتفنناً فأمر بقتلهم سنة وتركهم سنة ، فولد هارون فى سنة لا قتل فيها ، وموسى فى سنة القتل ﴿ وَفِى ذَٰلِكُم ﴾ العذاب من فرعون أو الإنجاء من الله ﴿ بَلَآءٌ ﴾ ابتلاء على الأول ، أو إنعام على الثانى ؛ لأن البلاء يراد بالشدة والنعمة ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ بتسليطهم أو ببعث موسى ﴿ عَظِيمٌ ﴾ صفة بلاء ، وفى الآية تنبيه على أن ما يصيب العبد من خير أو شر اختبار من الله تعالى ، فعليه الشكر على ما سرّ والصبر على ما ضرّ ﴿ وَ ﴾ اذكروا ﴿ إِذْ فَرَقْنَا ﴾ فلقنا ﴿ بِكُمُ ﴾ بسببكم حال ، وقرئ فرّقنا بالتشديد للتكثير ﴿ ٱلْبَحْرَ ﴾ بحر القلزم حتى صارت فيه مسالك اثنى عشر على عدد الأسباط فدخلتموه هاربين من عدوكم ﴿ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ ﴾ من الغرق ﴿ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ قومه معه ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ إلى انطباق البحر عليهم ﴿ وَ ﴾ اذكروا أيضاً ﴿ إِذْ وَٰعَدْنَا ﴾ بألف للجمهور ودونها لأبى عمرو البصرى فى جميع القرآن ﴿ مُوسَىٰٓ ﴾ اسم أعجمى ، مفعول أول لواعدنا ؛ والثانى ﴿ أَرْبَعِينَ ﴾ أى تمامها وليس ظرفاً ، إذ ليس معناه نعطيه فى أربعين ﴿ لَيْلَةً ﴾ نعطيه عند انقضائها التوراة لتعملوا بها : إذ الوعد كان بعد رجوع بنى إسرائيل مع موسى إلى مصر بعد هلاك فرعون وليس لهم كتاب ينتهون إليه فى الشريعة ، وعد الله موسى إعطاء التوراة وضرب لهم ميقاتاً ذا القعدة وعشر ذى الحجة فذهب إلى الطور ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ الذى صاغه لكم السامرى إلهاً ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ بعد ذهابه إلى ميعادنا ﴿ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴾

باتخاذه لوضعكم العبادة فى غير محلها ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ محونا ذنوبكم حين تبتم ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الاتخاذ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمتنا عليكم ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾ عطف تفسير أى الفارق بين الحق والباطل، والحلال والحرام، وقيل: المراد به معجزاته الفارقة بين الحق والباطل ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ به من الضلالة بالتدبر فيه والتفكر ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ الذين عبدوا العجل ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً ﴿فَتُوبُوٓا۟﴾ ارجعوا ﴿إِلَىٰ﴾ عبادة ﴿بَارِئِكُمْ﴾ خالقكم لعبادته كأنهم قالوا: كيف نرجع؟ قال ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أى ليقتل البرىء من عبادة العجل منكم المجرم بعبادته، وقيل: فاقتلوا أنفسكم بقطعها عن الشهوات كما قيل: من لم يعذب نفسه لا ينعمها، ومن لم يقتلها لا يحييها ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ القتل ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ فوفقكم لفعل ذلك وأرسل عليكم سحابة سوداء لئلا يبصر بعضكم بعضاً فيرحمه، إذ جعل الذين عبدوا العجل صفاً وأخذ الذين لم يعبدوه السلاح فقتلوهم حتى قتل منكم نحو سبعين ألفاً ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قبل توبتكم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ المتفضل بقبول التوبة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعفو الحوبة. والفاء الأولى من قوله «فتوبوا» للتسبب، لأن الظلم سبب التوبة، والثانية للتعقيب أى اعزموا على التوبة فاقتلوا، والثالثة متعلقة بشرط محذوف أى إن فعلتم ذلك فقد تاب عليكم ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ وقد خرجتم مع موسى وأنتم سبعون أو أقل لتعتذروا إلى الله من عبادة العجل وسمعتم كلامه ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ لأجل قولك، أو لن نقر لك أن الله كلمك ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ عياناً لا ساتر بيننا وبينه، ونصبها على المصدر لأنها نوع من الرؤية أو على الحال من الفاعل أو المفعول وقرئ بفتح الهاء مصدر كغلبة أو جمع جاهر حال ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ الصيحة لفرط العناد والتعنت وطلب المستحيل فمتم ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ إلى ما حل بكم فكنتم ميتين يوماً وليلة وموسى يدعو ويقول: أى رب كيف أرجع إلى بنى إسرائيل دونهم وهم خيارهم ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم﴾ أحييناكم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ لتستوفوا آجالكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمتنا بذلك الإحياء وقبول التوبة ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ سترناكم بالسحاب الرقيق من حر الشمس فى التيه ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ﴾ فى التيه ﴿ٱلْمَنَّ﴾ الترنجبين أو شيئاً يشبهه حلو الطعم ينزل عليهم مثل الثلج من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لكل إنسان صاع ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ هو طير السمانى بتخفيف الميم والقصر ـ كحبارى ـ نوع من الطير أو السلوى طائر يشبه السمانى يبعث الله عليهم الجنوب فيحشر عليهم السلوى فيذبح الرجل منها ما يكفيه، وكان كل إنسان يأخذ من النوعين كفايته إلى الغد إلا يوم الجمعة يأخذ ليومين لأنه لم يكن ينزل يوم السبت وينزل عليهم بالليل عمود نار يسيرون فى ضوئه، وكانت ثيابهم لا تتسخ ولا تبلى ببركة موسى عليه السلام. وفى البخارى من حديث سعيد بن زيد رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين». قال القسطلانى «الكمأة» بفتح الكاف وسكون الميم والهمزة المفتوحة: شىء ينبت بنفسه من غير استنبات: أحمر، وماؤها شفاء

للعين إذا رُبي بها الكحل والتوتية وغيرهما مما يكتحل به، لا مفردة . وقال النووى : الصواب أن يجرد ماثها شفاء مطلقاً لأنها من الحلال الذى ليس فى اكتسابه شبهة فأصله من المن الذى أنزل على بنى إسرائيل ، والله أعلم ، وقال عبد الرحمن الثعالبي : المن صمغة حلوة ، هذا قول فرقة ، وقيل هو عسل ، وقيل هو الذى ينزل اليوم على الشجر . اهـ . وقلنا ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ولا تدخروا ، فظلموا بأن كفروا هذه النعم وادخروا فقطع عنهم ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بذلك ﴿وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لأن ضرره عليهم ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ لهم بعد خروجهم من التيه ﴿ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ بيت المقدس أو ـ أريحاء ـ كزليخاء وكربلاء : قرية بالشام ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ من طعامها وثمارها ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ واسعاً طيباً لا حجر فيه ، ونصبه على المصدر أو الحال من الواو أى أكلا واسعاً أو موسعين ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾ أى بابها ﴿سُجَّدًا﴾ منحنين شكراً لله على الدخول والإخراج من التيه ﴿وَقُولُوا﴾ فى السجود مسألتنا ﴿حِطَّةٌ﴾ أن تحط عنا خطايانا ، أو أمرنا حطة أى أن نحط فى هذه القرية ونستقر بها ، وهى فعلة من الحط مرفوع خبر مبتدأ محذوف ، وقرئ بالنصب على الأصل بمعنى حط عنا ذنوبنا حطة ، أو على أنه مفعول : قولوا ، أى هذه الكلمة . وقال القسطلانى : سجداً : حال من فاعل ادخلوا جمع ساجد ، أى متطامنين منحنين شكراً لله على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر ورد بلدهم إليهم وإنقاذهم من التيه . وعن ابن عباس فيما رواه ابن جرير : سجداً ركعاً ، وعن بعضهم : المراد به الخضوع لتعذر حمله على حقيقته . وقولوا حطة : قيل أمروا أن يقولوها على هذه الكيفية بالرفع على الحكاية . اهـ . ﴿يُغْفَرْ لَكُمْ﴾ بالياء لنافع ، وبالتاء لابن عامر مبنياً للمفعول فيهما ، ولغيرهما بالنون ﴿خَطَايَاكُمْ﴾ بسجودكم ودعائكم ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالطاعة ثواباً ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ منهم بالذى قيل لهم من التوبة والاستغفار ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ من طلب ما يشتهونه من أغراض الدنيا فقالوا : حبة فى شعرة ، يعنون حنطة حمراء ، ودخلوا يزحفون على أستاههم أى أوراكهم ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فيه وضع الظاهر موضع المضمر مبالغة فى تقبيح أمرهم وإشعاراً بأن الإنزال عليهم لظلمهم ﴿رِجْزًا﴾ عذاباً طاعوناً مقترناً ﴿مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم أى خروجهم عن الطاعة فهلك منهم فى ساعة سبعون ألفاً أو أربع وعشرون ألفاً ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ﴾ طلب السقيا ﴿لِقَوْمِهِ﴾ وقد عطشوا فى التيه ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ﴾ التى حملها آدم من الجنة وتوارثها الأنبياء إلى أن وصلت إليك واسمها نبعة طولها عشرة أذرع كطولك من عليق الجنة ﴿الْحَجَرَ﴾ فأل فيه للعهد على ما روى أنه حجر طورى حمله معه له أربعة أوجه تنبع من كل وجه ثلاث أعين تسيل كل عين فى جدول إلى سبط وكانوا ستمائة ألف وسعة العسكر اثنا عشر ميلا ، أو حجر أهبطه آدم من الجنة ووقع لشعيب فأعطاه موسى مع العصا ، أو هو الحجر الذى فر بثوبه لما وضعه عليه ليغتسل وبرأه الله به عما رماه بنو إسرائيل به من الأدرة فأشار إليه جبريل بحمله وهو خفيف مربع قدره ذراع

فى ذراع رخام أو كَذَّانٌ ، والرخام ـ كغراب ـ الأبيض الرخو من الحجارة . والكذان ـ بذال معجمة ـ قال فى القاموس : ككتان : حجارة رخوة كالمدر ، والكذكذة : حمرة شديدة ، وكذّ : خشن . اه . وقيل : أل الجنس قال البيضاوى : وهذا أظهرُ فى الحجة . اه . فضربه ﴿فَانفَجَرَتْ﴾ انشقت وسالت ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ بعدد الأسباط ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ سبط منهم ﴿مَشْرَبَهُمْ﴾ موضع شربهم فلا يشركهم فيه غيرهم وقلنا لهم ﴿كُلُوا﴾ من المن والسلوى ﴿وَاشْرَبُوا﴾ من ماء العين ﴿مِن رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة لعاملها ، من عثى ـ بكسر المثلثة ـ أفسد . واعلم أن هذه القصص لبنى إسرائيل لما سيقت فى البقرة لتذكير النعم ناسبت فيها نسبة القول فى « وإذ قلنا ادخلوا » إلى الله تعالى ، وناسب ذكر « رغداً » و « فانفجرت » لأنه أبلغ من « انبجست » ، وتقديم « ادخلوا الباب سجداً » و « يغفر لكم » و « خطاياكم » لأنه جمع كثرة والواو فى « وسنزيد » الدالة على الجمع بينهما والفاء فى « فكلوا » لأنه يعلم تعقبه بالدخول بخلاف آيات الأعراف فإنها لما افتتحت بالتوبيخ فى « اجعل لنا » ناسب « وإذ قيل » وترك « رغداً » والسكنى تجامع الأكل ولذا قال « فكلوا » ، وناسب ترك الواو فى « سنزيد » ولما تقدم تبعض الهادين فى قوله « ومن قوم موسى أمة » ناسب تبعض الظالمين بقوله « منهم » ، وناسب « فأرسلنا » لأن الإرسال أشد من الإنزال ، وناسب « يظلمون » لأن الظلم يلزم منه الفسق ، والفسق لا يلزم منه الظلم فاعتبر مناسبات القرآن والله يفتح لمن يشاء . ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ﴾ أى نوع منه ﴿وَاحِدٍ﴾ أى لا يتبدل وهو المن والسلوى وكانوا فلاحين فطلبوا ما يجانسهم بقوله ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ وقل له أخرج لنا ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾ شيئاً ﴿مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾ وما موصول أو موصوف ﴿مِن﴾ للبيان ﴿بَقْلِهَا﴾ فى محل حال من الضمير المحذوف ، أى مما تنبته كائناً من بقلها ، ومِنْ لبيان الجنس والمراد أصناف البقول التى يأكلها الناس ﴿وَقِثَّائِهَا﴾ المعروف وهو الخيار ﴿وَفُومِهَا﴾ حنطتها ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ المعروفين ﴿قَالَ﴾ لهم موسى منكراً عليهم ، أو الله تعالى على لسان نبيه ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ﴾ أخس منزلة من البقول ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ أشرف وهو المن والسلوى ، أى أتأخذونه بدله . والهمزة للإنكار ، فأبوا أن يرجعوا ، فدعا الله ، فقال تعالى : ﴿اهْبِطُوا﴾ انزلوا ﴿مِصْراً﴾ من الأمصار بعد التيه ﴿فَإِنَّ لَكُم﴾ فيه ﴿مَّا سَأَلْتُمْ﴾ من النبات ، وبلاد التيه هى ما بين المقدس إلى قنسرين وهى اثنا عشر فرسخاً فى ثمانية فراسخ ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ أى جعلت عليهم الذل والهوان وأحيطت بهم إحاطة القبة بمن ضربت عليها أو ألصقت بهم من ضرب الطين على الحائط ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أثر الفقر من السكون والخزى فهى لازمة لهم وإن كانوا أغنياء خيفة أن تضاعف عليهم الجزية أو طبعاً لزوم الدرهم المضروب لسكته ﴿وَبَاءُوا﴾ استحقوا ورجعوا ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ بذمهم فى الدنيا وعقوبتهم فى الآخرة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الضرب والغضب ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ مما عد عليهم من

فلق البحر وإظلال الغمام وإنزال المن والسلوى وانفجار العيون من الحجر وبالشك في الآيات المنزلة في الإنجيل والقرآن ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ كشعياء وزكريا، ويحيى ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي ظلماً واتباعاً للهوى: حال من الضمير في «يقتلون» أي مبطلين ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي كفرهم وقتل الأنبياء ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ حدود الله أي جرم العصيان إلى الكفر بآيات الله وقتل الأنبياء ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ باللسان وهم المنافقون ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ دخلوا في اليهودية وهم اليهود ﴿وَالنَّصَارَىٰ﴾ أتباع عيسى ﴿وَالصَّابِيِينَ﴾ بغير همز لنافع، وبهمز لغيره: طائفة من اليهود أو النصارى صبأوا: أي خرجوا من دينهم وعبدوا الملائكة ﴿مَنْ آمَنَ﴾ منهم، شرط مبتدأ وخبره ﴿بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إيماناً خالصاً ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم، وجواب الشرط ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ أي ثواب أعمالهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أو «من» شرط خبره جوابه، والشرط وما اتصل به خبر «إن» أو بمعنى الذي وعطف نصب بدل من اسم إنّ والمعطوف عليه، والخبر «فلهم» الجملة والعائد محذوف، أي منهم، والفاء لتضمن «مَن» معنى الشرط ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ روعي في ضمير «آمن وعمل» لفظ من وفيما بعده معناها ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ عهدكم بالعمل بما في التوراة ﴿وَ﴾ قد ﴿رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ الجبل اقتلعناه من أصله عليكم لما أبيتم قبولها: روى أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة وقرءوا مافيها من التكاليف الشاقة أبوا قبولها فقطع جبريل عليه السلام جبلا على قدر عسكرهم وجعله على رءوسهم كالظلة قدر قامة الرجل فقيل لهم إن أبيتم رضختم بالجبل، فوقعوا سجّداً وقالوا قبلنا، وقلنا لكم ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ بجد واجتهاد ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ بالدرس والتفكر والعمل به ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ النار أو المعاصي ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾ أعرضتم عن الطاعة ووفاء الميثاق ﴿مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الميثاق وقبول التوبة ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإمهال ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ بالتوبة والإحسان ﴿لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الهالكين، لكن أمهلكم برحمته فتاب بعض وكان من ذرية بعضكم من آمن ثم أنذرهم وذكرهم بما جرى لمن تقدمهم فقال: ﴿وَلَقَدْ﴾ اللام موطئة للقسم ﴿عَلِمْتُمُ﴾ عرفتم ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا﴾ تجاوزوا الحد ﴿مِنكُمْ﴾ في زمن داود عليه السلام ﴿فِي السَّبْتِ﴾ بصيد السمك وقد نهيناهم عنه وهم أهل أيلة. والسبت مصدر سبتت اليهود عظمت السبت بالتجرد للعبادة: وكانوا بعد النهي إذا كان يوم السبت لم يبق حوت في البحر إلا حضر ساحلهم وأخرج خرطومه فإذا مضى تفرقت فحفروا حياضا وشرعوا إليها الجداول وكانت الحيتان تدخلها يوم السبت فيصطادونها يوم الأحد ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا﴾ صيروا ﴿قِرَدَةً﴾ جمع قرد وأصله اللبد واللصوق، ومنه القراد وهذا أمر تحويل لأنهم لا قدرة لهم على التحول ﴿خَاسِئِينَ﴾ مبعدين فكانوها وهلكوا بعد ثلاثة أيام وأصل الخسوء الطرد والإبعاد يستعمل متعديا ولازماً: خسأته خسئاً، وخسأ خسوءاً، وخاسئين خبر ثانٍ لكان أو حال أو نعت للقردة. وعن مجاهد: إنما مسخت قلوبهم دون

صورهم ، وهو خلاف الإجماع ، وفى القصة حجة لمالك فى منع الحيل فى الشرع مطلقاً وجوّزها بعض العلماء ما لم يكن فيها إبطال حق أو إحقاق باطل ، قالوا : وإنما لم تجز حيلة اليهود لأنها عين المنهى عنه ، والله أعلم ﴿ فَجَعَلْنَاهَا ﴾ العقوبة أو المسخة أو القردة ﴿ نَكَالًا ﴾ عبرة مانعة من ارتكاب مثل ماعملوا أصله من النكل وهو القيد ﴿ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ لما قبلها وما بعدها من الأمم ، إذ ذكرت حالهم فى زبر الأولين واشتهرت قصتهم فى الآخرين أو لمعاصريهم ومن بعدهم أو لما بحضرتها من القرى وما تباعد عنها ، أو لأهل تلك القرية وما حولها ، أو لأجل ما تقدم عليها من ذنوبهم وما تأخر عنها ﴿ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ لكل متّقٍ سمعها ، خصوا بالذكر لأنهم المنتفعون بها بخلاف غيرهم ﴿ وَ ﴾ اذكروا ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ وقد قتل لهم قتيل لا يدرون قاتله وسألوه أن يدعو الله أن يبينه لهم فدعاه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ فتضربوا القتيل ببعضها فيحيا فيخبركم عن قاتله ، وسميت « بقرة » لبقرها الأرض ، والهاء للوحدة لا للتأنيث . وأول هذه القصة قوله الآتى « وإذ قتلتم نفساً » وقدم هذا عليه لاستقلاله بنوع آخر من مساويهم وهو الاستهزاء والاستقصاء فى السؤال وترك المسارعة إلى الامتثال . وقوله « وإذ قال » معطوف على « نعمتى » المتقدم وكذا الظروف التى مضت والتى تأتى إلى قوله « وإذ ابتلى إبراهيم ربه » ﴿ قَالُوا ﴾ استبعاداً لما قاله واستخفافاً به ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ أهل هزء أو مكان هزء أى مهزوءاً بنا حيث تجيبنا بمثل ذلك ، وقرأ حمزة بإسكان الزاى ﴿ قَالَ أَعُوذُ ﴾ أمتنع ﴿ بِاللَّهِ ﴾ من ﴿ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ المستهزئين ، لأن الهزء فى مثل ذلك جهل ، وفيه تعريض لهم . ولما علموا أنه عزم ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾ أى ماسنها إذ علموا ماهيتها وكان فيهم شيخ صالح له عجلة أتى بها إلى غيضة وقال : اللهم إنى أستودعكها لابنى حتى يكبر ، فمات ونشأ ابنه باراً لأمه لا يخالف أمرها فى شىء ، فأخبرته بالعجلة ، فأتى بها فأمرته يبيعها بثلاثة دنانير وكانت ثمن البقرة إذ ذاك ، فجاءه ملك فى زىّ آدمى فأعطاه ستة دنانير على أن لا يشاور أمه فأبى فأخبر أمه فأذنت فأعطاه اثنى عشر ديناراً على أن لا يشاور فأبى فأخبرها فقالت إن الذى يأتيك ملك فقل له : هل نبيع البقرة أم لا ؟ فقال لا تبيعوها إلا بملء مسكها ذهباً ، فلما تعنت بنو إسرائيل بسؤال وصف البقرة أخذ تعالى يصف لهم بقرة اليتيم وكانت منفردة بتلك الصفات ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ إِنَّهُ ﴾ أى الله ﴿ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ ﴾ مسنة فرضت ـ بضم الراء وفتحها ـ طعنت فى السن : أى قطعتها إلى آخرها ﴿ وَلَا بِكْرٌ ﴾ صغيرة لم تلد ، مأخوذ من أول الشىء ومنه باكورة الفاكهة ، وحذفت الهاء منهما للاختصاص بالإناث كالحائض وارتفاعهما بإضمار مبتدأ وكذا ﴿ عَوَانٌ ﴾ نصف ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ أى المذكور من الفارض والبكر ولذا لم يقل بين ذينك إرادة المذكور وحسن ذلك فى أسماء الإشارة لأن تثنيتها وجمعها وتأنيثها ليس بحقيقة . قاله الكواشى ﴿ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ به من ذبحها ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا ﴾ شديدة الصفرة ، والفقوع : نصوع الصفرة ولذلك

يؤكد به فيقال : أصفر فاقع ، كما يقال : أسود حالك ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ إليها لحسنها : أى تعجبهم فتلتذ قلوبهم بذلك . والسرور : لذة تحصل فى القلب عند حصول موجبها ، وجملة « تسر الناظرين » فى محل رفع خبر مبتدإ محذوف ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ أسائمة أم عاملة ، كرر السؤال عن حالها وصفتها ليزدادوا بياناً ﴿إِنَّ الْبَقَرَ﴾ أى جنسه المنعوت بما ذكر ﴿تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ لكثرته فلم نهتد إلى المقصودة : اعتذار عن السؤال ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إليها . وفى استثنائهم فى هذا السؤال الأخير إنابة ما وانقياد ودليل ندم وحرص على موافقة الأمر . فى الحديث « لو لم يستثنوا لما بينت لهم إلى آخر الأبد » ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ﴾ غير مذللة بالعمل ، صيغة مبالغة ولذا لم تدخلها هاء ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ تقلبها للزراعة ، والجملة صفة « ذلول » داخلة فى النفى ، أو حال منه ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ الأرض المهيأة للزرع : أى ليست ساقية . قال البيضاوى : لا ذلول صفة لبقرة بمعنى غير ذلول و « لا » الثانية مزيدة لتأكيد الأولى ، والفعلان صفتا « ذلول » كأنه قيل : لا ذلول مثيرة ولا ساقية . اهـ . ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من العيوب وآثار العمل وهو خبر مبتدإ محذوف ، أو المعنى أخلص لونها ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ لا لون فيها يخالف لون جلدها فهى صفراء حتى فى قرونها وأظلافها وهى فى الأصل مصدر وشاه شية : خلط بلونه لونا آخر ﴿قَالُوا﴾ بعد تحقيقهم وصف البقرة ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ بحقيقة وصف البقرة : أى نطقت بالبيان التام ، فطلبوها فوجدوها عند الفتى البار بأمه فاشتروها بملء مسكها ذهبا كما تقدم ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ ذلك لغلاء ثمنها ، وفى الحديث « لو ذبحوا أى بقرة كانت لأجزأتهم ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم » ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ اسمه « عاميل » ﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾ فيه إدغام التاء فى الأصل فى الدال : أى تخاصمتم وتدافعتم ﴿فِيهَا﴾ فكأن كل واحد يدفع عن نفسه ويحيل على صاحبه ، والجمع فى « قتلتم » لوجود القتل فيهم ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ﴾ مظهر ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ من أمرها وهذا هو أول القصة أخر لأن الغرض الأهم إنما هو ذبح البقرة للكشف عن القاتل ثم ذكر القتل مبالغة فى توبيخهم ، وهو اعتراض بين المعطوف عليه والمعطوف . وهو ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾ أى القتيل ﴿بِبَعْضِهَا﴾ أى بعض كان ، وقيل بأصغريها ، وقيل : بفخذها الأيمن ، وقيل : بالأذن ، وقيل : بعجب ذنبها . وفى الكلام حذف ، أى : فضرب فحيى فقام وأوداجه تشخب دماً وقال قتلنى فلان وفلان لابنى عمه ، ثم مات ، فحرما الميراث وقتلا ، قال تعالى مخاطبا من حضر إحياء القتيل أو نزول الآية ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ دلائل قدرته ، ومحل الكاف نصب صفة مصدر محذوف ، أى يحيى إحياء مثل إحياء الموتى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ المراد منكم ، فتعلمون أن القادر على إحياء نفس واحدة قادر على إحياء نفوس كثيرة فتؤمنون . وقد استدل مالك رحمه الله بما تقدم من قول القتيل وقتل قاتله على صحة القول فى القسامة بقول المقتول : « دمى عند فلان »

لأن شرع من مضى من الأنبياء ـ بما أخبرنا نبينا عليه السلام عنهم ـ شرعٌ لنا إلا ما بيّن نسخه ، وهذا صريح مذهب مالك فى مسائله كلها ، واستفيد من القصة حسن تقديم القربة على الطلب ، وتعليم العباد ترك التشديد فى الأمور والمسارعة إلى امتثال أوامر الله من غير تفتيش ولا تكثير سؤال وأن من أراد إحياء قلبه بالمشاهدات فليمت نفسه بأنواع المجاهدات ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أيها اليهود : صلبت عن قبول الحق ، وقسوة القلب : نبوه عن الاعتبار ﴿مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من إحياء القتيل وما قبله من الآيات استبعاد لذلك مع ما يقتضى لين القلوب ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ فى القسوة ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ منها ، والمعنى أنها فى القساوة مثل الحجارة أو زائدة عليها أو أنها مثلها أو مثل أشد منها قسوة كالحديد لحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وإنما لم يقل أقسى لما فى أشد من المبالغة والدلالة على اشتداد القسوتين واشتمال المفضل على زيادة وأو للتخيير أو للترديد بمعنى أن من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسى منها ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ من خشية الله ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ﴾ فيه إدغام التاء فى الأصل فى الشين ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ عيونا دون الأنهار من خشية الله ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ﴾ ينزل من علو إلى سفل ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ بمعنى الانقياد لأمره وقلوبكم لا تتأثر ولا تلين ولا تخشع ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء لنافع والجمهور ضما إلى ما بعده وبالياء التحتية لابن كثير وفيه التفات عن الخطاب ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَن يُؤْمِنُوا﴾ أى اليهود ﴿لَكُمْ﴾ لأجل دعوتكم أو يصدقوكم ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ﴾ طائفة ﴿مِنْهُمْ﴾ أحبارهم أو من أسلافهم ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ فى التوراة ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ يغيرونه فى لفظه كنعت محمد وآية الرجم أو تأويله فيفسرون بما يشتهون ، وقيل هؤلاء من السبعين الذين سمعوا كلام الله مع موسى ثم قالوا : سمعنا الله يقول : إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا وإن شئتم فلا تفعلوا ﴿مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ فهموه بعقولهم ولم يبق فيه ريبة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مفترون ، والهمزة للإنكار أى لا تطمعوا فلهم سابقة فى الكفر ﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ منافقو اليهود ﴿الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ بأن محمداً نبي وهو المبشر به فى كتابنا ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا﴾ أى رؤساؤهم الذين لم ينافقوا لمن نافق إظهاراً للتصلب فى اليهودية ومنعا لهم من إبداء ما وجدوه فى كتابهم ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ أى المؤمنين ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أى عرّفكم فى التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم ، والفتح إزالة الأغلاق ولازمه البيان ﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ فى الآخرة ويقيموا عليكم الحجة فى ترك اتباعه مع علمكم بصدقه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنهم يحاجونكم إذا حدثتموهم فتنتهوا ، ثم استفهمَ فقال ﴿أَ﴾ جهلوا ﴿وَلَا يَعْلَمُونَ﴾ الاستفهام للتقرير والواو الداخلة عليه للعطف على المحذوف أى يعلمون ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ مما فتح الله عليهم وتحريف الكلم وإسرار الكفر ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يظهرون كالإيمان الظاهر فيرعووا عن ذلك !

ولما خاطب علماء اليهود بالعناد والتحريف مع العلم أردفهم بعوامهم الذين قلدوهم على ذلك لأن على العالم أن يعمل بما علم وعلى الجاهل أن يطلب العلم فقال ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أى اليهود ﴿أُمِّيُّونَ﴾ عوام جاهلون لا يطمع فى إيمانهم لما غمرهم من الضلال والتقليد ، والأمىّ . هو الذى لا يكتب ولا يقرأ منسوب إلى الأم كأنه لم ينتقل عن حال ولدته أمه فيها ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ التوراة فيكونوا على بصيرة أو بيان للأمىّ أى لا يعلمون الكتب فيطالعون التوراة ﴿إِلَّا﴾ لكن ﴿أَمَانِيَّ﴾ أكاذيب تلقوها من رؤسائهم فاعتمدوها جمع أمنية بمعنى الكذب ، ومنه قول عثمان رضى الله عنه : ما تمنيت منذ أسلمت . أو بمعنى التلاوة أى يقرءون التوراة ولا يعرفون معناها ، أو بمعنى التقدير أى ما يقدرونه تخرصاً أن آباءهم يشفعون لهم ونحو ذلك والاستثناء منقطع ، لأن الأمانى على الكل ليست من جنس العلم ﴿وَإِنْ﴾ ما ﴿هُمْ﴾ فى جحد نبوة النبي وغيره مما يكذبون ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ظنا ولا علم لهم ﴿فَوَيْلٌ﴾ شدة عذاب ﴿لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾ المحرف بالتأويلات الزائغة ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ أى مختلقا من عندهم ، وذكر اليد لتحقيق مباشرتهم فى الكتب. زيادة تقبيح فعلهم ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أى إنه كذلك فى التوراة ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا﴾ عوضا ﴿قَلِيلًا﴾ من الدنيا وهم اليهود : غيروا صفة النبى فى التوراة وآية الرجم وغيرها وكتبوها على خلاف ما أنزل ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من المختلق ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ بذلك من الرشا ورياستهم وذكر السدى أنهم كانوا يكتبون كتباً يبدلون فيها صفة النبى ويبيعونها من الأعراب ويبثونها فى أتباعهم أو ما يكسبون من المعاصى والويل كلمة يقولها كل واقع فى هلكة بمعنى الدعاء على النفس بالعذاب وهو مصدر فى الأصل ولم يستعمل له فعل ، لأن فاءه وعينه معتلان أو هو وادٍ فى جهنم لو سيرت فيه الجبال لذابت من حره ، وأصل الكسب الفعل لجر نفع ، أو دفع ضرّ ولذا لا يوصف به تعالى ﴿وَقَالُوا﴾ لما وعدهم النبى النار ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ تصيبنا ﴿إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ سبعة أو أربعين مدة عبادة آبائهم العجل ثم تزول ، وأياماً نصب على الظرفية لا بالاستثناء ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ حذف فيه همزة الوصل استغناء بهمزة الاستفهام ، قرأ ابن كثير بإظهار الذال ، والباقون بالإدغام ﴿عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ ميثاقاً منه بذلك وإن اتخذتم ذلك ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ به والاستفهام للنفى أى لا ﴿أَمْ﴾ بل ﴿تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأم منقطعة ، ويجوز أن تكون معادلة بالهمزة بمعنى أى الأمرين كائن على سبيل التقرير ، لأن العلم واقع بكون أحدهما ، وما ، موصولة أو نكرة موصوفة أى : إن كان لكم عنده عهد فلا ينقض ولكنكم تكذبون ﴿بَلَى﴾ حرف جواب لإثبات ما بعد النفى أى بلى تمسكم النار وتخلدون فيها ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ شركا ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ بالجمع لنافع وبالإفراد للباقين استولت عليه وأحدقت به من كل جانب بأن مات مشركا ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ملازموها فى الآخرة كما لازموا أسبابها فى الدنيا ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ روعى

فيه معنى من ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وهذه الآية تدل على أن التى قبلها فى الكفار لا فى العصاة ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فى التوراة وعلى لسان موسى وغيره من أنبيائهم ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ بالتاء لنافع وابن عامر وأبى عمرو وعاصم ويعقوب ، والياء للباقين ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ خبر بمعنى النهى وهو أبلغ لما فيه من إيهام أن المنهى مسارع إلى الانتهاء فهو يخبر عنه ، ويؤيده قراءة «لاتعبدوا» ﴿وَ﴾ تحسنون أو أحسنوا ﴿بِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ برًّا ودخل فيه جميع أنواع البر ﴿وَذِى الْقُرْبَىٰ﴾ القرابة عطف على الوالدين ووحد « ذى » إرادة للجنس ﴿وَالْيَتَٰمَىٰ﴾ جمع يتيم : من لا أب له كنديم وندامى ، وهو قليل ﴿وَالْمَسَٰكِينِ﴾ جمع مسكين : مفعيل من السكون كأن الفقر أسكنه ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ﴾ قولا ﴿حُسْنًا﴾ بضم الحاء وسكون السين مصدر وصف به مبالغة من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصدق فى شأن محمد صلى الله عليه وسلم والرفق بهم ، وقرأ حمزة والكسائى بفتحتين وفيه الأمر بمكارم الأخلاق ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ يريد بهما ما فرض عليهم فى ملتهم أى أخذنا عهدكم يا بنى إسرائيل بجميع المذكور فقبلتم وأقبلتم عليه ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عن الوفاء بالميثاق ، فيه التفات عن الغيبة والمراد آباؤهم . قال الثعالبى : خطاب لمعاصرى النبى صلى الله عليه وسلم أسند إليهم تولى أسلافهم إذ هم كلهم بتلك السبيل . اه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ بمن أسلم ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ عنه أى عادتكم الإعراض كآبائكم ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ وقلنا لكم ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ لا يريق بعضكم دم بعض لأن من أراق دم غيره فكأنما أراق دمه ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ لا يخرج بعضكم بعضاً من داره بالإجلاء عن الوطن ودخل فيه من ضر جاره حتى ألجأه إلى الخروج ومن وجدتم أسيراً فاشتروه وأعتقوه . وارتفاع تسفكون وتخرجون على تقدير حذف أن وحذفها على ماتقدم فى « لا تعبدون » ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ قبلتم الميثاق واعترفتم بلزومه عليكم ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ على أنفسكم بهذا الإقرار وأنتم أيها الموجودون اليوم تشهدون على إقرار أسلافكم ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الناقضون ، استبعاد لما ارتكبوه بعد الميثاق والإقرار به والشهادة عليه « وأنتم » مبتدأ و « هؤلاء » خبره على معنى : أنتم بعد ذلك هؤلاء الناقضون كقولك أنت ذلك الرجل الذى فعل كذا ، نزل تغير الصفة منزلة تغير الذات ، وقيل مبتدأ وخبر على تقدير مثل كقولهم أبو يوسف أبو حنيفة وقيل « هؤلاء » منادى حذف فيه حرف النداء وإن كان قليلا ، وجملة ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ يقتل بعضكم بعضاً حال أو خبر أنتم على القول الأخير ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَّٰهَرُونَ﴾ بإدغام التاء فى الأصل فى الظاء لنافع وابن عامر وأبى عمرو وابن كثير ، وفى قراءة لعاصم وحمزة والكسائى بالتخفيف على حذف التاء أى تتعاونون وهو حال من فاعل تخرجون أو من مفعوله أو كليهما ﴿عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ﴾ المعصية ﴿وَالْعُدْوَٰنِ﴾ الظلم ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ﴾ حال كونهم ﴿أُسَٰرَىٰ﴾ جمع أسير كقديم وقدامى

أو جمع أسرى كسكارى وسكرى ، وفى قراءة حمزة : أسرى جمع أسير كجريح وجرحى ﴿تُفَٰدُوهُمْ﴾ لنافع وعاصم والكسائى والمفاعلة على بابها لأن الأسير يعطى المال ، والآسر يعطى الإطلاق أو من واحد كعاقبت اللص ، يؤيده قراءة ابن كثير وأبى عمرو وابن عامر وحمزة تفدوهم ، المعنى تنقذوهم من الأسر بالمال أو غيره وهو مما عهد إليهم كما تقدم أو تطلقونهم بعد أن تأخذوا عنهم شيئاً ، وقال الثعالبى يقال فدى إذا أعطى مالا وأخذ رجلا ، وفادى إذا أعطى رجلا وأخذ رجلا فتفدوهم معناه بالمال ، وتفادوهم أى مفاداة الأسير بالأسير . اهـ . والصواب لا فرق بينهما والله أعلم ﴿وَهُوَ﴾ الشأن ﴿مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ متصل بقوله « وتخرجون » والجملة بينهما اعتراض أى كما حرم ترك الفداء وكانت قريظة حالفوا الأوس والنضير وبنو قينقاع الخزرج ، فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه أى يعينهم فى القتل وتخريب الديار وإجلاء أهلها وإذا أسر أحد من الفريقين اجتمعوا وفدوه وإذا سئلوا لم تقاتلونهم وتفادونهم قالوا : أمرنا بالفداء وحرم علينا القتال بيننا ولكن نستحى أن تذل حلفاؤنا ، والحاصل أنهم أعرضوا عن كل الميثاق إلا الفداء ولذا وبخهم الله تعالى بقوله : ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَٰبِ﴾ التوراة أى ببعض ما فرض عليكم فيه وهو الفداء ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ وهو ترك القتل والإخراج والمظاهرة ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ﴾ هوان وذل وأصل الخزى : ذل يستحى منه ، ولذا يستعمل فى كل منهما ﴿فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ وقد أخذوا بقتل قريظة ونفى النضير وقينقاع إلى الشام وضرب الجزية على من بقى منهم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ لأن عصيانهم أشد ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ بالياء لنافع وابن كثير وبالتاء للباقين ، وهو تأكيد للوعيد أى أن الله تعالى بالمرصاد لا يغفل عن أعمالهم ﴿أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ بأن آثروها عليها ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ بنقص الجزية فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بدفع ذلك عنهم ، ثم أخبر تعالى أنه أعذر إليهم بإرسال الرسل فلم يستقيموا فقال ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِۦ بِالرُّسُلِ﴾ أتبعناهم رسولا فى إثر رسول كيوشع وشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعياء وأرمياء وعزير وحزقيل وإلياس واليسع ويونس وزكرياء ويحيى ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ قويناه ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ بضم الدال فى جميع القرآن لغير ابن كثير فهو يسكنه من إضافة الموصوف إلى الصفة أى الروح المقدسة جبريل لطهارته يسير معه حيث سار ، وقيل روح القدس الإنجيل ، وقيل اسم الله الأعظم الذى يحيى به الموتى وأول الأقوال أصح لقول النبى صلى الله عليه وسلم لحسان : « اهج قريشاً وروح القدس معك » وفى رواية « وجبريل معك » والمعنى فعلنا جميع ما تقدم فلم يستقيموا ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ﴾ تحب ﴿أَنفُسُكُمُ﴾ من الحق ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تكبرتم عن اتباعه جواب « كلما » وهو محل الاستفهام والمراد به

التوبيخ وتوسطت الهمزة بين الفاء العاطفة على مقدر وما تعلقت به توبيخاً لهم وتعجيباً من شأنهم ، أى آتينا أنبياءكم ما آتيناهم وكلما . الخ . ﴿ فَفَرِيقًا ﴾ منهم ﴿ كَذَّبْتُمْ ﴾ كموسى وعيسى ومحمد والفاء للسببية أى فكذبتم فريقاً ﴿ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ المضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً لها فى النفوس فإن الأمر فظيع ومراعاة للفواصل أو للدلالة على أنهم لن ينتهوا فى إرادتهم إذ أرادوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم فعصمه الله منهم . والذين قتلوا كيحيى وزكرياء وشعياء ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ جمع أغلف ، أى مغشاة بأغطية خلقية لا يصل إليها ما جئت به ولا تفهمه ، مستعار من الأغلف الذى لم يختن أو جمع غلاف أى الوعاء ، أصله ضم اللام خفف بتسكينها ، والمعنى حينئذ قلوبنا أوعية العلم فنحن مستغنون بما فيها عن غيره فأضرب تعالى عن دعواهم مثبتاً أن قلوبهم فى أصل فطرتها قابلة للإيمان لولا ما عرض لها من الكفر فقال ﴿ بَلْ ﴾ للإضراب عما قالوا ﴿ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أبعدهم الله عن رحمته وخذلهم عن القبول أو هم كفرة ملعونون فمن أين لهم دعوى العلم والاستغناء عنك ﴿ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ما زائدة لتأكيد القلة أى إيمانهم قليل جداً ، وقليلا : صفة مصدر محذوف أى إيماناً ولا تكون ما نافية لأن لها صدر الكلام فلا يعمل ما بعدها فيما قبلها ولا مصدرية لبقاء قليلا بلا ناصب ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ﴾ من التوراة وهو القرآن وجواب لما محذوف أى كفروا به ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل مجيئه ﴿ يَسْتَفْتِحُونَ ﴾ يستنصرون ﴿ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يقولون : اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث آخر الزمان أو يفتحون عليهم ويعرفونهم أن نبياً يبعث من إخوتهم وقد قرب زمانه والسين حينئذ للمبالغة بالإشعار بأن الفاعل يسأل ذلك عن نفسه ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا ﴾ من الحق وهو بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ كَفَرُوا بِهِ ﴾ حسداً وخوفاً على الرياسة وجواب لما الثانية دليل على جواب الأولى ولا يمكن أن تكون هى مع جوابها جواب الأولى لوجود الفاء فيها ولما لايجاب بالفاء عند أكثرهم . يروى أن يهود خيبر كانوا يقاتلون غطفان فإذا التقوا دعوا بهذا الدعاء : « اللهم إنا نسألك بحق محمد النبي الأمى الذى وعدتنا أن تخرجه لنا فى آخر الزمان أن تنصرنا عليهم » فهزموا غطفان ; فلما بعث محمد كفروا به ووقع ليهود المدينة نحو هذا مع الأوس والخزرج ﴿ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أى عليهم وأتى بالمظهر للدلالة على أنهم لعنوا لكفرهم ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا ﴾ باعوا ﴿ بِهِ ﴾ أى بسببه ﴿ أَنْفُسَهُمْ ﴾ أى حظها من الثواب وما نكرة بمعنى شيئاً تمييز لفاعل بئس وهو فعل غير متصرف موضوع للذم كنعم فى المدح والمخصوص بالذم ﴿ أَنْ يَكْفُرُوا ﴾ أى كفرهم ﴿ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ من القرآن ﴿ بَغْيًا ﴾ مفعول له ليكفروا دون اشتروا للفصل أى طلباً لما ليس لهم وحسداً على ﴿ أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ ﴾ بالتشديد لنافع وابن عامر والكوفيين ، والتخفيف لابن كثير وأبى عمرو ﴿ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ الوحى ﴿ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ للرسالة والكتاب ﴿ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم حسدوه لما لم يكن منهم وكان من العرب وكذا عيسى

لأنهم حسدوه وكفروا به بغياً والله قد تفضل عليه ﴿فَبَاءُو بِغَضَبٍ﴾ بكفرهم بما أنزل والتنكير للتعظيم ﴿عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ استحقوه من قبل بتضييع التوراة والكفر بعيسى وبقولهم « عزير ابن الله » و « عبادة العجل » و « بغضب » حال و « على غضب » صفة له أى انقلبوا مغضوباً عليهم ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ذو إهانة يراد به إذلالهم بخلاف عذاب العاصى فتأديب له وطهرة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ القرآن وغيره ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ التوراة، قال تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ﴾ الواو للحال أى قالوا ذلك والحال أنهم يكفرون ﴿بِمَا وَرَاءَهُ﴾ سواه أو بعده من القرآن وغيره وهمزة « وراء » بدل من الياء لأنه فى الأصل مصدر واراه أى أخفاه. ثم جعل ظرفا يضاف إلى الفاعل فيراد به ما يتوارى به وهو خلفه وإلى المفعول فيراد به ما يواريه وهو قدامه، ولذلك عد من الأضداد ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ حال ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال ثانية مؤكدة تتضمن رد مقالتهم، فإنهم لما كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها ﴿لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ﴾ لهم ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ أى قتلتم ﴿أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالتوراة وقد نهيتم فيها عن قتلهم والخطاب للموجودين فى زمان نبينا بما فعل آباؤهم لرضاهم به. قيل قتلوا فى يوم واحد ثلاثمائة نبى فى بيت المقدس ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات كالعصا واليد وفلق البحر، ساق تعالى هذه الآيات لإبطال قولهم « نؤمن بما أنزل علينا » والتنبيه على أن طريقتهم مع الرسول هى طريقة أسلافهم مع موسى لا لتكرار القصة ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ إلها ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ بعد ذهابه إلى الطور أو بعد مجىء موسى ﴿وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ باتخاذه ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ على العمل بما فى التوراة ﴿وَ﴾ قد ﴿رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ الجبل حين امتنعتم من قبولها ليسقط عليكم وقلنا ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ بجد واجتهاد ﴿وَاسْمَعُوا﴾ ما تؤمرون به سماع قبول ﴿قَالُوا سَمِعْنَا﴾ قولك بالآذان ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك بالقلوب ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ خالط حبه قلوبهم كما يخالط الشراب، ورسخت صورته فى قلوبهم لفرط شغفهم به كما يتداخل الصبغ الثوب والشراب أعماق البدن وفى قلوبهم بيان لمكان الإشراب كقوله: « إنما يأكلون فى بطونهم نارا » ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بسببه وذلك لأنهم كانوا مجسمة أو حلولية ولم يروا جسما أعجب منه فتمكن فى قلوبهم ما سول لهم السامرى ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿بِئْسَمَا﴾ شيئاً ﴿يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ بالتوراة عبادة العجل ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بها كما زعمتم. المعنى: لستم بمؤمنين لأن الإيمان لا يأمر بعبادة العجل والمراد آباؤهم أى فكذلك أنتم لستم بمؤمنين بالتوراة وقد كذبتم محمداً والإيمان بها لا يأمركم بتكذيبه وإضافة الأمر إلى الإيمان استهزاء بهم ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ أى الجنة ﴿عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً﴾ خاصة بكم كما قلتم لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ونصبها على الحال من الدار ﴿مِّن دُونِ النَّاسِ﴾ كما زعمتم ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فى قولكم لأن من يعلم أن الجنة مأواه يحن إليها ولا سبيل إليها إلا الموت ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ ما عاشوا ﴿بِمَا قَدَّمَتْ

أيديهم﴾ من موجبات النار وهذا من أظهر المعجزات على صدق الرسول لأنه إخبار بغيب ولم يتمن أحد من اليهود الموت: روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن اليهود لو تمنوا الموت لغص كلٌّ بريقه ولما بقي على الأرض يهودي إلا مات ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فيجازيهم تهديد لهم وتنبيه على أنهم ظالمون بادعاء ما ليس لهم ونفيه عن غيرهم ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ لام قسم ﴿أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ متطاولة ﴿وَ﴾ أحرص ﴿مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ المنكرين للبعث عليها لعلمهم بأن مصيرهم النار دون المشركين لإنكارهم له ﴿يَوَدُّ﴾ يتمنى ﴿أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ بيان لزيادة حرصهم وقوله «أحرص الناس» أفعل تفضيل أضيف إلى جملة هو بعضها ولذا لم يحتج إلى ذكر من نحو زيد أفضل الناس بخلاف أفضل من إخوته «ولو» مصدرية بمعنى أنْ وهي وصلتها في تأويل مصدر مفعول يودّ ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي أحدهم ﴿بِمُزَحْزِحِهِ﴾ مبعده ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ النار ﴿أَنْ يُعَمَّرَ﴾ فاعل مزحزحه أي تعميره ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بالياء والجمهور والتاء ليعقوب فيجازيهم وأصل «سنة» «سنوة» أو «سنهة». ولما سأل ابن صوريا النبي صلى الله عليه وسلم أو عمر عمن يأتي بالوحي من الملائكة فقال «جبريل» فقال: هو عدونا يأتينا بالعذاب ولو كان ميكائيل لآمنا لأنه يأتي بالخصب والسلم نزل ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ فليمت غيظاً ﴿فَإِنَّهُ﴾ جبريل ﴿نَزَّلَهُ﴾ القرآن ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي حفّظه إياك، وخص القلب لأنه محل الحفظ ولم يقل على قلبي لأنه جاء على حكاية كلام الله ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بأمره وتيسيره حال من فاعل نزل ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قبله من الكتب ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ بالجنة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أحوال من مفعول نزل. وجواب الشرط محذوف كما قدرنا أولا أو فإنه نزله على معنى: من عادى جبريل فقد كفر بما معه من الكتاب لنزوله عليك بكتاب مصدق للكتب المتقدمة فقام علة الجواب مقامه ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ﴾ بكسر الجيم والراء بلا همزة وياء كقنديل لنافع وأبي عمرو وابن عامر وحفص «وجَبريل» بفتح الجيم وكسر الراء بلا همزة وياء كشمويل قراءة ابن كثير وجبرئيل كسلسبيل قراءة حمزة والكسائي وجبرئل بجحمرش قراءة عاصم، هذه القراءات الأربع هي المشهورة من لغاته، وقد جاء أربع أخر في الشواذ فلا نطول بذكرها ﴿وَمِيكَالَ﴾ بثبوت الهمزة بلا ياء لنافع، وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي ميكائيل بهمزة وياء ولأبي عمرو وحفص ميكال بحذف الهمزة والياء معاً ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ أوقعه موقع لهم بياناً لحالهم ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات حال رد لقول ابن صوريا للنبي صلى الله عليه وسلم: ما جئتنا بشيء ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ المتمردون من الكفرة؛ والفسق إذا استعمل في نوع من المعاصي دل على أعظمه كأنه متجاوز عن حده ﴿أَ﴾ كفروا بها ﴿وَكُلَّمَا عَاهَدُوا﴾ الله ﴿عَهْدًا﴾ على الإيمان بالنبي إن خرج أو النبي أن لا يعاونوا عليه المشركين ﴿نَبَذَهُ﴾ طرحه ﴿فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ بنقضه وإنما قال فريق لأن بعضهم لم ينقض، ونبذه جواب كلما وهو محل الاستفهام الإنكاري

وقرئ أو كلما بسكون الواو على أن التقدير إلا الذين فسقوا أو كلما عاهدوا ﴿ بَلْ ﴾ للانتقال ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ رد لما يتوهم أن الفريق هم الأقلون ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ ﴾ التوراة أو القرآن ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ أى لم يعملوا بما فيها من الإيمان بالرسول وغيره ﴿ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ما فيها من أنه نبيّ حق أو أنها كتاب الله ﴿ وَاتَّبَعُوا ﴾ عطف على نبذ ﴿ مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ ﴾ من الجن والإنس من كتب السحر والشعوذة التى كانت تقرؤها أى ما تلت وفى القاموس: الشعوذة خفة فى اليد وأخذ كالسحر يرى الشىء بغير ما عليه أصله فى رأى العين وإطلاق المضارع على الماضى لإفادة الدوام ﴿ عَلَى ﴾ زمان ﴿ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ وكانت الشياطين تسترق السمع وتضم إليه أكاذيب وتلقيه إلى الكهنة فيدونونه فى كتب يعلمونها للناس وفشى ذلك وذاع فى زمن سليمان أن الجن تعلم الغيب فجمع سليمان الكتب ودفنها فلما مات دلت الشياطين الناس عليها فاستخرجوها فوجدوا فيها علم السحر فقالوا إنما ملككم بهذا فتعلموه ورفضوا كتب أنبيائهم نتناه لنه الكفرة والفلاسفة عنهم حتى وصل ذلك إلى الحجاز وكانوا يعملونه فى حوائجهم ومعايشهم فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق جاءت اليهود لعنهم الله بالسحر تزعم أنه مما نزل على سليمان حتى حمل ذلك قوماً قبل البعث على أن تبرءوا من سليمان فقال تعالى تبرئة لسليمان ورداً على قول اليهود: انظروا إلى محمد يذكر سليمان فى الأنبياء وماكان إلا ساحراً ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ أى لم يعمل السحر لأنه كفر ومعتقده كافر والقائل به كافر ومعلمه كافر، قاله ابن العربى فى الأحكام ويدل عليه تعبير الله عن السحر بالكفر ومن كان نبياً كسليمان يكون معصوماً منه ﴿ وَلَكِنَّ ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لابن عامر وحمزة والكسائى ﴿ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ باستعماله حال كونهم ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ إغواء وإضلالا قال الخازن فى لباب التأويل: السحر على قسمين: أحدهما يكفر به صاحبه وهو أن يعتقد التأثير فيه والثانى لا يكفر به ولكنه من أكبر الكبائر وهو من لم يعتقد ذلك. وقال البيضاوى: المراد بالسحر ما يستعان فى تحصيله بالتقرب إلى الشياطين مما لا يشتغل به الإنسان إلى آخر ما قال. وما كان من خواص الأشجار وغيرها أو من آى القرآن فليس بكفر، لكن يحرم ما يضر الناس أو يغير عقولهم. وقال ابن العربى فى الأحكام من أنواع السحر ما يفرق بين المرء وزوجه ومنه ما يجمع بينهما ويسمى التِّولة وكلاهما كفر. اهـ. وفى القاموس: التِّولة ـ كهمزة ـ السحر أو شبهه وخرزة تحبب معها المرأة إلى زوجها كالتولة ـ كعنبة فيهما ﴿ وَ ﴾ يعلمونهم ﴿ مَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ أى ألهماه من السحر وما منصوب المحل عطف على السحر لتغاير الاعتبار أو به نوع أقوى منه أو على ماتتلو، وقرئ بكسر اللام الكائنين ﴿ بِبَابِلَ ﴾ بلد فى سواد العراق ﴿ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ بدل أو عطف بيان للملكين ومنع من الصرف للعلمية والعجمية وهما ملكان أنزلا لتعليم علم السحر ابتلاء من الله للناس وتمييزاً بينه وبين المعجزة، وعن ابن عباس هما

رجلان ساحران يعلمان السحر سميا ملكين باعتبار صلاحهما ويؤيده قراءة ملكين بالكسر . وأما ماينقل جهلة المفسرين من قصة هاروت وماروت مع الزهرة فأكاذيب اليهود لا تلتفت إلى ذكرها ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ من زائدة ﴿ حَتَّى يَقُولَا ﴾ له نصحاً ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ بلية من الله للناس ليمتحنهم بتعليمه فمن تعلمه كفر ومن تركه فهو مؤمن ﴿ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ بتعلمه أو باعتقاد جوازه والعمل به فإن أبى إلا التعليم علماه . قال الكواشي فى ملخصه : السحر له وجود حقيقة عند أهل السنة والعمل به كفر قالوا وكذا تعلمه للعمل به ، وتعلمه لاجتنابه ليس بكفر ، وعن الشافعي أنه يخيل ويمرض ويقتل ويجب القصاص به على من قتل به . اه . وقال عبد الباقى شارح المختصر : يكفر المسلم بمباشرة سحر مفرق بين زوجين أو مشتمل على كفر وثبت عليه ذلك ببينة وإذا حكم بكفره فإن كان متجاهراً به قتل وما له فىء إلا أن يتوب وإن كان يخفيه فحكمه حكم الزنديق يقتل ولا تقبل توبته ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ بأن يبغض كلٌ إلى الآخر ﴿ وَمَا هُمْ ﴾ أى السحرة ﴿ بِضَارِّينَ بِهِ ﴾ بالسحر ﴿ مِنْ ﴾ زائدة ﴿ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بإرادته وفيه أن كل شىء لا يؤثر فى غيره بطبع أو قوة جعلها الله فيها بل المؤثر هو الله وحده عند الأسباب ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ ﴾ فى الآخرة ﴿ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ وهو السحر ﴿ وَلَقَدْ ﴾ لام قسم ﴿ عَلِمُوا ﴾ أى اليهود ﴿ لَمَنِ ﴾ لام ابتداء معلقة لما قبلها ومن موصولة ﴿ اشْتَرَاهُ ﴾ اختاره واستبدله بكتاب الله ﴿ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ نصيب فى الجنة ﴿ وَلَبِئْسَ مَا ﴾ شيئاً ﴿ شَرَوْا ﴾ باعوا ﴿ بِهِ أَنْفُسَهُمْ ﴾ أى الشارين أى حظها من الآخرة أن تعلموه حيث أوجب لهم النار ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ حقيقة ما يصيرون إليه من العذاب أو لو كانوا يتفكرون قبحه على التعيين ما تعلموه أو المعنى لو انتفعوا بعلمهم لامتنعوا من السحر ﴿ وَلَوْ ﴾ ثبت ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ أى اليهود ﴿ آمَنُوا ﴾ بالنبى والقرآن ﴿ وَاتَّقَوْا ﴾ عقاب الله بترك معاصيه كنبذ كتاب الله واتباع السحرة وجواب « لو » محذوف أى لأثيبوا دل عليه ﴿ لَمَثُوبَةٌ ﴾ ثواب وهو مبتدأ واللام فيه للقسم ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ خبره مما شروا به أنفسهم ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أنه خير لما آثروه عليه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا ﴾ للنبى ﴿ رَاعِنَا ﴾ أمر من المراعاة . وكانت الصحابة يقولون له ذلك ومرادهم راقبنا وتأنَّ بنا فيما تلقننا حتى نفهمه فسمع اليهود الكلمة منهم وهى بلغتهم سبٌّ من الرعونة بمعنى الحمق فسُرُّوا بذلك وقالوا : كنا نسبُّ محمداً سرًّا فالآن أعلنوه فكانوا يقولونه للنبى ثم يضحكون فنهى المؤمنون عنها ﴿ وَقُولُوا ﴾ بدلها ﴿ انْظُرْنَا ﴾ أى انظر إلينا أو انتظرنا لأنها لا تقبل التلبيس ﴿ وَاسْمَعُوا ﴾ ما تؤمرون به سماع قبول لا كسماع اليهود أو اسمعوه بجد حتى لا تعودوا إلى ما نهيتم عنه ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ ﴾ بالتهاون بالرسول وسبِّه ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم وهو النار . وفى الآية دليل على ترك ما فيه اللبس إلى غيره ، وأن سبَّ الرسول كفر ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ ﴾ من العرب عطف على أهل الكتاب ﴿ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ ﴾ زائدة ﴿ خَيْرٍ ﴾ وحى ﴿ مِنْ

ربكم ﴾ حسداً لكم واعتقاداً أنهم أحق بالوحي منكم ﴿ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ ﴾ نبوته ﴿ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ نزلت تكذيباً لجمع من اليهود يظهرون مودة المؤمنين ويزعمون أنهم يودون لهم الخير . والود : محبة الشيء مع تمنيه ، ولذلك يستعمل في كل منهما و « من » في « من أهل الكتاب » للتبيين و « أن ينزل » مفعول يود وزيادة « من » في « من خير » للاستغراق و « من » في « من ربكم » للابتداء. وفي قوله : « والله يختص » إلى آخره : إشعار بأن النبوة فضل نيلها وفقدها معاً بمشيئته وما عرف فيه من حكمته ولما طعن الكفار والمشركون واليهود في النسخ وقالوا إن محمداً يأمر أصحابه اليوم بأمر وينهى عنه غداً : نزل ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ و « ما » شرطية جازمة لننسخ منتصبة به و « من ءاية » في محل نصب بيان «لما» أى ما نزل حكمها إما مع لفظها أو لا . وقرأ ابن عامر بضم النون من أنسخ أى نأمرك ، أو جبريل بنسخها ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ بضم النون بلا همزة لنافع والجمهور من النسيان أى ننسكها أى نمحها من قلبك ، ولابن كثير وأبي عمرو بفتح النون الأولى وإسكان الثانية وفتح السين ثم همزة ساكنة من النساء ، أى التأخير أى نؤخرها فلا ننزل حكمها ونرفع تلاوتها أو نؤخرها في اللوح المحفوظ وجواب الشرط ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ أنفع للعباد في السهولة أو كثرة الأجر ﴿ أَوْ مِثْلِهَا ﴾ في التكليف والثواب ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومنه النسخ والتبديل ، والاستفهام للتقرير أى يقدر على النسخ والإتيان بمثل المنسوخ وبما هو خير منه والآية دلت على جواز النسخ وهو رفع الحكم الشرعي بحكم شرعي آخر وعلى جواز تأخير الإنزال إذ الأصل اختصاص « أن » وما تضمن معناها بالأمور المحتملة وذلك لأن الأحكام شرعت والآيات نزلت لمصالح العباد فضلا من الله وهي تختلف باختلاف الأعصار والأشخاص كأسباب المعاش ، فإن النافع في عصر قد يضر في غيره والتغيير في هذه الأحكام التي هي خطاب الله إنما هو من عوارض الأمور المتعلقة بالمعنى القائم بالذات القديم لا المعنى الذي هو الخطاب فافهم ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يفعل فيهما ما يشاء وهو أعلم بما يتعبدكم به من ناسخ ومنسوخ وهو كالدليل على قوله « أن الله على كل شيء قدير » ولذا ترك العاطف ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ غيره ﴿ مِن ﴾ زائدة ﴿ وَلِيٍّ ﴾ يحفظكم . محل الجار والمجرور رفع مبتدأ خبره « مالكم » ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يمنع عنكم عذابه إن أتاكم لأن الله هو الذي يملك أموركم ويجريها على ما يصلح لكم والفرق بين الولي والنصير : أن الولي قد يضعف عن النصرة ، والنصير قد يكون أجنبياً من المنصور فبينهما عموم من وجه . ونزل لما سأله أهل مكة أن يوسعها ويجعل الصفا ذهباً ﴿ أَمْ ﴾ بل ﴿ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا رَسُولَكُمْ ﴾ محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿ كَمَا سُئِلَ ﴾ الكاف منصوبة محلا صفة مصدر محذوف و « ما » مصدرية أى سؤالا مثل سؤال ﴿ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ من قولهم « أرنا الله جهرة » وغير ذلك وعلى هذا فأم منقطعة ويجوز أن تكون متصلة معادلة للهمزة في « ألم تعلم » أى ألم تعلموا أنه مالك الأمور القادر

على الأشياء كلها يأمر وينهى كلما أراد أم تعلمون وتريدون الآية ومقصودها الإيصاء بترك اقتراح الآيات تعنتاً ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَٰنِ ﴾ أى يأخذه بدله بترك النظر والتفقه فى الآيات البينات وطلب غيرها تعنتاً ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أخطأ طريق الحق ، والسواء فى الأصل الوسط ، ومعنى الآية لا تقترحوا فتضلوا ويؤديكم الضلال إلى تبديل الكفر بالإيمان ولما كانت وقعة أحد قال بعض اليهود وهو فنحاص وأصحابه لحذيفة وعمار وغيرهما : ارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم فأبوا فنزل ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ ﴾ وهم أحبارهم ﴿ لَوْ ﴾ مصدرية ﴿ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا ﴾ مرتدين حال من ضمير المخاطبين ﴿ حَسَدًا ﴾ مفعول له كائناً ﴿ مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ أى حملتهم عليه أنفسهم الخبيثة ويجوز أن يتعلق بكلمة « ود » أى تمنوا ذلك من عند أنفسهم لا من قبل الحق ﴿ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ﴾ فى التوراة ﴿ الْحَقُّ ﴾ فى شأن النبى أنه صدق بالمعجزات والنعوت المذكورة فيها ﴿ فَاعْفُوا ﴾ عنهم أى اتركوهم ﴿ وَاصْفَحُوا ﴾ أعرضوا فلا تجازوهم ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ فيهم من القتال والسبى لبنى قريظة وإجلاء النضير ، والعفو : ترك عقوبة المذنب ، والصفح : ترك تثريبه ، وهذا منالمنسأ وليس من المنسوخ إذ الأمر غير مطلق ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يقدر على الانتقام منهم ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ﴾ عطف على فاعفوا كأنه أمرهم بالصبر واللجوء إلى الله بالعبادة والبر ﴿ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا ﴾ وما : شرطية جازمة لتقدموا منتصبة به ﴿ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ ﴾ طاعة كصلاة وصدقة والجواب ﴿ تَجِدُوهُ ﴾ أى ثوابه ﴿ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ لا يضيع عنده عمل ﴿ وَقَالُوا ﴾ عطف على « ود » والضمير لأهل الكتاب ﴿ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا ﴾ جمع هائد ﴿ أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ جمع نصران وأو تفصيل لما أجمل فى قوله « وقالوا » قال ذلك يهود المدينة ونصارى نجران لما تناظروا بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم أى قال اليهود : لن يدخلها إلا اليهود ، وقال النصارى : لن يدخلها إلا النصارى فاختصر الكلام لما علم من العداوة بينهم ﴿ تِلْكَ ﴾ القولة المذكورة فى قوله « ما يود الذين كفروا » وقوله « ود كثير » الآية ، وقوله « لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » ﴿ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ جمع أمنية أفعولة من اتمنى كالأضحوكة والأعجوبة شهواتهم الباطلة ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فيه ﴿ بَلَىٰ ﴾ يدخل الجنة غيرهم ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ أى أخلص قصده وانقاد لأمره وخص الوجه لأنه أشرف الأعضاء فغيره أولى ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ بينه وبين ربه بالتوحيد وإخلاص العمل وبينه وبين الناس بحسن المعاملة ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ أى ثواب عمله الجنة ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فى الآخرة والجملة جواب « من » إن كانت شرطية وخبرها إن كانت موصولة ، والفاء فيها لتضمنها معنى الشرط فيكون الرد بقوله بلى وحده ويحسن الوقف عليه ويجوز أن يكون « من أسلم » فاعل فعل مقدر مثل : بلى يدخلها من أسلم ، فلا يحسن الوقف حينئذ على بلى ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾

معتد به وكفرت بعيسى ﴿ وَقَالَتِ النَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ معتد به وكفرت بموسى ، قالوا ذلك لما قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاهم أحبار اليهود فتناظروا وتقاولوا ذلك ﴿وَهُمْ﴾ أى الفريقان ﴿ يَتْلُونَ الْكِتَٰبَ ﴾ المنزل عليهم أى قالوا ذلك والحال أنهم أهل العلم والكتاب وفى كتاب اليهود تصديق عيسى وفى كتاب النصارى تصديق موسى ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما قال هؤلاء ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى المشركون من العرب وغيرهم : توبيخ لأهل الكتاب على المكابرة والتشبه بالجهال ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ بيان لمعنى ذلك أى قالوا لكل ذى دين ليسوا على شىء ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين فيقسم لكل فريق ما يليق به فيدخل المحق الجنة والمبطل النار ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ موضع « مَنْ » رفع بالابتداء استفهام بمعنى النفى وأظلم خبره والمعنى أى أحد أظلم أى لا أحد أظلم ﴿ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ بالصلاة والتسبيح ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ بالهدم والتعطيل و « من » عامٌّ لكل من خرب مسجداً أو سعى فى تعطيل مكان معد للصلاة وإن نزل فى الروم لما غزوا بيت المقدس وخربوه وقتلوا أهله أو فى المشركين لما منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الوصول إلى البيت الحرام عام الحديبية وجمع المساجد لأن الحكم ورد عاماً وإن كان السبب خاصًّا ومفعول منع الأول « مساجد » والثانى « أن يذكر » والخراب اسم للتخريب كالسلام للتسليم وإن أريد بها المسجد الحرام فتخريبه منع الحجاج والمعتمرين والمصلين فيه ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المانعون عن الدخول وهم النصارى أو مشركو العرب ﴿ مَا كَانَ ﴾ أى ينبغى ﴿ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ﴾ إلا مع خشيتهم فضلا أن يجترئوا على تخريبها أو منع المؤمنين منها أو ما كان لهم فى علم الله فيكون وعداً للمؤمنين بالنصر واستخلاص المساجد منهم وقد أنجز وعده وقيل خبر بمعنى الأمر أى أخيفوهم بالجهاد فلا يدخلها أحد آمناً ، وقيل معناه النهى عن تمكينهم من الدخول فى المسجد واختلف الأئمة فيه فمنعه مالك مطلقاً وجوّزه أبو حنيفة مطلقاً ، وفرق الشافعى فمنعه فى المسجد الحرام وأجازه فى غيره ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ هوان بالقتل والسبى والجزية ﴿ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ هو النار . ونزل لما طعن اليهود فى نسخ القبلة . هذا قول ابن عباس أو فى الصلاة النافلة على الراحلة حيثما توجهت وهو قول ابن عمر أو فى قوم عميت عليهم القبلة فى السفر فصلوا إلى أنحاء مختلفة فلما أصبحوا تبين لهم خطؤهم : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أى الأرض كلها لأنهما ناحيتاها فإن مُنعتم أن تصلوا فى المسجد الحرام أو الأقصى فقد جعلت لكم الأرض كلها مسجداً ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا ﴾ وجوهكم فى الصلاة بأمره ﴿ فَثَمَّ ﴾ هنالك ﴿ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ قبلته التى رضيها أو ذاته بمعنى عالم مطلع بما يفعل فيه ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ ﴾ يسع فضله كل شىء ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بتدبير خلقه يعلم كل مكان وعمل ومصلحة ، وفى الآية إيماء إلى أنه ليس لأحد ملك حقيقة إلا له وأنه مُنزّه عن الجهات كلها ﴿ وَقَالُوا ﴾ بواو للجمهور عطفاً على « وقالت اليهود » ودونها لابن عامر والضمير لليهود فى قولهم « عزير ابن الله » والنصارى فى قولهم « المسيح ابن الله » ومن زعم

أن الملائكة بنات الله ﴿ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ تنزيها له عنه لأنه يقتضى التشبيه والحاجة ﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ملكا وخلقاً وعبيداً والملكية تنافى الولادة وهذا رد لما قالوه واستدلال على فساده وعبر بما تغليباً لما لا يعقل ﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ مطيعون كل بما يراد منه وفيه تغليب العاقل وما كان على هذه الصفة لم يجانس مكونه فلا يكون فيه ولده وتنوين كل عوض من المضاف إليه أى كل ما فيهما ومنه عيسى وعزير والملائكة ويجوز أن يراد كل من جعلوه ولداً أو إلهاً مقرون بالعبودية فيكون إلزاماً بعد إقامة الحجة ، والآية مشعرة على فساد ما قالوا من ثلاثة أوجه واحتج بها الفقهاء على أن من ملك ولده عتق عليه لأنه تعالى نفى الولد بإثبات الملك ، وذلك يقتضى تنافيهما ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ موجدهما لا على مثال سبق والبديع هنا بمعنى المبدع كسميع بمعنى المسمع وفعله « أبدع » والإضافة حقيقية لأن الإبداع لهما ماض أو بدع كشرف فهو بديع بمعنى غاية فيما نعت به ، فالإضافة على هذا من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها أى بديع سمٰواته وأرضه وهو حجة رابعة وتقريرها أن الوالد عنصر الولد المنفعل بانفصال مادته عنه والله سبحانه مبدع الأشياء كلها فاعل على الإطلاق ومنزه عن الانفعال فلا يكون والداً ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا ﴾ أراد إيجاده وأصل القضاء إتمام الشىء قولا أو فعلا ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن ﴾ أى أحدث ﴿ فَيَكُونُ ﴾ أى فهو يكون أى يحدث بلا مهلة ولا توقف ، وفيه تقرير لمعنى الإبداع وإيماء إلى حجة خامسة فى نفى الولد وهى أن الولد إنما يكون بأطوار ومهلة ، وفعله تعالى يستغنى عن ذلك ، وقراءة نافع والجمهور بالرفع فى فيكون ولابن عامر بالنصب جواباً للأمر ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ من جهلة المشركين أو المتجاهلين من أهل الكتاب استكباراً واستهانة لما أتاهم من الآيات ﴿ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ ﴾ أنك رسوله ﴿ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ﴾ مما اقترحناه على صدقك ولولا إذا دخلت على مستقبل كانت تحضيضاً وعلى الماضى كانت توبيخاً ومعناها هنا هلا ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كما قال هؤلاء ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم ﴾ من كفار الأمم الماضية لأنبيائهم « قالوا أرنا الله جهرة » ﴿ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ من التعنت وطلب الآيات ﴿ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فى الكفر والعناد : فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ يعلمون أنها آيات فيؤمنون بها فاقتراح آية معها تعنت وفيه إشارة إلى أن هؤلاء ما طلبوها يقيناً بل طلبوها عتواً وعناداً ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ يا محمد مؤيداً ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ بالهدى ﴿ بَشِيرًا ﴾ من أجاب إليه بالجنة ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ من لم يجب إليه بالنار فلا عليك إن أصروا وكابروا ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ بفتح التاء وجزم الفعل لنافع نهىٌ للنبي صلى الله عليه وسلم عن السؤال عن حال الكفار تعظيما لعقوبتهم كأنها لفظاعتها لا تقدر أن تخبر عنها أو لأن السامع لا يصبر على استماع خبرها ولغير نافع بضم التاء ورفع آخر الفعل ولا نافية والواو استئنافية أو عاطفة جملة على جملة أى أرسلناك بشيراً ونذيراً وغير مسئول عن أصحاب الجحيم النار أى الكفار ما لهم لم يؤمنوا « إنما عليك البلاغ » ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾ وإن بالغت فى طلب رضاهم ﴿ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾

دينهم مبالغة فى إقناط الرسول عن إسلامهم . والملة : ما شرعه الله لعباده على لسان أنبيائه من أمللت الكتاب إذا أمليته ثم بالغ فى إقناطهم بأن ينبئهم بأمره أن يجيبهم بقوله ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ الذى أنا عليه وهو الإسلام ﴿ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ وما عداه عما تدعون إليه ضلال ﴿ وَلَئِنِ ﴾ لام قسم ﴿ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ آراءهم التى يدعونك إليها فرضاً والهوى ؛ رأى يتبع الشهوة ﴿ بَعْدَ ٱلَّذِى جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ الوحى من الله المعلوم صحته ﴿ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ ﴾ يحفظك ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يمنعك منه و « مالك » جواب « لئن » .

ونزل فى الذين قدموا مع جعفر بن أبى طالب من الحبشة أو فى ابن سلام وأصحابه أو فى جميع المسلمين ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ مبتدأ ﴿ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ صلة الموصول ﴿ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ يقرءونه كما أنزل بمراعاة لفظه عن التحريف والتدبر فى معناه والعمل بمقتضاه والجملة حال ، و « حق » نصب على المصدر والخبر ﴿ أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ بكتابهم دون المحرفين ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ ﴾ أى بالكتاب المؤتى بالتحريف والكفر بما يصدقه ﴿ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم . ولما صدر قصة بنى إسرائيل بالأمر بذكر النعم والقيام بحقوقها والحذر من إضاعتها والخوف من الساعة وأهوالها ، كرر ذلك وختم به الكلام معهم مبالغة فى النصح وإيذاناً بأنه فذلكة المقصود منها فقال ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ . وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ فداء ﴿ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ يمنعون من عذاب الله ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذِ ٱبْتَلَىٰٓ ﴾ اختبر ﴿ إِبْرَٰهِۦمَ ﴾ ولهشام إبراهام ﴿ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ ﴾ بأوامر ونواه كلفه بها مثل مناسك الحج وقيل المضمضة والاستنشاق والسواك وقص الشارب وفرق الرأس وقلم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة والاستنجاء والختان « أفعال الفطرة » وهذا الأخير سنة مؤكدة للرجال عند مالك وأبى حنيفة وفرض عند الشافعى ، ويستحب أن يؤخر الصبى إلى وقت يؤمر بالصلاة من السبع إلى العشر وتستحب الدعوة لطعام الختان وقيل الكلمات هى الخصال التى فى آية « التائبون » ، وآيات « قد أفلح المؤمنون » إلى قوله « هم الوارثون » ، وآية « إن المسلمين والمسلمات » فهى إذاً ثلاثون خصلة قاله ابن عباس ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ أداهن تامات وقرئ برفع إبراهيم بمعنى دعا ربه بكلمات فأعطاه جميع مادعاه ﴿ قَالَ ﴾ تعالى له ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ قدوة فى الدين وإمامته مؤبدة إذ لم يبعث بعده نبى إلا كان من ذريته مأموراً باتباعه ﴿ قَالَ وَ ﴾ اجعل أئمة ﴿ مِن ذُرِّيَّتِى ﴾ أولادى فعيلة أو فعولة من الذر التفريق قلبت راؤها الثانية ياء أو من الذرء أى الخلق قلبت همزتها ياء ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ﴾ بالإمامة ﴿ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ منهم أى الكافرين والفاسقين دل على أنه يناله غير الظالم وأنه يكون من ذريته ظلمة لا تجوز إمامتهم لأنها أمانة من الله وعهد والظالم لا يصلح لها وأن الأنبياء معصومون وقرئ « الظالمون » والمعنى واحد إذ كل مانالك فقد نلته ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ ﴾ الكعبة غلب عليها كالنجم على الثريا ﴿ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ الحجاج يتفرقون عنه ثم يثوبون إليه من كل جانب

أو موضع ثواب يثابون بحجة واعتمار وقرئ مثابات لأنه مثابة كل أحد (وَأَمْنًا) مأمناً لهم من الظلم والإغارات الواقعة فى غيره أو يأمن حاجه من عذاب الآخرة من حيث أن الحج يجُبُّ ما قبله أو لا يؤاخذ الجانى الملتجئ إليه حتى يخرج وهو مذهب أبى حنيفة وأما مذهب مالك وغيره فالجانى على نفس أو عضو أو مال لا يؤخر قصاصه بدخول الحرم بل يخرج من المسجد الحرام ليقام عليه حد مافعل ولو مُحرِماً بحج ولا ينتظر تحلله وأما إن جنى فيه فإنه يقتضى منه فيه إجماعا . حكاه ابن الجوزى . فهو أحق أن تقام فيه الحدود من غيره والله أعلم (وَاتَّخَذُوا) أى الناس بفتح الخاء بلفظ الماضى عطف على جعلنا لنافع وابن عامر وقرأ الباقون بكسر الخاء أمر أى أيها الناس على تقدير وقلنا (مِن مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ) الحجر الذى قام عليه عند بناء البيت أو قام عليه ودعا الناس إلى الحج (مُصَلًّى) مكان صلاة بأن صلوا خلفه ركعتى الطواف كما بينه حديث عمر بن الخطاب فى الصحيح وفيه بيان أن ذلك الموضع هو المقام المراد فى الآية وأن المراد بالصلاة الشرعية لا مطلق الدعاء وأن وقتها بعد الطواف وأنهما واجبتان فمن تركهما فعليه دم (وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ) اسمان أعجميان أى أمرناهما (أَنْ) بأن (طَهِّرَا بَيْتِيَ) ويجوز أن تكون أن مفسرة لتضمن العهد معنى القول أى من الأوثان والأنجاس وما لا يليق به أو أخلصاه (لِلطَّائِفِينَ) حوله (وَالْعَاكِفِينَ) المقيمين عنده أو المعتكفين (وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) جمع راكع وساجد المصلين أو الطائفين الغرباء والعاكفين الأهلون (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا) المكان (بَلَدًا) مفعول ثان لاجعل (آمِنًا) ذا أمن كعيشة راضية أو آمناً أهله كقولك ليل نائم ، وقد أجاب الله دعاءه بجعله حرما لا يسفك فيه دم إنسان ولا يظلم فيه أحد ولا يصاد صيده ولا يختلى خلاه (وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ) وقد فعل بنقل الطائف من الشام إليه وكان أقفر لا زرع به ولا ماء (مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) بدل من أهله بدل تخصيص بالدعاء لهم بالرزق موافقة لقوله « لا ينال عهدى الظالمين » (قَالَ) تعالى (وَ) أرزق (مَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ) بالتشديد للجمهور والتخفيف لابن عامر فى الدنيا بالرزق (قَلِيلًا) مدة حياته ليتناول من لذات الدنيا إثباتاً للحجة عليه و « من » موصولة أو موصوفة محلها نصب بارزق ، أو شرطية محلها رفع بالابتداء . والخبر « فأمتعه » (ثُمَّ أَضْطَرُّهُ) ألجئه فى الآخرة (إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ) فلا يجد عنها محيصاً (وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) المرجع هى (وَ) اذكر (إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ) جمع قاعدة : الأسس ، ورفعها : البناء عليها لأنه ينقلها عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع ، ويحتمل أن يراد بالقواعد : الجُدُر أى ساقات البناء ، فإن كل ساق قاعدة لما يوضع فوقه ، ورفعها : بناؤها ، وقيل : المراد رفع مكانة البيت وإظهار شرفه بتعظيمه ودعاء الناس إلى حجه ، وفى إبهام القواعد وتبيينها بمن فى قوله (مِنَ الْبَيْتِ) تفخيم لشأنها ، ويحتمل أن يتعلق بيرفع (وَإِسْمَاعِيلُ) عطف على إبراهيم وهو يناوله الحجارة ، وقيل : يبنيان فى طرفيه ، وقيل : على التناوب يقولان (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا) بناءنا (إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ) لقول من دعاك (الْعَلِيمُ) بإرادته

وفعله ﴿رَبَّنَا واجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ﴾ منقادين مخلصين ﴿لَكَ وَ﴾ اجعل ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِنَا﴾ أولادنا ﴿أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ ومن للتبعيض ، وأتى به لتقدم قوله « لا ينال عهدى الظالمين » وخص الذرية لأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع ﴿وَأَرِنَا﴾ علمنا ﴿مَنَاسِكَنَا﴾ شرائع عبادتنا أو حجنا ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ لمن تاب ، سألاه التوبة مع عصمتهما تواضعاً وتعليما لذريتهما ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ فى الأمة المسلمة أو أهل البيت وهم قريش ﴿رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ من أنفسهم ، وقد أجاب الله دعاءه بمحمد صلى الله عليه وسلم إذ لم يبعث من ذريتهما غير محمد صلى الله عليه وسلم كما قال عليه السلام : أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ورؤيا أمى ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ القرآن أو دلائل التوحيد والنبوة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ ما فيه من الأحكام ، أى السنة أو ما تكمل به النفوس من المعارف والأحكام ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يطهرهم من الشرك والمعاصى ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذى لا يغلب على ما يريد ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى صنعه ﴿وَمَنْ﴾ استفهام إنكار بمعنى « لا » مبتدأ خبره ﴿يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ من يترك شريعته الغراء ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ جهل أنها مخلوقة لله تجب عليها عبادته ، أو استخف بها أى أذلها و « من » نصب على الاستثناء أو رفع بدل من الضمير فى « يرغب » نحو : هل جاءك أحد إلا زيد ، وهو المختار وسفهه بمعنى جهله متعد ، وقيل أصله سفه نفسه بالرفع فنصب على التمييز نحو : غبن رأيه ، وألم رأسه . أو أصله سفه فى نفسه فنصب بنزع الخافض ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ﴾ اخترناه ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بالرسالة والخلة ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين لهم الدرجات العلى بيان لما تقدم ، فإن من كان صفوة العباد مشهوداً له بالصلاح كان حقيقاً بالاتباع لا يرغب عنه إلا سفيه ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ انقد لله وأخلص له دينك وهو ظرف لاصطفيناه وتعليل له ، أو منصوب بإضمار اذكر كأنه قيل اذكر ذلك الوقت لتعلم أنه المصطفى الصالح المستحق للإمامة والتقدم ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى فوضت أمورى له ، دليل على أنه نال ما نال بسبب المبادرة بالإذعان وإخلاص السر حين دعاه ربه ﴿وَأَوْصَى﴾ لنافع وابن عامر وقرأ الباقون وصى ﴿بِهَا﴾ بالملة أو كلمة أسلمت وهو أولى ﴿إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾ الأربعة ، إسماعيل وإسحاق ومدين ومدان ، وقيل بنوه ثمانية وقيل أربعة وعشرون فلا نطول بذكرهم لقلة الفائدة مع كثرة الاختلاف فى أسمائهم ﴿وَ﴾ أوصى بها ﴿يَعْقُوبُ﴾ لقبه إسرائيل كما تقدم ، بنيه : وهم اثنى عشر المشهورون « يوسف وبنيامين ويهودا ولاوى وروبيل وشمعون » قال أى كل منهما ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ دين الإسلام ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ نهى عن ترك الإسلام وأمر بالثبات عليه إلى الموت ، والوصية : هى التقدم إلى الغير بفعل فيه صلاح وقربة ، وأصلها الوصل ، يقال : وصاه إذا وصله ، وفصاه إذا فصله ، كأن الموصى يصل فعله بفعل الوصى ، ولم يقل « وموتوا وأنتم مسلمون » للدلالة على أن موتهم لا على الإسلام موت لا خير فيه . ولما قالت اليهود للنبى صلى الله عليه وسلم « ألست تعلم أن

يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية ، نزل ﴿أَمْ﴾ منقطعة ، بمعنى بل أ ﴿كُنتُمْ شُهَدَاءَ﴾ حضوراً ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أى أمارته ﴿إِذْ﴾ بدل من إذ قبله ﴿قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾ بعد موتى و « ما » استفهامية نصب بتعبدون يسأل بها عن كل شيء أراد تقريرهم على التوحيد والإسلام وأخذ الميثاق عليهم على الثبات عليهما لأنه لما دخل مصر رأى بعض الناس يعبدون غير الله فخاف على ولده فسألهم ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ عدّ إسماعيل فى الآباء تغليب : أو لأن العم بمنزلة الأب ﴿إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ بدل من إلٰهك ، وفائدته التصريح بالتوحيد ونفى التوهم الناشئ من تكرار المضاف لتعذر العطف على المجرور والتأكيد ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ حال من فاعل نعبد أو مفعوله أو منهما ، المعنى : لم تحضروه وقت موته فكيف تنسبون إليه مالا يليق به ﴿تِلْكَ﴾ الأمة ، مبتدأ والإشارة إلى إبراهيم ويعقوب وبنيهما ، وأنث لتأنيث خبره ﴿أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ سلفت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من العمل أى جزاؤه استئناف أو حال من ضمير خلت ﴿وَلَكُم﴾ الخطاب لليهود ﴿مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كما لا يسألون عن عملكم ، والجملة تأكيد لما قبلها ، والأمة فى الأصل : المقصود ، وسمى بها الجماعة لأن الطرق تومها ومعنى الآية أن انتسابكم إليهم لا يوجب انتفاعكم بأعمالهم ، وإنما تنتفعون بموافقتهم واتباعهم لا تؤاخذون بسيئاتهم ولا تثابون بحسناتهم كما قال عليه السلام : « لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم ! » ولما قالت اليهود للمسلمين : لا دين إلا ديننا فكونوا معنا وكفروا بعيسى والإنجيل ! وقالت النصارى للمسلمين كذلك وكفروا بموسى والتوراة ، نزل ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ وأو للتفصيل ، و « تهتدوا » جواب الأمر ﴿قُلْ بَلْ﴾ نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ حال من إبراهيم مائلا عن الباطل إلى الحق ، أو مستقيم الدين ، وفى القاموس : الحنف ـ محركة : الاستقامة والاعوجاج فى الرجل ، وقد حنف ـ كفرح وكرم ـ فهو أحنف ، وكضرب : مال ، إلى أن قال : والحنيف ـ كأمير ـ : الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه . اهـ . ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض لأهل الكتاب وغيرهم : فإنهم يدعون اتباعهم وهم مشركون ﴿قُولُوا﴾ خطاب للمؤمنين ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ من القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ من الصحف العشر ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ أولاد يعقوب جمع سبط : وهو الحافد ، وكانوا اثنى عشر كما تقدم : سمّوا بذلك لأن كل واحد منهم ولد جماعة ، وللفرق بينهم وأولاد إسمعيل ، فهم يسمّون بالقبائل ، والمذكورون بعد إبراهيم لما كانوا متعبدين بصحفه كانت منزلة إليهم أيضاً ، كما أن القرآن منزل إلينا ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ من التوراة ﴿وَعِيسَىٰ﴾ من الإنجيل أفردهما بحكم أبلغ وهو الإيتاء ، لأن أمرهما بالإضافة إلى موسى وعيسى مغاير لما سبقهما ، والنزاع وقع فيهما ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ﴾ من الكتب والآيات المذكورون منهم وغير المذكورين ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ منزلا عليهم ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كاليهود والنصارى . و « أحد » لوقوعه فى سياق النفى عام ، فساغ أن يضاف إليه « بين » لأن « بين » لا يكون إلا لاثنين

فما زاد ، أو المعنى : بين أحد وآخر ، لحذف لدلالة « بين » عليه . المعنى : نؤمن بالله وجميع كتبه ورسله ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ مذعنون مخلصون . وعن الحسن علّموا أولادكم وأهاليكم وخدمكم أسماء الأنبياء الذين ذكروا فى القرآن ليؤمنوا بهم وبما جاءوا به لقوله « قولوا آمنا ... الآية » ﴿ فَإِنْ ءامَنُوا ﴾ أى اليهود والنصارى ﴿ بِمِثْلِ ﴾ « مثل » زائدة ﴿ مَا ءامَنتُم بِهِ ﴾ أى مثل إيمانكم ﴿ فَقَدِ ٱهْتَدَوْا ﴾ فالباء للتعدية أو للآلة ، أى إن تحروا الإيمان بطريق يهدى إلى الحق مثل طريقكم ، أو مزيدة للتأكيد : أى فإن آمنوا بالله إيماناً مثل إيمانكم به ، وقرئ « بما آمنتم به » ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا ﴾ عن الإيمان به ﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ﴾ خلاف معكم ، أى ما هم إلا فى خلاف الحق وعداوتكم وليسوا من طلب الحق فى شىء ، والشقاق : المخالفة ؛ لأن كل واحد من المتخالفين فى شق غير شق الآخر ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ يا محمد شقاقهم ، تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتسكين للمؤمنين ووعدٌ لهم بالحفظ والنصر على من ناوأهم ، والفاء عاطفة لنظم معنى الكلام ومعنى السين : أن ذلك كائن لا محالة وإن تأخر إلى حين لأنها للتنفيس ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لأقوالهم وأقوالكم ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بأحوالهم وأحوالكم : وعيد ووعد وقد كفاه الله إياهم بقتل قريظة كما يأتى فى الأحزاب ، ونفى النضير كما يأتى فى سورته ، وضرب الجزية على الباقين ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾ أى دين الله أو تطهير الله وهو مصدر مؤكد لآمنا منصوب به على معنى : صبغنا الله صبغة . والمراد بها دينه الذى فطر الناس عليه لظهور أثره على صاحبه كالصبغ فى الثوب أو للمشاكلة تقديراً ، لأن النصارى كانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر وهو صبغتهم ويقولون : هو تطهير لهم ، أو منصوب على الإغراء : أى الزموا ، أو بدل من ملة إبراهيم ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ تمييز : لا صبغة أحسن من صبغته ﴿ وَنَحْنُ لَهُ عَٰبِدُونَ ﴾ تعريض بهم أى لا نشرك به كشرككم وهو عطف على « آمنا » ، وذلك يقتضى دخول قوله « صبغة الله » فى مفعول « قولوا » ، ولمن ينصبها على الإغراء أو البدل أن يضمر « قولوا » معطوفاً على « الزموا » أو « اتبعوا ملة إبراهيم » حتى لا يلزم فك النظم . ولما قال اليهود للمسلمين : نحن أهل الكتاب الأول وقبلتنا أقدم ولم تكن الأنبياء من العرب ولو كان محمد نبياً لكان منا : نزل ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ أَتُحَآجُّونَنَا ﴾ تخاصموننا ﴿ فِى ﴾ شأن ﴿ ٱللَّهِ ﴾ واصطفائه نبياً من العرب دونكم وترون أنكم أحق بالنبوة ﴿ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ فلا اختصاص له بقوم دون قوم فله أن يصطفى من عباده من يشاء . يصيب برحمته من يشاء ﴿ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا ﴾ نُجازى بها ﴿ وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ تجازون بها فلا يبعد أن يكون فى أعمالنا ما نستحق به الإكرام وهذا إلجام وتبكيت على كل مذهب ، أى فالإكرام إما بفضل الله فكلٌّ فيه سواءٌ أو بأعمال فلنا أعمالنا كما لكم أعمالكم ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ الدين والعمل دونكم فنحن أولى بالاصطفاء ، والهمزة للإنكار ، والجمل الثلاث أحوال ، والخالص كالصافى معنى ، إلا أن الخالص هو ما زال عنه شوبه بعد ما كان فيه ، مأخوذ من خلصت الشىء من الشىء أبنته عنه والصافى يقال لما لا شوب فيه والإخلاص

تصفية الأعمال من الشرك والرياء أو ترك العمل لأجل الناس ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿ يَقُولُونَ ﴾ بالياء لنافع وابن كثير وأبي عمرو ، فأم منقطعة والهمزة للإنكار ، وبالتاء لابن عامر وحفص وحمزة والكسائي ، وعليه يحتمل أن تكون أم معادلة للهمزة في « أتحاجوننا » بمعنى أي الأمرين تأتون أبالمحاجة أو بادعاء اليهودية أو النصرانية على الأنبياء ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ ﴾ لهم ﴿ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ أي الله أعلم وقد برأ منهما إبراهيم بقوله « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً » والمذكورون معه تبع له ثم زادهم إنكاراً وتبكيتاً بقوله ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ ﴾ أخفى على الناس ﴿ شَهَادَةً عِندَهُ ﴾ كائنة ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ أي لا أحد أظلم منه وهم اليهود : كتموا شهادة الله في التوراة لإبراهيم بالحنيفية ولمحمد بالرسالة ، ومن للابتداء كما في قوله : « براءة من الله » ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد لهم ، وقرئ بالياء ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ تقدم مثله كرره للمبالغة في التحذير لما استحكم في الطباع من الافتخار بالآباء ، وقيل الخطاب فيما سبق لهم ، وهذا تحذير لنا من الاقتداء بهم ، وقيل : المراد بالأمة في الأول الأنبياء ، وفي الثاني أسلاف اليهود والنصارى . والله أعلم ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ ﴾ الجهال الذين خفت أحلامهم بالتقليد والإعراض عن النظر ﴿ مِنَ النَّاسِ ﴾ اليهود والمشركين ﴿ مَا وَلَّاهُمْ ﴾ أي شيء صرف النبي والمؤمنين ﴿ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ على استقبالها في الصلاة وهي بيت المقدس والإتيان بالسين الدالة على الاستقبال من الإخبار بالغيب ، وفائدة تقديم الإخبار به توطين النفس وإعداد الجواب ، والقبلة في الأصل الحال التي عليها الإنسان من الاستقبال فصارت عرفاً للمكان المتوجه إليه للصلاة ﴿ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ أي الجهات كلها فيأمر بالتوجه إلى أي جهة شاء لا اعتراض عليه و « من الناس » في محل نصب حال مبينة من السفهاء وجملة الاستفهام في محل نصب بالقول ﴿ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ هدايته ﴿ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ دين الإسلام ، ومنهم أنتم ، دل على هذا ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي كما هديناكم إليه وجعلنا قبلتكم أفضل القبل ﴿ جَعَلْنَاكُمْ ﴾ يا أمة محمد ﴿ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ خياراً عدولا مزكين بالعلم والعمل ، وأصل الوسط : المكان الذي يستوي إليه المساقة من الجوانب ثم استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط ، ثم أطلق على المتصف بها مستوياً فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث كسائر الأسماء التي يوصف بها يُسَكَّن حيث صلح بين موضعه كوسط القوم وإلا حُرِّك كوسط القوس ، واستدل به على أن الإجماع حجة إذ لو كان فيما اتفقوا عليه باطل لبطلت به عدالتهم ﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ يوم القيامة أن رسلهم بلغتهم ﴿ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ أنه بلغكم ، وهذه الشهادة وإن كانت لهم لكن لما كان الرسول كالرقيب على أمته عدى بعلى ، وقدمت الصلة للدلالة على اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ﴾ صيرنا ﴿ الْقِبْلَةَ ﴾ لك الآن

مفعول أول والثانى الجهة ﴿ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا ﴾ أولا وهى الكعبة ، وكان صلى الله عليه وسلم يصلى إليها فلما هاجر أمر باستقبال بيت المقدس تألفاً لليهود فصلى إليه ستة أو سبعة عشر شهراً ثم حول فى رجب بعد الزوال قبل بدر بشهرين وقد صلى بأصحابه فى مسجد بنى سلمة ركعتين من الظهر فتحول فى الصلاة واستقبل الميزاب وتبادل الرجال والنساء صفوفهم فسمى المسجد مسجد القبلتين ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ ﴾ علم ظهور ﴿ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ ﴾ فيصدقه فى الصلاة إليها ﴿ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ يرجع إلى الكفر شكًّا فى الدين وظنًّا أن النبى صلى الله عليه وسلم فى حيرة من أمره وقد ارتد لذلك جماعة والمراد بالعلم : العلم الذى يتعلق به الجزاء ، وذلك لا يتعلق إلا بما يوجد من العامل ، أو المراد بالعلم تمييز التابع من الناكص أو المراد علم الرسول وأصحابه أضافه إليه تشريفاً ، وقرئ إلا ليعلم مجهولا ﴿ وَإِن ﴾ مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أى وإنها ﴿ كَانَتْ ﴾ التولية إليها ﴿ لَكَبِيرَةً ﴾ شاقة على الناس ﴿ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ منهم إلى حكمة الأحكام الثابتين على الإيمان و «على» متعلق بـ « لكبيرة » ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ أى صلاتكم إلى بيت المقدس أو إيمانكم بالقبلة المنسوخة أو ثباتكم على الإيمان بل يثيبكم عليه لأن سبب نزولها السؤال عمن مات قبل التحويل و « إيمانكم » أى صلاة الأحياء والأموات منكم إلى بيت المقدس ، ثم علل ذلك بقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ ﴾ المؤمنين ﴿ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ فى عدم إضاعة أعمالهم ، والرأفة شدة الرحمة ، وقدم الأبلغ للفاصلة ، وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص « لرءوف » بالمد ، والباقون بالقصر ﴿ قَدْ ﴾ للتحقيق ﴿ نَرَىٰ تَقَلُّبَ ﴾ تصرف ﴿ وَجْهِكَ فِي ﴾ جهة ﴿ السَّمَاءِ ﴾ متطلعاً للوحى ومتشوقاً للأمر باستقبال الكعبة وكان يقع فى روعه أن يحول إليها ويوده لأنها قبلة إبراهيم ولأنه أدعى إلى إسلام العرب وهو مع ذلك لم يسأله لكمال أدبه ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ ﴾ فلنعطينك أو فلنمكننك أو نحولنك ﴿ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ رضى الطبع وتحبها ، لأنه راض باستقبال بيت المقدس امتثالا لا طبعاً ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ ﴾ ذاتك استقبل فى الصلاة ﴿ شَطْرَ ﴾ نحو ﴿ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أى المحرم فيه القتال وتعرض الظلمة الجبابرة : أى الكعبة ، وأصل الشطر : ما انفصل عن الشىء مصدر شطر : انفصل ، ثم استعمل للجانب وإن لم ينفصل ، وفيه إشارة إلى أن المأمور باستقباله للبعيد جهتها فإن استقبال عينها حرج عليه بخلاف القريب منها ، واستقبالها شرط فى صحة الفرائض ، إلا فى صلاة المسايفة كما يأتى ، والراكب يخاف لصاً أو سبعاً إن نزل فيصلى على الدابة إلى القبلة أو غيرها ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ ﴾ خطاب للأمة ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ ﴾ فى الصلاة أى ذواتكم مجاز لغوى ﴿ شَطْرَهُ ﴾ خص الرسول بالخطاب أولا تعظيما له وإيجاباً لرغبته ، ثم عمم تصريحاً بعموم الحكم وتأكيداً لأمر القبلة وتحضيضاً للأمة على المتابعة ، وحيثما يجوز أن يكون شرطاً وغير شرط أى أى مكان كنتم من بر أو بحر ، وعلى الشرط فجوابه «فولوا» ولما سمع اليهود ذلك وقالوا : هذا شىء يبتدعه محمد من تلقاء نفسه نزل ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ﴾ أى التولى إلى الكعبة ﴿ الْحَقُّ ﴾ الثابت ﴿ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ لما فى كتبهم من نعت النبى بأنه يتحول إليها ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ بالياء لنافع وابن كثير وأبى عمرو وعاصم ـ أى اليهود من إنكار أمر القبلة ـ وبالتاء للباقين ، أيها المؤمنون من امتثال أمره . وعيد ووعد للفريقين ولما قالوا له : ائتنا بآية على صدق قولك ، نزل ﴿ وَلَئِنْ ﴾ لام قسم ﴿ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ ﴾ على صدقك فى أمر القبلة ﴿ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ عناداً إذ لم يتركوها لشبهة تزيلها الحجة . جواب للقسم المضمر ساد مسد جواب الشرط ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ قطع لطمعه فى إسلامهم وطمعهم فى عوده إليها ﴿ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ أى اليهود قبلة النصارى وبالعكس لتصلب كل حزب بما هو فيه ، فإن اليهود تستقبل الصخرة لبيت المقدس والنصارى مطلع الشمس ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ التى يدعونك إليها كقولهم راجع بيت المقدس نؤمن بك ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ الوحى أى بعد ما بان لك الحق به ﴿ إِنَّكَ إِذًا ﴾ إن اتبعتهم فرضاً ﴿ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فيه تحذير من ترك الدليل واتباع الهوى ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ ﴾ أى محمداً أو القرآن أو تحويل القبلة والأول أظهر لقوله ﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ لنعته فى كتبهم ، قال ابن سلام : لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى ومعرفتى بمحمد أشد . رواه البخارى ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ ﴾ نعت محمد أو أمر التحويل ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ تخصيص لمن عاند واستثناء لمن آمن ﴿ الْحَقُّ ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى هو ما ثبت من الله لا ما لم يثبت أو خبر مبتدإ محذوف أى هذا الذى أنت عليه الحق و « من ربك » حال أو خبر بعد خبر وقرئ بالنصب بدل من الأول أو مفعول « يعلمون » ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ الشاكين فيه أى من هذا النوع فهو أبلغ من لا تمتر ﴿ وَلِكُلٍّ ﴾ من الأمم المختلفة الأديان أو لكل منكم يا أمة محمد ﴿ وِجْهَةٌ ﴾ قبلة أصلها هيئة التوجه أو جهة من الجهات يصلى إليها جنوبية أو شمالية أو شرقية أو غربية ﴿ هُوَ ﴾ أى الكل ﴿ مُوَلِّيهَا ﴾ وجهه فى صلاته أو الضمير فى « هو » لله أى موليها إياه ، وقرأ ابن عامر مولاها أى تلك الجهة ، والمعنى لكل فريق قبلة ذلك الفريق موليها وجهه أو الله موليها إياه ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ بادروا إلى الطاعات وقبولها من أمر القبلة وغيره مما ينال به سعادة الدارين ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ يجمعكم يوم القيامة فيجازيكم بأعمالكم ، ويجعل صلاتكم كأنها إلى جهة واحدة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيقدر على الإماتة والإحياء والجمع ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾ من أى مكان خرجت للسفر ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ إذا صليت ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ هذا الأمر ﴿ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ بالتاء للجمهور والياء لأبى عمرو ، وتقدم مثله وكرره لبيان تساوى حكم السفر وغيره ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ كرره للتأكيد لأنه أول ناسخ وقع فى الإسلام ، أو لتعدد علل التحويل ، لأنه لتعظيم الرسول بابتغاء مرضاته ، ولجرى العادة الإلهية على أن يولى كل أهل ملة

وصاحب دعوة وجهة يستقبلها ولدفع حجج المخالفين فناسب أن يؤكد أمره بذكره مرة بعد أخرى والاستقبال يحصل بتيقنه لمن بمكة ومحراب النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وبالاجتهاد لمن بسائر الأقطار إن قدر عليه ، وبالتقليد لمن لم يقدر : يقلد مسلماً عاقلا عارفاً بالقبلة ، فإن عدمه صلى إلى حيث شاء ، واختير أن يصلي أربع صلوات إلى أربع جهات ، وإن تبين له الخطأ في القبلة أعاد في الوقت في مشهور مذهب مالك ، وقيل : أبداً ، وفاقاً لباقي الأئمة ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ ﴾ أي اليهود أو المشركين ، علة لقوله « فولوا » ﴿ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ أي مجادلة في التولي أي لتنتفي مجادلة اليهود لكم في قولهم يجحد ديننا ويتبع قبلتنا وقول المشركين يدعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته « وحجة » اسم كان « وللناس » خبرها ، و « عليكم » حال : لأنه في الأصل صفة « حجة » فتقدمت عليها ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ استثناء من الناس ، فإنهم يقولون ما تحول إليها إلا ميلا إلى دين آبائه ، أي لئلا يكون لأحد من الناس مجادلة إلا المعاندين منهم ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ ﴾ لا تخافوا جدالهم في التولي إليها ، فإن مطاعنهم لا تضركم ﴿ وَاخْشَوْنِي ﴾ فلا تخالفوا ما أمرتكم به ﴿ وَلِأُتِمَّ ﴾ عطف على « لئلا » أو على محذوف أي واخشوني لأحفظكم ولأتم ﴿ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾ بالهداية إلى معالم دينكم والموت على الإسلام ودخول الجنة ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ إلى الحق ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا ﴾ فالكاف في محل نصب صفة لمصدر محذوف متعلق بأتم أي إتماماً كإتمامها بإرسالنا ﴿ فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ ﴾ محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ﴾ القرآن ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾ يطهركم من الشرك قدم هنا باعتبار القصد على التعليم وأخره في دعوة إبراهيم باعتبار الفعل ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ ﴾ القرآن ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ ما فيه من الأحكام ﴿ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ بالفكر والنظر ، وقيل « كما » متعلق بقوله ﴿ فَاذْكُرُونِي ﴾ بالصلاة والتسبيح ونحوه ﴿ أَذْكُرْكُمْ ﴾ بالثواب ، وفي الحديث عن الله : « من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير من ملئه » ﴿ وَاشْكُرُوا لِي ﴾ نعمتي بالطاعة ﴿ وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ بالمعصية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا ﴾ على الآخرة ﴿ بِالصَّبْرِ ﴾ على الطاعة وعن المعصية وحظوظ النفس وعلى البلاء ﴿ وَالصَّلَاةِ ﴾ خصها بالذكر لتكررها وعظمها ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ بالعون وإجابة الدعوة ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ لإعلاء دينه هم ﴿ أَمْوَاتٌ بَلْ ﴾ هم ﴿ أَحْيَاءٌ ﴾ أرواحهم في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ، لحديث بذلك ﴿ وَلَٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ ما هم عليه أو كيف حياتهم أو ما حالهم وهو تنبيه على أن حياتهم ليست بالجسد ولا من جنس ما يحس به وإنما هي أمر لا يدرك بالعقل بل بالوحي ، والآية نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر ، وفيها دلالة على أن الأرواح جواهر قائمة بنفسها مغايرة لما يحس به من البدن تبقى بعد الموت دراكة ، وتخصيص الشهداء لاختصاصهم بالقرب من الله وتعلق بالآية مالك والشافعي على أن الشهيد لا يغسل ولا يصلى عليه : لأن الميت هو الذي يفعل له ذلك والشهيد حي ، وقال أبو حنيفة : يصلى عليه لأنه في حكم الميت ولا يغسل لأنه تطهر بالقتل ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ ﴾

للعدو ﴿وَالْجُوعِ﴾ بالقحط أو الصوم ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ﴾ بالزكاة والهلاك ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ بالقتل والموت والأمراض والهرم والشيب ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ بالجوائح أى لنختبرنكم بما ذكر لنظهر لكم المطيع منكم من العاصى، أو لننظر أتصبرون أم لا؟ وفى تنكير «شىء» إيذان بأن كل بلاء يصيب الإنسان - وإن جلّ - ففوقه ما هو أعظم منه، وأعلمهم بوقوع البلايا قبل وقوعها ليوطنوا نفوسهم عليها ومحل «من الخوف» جرّ صفة بشىء. ومحل «من الأموال» نصب صفة محذوف: أى نقص شيئاً من الأموال لأنه مصدر نقصت الشىء وهو متعد حذف مفعوله، أو جرّ صفة نقص، وقد يكون من لابتداء الغاية: أى ناشئ من الأموال بالخسران والهلاك أو بالزكاة والصدقات والثمرات بالجوائح، أو الثمرات الأولاد بموتهم، وعنه عليه السلام: «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة: أقبضتم ثمرة قلب عبدى؟ فيقولون: نعم. فيقول الله: ماذا قال عبدى؟ - وهو أعلم - فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله سبحانه: ابنوا لعبدى بيتاً فى الجنة وسمّوه بيت الحمد» ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ على هذه البلايا بالجنة هم ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ بلاء ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ﴾ ملكا وعبيداً يفعل بنا ما يشاء وهذا إقرار بالملك ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ فى الآخرة فيجازينا وهذا تسليم وإذعان، وفى الحديث «من استرجع عند المصيبة أجره الله فيها وأخلف عليه خيراً» وفيه أيضاً كل ما أقلق المؤمن فهو مصيبة، وليس الصبر بالاسترجاع باللسان بل وبالقلب بأن يصوّر ما خلق لأجله وأنه راجع إلى ربه تعالى ويتذكر نعم الله عليه ليرى أن ما أبقى عليه أضعاف ما استرده منه فيهون على نفسه، والمبشر به محذوف دل عليه قوله ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ﴾ مغفرة ورأفة بعد رأفة ﴿مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ نعمة ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ إلى الصواب حيث أذعنوا لأمر الله تعالى قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه «نعم العدلان ونعمت العلاوة» أى الصلاة والرحمة ثم الاهتداء ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ جبلان بمكة ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أعلام دينه جمع شعيرة، والصفا فى الأصل جمع صفاة: الصخرة الملساء، والمروة مفرد المرْو: الحجارة الصغار الرخوة و «أل» فيهما للغلبة ﴿فَمَنْ﴾ شرط فى محل رفع بالابتداء ﴿حَجَّ الْبَيْتَ﴾ و «حج» فى موضع جزم، والبيت: نصب على المفعول به لا على الظرف أى قصد ﴿أَوِ اعْتَمَرَ﴾ أى زار أى تلبس بالحج والعمرة، وأصلهما القصد والزيارة المتكررة مأخوذة من عمَرْتُ الموضع، فغلبتا شرعاً على الأعمال المخصوصة والجواب ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ﴾ بإدغام التاء فى الأصل فى الطاء ﴿بِهِمَا﴾ بأن يسعى بينهما سبعاً بعد طواف البيت والإجماع على أن السعى بينهما مشروع فى الحج والعمرة واختلف فى الوجوب، فمن مالك والشافعى «أنه ركن لا يجزى تاركه إلا العود إليه» لحديث «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعى» رواه أحمد، وحديث «إن الله كتب عليكم السعى فاسعوا» رواه البيهقى وغيره وصححه الدارقطنى، وقال عليه السلام «أبدأ بما بدأ الله به» يعنى الصفا. رواه مسلم وعن أحمد أنه سنة لقوله تعالى: «فلا جناح عليه» المفهم للتخيير، وهو ضعيف لأن نفى الجناح يدل على

الجواز الداخل في معنى الوجوب فلا يدفعه ولأنه ذكر لسبب وهو أن الآية نزلت لما كره المسلمون الطواف بينهما لأن أهل الجاهلية كانوا يطوفون بهما وعليهما صنمان يمسحونهما ، وعن أبي حنيفة : أنه واجب يجبر بالدم ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ ﴾ تطوعاً ﴿ خَيْراً ﴾ أي فعل طاعة فرضاً كان أو نفلا أو زاد على ما فرض الله عليه من حج أو عمرة أو طواف و « خيراً » نصب على أنه صفة مصدر محذوف كما قدرنا أو بحذف الجار وإيصال الفعل إليه ، والأصل : بخير : أو بتعدية الفعل لتضمنه معنى فعل . وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب بالتحتية وتشديد الطاء مجزوماً وفيه إدغام التاء فيها ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ ﴾ بقبول العمل والإثابة عليه يقبل اليسير ويعطي الكثير ﴿ عَلِيمٌ ﴾ به لا تخفى عليه أعمالكم ، وأصل التطوع : التبرع ، من طاع يطوع تبرع ، أي زاد على الواجب . ونزل في اليهود الكاتمين للعلم ودخل فيه : كل من كتم علماً ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ﴾ الناس ﴿ مَا أَنْزَلْنَا ﴾ في القرآن ﴿ مِنَ ﴾ الآيات ﴿ الْبَيِّنَاتِ ﴾ كآية الرجم والأحكام ﴿ وَالْهُدَى ﴾ ما يهدي إلى وجوب اتباعه والإيمان به كنعت محمد والإسلام ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ﴾ أوضحناه في التوراة ﴿ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ ﴾ يبعدهم من رحمته ﴿ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ الملائكة والمؤمنون أو كل شيء أي يدعون عليهم باللعنة ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ عن الكتمان وسائر ما يجب أن يتاب عنه استثناء متصل من ضمير « يلعنهم » محله نصب ، أو منقطع لأن الذين كتموا لعنوا قبل التوبة ، أي لكن الذين رجعوا ﴿ وَأَصْلَحُوا ﴾ الأعمال بينهم وبين الله ﴿ وَبَيَّنُوا ﴾ ما كتموا لتتم توبتهم أو بينوا توبتهم ليقتدي بهم أضرابهم ﴿ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ أقبل توبتهم ﴿ وَأَنَا التَّوَّابُ ﴾ المبالغ في قبول التوبة ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ المبالغ في إفاضة الرحمة للمؤمنين ، وفي الآية أن من سئل عن علم وجب عليه التبليغ وكذا من لم يُسئل إن لم يكن هناك من يبلغ غيره ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ حال أي من الكاتمين ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أي هم مستحقون ذلك في الدنيا والآخرة ، و « الناس » قيل عام ، وقيل المؤمنون ، وفي الآية جواز لعن الكافر جملة ، وأما الكافر المعين فقيل : لا يجوز لعنه لأن حاله عند الوفاة لا تعلم ، وقد شرط الله في هذه الآية في إطلاق اللعنة الوفاة على الكفر ، والصحيح جواز لعنته بظاهر حاله لجواز قتاله وقتله وقد لعن النبي صلى الله عليه وسلم أقواماً بأعيانهم من الكفار ، وأما لعن المؤمن العاصي المعين فلا يجوز اتفاقا ، وأما لعن العاصي مطلقاً فيجوز إجماعاً ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي اللعنة أو النار المدلول عليها باللعنة ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ ﴾ طرفة عين ﴿ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ لا يمهلون لتوبة أو معذرة أو لا ينظر إليهم نظر الرحمة ، ونزل لما قالوا صف لنا ربك ﴿ وَإِلَهُكُمْ ﴾ المستحق للعبادة منكم مبتدأ خبره ﴿ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ لا نظير له في ذاته ولا في صفاته ولا شريك له في أفعاله ، وهذا تقرير للوحدانية ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ نفي لألوهية غيره وموضع هو رفع بدل من موضع لا إله . هو ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ بدل من هو أو خبران آخران لإلهكم أو خبر مبتدإ محذوف وهو كالحجة على الوحدانية لأنه

لما كان مولى النعم كلها أصولها وفروعها وما سواه إما نعمة أو منعم عليه : لم يستحق العبادة أحد غيره . ولما سمعه المشركون طلبوا آية على ذلك فنزل ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما فيهما من العجائب جمع السموات وأفرد الأرض لأنها طبقات متفاصلة بالذات مختلفة بالحقيقة كل سماء ليست من جنس الأخرى بخلاف الأرضين فكلها من جنس التراب ، ولثقل جمع الأرض ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ بالذهاب والمجيء والزيادة والنقصان والنور والظلمة ﴿وَالْفُلْكِ﴾ السفن ﴿الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ ولا ترسب موقورة ﴿بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ من التجارات والحمل ، والقصد الاستدلال بالبحر وأحواله ، وتخصيص الفلك بالذكر لأنه سبب الخوض فيه والاطلاع على عجائبه ، ولذلك قدمه على ذكر المطر والسحاب لأن منشأهما البحر في غالب الأمر وتأنيث الفلك لأنها بمعنى السفينة ، وقرئ بضمتين على الأصل أو الجمع وضمة الجمع غير ضمة الواحد عند المحققين ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ﴾ مطر «من» الأولى للابتداء والثانية لبيان الجنس والسماء تحتمل الفلك والسحاب وجهة العلو ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسها ﴿وَبَثَّ﴾ عطف على « أنزل » أي فرق ونشر به ﴿فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ ما يدب عليها لأنهم ينمون بالخصب الكائن عنه ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ بالجمع للجمهور وبالإفراد لحمزة والكسائي تقليبها في مهابها قبولا ودبوراً وجنوباً وشمالا وفي أحوالها حارة وباردة وعاصفة ولينة وعقيما ولواقح . والريح أعظم جند الله تعالى تذكر وتؤنث ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ﴾ الغيم المذلل للرياح بأمر الله يسير إلى حيث شاء الله ﴿بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بلا علاقة لا ينزل ولا ينقشع واشتقاقه من السحب لأن بعضه يجر بعضاً ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتدبرون ، وعنه عليه السلام « ويل لمن قرأ هذه الآية ولم يتفكر فيها » واعلم أن دلالة هذه الآيات على وجود الإله ووحدته من وجوه كثيرة يطول شرحها مفصلا ، ولكن الكلام المجمل أنها أمور ممكنة وُجد كل منها بوجه مخصوص من وجوه محتملة وأنحاء مختلفة ، إذ من الجائز مثلا أن لا تتحرك السموات أو بعضها كالأرض ، وأن تتحرك بعكس حركاتها ، فكلٌّ يدل على موجد مريد قادر حكيم متعال عن معارضة غيره ، وفي الآية الحث على النظر . ولما أوضح دليل الوحدانية والألوهية له تعالى ، عقب على من عبد غيره بقوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ مع هذا البرهان الواضح ﴿مَن﴾ موصولة أو موصوفة ﴿يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ غيره ﴿أَندَادًا﴾ أصناماً أو رؤساء يطيعونهم على خلاف طاعة الله ، أو المراد ما هو أعم منهما : أي كل ما يشغل عن الله ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ بالتعظيم والخضوع ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أي كحبهم له أو كحب المؤمنين له ، والجملة في محل نصب صفة « أنداداً » أو رفع صفة « من » إن كانت نكرة ، والمحبة الميل ، ومحبة العبد لله إرادةَ طاعته والاعتناء بتحصيل مراضيه ، ومحبة الله للعبد : إرادة إكرامه واستعماله في الطاعة وصونه عن المعاصي ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ من حب الكفار الأنداد لأنهم لا يعدلون عن الله بكل حال ، والكفار يعدلون عن أربابهم في الشدائد

إلى الله ، ويعبدون الصنم زمناً ، ثم يرفضونه إلى غيره ﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ بالفوقية لنافع وابن عامر : أى تبصر يا محمد ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ باتخاذ الأنداد ، والباقين يرى بالتحتية والفاعل ضمير السامع أو الذين ظلموا ﴿ إذْ يَرَوْنَ ﴾ بالبناء للفاعل للجمهور ، وللمفعول لابن عامر : يبصرون ﴿ الْعَذَابَ ﴾ وإذ بمعنى إذا ﴿ أَنَّ الْقُوَّةَ ﴾ القدرة والغلبة ﴿ لِلَّهِ جَمِيعاً ﴾ حال أى لا شىء منها للأنداد ﴿ وأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ لرأيت أمراً عظيما أو لندموا أشد الندم ، والمعنى : لو يعلم هؤلاء الذين ظلموا باتخاذ الأنداد أن القوة لله جميعاً إذا عاينوا العذاب يوم القيامة لندموا و«أن القوة» سادّ مسدّ مفعولى «يرى» على التحتية وجواب «لو» محذوف أى لندموا أو متعلق الجواب والمفعولان محذوفان : أى لو يرى الذين ظلموا أندادهم لا تنفع لعلموا أن القوة لله ، وعلى قراءة الفوقية فرأى بصرية يتعدى إلى واحد ، وهو الموصول و « أن القوة » بمعنى : لأن القوة ، والجواب محذوف كما قدرنا أولا ، والله أعلم ﴿ إذْ ﴾ بدل من إذ قبله ﴿ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا ﴾ أى الرؤساء ﴿ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾ وهم الأتباع ، أنكروا إضلالهم ، وقرئ بالعكس ، أى تبرأ الأتباع من الرؤساء ﴿ وَ ﴾ قد ﴿ رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ حال أو عطف على تبرأ ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ عطف على « تبرأ » أو على « رأوا » الحال والأول أظهر ، والأسباب : الوُصَل التى كانت بينهم فى الدنيا من الأرحام والمودة ، وأصل السبب الحبل الذى يشد بالشىء فيجتر به أو الذى يرتقى به الشجر ، ثم سمى كل ماجر شيئاً سبباً له ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ ﴾ أى المتبوعين ﴿ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ﴾ اليوم ، و « لو » للتمنى و « نتبرأ » جوابه ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كما أراهم شدة عذابه وتبرأ بعضهم من بعض ﴿ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ السيئة ﴿ حَسَرَاتٍ ﴾ ندامات حال إن كانت « رأى » بصرية ومفعول ثالث إن كانت علمية ﴿ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ بعد دخولها . ونزل فيمن حرم السوائب ونحوها ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الْأَرْضِ ﴾ من للتبعيض ، إذ ليس كل ما فيها يؤكل ﴿ حَلَالًا ﴾ مفعول كلوا أو صفة مصدر محذوف أو حال من « ما فى الأرض » وقيل نزلت فى قوم حرموا على أنفسهم رفيع الأطعمة والملابس ﴿ طَيِّباً ﴾ طاهراً عن كل شبهة صفة مؤكدة ، وكل حلال فيه شبهة فليس طيباً أو بمعنى مستلذاً . قال الثعالبى : الطيب عند مالك : الحلال ، فهو هنا تأكيد لاختلاف اللفظ وهو عند الشافعى المستلذ ، ولذا يمنع أكل الحيوان القذر . اهـ ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ طرق تزيينه ، أى لاتقتدوا به فى اتباع الهوى فتحرموا الحلال أو تحللوا الحرام ، قرأ نافع والجمهور بضم الخاء وسكون الطاء ولابن عامر والكسائى ورواية قنبل وحفص ضمهما وهما لغتان فى جمع خطوة وهى ما بين قدمى الخاطى ، وقرئ بضمتين وهمزة ، وبفتحتين على أنه جمع خطوة وهى المرة من الخطو ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ بيّن العداوة وأبان متعد ولازم ثم بيّن عداوته بقوله ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ ﴾ أى يوسوس ويزين لكم ﴿ بِالسُّوءِ ﴾ أى الإثم ، وأصله ما يسوء صاحبه ﴿ وَالْفَحْشَاءِ ﴾ القبيح شرعاً واستعير الأمر لتزيينه وبعثه لهم على الشرّ

تسفيهاً لرأيهم ، والسوء والفحشاء : ما أنكره العقل واستقبحه الشرع والعطف لاختلاف الوصفين فإنه سوء لاغتمام العاقل به وفحشاء باستقباحه إياه . وقيل : السوء يعمّ القبائح ، والفحشاء أقبح القبائح من الكبائر . وقيل السوء ما لا حدّ فيه ، والفحشاء ما شرع فيه حدٌّ ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا ﴾ عطف على السوء ﴿ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من تحريم ما لم يحرم من الحرث والأنعام وغير ذلك وتحليل المحرمات وفيه دليل على المنع من اتباع الظن المجرد وأما اتباع المجتهد ما أدى إليه ظنه فمستند إلى مدرك شرعى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ للناس الكفار ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ من التوحيد وتحليل الطيبات وإنما عدل عن الخطاب عنهم للنداء على ضلالهم كأنه التفت إلى العقلاء وقال لهم انظروا إلى هؤلاء الحق ماذا يجيبون ﴿ قَالُوا ﴾ لا نتبع ما أنزل الله ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا ﴾ وجدنا ﴿ عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ﴾ من عبادة الأصنام وتحريم الحرث والأنعام على ما يأتى فإنهم خير منا وأعلم ، قال الله تعالى ﴿ أ ﴾ يتبعونهم ﴿ وَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً ﴾ من أمر الدين . الواو للحال أو العطف والهمزة للتوبيخ والتعجيب والرد عليهم فى تقليد الجهال ﴿ وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ إلى حق . وفيه المنع من التقليد وأما تقليد الأنبياء والمجتهدين فى الأحكام فليس بتقليد بل اتباع لما أنزل الله . ثم ضرب لهم مثلا فقال ﴿وَمَثَلُ﴾ أى صفة داعى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى الهدى ﴿ كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ ﴾ يصوّت ﴿ بِمَا لَا يَسْمَعُ ﴾ من المواشى ﴿ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ أى إلا صوته ولا يفهم معناه أى هم فى سماع الموعظة وعدم تدبرها كالبهائم تسمع صوت راعيها ولا تفهمه وقيل هو تمثيلهم ـ فى اتباع آبائهم على ظاهر حالهم جاهلين بحقيقتهم ـ بالبهائم التى تسمع الصوت ولا تفهم ماتحته وهذا يغنى عن الإضمار الذى فى الأول الذى هو من نوع الاحتباك . هم ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ رفع على الذم ﴿ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ الموعظة ثم بين أن ماحرموا حلال فقال ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ﴾ حلالات أو مستلذات ﴿ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ أى تحرزوا أ كل حلاله ومفعول كلوا محذوف أى رزقكم فتكون « من » ابتدائية أو المفعول من طيبات ومن للتبعيض ﴿ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ ﴾ على ما أحل لكم قياماً بحق النعم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ إن صح أنكم تخصونه بالعبادة وتقرون أنه مولى النعم فالعبادة لا تتم إلا بالشكر ، فالمعلق بفعل العبادة هو الأمر بالشكر لا تمامه وهو عدم عند عدمه . ثم بين المحرم فقال ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴾ أى أكلها إذ الكلام فيه وكذا ما بعدها وهى ما لم يذك شرعا ، وألحق بها بالسنة ما أبين من حىّ وخص منها السمك بالحديث الصحيح « هو الحل ميتته » وأما الجراد فليس فيه حديث يعول عليه ، ولنا افتقر إلى الذكاة بما يموت به عند مالك لا الشافعى ، فالحرمة المضافة إلى العين ليس بمجملا إذ العرف يقيدها بالتصرف فى الميتة مطلقاً إلا ما خصه الدليل كالتصرف فى جلد الميتة المدبوغ فى يابس وماء ، ولا يجوز التداوى بها أكلا وطلاء إن كانت عينها قائمة وإن تغيرت بإحراق ونحوه : قيل يجوز ، وقيل لا ﴿ وَالدَّمَ ﴾ أى المسفوح كما فى الأنعام : لا ما خالط اللحم فغير محرم على المشهور لقول عائشة « لو حرم غير المسفوح

لتبيع الناس ما في العروق ، ولقد كنا نطبخ اللحم والبرمة تعلوها الصفرة » . اهـ . وهل خص الكبد والطحال من الدم . قاله الشافعي ، أولا قاله مالك وهو الصحيح : لأن الكبد والطحال ليسا دماً بل هما لحم يشهد لذلك العيان الذي لا يفتقر إلى برهان ﴿ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ ﴾ خص اللحم لأنه معظم المقصود ، وغيره تبع له ؛ وأما الشحم فداخل في اللحم لكن حبه طاهر كسائر الحيوان عند مالك، ونجسٌ عند غيره من الأئمة ﴿ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾ أي ذبح على اسم غيره . والإهلال : رفع الصوت ، وكانوا يرفعونه عند الذبح لآلهتهم ، وذلك المذبوح حرام ولو ذبحه كتابيّ . قال عبدالباقي في شرحه على المختصر : لا يؤكل ذبح الكتابيّ لصنم ما يستحقه دون غيره في زعمه لأنه مما أهل لغير الله بأن قال : باسم الصنم ، بدل : بسم الله ، فإن ذكر اسم الله عليه أيضاً : أكل تغليباً لاسم الله . اهـ . ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ ﴾ أي ألجأته الضرورة إلى أكل شيء مما ذكر فأكله بأن خاف التلف أو شديد أذى ـ ولا يشترط أن يصبر حتى يشرف على الموت ، إذ الأكل حينئذ لا يفيد غالباً ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ طالب فساداً على المسلمين ﴿ وَلَا عَادٍ ﴾ متعد عليهم أو غير باغ للذة ولا عاد قدر الحاجة ﴿ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ في أكله ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ حيث وسّع في الضرورات ، وخرج الباغي : ويدخل فيه القطّاع والخوارج والمسافر في قطع الرحم والغارة على المسلمين وما شاكله من كل عاص بسفره كالآبق والمكاس فلا يحلّ لهم أكل شيء من ذلك ما لم يتوبوا ، وعند الشافعي وأحمد وهو الصحيح من مذهب مالك كما قال ابن العربي في الأحكام قال فيه : فإن أراد الأكل فليتب وليأكل ، وعجباً لمن يبيح ذلك مع التمادي على المعصية فمن قاله فهو مخطئ قطعاً . اهـ . وقال ابن جزي في القوانين : يرخص أكل الميتة للعاصي بسفره على المشهور ، وقيل : لا يباح مع التمادي على المعصية . اهـ . قلت : مذهب أبي حنيفة الترخيص له . ذكره الكواشي في ملخصه . ويجوز للمضطر الأكل حتى يشبع ويتزود حتى يستغني على مذهب مالك ، ومنع ذلك الشافعي ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ من الدنيا ﴿ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ﴾ لأنها مآلهم . ومعنى في بطونهم : ملؤها ، يقال : أكل في بطنه وفي بعض بطنه . ومحل « من الكتاب » نصب على الحال من العائد المحذوف وكذا « في بطونهم » في محل نصب حال مقدرة و « النار » مفعول « يأكلون » ولما كان ما يأكلون يؤديهم إلى النار فكأنهم أكلوها أو يصير ناراً في بطونهم ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ﴾ غضباً عليهم ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أو لا يكلمهم كلاماً يسرهم ولكن بنحو « اخسئوا فيها ولا تكلمون » ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ لا يثني عليهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم وهو النار ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ ﴾ في الدنيا ﴿ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ﴾ المعدة لهم في الآخرة لو لم يكتموا ثم أعجب ملازمتهم لما يوجب لهم النار فقال ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ أي ما أشد صبرهم وهو تعجيب للمؤمنين من ارتكابهم موجباتها من غير مبالاة وإلا فأيّ صبر لهم و « ما » تامة مرفوعة بالابتداء وفاعل « أصبر »

هو الضمير العائد على « ما » أو استفهامية للتوبيخ وما بعدها الخبر ، أو موصولة وما بعدها صلة والخبر محذوف ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذى ذكر من أكلهم النار وما بعده ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ فرفضوه بالتكذيب والكتمان أو فاختلفوا فيه حيث آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه بكتمه ، أو حيث قال بعضهم : سحر ، وبعض : شعر ، وبعض : كهانة ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾ بذلك وهم اليهود أو المشركون ﴿لَفِى شِقَاقٍ﴾ خلاف ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الحق ، ولما كانت اليهود تصلى نحو المغرب وادعوا أنه البر ، والنصارى نحو المشرق وادعوا أنه البر ، نزل رداً عليهم ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ فى الصلاة ﴿قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ لأنه منسوخ ، وقرأ حمزة وحفص : « ليس البر » بالنصب على أنه خبر ليس ، والاسم أن تولوا ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ بتخفيف « لكن » ورفع « البر » لنافع وابن عامر ولغيرهما بالتشديد ، ونصب البر أى ذو البر ، وقرئ « البار » ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ أو بر من آمن بالله ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ﴾ أى الكتب ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ﴾ فى التطوع ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أى على حب المال كما قال عليه السلام لما سئل : أى الصدقة أفضل ؟ « أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر » وقيل الضمير لله أو للمصدر والجار والمجرور فى موضع الحال ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أى القرابة ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ يريد المحاويج منهم ولم يقيد لعدم الإلباس وقدم ذوى القربى لأن إيتاءهم أفضل لقوله عليه السلام : « صدقتك على المساكين صدقة وعلى ذى رحمك اثنتان صدقة وصلة » ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينَ﴾ جمع مسكين الذى أسكنه الفقر وأصله دائم السكون ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافر أو الضيف ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ الذين ألجأتهم الحاجة إلى السؤال . وقال عليه السلام : « للسائل حق » ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ فى تخليصها عام فى إعانة المكاتبين وفك الأسرى وابتياع الرقاب للعتق قربة ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة إذ ما قبله فى التطوع ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ عطف على « من آمن » ﴿إِذَا عَـٰهَدُوا۟﴾ الله أو الناس ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ نصب على المدح ولم يعطف لبيان فضل الصبر على سائر الأعمال ﴿فِى ٱلْبَأْسَآءِ﴾ شدة الفقر لأن البأساء فى الأموال ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ فى الأبدان كالمريض ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ وقت شدة القتال فى سبيل الله ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ فى إيمانهم وادعاء البر واتباع الحق ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الله ، وهذه الآية جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها ، إذ هى تنحصر فى ثلاثة أشياء : صحة الاعتقاد ، وحسن المعاشرة للخلق ، وتهذيب النفس فى المعاملة مع الله . وقد أشير إلى الأول بقوله : « من آمن » إلى « والنبيين » وإلى الثانى بقوله : « وآتى المال » إلى « وفى الرقاب » وإلى الثالث بقوله : « وأقام الصلاة » إلى آخرها . ولذا قال عليه السلام : « من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان » ولما كان من العرب فى الجاهلية من لا يرضى أن يأخذ بعبد إلا حراً ولا بامرأة إلا رجلا ولا برجل حر إلا بمتعدد ، نزل رداً لهم إلى المساواة فى القصاص مع استيفاء الحق ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ﴾ فرض ﴿عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ أى المماثلة

﴿ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾ وصفاً وفعلا ، إذ هى القصاص من قص أثره بأن يفعل بالجانى مثل ما فعل ، والمعنى فرض عليكم القصاص المستوى إن أردتم القصاص لأنه غير واجب تعييناً كما يقال : كتب عليكم الوضوء للنفل إذا أردتموه بشرط أن يكون القتل عمداً وعدواناً ، والقتلى : جمع قتيل ، ويحتمل أن يكون « فى » فيه للسبب ﴿ الْحُرُّ ﴾ يقتل ﴿ بِالْحُرِّ ﴾ ولو والداً مع ولده إذا بين قصد القتل بأن أضجعه وذبحه ، وأما إن رماه بالسلاح أدباً أو حنقاً لم يقتل به ، هذا قول مالك وخالفه سائر الفقهاء فقالوا : لا يقتل بابنه مطلقاً لأن عمر بن الخطاب قضى عليه بالدية مغلظة ولم ينكره باقى الصحابة فأخذ سائر الفقهاء المسألة مسجلة ومالك مفصلة ولا يقتل الحر بالعبد عند مالك والشافعى سواء كان عبده أو عبد غيره ، وقال الحنفى : يقتل بعبد غيره . وقال داود : يقتل بعبده وبعبد غيره ﴿ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ﴾ و بالحر إن شاء أولياء الحر وإن أحيوا العبد فسيده بالخيار فى تركه عبداً لهم أو فكه منهم بدية المقتول ﴿ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ﴾ وبينت السنة أن الذكر يقتل بها عند الأئمة الأربعة خلافاً للحسن البصرى كما تقتل به إجماعاً وأنه يعتبر المماثلة فى الدين فلا يقتل مسلم ولو عبداً بكافر ولو حرًّا لكن عليه التعزير كالحر إن قتل عبداً خلافاً للشافعى والحنبلى والتعزير ضربه مائة وحبسه سنة حرًّا كان أو عبداً وتقتل الجماعة بالواحد خلافاً لابن حنبل والظاهرية ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُ ﴾ من القاتلين بطريق الصلح ﴿ مِنْ ﴾ دم ﴿ أَخِيهِ ﴾ المقتول أو من جهته ﴿ شَىْءٌ ﴾ من العفو لأن « عفى » لازم وفائدته الإشعار بأن بعض العفو كالعفو التام فى إسقاط القصاص وكذا من بعض الورثة وفى ذكر لفظ الأخ تعطف داع إلى العفو وإيذان بأن القتل لا يقطع أخوة الإيمان ، وقيل « عفى » ترك و « شىء » مفعول به وهو ضعيف إذ لم يثبت عفى الشىء بمعنى تركه ، بل أعفاه ، ويسقط القتل بالعفو إلا فى قتل الغيلة فلا بد من قتل القاتل ، وإن عفا المقتول عمداً لزم ورثته خلافاً للشافعى وإن عفا المقتول خطأ عن الديّة كان فى ثلثه إلا أن يجيزه الورثة و « من » مبتدأ شرطية أو موصولة والخبر ﴿ فَاتِّبَاعٌ ﴾ أى فعلى العافى إن أراد الاتباع اتباع القاتل ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ بما يعرف وشرعا بأن يطالبه بالديّة بلا عنف ولا يطلب أكثر منها وترتيب الاتباع على العفو يفيد أن الواجب أحدهما وهو أحد قولى الشافعى وهو رواية أشهب عن مالك والثانى الواجب القصاص والدية بدل عنه فلو عفا ولم يسمها فلا شىء ، ورجح ، وهو رواية ابن القاسم عن مالك وبه قال أبوحنيفة . ﴿ وَ ﴾ على القاتل ﴿ أَدَاءٌ ﴾ الدية ﴿ إِلَيْهِ ﴾ إلى العافى وهو الوارث ﴿ بِإِحْسَانٍ ﴾ بلا مطل ولا بخس ، ودية القاتل عمداً من ماله حالّة وتؤدى العاقلة عمد الصبى والمجنون ، وقال الشافعى عمد الصبى فى ماله ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الحكم المذكور من جواز القصاص والعفو عنه على الدية أوّلا ﴿ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ عليكم ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ بكم حيث وسع عليكم فى ذلك ولم يحتم واحداً منهما كما حتم على اليهود القصاص وعلى النصارى الدية ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ ﴾ الحدود ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ بعد بيانها وعاد إلى ما كان فى الجاهلية كقتل الجانى بعد عفو بعض أو قتل غير القاتل ﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم فى الآخرة

بالنار أو الدنيا بالقتل ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ بقاء عظيم ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ذوى العقول ؛ لأن القاتل إذا علم أنه يُقتل ارتدع فأحيا نفسه ومن أراد قتله فشرع ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ القتل مخافة القود ، وفى هذه الآية كلام فى غاية البلاغة والفصاحة حيث جعل الشيء محل ضده لأن القصاص تفويت للحياة وقد جعل ظرفاً لها ، وفيه المطابقة ، ونص المقصود وغنى عن التقدير وكونه مطرداً وتعظيم لها بتنكير « حياة » وقلة الحروف فقد اختصت هذه الكلمة أعنى القصاص حياة بهذه الخصائص الست على ما قيل هو أوجز كلمة للعرب فى هذا المعنى وهو « القتل أنفى للقتل » وعرّف القصاص ونكّر الحياة ليدل أنّ فى هذا الجنس نوعاً من الحياة الدنيوية والأخروية عظيما لأنه يردع القاتل عن القتل فيحيى نفسه ومن أراد قتله ، وإذا قتله اقتص هو فقط فيسلم الباقون ويصير سبباً لحياتهم ويكون سبباً لحياة القاتل فى الآخرة بأن لا يؤخذ به ، و « حياة » مبتدأ ، و « لكم » و « فى القصاص » إما خبران له أو أحدهما خبر والآخر صلة له أو حال من الضمير المستكن فيه ونداء أولى الألباب لأنهم المتأملون فى حكمة القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس ، وهذه الحكمة هى التى راعى مالك والشافعى وأحمد وجمهور العلماء فى إثبات القصاص فى القتل بالمثقل كالمحدد ، وقال أبو حنيفة : لا قصاص إلا فى القتل بمحدد من حديد أو حجر أو خشب أو ما كان معروفاً بقتل الناس به كالمنجنيق والإلقاء فى النار وأما إن قتله بحجر غير محدد أو خشب غير محدد فلا قود وكذا من تعمد القتل بما لا يقتل غالباً كالسوط والقضيب واللطمة أوجب مالك فيه القود بخلاف باقى الأئمة ولذا قال : إن المكره والمباشر بقتل رجل يقتلان ، وكذا الممسك والمباشر ، واتفقوا أن من ضرب امرأة فسقط جنينها ميتاً فعليه الغرة عبداً أو أمة سواء كان الجنين ذكراً أو أنثى تكون الغرة لورثة الجنين على مواريثهم الشرعية ، وأما لو سقط حياً ثم مات لوجبت فيه الدية ، ومتى وجبت الغرة فعلى الجانى عند مالك وعلى العاقلة عند الحنفى والشافعى وعليه الكفارة عند الشافعى ولا كفارة عليه عند مالك وأبى حنيفة والله أعلم . ﴿كُتِبَ﴾ فرض ﴿عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أسبابه وأماراته من مرض مخوف أو سفر بعيد أو بلوغ غاية السن ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ مالا قليلا أو كثيراً ﴿الْوَصِيَّةُ﴾ مرفوع بكتب وكتب هو متعلق « إذا » إن كانت ظرفية ودال على جوابها إن كانت شرطية لا الوصية لتقدمه عليها وجواب « إن » محذوف أى فليوص ﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالعدل بأن لا يزيد على الثلث ولا يفضل الغنى ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ الله ، وهذا منسوخ بآية الميراث وبحديث « لا وصية لوارث » رواه الترمذى ، ولم ينسخ مفهومها من عدم وجوب الوصية للأجانب بل هو مستحب يخرج من الثلث ، وأما ما يجب على المكلف بيانه كدين أو شيء يتوقع تلفه إن مات فيلزمه المبادرة إلى كتبه ووصيته ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ أى الإيصاء عن وجهه وهو موافق للشرع من شاهد أو وصىّ ﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ عليه ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ﴾ أى الإيصاء المبدل

﴿ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ﴾ فيه إقامة الظاهر مقام المضمر لأنهم الذين خالفوا الشرع والميت برىء منه . قال ابن العربى فى الأحكام : وهذا يدل على أن الدَّين إذا أوصى به الميت خرج عن ذمته وبقى الولى مطلوباً به له الأجر فى قضائه وعليه الوزر فى تأخيره ، لكن ذلك إنما يصح إذا كان الميت لم يفرط فى أدائه ، وأما إذا قدر عليه وتركه ثم أوصى به فإنه لا يزيله عن ذمته تفريط الولى فيه . اهـ . ثم هدد المبدل بقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لقول الموصى ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بفعل الموصى فيجازى عليه ﴿ فَمَنْ ﴾ حضر الوصية و﴿ خَافَ ﴾ علم أو ظن ﴿ مِنْ مُوصٍ ﴾ مخففاً للجمهور ومثقلا لحمزة والكسائى ﴿ جَنَفًا ﴾ ميلا عن الحق خطأ ﴿ أَوْ إِثْمًا ﴾ بأن تعمد ذلك بالزيادة على الثلث أو تخصيص غنى مثلا ﴿ فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ ﴾ بين الموصى والموصَى له بأن نهاهم عن ذلك وحملهم على الشرع ﴿ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ فى ذلك ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ له والوصى بما قال أولا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ ﴾ فرض ﴿ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ الإمساك عن الأكل والشرب والجماع نهاراً مع النية إجماعاً ، فإن سبق الماء إلى حلقه فى المضمضة والاستنشاق أفطر خلافاً لابن حنبل ، وأما الكحل فإن علم أنه لا يصل شىء منه إلى حلقه لم يفطر وإلا أفطر ، وقال أبو مصعب : لا يفطر به مطلقاً وفاقاً للشافعى وأبى حنيفة ، ومنعه ابن القاسم مطلقاً نهاراً وفاقاً لابن حنبل ، وأما الإنزال بقبلة أو مباشرة ففيه القضاء إجماعا والكفارة وفاقاً لابن حنبل ، خلافاً للشافعى والحنفى ، وأما الإنزال بنظر أو فكر فإن استدام فعليه القضاء والكفارة خلافاً لهما فى الكفارة ، وإن لم يستدم فالقضاء خاصة وأما المذى بمباشرة أو قبلة أو استدامة نظر أو فكر ففيه القضاء وفاقاً لابن حنبل وخلافاً لهما وإن لم يستدم النظر والفكر فلا شىء عليه ﴿ كَمَا كُتِبَ ﴾ أى كتاباً مثل ما كتب ﴿ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ من الأمم لكن التشبيه فى أصل الصوم لا فى كيفيته وفيه توكيد للحكم وتهوين على النفس ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ المعاصى فإنه يكسر الشهوة التى هى مبدؤها ﴿ أَيَّامًا ﴾ نصب بصوموا مقدراً دل عليه الصيام على الظرفية أو المفعول به اتساعا ﴿ مَعْدُودَاتٍ ﴾ قلائل أو مؤقتات بعدد معلوم وهى رمضان كما سيأتى ، وقلله تسهيلا على المكلفين ، ولما كان شرط وجوبه الإسلام والبلوغ والعقل والطهارة من الحيض والنفاس والصحة والإقامة فلا يصح من كافر إجماعاً وفى وجوبه عليه خلاف ، ولا يجب على صبىّ وهل يندب له أم لا ؟ خلاف ، ولا مجنون ولا يصح منه ويجب عليه القضاء إن أفاق مطلقاً فى المشهور من مذهب مالك ، وقيل لا يجب عليه قضاء ما كثر من السنين ، وقال الشافعى وأبو حنيفة لا قضاء عليه مطلقاً ، ومن كانت حائضاً أو نفساء لم يصح منها إجماعا وعليها القضاء إجماعا ، وأشار لأحكام المريض والمسافر بقوله ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ ﴾ حين شهوده ﴿ مَرِيضًا ﴾ مرضاً يضرّه الصوم ويعسر معه أو يخاف زيادة مرض ﴿ أَوْ عَلَى سَفَرٍ ﴾ مسافة قصر فأفطر ﴿ فَعِدَّةٌ ﴾ فعليه عدد ما أفطر ﴿ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ يصومها بدله فإن لم يفطر صح صومه خلافاً للظاهرية ، ومن كان لا يطيق الصوم بحال فالفطر واجب عليه ، وإن قدر بضرر ومشقة فيستحب له الفطر ولا يصوم إلا جاهل ، وفى قوله :

« على سفر » إيماء بأن من سافر أثناء اليوم لم يفطر . ودخل فى المريض الهرم العاجز عن الصوم يجوز له الفطر إجماعاً ولا قضاء ولا فدية عليه على المشهور ، والحامل إن خافت على نفسها أو على ما فى بطنها أفطرت وقضت وعليها الفدية فى روايةابن وهب وفاقاً للشافعى . وقال أشهب : يستحب لها ، وقال ابن الماجشون : إن خافت على نفسها لم تطعم لأنها مريضة وإن خافت على ولدها أطعمت وكذا المرضع إن احتاجت إلى الفطر لولدها أفطرت وقضت ، وفى وجوب الفدية عليها روايتان والفدية مُدٌّ من طعام لمسكين عن كل يوم ، وكذا من اشتد به الجوع أو العطش يفطر ويقضى ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ ﴾ أى الصوم إن أفطروا ﴿ فِدْيَةُ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ بإضافة فدية للبيان وجمع مساكين لنافع وابن عامر من رواية ذكوان ، وقرأ الباقون بالتنوين وتوحيد مساكين أى قدر ما يأكله المسكين فى اليوم وهو مُدٌّ من غالب قوت البلد لكل يوم وهذا منسوخ لأنهم كانوا مخيرين أول الإسلام بين الصوم والفدية ثم نسخ بتعيين الصوم بقوله « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » ﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً ﴾ بالزيادة على القدر المذكور ﴿ فَهُوَ ﴾ أى التطوع ﴿ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا ﴾ أيها المطيقون ، مبتدأ خبره ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ من الإفطار والفدية ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه خير فافعلوه ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ مبتدأ وخبر أو خبرُ محذوف ، أى تلك الأيام أو بدل من الصيام على حذف مضاف ، أى كتب عليكم الصيام ، صيام شهر رمضان وعن النبى صلى الله عليه وسلم : « أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان ، والتوراة لست مضين منه ، والإنجيل لثلاث عشرة منه ، والقرآن لأربع وعشرين » ذكره البيضاوى و « الشهر » من « الشهرة » و « رمضان » مصدر « رمض » احترق فأضيف إليه الشهر وجعل علماً ومنع من الصرف للعلمية والألف والنون ـ للارتماض فيه من حر الجوع والعطش أو ارتماض الذنوب فيه أو لوقوعه أيام رمض الحر حيث ما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة ، وإنزال القرآن فيه كان فى ليلة القدر منه أو أنزل فيه جملة إلى السماء الدنيا ثم نزل منجما إلى الأرض ﴿ هُدًى ﴾ حال هادياً من الضلالة ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ آيات ﴿ وَبَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات ﴿ مِنَ الْهُدَى ﴾ مما يهدى إلى الحق من الأحكام ﴿ وَ ﴾ من ﴿ الْفُرْقَانِ ﴾ مما يفرق بين الحق والباطل ﴿ فَمَنْ ﴾ شرط مبتدأ خبره ﴿ شَهِدَ ﴾ حضر ﴿ مِنْكُمُ الشَّهْرَ ﴾ منصوب على الظرف وكذا الهاء فى ﴿ فَلْيَصُمْهُ ﴾ الجواب أى ما شهد وليفطر ما سافر فيه وفى الفاء إشعار بأن إنزال القرآن فيه سببٌ لاختصاصه بوجوب الصوم فيه ، وإذا أخبر مخبر عن رؤية بلد فإن قرب فالحكم واحد ، وإن بعد فكذلك إذا رأى الهلال رؤية فاشية فيجب الصوم على سائر أهل الدنيا ، إلا أن أصحاب الشافعى صححوا فى البعيد أن لكل قوم رؤيتهم ، ويجوز أن تكون « من » موصولة « ومنكم » فى موضع نصب على الحال أى كائناً منكم ومفعول «شهد» بمعنى حضر محذوف أى البلد على التوسع ، وكذا الضمير فى « فليصمه » منصوب على التوسع لا على الظرفية ، لأن الفعل لا يتعدى بضمير الظرف إلا بالتوسع فيه بنصبه نصب المفعول به ، والله أعلم

﴿ وَمَنْ كَانَ ﴾ من شهد الشهر ﴿ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ كرره لئلا يتوهم نسخه بتعميم من شهد ، والصوم خير من الفطر فى السفر عند مالك وأبى حنيفة ، وقال الشافعى : الفطر أفضل ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ ولذا أباح لكم الفطر فى المرض والسفر ولكون ذلك من معنى العلة أيضاً للأمر بالصوم عطف عليه ﴿ وَلِتُكْمِلُوا ﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لشعبة ﴿ الْعِدَّةَ ﴾ أى عدة صوم رمضان ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ ﴾ عند كمالها عند الخروج إلى صلاة العيد ﴿ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ﴾ أرشدكم لمعالم دينكم ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الله ، والجمل علل لما سبق على سبيل اللف نقوله «ولتكملوا» علة الأمر بمراعاة العدة «ولتكبروا» علة الأمر بالقضاء وبيان كيفيته و «لعلكم تشكرون» علة الترخيص والتيسير . ومعنى التكبير : تعظيم الله بالحمد والثناء عليه ولذا عدى بعلى ، وقيل تكبير يوم الفطر و «ما» يحتمل المصدر والخبر ، أى الذى هداكم إليه . ولما سأل جماعة من الأعراب رسول الله صلى الله عليه وسلم «أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه» نزل ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ منهم بعلمى فأخبرهم بذلك ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ أنلته ما سأل وهو تقرير للقرب ووعد بالإجابة ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ﴾ دعائى بالطاعة كما أجيبهم إذا دعونى لمهماتهم أو الدعاء بمعنى الطاعة والإجابة بمعنى الثواب . قال عليه السلام «ما على الأرض رجل مسلم يدعو بدعوة إلا آتاه الله إياها أو كف عنه من الشر مثلها ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم» . اه . وربما أخّر دعوة المؤمن ليسمع صوته فى التضرع ويكثر ثوابه وربما عجل إجابة من لا يحبه لأنه يبغض صوته ﴿ وَلْيُؤْمِنُوا بِي ﴾ يدوموا على الإيمان ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ يهتدون ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ ﴾ الإفضاء ﴿ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ﴾ بالجماع نزل نسخاً لما كان فى صدر الإسلام من تحريمه وتحريم الأكل والشرب بعد العشاء أو النوم ، والرفث كناية عن الجماع ، لأنه لا يكاد يخلو من رفث وهو الإفصاح بما يكنى عنه وعدّى بإلى لتضمنه معنى الإفضاء وإيثاره هنا لتقبيح ما ارتكبوه ولذلك سماه خيانة إذ وقع من بعضهم ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ كناية عن تعانقهما أو احتياج كل منهما إلى صاحبه وستره ، استئناف يبين سبب الإحلال وهو قلة الصبر عنهن وصعوبة اجتنابهن لكثرة المخالطة ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ ﴾ تخونون ﴿ أَنْفُسَكُمْ ﴾ بالجماع ليلة الصيام ، وقع ذلك لعمر بن الخطاب حين سمر عند النبى صلى الله عليه وسلم ورجع فوجد امرأته قد نامت فأرادها فقالت : قد نمت فظن أنها تعتلّ فأتاها ، فلما أصبح غدا إلى النبى صلى الله عليه وسلم واعتذر ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم «لم تكن خليقاً بذلك يا عمر» ووقع أيضاً لغيره ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ قبل توبتكم ﴿ وَعَفَا عَنْكُمْ ﴾ عما ذنوبكم عنكم ﴿ فَالْآنَ ﴾ إذ أحل لكم ﴿ بَاشِرُوهُنَّ ﴾ جامعوهن ، وفيه دليل على جواز نسخ السنة بالقرآن ، وأما اتصال البشرة بالبشرة من غير جماع فى نهار رمضان فمكروه إن علم السلامة وإلا حرُم ﴿ وَابْتَغُوا ﴾ اطلبوا ﴿ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أى أباحه من الجماع أو قدره من الولد وأثبته فى اللوح ،

والمعنى أن المباشر ينبغي أن يكون غرضه الولد لا مجرد الوطء وفيه نهي عن العزل في الحرائر ، وقيل ابتغوا في القرآن ما أبيح لكم فيه وأمرتم به ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ الليل كله ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ ﴾ يظهر ﴿ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ ﴾ وهو أول مايبدو من بياض النهار كالخيط الممدود ﴿ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ الصادق بيان للخيط الأبيض وبيان الأسود محذوف أي من الليل لدلالة هذا عليه ، وبذلك خرجا عن باب الاستعارة إلى باب التمثيل شبه ما يبدو من البياض وما يمتد معه من الغبش بخيطين أبيض وأسود في الامتداد و « من » الأولى لابتداء الغاية والثانية للتبعيض لأن ما يبدو بعض الفجر أو للبيان ، وفي تجويز المباشرة إلى الصبح الدلالة على جواز الإصباح بالجنابة صائماً ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ ﴾ من الفجر بأن ينوى الصيام قبل الفجر ولابد من التعيين فلا تجزئ نية الصوم المطلق خلافاً لأبي حنيفة ، وتجزئ في رمضان نية واحدة في أوله خلافاً للشافعي وأحمد ﴿ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ أي دخوله بغروب الشمس ، والسُّنة تعجيل الفطر وتأخير السحور ، بيان لآخر وقت الصوم وإخراج الليل ينفي صوم الوصال ﴿ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ ﴾ أي نساءكم ولو بالقبلة في المساجد أو خارجها ﴿ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ ﴾ مقيمون بنية الاعتكاف ﴿ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾ متعلق بعاكفون ، نهي لمن كان يخرج وهو معتكف فيجامع امرأته ويعود ، والاعتكاف هو اللبث في المسجد بقصد القربة أقله عند مالك وأبي حنيفة يوم وليلة ؛ لأن الصوم عندهما شرط له بخلاف الشافعي ، ولذا قال : أقله لحظة . وقد جاء الشرع في حديث عمر بتقديره يوماً وليلة فكان أقله ، وجاء فعل النبي صلى الله عليه وسلم بعشرة فكان المستحب فيه ، وفي الآية دليل على أن الاعتكاف لا يكون إلا في مسجد ولايختص بمسجد دون مسجد وأن الوطء يحرم فيه ويفسده لأن النهي يوجب الفساد إلا فيما استثناه الدليل ومن نذر اعتكاف شهر بعينه لزمه متوالياً فإن أخلّ بيوم قضى ما فاته . وقال أحمد : يلزمه الاستئناف ولو باشر امرأته فيما دون الفرج بطل اعتكافه ، أنزل أو لا عند مالك وأبي حنيفة خلافاً للشافعي وأحمد في عدم الإنزال ولا يخرج من معتكفه إلا لحاجة الإنسان وغسل الجنابة ﴿ تِلْكَ ﴾ الأحكام المذكورة وجميع المحرمات ﴿ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ حدها لعباده ليقفوا عندها ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ أبلغ من لا تعتدوها المعبر به في آية أخرى ، لأن هذه في المناهي وتلك في الأوامر ؛ لحديث « إن حمى الله محارمه فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه » ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كما بين لكم ماذكر ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ محارمه ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم ﴾ أي لا تأخذوا ، وخص الأكل لأن مقصود الأموال شهوة البطن والفرج ، وشهوة البطن أقوى ، إذ هي المثيرة لشهوة الفرج ﴿ بَيْنَكُم ﴾ لا يأكل بعضكم مال بعض ، وبين نصب على الظرف أو الحال من الأموال ﴿ بِالْبَاطِلِ ﴾ الحرام شرعاً كالسرقة والغصب والحرابة والغش في البيوع ﴿ وَ ﴾ لا ﴿ تُدْلُوا ﴾ تلقوا ﴿ بِهَا ﴾ أي بحكومتها أو بالأموال رشوة ﴿ إِلَى الْحُكَّامِ ﴾ قضاة السوء ﴿ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا ﴾ طائفة ﴿ مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ ﴾ متلبسين ﴿ بِالْإِثْمِ ﴾ بشهادة الزور واليمين الكاذبة ﴿ وَأَنتُمْ

تَعْلَمُونَ) تحريم ذلك ، أى لا تدل بمال أخيك إلى الحاكم وأنت تعلم أنك أو الحاكم ظالم ، وهذه الآية من قواعد المعاملات وأساس المعاوضات وهى أربعة هذه الآية وقوله وأحل الله البيع وحرم الربا، وأحاديث منع الغرر ، واعتبار المقاصد والمصالح ، قاله ابن العربى فى الأحكام (يَسْئَلُونَكَ) يا محمد (عَنِ الْأَهِلَّةِ) جمع هلال لم تبدو دقيقة ثم تزيد حتى تمتلئ نوراً ثم تعود كما بدأت ولا تكون على حالة واحدة كالشمس ؟ والسائل هو معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم (قُلْ) لهم (هِىَ مَوَاقِيتُ) جمع ميقات (لِلنَّاسِ) يعلمون بها أوقات زرعهم ومتاجرهم وآجالهم فى تصرفاتهم وعدة نسائهم وصيامهم وإفطارهم (وَالْحَجِّ) عطف على الناس ، أى يُعلم بها وقته فلو استمرت على حالة واحدة لم يعرف ذلك ، والميقات مشتق من الوقت ، والفرق بين الوقت والمدة والزمان . أن المدة المطلقة امتداد حركة الفلك من مبدئها إلى منتهاها والزمان مدة مقسومة والوقت : الزمان المفروض لأمر ، قاله البيضاوى (وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ) بضم الباء فى رواية ورش عن نافع وهو قراءة أبى عمرو وحفص وبكسرها للباقين لغتان (مِنْ ظُهُورِهَا) فى الإحرام بأن تنقبوا فيها نقباً تدخلون منه وتخرجون وتتركوا الباب وكانوا يفعلون ذلك ويزعمونه براً ، وقال ابن العربى فى الأحكام : كانوا إذا أهلوا بالعمرة لم يحُل بينهم وبين السماء شىء فإذا خرج الرجل من بيته فرجع لحاجته لا يدخل من باب الحجرة لأجل سقفها أن يحول بينه وبين السماء فيفتح الجدار من وراء البيت ثم يقوم بحجرته فيأمر بحاجته فتخرج إليه من بيته . اهـ . قال البيضاوى : ووجه اتصاله بما قبله أنهم سألوا عن الأمرين أو لما ذكر أنها مواقيت الحج وهذا أيضاً من أفعالهم فى الحج ذكره للاستطراد . اهـ . (وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ) أى ذو البر (مَنِ اتَّقَىٰ) الله بترك مخالفته (وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا) فى الإحرام كغيره (وَاتَّقُوا اللَّهَ) فى تغيير أحكامه والاعتراض على أفعاله (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) تفوزون بالهدى والبر (وَقَاتِلُوا) جاهدوا (فِى سَبِيلِ اللَّهِ) لإعلاء دينه (الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ) من الكفار وهذه الآية أول ما نزل فى القتال على قول ، وقيل أمر أولا أن يقاتل من قاتله فقط ، ثم أمر بقتال المشركين كافة ، وقيل الذين يقاتلونكم هم جميع الكفار إذ كلهم على قصد قتال المسلمين ، وقيل الذين يقاتلونكم غير النساء والصبيان والشيوخ ، ويؤيد الأول ما روى أن المشركين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية « عام ست فى ذى القعدة » وقد ساق الهدى للعمرة فصالحهم على أن يرجع من قابل فيخلوا له مكة ثلاثة أيام وتجهز لعمرة القضاء وخاف المسلمون أن لا تفى قريش ويقاتلوهم وكره المسلمون قتالهم فى الحرم والإحرام والشهر الحرام فنزلت (وَلَا تَعْتَدُوا) بابتداء القتال أو بقتال المعاهد ، أو النساء والصبيان ، أو بالمثلة (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) المتجاوزين ما حد لهم لا يرضى فعلهم ولا يريد لهم الخير وهذه الآية قيل منسوخة بآية « براءة » « وقاتلوا المشركين كافة » أو بقوله (وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ) وجدتموهم على وجه الغلبة فى حل أو حرم ، وأصل الثقف : الحذق فى إدراك الشىء علماً

كان أو علا فهو يتضمن معنى الغلبة والتمكن ﴿ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ مكة وقد فُعل ذلك بمن لم يسلم منهم يوم الفتح ﴿ وَالْفِتْنَةُ ﴾ أى المحنة كالإخراج من الوطن أو المراد بها الشرك منهم ﴿ أَشَدُّ ﴾ أعظم ﴿ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ لهم فى الحرم أو الإحرام الذى استعظمتموه ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أى فى الحرم لا تفاتحوهم بهتك حرمة المسجد الحرام ﴿ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾ فيه، وفى قراءة لحمزة والكسائى بعدم الألف فى الأفعال الثلاثة والمعنى حتى يقتلوا بعضكم فيه لحينئذ هم الذين هتكوا حرمته ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ القتل والإخراج ﴿ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ ومذهب مالك والشافعى أن من قتل غيره خارج الحرم أو ارتد أو زنى أو كان كافراً ثم لجأ إلى الحرم يقتل فيه . وقال أبو حنيفة وأحمد : لم يقتل فيه بل يضيق عليه حتى يخرج . لكن قال ابن العربى فى الأحكام : فإن لجأ إليه كافر فلا سبيل إليه ، وأما الزانى والقاتل فلابد من إقامة الحد عليه إلا أن يبتدئ الكافر بالقتال فيه فيقتل بنص القرآن . اه . ﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا ﴾ عن الكفر والقتال ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لهم ما قد سلف ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ ﴾ توجد ﴿ فِتْنَةٌ ﴾ أى شرك ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ ﴾ الطاعة والشرع ﴿ لِلَّهِ ﴾ وحده لا يعبد سواه وليس للشيطان فيه نصيب ﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا ﴾ عن الشرك بالإسلام أو بأداء الجزية فلا تعتدوا عليهم بقتالهم على الملك ، دل على هذا ﴿ فَلَا عُدْوَانَ ﴾ اعتداء بقتل أو غيره ﴿ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ ومن انتهى فليس بظالم فلا عدوان عليه وقوله « إلا على الظالمين » فى محل رفع خبر « لا » ودخل « إلا » ليفيد الحصر ، المعنى لا تظلموا إلا الظالمين سمى جزاؤهم ظلماً مشاكلة أو المعنى إن تعرضتم المنتهين صرتم ظالمين وينعكس الأمر عليكم ، والفاء الأولى للتعقيب والثانية للجزاء ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ ﴾ أى المحرم مقابل ﴿ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ ﴾ فكما قاتلوكم فيه قاتلوهم فى مثله ردّ لاستعظام المسلمين ذلك ثم احتج عليه فقال ﴿ وَالْحُرُمَاتُ ﴾ جمع حرمة ما يجب أن يحافظ عليه ﴿ قِصَاصٌ ﴾ أى يقتص بمثلها إذا انتهكت . قال ابن العربى فى الأحكام : قال العلماء : فى هذا دليل على أن لك أن تبيح دم من أباح دمك وتحل مالَ من استحل مالك وتأخذ عرض من أخذ عرضك ، ولكن فيه تفصيل ، فمن أباح دمك فباح دمه بحكم الحاكم لا بيدك ، ومن أخذ مالك فخذ ماله إذا تمكنت منه وكان من جنس مالك طعاماً بطعام وذهباً بذهب وأمنت أن تعد سارقاً وإن كان من غير جنس مالك قيل : تأخذه بحكم الحاكم ، وقيل : تتحرى قيمته ، وتأخذ مقدار ذلك وهو الصحيح عندى ، وأما من أخذ عرضك فخذ عرضه ولا تتعد أبويه أو بنيه أو قبيلته ، لكن ليس لك أن تكذب عليه وإن كذب عليك ، فإن المعصية لا تقابل بالمعصية ، فلو قال لك : ياكافر ، فقل له : أنت الكافر ، وإن قال لك : يا زان ، فقصاصك أن تقول : ياكذاب ، وإن مطلك وهو غنىّ دون عذر ، فقل : ياظالم ، أو خذ ماله كما أخذ مالك ، ومن جحدك وديعة وقد استودعك أخرى قيل : تصبر وتؤدى أمانته ، وقيل : يجوز أن تجحده كما جحدك . اه . ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ بالقتال فى الحرم

أو الإحرام أو الشهر الحرام ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ سمى مقابلته اعتداء لشبهها بالمقابل به فى الصورة وهذا فذلكة التقرير المتقدم ولكن اختلف الأئمة فى رعى المماثلة فى القصاص بما قتل به ، قال أبو حنيفة : لاقود إلا بحديدة محتجاً بحديث لم يصح ، وقال الشافعى : يقتص منه بكل ماقتل به إلا الخمر واللواط ، وقال علماؤنا المالكية : يقتل بكل ما قتل به إلا بالمعصية كالخمر واللواط وإلا بالسم والنار وما يدخل فى حد التعذيب فيقتل بالسيف . ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى الانتصار ولا تمتدوا إلى ما لا يحل ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالعون والنصر ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ طاعته الجهاد وغيره ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾ أى أنفسكم ، والباء زائدة ، أو المفعول محذوف أى لا تلقوا أنفسكم بأيديكم ﴿إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ أى الهلاك بالإمساك عن النفقة فى الجهاد أو ترك الجهاد لأنه يقوى العدو عليكم لما فى الترمذى : أن بعض الأنصار لما قال : قد أعز الله الإسلام وكثر ناصروه فلو أقمنا فى أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها نزلت هذه الآية . اه . وهو ردٌّ عليهم وإعلام بأن ترك إنفاق الأموال فى سبيل الله وترك الجهاد بالإقامة لإصلاحها يؤدى إلى الهلاك فى الدنيا والآخرة ، وقيل التهلكة : الخروج إلى الجهاد بغير زاد توكلا أو اتكالا على أموال الناس وذلك لا يجوز ، لأن إعداد الزاد فرض قاله ابن العربى فى الأحكام ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ أعمالكم وأخلاقكم أو تفضلوا على المحاويج ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى يثيبهم ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وإتمامهما إتيانهما تامين بحقوقهما الواجبة والمستحبة ككون النفقة فى كل منها حلالا وإفراد كل منهما بسفر وتجريده عن عرض دنيوى وأجمعوا على وجوب الحج على كل مسلم حر بالغ عاقل مستطيع فى العمر مرة ، وأما العمرة فى سنة عند مالك وأبى حنيفة ؛ وفرض كالحج عند أحمد وأصح قولى الشافعى ؛ والحج إفراد : أن يحج ثم يعتمر بعد فراغه منه ، وهو الأفضل عند مالك والشافعى ، أو تمتع : أن يعتمر فى أشهر الحج ثم بعد الفراغ من أعمال العمرة يحرم بالحج من مكة فيحج فى ذلك العام ، وهو الأفضل عند أحمد ، أو قران : أن يحرم بحج وعمرة معاً أو بعمرة ثم يدخل عليها الحج قبل أن يطوف ، وهو الأفضل عند أبى حنيفة ، وأركان الحج التى لا يجبرها دم : الإحرام ووقوف عرفة وطواف الإفاضة والسعى بين الصفا والمروة بعده ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ مُنعتمْ عن إتمامهما بعدو أو فتنة لأنه المانع المبيح للمحرم التحلل عند مالك والشافعى وأحمد وعند أبى حنيفة لقوله تعالى « فإذا أمنتم » أو بكل مانع كرض وذهاب راحلة وذهاب نفقة أى إن صددتم عن الوصول إلى البيت ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ عليكم أو فالواجب ما استيسر أى تيسر ، أو فأهدوا ما استيسر ومحل « ما » رفع أو نصب ، ومفرد الهدى : الهدية ، وهو فى الأصل مصدر وهو ما يهدى إلى البيت تقربا وهو هنا عند الجمهور شاة ، إذهى الأيسر ، والأوسط بقرة والأعلى بدنة فيتحلل المحرم بذبح الهدى وحلق الرأس حيث أحصر عند مالك والشافعى وأحمد ، وقال أبو حنيفة : يبعث بهديه إلى الحرم ويقيم محرما ويواعد من يذبحه عنه يوماً فإذا ظن أنه ذبح حل ﴿وَلَا تَحْلِقُوا

رُءوسَكُمْ ﴾ هذا الخطاب قيل لجميع المحرمين وقيل للمحصرين خاصة أى لا تتحللوا ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ ﴾ المذكور ﴿ مَحِلَّهُ ﴾ حيث يحل ذبحه وهو مكان الإحصار عند الأئمة الثلاثة فيذبح فيه بنية التحلل ويفرق على مساكينه ويحلق رأسه وبه يحصل التحلل وقال أبو حنيفة : محله الحرم بمِنًى يبعث به إليه كما تقدم وهذا الهدى ليس واجباً فى مشهور مذهب مالك ، وأوجبه أشهب لما فاته من الحج بحصر العدو لقوله « فما استيسر من الهدى » وفاقاً لباقى الأئمة الثلاثة ، والحاصر لا يجوز قتاله كافراً أو مسلماً ، ويجوز إعطاء المسلم الجعل ، وإن كان الحاصر مرضاً ونحوه لم يحل إلا بفعل عمرة بلا تجديد نية ويقضى حجه فى العام القابل إن كان صرورة ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا ﴾ مرضا يحوجه إلى الحلق ﴿ أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ ﴾ كقمل وجراحة أو صداع فإنه يثبت على إحرامه من غير حلق حتى يذبح هديه فإن اضطر لحلق للضرورة فى الإحرام ﴿ فَفِدْيَةٌ ﴾ عليه ﴿ مِنْ صِيَامٍ ﴾ لثلاثة أيام ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ بثلاثة آصع من غالب قوت البلد على ستة مساكين لكل منهم نصف صاع وهو مدان ﴿ أَوْ نُسُكٍ ﴾ أى ذبح شاة « وأو » للتخيير لأن الآية نزلت فى كعب بن عجرة لما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لعلك آذاك هوامك » ، فقال : نعم ، فقال : « احلق وصُمْ ثلاثة أيام أو تصدق بفرَقٍ على ستة مساكين أو انسك شاة » والفرق ثلاثة آصع « ومن » لبيان جنس الفدية وهى ومجرورها فى محل رفع صفة فدية ﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ ﴾ العدو أو الفتنة بأن ذهب أو لم يكن ـ وعن الحنفية : فإذا أمنتم الإحصار ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ ﴾ أى بالتقرب إلى الله بالعمرة فى أشهر الحج وهو غير مكىّ ، مضمومة ﴿ إِلَى الْحَجِّ ﴾ بأن يحج فى عامه بعد العمرة ، أو : فمن استمتع بمحظورات الإحرام بسبب فراغه من العمرة إلى وقت إحرامه للحج ﴿ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ عليه وهو شاة يذبحها تجب عليه عند مالك إذا رمى جمرة العقبة لأن حجه حينئذ يتمّ ويصح منه وصف التمتع ، إذ لا يعلم قبله ، هل يقطعه قاطع . وقال باقى الأئمة : يجب عليه إذا أحرم بالحج . ولو ذبحه قبل يوم النحر لم يجزئه عند مالك وأبى حنيفة ، خلافاً للشافعى وأحمد فى قولهما : يجزئه ولكن الأفضل يوم النحر ، وسمى متمتعاً لتمتعه بإسقاط أحد السفرين أو بمحظورات الإحرام من وقت حله من العمرة إلى إنشائه الحج ، فألزمه الله الهدى كالقارن الذى يجمع الحج والعمرة فى سفر واحد ، وأما المكىّ فلا دم عليه كما يأتى ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ﴾ الهدى لفقده أو فقد ثمنه ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ﴾ عليه ﴿ فِي الْحَجِّ ﴾ أى من إحرامه بالحج إلى يوم عرفة ، فيجب حينئذ أن يحرم قبل السابع من ذى الحجة . والأفضل قبل السادس لكراهة صيام يوم عرفة ، والفطر أتبع للسنة ، وإن فاتت قبل يوم النحر فيجوز صيامها فى أيام التشريق عند مالك وأحمد فى إحدى روايتيه ، والشافعى فى القديم ، خلافاً لأبى حنيفة والشافعى فى أظهر قوليه الجديد . ولا يجوز للمتمتع صيامها إن فقد الهدى إلا بعد الإحرام بالحج عند مالك والشافعى ، وأجاز أبو حنيفة وأحمد فى إحدى الروايتين عنه صومها إذا أحرم بالعمرة ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ إلى وطنكم مكة

أو غيرها فى مذهب مالك وأحمد وأصح قولى الشافعى . أو معنى « رجعتم » ، زعتم من أعمال الحج وهو قول الشافعى الثانى ومذهب أبى حنيفة ، ولا تجزئ السبعة إن قفعت على الرجوع من منًى عند الأكثر ، وفى الكلام التفات عن الغيبة ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ ﴾ فذلكة الحساب ، وفائدتها أن لا يتوهم أن الواو بمعنى أو ﴿ كَامِلَةٌ ﴾ صفة مؤكدة تفيد المبالغة فى محافظة العدد أو فى كمال الشروط . إذ الكمال إنما هو فى الصفات والتمام فى الذوات ، والجملة تأكيد لما قبلها ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الإشارة عند الجمهور إلى ما تقدم من وجوب الهدى أو الصيام على من تمتع ، وعند الحنفىّ إلى التمتع ، إذ لا متعة ولا قران لحاضرى المسجد الحرام عنده : فمن فعل ذلك منهم فعليه دم جناية لا يأكل منه . قاله البيضاوى ﴿ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ بأن كانوا على مسافة القصر عند الشافعى ، أو وراء الميقات عند الحنفىّ : أو غير المكىّ عند مالك . قال ابن العربى فى الأحكام : والصحيح أن كل من تلزمه الجمعة فى المسجد الحرام فهو من حاضريه وإلا فلا ، ومن كان من أهله فلا دم عليه ولا صيام وإن تمتع ، والأهل : كناية عن النفس ، وألحق بالمتمتع فيما ذكر بالسنة : القارن ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فيما يأمركم به وينهاكم عنه وخصوصاً فى الحج ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ لمن خالفه ﴿ الْحَجُّ ﴾ أى وقته ﴿ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ﴾ فتأهبوا له فيها ، وهى شوال وذوالقعدة وعشر ليال من ذى الحجة عند الشافعى ، أو عشرة أيام منه عند مالك وأبى حنيفة ، أو إلى آخر أيام التشريق ، ونسب لمالك أيضاً ، وقيل كله ونسب لابن عمر رضى الله عنه ، والخلاف مبنىّ على أن المراد بوقته هل هو وقت إحرامه أو وقت أعماله أو مالا يحسن فيه غيره من المناسك مطلقا لأن مالكا كره العمرة فى بقية ذى الحجة . ومن قال عشر منه قال لأن إحرامه يخرج بطلوع الفجر يوم النحر ويصح فى ليلة وقوف عرفة وهو الحج . ومن قال عشرة أيام قال : لأن الطواف للإفاضة والرمى فى العقبة ركنان يفعلان فى اليوم العاشر . ومن قال آخر أيام التشريق رأى أن الرمى للجمار يكون فيها وهو من أفعال الحج وشعائره . وفائدة الخلاف أنه إن أخر الطواف للإفاضة إلى آخره لم يكن عليه دم لأنه جاء به فى آخر أيام الحج . قاله ابن العربى فى الأحكام ، وسمى الشهران وبعض شهر : أشهراً ، مجازاً من إقامة البعض مقام الكل ، أو إطلاق الجمع على ما فوق الواحد ﴿ فَمَن فَرَضَ ﴾ على نفسه ﴿ فِيهِنَّ الْحَجَّ ﴾ بالإحرام به والتلبية ﴿ فَلَا رَفَثَ ﴾ أى فلا جماع فيه . أو لا فحش من الكلام ، وأصله ذكر ما يتعلق بالنساء ﴿ وَلَا فُسُوقَ ﴾ خروج عن حدود الشرع بالسباب وارتكاب المعاصى كقتل الصيد ﴿ وَلَا جِدَالَ ﴾ خصام مع الرفقاء والخدم والمكارين ﴿ فِي الْحَجِّ ﴾ فى أيامه نفى الثلاثة على قصد النهى للمبالغة ، والدلالة على أنها حقيقة بأن لا تكون فهى مقبحة فى أنفسها ففى الحج أقبح ، والثلاثة بالفتح للجمهور ولابن كثير وأبى عمرو : رفع الأولين وفتح الثالث وأكثر المفسرين يقولون : المراد بالنفى هنا النهى . قال ابن العربى فى الأحكام : بل أراد فيها نفياً شرعياً ، وإن وجدت فعلى خلاف الشرع وهذه

الدقيقة هى التى فاتت العلماء حتى قالوا : إن الخبر يكون بمعنى النهى وما وجد ذلك قط ولا يوجد . فإنهما يختلفان حقيقة ويتضادان وصفاً . اه . ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ كصدقة وطاعة ﴿يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ فيجازيكم به : حث على الخير عقب به النهى عن الشر . ليستبدل به ويستعمل مكانه ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ لمعادكم أو لسفركم ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ تقوى الله أو ما يتقى به سؤال الناس . لأن الآية كما قيل نزلت فى أهل اليمن وكانوا يحجون بلا زاد ويقولون نحن متوكلون فيكونون كلاً على الناس . قال ابن العربى فى الأحكام : أوجب الله التزود على من كان له مال فإن كان ذا حرفة ينفق فى الطريق أوسائلا فلا خطاب عليه وإنما خاطب سبحانه أهل الأموال الذين كانوا يتركون أموالهم ويخرجون بغير زاد . اه . ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ذوى العقول فمن لم يتقه فلا عقل له ، إذ فائدة العقل تقوى الله . ولما تأثم المسلمون من التجارة فى الحج نزل ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ فى ﴿أَنْ تَبْتَغُوا﴾ تطلبوا ﴿فَضْلًا﴾ رزقاً ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بالربح فى التجارة وكان « عكاظ ومجنة وذو المجاز » أسواقهم فى الجاهلية يقيمونها فى مواسم الحج وينالون معايشهم منها فلما جاء الإسلام تأثموه ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ﴾ دفعتم أنفسكم بكثرة مسرعين : من أفاض الماء صبه بكثرة ﴿مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ موضع معلوم المحدود ، ولم يبين الله وقت الإفاضة ، وبيّنه عليه السلام بفعله فإنه وقف حتى غربت الشمس ولا بد من الوقوف فى جزء من الليل وهو الواجب عند مالك وقال الشافعى وأبو حنيفة : الواجب وقوف النهار . وقال ابن حنبل : يكفى ليلا أو نهاراً أى إن أفضتم بعد الوقوف بها ، وهى علم مرتجل تنوينه للمقابلة لا للصرف وقيل مصروف إذ ليس فيه علة إلا التعريف ، وتاؤه علامة للجمع لا للتأنيث ، ولا تقدر فيه التاء كمساد لتاء الجمع ، سمى الموقف عرفة لأنه نعت لإبراهيم فلما أبصره عرفه أو لالتقاء آدم وحواء وتعارفهما به ، أو لأن الناس يتعارفون به ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بعد المبيت بالمزدلفة بالتلبية والتهليل والدعاء ﴿عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ جبل فى آخر المزدلفة يقال له : قُزَح ، وفى الحديث « أنه : صلى الله عليه وسلم وقف به يذكر ويدعو حتى أسفر جدا » رواه مسلم ، وقيل المشعر الحرام ما بين مأزمَىْ عرفة ووادى « محسر » والأول أصح ، ووصف بالحرام لحرمته ومعنى عنده قربه لأنه أفضل وإلا فالمزدلفة كلها موقف إلا وادى محسر ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ لمعالم دينكم ومناسك حجكم والكاف للتعليل وما مصدرية أو كافة ﴿وَإِنْ﴾ مخففة ﴿كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾ قبل هداه ﴿لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ الجاهلين بعبادته وذكره . ولما كانت قريش وحلفاؤها يقفون بالمزدلفة ترفعاً عن الوقوف مع الناس ، إذ الناس يقفون بعرفة ، فنهوا عن ذلك وأمروا بالوقوف معهم بقوله ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾ ياقريش ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أى من عرفات بأن تقفوا معهم بها وثم للترتيب فى الذكر ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ من ذنوبكم فى تغيير المناسك ، وغير ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لمن تاب وينعم عليه ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ﴾ أديتم ﴿مَنَاسِكَكُمْ﴾ عبادات حجكم بأن رميتم جمرة العقبة ، وطفتم واستقررتم بمنى ، وهى جمع منسك بفتح

السين وكسرها ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ بالتكبير والثناء عليه ﴿ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ ﴾ كما كنتم تذكرونهم عند فراغ حجكم ، وكانوا فى الجاهلية إذا فرغوا من الحج وقفوا بين مسجد منى والجبل فيذكرون فضائل آبائهم ومحاسن أيامهم ﴿ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ من ذكركم إيام ، ونصب أشد على الحال من ذكر المنصوب « باذكروا » إذ لو تأخر عنه لكان صفة له قاله السيوطى فى التكملة . وقال البيضاوى : إما مجرور معطوف على ذكر بجعل الذكر ذاكراً مجازاً والمعنى فاذكروا الله ذكراً كذكركم آباءكم ، أو كذكر أشد منه وأبلغ وإما منصوب بالعطف على آبائكم ، وذكراً بمعنى المذكور أو بمضمر دل عليه المعنى تقديره : أو كونوا أشد ذكراً لله منكم لآبائكم . اه . قلت وعلى مقتضاه « فذكراً » منصوب على التمييز . وقال الكواشى : ومحل « أو أشد » جر عطف على ذكركم ، أو نصب على آبائكم ، وقوله ذكراً نصب تمييزاً وفيه نظر ، قالوا لأن أفعل يضاف إلى ما بعده إذا كان من جنس ماقبله كقولك : وجهك أحسن وجه . وإذا نصبت مابعده كان غير الذى قبله كقولك زيد أفره فرسا فالفراهة للفرس لا لزيد والمذكور قبل أشد هنا هو الذكر ، والذكر لا يذكر والقياس الجر بالإضافة ، ووجه نصبه بجعل الذكر ذاكراً مجازاً إلى أن قال « أو أشد » نصب بمضمر تقديره : واذكروه ذكراً أشد من ذكركم لآبائكم . اه . ثم أومأ إلى اختلاف أغراض الداعين فقال ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا ﴾ نصيباً من الجاه والمال ﴿ فِي الدُّنْيَا ﴾ فيؤتاه فيها ﴿ وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ نصيب وهؤلاء هم الكفار ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ نعمة كالعافية والرزق الواسع والعلم النافع والعمل الصالح ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ هى الجنة والقرب من الله ﴿ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ باجتناب الحرام والشبهات وهؤلاء هم المؤمنون ، والقصد الحث على طلب خير الدارين كما وعد على الثواب عليه بقوله ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ ﴾ ثواب ﴿ مِنْ ﴾ أجل ﴿ مَا كَسَبُوا ﴾ عملوا من الحج والدعاء ﴿ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ يحاسب الخلق كلهم فى قدر نصف نهار من أيام الدنيا ، لحديث بذلك فبادروا الحساب بالطاعات ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ بالتكبير عند رمى الجمرات ، وذبح القرابين ، وأدبار الصلوات من ظهر يوم النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق عند مالك والشافعى . ومن صلاة الصبح يوم عرفة وينقطع العصر من يوم النحر عند أبى حنيفة ﴿ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ﴾ أى أيام التشريق الثلاثة بعد يوم النحر وأيام الرمى والمعلومات أيام النحر فالأول معلوم غير معدود واليومان بعده معدودان معلومان والرابع معدود غير معلوم ﴿ فَمَنْ تَعَجَّلَ ﴾ استعجل بالنفر من منى ﴿ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ أى فى ثانى أيام التشريق فلم يمكث حتى يرمى فى الثالث واكتفى برمى جماره فى يومين ﴿ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ بالتعجيل ﴿ وَمَنْ تَأَخَّرَ ﴾ بها حتى بات ليلة الثالث ورمى جماره بعد الزوال وأجازه أبو حنيفة قبل الزوال ﴿ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ بذلك أى هم مخيرون فى ذلك ، وهو رد على أهل الجاهلية أى منهم من أثم المتعجل ومنهم من أثم المتأخر . ونفى الإثم ﴿ لِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ الله فى حجه لأنه الحاج على الحقيقة ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾

فى جميع أموركم ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ فى الآخرة فيجازيكم بأعمالكم وأصل الحشر الجمع وضم المتفرق . ونزل فى المنافقين ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ متعلق بالقول أى ما يقوله فى أمور الدنيا وأسباب المعاش ، أو يعجبك أى لفصاحته ، ولا يعجبك فى الآخرة لمخالفة قوله لاعتقاده ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ أنه موافق : لقوله : الله شاهد على ما فى قلبى من محبتك ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ أى شديد الخصومة لك ، ولأتباعك لعداوته لك ، والخصام بمعنى المخاصمة أو إضافة الألد إليه بمعنى فى أو الخصام جمع خصم أى أشد الخصوم خصومة . قال ابن الأثير : اللدد : الخصومة الشديدة . وقال التوربشتى : الأول ينبئ عن الشدة والثانى عن الكثرة . وقال شارح المشكاة : المعنى أنه شديد فى نفسه بليغ فى خصومته فلا تكرار . اه . قال السدى نزلت الآية فى الأخنس بن شريق الثقفى أظهر الإسلام وكان حسن المنظر حلو المنطق يوالى رسول الله يحلف أنه مؤمن به ومحب له فيدنى مجلسه فأكذبه الله فى ذلك . اه . والأقوى أنه صفة لكل منافق ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ ﴾ انصرف منك أو إذا صار والياً وغلب ﴿ سَعَىٰ ﴾ مشى ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ﴾ كما حكى أن الأخنس المذكور كان بينه وبين ثقيف عداوة فأحرق زروعهم وعقر مواشيهم ليلا ، وكما يفعله ولاة السوء لمن عادوه من القتل وإتلاف الأموال والذرارى ، وكما يفعله الظلمة من الظلم حتى يمنع الله المطر بشؤمهم فيهلك الحرث والنسل ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ لا يرضى به فاحذروا غضبه عليه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ فى فعلك ﴿ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ ﴾ حملته الأنفة وحمية الجاهلية على العمل ﴿ بِٱلْإِثْمِ ﴾ الذى أمر باتقائه أى الظلم ، ومحله نصب حال من العزة أو من الضمير أى ملتبسة ، أو ملتبساً بالإثم ﴿ فَحَسْبُهُۥ ﴾ كافيه ﴿ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ الفراش هى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى ﴾ يبيع ﴿ نَفْسَهُ ﴾ يبذلها فى طاعة الله الجهاد أو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى يقتل ﴿ ٱبْتِغَآءَ ﴾ طلب ﴿ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ رضاه ، ومن عام فى كل من بذل نفسه فى مرضاة الله ، وقيل نزلت فى أهل الرجيع « عاصم بن ثابت » وجماعته ، وقيل فى الزبير والمقداد ، لما قال عليه السلام «من ينزل خبيبا عن خشبته فله الجنة» . فقال : أنا وصاحبى المقداد وفعلا ذلك ، وقيل فى « صهيب بن سنان » لما آذاه المشركون بمكة هاجر إلى المدينة مع ماله فأدركوه فقال لهم : أنا شيخ كبير لا أنفعكم إن كنت معكم ولا أضركم إن كنت مع غيركم فخلونى وما أريد وخذوا مالى فأخذوا ماله وتركوه وعلى هذا فشرى بمعنى اشترى . قال الثعالبى : حكى قوم شرى بمعنى اشترى ، ويحتاج إلى هذا من تأول الآية فى صهيب لأنه اشترى نفسه بماله . اه ﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ حيث أرشدهم لما فيه رضاه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱدْخُلُوا فِى ٱلسِّلْمِ ﴾ بفتح السين لنافع وابن كثير والكسائى وكسرها للباقين : الإسلام والطاعة ولذا يطلق فى الصلح ﴿ كَآفَّةً ﴾ حال من السلم أى فى جميع شرائعه وكافة اسم للجملة أصلها من الكف أى الجمع لأنها تكف الأجزاء من التفرق ، والسلم تؤنث

كالحرب ، كقول الشاعر : السلم تأخذ منها ما رضيت به • والحرب يكفيك من أنفاسها جُرَعُ
والخطاب فى المنافقين الذين آمنوا ظاهراً أن يدخلوا فى الإسلام بكليتهم أو فى أهل الكتاب المسلمين حيث عظموا السبت وأبوا أكل الإبل وشرب ألبانها ، وفى المسلمين جميعاً فى أحكام الشرع كلها ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ طرق تزيينه بالتفريق ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ بين العداوة ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ﴾ ملتم عن الدخول فى جميعه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الحجج الظاهرة على أنه حق ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب قادر لا يعجزه شىء عن انتقامه منكم ﴿حَكِيمٌ﴾ فى صنعه لا ينتقم إلا بالحق . روى أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ هنا فغلط فقال فإن الله غفور رحيم ، فقال الأعرابى : ما هذا كلام الله لا يذكر الحكيم الغفران عند الزلل لأنه إغراء عليه ثم أخبر أنه عزيز حكيم فاستحسنه ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ استفهام بمعنى النفى ولذا جاء بعده إلا أى ماينتظر التاركون الدخول فيه ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ بأسه ، حذف للدلالة عليه بقوله «عزيز حكيم» أو جاء حذف مضاف أى عذابه ﴿فِي ظُلَلٍ﴾ جمع ظلة ﴿مِنَ الْغَمَامِ﴾ السحاب ، وهى مظنة الرحمة ، فإذا جاءهم العذاب منه كان أفظع ومن العلماء من لم يتأول مثل هذا ويقول اقرأوه كما جاء بلا كيف ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ بالرفع عطف على اسم الجلالة ، وقرئ بالجر عطفاً على ظلل ، أو الغمام لأنهم الواسطة فى إتيان أمره ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أى تم أمر هلاكهم ، وضع الماضى موضع المستقبل لدنوه وتيقن وقوعه ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ بالبناء للمفعول لنافع وابن كثير وأبى عمرو وعاصم والفاعل للباقين فى الآخرة ، فيجازى لأنه مَلَّكَ بعض العباد بعض الأمور فى الدنيا ، ثم ترجع إليه فى الآخرة : أى ترجع حيث كانت ﴿سَلْ﴾ يا محمد ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ تبكيتاً ﴿كَمْ آتَيْنَاهُمْ﴾ وكم خبرية أو استفهامية للتقرير معلقة «سل» عن المفعول الثانى وهى ثانى مفعولى «آتينا» ، ومحلها النصب أو الرفع بالابتداء على حذف العائد من الخبر وقوله ﴿مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ معجزة ظاهرة تمييزكم ومن للفصل إذ الأحسن إذا فصل بين كم ومميزها أن يؤتى بمن أى كثيراً من الآيات ، أعطيناهم فبدلوها كفراً كما تقدم فى تذكيرهم النعم ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ ما أنعم به عليه من الآيات بالتأويل الزائف والتحريف لأنها سبب الهداية ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ كفرا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فيعاقبه أشد عقوبة لأنه ارتكب أشد جريمة ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أى حسنت فى أعينهم وأشربت فى قلوبهم فأحبوها وأعرضوا عن غيرها والمزين هو الله على الحقيقة والشيطان على المجاز ﴿وَ﴾ هم ﴿يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من لا حظ لهم فيها لفقرهم «كعمار وبلال وصهيب» أى يستهزءون بهم على رفضهم الدنيا ويتعالون عليهم بالمال ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الدنيا وهم هؤلاء ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لأنهم فى جنة عالية وهم فى نار هاوية ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ فى الدارين ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير فيوسع فى الدنيا استدراجا تارة وابتلاء أخرى ولعله يرزق المسخورين ملك أموال الساخرين ورقابهم . قال عبد الرحمن الثعالبى فى

الجواهر الحسان تفسيره : فإن تشوّفت نفسك أيها الأخ إلى هذه الفوقية ونيل هذه الدرجة العليّة فارفض دنياك الدنية وازهد فيها بالكلية لتسلم من كل آفة وبلية واقتد فى ذلك بخير البرية ، قال عياض فى شفائه : فانظر رحمك الله فى سيرة نبينا محمد عليه السلام وخُلقه فى المال تجده قد أوتى خزائن الأرض وجبيت إليه الأخماس وهادته جماعة من الملوك فما استأثر بشيء من ذلك ولا أمسك درهما منه بل صرفه مصارفه وأغنى به غيره وقوّى به المسلمين ومات صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة فى نفقة عياله واقتصر من نفقته وملبسه على ماتدعوه ضرورته وزهد فيما سواه . اه . ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ متفقين على الحق فيما بين آدم وإدريس أو نوح أو بعد الطوفان أو متفقين على الجهالة فى الفترات فاختلفوا ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ ﴾ إليهم ﴿ مُبَشِّرِينَ ﴾ من آمن بالجنة ﴿ وَمُنذِرِينَ ﴾ من كفر بالنار ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ بمعنى الكتب ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ متعلق بأنزل ﴿ لِيَحْكُمَ ﴾ به ﴿ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ من الدين وفاعل « يحكم » هو الله أو النبى أو الكتاب أو فيما التبس عليهم ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ ﴾ أى الدين أو الكتاب ﴿ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ ﴾ أى الكتاب عكسوا الأمر فجعلوا ما أنزل لإزالة الاختلاف : سبباً للاختلاف ﴿ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ الحجج الظاهرة على التوحيد ومن متعلقة باختلف ولم تمنع إلا من ذلك كقولك ما قام إلا زيدٌ يوم الجمعة وما بعد «إلا» مقدم على الاستثناء فى المعنى ﴿ بَغْيًا ﴾ حسداً وحرصاً على الدنيا من الكافرين ﴿ بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ ﴾ بيان لما اختلفوا فيه ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ بإرادته ولطفه ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ هدايته ﴿ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ لا يضل سالكه وهو طريق الحق . ونزل فى جهد أصاب المسلمين فى الأحزاب أو فى أحد أو فى الهجرة ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ خاطب بهذا النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بعد ما ذكر اختلاف الأمم على الأنبياء بعد مجيء الآيات تشجيعاً لهم على الثبات مع مخالفيهم و « أم » منقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار ﴿ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ﴾ شبه ما أتى ﴿ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ﴾ من المؤمنين من المحن وهى الأمراض والآلام والمصائب فتصبروا كما صبروا ، والواو فى ولما للحال . والجملة بعدها نصب عليها و «لما» حرف جزم معناها النفى كـ « لم » ، وفيها توقع ولذا جعل مقابل قد ﴿ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ ﴾ شدة الفقر ﴿ وَالضَّرَّاءُ ﴾ المرض والجوع ، بيان لما تقدم على الاستئناف ﴿ وَزُلْزِلُوا ﴾ أزعجوا بأنواع البلاء ﴿ حَتَّىٰ يَقُولُ ﴾ بالرفع لنافع على حكاية حال ماضية والنصب للباقين على إضمار «أن» المعنى على الأول حتى قال ﴿ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ استبطاء للنصر لتناهى الشدة عليهم واستطالة المدة ﴿ مَتَىٰ ﴾ يأتى ﴿ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ الذى وعدناه فأجيبوا من قبل الله ﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ إتيانه وفى الآية دليل على أن الوصول إلى الله والفوز بالكرامة عنده إنما يكون بعد رفض الهوى واللذات ومكابدة الشدائد والرياضات ، وأن النصر يأتى بعد اليأس والاستبعاد . قال الكواشى : « حتى » لاتنصب إلا فعلا مستقبلا ولا تنصبه إذا كان حالا

نحو شربت الإبل حتى يجيء البعير يجر بطنه فهى حال ماضية محكية و «حتى» التى يرفع الفعل بعدها ليست الجارة ولا العاطفة وإنما هى الداخلة على الجمل والتى تنصب الأفعال بعدها بمعنى إلى أن، بمعنى كما فى الآية المتقدمة هى الجارة وهى للغاية والفعل بعدها ماض معنى مستقبل لفظاً، والتى تنصب الأفعال بعدها بمعنى كى هى العاطفة والفعل بعدها مستقبل لفظاً ومعنى نحو أسلمت حتى أدخل الجنة فالإسلام قد وجد والدخول لم يوجد. اهـ. ولما سأل عمرو بن الجموح الأنصارى وكان شيخاً ذا مال عن النفقة ومصرفها نزل ﴿يَسْئَلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ ﴿مِن﴾ صدقة التطوع وعلى من ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ بيان لـ «ما» شامل للقليل والكثير وفيه بيان المنفق الذى هو أحد شقى السؤال وأجاب عن المصرف الذى هو الشق الآخر بقوله ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ هم أولى به. قال ابن العربى فى الأحكام: ولا شك أن الحنوّ على القرابة أبلغ، ومراعاة أدنى الرحم أوقع، لما قال النبى صلى الله عليه وسلم لزينب امرأة عبد الله بن مسعود حين قالت أتجزئنى الصدقة على زوج وأيتام لى فى حجرى؟ فقال لها: لك أجران: أجر الصدقة، وأجر القرابة. وفى رواية: زوجك وولدك أحق من تصدقت عليهم، وروى النسائى: أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: يد المعطى العليا أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك أدناك. اهـ ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ إنفاق وغيره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فمجاز عليه ﴿كُتِبَ﴾ فرض ﴿عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ للكفار لإعلاء كلمة الله، والبغاة والمحاربين للصالح، والجهاد فرض على الكفاية عند الجمهور إذا قام به البعض سقط عن الباقين، وقيل إذا حميت أطراف البلاد وسدت الثغور رجع نفلا. ويجب بتعيين الإمام وبفجأ العدو ولاستنقاذ أسرى المسلمين من أيدى الكفار ﴿وَهُوَ﴾ الواو للحال ﴿كُرْهٌ﴾ أى مكروه ﴿لَّكُمْ﴾ طبعاً لمشقته وقرئ بفتح الكاف، وهما لغتان مصدر وصف به مبالغة ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وهو جميع ما كلفتم به فإن الطبع يكرهه وهو مناط صلاحكم وسبب فلاحكم ﴿وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ وهو جميع ما نهيتم عنه فإن النفس تحبه وتهواه وهو هلاكها ولعل لكم فى القتال ـ وإن كرهتموه ـ خيراً لأن فيه إما الظفر والغنيمة أو الشهادة والأجر، وفى تركه وإن أحببتموه شراً لأن فيه الذل والفقر وحرمان الأجر، وذكر «عسى» لأن النفس إذا ارتاضت ينعكس الأمر عليها، ومحل «أن» فى الموضعين رفع فاعل «عسى» ومحل «وهو» فيهما نصب صفة «شيئاً» أو حال منه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما هو خير لكم ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك فبادروا إلى ما يأمركم به وفيه دليل على أن الأحكام تتبع المصالح الراجحة وإن لم تعرف عينها، ولما هاجر عليه السلام إلى المدينة فى ربيع الأول وأذن له فى القتال ودخل يتجهز له إلى صفر وخرج حتى بلغ ودان وهى غزوة الأبواء يريد قريشاً وبنى ضمرة فوادعته بنو ضمرة ثم رجع فبعث سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب فلقى قريشاً بالحجاز فلم يكن قتال بل أفلت الكفار إلا أن سعداً رمى بسهم فكان أول سهم رمى فى سبيل الله وقبل

رجوع عبيدة بعث حمزة بن عبد المطلب فلقوا قريشاً وحجز بينهم مجدى بن عمرو الضمرى ثم خرج الرسول فى ربيع الأول لغزوة بواط ورجع ولم يلق كيداً ، ثم خرج فى جمادى الأولى إلى العشيرة وادع فيها بنى مدلج وبعد رجوعه أغار كرز على سرح المدينة فخرج الرسول بأصحابه واتبعه حتى بلغ بدراً ولم يدركه فرجع ثم بعث فى جمادى الآخرة « عبد الله بن جحش الأسدى » ابن عمته أميمة قبل بدر بشهرين مع ثمانية من المهاجرين وهم أبو حذيفة بن عتبة ، وسعد بن أبى وقاص ، وعكاشة بن محصن ، وعتبة بن غزوان ، وعامر بن ربيعة ، وواقد بن عبد الله ، وخالد بن البكير ، وسهيل بن بيضاء ، وكتب لابن جحش كتاباً وأمره على السرية ، وقال : سر على اسم الله ولا تنظر فى الكتاب حتى تسير يومين ثم تفتحه وتنظر ولا تكرهن أحداً من أصحابك على السير معك ؛ فلما فتحه بعد يومين إذا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فسر على بركة الله بمن معك حتى تنزل نخلة فارصد بها عير قريش لعلك تأتينا بخبرهم » فقال : سمعاً وطاعة . فأطاع له جميع أصحابه فساروا حتى نزلوا بطن نخلة بين مكة والطائف ، فمرت بهم عير لقريش أخذوا تجارات من الطائف وفى العير عمرو بن عبد الله الحضرمى والحكم بن كيسان وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ونوفل بن عبد الله المخزوميان مستهل رجب والسرية تشك فى استهلاله وتظن أنها فى آخر يوم من جمادى الآخرة فرمى واقد بن عبد الله السهمى عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله فكان أول قتيل من المشركين وأسروا الحكم وعثمان فكانوا أول أسيرين فى الإسلام وأعجزهم نوفل هرباً وقدموا على رسول الله مع العير والأسيرين فسمعوا أن هلال رجب قد استهل يوم قتالهم فعيّرهم كفار قريش باستحلال الشهر الحرام وكتبوه إلى رسول الله تعييراً فقال عليه السلام للسرية ما أمرتكم بالقتال فى الشهر الحرام وأوقف أمر العير والأسيرين ، وأكثر الناس فى ذلك وسألوا رسول الله عن ذلك ؛ فنزل ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ المحرم : رجب ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ بدل اشتمال ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أى وزر عظيم : مبتدأ وخبر ، وجاز الابتداء بالنكرة لوصفها بفيه ، والجمهور على أن هذا منسوخ بقوله « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » ونحوها وبغزوات النبى عليه السلام فى الأشهر الحرم ، ومن العلماء من قال لا يجوز أن يقاتلوا فيه إلا أن يقاتلونا ويروى عن عطاء والصحيح قول الجمهور ﴿وَصَدٌّ﴾ مبتدأ أى منع الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دين الإسلام ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ بالله ﴿وَ﴾ صد عن ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ مكة ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾ وهم النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون وخبر المبتدأ ﴿أَكْبَرُ﴾ أعظم وزراً ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ من القتال فيه الذى فعلته السرية خطأ وبناء على الظن ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ الشرك وإخراج المؤمنين منكم ﴿أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ لكم فيه ، ولما نزلت هذه الآية أخذ رسول الله العير فعزل منها الخمس فكان أول خمس فى الإسلام وأول غنيمة قسمت فقسم الباقى على أصحاب السرية وبعث أهل مكة فى فداء أسيريهم ففدوهما فأما « الحكم بن كيسان » فأسلم وأقام مع رسول الله بالمدينة حتى قتل يوم

بئر معونة شهيداً وأما « عثمان بن عبد الله » فرجع إلى مكة ومات بها كافراً وأخوه نوفل الذى هرب هو الذى سقط بفرسه يوم الأحزاب فحطها جميعاً وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى هذه القصة أبياتاً وهذه منها :

« تعدون قتلًا فى الحرام جريمةً ۞ وأعظم منه لو يَرَى الرشدَ راشدُ
صدودُكُمْ عما يقولُ محمدٌ ۞ وكفرٌ به والله راءٍ وشاهدُ
سَقَينا مِنَ ابنِ الحضرمىِّ رماحَنَا ۞ بنخلةَ لما أوقدَ الحربَ واقد »

﴿ وَلَا يَزَالُونَ ﴾ أى الكفار ﴿ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ حَتَّىٰ ﴾ كى ﴿ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ ﴾ إلى الكفر إخبار عن دوام عداوة الكفار وحتى للتعليل ﴿ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ قدروا استبعاد لاستطاعتهم ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ ﴾ طوعاً بتصريح الكفر أو بلفظ يقتضيه أو بفعل يتضمنه بالقرائن ﴿ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَـٰئِكَ حَبِطَتْ ﴾ بطلت ﴿ أَعْمَالُهُمْ ﴾ الصالحة ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ بمجرد الارتداد فلا اعتداد بها ولا ثواب فيها ﴿ وَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ بموتهم على الكفر فالارتداد علة الحبوط والموت على الكفر علة الخلود فى النار فأعمال المرتد محبطة وإن رجع إلى الإسلام فلا يعتد بما فعل قبل عند مالك وأبى حنيفة خلافاً للشافعى وأحمد قالا : إن رجع إلى الإسلام يثاب على عمله ولا يعيده كالحج مثلا ويستتاب المرتد وإن لم يتب قتل وتبين زوجته عنه وماله فىء للمسلمين لا يرثه ورثته إلا أن يكون عبداً فماله لسيده والمرأة كالرجل خلافاً لأبى حنيفة القائل : إن الحرة تحبس حتى تسلم ، والأمة يجبرها سيدها على الإسلام . ولما ظن السرية أنهم إن سلموا من الإثم فلا يحصل لهم أجر ، نزل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾ فارقوا أوطانهم وعشائرهم ﴿ وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ لإعلاء دينه ، كرر الموصول لتعظيم الهجرة والجهاد كأنهما مستقلان فى تحقيق الرجاء ﴿ أُولَـٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ﴾ ثوابه ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ للمؤمنين : قال قتادة : « أثنى الله على الصحابة بالإيمان والهجرة والجهاد وهم خيار الأمة ثم جعلهم أهل رجاء فمن رجا طلب ومن خاف هرب » . اهـ . قال البيضاوى : « أثبت لهم الرجاء إشعاراً بأن العمل غير موجب ولا قاطع فى الدلالة لا سيما والعبرة بالخواتم » . ولما كان الخمر أول الإسلام حلالا إذ نزل فيها « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً » فكانوا يشربونها وتقع مفاسد بسببها بينهم ، لجاء عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل فى نفر من الصحابة إلى رسول الله فقالوا : أفتنا فى الخمر فإنها مذهبة للعقل نزل : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ القمار ما حكمهما ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ فِيهِمَا ﴾ فى تعاطيهما ﴿ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ عظيم ، وفى قراءة حمزة والكسائى بالمثلثة لما يحصل بهما من المخاصمة والمشاتمة والمقاتلة ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ باللذة والفرح فى الخمر وإصابة المال بلا كد فى الميسر ﴿ وَإِثْمُهُمَا ﴾ من المفاسد ﴿ أَكْبَرُ ﴾ أعظم ﴿ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ وقال الكواشى :

إثمهما بعد التحريم أكبر من نفعهما قبله . اه . ولما نزلت شربها قوم وامتنع آخرون ، ثم دعا عبد الرحمن ابن عوف ناساً منهم فشربوا فسكروا فحضرت الصلاة فقدموا أحدهم فقرأ قل يا أيها الكافرون أعبد بحذف لا فنزل «لا تقربوا الصلوٰة وأنتم سكرٰى» فقل من يشربها ثم دعا عتبان بن مالك سعد بن أبى وقاص فى وليمة له فسكروا وافتخروا فأنشد سعد شعراً فيه هجاء الأنصار فضربه أنصارى بلحى بعير فشجه فشكاه إلى رسول الله فنزلت آية المائدة لحرمها : والخمر فى الأصل مصدر خمره ستره سمى به عصير العنب والتمر إذا اشتد وغلا لأنه يخمر العقل أى يستره ، وأجمع الأئمة الأربعة على تحريم الخمر ونجاستها وأن شرب قليلها وكثيرها يوجب الحد وأن من استحل شربها حكم بكفره وأن عصير العنب إذا اشتد وقذف زبده فهو خمر ، واتفق جمهورهم على أن كل شراب يسكر كثيره فقليله حرام وأنه يسمى خمراً وفى شربه الحد سواء كان من عنب أو زبيب أو حنطة أو شعير أو ذرة أو أرز أو عسل أو لبن أو نحو ذلك نيئاً كان أو مطبوخاً خلافاً لأبى حنيفة قال نقيع التمر والزبيب إذا اشتد كان حراماً قليله وكثيره لكن لا يسمى خمراً فإن أسكر ففى شربه الحد وهو نجس فإن طبخ حل ما غلب على ظن الشارب منه أنه لا يسكر وأما نبيذ الحنطة والأرز ونحوها فحلال عنده نقيعاً أو مطبوخاً وإنما يحرم المسكر منه فقط ويحد فيه واتفق الأئمة على أن حد العبد على النصف من حد الحر وأنه يكون بالسوط : لكن روى عن الشافعى أنه يقام بالأيدى والنعال وعلى أن من غص بلقمة ولم يجد غير خمر ما يسيغها به يجوز له إساغتها به على كل حال ، وحد شارب الخمر الحر عند مالك وأبى حنيفة ثمانون وعند الشافعى وأحمد أربعون ولو أقر بشربها ولم يوجد منه ريحها حد عند الثلاثة خلافاً لأبى حنيفة ولو وجد منه ريحها ولم يقر حُدّ عند مالك فقط خلافاً للثلاثة ولا يجوز شربها لضرورة العطش والتداوى خلافاً لأبى حنيفة قال : يجوز للعطش لا للتداوى وللشافعى يجوز القليل للتداوى والعطش ويجتنب وقت الضرب الوجه والفرج والقلب والدماغ والخواصر بإجماع ، وأما الميسر فمصدر سمى به القمار لأخذ مال الغير فيه يسراً ، وفى الجواهر الحسان قال ابن سيرين والحسن وابن عباس وابن المسيب وغيرهم : كل قمار ميسر من نرد وشطرنج ونحو ذلك حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب . اه . واللعب بالنرد ولو مرة حرام فى مذهب مالك ولو لم يكن فيه قمار أى دفع مال ومثله الطاب وكذا إدامة الشطرنج على المذهب ، انظر عبدالباق : وصحح القرافى أن اللعب بالشطرنج مكروه وقال الخازن فى لباب التأويل : النرد والشطرنج من الميسر ومذهب أبى حنيفة حرمة اللعب به سواء كان برهان أو بغير رهان ومذهب الشافعى أنه مباح إن خلا عن الرهان والهذيان ونسيان الصلاة ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾ قيل سأله أيضاً عمرو بن الجموح سأل أولا عن المنفق والمصرف ثم سأل ثانياً عن كيفية الإنفاق ﴿ قُلِ الْعَفْوَ ﴾ وهو فى الأصل نقيض الجهد أى أنفقوا ما تيسر لكم بذله بلا جهد وقرأ أبو عمرو برفع الواو بتقدير هو العفو وهو الفاضل عن الحاجة والأهل ، ولا تنفقوا ما تحتاجون إليه وتضيقوا

على أنفسكم ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كما بين لكم ما ذكر ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي ﴾ أمر ﴿ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ فتأخذون بالأصلح لكم فيهما وتجتنبون ما يضركم كأن تتفكروا فى زوال الدنيا وبقاء الآخرة فتطلبوا الآخرة بترك الدنيا . قال فى فتح الرحمن : ترك هذا فى آخر السورة وفى الأنعام اختصاراً للعلم به مما هنا . اه . قال الغزالى : العاقل لا يغفل عن التفكر فى أمر الآخرة لحظة فيكون له فى كل ما يراه من ماء أو نار أو غيرهما عبرة فإن نظر إلى سواد ذكر ظلمة القبر أو صورة مروعة تذكر منكراً ونكيراً والزبانية وإن سمع صوتاً هائلا تذكر نفخة الصور وإن رأى شيئاً حسناً تذكر نعيم الجنة . اه . ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ ومن السائلين ابن رواحة عما يلقونه من الحرج فى شأنهم فإن واكلوهم تأثموا وإن عزلوا مالهم من أموالهم ضاع ، وإن حفظوه وصنعوا لهم طعاماً وحدهم لحرج ﴿ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ ﴾ مداخلتهم لإصلاحهم وإصلاح أموالهم ﴿ خَيْرٌ ﴾ من مجانبتهم أى يكون القصد فى المخالطة رفق اليتيم لا رفق نفسه ﴿ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ ﴾ تخلطوا نفقتهم بنفقتكم لذلك ﴿ فَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾ أى فهم إخوانكم فى الدين ومن شأن الأخ أن يخالط أخاه حث على المخالطة ، وقيل المراد بها المصاهرة ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ ﴾ لأموالهم بمخالطته ﴿ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ﴾ بها يعلم من قصد الخيانة وأكل مال اليتيم من قصد الإصلاح وفيه الوعيد والوعد ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ إعناتكم ﴿ لَأَعْنَتَكُمْ ﴾ بأن يكلفكم ما يشق عليكم من العنت وهى المشقة ولم يجوّز لكم مداخلتهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ غالب على أمره يقدر على الإعنات ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى صنعه يحكم ما تقتضيه الحكمة وتتسع له الطاقة . قال ابن العربى فى الأحكام : لما أذن الله فى مخالطة الأيتام مع قصد الصلاح كان دليلا على جواز التصرف فى مال اليتيم بتصرف الولى فى البيع والقسمة وغير ذلك فينفذ فعله فى القليل والكثير على الإطلاق وإن لم يقدمه والٍ عليه إلى أن قال علماؤنا إذا بلغت اليتيمة وأقسط الولى فى الصداق جاز له أن يتزوجها ويكون هو الناكح والمنكح وبه قال أبو حنيفة وقال الشافعى لا يجوز حتى يقدم الولى من ينكحها إياه وأما شراؤه من مال يتيمه فقال مالك وأبو حنيفة يشترى فى مشهور الأقوال إذا كان نظراً لليتيم لأنه من باب الإصلاح المنصوص عليه وقال الشافعى : لا يجوز ؛ فإن قيل يلزم مالكا ترك أصله فى الذرائع والتهمة ؛ قلنا إنما يقول ذلك فيما يؤدى من الأفعال المباحة إلى محظور منصوص عليه وأما هنا فقد أذن الله فى صورة المخالطة ووكل الحاضنين إلى أماناتهم بقوله « والله يعلم المفسد من المصلح » وكل أمر مخوف وكّل الله المكلف فيه إلى أمانته لا يقال فيه إنه يؤدى إلى محظور به فيمنع منه . اه . ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ﴾ تتزوجوا أيها المسلمون ﴿ ٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾ أى الكافرات ﴿ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ ﴾ حرة إذ يجوز نكاحها للحر إن عدم الطول وخاف الفتنة كما يأتى ، ويجوز للعبد مطلقاً وسبب نزولها العيب على من تزوج أمة وترغيبه فى نكاح حرة مشركة ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ لجمالها ومالها وهذا مخصوص بغير الكتابيات بآية « والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب » لكن كره مالك

الحربية وكرهها ابن عمر مطلقاً ﴿ وَلَا تُنكِحُوا ﴾ المؤمنات ﴿ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى الكفار مطلقاً إجماعاً ﴿ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ المشرك لماله وجماله ويجوز للعبد المسلم أن يتزوج حرة برضاها وإن غرها فلها الخيار وأشار إلى علة النهى بقوله ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ أى أهل الشرك ﴿ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ بدعائهم إلى العمل الموجب لها فلا تليق مناكحتهم ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو ﴾ على لسان رسله أو المراد أولياء الله لحذف المضاف ﴿ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ ﴾ أى العمل الموجب لهما ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ بإرادته فتجب إجابته بتزويج أوليائه ﴿ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يتعظون إذا تدبروا أدلته وحججه فى أوامره ونواهيه وأحكامه . ولما كانت المرأة فى الجاهلية إذا حاضت لا تؤاكل ولا تشارب ولا تجالس كفعل اليهود والمجوس ، وسأل «ثابت بن الدحداح» ذلك فى نفر من الصحابة : نزل ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ﴾ مصدر كالمجىء أو مكانه ماذا يفعل بالنساء فيه ولعله سبحانه إنما ذكر «يسئلونك» بغير واو ثلاثاً ثم بها ثلاثاً لأن السؤالات الأول كانت فى أوقات متفرقة والثلاثة الأخيرة كانت فى وقت واحد فلذلك ذكرها بحرف الجمع قاله البيضاوى ﴿ قُلْ هُوَ ﴾ أى الحيض ﴿ أَذًى ﴾ شىء مستقذر مؤذ من يقربه نفرة منه أو محله والمرأة فى وقته ثمانية أسماء حائض وعارك وفارك وطامس ونافس وكابر وضاحك وطامث وإنما وصفه بأنه أذى ورتب عليه الحكم بالفاء إشعاراً بأنه العلة فى قوله ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ ﴾ أى وطأهن فقط هذا متفق على تحريمه إجماعاً ويحرم الاستمتاع بما بين السرة والركبة عند مشهور مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى ، وأجاز أحمد وبعض المالكية والشافعية الاستمتاع بما دون الفرج ﴿ فِي الْمَحِيضِ ﴾ أى وقته أو محله ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ ﴾ بالجماع ﴿ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ بسكون الطاء للجمهور وبتشديدها والهاء لحمزة والكسائى وعاصم فى رواية ابن عباس ، وفيه إدغام التاء فى الطاء فى الأصل أى يغتسلن بعد انقطاعه غسل الجنابة عند مالك والشافعى وأحمد . وقال أبو حنيفة : إن انقطع دمها لأكثر الحيض وهو عشرة أيام عنده جاز وطؤها . وقوله «ولا تقربوهن» تأكيد للحكم وبيان لغايته ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ﴾ بالماء ﴿ فَأْتُوهُنَّ ﴾ للجماع ﴿ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ بتجنبه فى الحيض وهو القبل ولا تعدوه إلى غيره ، و «من» لابتداء الغاية أو بمعنى فى ، واعلم أن الأئمة أجمعوا على سقوط الصلاة وقضائها عن الحائض والصوم وتقضيه وعلى حرمة الطواف بالبيت وأنه يحرم بالنفاس ما يحرم بالحيض واختلفوا فى أقلهما ولا حد له عند مالك بل الدفعة حيض وأقله عند الشافعى وأحمد يوم وليلة وعند أبى حنيفة ثلاثة أيام ، وأقل النفاس عند أبى حنيفة خمسة وعشرون يوما وأكثره عند الأكثر ستون ، وعند أبى حنيفة أربعون ، وأكثر الحيض عند مالك يختلف باختلاف النساء : خمسة عشر للمبتدأة وللمعتادة عادتها ، والحامل إن رأت الدم فهو حيض خلافاً لأبى حنيفة : فإن لم تتغير عادتها فكالحائل وإلا فلها بعد ثلاثة أشهر نصف شهر ونحوه وبعد الستة عشرون ونحوه وأول سن الحيض عند الأربعة تسع سنين ولأبى حنيفة قول بأنه خمسة عشر سنة ولا حد

لأمده عند مالك والشافعى وقال أبو حنيفة : ستون ، وأحمد : خمسون ، وأقل الطهر بين الحيضتين نصف شهر عند الأكثر ، وقال أحمد ثلاثة عشر يوما ولا كفارة على من وطئ فى الحيض بل يتوب ويستغفر ، وقال أحمد : يتصدق بدينار وإذا انقطع دمها وعدمت الماء تتيمم للصلاة ولا يحل وطؤها به عند مالك وأبى حنيفة خلافاً للشافعى وأحمد وتقرأ الحائض القرآن عند مالك خلافاً لباقيهم والله أعلم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ من الأقذار والذنوب ﴿ نِسَآؤُكُمْ ﴾ أى فروجهن مواضع ﴿ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ أى محل زرعكم الولد وفيه مجاز واستعارة بالكناية فى تشبيه ما يلقى فى أرحامهن من النطف بالبذور وهن كالمحارث وأفرد الخبر والمبتدأ جمع لأنه مصدر ﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ ﴾ أى محله وهو القبل ﴿أَنَّىٰ﴾ كيف ﴿شِئْتُمْ﴾ من قيام وقعود واضطجاع وإقبال وإدبار ، نزل رداً لقول اليهود : من أتى امرأته فى قبلها من جهة دبرها جاء الولد أحول وقيل «أنى» بمعنى حيث أى من أى شق شئتم بعد أن يكون المأتى واحداً وهو موضع الحرث ، وهذا من الكنايات اللطيفة ، وأجمع الأئمة على تحريم إتيانهن فى الأدبار ، وما يحكى عن مالك من أنه أحله : فكذبٌ عليه وقد سأله ابن وهب وغيره عن ذلك ، وقال : معاذ الله ألستم قوماً عرباً هل يكون الحرث إلا موضع الزرع . اهـ . فالقبل محل الحرث والدبر محل الفرث ﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ﴾ العمل الصالح كالتسمية عند الجماع والدعاء الوارد فيه «اللهم جنّبنا الشيطان ، وجنّب الشيطان مارزقتنا» ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ﴾ فى أمره ونهيه ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ﴾ بالبعث فيجازيكم بأعمالكم فأعدوا للقائه ما لا يخزيكم ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذين اتقوه بالجنة ﴿وَلَا تَجْعَلُوا ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ ﴾ أى نصباً لها بأن تكثروا الحلف به أو مانعاً لأجل أيمانكم لِـ ﴿ أَن ﴾ لا ﴿ تَبَرُّوا ﴾ أو بيان للأيمان وأن متعلق بعرضة على الأول وبه أو بالفعل على الثانى ، واللام فى «لأيمانكم» صلة لعرضة على الأول وصلة لها أو بمعنى العلة على الثانى والمراد بالأيمان عليه المحلوف عليه ، والعرضة : فعلة بمعنى مفعول : ماعرض للأمر أو دون الشىء ، والمعنى على الثانى «ولا تجعلوا الله» حاجزاً لما حلفتم عليه من أنواع الخير ، لما روى أنها نزلت فى عبد الله بن رواحة حلف أن لا يكلم ختنه بشير بن النعمان ولا يصلح بينه وبين أخته ، فإذا قيل له فى ذلك ، قال : حلفت بالله أن لا أفعل ، والمعنى على الأول لا تجعلوه معرضاً لأيمانكم فتبتذلوه بكثرة الحلف به ﴿ وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ عطف على «تبروا» الذى هو بيان من «لأيمانكم» أو علة للنهى أى أنهاكم عنه إرادة بركم وتقواكم وإصلاحكم بين الناس وتكره اليمين على ترك ذلك ويسن فيه الحنث ويكفر بخلافها على فعل البر ونحوه فهى طاعة ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأحوالكم واليمين بالله جائزة وبغيره مكروهة وقيل حرام والحلف بالأصنام للتعظيم كفر ولغيره حرام ، ومن حلف بالله فى مستقبل طاعة أو معصية أو مباح لحنث فعليه الكفارة أو على الماضى كوالله ما فعلت وقد فعل أو لقد فعلت ولم يفعل وهو عالم فهو الغموس يجب التوبة منه لا الكفارة عند مالك وأبى حنيفة وعليه الكفارة عند الشافعى ، وإن جهل فهو من لغو

اليمين وإليها الإشارة بقوله ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ﴾ الكائن ﴿فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ أن يحلف على ما غلب عليه ظنه أو تيقنه فيظهر خلافه عند مالك وأبى حنيفة أو ما يسبق إليه اللسان من غير قصد الحلف نحو « لا واقه » و « بلى واقه » عند الشافعى ، فلا إثم عليه ولا كفارة ﴿وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أى قصدته من الأيمان إذا حنثتم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لما كان من اللغو ﴿حَلِيمٌ﴾ بتأخير العقوبة عن مستحقها تربصاً للتوبة ، قال الحليمى : الحليم هو الذى لا يحبس أفضاله عن عباده لأجل ذنوبهم يرزق العاصى كما يرزق المطيع ويبقيه الآفات والبلايا وهو غافل لا يذكره فضلا أن يدعوه أو يشكره كما يقيها المطيع الذى يدعو ويسأل . اهـ . ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ أى يحلفون أن يتباعدوا ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ أى حلفوا ألا يجامعوهن أكثر من أربعة أشهر قصداً للضرر فى حال الرضى أو الغضب ﴿تَرَبُّصُ﴾ انتظار ﴿أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ مبتدأ خبره « للذين » وأضيف التربص إلى الظرف على الاتساع أى للمولى حق التلبس فى هذه المدة ، فلا يطالب بفىء ولا طلاق إذ لا إيلاء إلا فى أكثر من أربعة أشهر عند الثلاثة ، خلافاً لأبى حنيفة فى أنها من الأربعة فما فوقها ولا فيما قصد به الصلاح كمى يبرأ من مرضه أو تفطم ولدها خلافاً لأبى حنيفة والشافعى وإذا حلف على منع الكلام أو الإنفاق ، فهو مول على الصحيح وكذا إن قال « إن شاء اقه » عند ابن القاسم والصحيح خلافه ، قاله ابن العربى . ومن : متعلقة بـ « يولون » على معنى البعد أو يقال آلى من امرأته وعليها ﴿فَإِن فَآءُو﴾ رجعوا فيها أو بعدها عن اليمين إلى الوطء والكفارة لا بمجرد رجعت إلا لعذر فيقال له كفر ، فإن كفر وإلا طلقت عليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لما أتوه من ضرر المرأة بالحلف أو إثم حنثه إذا كفر بالفيئة التى هى كالتوبة ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟﴾ أى نووا ﴿ٱلطَّلَـٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لطلاقهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بغرضهم فيه أو فإن عزموا عليه بأن لم يفيئوا فليوقعوه ، أى : فليس لهم بعد المدة إلا الفيئة أو الطلاق فإن أبى طلق عليه الحاكم واحدة ، قال ابن العربى فى الأحكام : هذا دليل على أن مضى المدة لا يوقع الطلاق بل لابد من مراعاة عزمه ، وقال أبو حنيفة : عزم الطلاق تعلم منه بترك الفىء . اهـ . يعنى يقول أبو حنيفة : إذا مضت المدة فقد بانت بطلقة ، ومدة الإيلاء للحر والعبد سواء عند الشافعى ، وينتصف بالرق عند مالك وأبى حنيفة لكن مالكا يقول برق الزوج وأبو حنيفة برق المرأة ﴿وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ ينتظرن ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ عن النكاح ﴿ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ تمضى من حين الطلاق جمع قَرْء بفتح القاف وهو الطهر عند مالك والشافعى وأحمد أو الحيض عند أبى حنيفة فإذا طلقها فى طهر كان بقية الطهر قرءاً كاملا ولو لحظة فإذا دخلت فى الحيضة الثالثة تمت عدتها عندهم خلافاً للحنفى ، فإن طلقها فى الحيض لم تحل حتى تدخل فى الرابعة خلافا له وكل ما مرّ فى المدخول بهن فلا عدة لغيرهن لما يأتى وفى غير اليائسة والصغيرة فعدتهن ثلاثة أشهر وفى الحوامل فعدتهن أن يضعن حملهن كما فى سورة الطلاق وفى غير الإماء فعدتهن قرءان بالسنة والإجماع و « يتربصن » خبر بمعنى الأمر للتأكيد وإيجاب

المسارعة إلى امتثاله وبناؤه على المبتدأ يزيده فضل تأكيد، وثلاثة قروء: نصب على الظرف أو المفعول به وأتى بجمع الكثرة دون القلة وهي الأقراء لأن الحكم لما عم المطلقات ذوات الأقراء تضمن معنى الكثرة فحسن بناؤها أو لأنها أشهر في الذي بمعنى الطهر فرقاً بينه وبين جمع الذي بمعنى الحيض وهو الأقراء كحديث «دعي الصلاة أيام أقرائك» ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الولد أو الحيض استعجالا في العدة أو إبطالا لحق الزوج في الرجعة وفيه دليل على أن قولها مقبول في ذلك ثم أكد الوعيد فيه وعظمه بقوله ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي ينبغي أن يمنعهن الإيمان عن ذلك ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ الضمير للمطلقات الرجعيات فهو أخص من المرجع أي أزواجهن جمع «بعل» والتاء لتأنيث الجمع ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ بمراجعتهن ولو أبين ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ أي زمن التربص وإن قال راجعتها فقالت انقضت عدتي لم يقبل ذلك منها بعد القول وقبل قبله ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ بإزالة الوحشة بينهما لا إضراراً للمرأة وقطعها عن الخلاص وهو تحريض على قصده لا شرط لجواز المراجعة وأحق لا تفضيل فيه إذ لا حق لغيرهم في نكاحهن في العدة وأصل «البعل» السيد والمالك سمي به الزوج لقيامه بأمر زوجته والآية نهي لأمر أهل الجاهلية كانوا يريدون بالمراجعة الإضرار فنهى الله المؤمنين عن ذلك وأمرهم بحسن العشرة بعد الرجعة ولذا أتبعه بقوله ﴿وَلَهُنَّ﴾ على الأزواج ﴿مِثْلُ الَّذِي﴾ لهم ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ من الحقوق ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ شرعا وعادة من حسن العشرة وترك الضرار وعلى الزوج النفقة من الطعام والإدام والكسوة وآلة التنظف على حسب حالها وماله وعادة البلد والصداق والحاجات وتعليم الواجبات والأمر بالطاعات، وتسقط النفقة بالنشوز وهو منع الوطء والخروج بغير إذنه ولا يمنعها مزاورة ذوي محارمها إلا لعذر، وعلى الزوجة الحفظ لماله والإحسان إلى أهله والالتزام لقبول أمره، ولا تخرج إلا بإذنه ويشتركان في حسن العشرة وترك الضرار، قال ابن عباس: أحب أن أتزين لامرأتي كما أحب أن تتزين لي ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ فضيلة في الحق من وجوب طاعتهن لهم لما ساقوه من المهر والإنفاق ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ في ملكه لا يعترض عليه في أموره ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما دبره لخلقه لا يأمر إلا بما هو صواب وحسن ﴿الطَّلَاقُ﴾ أي التطليق الشرعي الذي يراجع بعده أو عدد الطلاق الرجعي ﴿مَرَّتَانِ﴾ أي اثنتان مرة بعد مرة دون الجمع دفعة واحدة فبدعي ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي عليكم بعد الرجعة أي ما عرف شرعاً من أداء الحقوق للنكاح وحسن الصحبة ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ﴾ إرسالهن ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ بأن يسكت عن الرجعة حتى تنقضي العدة أو بالطلقة الثالثة ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ أيها الأزواج ﴿أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ من الصداق وغيره ﴿شَيْئًا﴾ إذا طلقتموهن إذ عرف الناس عند الشقاق أن يطلبوا ما خرج من أيديهم فحرم عليهم ثم استثنى الخلع من ذلك فقال ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ أي الزوجان ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ ألا يفعلا ما حد لهما من الحقوق بأن تخاف المرأة أن تعصي الله في أمر زوجها بعدم طاعته لبغضها له، ويخاف الزوج

أن يعتدى عليها إذا لم تعطه وفى قراءة حمزة يخافا بالبناء للمفعول فأن يقيما بدل اشتمال من الضمير فيه وقرئ بالفوقية فى الفعلين ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الحكام ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ نفسها من المال ليطلقها أى لا حرج على الزوج فى أخذه بشرطه ولا الزوجة فى بذله لأن الآية نزلت فى امرأة « ثابت بن قيس » وهى « جميلة بنت عبد الله بن أبى » أو « حبيبة بنت سهل الأنصارى » قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : إن ثابت بن قيس ما أعتب عليه فى خلق ولا دين ولكنى أكره الكفر فى الإسلام . قال البخارى : تعنى تبغضه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتردين عليه حديقته ؟ » قالت : نعم . قال له رسول الله : « اقبل الحديقة وطلقها تطليقة » ففعل ، وفى القوانين يشترط أن يكون خلع المرأة اختياراً منها وحباً فى فراق الزوج من غير إكراه ولا إضرار منه بها ، فإن فقد الشرط نفذ الطلاق ولم ينفذ الخلع . اهـ ، وقال ابن العربى فى الأحكام : قال علماؤنا إذا كانت الإساءة من قبل الزوج فرق بينهما ولا شىء له وإن كان من قبل المرأة التمسه عليها وإن كانت منهما فرق بينهما على بعض ما أصدقها ولا يستوعب له وعنده بعض الظلم . اهـ . ويجوز عند مالك والشافعى الخلع بأكثر من المسمى ، وقال أبو حنيفة : إن كان النشوز من قبلها أكثر أخذ أكثر من المسمى إن شاء وإن كان من قبله كره له أخذ شىء مطلقاً وكره أحمد أكثر من المسمى مطلقاً ومفهوم الآية أن الخلع لا يجوز إلا فى وقت الخوف وبه قال داود الظاهرى . وذهب جمهور العلماء إلى جوازه من غير نشوز إلا أنه يكره ﴿تِلْكَ﴾ الأحكام المذكورة من النكاح واليمين والإيلاء والطلاق وغير ذلك ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ ما منع من تجاوزه ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ تعقيب للنهى بالوعيد مبالغة فى التهديد ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ الزوج بعد الثنتين ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ﴾ بعد الثالثة للحر وبعد الثانية للعبد سواء طلقها واحدة بعد واحدة اتفاقاً أو جمع الثلاث فى كلمة واحدة عند الجمهور خلافاً للظاهرية ﴿حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ إجماعاً ويطأها عند الجمهور وطأ مباحاً فى نكاح صحيح لازم ولا يحلها نكاح دون وطء خلافاً لابن المسيب ويكفى مغيب الحشفة دون إنزال ، خلافاً لقوم ، ولا وطء فى حيض ولا نكاح شبهة عند مالك خلافاً لهم ولا نكاح المحلل الذى يتزوجها ليحلها لزوجها اتفاقاً ونكاحه باطل مفسوخ خلافاً لأبى حنيفة ، والمعتبر نية المحلل لا نية المرأة ولا المحلل له ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ الزوج الثانى ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أى الزوجة والزوج الأول ﴿أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ إلى النكاح بعد انقضاء العدة ﴿إِنْ ظَنَّا﴾ غلب على ظنهما ﴿أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ الواجبة فى حق الزوجية . قال البيضاوى : وتفسير الظن بالعلم هنا غير سديد لأن عواقب الأمور غيب تظن ولا تعلم . اهـ . ﴿وَتِلْكَ﴾ أى الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يتدبرون ما بين لهم ويعملون بمقتضى العلم . ولما طلق رجل امرأته فلما دنت عدتها راجعها ثم طلقها مضارة لها نزل ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ﴾ قاربن ﴿أَجَلَهُنَّ﴾ أى انقضاء عدتهن ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ إن أردتم ذلك

﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ بأن تراجعوهن حافظين حدود الله فى القيام بحقوق النكاح ﴿ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ بأن تتركوهن حتى تنقضى عدتهن من غير تطويل وهو إعادة للحكم فى بعض صوره للاهتمام به ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ﴾ بالرجعة ﴿ ضِرَارًا ﴾ مفعول له ﴿ لِتَعْتَدُوا ﴾ عليهن بالإلجاء إلى الافتداء أو التطليق وتطويل الحبس ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ بتعريضها إلى عذاب الله ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ﴾ مهزوءاً بها بمخالفتها ومن لم يعمل بها فقد اتخذها هزواً ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ التى أعظمها الإسلام ﴿ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ القرآن ﴿ وَالْحِكْمَةِ ﴾ ما فيه من الأحكام وهو السنة أفردهما بالذكر إظهاراً لشرفهما ﴿ يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ بما أنزل عليكم بأن تشكروها بالعمل به ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا يخفى عليه شىء ، تأكيد وتهديد ثم خاطب الأزواج أو الأولياء بقوله ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ والطلاق ينفذ باللفظ والنية إجماعاً ، وإن طلق بالنية دون اللفظ لم ينفذ فى المشهور وإن سبق لسانه إلى الطلاق ولم يرده لم ينفذ والطلاق فى الهزل نافذ كالجد ﴿ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ انقضت عدتهن ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ خطاب للأولياء أى لا تمنعوهن ﴿ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ﴾ المطلقين لهن من إطلاق الشىء على اسم ما كان عليه مجازاً لغوياً لأن سبب نزولها أن « أخت معقل بن يسار » واسمها جميلة مصغراً أو ليلى أو فاطمة طلقها زوجها « البداح بن عاصم » أو هو « عبد الله بن رواحة » ، فأراد أن يراجعها فمنعها « معقل » ، وفيه دليل على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها وإنما ذلك لوليها خلافاً لأبى حنيفة فى الثيب الحرة وقيل الخطاب للأزواج المكلفين الذين يعضلون نساءهن بعد انقضاء العدة ظلماً يتوعدون لمن تزوجهن ولا يتركون أن يتزوجن من شئن من الأزواج ﴿ إِذَا تَرَاضَوْا ﴾ أى الأزواج والنساء ﴿ بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ شرعاً . قال ابن العربى فى الأحكام : بأن كان كفؤاً لها إذ لا حق للولى شرعاً فى صداق المالكة أمر نفسها والآية نزلت فيها فدل أن المعروف المراد هو الكفاءة إذ فيها حق عظيم للأولياء . اهـ.

وقال البيضاوى : المعروف ما يعرفه الشرع وتستحسنه المروءة وهو حال من الضمير المرفوع أو صفة مصدر محذوف أى تراضياً كائناً بالمعروف وفيه دلالة على أن العضل عن التزوج من غير كفؤ غير منهى عنه . اهـ . ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ النهى عن العضل ﴿ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ لأنه المنتفع به ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ ترك العضل ﴿ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ أنفع ﴿ وَأَطْهَرُ ﴾ لكم ولهم من دنس الآثام لما يخشى على الزوجين من الريبة بسبب العلاقة بينهما ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ ما فيه المصلحة ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك فاتبعوا أمره ﴿ وَالْوَالِدَاتُ ﴾ تعم المطلقات وغيرهن وقيل تختص بهن إذ الكلام فيهن ﴿ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ فى حكم الله لأن تربيتهن بلبنهن أصلح لهم لكمال الشفقة وهذا خبر معناه الأمر على الوجوب لبعض الوالدات وعلى الندب لبعضهن فيجب على الأم الإرضاع إن كانت تحت أب الولد أو رجعية ولا مانع من علو قدر أو مرض أو قلة لبن بغير أجر ، ويستحب ، ولا يجب على البائن بخلع

أو غيره أو عالية القدر إلا أن لا يقبل الولد غيرها فيجب عليها الإرضاع بأجرة من مال الأب ، فإن عدم فمن مال الصبي كما يأتي الآن ، وإن عدم أو مات ولا مال للصبي وجب عليها مجاناً ، هذا مذهب مالك خلافاً للأئمة الثلاثة أن الأم لا يجب عليها إرضاع ولدها مطلقة أو لا ، رجعية أو لا ، إن أمكن غيرها والله أعلم ﴿حَوْلَيْنِ﴾ عامين ﴿كَامِلَيْنِ﴾ صفة مؤكدة لأن الحول مما يتسامح فيه وهما أربعة وعشرون شهراً لكن هذا التحديد ليس متعيناً مع التراضي بل ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ هذا حد عند تنازع الزوجين في مدة الرضاع فمن دعا منهما إلى إكمال الحولين فذلك له وأخذ منه أن الرضاعة المحرمة الجارية مجرى النسب هي ما كان في الحولين إذ بانقضائهما تمت الرضاعة ولا عبرة لما بعدهما إلا أن ما قارب الشيء فله حكمه وأنه يجوز أن تنقص المدة كما ذكر ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ وهو الأب ﴿رِزْقُهُنَّ﴾ إطعام الوالدات ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ أجرة على الإرضاع إذا كن بوائن ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ شرعا بقدر طاقته مما رآه الحاكم وبه وسعه ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ طاقتها مفعول ثان لـ «تكلف» وهو تعليل لإيجاب المؤن وتقييدها بالمعروف ﴿لَا تُضَارَّ﴾ بفتح الراء للجمهور نهي وضمها لابن كثير وأبي عمرو خبر بمعنى النهي يدل على قوله « لا تكلف » وأصله على القراءتين تضارر بالكسر على البناء للفاعل أو الفتح على البناء للمفعول فوالدة فاعل أي لا تضر بولدها بإساءة غذائه وترك تعهده أو إرجاعه إلى الأب بعد ما ألفها أو المعنى : لا تضر زوجها بسبب ولدها بأن تطلب منه ما لم يلزمه من رزقها وكسوتها أو نائب عن الفاعل أي لا تضار ﴿وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾ بسبب ولدها بمنعها شيئاً مما وجب عليه من رزقها وكسوتها أو أخذه منها وقد رضيت بإرضاعه مجاناً أو بمثل أجر مثلها أو دونه أو فوقه والحق على الأول للوالد وعلى الثاني للوالدة ﴿وَلَا﴾ يضار ﴿مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ بسببه أن يكلف فوق طاقته وفيه الاحتمالان المتقدمان وإضافة الولد إلى كل منهما في الموضعين للاستعطاف ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ﴾ أي وارث الأب وهو الصبي ، أي على وليه في ماله ﴿مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ الذي على الأب للوالدات من الرزق والكسوة أو المراد وارث الصبي وهو كل من يرثه عند عدم الأب وعلى هذا فمعنى قوله « مثل ذلك » عند مالك والشافعي : أن لا يضار ولا شيء عليه من الرزق والكسوة وقيل من كان من وارثه عصبة كالجد والأخ والعم وابنهما يجبر على نفقة الصبي كل على قدر سهمه منه وبه قال أحمد ، وقيل من كان منه ذا رحم محرم كما قال أبو حنيفة فيدخل عنده الخال والعم ويخرج أبناؤهما . والله أعلم ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ الوالدان ﴿فِصَالًا﴾ فطاما له قبل الحولين صادراً ﴿عَنْ تَرَاضٍ﴾ اتفاق ﴿مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ بينهما ليظهر مصلحة الصبي فيه واعتبر اتفاقهما لما للأب من الولاية والأم من الشفقة ولنا إذا اختلفا يحد لهما بالحولين ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في ذلك إذا لم يضر بالولد ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ﴾ خطاب للآباء ﴿أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ مراضع غير الوالدات إذا أبين الإرضاع أو تعذر بعلة انقطاع اللبن أو إرادة التزويج ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فيه ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ﴾ إليهن ﴿مَا آتَيْتُمْ﴾ بمد الهمزة للجمهور والقصر لابن كثير أردتم

إيتاءه لهن من الأجرة ، وقيل إذا سلمتم إلى الوالدات أجرة رضاعهن بقدر ما أرضعن ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ بالجميل كتطييب النفس بذلك مع السرور والقول الجميل ما أمكن حتى يؤمن من تفريطهن متعلق بسلمتم وليس شرطاً لجواز الاسترضاع بل تنبيه على ما هو الأولى والأصلح للطفل ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ مبالغة في المحافظة على ما شرع في أمر الأطفال والمراضع ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ لا يخفى عليه شيء فيجازيكم على أعمالكم وهو حث وتهديد ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ ﴾ أي تستوفى آجالهم يقال : توفيت الشيء : أخذته وافياً بمعنى يموتون وقرئ يتوفون بفتح الياء أي يستوفون آجالهم ﴿ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ ﴾ يتركون ﴿ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ ﴾ ينتظرن ﴿ بِأَنْفُسِهِنَّ ﴾ بعدهم عن النكاح وما يدعو إليه من الزينة بالمصبوغ بالحمرة وغيرها مما يتزين به وكل ثوب رفيع وإن أبيض وبالحلى خاتماً أو خلخالا أو سواراً أو خرصاً ، والتطيب ولو في الدهن والكحل إلا لضرورة فتكتحل ليلا وتمسحه نهاراً ، ولا تخرج إلا لضرورة تصرفها نهاراً فترجع وتبيت في بيتها ﴿ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ من الليالى وهذا في غير الحوامل فعدتهن أن يضعن حملهن بآية الطلاق وفى غير الإماء على النصف من ذلك بالسنة وأم الولد إذا مات عنها السيد أو أعتقها استبرأت بحيضة عند مالك والشافعي وأحمد خلافاً لأبي حنيفة أن عدتها ثلاث حيض ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ انقضت مدة تربصهن ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ أيها الأولياء والحكام ﴿ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ ﴾ من التزوج فما دونه من التزين وترك الاستحداد ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ شرعاً وإن فعلن ما ينكره الشرع فعلى الأولياء منعهن ، وإن لم يمنعوا فعليهم الجناح والمناكير كثيرة ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ عالم بواطنه كظواهره والخبرة علم يتوصل إليه بالتفكر ومعناه في صفة الله : العلم بكنه الشيء وحقيقته ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ ﴾ لوحتم ﴿ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ ﴾ المتوفى عنهن أزواجهن في العدة قال النسفي في مدارك التنزيل : والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره كما يقول المحتاج للمحتاج إليه : جئتك لأسلم عليك ولأنظر إلى وجهك الكريم ولذلك قالوا : « وحسبك بالتسليم منى تقاضيا » اهـ . قال المفسرون : كقولك لها إنك لجميلة ومن يجد مثلك ، ورب راغب فيك ، أو أريد التزويج ، أو يهدى لها هدية ، والخطبة اسم الحالة ، لكن خصت بطلب النكاح ﴿ أَوْ أَكْنَنْتُمْ ﴾ أضمرتم ﴿ فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ قصد نكاحهن من غير تعريض ولا تصريح ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ﴾ بقلوبكم ولا تصبرون على السكوت لأن شهوة النفس والتمنى قل أن يخلو عنه أحد ، وفيه نوع توبيخ . أى فاذكروهن ﴿ وَلَٰكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ نكاحاً بمعنى العقد وفيه مجاز المجاز لأن الوطء تجوز عنه أولا بالسر لكونه لا يقع غالباً إلا في السر ثم تجوز به عن العقد لأنه مسبب عنه ، فعلاقة الأول الملازمة والثاني التسبب ﴿ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ شرعاً بأن تعرضوا ولا تصرحوا ، والمستثنى منه محذوف : أى لا تواعدوهن مواعدة ، إلا مواعدة معروفة أو إلا مواعدة بقول معروف ، وفيه دليل حرمة تصريح خطبة المعتدة وجواز التعريض لها إن كانت معتدة

وفاة اتفاقاً ، وكذا فى معتدة الفراق البائن على الأظهر ﴿ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ ﴾ أى على عقدة مبالغة فى النهى أو المعنى لا تقطعوا عقدة النكاح لأن أصل العزم : القطع ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ ﴾ ما كتب من العدة ﴿ أَجَلَهُ ﴾ أن ينتهى ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ من العزم على ما لا يجوز ﴿ فَاحْذَرُوهُ ﴾ أن يعاقبكم إذا عزمتم ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لمن يحذره ومنه من عزم ولم يفعل خشية من الله ﴿ حَلِيمٌ ﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ ولحمزة والكسائى تماسوهن أى تجامعوهن ﴿ أَوْ ﴾ لم ﴿ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ أى مهراً ، وما : مصدرية ظرفية ، وفريضة : بمعنى مفروضة : مفعول به أى لا تبعة عليكم فى الطلاق زمن عدم المسيس والفرض بإثم ولا مهر . قال فى الجواهر الحسان : لما نهى الرسول عن التزوج للذواق وقضاء الشهوة وأمر بقصد دوام الصحبة وقع فى نفوس المؤمنين أن من طلق قبل البناء قد واقع جزءاً من المكروه فنزلت الآية رافعة للجناح فى ذلك . اهـ . والمفهوم أنها لو كانت ممسوسة فعليه المسمى أو مهر المثل وإن لم تمس ، لكن سمى لها فلها نصف المسمى فطلقوهن ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ أعطوهن ما يتمتعن به لجبر إيحاش الطلاق ﴿ عَلَى الْمُوسِعِ ﴾ الغنى منكم ﴿ قَدْرُهُ ﴾ بتسكين الدال للجمهور ، وحركها حمزة والكسائى وحفص ﴿ وَعَلَى الْمُقْتِرِ ﴾ الضيق الرزق ﴿ قَدْرُهُ ﴾ أى على كل منهما ما يطيقه ويليق به ويفيد أنه لا نظر إلى قدر الزوجة ﴿ مَتَاعاً ﴾ تمتيعاً ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ شرعا صفة متاعا ﴿ حَقًّا ﴾ صفة ثانية : أى واجباً أو مصدر مؤكد ﴿ عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ المطيعين أو المحسنين إلى المطلقات وذكر فى الآية نكاح التفويض ومتعة المطلقات ، ونكاح التفويض هو السكوت عن تعيين الصداق حين العقد ويفوض ذلك إلى الزوج أو الولى أو غيرهما ثم لا يدخل بها حتى يعين فإن فرضه أحدهما فرض الآخر لزمه فإن فرض لها صداق المثل أو أكثر لزمها بخلاف الأقل إلا أن ترضى به ، وإن لم ترض خير الزوج بين صداق المثل والطلاق ، وكل هذا إن كان التعيين قبل البناء وبعده يلزمها صداق المثل وإن ماتت قبل الدخول والفرض فلا صداق لها خلافاً لأبى حنيفة ولها الميراث اتفاقاً وأما المتعة فمستحبة عند مالك وأوجبها أبو حنيفة والشافعى وأحمد فيمن طلقت قبل الفرض والمسيس ، فإن فرض لها مهراً أوجب نصف المهر المفروض ولا متعة لها ولا متعة للمدخول بها عند أبى حنيفة لأنها تستحق المهر كاملا وللشافعى وأحمد فيها قولان وأعلاها خادم وأوسطها درع وخمار وإزار وأقلها مادون ذلك والله أعلم ﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ يجب لهن عليكم والنصف الباقى لكم ويجرى مجرى الصداق فى التشطير كل ما نحله الزوج فى العقد للمرأة أو لأبيها أو وصيها ، إذ هو للزوجة وإن شاءت أخذته ممن أعطيه ﴿ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ ﴾ أى المطلقات الثيبات بأنفسهن فلا يأخذن شيئاً والواو فى الفعل لامه والنون ضمير المطلقات وهو مبنى ولذا لم ير أثر الناصب فيه بخلاف المعطوف عليه وهو ﴿ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾ وهو الأب

فى ابنته البكر أو السيد فى أمته عند مالك وقيل هو الزوج قاله أبو حنيفة والشافعى وأحمد ويؤيد الأول كون الاستثناء من قوله فنصف ما فرضتم أى نصفه واجب عليكم « إلا أن يعفون » إن كن ثيبات أو يعفو أولياؤهن إن كن محجورات والثانى لا يصح إلا على تسمية الزيادة على الحق عفوا مشاكاة أو مجازاً وهو خلاف الأصل والله أعلم ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا ﴾ أيها الأزواج أو الأولياء ، مبتدأ خبره ﴿ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ وقيل خطاب للأزواج فقط ﴿ وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ أن يتفضل بعضكم على بعض : حث على الإحسان ومكارم الأخلاق ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيكم به ﴿ حَافِظُوا ﴾ داوموا ﴿ عَلَى الصَّلَوَاتِ ﴾ الخمس بأدائها فى أوقاتها بشرائطها فلا يلهينكم الاشتغال بأولادكم ونسائكم عنها ﴿ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ ﴾ بينها أوالفضلى منها خصوصاً : وهى صلاة الصبح عند ابن عباس وابن عمر وعليه مالك ، والعصر عند علىّ وعليه أبو حنيفة والشافعى وأحمد ، أو الظهر قاله زيد بن ثابت ، أو المغرب قاله البراء ، أو العشاء ونسب لبعض المتأخرين ، والأصح أنها العصر للأحاديث الصحيحة فى ذلك ولكن ظاهر الآية أنها الصبح لقوله ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ ﴾ فى الصلاة ﴿ قَانِتِينَ ﴾ داعين ، قاله ابن المسيب : المراد به القنوت فى الصبح ، وقيل مطيعين لقوله عليه السلام : « كل قنوت فى القرآن فهو طاعة » رواه أحمد وغيره . وقيل ساكتين خاشعين ذليلين لحديث زيد بن أرقم : كنا نتكلم فى الصلاة حتى نزلت فأمرنا بالسكوت ونُهينا عن الكلام . رواه الشيخان . وحافظوا بمعنى احفظوا كعاقبت اللص ، أو فاعل على بابها والحفظ بين العبد وربه « أى احفظ الصلاة يحفظك الله » أو بين العبد والصلاة « احفظها تحفظك » ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ من عدو أو سيل أو سبع ولم يمكنكم أن تصلوا قانتين موفين حقوق الصلاة من إتمام الركوع والسجود والخضوع ﴿ فَـ ﴾ صلوا ﴿ رِجَالًا ﴾ جمع راجل أى مشاة ﴿ أَوْ رُكْبَانًا ﴾ جمع راكب أى كيف أمكن مستقبلى القبلة وغيرها ويومأ بالركوع والسجود وهذا فى حال المسايفة والمقاتلة حين لم يمكن قسمهم وإلا فسيأتى فى محله عند قوله « وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلوٰة » وفى هذه الآية دليل على وجوب الصلاة حال المشى والمسايفة وإمساك ملطخ بنجاسة وإليه ذهب مالك والشافعى وقال أبو حنيفة : لا تصلى فى تلك الحال إذا لم يمكن الوقوف بل تؤخر . قال عبد الرحمن الثعالبى فى الجواهر الحسان : رخص الله حال الخوف لعبيده الصلاة رجالا متصرفين على الأقدام وركباناً على الخيل والإبل ونحوها إيماء بالرأس حيثما توجه ، هذا قول جميع العلماء وهذه هى صلاة الفذ الذى قد ضايقه الخوف على نفسه من عدو حال المسايفة أو من سبع يطلبه أو عدو يتبعه أو سيل يحمله وبالجملة فكل أمر يخاف منه على روحه فهو مبيح لما تضمنته هذه الآية ، وأما صلاة الخوف بالإمام وانقسام الناس فسيأتى إن شاء الله فى سورة النساء اهـ . ورجالا نصب على الحال والعامل محذوف تقديره : فصلوا ، وأو فى «أو ركباناً» للتقسيم أو الإباحة أو التخيير ﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ ﴾ من الخوف ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ أى صلوا صلاة الأمن أو اشكروه عليه ذكراً

﴿ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ قبل تعليمه من فرائضها وحقوقها أو من الشرائع أو كيفية الصلاة حالتى الخوف والأمن أو شكراً يوازيه و «كما» فى موضع نصب نعت لمصدر محذوف أو حال من ضمير المصدر وهو بمعنى مثل و«ما» مصدرية أو موصولة ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ مبتدأ ﴿ وَصِيَّةٌ ﴾ بالرفع لنافع وابن كثير والكسائى وأبى بكر أى فعليهم وصية ، وهو خبر المبتدأ . وبالنصب لابن عامر وأبى عمرو وحفص أى فليوصوا وصية ، والجملة خبر المبتدأ ﴿ لِأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا ﴾ نصب بيوصوا إن أضمر وإلا فبوصية لأنها مصدر منوّن ولا يضر تأنيثها بالهاء لبنائها عليه والأصل وصية بمتاع ثم حذف حرف الجر اتساعاً فنصب على ما بعده وهذا إذا لم تجعل الوصية منصوبة على المصدر لأن المصدر المؤكد لا يعمل وإنما يجوز ذلك حال رفعها أو نصبها على المفعول ﴿ إِلَى ﴾ تمام ﴿ الْحَوْلِ ﴾ من موتهم صفة متاعا أى ما يتمتعن به من النفقة والسكنى ﴿ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ نعت لمتاعاً أو بدل منه أو حال من الأزواج أى غير مخرجات من مسكنهن والمعنى أنه يجب على الذين يتوفون أو يوصوا قبل أن يحتضروا لأزواجهم بأن يمتعن بعدهم حولا بالسكنى والنفقة وكان ذلك أول الإسلام ثم نسخ بآية الميراث ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ ﴾ بأنفسهن من منزل الأزواج ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ يا أولياء الميت فى قطع النفقة عنهن وعدم منعهن الخروج ﴿ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ﴾ شرعاً من التزين للخطاب وهذا يدل على أنه لم يجب عليهن ملازمة مسكن الزوج فى تلك المدة بل خيّرن بين الملازمة وأخذ النفقة وبين الخروج وتركها وتلك المدة هى ما زاد على أربعة أشهر وعشراً من الحول وعلى هذا فلا مناقضة بينها وبين آية العدة المتقدمة أصلا ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ ينتقم ممن خالفه ﴿حَكِيمٌ﴾ فى صنعه يرعى لكم المصالح فضلا منه . قال السيوطى فى التكملة والوصية المذكورة منسوخة بآية الميراث وتربص الحول بآية أربعة أشهر وعشراً السابقة المتأخرة فى النزول . اهـ . وقال الخازن فى لباب التأويل : دلت هذه الآية على أمرين أحدهما أن لها النفقة والسكنى من مال زوجها سنة والثانى أن عليها عدة سنة ثم إن الله نسخ هذين الحكمين أما الوصية بالنفقة والسكنى فنسخ بآية الميراث فجعل لها الربع أو الثمن عوضاً عن النفقة والسكنى ونسخ عدة الحول بأربعة أشهر وعشراً . اهـ . ومثله فى البيضاوى وغيره من المفسرين وفى إرشاد السارى شرح البخارى للقسطلانى قال وهذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سنة كما زعمه الجمهور حتى يكون ذلك منسوخاً بالأربعة أشهر وعشراً فما دلت إلا على أن ذلك كان من باب الوصاة بالزوجات أن يُمكّن من السكنى فى بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولا كاملا إن اخترن ذلك ولذا قال : وصية لأزواجهم . اهـ وفى البخارى قال: يعنى عثمان ابن عفان لابن الزبير جعل الله لها يعنى للمعتدة تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية إن شاءت سكنت فى وصيتها وإن شاءت خرجت ، وهو قول الله تعالى : «غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم» فالعدة التى هى أربعة الأشهر والعشر كما هى واجبة عليها زعم أى ابن نجيح ذلك عن مجاهد . اهـ .

قال القسطلانى : وهذا يدل على أن مجاهد لا يرى نسخ هذه الآية . اه . والسكنى ثابتة للمعتدة عند مالك والشافعى خلافاً لأبى حنيفة ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌ ﴾ يعطينه ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ بقدر الإمكان ﴿حَقًّا﴾ نصب بفعله المقدر ﴿ عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ الله ، كرره ليعم الممسوسة أيضاً إذ الآية السابقة فى غيرها ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى كما بين لكم ما ذكر من أحكام الطلاق والعدد ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ تتدبرون ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ استفهام تعجيب وتشويق إلى استماع مابعده أى ألم ينته علمك ﴿إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ جمع ألف أربعة أو ثمانية أو عشرة أو ثلاثون أو أربعون أو سبعون ألفاً ، وقيل جمع آلف أى متآلفون كقاعد وقعود وهم أهل داوردان ﴿ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ مفعول له ، وهم قوم من بنى إسرائيل وقع الطاعون ببلادهم ففروا ، وأمروا بالجهاد ففروا ﴿ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا ﴾ فماتوا موتة رجل واحد من غير علة بمشيئة الله كقوله « كن فيكون » وقيل ناداهم به ملك الجبال وأسند إلى الله لأنه الآمر تهويلا وتخويفاً ﴿ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ بعد ثمانية أيام أو أكثر بدعاء نبيهم حزقيل بكسر المهملة والقاف وسكون الزاى فعاشوا دهراً عليهم أثر الموت لا يلبسون ثوباً إلا عاد كالكفن فى الرسم والرائحة واستمرت فى أسباطهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ حيث أحياهم ليعتبروا وقص عليكم حالهم لتستبصروا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾ وهم الكفار ﴿ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ والقصد من ذكر هؤلاء تشجيع المؤمنين على القتال ولذا عطف عليه ﴿ وَقَٰتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أى لإعلاء دينه إذا علمتم أن الموت لا بد منه فالأولى أن يكون فيه ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لأقوال المتخلفين منكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأحوالهم فيجازيهم ﴿ مَّن ﴾ اسم استفهام مبتدأ ﴿ ذَا ﴾ خبره ﴿ الَّذِى ﴾ صفة الخبر وصلة الذى هو ﴿ يُقْرِضُ ٱللَّهَ ﴾ بإنفاق ماله فى سبيل الله ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ بأن ينفقه لله عن طيب قلب حلالا طيباً بالإخلاص ﴿ فَيُضَٰعِفُهُ ﴾ بالرفع على صورة المفاعلة لنافع وأبى عمرو وحمزة والكسائى وبالنصب لعاصم على جواب الاستفهام ولابن كثير «فيضعّفه» بالرفع والتشديد ولابن عامر بالنصب ﴿ لَهُ ﴾ جزاءه ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ من عشرة إلى أكثر من سبعمائة إلى ما لا يقدره إلا الله ﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ ﴾ يمسك الرزق عن يشاء ابتلاء ﴿وَيَبْصُطُ ﴾ بالصاد لنافع والكسائى وأبى بكر وابن كثير فى غير رواية قنبل وبالسين لغيرهم أى يوسعه لمن يشاء امتحاناً فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فى الآخرة بالبعث فيجازيكم بأعمالكم ثم زاد الله الترغيب فى الجهاد بذكر قصة بنى إسرائيل هذه بقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ ﴾ الجماعة من الأشراف يجتمعون للتشاور ، اسم جمع لا واحد له ﴿ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ ﴾ من الأولى للتبعيض والثانية للابتداء أى بعد وفاته أى إلى قصتهم وخبرهم وذلك أن موسى لما مات خلفه على إقامة بنى إسرائيل « يوشع بن نون » ثم « كالب ابن نوفى » ثم « حزقيل » فعظمت الأحداث بعده فى بنى إسرائيل ونسوا عهد الله ثم جاءهم « إلياس » فأقامهم ثم « اليسع » فقبضه الله فأكثروا المعاصى بعده فأظهر لهم عدوا يقال لهم « البلسانا» قوم جالوت

من العمالقة فغلبوهم على أكثر أرضهم وأسروا من أبناء ملوك بنى إسرائيل أربعمائة وأربعين غلاماً وضربوا عليهم الجزية ولقوا منهم شدة فبعث الله فيهم « شمويل » فقالوا له : إن كنت صادقاً فابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله وكان قوام بنى إسرائيل طاعة ملوكهم وطاعة الملوك لأنبيائهم والملك يسوس الجموع والنبي يسوسه فذلك قوله تعالى ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ﴾ هو « شمويل » فى الأشهر ﴿ٱبْعَثْ﴾ أقم ﴿لَنَا مَلِكًا﴾ أميراً ﴿نُقَٰتِلْ﴾ معه ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تنتظم به كلمتنا ونرجع إليه فى التدبير ﴿قَالَ﴾ النبى لهم ﴿هَلْ عَسِيتُمْ﴾ بالكسر لنافع وبالفتح لغيره أهل الأمر كما أرجو منكم وهو الجبن ﴿إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا﴾ ؟ خبر عسى فصل بينهما بالشرط والاستفهام لتقرير المتوقع به ﴿قَالُوا وَمَا لَنَآ﴾ أى غرض لنا ﴿أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ أى : أى غرض لنا فى تركه وقد عرض لنا ما يوجبه من إخراج الأوطان والإفراد عن الأولاد بسبيهم وقتلهم فعل بهم ذلك قوم جالوت من العمالقة كانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين فأغاروا على بنى إسرائيل وفعلوا بهم ما مرّ ، قال تعالى : ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا﴾ عنه وجبنوا ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ لم يبلغوا عشرهم وهم الذين عبروا النهر مع طالوت كما سيأتى ثم هدد على ترك الجهاد بقوله ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيجازيهم وعيد لهم فى ظلمهم على ترك الجهاد . وسأل النبى ربه إرسال ملك فأجابه إلى إرسال طالوت ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ﴾ علم عبرانى كداود بن أنبار بن ضرار ﴿مَلِكًا قَالُوٓا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ لأنه ليس من سبط المملكة أولاد يهودا ولا النبوة أولاد لاوى بل هو من أولاد بنيامين ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ يستعين بها على إقامة الملك ﴿قَالَ﴾ النبى لهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ﴾ اختاره بالملك وهو أعلم بالمصالح منكم ، لا اعتراض على حكمه ﴿عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً﴾ سعة من قولك بسطت الشيء إذا كان مجموعا ففتحته ﴿فِى ٱلْعِلْمِ﴾ يتمكن به من معرفة الأمور السياسية وكان أعلم بنى إسرائيل يومئذ بالتوراة ﴿وَٱلْجِسْمِ﴾ ليكون أعظم خطراً فى القلوب وأقوى على مقاومة العدو ، وكان أتمهم خلقاً فى الجمال والقوة ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ لا اعتراض عليه ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ بمن هو أهل الفضل ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ لما طلبوا منه حجة على أن الله اصطفى طالوت وملكه عليهم ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ الصندوق وكان فيه صور الأنبياء أنزله الله على آدم ، طوله ثلاثة أذرع فى عرض ذراعين ثم صار إلى شيث ثم بلغ إبراهيم ثم إسماعيل ثم يعقوب إلى أن وصل إلى موسى عليه السلام ثم تداوله أنبياء بنى إسرائيل إلى أن أخذته العمالقة منهم لما غلبوهم ، وكانوا يستفتحون به على عدوهم ويقدمونه عند القتال ويسكنون إليه كما قال تعالى ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ طمأنينة لقلوبكم ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أو فيه ما تسكنون إليه وهو التوراة أى لوحان منها ، وكان موسى إذا قاتل قدمه فتسكن نفوسهم بتيقن النصر ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ وهو رضاض الألواح ، وعصى موسى وثيابه ونعلاه

وعمامة هارون وسرواله وقفيز من المن الذى كان ينزل عليهم . وآلهما أبناؤهما أو أنفسهما أو أنبياء بنى إسرائيل ﴿ تَحْمِلُهُ الْمَلَـٰئِكَةُ ﴾ حال من فاعل يأتيكم ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ ﴾ على ملكه ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فحملته من أرض العمالقة أو من السماء على قول أنه رفع بعد موسى إلى السماء لما أكثروا المعاصى فأقبلت الملائكة مع التابوت بين السماء والأرض وبنو إسرائيل ينظرون إلى أن وضعته عند طالوت فأقروا بملكه وتسارعوا إلى الجهاد فاختاروا من شبابهم سبعين ألفاً ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ ﴾ خرج ﴿ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ ﴾ من بيت المقدس وبجموعهم ثمانون ألفاً وكان وقت حر شديد وسلكوا مفاوز نعطشوا فسألوا الله الماء . ﴿ قَالَ ﴾ لهم طالوت على لسان النبى الذى معه ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ ﴾ مختبركم ﴿ بِنَهَرٍ ﴾ ليظهر المطيع منكم والعاصى فمن أطاع فى ترك الماء فهو يطيع فى غيره ، ومن غلبته شهوته فى الماء وعصى الأمر فهو بالعصيان فى باقى الشدائد أحرى وهو بين الأردن بضمتين بينهما الزاء وشد النون وفلسطين بكسر الفاء وفتح اللام وسكون المهملة كلاهما من كور الشام ﴿ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ ﴾ من مائه ﴿ فَلَيْسَ مِنِّى ﴾ أى من أتباعى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ ﴾ يذقه ﴿ فَإِنَّهُ مِنِّى ﴾ وعبر بالطعم مبالغة فى سد الذرائع لان أدنى الذوق يدخل فيه بخلاف أن لو قال ومن لم يشرب منه ثم استثنى من قوله فمن شرب منه ﴿ إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غَرْفَةً ﴾ بالفتح لنافع وابن كثير وأبى عمرو وبالضم لابن عامر والكوفيين ﴿ بِيَدِهِ ﴾ فاكتفى بها ولم يزد عليها فانه منى . قال ابن العربى فى الأحكام : علم من قوله من لم يطعمه أن الماء طعام فيجرى فيه الربا وهو الصحيح من المذهب . اهـ . قلت المشهور خلافه ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ ﴾ لما وافوه بكثرة ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ فاقتصروا على الغرفة روى أنها كفتهم لشربهم ودوابهم وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ــ عدة أهل بدر ــ روى أن القوم شربوا من الغرفة على قدر يقينهم وبعض المؤمنين لم يشرب شيئاً وأن من شرب فوق الغرفة لم يرو بل اشتد به العطش فصاروا يشربون شرب الهيم ومن اكتفى بها حسنت حاله ومن تركها أصلا كان أجلد وأحسن حالا ممن أخذها . وفى الجواهر الحسان : ولقد أحسن من شبه الدنيا بنهر طالوت فمن اغترف منها بيد الزهد وأقبل على ما يعنيه من أمر آخرته نجا ومن أكب عليها صدته عن التأهب لآخرته وقلت سلامته إلا أن يتداركه الله . اهـ . ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ وهم الذين اقتصروا على الغرفة ﴿ قَالُوا ﴾ أى الذين شربوا ﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ ﴾ جبار من العمالقة وهم أولاد عمليق بن عاد ﴿ وَجُنُودِهِ ﴾ لكثرتهم وقوتهم فجبنوا ولم يجاوزوا النهر ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ ﴾ يوقنون ﴿ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ ﴾ بالبعث وهم الذين جاوزوه أو بالشهادة أى وطنوا أنفسهم عليها ﴿ كَمْ ﴾ خبرية بمعنى كثيراً أو استفهامية ﴿ مِنْ فِئَةٍ ﴾ جماعة ﴿ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بإرادته وتيسيره ومن مبينة أو مزيدة ، والفئة الفرقة من الناس : من فأوت رأسه إذا شققته أو من فاء فوزنها فعة أو فلة ﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ بالنصر والإثابة

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ أى ظهروا لقتالهم وتصافوا ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ ﴾ أصبب ﴿ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ بتقوية قلوبنا على الجهاد ﴿ وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَـٰفِرِينَ ﴾ وهذا التجاء إلى الله بالدعاء، وفيه ترتيب بليغ أن سألوا أولا إفراغ الصبر فى قلوبهم الذى هو ملاك الأمر، ثم ثبات القوم فى مداحض الحرب المسبب منه ثم النصر على العدو المرتب عليهما غالباً ولذا أتى بالفاء فقال ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بإرادته ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ ﴾ وكان فى عسكر طالوت من أبناء « إيشى » وهم سبعة وداود صغيرهم فأوحى الله إلى نبيهم أن داود هو الذى يقتل جالوت فطلبه من أبيه فجاء وقد مر فى طريقه بثلاثة أحجار ودعاه كل واحد منهن أن يحمله وقالت له : إنك بنا تقتل جالوت فحملها وبارز جالوت وفى بيضته ثلثمائة رطل من الحديد فقتله بها كما قال تعالى « وقتل داود » ﴿ جَالُوتَ ﴾ فزوجه طالوت بنته ﴿ وَءَاتَـٰهُ ﴾ أى داود ﴿ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ فى بنى إسرائيل ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ النبوة بعد موت شمويل وطالوت ولم يجتمعا لأحد قبله وهو من سبط المملكة أولاد يهودا بن يعقوب ﴿ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ كصنعة الدروع ومنطق الطير ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ﴾ بالمد لنافع ولغيره بالقصر ﴿ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم ﴾ بدل بعض من الناس ﴿ بِبَعْضٍ ﴾ بنصر المؤمنين على الكفار وكف فسادهم بهم ﴿ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ بغلبة المشركين وتخريب المساجد ﴿ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَـٰلَمِينَ ﴾ فدفع بعضهم ببعض وما من قرية ولا بلدة إلا يقدر الله فيها من يدفع الله به عنهم ﴿ تِلْكَ ﴾ القصص من أخبار الألوف وطالوت والتابوت وانهزام الجبابرة وقتل داود جالوت ﴿ ءَايَـٰتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا ﴾ نقصها ﴿ عَلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ بالوجه المطابق الذى لا يشك فيه أهل الكتاب وأرباب التواريخ ﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ لما أخبرت بها من غير تعرف واستماع والتأكيد بأن وغيرها ردّ لقول الكفار له لست مرسلا ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى الجماعة المذكور قصصها فى السورة أو المعلومة للرسول عليه السلام ﴿ الرُّسُلُ ﴾ صفة والخبر ﴿ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أو تلك مبتدأ والرسل خبره وأل للاستغراق بتخصيص كل بمنقبة ليست لغيره ثم فصل التفضيل بقوله ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ كموسى ومحمد ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ ﴾ أى محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ دَرَجَـٰتٍ ﴾ بدرجات أو ذا درجات على غيره من وجوه متعددة عموم الدعوة إلى الكافة وختم النبوة به وتفضيل أمته على سائر الأمم والمعجزات المتكاثرة المرتقية إلى الألف وأكبرها القرآن لأنه المعجزة الباقية والفضائل العلمية والعملية الفائتة للحصر وقيل المراد ببعضهم جميع أولى العزم ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَـٰتِ ﴾ كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ﴿ وَأَيَّدْنَـٰهُ ﴾ قويناه ﴿ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ جبريل يسير معه حيث سار وخصصه بالذكر لإفراط اليهود فى تحقيره والنصارى فى تعظيمه ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ هدى الناس جميعاً ﴿ مَا اقْتَتَلَ ﴾ اختلف لأنه سببه ﴿ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم ﴾ بعد الرسل أى أممهم ﴿ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَـٰتُ ﴾ لاختلافهم وتضليل بعضهم بعضاً ﴿ وَلَـٰكِنِ اخْتَلَفُوا ﴾ بمشيئته ذلك ثم بين الاختلاف فقال ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ ﴾ أى ثبت

على إيمانه ﴿ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾ كالنصارى بعد المسيح ﴿ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا ﴾ تأكيد ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ من توفيق من شاء وخذلان من شاء وفى الآية دليل على أن الأنبياء متفاوتة الاقدار يجوز تفضيل بعضهم على بعض لكن بقاطع وأن الحوادث بيد الله تابعة لمشيئته خيراً كانت أو شراً إيماناً أو كفراً ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا ﴾ فى سبيل الله فى واجب أو غيره ﴿ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ ﴾ لا تقدرون فيه على تدارك ما فرطتم فيه والخلاص من عذابه لانه ﴿ لَّا بَيْعٌ ﴾ فداء ﴿ فِيهِ ﴾ فتحصلون به ما تنفقون أو تفتدون به من العذاب ﴿ وَلَا خُلَّةٌ ﴾ صداقة تنفع حتى تعينكم عليه أخلاؤكم ﴿ وَلَا شَفَاعَةٌ ﴾ بغير إذنه فتتكلوا على شفعاء تشفع لكم وهو يوم القيامة ، قرأ نافع وابن عامر والكوفيون: برفع الثلاثة ، وابن كثير وأبو عمرو بفتحها ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ بالله أو بما فرض عليهم ﴿ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أنفسهم بتركهم التقديم ليوم حاجتهم لوضعهم أمراله فى غير محله ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ ﴾ لا معبود بحق فى الوجود ﴿ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ﴾ الدائم البقاء الذى يصح له أن يتصف بجميع صفات الالوهية والربوبية ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ البالغ فى القيام بتدبير خلقه فيعول من قام بالأمر إذا حفظه ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ ﴾ نعاس وهو فتور يتقدم النوم ﴿ وَلَا نَوْمٌ ﴾ حال يعرض للحيوان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الابخرة المتصاعدة بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الإحساس رأساً وتقديم السنة عليه وإن كان قياس المبالغة عكسه لرعى ترتيب الوجود وجملة « لا تأخذه » نفى للتشبيه وتأكيد لكونه حياً قيوماً فإن من أخذه نعاس أو نوم كان معوق الحياة قاصر الحفظ والتدبير ولذا ترك العاطف فيها وفى الجمل التى بعدها ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ تقرير لقيوميته واحتجاج على تفرده بالألوهية ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ ﴾ أى لا أحد يشفع ﴿ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ بيان لكبريائه فى شأنه وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه يستقل بأن يدفع ما يريده شفاعة فضلا أن يعاوقه عناداً ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى الخلق ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أى أمر الدنيا والآخرة ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ ﴾ أى معلومه لا يعلمون شيئاً من معلوماته ﴿ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ أن يعلمهم منها بإخبار الرسل دليل على تفرده بالعلم الذاتى الدال على وحدانيته ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ تصوير لعظمته قيل أحاط علمه بهما ومنه الكراسة لتضمنها العلم تسمية للعلم بمكانه وقيل معناه ملكه تسمية للشىء بمكانه الذى هو كرسى الملك وقيل الكرسى بعينه مشتمل عليهما لعظمته لحديث « ما السموات السبع فى الكرسى إلا كدراهم سبعة ألقيت فى ترس » وفضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على الحلقة وقيل تمثيل مجرد لا كرسى فى الحقيقة ولا قاعد والكرسى فى الأصل اسم لما يقعد عليه ولا يفضل عن مقعدة القاعد وكأنه منسوب إلى الكرس وهو الملبد ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ ﴾ لا يثقله ﴿ حِفْظُهُمَا ﴾ السموات والارض مأخوذ من الأود وهو الاعوجاج والمصدر مضاف إلى المفعول ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ﴾ فوق خلقه بالقهر وعلا عما لا يليق به من الصفات وعن الأنداد والأشباه ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الكبير المستحقر إليه كل ما سواه

وهذه الآية هى «آية الكرسى» أعظم آية فى القرآن وَرَدَ أنها تعدل ثلث القرآن ومن قرأها أول ليله لم يقربه شيطان . ونزل فيمن كان له أولاد من الانصار تهوّدوا فأراد إكراههم على الإسلام ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ ﴾ على الدخول فيه ﴿ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ أى ظهر بالآيات البينات أن الإيمان رشد ، والكفر غىّ : وهو الضلال فى المعتقد والآية خاصة بأهل الكتاب أو عام منسوخ بقوله « جاهدوا الكفار » أو معنى الآية عز الإسلام وظهر عند كل عاقل فلا يحتاج إلى إكراه ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ﴾ الشيطان أو الأصنام وهو يطلق على المفرد والجمع : فلعوت ، من الطغيان ، قلبت عينه ولامه مبالغة ﴿ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ ﴾ بالتوحيد وتصديق الرسول ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ ﴾ تمسك ﴿ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ بالعقد المحكم مستعارة لتمسك الحق مؤنث الأوثق ﴿ لَا انفِصَامَ ﴾ لا انقطاع ﴿ لَهَا ﴾ حتى تؤديه إلى الجنة ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ بالأقوال ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بالنيات ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ ﴾ ناصر ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الذين ثبت فى علمه أنهم يؤمنون ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ الجهل والهوى والشبه المؤدية إلى الكفر بما يهديهم ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ للإيمان والهداية جمعت الظلمات لاختلافها بكثرة أسبابها وأفرد النور لاتحاد الإيمان إذ سبيل الحق واحد وهذا ونحوه من الاستعارات الأصليات والجملة خبر بعد خبر أو حال من المستكن فى الخبر أو من الموصول أو منهما أو استئناف مبين للولاية ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ هم الذين علم الله أنهم لا يؤمنون فهم أبداً مصممون على الكفر ﴿ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ ﴾ هو فى معنى الجمع أى الشياطين ﴿ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ ﴾ الفطرى ﴿ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ الشكوك والشبه وقيل ذكر الإخراج لمقابلة قوله يخرجهم من الظلمات أو فى كل من آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم قبل بعثه من اليهود ثم كفر به ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ثم سلى نبيه عليه السلام بقصة إبراهيم مع نمرود فقال ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ ﴾ جادل ﴿ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ ﴾ عارضه فى ربوبية ربه ، تعجيب لحاقته لـ ﴿ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ أى حمله بطره بنعمة الله على ذلك وهو « نمرود - بضم النون - بن كنعان بن كوش بن حام بن نوح » أول من تجبر وادعى الربوبية وهو صاحب الصرح ببابل ﴿ إِذْ ﴾ بدل من حاج أو ظرف له قيل لما كسّر إبراهيم الأصنام قال له نمرود : من ربك الذى تدعو إليه ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّيَ ﴾ قرأ حمزة فقط بحذف الياء ﴿ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ ﴾ أى يخلق الحياة والموت فى الأجساد ﴿ قَالَ ﴾ هو ﴿ أَنَا ﴾ بالألف لنافع فقط ﴿ أُحْيِى وَأُمِيتُ ﴾ بالقتل والعفو عنه . ودعا برجلين فقتل أحدهما وترك الآخر فانقطع بذلك عند الخاصة ، فلما رآه غبيًّا يوهم العامة ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴾ له منتقلا إلى حجة أوضح من الاولى دفعاً للشاغبة التى تلبس بها على العامة الضّعفة ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا ﴾ أنت ﴿ مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ ﴾ تحير ودهش ثم قال ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ بالكفر إلى محجة الاحتجاج ﴿ أَوْ ﴾ رأيت ﴿ كَالَّذِى ﴾ أى مثل الذى ، لحذف رأيت لدلالة ألم تر عليه وعليه تخصيصه بحرف التشبيه لان المنكر

للإحياء كثير والجاهل بكيفيته أكثر من أن يحصى بخلاف مدعى الربوبية ، وقيل الكاف زائدة ﴿ مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ﴾ هي بيت المقدس أوغيرها راكباً على حمار ومعه سلة تين أو عنب وقدح عصير أولبن وهو «عزير بن شرخيا» أو غيره ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ سقوفها بأن سقطت السقوف ثم سقطت الحيطان عليها لما خربها « بُخت نَصَّر » بضم الباء وتشديد الصاد ﴿ قَالَ أَنَّىٰ ﴾ كيف ﴿ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ استعظاماً لقدرة الله تعالى ﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ ﴾ وألبثه ﴿ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ أحياه ليريه كيفية ذلك ﴿ قَالَ ﴾ تعالى له ﴿ كَمْ لَبِثْتَ ﴾ مكثت هنا ﴿ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ لأنه نام أول النهار فقبض وأحيى عند الغروب فظن أنه يوم النوم ﴿ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ ﴾ التين أو العنب ، والعصير أو اللبن ﴿ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ لم يتغير مع طول الزمان ، وأفرد الضمير لأن الطعام والشراب كالجنس الواحد ، والهاء أصلية من سانهته عاملته سنة على من قدر لام سنة هاء وقيل للسكت سمع سانيتُ على جعل لام السنة واواً ، وقرأ حمزة والكسائى بحذفها ﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ كيف هو ، فرآه ميتاً وعظامه بيض تلوح ، أو رآه حياً بلا علف ولا ماء ، والأول أدل على الحال وأوفق لما بعده . فعلنا ذلك لتعلم وتعتبر به ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً ﴾ على البعث ﴿ لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ ﴾ من حمارك أو عظام الموتى ﴿ كَيْفَ نُنشِرُهَا ﴾ نحييها بضم النون وبالراء لنافع وابن كثير وأبى عمرو وبضم النون والزاى لابن عامر والكوفيين أى نحركها ونرفعها وقرئ ننشرها من نشر كأنشر ﴿ ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ فنظر إليها وقد تركبت وكسيت لحماً ونفخ فيه الروح ونهق ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ﴾ ذلك بالمشاهدة وعلم أن الله على كل شيء قدير ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ علم مشاهدة ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقرأ حمزة والكسائى « أعلم » أمر من الله له . روى أنه أتى قومه على حماره وقال أنا عزير فكذبوه فقرأ التوراة من الحفظ ولم يحفظها أحد قبله فعرفوه بذلك وقالوا هو ابن الله رجع وهو شاب وأولاده شيوخ فإذا حدثهم بحديث قالوا هذا حديث مائة سنة

﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ سؤال عن كيفية الإحياء لا عن نفسه أى ليصير علم ذلك عياناً وأقول إذا سئلت هل رأيت إحياء الموتى ؟ نعم . إذ رُوى أنه لما قال لنمرود إحياء الله برد الروح قال له هل عاينته فلم يقدر أن يقول نعم وانتقل إلى حجة أخرى ﴿ قَالَ ﴾ تعالى له ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ بقدرتى على الإحياء سأله مع علمه بإيمانه بذلك ليجيبه بما سأل فيعلم السامعون غرضه ﴿ قَالَ بَلَىٰ ﴾ آمنت ﴿ وَلَٰكِن ﴾ سألتك ﴿ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ بالمعاينة المضمومة إلى الاستدلال فى العيان لطيف معنى ليس فى البرهان ﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ ﴾ إنما خص الطير لأنه أقرب إلى الإنسان وأجمع لخواص الحيوان والطير . مصدر سمى به أو جمع كصحب ﴿ فَصُرْهُنَّ ﴾ بضم الصاد للجمهور وكسرها لحمزة ، أملهن ﴿ إِلَيْكَ ﴾ وضمهن إليك لتتأملها وتعرف شياتها لئلا تلتبس عليك بعد الإحياء ﴿ ثُمَّ ﴾ قطعهن واخلط لحمهن وريشهن وجزئهن عدد جبال أرضك و ﴿ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ﴾ قيل كانت الجبال التى

بعضرته أربعة وقيل سبعة ، وقرأ أبو بكر بضم الزاى حيث وقع وهى لغة تميم ﴿ ثُمَّ ادْعُهُنَّ ﴾ إليك ، قل : تعالين بإذن الله ﴿ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾ سريعاً فى طيرانهن أو مشيهن على أرجلهن ﴿ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ لا يعجزه شىء ﴿حَكِيمٌ﴾ فى صنعه فأخذ طاووساً وحمامة وغراباً وديكا وفعل بهن ما ذكر وأمسك رءوسهن عنده ودعاهن فتطايرت الأجزاء إلى بعضها حتى تكاملت ثم أقبلت إلى رءوسها فانضممن إليها فطارت . فى الآية دليل على أن من أراد إحياء نفسه بالحياة الأبدية فليقتلها بالرياضات حتى تنكسر وتطاوعه سريعاً إلى داعية العقل أو الشرع ، وفى إيثار هذه الطيور إشارة للسالك إنما يصل إذا أمات حب الشهوات والزخارف التى هى صفة الطاووس ، وصولة الغضب والترفع التى هى صفة الديك ، وخسة النفس بالميل إلى الجيف التى هى الدنيا وكثرة الخيلاء التى هى صفة الغراب ، والمسارعة إلى الهوى التى هى صفة الحمام ، ولما برهن تعالى على قدرته على الإحياء حث على الإنفاق فى سبيله وأعلم أنه يثيب عليه أجراً عظيما وهو قادر عليه فقال ﴿ مَثَلُ ﴾ صفة نفقات ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ طاعته ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ ﴾ أو مثلهم كمثل باذر حبة ﴿ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ﴾ بأن تخرج ساقا يتشعب منها سبع شعب لكل واحدة سنبلة وهذا يقع فى الدخن والذرة كثيراً فى المواضع الطيبة وإن قل فى البر ونحوه وعبر بسنابل دون سنبلات ليدل على الكثرة فى المعنى لاشتمال كل سنبلة على مائة حبة كما قال ﴿ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ﴾ أو أكثر فكذلك نفقاتهم تضاعف إلى سبعمائة ضعف ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ ﴾ أكثر من ذلك ﴿ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ لا لكل منفق لتفاوت أحوال المنفقين والنفقات بحسب قوة اليقين والإخلاص ، وبحسب الأوقات والصدقات ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ ﴾ فضله ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمن يستحق المضاعفة بنيته . ونزل فى المنفقين فى طاعة الله كعثمان بن عفان فى غزوة تبوك بألف بعير بأقتابها وأحلاسها وألف دينار . وعبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا ﴾ على المنفق عليه بعد المنة بقوله قد أحسنت إليه وجبرت حاله فى كذا مثلا ﴿وَلَا أَذًى﴾ له بذكر ذلك إلى من لا يحب وقوفه عليه والتطاول عليه برؤية الفضل بسبب العطاء ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ ثواب إنفاقهم ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ لم يدخل الفاء هنا فى خبر الموصول إعلاماً بأن الأجر بفضل الله لا بالأعمال أو للإيهام بأنهم أهل لذلك وإن لم يفعلوا ، فكيف إذا فعلوا ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من فائت ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على مترقب ، وفى الآية تحذير عن القوادح فى الإنفاق ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ كلام حسن ورد على السائل جميل ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ له فى الحاجة أو مغفرة من الله بسبب الرد الجميل ﴿ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ﴾ خبر عنهما وإنما صح الابتداء بالنكرة لاختصاصها بالصفة واكتفى بالأذى لدلالته على قرينه . وفى الحديث « الكلمة الطيبة صدقة ، وكفك عن الشر صدقة » ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ ﴾ عن العباد وإنفاقهم . وإنما حث على الإنفاق لينالوا به الزلفى فلا ينبغى أن يعطل بالمن والأذى ﴿ حَلِيمٌ ﴾ بتأخير العقوبة عن المنان والمؤذى . وفى حديث مسلم عن أبى ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : المنان بصدقته ، والمسبل إزاره ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » . اهـ . وكنى بالآية والحديث وعيداً على ذلك ثم أكد ذلك أيضاً بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ ﴾ أى أجورها ﴿ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ ﴾ بأن يؤدى إلى عدم القبول إذ السيئة لا تبطل الحسنة إبطالا ﴿ كَالَّذِى ﴾ أى كإبطال نفقة الذى ؛ فالكاف فى محل نصب على المصدر أو التقدير : كالمنافق الذى ، فنصبها على الحال أى مماثلين الذى ﴿ يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾ مرائياً لهم حال أو مفعول له ﴿ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ لذلك لا يطلب بإنفاقه رضى الله ﴿ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ لا يرجو الثواب فيه ، شبه المن والأذى بفعل المنافق تحذيراً من ارتكابه وحثا على اجتنابه ﴿ فَمَثَلُهُ ﴾ أى المرائى وإنفاقه الذى لا ينتفع به ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ ﴾ حجر أملس ﴿ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ ﴾ مطر شديد عظيم القطر ﴿ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ﴾ صلباً أملس لا شىء عليه من التراب مثل ضربه الله لنفقة المنافق المرائى والمؤمن المانّ المؤذى بما ذكر فكذلك تبطل أعمال هؤلاء ﴿ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ ﴾ وجدان ثواب ﴿ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾ عملوه فى الدنيا لا يجدون له ثواباً فى الآخرة كما لا يوجد على الصفوان شىء من التراب ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ جمع الضمير للذى ينفق باعتبار المعنى لأن المراد به الجنس أو الجمع كما فى قوله :

وَإِنَّ الَّذِى حَانَتْ بِفَلْجٍ دِمَاؤُهُمْ ... هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدِ

وفى آخر الآية تعريض بأن الرياء والمن والأذى على الإنفاق من صفات الكفار يجب على المسلم اجتنابها ، ثم عقب المرائين بضدهم فقال ﴿ وَمَثَلُ ﴾ نفقات ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ ﴾ طلب ﴿ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أى تحقيقاً للثواب عليه بخلاف المنافقين الذين لا يرجونه لإنكارهم له ، و « من » ابتدائية ، أى تثبيتاً ناشئاً من عند أنفسهم أو تبعيضية أى تثبيتاً بعض أنفسهم على الإيمان فإن المال شقيق الروح فمن بذله لوجه الله ثبت بعض نفسه ومن بذل ماله وروحه ثبتها كلها ، قاله البيضاوى . والمعنى مثل نمو نفقات هؤلاء عند الله ﴿ كَمَثَلِ ﴾ ثمرة ﴿ جَنَّةٍ ﴾ بستان ﴿ بِرَبْوَةٍ ﴾ بضم الراء للجمهور وفتحها لابن عامر وعاصم مكان مرتفع يسيراً كثيف التراب مستو لأن الشجر فيها أزكى وأحسن لأنه لا يعلوه الماء ولا يعلو عن الماء ، ومن نظم الخليل إمام النحو يمدح بستاناً على ربوة :

تَرَفَّعَتْ عَنْ يَدِ الْأَعْمَاقِ وَانْخَفَضَتْ ... عَنِ الْمَعَاطِشِ وَاسْتَغْنَتْ بِسُقْيَاهَا

﴿ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ ﴾ أعطت ﴿ أُكُلَهَا ﴾ ثمرها بسكون الكاف لنافع وابن كثير وأبى عمرو وبضمها لابن عامر والكوفيين ﴿ ضِعْفَيْنِ ﴾ مثل ما يثمر غيرها أو مثل ما يظن بها والضعف المثل وقيل أربعة أمثالها ونصبه على الحال أى مضاعفاً ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ مطر خفيف أى صغير القطر يكفيها لارتفاعها ، المعنى تثمر وتزكو كثر المطر أو قل فكذلك نفقات من ذكر تزكو عند الله كثرت أو قلت ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ يرى أعمالكم على إكثار وإقلال ويعلم نياتكم فيها من رياء وإخلاص

فيجازيكم به وفيه تحذير عن الرياء والمن والأذى وترغيب فى الإخلاص ﴿ أَيَوَدُّ ﴾ يحب ﴿ أَحَدُكُمْ ﴾ الهمزة فيه للإنكار متصل بقوله « يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » ﴿ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ ﴾ بستان ﴿ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ خصهما بالذكر أولا لشرفهما وكثرة منافعهما ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ ثم ذكر أن فيها كل الثمرات بقوله ﴿ لَهُ فِيهَا ﴾ رزق أو ثمرة ﴿ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ صفة لمبتدإ محذوف قائمة مقامه أو « من » زائدة على رأى الأخفش : يجوز زيادتها فى الإثبات ويجوز أن يكون المراد بالثمرات المنافع ﴿ وَ ﴾ قد ﴿ أَصَابَهُ الْكِبَرُ ﴾ ضعف عن الكسب ﴿ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ ﴾ أولاد صغار لا يقدرون على شىء ﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ ﴾ ريح شديدة تستدير فى الأرض ثم تسطع نحو السماء كعمود ، عطف على أصابه الكبر ﴿ فِيهِ ﴾ فى الإعصار ﴿ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ﴾ ففقدها أحوج ما كان إليها وكذا المرائى والمانّ كل يعدم نفع صدقاته فى الآخرة أحوج ما كان إليها وعن ابن عباس مثال لمن عمل الطاعات ثم بعث له الشيطان نعمل بالمعاصى حتى أحرق أعماله . وقال البيضاوى : أشبههم به من جال بسره فى عالم الملكوت وترقى بفكره إلى جنات الجبروت ثم نكص على عقبيه إلى عالم الزور والتفت إلى ما سوى الحق وجعل سعيه هباء منثوراً ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ فتعتبرون بها فتجتنبون مايورثكم الندم . وعن ابن عباس : تتفكرون فى زوال الدنيا وإقبال الآخرة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا ﴾ الفرض والنفل ﴿ مِن طَيِّبَاتِ ﴾ جياد ﴿ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ من المال من الذهب والفضة والنعم والعروض للتجارة وغيرها ﴿ وَمِنْ ﴾ طيبات ﴿ مَا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ من الحبوب والثمار والمعادن ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا ﴾ تقصدوا ﴿ الْخَبِيثَ ﴾ الردىء ﴿ مِنْهُ ﴾ أى من المذكور ﴿ تُنفِقُونَ ﴾ ه فى الزكاة وغيرها حال من ضمير تيمموا ﴿ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ ﴾ أى الخبيث لو أعطيتموه فى حقوقكم ﴿ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ بالتساهل وغض البصر فكيف تؤدون منه حق الله : نزلت الآية فيمن كان يتصدق بشرار ثماره ورذيل أمواله ويترك الجيد لنفسه ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ ﴾ عن نفقاتكم ﴿ حَمِيدٌ ﴾ محمود على كل حال . قال ابن العربى فى الأحكام والصحيح أن الآية عامة فى الفرض والتطوع إذ سبب نزولها فى التطوع اتفاقا فإن قيل قوله « ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه » دليل على خصوصه بالديون التى لا تتسامح باقتضاء الردىء فيها عن الجيد إلا بالإغماض قلنا هذا غفلة فإنها لو كانت نازلة فى الفرض لما قال « ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه » لأن الردىء لا يجوز أخذه فى الفرض بحال وإنما يؤخذ فى النفل . اه . ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ﴾ يخوفكم به إن تصدقتم يقول : إن عاقبة إنفاقكم أن تفتقروا فتمسكوا ﴿ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾ بالبخل ومنع الزكاة والمعاصى ﴿ وَاللَّهُ يَعِدُكُم ﴾ على الإنفاق ﴿ مَّغْفِرَةً مِّنْهُ ﴾ لذنوبكم ﴿ وَفَضْلًا ﴾ رزقا خلفا منه أفضل مما أنفقتم مع الثواب عليه فى الآخرة ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ ﴾ فضله ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بالمنفق ونيته ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ ﴾ أى العلم النافع المؤدى إلى العمل والحكيم عند الله هو العالم العامل ﴿ مَن يَشَاءُ ﴾ مفعول أول أخر للاهتمام بالمفعول

الثانى ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾ بناء للمفعول لأنه المقصود وقرئ بالكسر أى ومن يؤته الله الحكمة ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ لمصيره إلى السعادة الأبدية ونيل خير الدارين ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ فيه إدغام التاء فى الأصل فى الذال: يتعظ ﴿إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أصحاب العقول السالمة من الأوهام والهوى: حث على العمل بما تضمنته الآى السابقة من إنفاق الطيب وترجى المغفرة والفضل وعدم الركون إلى المن والأذى وإيثار لفظ التذكر إيماء إلى جلاء تلك المقاصد ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ﴾ فى طاعة أو معصية ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ﴾ فيهما والنذر أن يوجب الإنسان على نفسه شيئاً ليس بواجب وأصله الخوف، ومن قال لله على كذا من طاعة تلزمه الوفاء به ولا يجزيه غيره وإن كان نذر لله معصية حرم أو مكروهاً كره أو مباحا أبيح ولا شىء عليه إن لم يفعل فى الثلاثة فى مذهب مالك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ فيجازيكم عليه: وعد ووعيد ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ بمنع الزكاة والنذر والإنفاق فى المعاصى ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ مانعين لهم من عذابه ﴿إِنْ تُبْدُوا﴾ تظهروا ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ النوافل ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ نعم شيئاً إبداؤها بكسر النون والعين من غير إخفاء فى رواية ورش عن نافع وحفص عن عاصم وقراءة ابن كثير، وبفتح النون وكسر العين من غير إخفاء لابن عامر وحمزة والكسائى وبكسر النون وإخفاء كسر العين لأبى عمرو وقالون عن نافع وأبى بكر عن عاصم ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا﴾ تسروها ﴿وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من إبدائها وإيتائها الأغنياء أما صدقة الفرض فالأفضل إظهارها ليقتدى به ولئلا يتهم. وإيتاؤها الفقراء متعين ولا يحشرهم إليها بل يؤتيهم الزكاة بمواضعهم، وتصرف صدقة الفرض إلى المسلم الفقير وإن كان عاصياً بغير ترك أركان الإسلام: الصلاة والصيام فلا تعطى تاركها حتى يتوب، قاله ابن العربى فى الأحكام: ﴿وَنُكَفِّرْ﴾ بالنون مجزوماً بالعطف على محل «فهو» لنافع وحمزة والكسائى، وبالياء لابن عامر وحفص مرفوعاً، وللباقين بالنون مرفوعاً أيضاً على الاستئناف ﴿عَنْكُمْ مِنْ﴾ بعض ﴿سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإبداء والإخفاء ﴿خَبِيرٌ﴾ عالم بباطنه كظاهره ولا يخفى عليه شىء وفيه ترغيب فى إخفاء صدقة النفل ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ أى الناس خلق الاهتداء فيهم تسلية له كان يشق عليه عدم إسلام بعضهم فقيل له: إنما عليك البلاغ، وقد بلغت ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته إلى الدخول فيه ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ مال ﴿فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾ لأن ثوابه لها فاتركوا المن والأذى عليه والتطاول به ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ أى ثوابه لاغيره من أغراض الدنيا، حال أو عطف على ماقبله وهو خبر بمعنى النهى ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ جزاؤه أضعافاً مضاعفة فارغبوا فيه وفى أن يكون على أحسن الوجوه ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ تنقصون منه شيئاً والجملتان تأكيد للأولى ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ خبر مبتدإ محذوف أى الصدقات ﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى حبسوا أنفسهم على الجهاد، نزلت فى أهل الصفة من فقراء المهاجرين لا يحصرون بعدد بل يزيدون بمن يجىء إليهم وينقصون بمن يتزوج منهم أو يموت، أرصدوا أنفسهم لتعلم القرآن والخروج مع

السرايا يخرجون مع كل سرية بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون ليلا ويرضخون النوى نهاراً المعاش ، فمن كان عنده فضلة أتاهم إذا أمسى وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بأن يعشى كل رجل واحداً منهم فإذا فضل جماعة ذهب هو بهم يعشيهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا﴾ سفراً ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ للتجارة والمعاش لشغلهم عنه بالجهاد أو لوجود المانع من مرض ونحوه ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ﴾ بحالهم ، بكسر السين لنافع وابن كثير وأبي عمرو والكسائي وبفتحها لغيرهم ﴿أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ لتعففهم عن السؤال وتركه ﴿تَعْرِفُهُمْ﴾ يا مخاطباً ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ من الضعف ورثاثة الحال ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ﴾ شيئاً فيلحفون ﴿إِلْحَافًا﴾ أي لا سؤال لهم أصلا فلا يقع منهم إلحاف وهو الإلحاح بأن يلازم المسئول حتى يعطيه ، وفي الحديث « إن الله يحب الحيّ المتعفف ويبغض البذيء الملحف » قال ابن العربي في الأحكام : والملحف من يسأل الرجل بعد ما رده أو يسأل وعنده ما يغنيه اللهم إلا أن يعلم السائل أن من رده قادر على ماسأله إياه أو جاهل بحاله فيعيد عليه السؤال إعذاراً أو إنذاراً ثلاثاً لا يزيد عليه وذلك جائز والأفضل تركه ، والله أعلم . اهـ . ونصبه على المصدر المبين لنوع من السؤال أو على الحال ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فمجاز عليه ترغيب في الإنفاق وخصوصاً على هؤلاء ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ في الأوقات كلها لا يؤخرون من وقت إلى وقت بل متى تمكنوا أنفقوا وفي الأحوال كلها ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ خبر الذين ينفقون ، والفاء للسببية ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ أي يأخذونه ، وذكر الأكل لأنه أعظم منافع المال ، ولأن الربا الشائع في المطعومات : وهو الزيادة في المعاملة بالذهب والفضة والمطعومات المقتاة بها في القدر أو في الأجل فالأول : ربا الفضل ، والثاني : ربا النساء . فدخل جميع وجوه الربا وهي بيع المقتاة أو النقد جنساً بجنس متفاضلا أو بغير جنس نسيئة ، ومنه بيع الرطب بالتمر أو العنب بالزبيب وبيع المزابنة على أحد قولين وبيع وسلف ، وسلف بزيادة ؛ فهذه ستة ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ من قبورهم ﴿إِلَّا﴾ قياماً ﴿كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ﴾ يصرعه ﴿الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ الجنون بهم . متعلق بيتخبطه ﴿ذَلِكَ﴾ الذي نزل بهم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ في الجواز وهذا من عكس التشبيه مبالغة . قال تعالى رداً عليهم ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ يعني الصحيح لأن النبي صلى الله عليه وسلم خصص منه البيوع الفاسدة فمنها وهي كثيرة تأتي ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ هدم لقياسهم لأنه في مقابلة النص أن لو كان صحيحاً كيف وهو قياس مع الفارق فإن من أعطى درهمين بدرهم لا يقابل أحدُ درهميه بشيء ﴿فَمَنْ جَاءَهُ﴾ بلغه ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ وعظ ﴿مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى﴾ عن أكله ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ قبل النهي أي لا يسترد منه ﴿وَأَمْرُهُ﴾ في العفو عنه ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ يجازيه على انتهائه بالنية والعمل بما أمر الله به ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى أكله مشبهاً له بالبيع في الحل ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾

ينقصه ويذهب بركته ، كتب ألف « الربا » فى جميع المواضع بالواو رجوعاً إلى الأصل ، إذ أصلها واو من ربا يربو ، زاد : وكتب الألف بعد الواو تشبيهاً بواو الجمع ﴿ وَيُرْبِى الصَّدَقَٰتِ ﴾ يزيدها ويضاعف بركتها وثوابها ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ ﴾ بتحليل الربا ﴿ أَثِيمٍ ﴾ بأكله أى يعاقبه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ بتحريم الربا ﴿ وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ ﴾ عطفهما على ما يفهمهما لشرفهما على سائر الأعمال الصالحة ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا ﴾ اتركوا ﴿ مَا بَقِىَ ﴾ مما شرطتم على الناس ﴿ مِنَ الرِّبَوٰٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فإن من شأن المؤمن امتثال أمر الله ، نزلت لما طالب بعض الصحابة بعد النهى بربا كان له قبل ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا ﴾ ما أمرتم به ﴿ فَأْذَنُوا ﴾ من الإذن وهو العلم ، أى اعلموا ﴿ بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ لكم وقرأ حمزة وأبو بكر : فآذنوا من الإيذان بمعنى الإعلام : أى : فأعلموا بها غيركم وهو أبلغ وتنكير «حرب» للتعظيم ، ولما نزلت قالوا : لا يدىْ لنا بحربه ، واعلم أن هذه الآيات لتحريم الربا مع آية « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » ومن الباطل الغرر الذى منعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى البيع عمت جميع البيوع الفاسدة من أنواع الربا الستة المتقدمة ، وبيوع الغرر وهى كثيرة منها : بيعتان فى بيعة وبيع الملامسة ، والمنابذة ، والحصاة ، والنشا ، والعربان ، وما ليس عندك ، والمضامين ، والملاقيح ، وحبل الحبلة ، وبيع الثمر قبل بدو الصلاح ، وبيع الطعام قبل قبضه ، وعسيب الفحل ، والكلب ، والسنور ، وكسب الحجام ، ومهر البغى ، وحلوان الكاهن ، وبيع المضغوط ، والولاء ، وتفريق الأم من ولدها ، وكراء الأرض بما يخرج منها ، والنجش ، وبيع الرجل على بيع أخيه ، وحاضر لباد ، وتلق السلع ، وما لا قيمة له شرعاً : كالخمر والميتة والدم والأصنام وغير ذلك ﴿ وَإِن تُبْتُمْ ﴾ رجعتم عنه ﴿ فَلَكُمْ رُءُوسُ ﴾ أصول ﴿ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ ﴾ بزيادة على المديون ﴿ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ بنقص ﴿ وَإِن كَانَ ﴾ وقع غريم ﴿ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ من غرمائكم ، وهذا عام فى كل دَين ولا يختص بدين الربا ﴿ فَنَظِرَةٌ ﴾ له أى عليكم تأخيره ﴿ إِلَىٰ مَيْسُرَةٍ ﴾ بضم السين لنافع وفتحها لغيره وقت يسر ولا يجوز أن تقولوا له إما أن تقضى وإما أن تربى فالغرماء ثلاثة مَلِئٌ يجب عليه الأداء ولا يحل له المطل ، ومعسر غير عديم يستحب تأخيره ، وعديم يجب تأخيره إلى أن يوسر ﴿ وَأَن تَصَدَّقُوا ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لعاصم أى تتصدقوا برءوس أموالكم على المعسر أو العديم بالإبراء ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه خير فافعلوه ، فى الحديث «من أنظر معسراً أو وضع عنه ، أظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله» رواه مسلم . وجميع ما تقدم فى الربا وأما الغبن فإن كان مما يتغابن الناس بمثله فحلال إجماعا ، وإن خرج عن العادة وبلغ الثلث رد : قال ابن العربى : إن وقع عن علم المتعاقدين جاز وإلا خير الجاهل . اهـ . ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ ﴾ بالبناء للمفعول للجمهور تردون وللفاعل لأبى عمرو تصيرون ﴿ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ هو يوم القيامة أو يوم الموت

﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ ﴾ فيه ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ جزاء ﴿ مَا كَسَبَتْ ﴾ عملت من خير وشر ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص حسنة أو زيادة سيئة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم﴾ تعاملتم نسيئة ، داينته : عاملته معطياً أو آخذاً ﴿ بِدَيْنٍ ﴾ كسلم وقرض وغيره وفائدة ذكره أن لا يتوهم من التداين المجازاة والمماطلة إذ يطلق عليهما وليعلم أنه الباعث على الكتب وليرجع الضمير إليه ، وما روى أن ابن عباس قال نزلت الآية فى السلم خاصة . قال ابن عطية : معناه أن سلم أهل المدينة كان سبب الآية . ثم هى تتناول جميع المداينات إجماعا ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ معلوم ﴿ فَٱكْتُبُوهُ ﴾ بجميع صفاته المبينة له المعرفة للحاكم ما يحكم به عند ارتفاع النزاع إليه لأنه لاستيثاق ودفع النزاع بذكر الشاهد وغيره المتعاملين عند الأجل ، والأمر عند الجمهور للندب لأنه إرشاد ﴿ وَلْيَكْتُب ﴾ كتاب الدين ﴿ بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ ﴾ غير المتعاملين ﴿ بِٱلْعَدْلِ ﴾ بالحق فى كتابته لا يميل لأحدهما لا يزيد فى المال والأجل ولا ينقص ، وهو فى الحقيقة أمر للمتداينين باختيار كاتب فقيه دين حتى يجىء مكتوبه موثوقاً به معدلا بالشرع وهو متعلق بـ «وليكتب» أو صفة «كاتب» ﴿وَلَا يَأْبَ﴾ لا يمتنع ﴿كَاتِبٌ﴾ من ﴿ أَن يَكْتُبَ﴾ إذا دعى إليها ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ﴾ أى فضله بالكتابة فلا يبخل بها ، والكاف متعلقة بيأب أو بقوله ﴿ فَلْيَكْتُبْ ﴾ وحينئذ يكون النهى عن الامتناع منها مطلقة ثم الأمر بها مقيدة أمر ندب أو فرض على الكفاية ﴿ وَلْيُمْلِلِ ﴾ يمل على الكاتب ﴿ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ ﴾ الدين لأنه المشهود عليه ليقر فيعلم ما عليه ﴿ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ المملى والكاتب ﴿ رَبَّهُۥ ﴾ فى إملائه وكتابته ﴿ وَلَا يَبْخَسْ ﴾ ينقص ﴿ مِنْهُ ﴾ من الحق ﴿ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا ﴾ مبذراً لماله لفساد عقله كالمجنون ﴿ أَوْ ضَعِيفًا ﴾ عن الإملاء لصغر أو كبر ﴿ أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ ﴾ لخرس أو جهل باللغة أو نحو ذلك ﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ ﴾ متولى أمره من والد ووصى وقيم ومترجم ، وتصرف السفيه المحجور عليه دون وليه فاسد مفسوخ إجماعا ، وتصرف السفيه الذى لا حجر عليه أجازه ابن القاسم وأسقطه عامة العلماء . قال ابن العربى : والذى أراه إن تصرف بسداد نفذ وإلا بطل . اهـ . ﴿ بِٱلْعَدْلِ ﴾ بالحق ﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ ﴾ أشهدوا على الدين ندباً على الصحيح ﴿ شَهِيدَيْنِ ﴾ شاهدين ﴿ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ أى بالغ المسلمين الأحرار خلافاً لأبى حنيفة فى سماع شهادة الكفار بعضهم على بعض ، ولشريح وابن سيرين فى إجازة شهادة العبيد ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا ﴾ الشاهدان ﴿ رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ ﴾ يشهدون فيما عدا الحدود والقصاص ولما جعل شهادتهما بدل شهادة رجل جاز الحلف معهما على الحق كما يحلف مع الشاهد وأنكره الحنفية ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾ لدينه وعدالته مع عدم التهمة ولا يكتفى بظاهر الإسلام واكتفى به أبو حنيفة فى الأموال دون الحدود ولا تقبل شهادة العدو على عدوه ولا شهادة الولد للوالد ولا العكس للتهمة وتقبل شهادة أحدهما على الآخر وكذا يرد شهادة من جر بها نفعاً أو دفع بها ضراً . وتعدد النساء لأجل ﴿ أَن تَضِلَّ ﴾ بفتح الهمزة ونصب «تضل» للجمهور ولحمزة بكسرها شرطية أى تنسى ﴿ إِحْدَىٰهُمَا ﴾ الشهادة لنقص عقلهن وضبطهن

﴿ فَتُذَكِّرَ ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لابن كثير وأبي عمرو ﴿ إِحْدَاهُمَا ﴾ الذاكرة ﴿ الْأُخْرَىٰ ﴾ الناسية وجملة الإذكار محل العلة نزل الضلال منزلته لأنه سببه لأن التعدد لم يقع للضلال بل للإذكار . قال سيبويه : وهذا كما تقول أعددت هذه الخشبة أن يميل الحائط فأدعمه . اهـ . وهو من أبرع الفصاحة للاختصار إذ لو قال : أن أدعم لقيل لم تدعم الحائط وهو الصحيح فيزيد إذا مال فكان تقديم السبب أخص ، وكرر إحداهما ، ولم يقل فتذكرها الأخرى إرادة إيقاع التذكير على صريح ما أسند إليه الضلال إذ المعرفة المعادة عين الأولى . قال ابن العربي في الأحكام : كرر لفظ إحداهما لأنه لو قال فتذكرها الأخرى لكان البيان من جهة واحدة أي لتذكر الذاكرة الناسية فلما كرر أفاد بتذكير الذاكرة الغافلة وبغفل الذاكرة وذلك غاية البيان . اهـ . وعلى جعل إن شرطية فتذكر بالرفع جوابه كقوله تعالى « ومن عاد فينتقم الله منه » ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا ﴾ زائدة ﴿ دُعُوا ﴾ إلى تحمل الشهادة وأدائها ومفعول « يأب » محذوف أي إقامة الشهادة أو تحمل الشهادة ﴿ وَلَا تَسْأَمُوا ﴾ تملوا من ﴿ أَنْ تَكْتُبُوهُ ﴾ أي ما شهدتم عليه من الحق لكثرة وقوع ذلك ﴿ صَغِيرًا ﴾ كان ﴿ أَوْ كَبِيرًا ﴾ قليلا أو كثيراً ، قدمالصغير اهتماماً به ﴿ إِلَىٰ أَجَلِهِ ﴾ وقت حلوله حال من الهاء في تكتبوه ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ الكتب ﴿ أَقْسَطُ ﴾ أعدل ﴿ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ ﴾ أي أعون على إقامتها لأنه يذكرها . وهذا دليل على أن الشاهد إذا رأى الكتاب ولم يذكر الشهادة لا يؤديها لما دخل عليه من الريبة فيها ولا يؤدى إلا ما يعلم لكنه إذا علم أن الخط خطه ونسي ما شهد فيه ففيه خلاف في الأداء والنفع وعدمهما والله أعلم ﴿ وَأَدْنَىٰ ﴾ أقرب إلى ﴿أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ تشكوا في قدر الحق والأجل . ولما كانت هذه الآية وهي أطول آية في القرآن أولها يجوز البيع إلى الأجل ويجوز تعجيله بيّنه بقوله ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ ﴾ تقع ﴿ تِجَارَةً حَاضِرَةً ﴾ بالرفع للجمهور والنصب لعاصم فكان تامة أو ناقصة واسمها ضمير المتجر فيه ﴿ تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ ﴾تقبضونها ولا أجل فيها ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ في ﴿ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ﴾ والمراد بها المتجر فيه ﴿ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ عليه فإنه أدفع للاختلاف أمر ندب على الصحيح كما تقدم سواء كان البيع ناجزاً أو نسيئة ﴿ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ صاحب الحق ومن عليه بتحريف أو امتناع من الشهادة أو الكتابة أو لا يضرهما صاحب الحق بتكليفهما ما لا يليق في الكتابة والشهادة ﴿وَإِنْ تَفْعَلُوا﴾ ما نهيتم عنه ﴿ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ ﴾ خروج عن الطاعة لاحق ﴿ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في أمره ونهيه ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ مصالح أموركم حال مقدرة أو جملة مستأنفة ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا يلحقه سهو ولا قصور وكرر الجلالة لاستقلال الجمل الثلاث فالأولى حث على التقوى والثانية وعد بإنعامه والثالثة تعظيم لشأنه ، ولأنه أدخل في التعظيم من الكناية . ولما ذكر الله ندب الإشهاد والكتب لمصلحة حفظ الأموال والأديان عقب ذلك بحال الأعذار المانعة من الكتب وجعل بدله الرهن ونص على السفر لأنه الغالب من الأعذار فقال ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾

أى مسافرين وتداينتم ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ بعدم آلات الكتابة ﴿فَرِهَٰنٌ﴾ أى فالذى يستوثق به رهان، أو فعليكم رهان جمع رهن، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : فرُهنٌ بضم الراء والهاء جمع رهان ﴿مَّقْبُوضَةٌ﴾ يقبضها المرتهن من الراهن، وذكر السفر خرج مخرج الغالب لأن أكثر أوقاتهم كانت فى الجهاد، إذ رهن عليه السلام درعه فى الحضر، وكذا فقد الكاتب إذ لم يكتب، فالرهن يجوز فى الحضر والسفر، وجد الكاتب أم لا خلافاً لمجاهد فقط، واشترط القبض فيه غير مالك من الأئمة، وقال مالك إذا رهنه بالقول وأبى عن القبض لا يفسد بل يجبر عليه، وإذا رجع إلى الراهن بطل ويختص به المرتهن دون الغرماء، ويجوز رهن المشاع خلافاً لأبى حنيفة، وإذا اختلفا فالقول للمرتهن إن شهد له الرهن، خلافاً للشافعى وأبى حنيفة أنه للراهن ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أى إن كان الذى عليه الحق أميناً عند صاحب الحق، ولم يرتهن منه لحسن ظنه به ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ﴾ المدين ﴿أَمَانَتَهُ﴾ دينه سماه أمانة لائتمانه عليه بترك الارتهان به هذا يدل على أن الإشهاد لم يجب لجواز إسقاطه وفيه أيضاً حث على أن يكون المدين عند ظن الدائن ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ فى أدائه الأمانة وجمع بين لفظ الجلالة والرب الدالين على الجلال والكمال ترغيباً وترهيباً لعظم شأن الأمانة. فى الحديث والدين أمانة، لا دين لمن لا أمانة له. ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ الإقرار بالأمانة وهو شهادة المرء على نفسه أو خطاب للشهود أى إذا دعيتم لإقامتها ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ والجملة خبر إن، وخص القلب بالذكر لأنه محل الشهادة ولأنه إذا أثم تبعه غيره من الأعضاء لحديث « إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » وقرئ قلبه بالنصب كحسن وجهه ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وعيد على الكتمان ﴿لِّلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِى أَنفُسِكُمْ﴾ أى ما تقرر فيها بالعزم عليه من السوء ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ تسروه ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ يوم القيامة وأما الخواطر من غير عزم وهو الوسواس فلا مؤاخذة به وهل يؤاخذ بالعزم على السيئة إن منعه منها مانع قولان الصحيح الأول ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ المغفرة له ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ تعذيبه والفعلان بالجزم لنافع وابن كثير وأبى عمرو وحمزة والكسائى عطفاً على جواب الشرط، والرفع لعاصم وابن عامر أى فهو ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومنه محاسبتكم وجزاؤكم، فلما نزلت هذه الآية اشتدت على الصحابة فشكوها إلى رسول الله فقال : « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب سمعنا وعصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا » فلما قالوا ذلك وآمنوا به نزل ﴿ءَامَنَ﴾ صدق ﴿الرَّسُولُ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾ شهادة لله ولرسوله بالإيمان ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف عليه ﴿كُلٌّ﴾ تنوينه عوض من المضاف إليه مبتدأ خبره ﴿ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ﴾ بالجمع للجمهور والإفراد لحمزة والكسائى ﴿وَرُسُلِهِ﴾ يقولون ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعل اليهود والنصارى، وأحد فى معنى الجمع لوقوعه فى سياق النفى ولذا دخل عليه بين. وقال فى غاية الأمانى :

أى بين جمع منهم لأن أحداً اسم من يخاطب مفرداً كان أوجماً ، ذكراً كان أوأنثى . اهـ . وجملة «كل» مستأنفة لبيان ما آمنوا به ويجوز أن يكون المؤمنون مبتدأ والتنوين فى «كل» عوض عن ضميرهم خاصة دون الرسول مبتدأ ثان وآمن خبره والله أعلم ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ما أمرنا به سماع قبول نسألك ﴿غُفْرَانَكَ﴾ يا ﴿رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ المرجع بالبعث . ولما أطاعوا نزل ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أى ما تسعها قدرتها : بين الله لهم أن ما كلفهم فى قوله «وإن تبدوا ما فى أنفسكم» . الخ . هو ما فيه وسعهم فى تركه وفعله وهو العزم لا الوسواس وحينئذ فلا نسخ وقيل كانوا فى الأولى الخواطر ثم نسخ بهذه والله أعلم ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أى من الخير أى ثوابه ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ من الشر أى وزره ولا يؤاخذ أحد بذنب أحد ، ولا بما لم يكتسبه مما وسوست به نفسه ، وخص الخير بالكسب والشر بالاكتساب لأن الافتعال للاعتمال بما تشتهيه النفس إذ هى تنكش فى الشر بخلاف الخير . قولوا ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ بالعقاب ﴿إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ تركنا الصواب لا عن عمد كما آخذت به من قبلنا وقد رفع الله ذلك عن هذه الأمة كما ورد فى الحديث فسؤاله اعتراف بنعمة الله أى رفع عنهم الإثم فى ذلك . وأما أحكام العبادة وحقوق الناس ثابتة إذ يقضى النائم والناسى والمكره عن الصلاة إجماعاً ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً﴾ أمراً يثقل علينا حمله كعهد لا نستطيع القيام به فتعذبنا بنقضه ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ أى بنى إسرائيل من قتل النفس فى التوراة ، وإخراج ربع المال فى الزكاة ، وخمسين صلاة فى اليوم والليلة ، وقطع الأعضاء الخاطئة وقرض موضع النجاسة ، وغيرها من أحكام التوراة ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ من التكاليف والبلايا ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ امح ذنوبنا ﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ فى الرحمة زيادة على المغفرة ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ سيدنا وناصرنا ﴿فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ بإقامة الحجة والغلبة فى قتالهم فإن من شأن المولى أن ينصر مواليه على الأعداء . وفى الحديث لما نزلت هذه الآية فقرأها صلى الله عليه وسلم قيل له عقب كل كلمة «قد فعلت» ، وفى الصحيح : «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه» . اهـ . فقد ختمت السورة المباركة التى هى سنام القرآن بما بدئت به من ذكر أولياء الله الذين آمنوا به وأطاعوه «ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين» .

[تم تفسير سورة البقرة]

سورة آل عمران

مدنية : مائتان أو إلا آية

نزل أولها إلى ثمانين آية لما قدم نصارى نجران على رسول الله عام تسع من الهجرة وقال بعضهم في عيسى هو الله لأنه يحيي الموتى وبعضهم ولد الله إذ لم يكن له أب وبعضهم ثالث ثلاثة لما كان له مع أمه مريم ولذا افتتح الله السورة بتوحيده وبأنه الحيّ الذي لا يموت بخلاف عيسى وأمه فقال : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، الم ﴾ الله أعلم بمراده بذلك ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ بفتح ميم « الم » لجمهور القراء وقرأ عاصم من رواية أبي بكر بسكونها والابتداء بما بعدها على الأصل ، وقرئ بكسرها ، والجملة بعدها ردّ لقولهم « إن الله هو المسيح » أو « ثالث ثلاثة » ﴿الْحَيُّ﴾ الذي لا يموت رد لقولهم ذلك بأنه ابنه ، إذ يجوّزون موته والابن يشبه الأب ﴿الْقَيُّومُ﴾ الذي لا يزول سلطانه وقد زال سلطان عيسى عليه السلام ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ الْكِتَابَ ﴾ القرآن مُنجّماً لذكره في مقابلة أنزل ملتبساً ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ بالصدق في أخباره وفيه إيماء إلى أن من خالفه كذاب ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ قبله من الكتب والرسل حال مؤكدة من المفعول و« بين » مستعار من المكان للزمان لما بينهما من التلبس وفيه تكذيب النصارى في اتباع الإنجيل وعيسى لما خالفوا القرآن ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ جملة على موسى وعيسى عليهما السلام وأفردا بالذكر لعظم شأنهما ودخول « أل » عليهما دليل العربية ، واشتقاقهما من الوَرْي الإيقاد والنَّجْل الاتساع أو عجميان فاشتقاقهما تعسف . أمال التوراة أبو عمرو وابن ذكوان والكسائي في جميع القرآن إمالة محضة ونافع من رواية ورش وحمزة بين بين ومن رواية قالون بالفتح كقراءة الباقين ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل القرآن حال كونهما ﴿هُدًى ﴾ هاديين من الضلالة ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ من تبعهما المعنى هاتوا برهانكم منهما ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أي القرآن أعاده ليرتب عليه ما بعده أو زبور داود أو الكتب الفارقة بين الحق والباطل فيما اختلف فيه الأحزاب من أمر عيسى وغيره وذكر بعد الثلاثة ليعم ما عداها ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ الدالة على تفرده بالألوهية وصدق الرسل والكتب وهم نصارى نجران وغيرهم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يختص بهم ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره فلا يمنعه شيء من إنجاز وعيده ووعده ﴿ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ لا يقدر على مثله منتقم ، والانتقام المبالغة في النقمة : عقوبة الجرم ، وفعلها نقم بالفتح والكسر زجر عن الإعراض عن الآيات ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ أيّ شيء كان في العالم كليًّا أو جزئيًّا ، إيماناً أو كفراً ومنه قولكم في عيسى فالآية تقرير لقيومته لأن القائم

بنفسه المقيم لغيره يلزم أن يكون عالما بكل شيء وعبر عن العالم بالسماء والأرض لأن الحس لا يتجاوزهما وقدم الأرض لأنها محل نزول الكتب ودار التكليف أو للترق من الأدنى إلى الأعلى وهو كالدليل على كونه حياً ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ﴾ كلكم عيسى وغيره فكيف يكون إلها ﴿فِي﴾ ظُلَم ﴿الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ من ذكورة وأنوثة وبياض وسواد وغير ذلك تحقيق لكمال علمه وقيوميته كيفما تعلقت بهم إرادته على أشكال مختلفة وصور متباينة وفيه رد على النصارى فى دعوى ألوهية عيسى وولديته له ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا يعلم غيره جملة ما يعلمه ولا يقدر على مثل ما يفعله ﴿الْعَزِيزُ﴾ فى ملكه ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى صنعه ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ واضحات الدلالة حفظت عن الاحتمالات والتشبيهات لوضوح معناها ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أصله المعتمد عليه فى أصول الشرع وفروعه الذى يرد إليه غيره بالتأويل والقياس «أمهات» فأفرد على تأويل كل واحدة أو على أن الكل بمنزلة آية واحدة ﴿وَأُخَرُ﴾ جمع أخرى ﴿مُتَشَابِهَاتٌ﴾ يشبه لفظها لفظ غيرها ويخالفه معنى أى محتملات لا يتضح مقصودها لإجمال أو مخالفة ظاهرة إلا بالفحص ليظهر بها فضل العلماء كأوائل السور وآية التشبيه وجعله كله محكما فى قوله «أحكمت آياته» ليس فيها عيب ومتشابها فى قوله «كتاباً متشابها» بمعنى يشبه بعضه بعضاً فى الحسن والصدق ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ ميل عن الحق إلى الباطل ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ دون المحكم ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ طلب فتنة الجهال وتشكيكهم فى دينهم بإيراد الشبهات واللبس ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ بما يشتهونه كقول النصارى نطق القرآن بأن عيسى روح منه فهو هو ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ الذى يجب أن يحمل عليه ﴿إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ الثابتون فيه بقدم راسخ المتمكنون منه غاية التمكن فإنهم يحملونه على الحق الذى يجب حمله عليه عطف على اسم الجلالة أو مبتدأ خبره ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ أى بالمتشابه أنه من عند الله ولا نعلم معناه ﴿كُلٌّ﴾ من المحكم والمتشابه ﴿مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ الحكيم الذى لا يناقض كلامه والوجه الأول أوجه لأن الإيمان بأن الكل من عند الله حاصل لعموم المؤمنين لا يختص به الراسخون وعليه فجملة يقولون حال من الراسخين أو الوجهان لم يختلفا لأن المتشابه منه ما استأثر الله بعلمه كمدة بقاء الدنيا ووقت قيام الساعة ومنه ما دل القاطع أن ظاهره غير مراد ولم يدل على ما هو المراد ويمكن أن يعلمه الخواص، والله أعلم ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ بإدغام التاء فى الأصل فى الذال: يتعظ ﴿إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ العقول السليمة عطف على يقولون أو على «وما يعلم تأويله» فى الوجه الثانى. ويقولون أيضاً إذا رأوا من يتبعه ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ لا تملها عن الحق بتأويله على ما لا يليق ونحوه ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ للعمل بالمحكم والتسليم للمتشابه ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ﴾ من عندك ﴿رَحْمَةً﴾ تزلفنا إليك ونفوز بها عندك، أو توفيقا للثبات على الحق ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ لكل سؤل، وفيه أن الهدى والضلال من الله تعالى وأنه متفضل بنعمه لا يجب عليه شيء. والهبة: العطية الخالية عن الأعواض والأغراض ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ فى يوم أو لحسابه أو

لجزائه (لَا رَيْبَ فِيهِ) في وقوعه ومافيه من الحشر والجزاء نبهوا به على أن معظم غرضهم مايتعلق بالآخرة (إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ) الوعد مصدر أي موعده بالبعث لأن الألوهية تنافيه ولذا التفت من الخطاب إلى لفظ الجلالة الدالة على الألوهية في المعنى الأصلي قبل العلمية وهو إخبار منه تعالى أو حكاية من قول الداعين (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) بمحمد من نصارى نجران ويهود المدينة وكفار العرب وغيرهم المفتخرين بأموالهم وأولادهم (لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ) عذابه (شَيْئًا) ومن بدلية وشيئاً مصدر أو مفعول به أي شيئاً من الإغناء أو شيئاً من الأشياء بدل طاعته أو من للابتداء. (وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ) بفتح الواو ما توقد به أي حطبها وقرئ بالضم أي أهل وقودها. دأبهم في تكذيب الحق (كَدَأْبِ) عادة (آلِ فِرْعَوْنَ) والكاف في محل رفع خبر مبتدأ محذوف كما تقدم أو منصوب متصل بما قبله أي لن تغني عنهم مثل عدم إغناء أولئك أو توقد بهم مثل توقدها بأولئك والدأب مصدر « دأب » في العمل استمر فنقل إلى معنى الشأن والعادة (وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) من الأمم كعاد وثمود (كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ) أهلكهم (بِذُنُوبِهِمْ) والجملة مفسرة لما قبلها أو حال (وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) تهويل (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) من مشركي العرب أو يهود المدينة لأنه عليه السلام لما أمرهم بالإسلام مرجعه من بدر ، وقالوا له : لا يغرنك أن قتلت نفراً من قريش أغماراً لا يعرفون القتال ولو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، نزل (سَتُغْلَبُونَ) بالتاء للجمهور والياء لحمزة والكسائي بالقتل والأسر وضرب الجزية وقد وقع ذلك (وَتُحْشَرُونَ) بالوجهين في الآخرة (إِلَىٰ جَهَنَّمَ) فتدخلونها (وَبِئْسَ الْمِهَادُ) الفراش هي (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ) على أن جميع الكفار سيغلبون أي عبرة ، وذكر الفعل للفصل والخطاب المشركين أو للمؤمنين أو لليهود أو للكل (فِي فِئَتَيْنِ) فرقتين (الْتَقَتَا) يوم بدر للقتال (فِئَةٌ) مؤمنة (تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أي طاعته وهم النبي وأصحابه وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا : أربعة وتسعون من المهاجرين والباقون من الأنصار . معهم فرسان للمقداد ومرثد وسبعون بعيراً ، وست أدرع ، وثمانية سيوف وأكثرهم رجالة ، ولواء المهاجرين مع عليّ ، ولواء الأنصار مع سعد بن عبادة ، واستشهد منهم أربعة عشر ، ستة من المهاجرين ، وثمانية من الأنصار : ستة من الخزرج واثنان من الأوس (وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ) تقاتل في سبيل الشيطان وفيه احتباك (تَرَوْنَهُمْ) بالتاء لنافع وبالياء لغيره والخطاب لليهود لأن منهم من حضر الوقعة ينظر لمن الكرة وبالياء يرونهم أي المسلمون (مِثْلَيْهِمْ) حال لأنه من رؤية العين أي مثلي المسلمين أي أكثر منهم وكانوا تسعمائة وخمسين مقاتلا رئيسهم « عتبة بن ربيعة بن عبد شمس » وكان فيهم مائة فرس . والمراد بمثليهم ثلاثة أمثالهم أو رأوهم مثليهم قبل التحام الحرب أو المشركون رأوا المؤمنين مثليهم بعد التحام الحرب للخوف (رَأْيَ الْعَيْنِ) معاينة وقد نصر الله المؤمنين (وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ) يقوي (بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ) نصره (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ) والعبرة التجاوز من

الشيء إلى أشكاله ، والمعنى : أفلا تعتبرون بما ذكر فتؤمنون ثم بعد بدر في رمضان بعث سرية عمير فقتل عصماء التي تؤذى النبي ثم في شوال قتل سالم بن عمير أبا عفك ثم غزوة بني قينقاع وطردهم إلى « أذرعات » ثم في ذي الحجة غزوة السويق في طلب أبي سفيان ، ثم في المحرم غزوة بني سليم بقرقرة الكدر ، ثم في ربيع قتل كعب بن الأشرف وفيه غزا عليه السلام غطفان بذي أمر فكان قصة دعثور ثم في ربيع الآخر سار إلى نجران لطلب قريش ثم بعث زيد بن حارثة إلى القردة في جمادى الآخرة لجاء بتجارات قريش مع فرات بن حيان فتركه النبي فأسلم ، ثم غزوة أحد وستأتي والله أعلم ، ثم بين الله ما غطى البصائر عن الآخرة فقال ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ أي المشتهيات لأن الشهوة هي نزوع النفس إلى المشتهى ، سميت بها مبالغة كأنهم أحبوها حتى أحبوا شهواتها ، والمزين على الحقيقة هو الله ابتلاء ، وعلى المجاز هو الشيطان إغراء ، ثم بين المشتهيات بقوله ﴿ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ بدأ بهن لأنهن أعظم حبائل الشيطان للرجال ﴿ وَالْبَنِينَ ﴾ والبنات خص الذكور إذ حبهم أكثر ﴿ وَالْقَنَاطِيرِ ﴾ جمع قنطار المال الكثير بعضه على بعض ﴿ الْمُقَنطَرَةِ ﴾ المجمعة أو المضاعفة فإن كان القناطير مثلا ثلاثة كان المقنطرة تسعة كألوف مؤلفة مأخوذة من الأول للتأكيد ﴿ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾ بدأ بهما لفضلهما وكونهما قيم جميع الأموال ﴿ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ﴾ الحسان الجياد من السومة العلامة وهي التي لها علامة من الغرة والتحجيل ونحو ذلك أو المرعية من السوم أي الرعي ﴿ وَالْأَنْعَامِ ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿ وَالْحَرْثِ ﴾ الزرع اسم لكل ما يحرث من حب وغيره ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور ﴿ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يتمتع به ، ثم يفنى ﴿ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ المرجع وهو الجنة فينبغي الرغبة فيه دون غيره وفيه التزهيد في الدنيا بتسميتها أولا شهوة وآخرا متاعاً تنفيراً وتحريضاً على استبدال شهواتها الفانية لطلب اللذات الأبدية بأن يصرف ما آتاه الله منها في صلاحه في الآخرة ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ﴾ المذكور من مستلذات الدنيا استفهام تقرير ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ مبتدؤه ﴿ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ مقدرين الخلود فيها إذا دخلوها استئناف لبيان ما هو خير ، ويجوز أن تتعلق اللام بخير ويرتفع جنات على هو جنات قاله البيضاوي ﴿ وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ من الحيض وغيره مما يستقذر ﴿ وَرِضْوَانٌ ﴾ بكسر أوله للجمهور وضمه لشعبة في جميع القرآن إلا الموضع الثاني في العقود لغنان أي رضى كثير ﴿ مِّنَ اللَّهِ ﴾ الذي هو فوق كل نعمة فأدنى نعم الله الدنيا وأوسطها الجنة وأعلاها رضوان الله ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ ﴾ عالم ﴿ بِالْعِبَادِ ﴾ يعلم من يؤثر شهوات الدنيا أو الجنات أو الرضوان فيجازي كلا على عمله في الدنيا والآخرة ﴿ الَّذِينَ ﴾ نعت أو بدل من الذين قبله مجرور أو منصوب أو مرفوع على المدح ﴿ يَقُولُونَ ﴾ يا ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ إنجازاً لوعدك ﴿ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ بفضلك ، وترتيب الغفران على الإيمان وحده يدل أنه كاف في الاستحقاق فضلا ﴿ الصَّابِرِينَ ﴾ صفة الذين يقولون أو مدح بعد مدح

أى على الطاعة والمصائب وعن المعصية وفيه التوسل بالنفس ﴿وَالصَّٰدِقِينَ﴾ فى الإيمان : توسل بالقول ﴿ وَالْقَٰنِتِينَ ﴾ المطيعين لله سرًّا وعلانية : توسل بالفعل ﴿وَالْمُنفِقِينَ﴾ توسل بالمال ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ ﴾ الله بأن يقولوا : اللهم اغفر لنا : توسل بالدعاء ﴿بِالْأَسْحَارِ﴾ أواخر الليل : خصت بالذكر لأنها وقت الغفلة ولذة النوم وتوسط الواو بين الصفات للدلالة على كمالهم فى كل واحدة ونظام هذه الصفات على وفق أحوال السالك فإن أول أمره قطع المألوفات والصبر على مفارقتها ثم الصدق فى عدم العود إليها ثم الدوام على الطاعة بدل المعاصى ثم إنفاق المال الذى هو شقيق الروح وحبه رأس كل خطيئة ثم الاستغفار مما يعتريه من التقصير الذى هو من لوازم البشرية فاعتبر هذه الآية واعمل بها فقد كفت السالك ﴿ شَهِدَ اللَّهُ ﴾ أى كمّل وبيّن لخلقه بالدلائل العقلية والآيات الناطقة ﴿ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى لا معبود بحق فى الوجود إلا هو وعبر عن بيان ذلك بالشهادة على طريقة الاستعارة التبعية ﴿ وَ ﴾ شهد بذلك ﴿ الْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ بالإقرار بما عاينوه من عظيم قدرته ﴿وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ من الأنبياء والمؤمنين بالاستدلال بالاعتقاد واللفظ ، والكل داخل تحت الدلالة فلا جمع بين الحقيقة والمجاز إذ شبه الكل فى البيان والكشف بشهادة الشاهد ﴿ قَآئِمًۢا بِالْقِسْطِ ﴾ الباء التعدية مقيما بالعدل فى حكمه وقسمه حال من فاعل شهد مؤكدة والعامل فيها معنى الجملة أى تفرد واختص بالحال لعدم اللبس كجاء زيد وهند راكباً ولا يجوز : جاء زيد وعمرو راكباً للّبس والأقرب أن يكون حالا من هو لأنه أقرب وأدل على المقصود وهو دخوله تحت الشهادة بالتوحيد وأوفق بالاستعمال من أن الحال المؤكدة أكثر ماتكون بعد الجملة الاسمية وكذا جعله منصوباً على المدح من « هو » أوجه من جعله مدحاً من فاعل شهد ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ كرره للتأكيد اعتناءً بأعظم المقاصد الذى هو التوحيد وليبنى عليه قوله ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ فى ملكه ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى صنعه فيعلم أنه الموصوف بهما لأن العزة وهى القهر والغلبة تلائم الوحدانية والحكمة تلائم القيام بالقسط وارتفاعهما على البدل من هو وفى الحديث « يجاء بصاحب شهد الله يوم القيامة فيقول الله تعالى : لعبدى عهد أدخلوه الجنة » رواه الطبرانى عن ابن مسعود وفيه دليل على فضل علم أصول الدين وشرف أهله وفيه حث العباد على تكرير كلمة التوحيد والاشتغال بها ﴿ إِنَّ الدِّينَ ﴾ المرضى المقبول ﴿ عِندَ اللَّهِ ﴾ هو ﴿ الْإِسْلَٰمُ ﴾ الشرع الذى جاء به محمد المبنى على التوحيد لا غيره وهو من قصر المسند إليه على المسند والجملة مستأنفة مؤكدة لجملة شهد الله وقرأ الكسائى بفتح أن بدل من أنه إلى آخره بدل اشتمال إن فسر الإسلام بالشريعة أو بدل كل إن فسر بالإيمان وحديث « بُنى الإسلام على خمس » ، وحديث جبريل حيث جاء يعلم الناس دينهم . يفسر ذلك . والدين لغة الجزاء فنقل إلى جميع ما تعبّد الله به خلقه لأنه سبب الجزاء ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ ﴾ اليهود والنصارى فى الدين الذى هو التوحيد وما تضمنه بقولهم عزير ابن الله وعيسى ابن الله وثالث ثلاثة وفى الإسلام أنه حق وبعضهم يقول مخصوص بالعرب واللام فى الإسلام للعهد وفى

الكتاب للجنس ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ بحقيقة الأمر أو تمكنوا من العلم بالآيات والحجج ﴿ بَغْياً ﴾ حسداً ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ وطلباً للرياسة لا لشبهة ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وعيد لمن كفر منهم ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ ﴾ في الدين جادلوك بعد ما أقمت الحجج تعنتاً كما فعل نصارى نجران ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ في اتباع دينه القويم وأترك المحاجة إذ لا معنى لها بعد اتضاح الحق ، والوجه مجاز عن الذات ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ كذلك عطف على التاء في أسلمت وحسن للفصل أو مفعول معه ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ قبل القرآن ﴿ وَالْأُمِّيِّينَ ﴾ مشركي العرب ﴿ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾ كما أسلمت لما وضحت لكم الحجج أم أنتم بعد على كفركم ؟ استفهام تعيير بالبلادة أو المعاندة كما تقول لمن أوضحت له المسألة أفهمت ؟ المعنى أسلموا ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾ من الضلال ونفعوا أنفسهم بالنجاة في الآخرة ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ عن الإسلام ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ تبليغ الرسالة وقد بلغت فلا يضرونك ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ فيجازيهم بأعمالهم : وعد ووعيد ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ﴾ ولحمزة يقاتلون ﴿ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ﴾ وهم اليهود روي أنهم قتلوا ثلاثة وأربعين نبياً أول النهار في ساعة واحدة فنهاهم مائة وسبعون من عبادهم فقتلوهم في ذلك اليوم ﴿ فَبَشِّرْهُمْ ﴾ أعلمهم ﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ مؤلم وذكر البشارة تهكم وفي الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن أدى إلى قتل الآمر في حق الله أو حق الآدمي والخطاب لمعاصري النبي من اليهود لرضاهم بفعل آبائهم ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ ﴾ بطلت ﴿ أَعْمَالُهُمْ ﴾ كصدقة وصلة رحم ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ فلا اعتداد بها لعدم شرطها ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ مانعين من العذاب ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ تنظر ﴿ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ ﴾ التوراة ، ومن للتبعيض أو للبيان أي نصيباً هو الكتاب والتنوين للتعظيم ﴿ يُدْعَوْنَ ﴾ حال ﴿ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ ﴾ التوراة أو القرآن ﴿ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ ﴾ لأن بعضهم آمنوا ﴿ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ عن قبول حكمه نزلت في اليهود زنى منهم اثنان فتحاكموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فحكم عليهما بالرجم فأبوا فجيء بالتوراة فوجد فيها فرجما فغضبوا أو لما زعموا أن إبراهيم يهودي فقال لهم النبي بيننا التوراة فأتوا به فأبوا وثم لاستبعاد التولي بعد العلم أنه كتاب الله ﴿ ذَلِكَ ﴾ التولي ﴿ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ ﴾ سبعة أو أربعين افتراء منهم أي سبب إعراضهم تسهيلهم العذاب عليهم بهذا الافتراء ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ﴾ متعلق بقوله ﴿ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ من قولهم ذلك وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم وأن الله وعد يعقوب ألا يعذب أولاده وغير ذلك من أكاذيبهم ﴿ فَكَيْفَ ﴾ يكون حالهم ﴿ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ ﴾ في يوم ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ استعظام لما يلحقهم وتكذيب لدعواهم بأبلغ وجه ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ من أهل الكتاب وغيرهم ﴿ مَا كَسَبَتْ ﴾ جزاءه من خير وشر ﴿ وَهُمْ ﴾ الضمير لكل نفس لأنه بمعنى الناس ﴿ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص حسنة أو زيادة سيئة . ونزل لما وعد

النبي صلى الله عليه وسلم أمته ملك فارس والروم بعد فتح مكة فقال المنافقون : هيهات ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ ﴾ يا ألله الميم عوض عن حرف النداء وهو من خصائص هذا الاسم كدخول « يا » عليه مع « لام التعريف » يا ﴿ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾ جنس الملك : نداء ثان عند سيبويه لأن الميم تمنع الوصفية ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ ﴾ أى نصيباً منه ﴿مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ﴾ فالملك الأول عام والآخران بعضان منه وقيل الملك هنا النبوة ونزعها نقلها من قوم إلى قوم ﴿ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾ فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما بالنصر والإدبار والتوفيق والخذلان ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ تؤتيه أولياءك على رغم أعدائك ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لم يذكر الشر اكتفاء أو لأن الآية فى ذكر ما أعد للمؤمنين أو للأدب أو لأنه لا يوجد شر لم يتضمن خيراً ثم استدل على ذلك بما يدل على باهر قدرته بقوله ﴿ تُولِجُ﴾ تدخل ﴿ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ حتى يصير خمس عشرة ساعة ﴿ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ كذلك فما نقص من هذا زاد فى هذا تعاقباً بينهما ومن قدر على ذلك قدر على معاقبة إيتاء الملك ونزعه ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ الحيوان من النطفة أو المؤمن من الكافر والعالم من الجاهل ﴿ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ فى عكس ذلك وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر الميت بالتخفيف ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ومن هذا شأنه فإيتاء جزء من الملك ونزعه أيسر ما يكون عليه ، ولما بين أن الخير كله بيده قطع توهم النفع من الكفار بالنهى عن ولايتهم بقوله ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ ﴾ يوادونهم لقرابة أو صداقة ﴿مِنْ دُونِ﴾ غير ﴿ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ متجاوزين عنهم لأن فى ولايتهم مندوحة عن موالاة الكفار لأن الحب فى الله والبغض فى الله أصل كبير فى الإيمان ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ الموالاة بملاطفتهم والميل إليهم ونقل الأخبار إليهم ﴿ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ ﴾ من دينه أو ولايته ﴿ فِي شَيْءٍ ﴾ مرضى أو يسمى ولاية لأن ولاية المتعادين محال ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ﴾ أى تخافوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه بأن يكون لهم عليكم سلطة : استثناء مفرغ من المفعول من أجله والعامل فيه لا يتخذ أى لا يتخذوهم أولياء لشيء إلا للتقية ﴿ تُقَاةً ﴾ مصدر تقيته والتاء فيهما بدل من الواو والأصل وقيته وقاة أى تخافوهم مخافة فلكم موالاتهم ظاهراً باللسان دون القلب والعمل وهذا قبل عزة الإسلام وقيل يجرى فى كل بلد ليس قويا فيها . قال ابن عباس : ليس التقية بالعمل إنما باللسان . قال البيضاوى : نهى عن موالاتهم ظاهراً وباطناً فى الأوقات كلها إلا وقت المخافة فإن إظهار الموالاة حينئذ جائز . اهـ . زاد فى لباب التأويل من غير أن يستحل دما حراماً أو يظهرهم على عورات المسلمين أو غير ذلك من المحرمات ثم هذه التقية رخصة فلو صبر على إظهار إيمانه حتى قتل كان له بذلك أجر عظيم وأنكر قوم التقية اليوم بعد عزة الإسلام والله أعلم ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ يخوفكم أن يغضب عليكم إن واليتموهم وهذا وعيد شديد ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ فيجازيكم فلا تتعرضوا لسخطه بموالاة أعدائه تهديد مشعر بتناهى المنهى عنه فى القبح ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ ﴾ من موالاتهم أو غيرها ﴿ أَوْ تُبْدُوهُ

يعلمه الله ﴾ وعيد بليغ بيان لقوله ويحذركم الله نفسه أى لأنه يطلع عليكم ﴿ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله على كل شىء قدير﴾ ومنه عقوبتكم للموالاة . اذكر ﴿ يوم تجد كل نفس ﴾ جزاء ﴿ ما عملت من خير محضرا ﴾ مفعول ثان لتجد أو حال من ما ﴿ وما عملت من سوء ﴾ مبتدأ خبره ﴿ تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ﴾ غاية فى نهاية البعد أو يوم منصوب بيحذركم أو تود بعده وماعملت عطف على ماعملت أى تود كل نفس يوم تجد خيرها وشرها حاضرين أن لو كان بينها وبين ذلك اليوم أمد بعيد ﴿ويحذركم الله نفسه ﴾ كرره للتأكيد لئلا يغفلوا عنه ﴿ والله رءوف بالعباد ﴾ حيث حذرهم من سخطه ﴿ قل إن كنتم تحبون الله ﴾ أى تريدون طاعته ﴿ فاتبعونى يحببكم الله ﴾ بمعنى يثيبكم ويرضى عنكم نزلت فى قوم ادعوا محبة الله أو فى قول اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه أو فى قول المشركين : ما نعبد الأصنام إلا حبا لله ليقربونا إليه وفيه أن من ادعى محبة الله وخالف سنة رسوله فهو كاذب بنص كتاب الله ﴿ ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ ان تحبب إليه بطاعته واتباع نبيه ﴿قل أطيعوا الله والرسول ﴾ فيما يأمركم به فهى علامة المحبة ﴿ فإن تولوا ﴾ عن الطاعة فهم كاذبون لا يحبون الله ﴿فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ أقام الظاهر موضع المضمر إشارة إلى العلة بالتولى أى كفرا ينفى المحبة وقصداً للعموم ثم أشار إلى أحبائه فقال ﴿ إن الله اصطفى ﴾ اختار ﴿ آدم ونوحا وآل إبراهيم ﴾ أى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وأولادهما الأنبياء ﴿وآل عمران﴾ « موسى وهارون ابنى عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب » أو « عيسى وأمه مريم بنت عمران بن ماثان » من نسل يهودا بن يعقوب وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة ، وقيل المراد بآلهما أنفسهما ﴿ على العالمين ﴾ بما خصهم من النبوة والرسالة وجميع الخصائص الروحانية والجسمانية ﴿ ذرية ﴾ حال أو بدل من الأولين ﴿ بعضها من ﴾ ولد ﴿ بعض ﴾ منهم أو من بعض فى الدين ﴿ والله سميع عليم ﴾ لقول امرأة عمران وبنتها ﴿ إذ قالت امرأة عمران ﴾ أو إذ منصوب باذكر وهى « حنة بنت فاقود » لما أسنت ودعت الله الولد فأحست بالحمل فنذرت أن تجعل ولدها حبساً لبيت المقدس كما قالت ﴿ رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا ﴾ عتيقاً خالصاً من شواغل الدنيا لخدمة بيتك المقدس ﴿ فتقبل منى إنك أنت السميع ﴾ لقولى ﴿ العليم ﴾ بنيتى ، ومات عمران وهى حامل ﴿ فلما وضعتها ﴾ الضمير لما فى بطنها أنث باعتبار الخبر أى ولدتها جارية وكانت ترجو أن يكون غلاماً إذ لم يكن يحرر إلا الغلمان ﴿ قالت ﴾ معتذرة ﴿رب إنى وضعتها أنثى ﴾ تحسر منها ليس بعائدة الخبر ولا بلازمها ﴿ والله أعلم ﴾ أى عالم ﴿ بما وضعت ﴾ بسكون التاء ولابن عامر وأبى بكر ضمها اعتراض من كلامه تعالى على الأول تعظيما لما وضعت ﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ لأنه يقصد للخدمة وهى لا تصلح لها لضعفها وعورتها وما يعتريها من الحيض ونحوه ﴿وإنى سميتها مريم﴾ أى العابدة بلغتهم تفاؤلا ﴿ وإنى أعيذها بك وذريتها ﴾ أولادها ﴿ من الشيطان الرجيم ﴾ المطرود . فى الحديث « ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان

حين يولد فيستهل صارخاً إلا مريم وابنها » رواه الشيخان . ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ أنشأها بخلق حسن فكانت تنبت فى اليوم كما ينبت المولود فى العام وأتت بها أمها الأحبار سدنة بيت المقدس بعد ما ترعرعت أو عقب الولادة فقالت دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها لأنها بنت إمامهم لأن أولاد « ماثان » ملوك بنى إسرائيل من نسل داود عليه السلام فقال زكرياء : أنا أحق بها لأن خالتها « أيشاع بنت فاقود » عندى : فقالوا : لا حتى نقترع فانطلقوا وهم تسعة وعشرون إلى نهر الأردن وألقوا أقلامهم فى الماء الجارى على أن من وقف قلمه ولم يجر بالماء وصعد فهو أولى بها ، فجرت الأقلام وثبت قلم زكرياء عالياً ، وأخذها وبنى لها غرفة فى المسجد بسلم لا يصعد إليها غيره وإذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب ، وكان يأتيها بأكلها وشربها ودهنها فيجد عندها فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء كما قال تعالى : ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاءُ﴾ بالرفع والمد مع تخفيف الفاء فاعل للجمهور وشددها حمزة والكسائى وعاصم مع قصر زكريا إلا ابن عياش مده منصوباً مفعولا : ضمها إليه ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ ﴾ الغرفة وهى أشرف المجالس وهو كل موضع مشرف عال ، وهو هنا فى مقدم المسجد لأنه أشرف موضع منه سمى بالمحراب لمحاربة الشيطان فيه ﴿ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ، قَالَ يَا مَرْيَمُ ﴾ قال السيوطى فى التحبير : ليس فى القرآن اسم امرأة إلا مريم يكرر اسمها فى نحو ثلاثين موضعاً تصريحاً لعبوديتها التى هى معناه : رداً على النصارى أنها لها ألوهية . اه . ﴿ أَنَّىٰ لَكِ ﴾ من أين لك ﴿ هَٰذَا ﴾ الرزق فى غير أوانه والأبواب مغلقة عليك ، وهو دليل على جواز الكرامة للأولياء ﴿ قَالَتْ ﴾ وهى صغيرة ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ يأتينى به من الجنة قيل لم ترضع ثدياً قط ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ من كلامها أو من كلامه تعالى بغير تقدير لكثرته أو بغير استحقاق تفضلا به ﴿ هُنَالِكَ ﴾ فى ذلك المكان أو الوقت لما رأى زكرياء ذلك وعلم أن القادر على الإتيان بالشىء فى غير حينه قادر على الإتيان بالولد على الكبر وكان قد أسن وانقرض أهل بيته ﴿ دَعَا زَكَرِيَّا ﴾ وابن أذن بن مسلم بن صدوق من أولاد سليمان بن داود عليهم السلام ﴿ رَبَّهُ ﴾ لما دخل المحراب للصلاة فى جوف الليل ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ﴾ من عندك ﴿ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ ولداً صالحاً كما وهبتها « لحنة » والذرية تطلق على الواحد والجمع والذكر والأنثى وأنث طيبة لتأنيث لفظ الذرية ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ مجيبه ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ أى من هو من جنسهم جبريل عليه السلام ، وقرأ حمزة والكسائى فناداه بالإمالة والتذكير ﴿ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ ﴾ أى المسجد ﴿ أَنَّ ﴾ أى بأن الله ولابن عامر وحمزة بالكسر بتقدير القول ﴿ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ ﴾ مثقلا للجمهور ومخففاً لحمزة والكسائى ﴿ بِيَحْيَىٰ ﴾ اسم أعجمى أو عربى منع الصرف للتعريف ووزن الفعل ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ ﴾ كائنة ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى بعيسى أنه روح الله سمى كلمة لأنه خلق بكلمة كن وكان يحيى أول من آمن بعيسى ويحيى أكبر منه بستة أشهر ﴿ وَسَيِّدًا ﴾ فى العلم والعبادة والورع والحلم لم يعمل سيئة قط ولا همّ بها ﴿ وَحَصُورًا ﴾ مبالغاً

فى منع نفسه عن الشهوات والملاهى . مر بصبيان وهو صبى فدعوه للعب فقال : ما للعب خلقت . وامتنع عن النساء مع القدرة على إتيانهن ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وصف له بالنسب الفاخر بعد الثناء عليه بالحسب الزاهر ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ استبعاد من حيث العادة واستفهام عن كيفية حدوثه إذ كان له تسع وتسعون أو مائة وعشرون سنة ولامرأته ثمان وتسعون ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ لا تلد ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ على هذه الصفة إنشاء الولد من شيخ فان وعجوز عاقر ، وكذلك الله ، مبتدأ وخبر ، وجملة يفعل بيان لما قبله أو كذلك خبر مبتدأ محذوف أى الأمر كذلك والله إلى آخره بيان ، ولإظهار هذه القدرة العظيمة ألهمه الله السؤال ليجاب بها ، وإنما قال هنا يفعل وفى ما يأتى يخلق لأن زكرياء أعطى النادر ومريم الخارق . ولما تاقت نفسه إلى سرعة المبشر به ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ على حمل امرأتى لأستقبله بالشكر ﴿قَالَ آيَتُكَ﴾ عليه ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ تمنع من كلامهم بخلاف ذكر الله إسعافاً لطلبك ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ بلياليها سويا ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ إشارة بيد أو رأس وأصله التحرك والاستثناء منقطع وقيل متصل والمراد بالكلام ما دل على الضمير ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾ فى تلك الأيام تأكيد لما قبله مبين للغرض منه ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ﴾ من الزوال إلى الليل ﴿وَالْإِبْكَارِ﴾ من طلوع الفجر إلى الضحى لأنهما أشرف الأوقات وأقرب إلى الإجابة ، أو عبر عن الكل بالطرفين ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ أى جبريل ﴿يَا مَرْيَمُ﴾ كلها شفاها ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أولا بالقبول ولم يقبل أنثى للسدانة قبلها وبالرزق من عنده إغناء عن الكسب ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من مسيس الرجال وأقذار النساء وقذف اليهود بإنطاق ابنها ﴿وَاصْطَفَاكِ﴾ ثانياً بإرسال الملائكة إليك وإعطاء الولد من غير أب ﴿عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ أهل زمانك ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أطيعيه ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أى صلى مع المصلين أمرت بالصلاة مع الجماعة مبالغة فى المحافظة عليها أو المراد بالركوع الخشوع ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من قصة حنة وزكرياء ومريم ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ التى لا تعرف إلا بالوحى ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ التى يكتبون بها التوراة فى الماء تبركا ليظهر لهم ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ﴾ يربى ﴿مَرْيَمَ﴾ تقرير لكونه وحياً على سبيل التهكم بمنكريه ، إذ عدم سماعه لهذه الوقائع معلوم عندهم وأحرى العيان فلم يبق إلا الوحى ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ تنافساً فى كفالتها وإنما عرفته بالوحى ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ بدل من إذ قالت الملائكة قبلها ، وما بينهما اعتراض ، أو بدل من إذ يختصمون ، أى وما كنت لديهم إذ قالت الملائكة ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ أى ولد ﴿اسْمُهُ﴾ ذكر لتذكير الخبر الذى هو ﴿الْمَسِيحُ﴾ عبرانى معناه المبارك ﴿عِيسَى﴾ بيان له ﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾ خاطبها بنسبته إليها تنبيهاً على أنها تلده بلا أب إذ العادة النسبة إلى الآباء ﴿وَجِيهًا﴾ ذا جاه ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بالنبوة والطاعة ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بالشفاعة والدرجات العلا ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ بالرفع إلى السماء وصحبة الملائكة ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾

طفلا قبل وقت الكلام معجزة ﴿ وَكَهْلاً ﴾ كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حالة الطفولة والكهولة ، والمهد مصدر سمي به ما يمهد فيه والقرب أخص من الوجاهة والكهل من الثلاثين إلى الأربعين من اكتهل النبت وقارب اليبس ﴿ وَمِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴾ من جملتهم حال وكذا ماقبله وكلها أحوال مقدرة أى يبشرك به مقدراً اتصافه بهذه الصفات ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ بتزوج ولا غيره استبعاد عادى ﴿ قَالَ ﴾ الأمر ﴿ كَذَٰلِكِ ﴾ من خلق الولد منك بلا أب ﴿ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا ﴾ أراد خلقه ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ أى فهو يكون كما يريد أى كما يقدر الخلق مع الأسباب كذلك مع غيرها ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ﴾ بالياء لنافع وعاصم وللباقين بالنون ﴿ الْكِتَٰبَ ﴾ الخط وكان أحسن الناس خطاً فى زمانه ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ الحلال والحرام ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ خصا لفضلهما وجملة يعلمه وما بعدها مستأنفة لتطييب قلبها وإزاحة ما همها من خوف اللوم ، أو عطف على يبشرك بتقدير القول أى ويقول يعلمه أو على يخلق وهو أولى لعدم الفصل ﴿ وَرَسُولًا ﴾ منصوب بمضمر على إرادة القول أى ويقول أرسلت رسولا ﴿ إِلَىٰ بَنِي إِسْرَٰئِيلَ ﴾ أو بالعطف على الأحوال المتقدمة مع جعله بمعنى الناطق أى وناطقاً ﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ ﴾ على صدق ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي ﴾ بالكسر لنافع استئناف ولغيره بالفتح بدل من أنى قد جئتكم أو خبر مبتدأ محذوف أى هى أو بدل من « آية » وهو أولى لدلالته على أنه بقدرته تعالى ﴿ أَخْلُقُ ﴾ أصور وأقدر ﴿ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْـَٔةِ الطَّيْرِ ﴾ مثل صورته المهيأة ، والكاف اسم مفعول والهيئة فى الأصل مصدر هاء الشىء يهىء هيئة وهيئاً إذا استقر على حال ما وتعديه بالتضعيف نحو « ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً » ﴿ فَأَنفُخُ فِيهِ ﴾ الضمير للكاف ﴿ فَيَكُونُ ﴾ حياً ﴿ طَائِرًا ﴾ بألف وهمزة لنافع هنا وفى المائدة وللباقين « طيراً » اسم جمع ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى الإحياء بإرادته ومنه لا منى فخلق الخفاش : كرمان الذى يطير فى الليل على سؤالهم لأنه أكمل الطير خلقاً إذ يطير بلا ريش وله أسنان وأثداء تحيض فكان يطير وهم ينظرونه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتاً ليتميز فعل المخلوق من فعل الخالق ﴿ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ ﴾ الذى ولد أعمى أو مع طمس العين ﴿ وَالْأَبْرَصَ ﴾ وخصا لأنهما داءا إعياء وكان بعثه فى زمن الطب فأبرأ فى يوم خمسين ألفاً بالدعاء بشرط الإيمان لخرق عادة الأطباء وعلموا أن هذه القوة من الله كأمر السحرة مع موسى والفصحاء مع محمد صلى الله عليه وسلم ، وزاد عليهم بقوله ﴿ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ كرره لنفى توهم الإلهية فأحيا « عازراً » صديقاً له وابن العجوز وابنة العاشر فعاشوا وولد لهم وسام بن نوح ومات فى الحال ، والله أعلم . قال فى الجواهر : وفى قصص الإحياء أحاديث لا يوقف على صحتها . اه . ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ مما لم أعاينه فكان يخبر الشخص بما أكل وما يأكل بعد ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ بالآيات غير معاندين ﴿ وَمُصَدِّقًا ﴾ عطف على رسولا على الوجهين أو منصوباً بإضمار فعل دل عليه قد جئتكم أو على محل بآية ﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ ﴾

قبل ﴿ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ وهذا شأن جميع الرسل يصدق بعضهم بعضاً ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ فى التوراة كالشحوم ولحوم الإبل ومن الطير والسمك ما لا صيصة له وهى الشوك الذى يكون فى رجل الديك ونحوه والعمل يوم السبت وهذا يدل على أن شرعه كان ناسخاً لبعض شرع موسى وقيل أحل الجميع فبعض بمعنى كل ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ألهمنيها أن أثبتكم عليها وهى أن الله ربى ... إلى آخره وقوله فاتقوا الله اعتراض أو كرر « وجئتكم » تأكيداً أى جئتكم بآية بعد آية . وهى ما تقدم وليبنى عليه ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فى تكذيبى ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به من توحيد الله وطاعته ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ فكذبوه ولم يطيعوه ، واعلم أن الخطاب من قوله « إن الله يبشرك » إلى «إسرائيل» لمريم اتفاقاً ومن قوله «إنى قد جئتكم» إلى قوله «مستقيم» محتمل أن يكون خطاباً لها على معنى يكون من قوله لبنى إسرائيل كيت وكيت ويكون فى آخر الكلام محذوف دل عليه الظاهر تقديره : فجاء عيسى بنى إسرائيل فقال لهم ما تقدم ذكره ، ومحتمل أن يكون المحذوف مقدراً أول الكلام بعد قوله إلى بنى إسرائيل تقديره ، لجاءهم بعد الرسالة بأنى قد جئتكم وليس خطاباً لها ، والأول أظهر قاله عبد الرحمن الثعالبى فى الجواهر الحسان ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ علمه علماً لا شبهة فيه كما يدرك بالحواس وأرادوا قتله ﴿ قَالَ مَنْ أَنصَارِي ﴾ أعوانى ذاهباً ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ إلى نصر دينه بالدعاء إليه ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾ أعوان دينه وهم أصفياء عيسى أول من آمن به وكانوا اثنى عشر رجلا : وحوارى الرجل خالصته : من الحور وهو البياض الخالص سموا بذلك لخلوص نيتهم أو لأنهم عدوا بلبس البياض أو لأنهم قصارون يبيضون الثياب ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ ﴾ لنا يا عيسى يوم القيامة ﴿ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ منقادون لما تريد من نصرك والذب عنك ، واشهد لنا بالإسلام الذى هو دين الأنبياء جميعاً ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ﴾ من الإنجيل ﴿ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ ﴾ عيسى ﴿ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ لك بالوحدانية ولرسولك بالصدق ، أو مع الأنبياء الذين يشهدون لأتباعهم ، أو مع أمة محمد لأنهم شهداء على الأمم ﴿ وَمَكَرُوا ﴾ الذين أحس منهم الكفر من اليهود بأن وكلوا من يقتل عيسى غيلة ﴿ وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾ بهم بأن ألقى شبه عيسى على من قصد قتله فقتلوه ورفع عيسى بعد ما فرق حواريه فى الأرض ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ أى أعلمهم به وأقدرهم على إيصال الضرر من حيث لا يحتسب وهو المكر ولا يضاف إلى الله إلا المشاكلة ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ ﴾ ظرف لمكر الله أو خير الماكرين أو لمضمر مثل وقع ذلك أو اذكر ﴿ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ قابضك من الأرض ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ إلى السماء من توفيت المال استوفيته ، أو رافعك الآن وبعد النزول متوفيك بالموت فقدمه اهتماماً لئلا يتوهم أن الرفع مانع من الموت ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من دنس أخلاقهم وخبث جوارهم ﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ ﴾ صدقوا بنبوتك من النصارى والمسلمين ﴿ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بك وهم اليهود يعلونهم بالحجة والسيف ، ولم تقم لليهود راية بعد ذلك بل لم يزالوا

مقهورين تحت السيف والجزية حتى صار مثلا «أذل من اليهود» ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أنت ومن وافقك ومن خالفك ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين وأجازى كلا بموجب عمله ثم فصّل ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل والسبي ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بالنار ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ مانعين منه ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَنُوَفِّيهِمْ﴾ بالنون للجمهور والياء لحفص ﴿أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي يعاقبهم، تذييل حسن، لأن تعذيب المحب محبوب. «روى: أن الله أرسل إلى عيسى سحابة فرفعته فتعلقت به أمه وبكت فقال لها: إن القيامة تجمعنا وكان ذلك ليلة القدر ببيت المقدس وله ثلاث وثلاثون سنة وعاشت أمه بعده ست سنين» وروى الشيخان حديث «أنه ينزل قرب الساعة ويحكم بشريعة نبينا ويقتل الدجال والخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ويمكث أربعين» وفي حديث مسلم «أنه يمكث سبع سنين» وفي حديث عند أبي داود الطيالسي «أربعين سنة ويتوفى ويصلى عليه» قال السيوطي: يحتمل أن المراد مجموع لبثه في الأرض قبل الرفع وبعده. اهـ. قال ابن عطية: أجمعت الأمة أن عيسى في السماء حيٌّ وأنه ينزل في آخر الزمان إلى آخر ما قال ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من أمر عيسى ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ حال من الهاء في نتلوه وعامله ما في ذلك من معنى الإشارة ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ القرآن المحكم ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ شأنه الغريب ﴿عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ كشأنه في خلقه من غير أب وأم وهو من تشبيه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأوقع في النفس ﴿خَلَقَهُ﴾ قالبه ﴿مِن تُرَابٍ﴾ جملة مفسرة للتمثيل أي قدر جسده من تراب ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن﴾ بشراً ﴿فَيَكُونُ﴾ أي فكان وكذلك عيسى قال له كن من غير أب فكان ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ خبر مبتدإ محذوف، أي أمر عيسى أو «الحق» مبتدأ و «من ربك» خبره، أي الحق المذكور من الله ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين فيه والخطاب للنبي والمراد غيره ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ في عيسى وهم نصارى نجران لما وفدوا عليه من نجران: واد باليمن، كان لهم فيه مائة وعشرون قرية مسيرة يوم للراكب المسرع فدعاهم إلى الإسلام فأبوا إلا عناداً فأمر بمباهلتهم ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ من دلائله ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي يدعو كل منا ومنكم نفسه وأعزة أهله وألصقهم بقلبه فنجمعهم ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ نتضرع في الدعاء بأن نقول بهلة الله أي لعنة الله على الكاذبين، وهذا أصل الابتهال ثم استعمل في كل دعاء يجتهد فيه وإن لم يكن التعاناً وأصل البهلة بالضم والفتح الترك من قولهم بهلت الناقة تركتها بلا راع ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ تفسير للابتهال بأن تقول اللهم العن الكاذب في شأن عيسى وقد دعا صلى الله عليه وسلم وفد نجران لذلك لما حاجوه فيه فقالوا حتى ننظر في أمرنا ثم نأتيك صبيحة غد فخلوا فتشاوروا بينهم فقالوا لذي رأيهم وهو عاقب: ما ترى؟ فقال: لقد عرفتم نبوته وأنه ما باهل قوم نبياً إلا هلكوا فوادعوا

الرجل وانصرفوا يعنى صالحوه على تركـكم فأتوه وقد خرج ومعه الحسن آخذاً بيده ومحتضناً الحسين وفاطمة وراءه وعلىّ وراءها وقال لهم : إذا دعوت فأمنوا فقـالوا له : يا أبا القاسم بدا لنا أن لا نباهلك فقال : أسلموا يكن لـكم ما للسلمين ؛ فقالوا : أنت على دينك ونحن على ديننا ؛ فقال : بيني وبينكم الحرب حينئذ ، فقالوا : ما لنا بحرب العرب طاقة ، بل نصالحك على أن تؤدى إليك كل سنة ألفى حلة حمراء : ألفاً فى رجب ، وألفاً فى صفر ، وثلاثين درعاً من حديد ، وثلاثين بعيراً ، وثلاثين فرساً ، على أن لا تغزونا ولا تردنا عن ديننا : فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك وكتب بذلك كتاباً وسألوه أن يبعث معهم أميناً فبعث إليهم أبا عبيدة الجراح . قال الزهرى فهو أول جزية فى الإسلام . وعن ابن عباس أن النبي قال : « لو باهلوا لهلكوا من عند آخرهم » ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ المذكور ﴿ لَهُوَ الْقَصَصُ ﴾ الخبر ﴿ الْحَقُّ ﴾ الذى لا شك فيه ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾ رد على نصارى نجران فى تثليثهم ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ردّ عليهم لأن عيسى لم يكن كذلك ، أى لا أحد يساويه فى القدرة التامة والحكمة البالغة حتى يشاركه فى الألوهية ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أعرضوا عن الإيمان ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ وعيد لهم وفيه وضع الظاهر موضع المضمر ليدل على أن التولى عن التوحيد إفساد للدين المؤدى إلى فساد العالم ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ اليهود والنصارى عام فى نصارى نجران وغيرهم ﴿ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ ﴾ أى كلام ﴿ سَوَاءٍ ﴾ مصدر بمعنى مستو أمرها لم يختلف فيها الرسل والكتب ﴿ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ لاتفاق القرآن والتوراة والإنجيل فيها وهى ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ كقول : عزير ابن الله ، والمسيح ابن الله ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ كما اتخذتم الأحبار والرهبان فيما أحدثوا من التحريم والتحليل من غير رجوع إلى ما شرع الله لهم ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ عن التوحيد ﴿ فَقُولُوا ﴾ أنتم لهم ﴿ اشْهَدُوا ﴾ اعترفوا ﴿ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ دونكم واعترفوا بأنكم كافرون بما نطقت به الكتب وتطابقت عليه الرسل : تأمل رونق الكلام فى هذه المناظرة من أول السورة إلى هنا ، فقد تدرّج فيها أحسن تدرج ذكر أولا أطوار عيسى وغيره المنافية للألوهية ، ثم ذكر حدوث مريم التى هى أصل عيسى وأحوالها المنافية للألوهية ، ثم أزاح شبههم بما هو أغرب حالا منه ، ثم لما أصروا على العناد دعاهم إلى المباهلة ولما أحجموا عنها أخذ معهم نوعاً آخر من الإرشاد وهو الدعاء إلى ما تطابق عليه الملل ولما أيس منهم أحسن المتاركة بقوله اشهدوا بأنا مسلمون . ونزل لما قال اليهود إبراهيم يهودى ونحن على دينه . وقالت النصارى كذلك ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ ﴾ تخاصمون ﴿ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ بزعمكم أنكم على دينه ﴿ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ بزمن طويل وبين إبراهيم وموسى ألف سنة وبينه وعيسى ألفاسنة وبعدهما حدثت اليهودية والنصرانية ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ بطلان قولكم لأن المتقدم لايكون على طريق المتأخر ﴿ هَا ﴾ التنبيه ﴿ أَنْتُمْ ﴾ مبتدأ يا ﴿ هَٰؤُلَاءِ ﴾ والخبر ﴿ حَاجَجْتُمْ ﴾ أو الخبر هؤلاء وجملة « حاججتم » مستأنفة لبيان الأولى وصدرها

بالتنبيه لشدة غفلتهم والإشارة للتحميق أى أنتم هؤلاء الحق وبيان حماقتكم أنكم جادلتم ﴿ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ من أمر موسى وعيسى مما نطق به التوراة والإنجيل وزعمتم أنكم على دينهما ﴿ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ إذ لا يلتبس بطلانه على أحد ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ شأن إبراهيم ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ بل جاهلون ، فاتبعوا رسوله الناطق بالوحى ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾ تصريح بما علم ضمناً ، مبالغة فى بيان الحق ﴿ وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا ﴾ مائلا عن الباطل ﴿ مُّسْلِمًا ﴾ لله ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ تعريض بمن كان يدعى أنه على ملته لإشراكهم به عزيراً والمسيح ، ورد لادعاء المشركين أنهم على ملة إبراهيم ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ ﴾ أقربهم ﴿ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ فى زمانه ﴿ وَهَٰذَا النَّبِيُّ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم لموافقته له فى أكثر ما شرع له على الأصالة ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ من أمته فهم أولى أن يقولوا نحن على دينه لا أنتم أيها المشركون ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ينصرهم ويجازيهم الحسنى وحفظهم . ونزل لما دعا قريظة والنضير معاذاً وحذيفة وعماراً إلى اليهودية بعد وقعة أحد ﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ ودّ بمعنى تمنى يستعمل معها أن ولو وربما جمعا نحو ودّ أن لو فعل ، ومصدره الودادة ، والاسم منه الودّ ، ويأتى ودّ بمعنى أحب ، ومصدره مودة ، والاسم الودّ ، وقد يتداخلان فى المصدر والاسم ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ ﴾ لأن إثم إضلالهم عليهم والمؤمنون لا يطيعونهم فيه فلا يضلون إلا أمثالهم ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ بذلك لغاية جهلهم ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ القرآن المشتمل على نعت محمد ، أو التوراة والإنجيل الناطقة بنبوة محمد وصدقه ﴿ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ تعلمون أنه حق أو تشهدون نعته فى الكتابين ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه حق وتعلمون ما على كاتم الحق من الإثم ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ منهم كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ﴿ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أظهروا الإيمان بالقرآن لهم ﴿ وَجْهَ النَّهَارِ ﴾ أوله ﴿ وَاكْفُرُوا ﴾ به ﴿ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عن دينهم إذ يقولون ما رجع هؤلاء عنه بعد دخولهم فيه وهم أولو العلم إلا لعلمهم بطلانه مكيدة شاوروها بينهم فأظهرها الله قبل فعلهم ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا ﴾ لا تصدقوا أو لا تظهروا إيمانكم ﴿ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ اللام زائدة ، قال تعالى ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ ﴾ الذى هو الإسلام وما عداه ضلال والجملة اعتراض - يدل أن كيدهم لا ينفع - بين تؤمنوا ومفعوله وهو ﴿ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ ﴾ من الكتاب والحكمة والفضائل والمستثنى منه أحد ، قدم عليه المستثنى ، المعنى : لا تقروا بأن أحداً يؤتى بذلك إلا لمن تبع دينكم ولا تظهروا التصديق بذلك إلا لأتباعكم لا للمسلمين لئلا يزدادوا تصلباً ولا للمشركين لئلا يرغبوا فيه ، ويجوز أن يتم الكلام عند قوله « إلا لمن تبع دينكم » وحينئذ « أن يؤتى » يتعلق بمضمر أى دبرتم ما دبرتم لأن لا يؤتى أحداً وتنكرون ويؤيده قراءة ابن كثير أن يؤتى بالاستفهام التوبيخى أى أن الحسد حملكم على ذلك ، وقرئ على أنها النافية فيكون من كلام

الطائفة ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ﴾ عطف على أن يؤتى والضمير لأحد لأنه فى معنى الجمع : أى لا تؤمنوا أن أحداً يغلبكم بالحجة أو لا تقروا لغير أتباعكم ذلك ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ يوم القيامة قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فمن أين لكم أنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ردّ لهم أبلغ من الاول ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ﴾ مال كثير ﴿يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ لأمانته «كعبد الله بن سلام» أودعه قرشى ألفاً ومائتى أوقية ذهباً فأداها إليه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾ أو أقل ﴿لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ لخيانته ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ بالإلحاح والمخاصمة إلى الحكام «ككعب بن الأشرف» أو «فنحاص» استودعه قرشى آخر ديناراً فجحده يعنى منهم ذو أمانة ومنهم خائن فى أقل شىء، وقيل المأمونون النصارى والخونة اليهود، وقرأ نافع والجمهور بكسر هاء «يؤده» و«لا يؤده» مشبعاً إلا قالون وهشاما اختلساه، وقرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر بإسكان الهاء ﴿ذَٰلِكَ﴾ ترك الأداء ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ العرب ﴿سَبِيلٌ﴾ أى إثم لاستحلالهم ظلم من خالف دينهم. بايعهم جماعة من العرب فلما أسلموا قال لهم اليهود تركتم دينكم وانقطع العهد بيننا وبينكم فليس لكم علينا حق وادعوا أنهم وجدوا ذلك فى كتابهم، وقيل كانوا يقولون إن الأموال كلها لنا والعرب ظلمونا وغصبوها منا فلا سبيل علينا فى أخذها منهم بأى طريق كان فأكذبهم الله بقوله : ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بنسبة ذلك إليه ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون . قال عليه السلام لما نزلت «كذب أعداء الله ما من شىء كان فى الجاهلية إلا هو تحت قدمى إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر» قال ابن العربى فى الأحكام : قال رجل لابن عباس : إنا نصيب فى الغزو من أهل الذمة الدجاجة والشاة ونقول ليس علينا بذلك بأس : فقال له : هذا كما قال أهل الكتاب ليس علينا فى الأميين سبيل إنهم إن أدوا الجزية لم يحل لكم من أموالهم شىء إلا عن طيب أنفسهم . اه . وقال أيضاً فالأمانة عظيمة القدر فى الدين ومن عظم قدرها أنها تقف على جنبى الصراط لا تمكن من الجواز إلا من حفظها ولذا قيل : «لا تخن من خانك فى الأمانة، ولا يجوز أن تغدر من غدرك» اه . ﴿بَلَىٰ﴾ عليهم فيهم سبيل ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ﴾ الذى عاهد الله عليه أو بعهد الله عليه من أداء الأمانة وغيره فالضمير لمن أو لله ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ الله بترك المعاصى - ومنها الخيانة - وعمل الطاعات ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ فيه وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة أنه بذلك يدخل فى المتقين وجملة الشرط وجوابه استئناف لتقرير ما قبلها وعموم المتقين ناب مناب الراجع من الجزاء إلى من وأشعر بأن التقوى يعم الوفاء وغيره من أداء الواجبات واجتناب المناهى . ونزل فى اليهود لما بدلوا نعت النبى وعهد الله إليهم فى التوراة وأخذوا على ذلك رشوة . أو فى رجل أقام سلعة فى السوق لحلف لقد اشتراها بما لم يشترها به ، أو فى «أشعث بن قيس» ويهودى فى بئر وتوجه الحلف على اليهودى كما فى البخارى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ يستبدلون ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ إليهم فى الإيمان بالنبى أو فى أداء الأمانة

﴿ وَأَيْمَانِهِمْ ﴾ من قولهم لتؤمنن به ولتنصرنه ، أو حلفهم به كذباً ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ من الدنيا ﴿ أُولَـٰئِكَ لَا خَلَـٰقَ ﴾ نصيب ﴿ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم وفى الآية دليل على أن حكم الحاكم لا يحل الحرام باطناً ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ ﴾ من أهل الكتاب ﴿ لَفَرِيقًا ﴾ ككعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحيىّ بن أخطب ﴿ يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم ﴾ يعطفونها ويفتلونها ﴿ بِالْكِتَـٰبِ ﴾ بقراءته عن المنزل إلى ما حرفوه كصفة النبى وآية الرجم أو بتغيير حركاته بما يغير معناه ﴿ لِتَحْسَبُوهُ ﴾ أى المحرف ﴿ مِنَ الْكِتَـٰبِ ﴾ الذى أنزله الله ﴿ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَـٰبِ ﴾ فى شىء ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ تأكيد لقوله « وما هو من الكتاب » وتشنيع عليهم بأنهم يقولون ذلك تصريحاً لا تعريضاً ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم كاذبون تأكيد وتسجيل عليهم بالكذب على الله والتعمد فيه ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ ما ينبغى له ﴿ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَـٰبَ وَالْحُكْمَ ﴾ الفهم للشريعة والحكم بين الناس ﴿ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّى مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ تكذيب لنصارى نجران فى قولهم إن عيسى أمرهم أن يتخذوه رباً وردٌ على من قال من المسلمين يارسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض ولا نسجد لك . فقال : « لا ينبغى أن يُسجد لأحد من دون الله ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله » ﴿ وَلَـٰكِن ﴾ يقول ﴿ كُونُوا رَبَّـٰنِيِّـۧنَ ﴾ علماء عاملين معلمين منسوب إلى الرب بزيادة ألف ونون تفخيماً ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ بالتخفيف لنافع وابن كثير وأبى عمرو ، والتشديد لابن عامر والكوفيين ﴿ الْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ بسبب كونكم عالمين أومعلمين دارسين أومدرسين إذ قرئ تدرسون من التدريس فإن فائدته أن تعملوا ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ ﴾ بالرفع لنافع وابن كثير وأبى عمرو والكسائى استئناف أى : الله ، والنصب للباقين عطفاً على يقول أو يؤتى و « لا » تأكيد أى البشر ﴿ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَـٰئِكَةَ وَالنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ﴾ كما اتخذت الصابئة الملائكة ، واليهود عزيراً ، والنصارى عيسى ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ يدل على أن المخاطبين كانوا مسلمين وهم الذين استأذنوا النبى فى السجود له ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ ﴾ حين ﴿ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَـٰقَ النَّبِيِّـۧنَ ﴾ العهد منهم ومن أممهم حين أخرج بنى آدم من ظهره أو كل نبى فى زمنه أو الإضافة إلى الفاعل أى أخذ الله الميثاق الذى وثقه الأنبياء على أممهم ﴿ لَمَا ﴾ بفتح اللام للجمهور للابتداء أو لتوكيد القسم الذى فى أخذ الميثاق ، وكسرها لحمزة لام جر للتعليل متعلقة بأخذ وما موصولة على الوجهين أو مصدرية على الثانى أى للذى ﴿ ءَاتَيْتُكُم ﴾ بالنون والألف لنافع ولغيره « آتيتكم » بالتاء المضمومة ﴿ مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ ﴾ به ﴿ رَسُولٌ ﴾ من الرسل أو محمد فقط ﴿ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ من الكتاب والحكمة ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُ ﴾ جواب القسم إن أدركتموه ، والمعنى أن الله أخذ العهد على كل نبىّ أن يؤمن بمن يأتى بعده من الأنبياء وينصره إن أدركه وأن يأمر قومه بذلك أو أخذ الميثاق عليهم فى ذلك فى محمد فقط . وعن علىّ بن أبى طالب « ما بعث الله نبياً آدم فن

بعده إلا أخذ عليه العهد فى أمر محمد وأخذ هو العهد على قومه ليؤمنن به ولينصرنه ، وقيل إنما المراد أن الأنبياء كانوا يأخذون العهد على أممهم بأنه إذا بعث محمد أن يؤمنوا به وينصروه : قال فى لباب التأويل وهذا قول كثير من المفسرين ﴿ قَالَ ﴾ تعالى للأنبياء وقال كل نبى لقومه ﴿ ءَأَقْرَرْتُمْ ﴾ بذلك ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ﴾ أى عهدى الثقيل سمى به لثقل المحافظة عليه أو لأنه يوصر أى يشد ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ على أنفسكم وأتباعكم بذلك أو أدوا هذه الشهادة إلى أممكم أو إلى الرسول ﴿وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّٰهِدِينَ﴾ عليكم وعليهم ومعنى نصب إذا باذكر أى اذكر ما ذكر للشكر ليعلم ماخصك الله به من الدرجات العلا وفيه توبيخ للمحرفين وتحذير عظيم بكونه من الشاهدين ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الميثاق المؤكد بالإقرار والشهادة ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ﴾ المتمردون من الكفار ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ تَبْغُونَ﴾ بالتاء للجمهور وبالياء لأبى عمرو وحفص ، أى : المتولون عطف على الجملة المتقدمة والهمزة متوسطة بينهما للإنكار أو على محذوف تقديره أتتولون فغير دين الله تبغون وتقديم المفعول لأنه المقصود بالإنكار ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ ﴾ انقاد ﴿مَن فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا ﴾ حال أى طائعين ﴿ وَكَرْهًا ﴾ بالسيف ومعاينة ما يلجئ إليه كرفع الجبل ونحوه ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بالتاء ولحفص فقط بالياء ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ منقادون أو مخلصون فى عبادته ، والنزول يعدى بإلى كما فى البقرة لأنه ينتهى إلى الرسل وبعلى كما هنا لأنه من فوق ، وقدم المنزل عليه عليه السلام على المنزل على سائر الرسل لأنه المعرف له والمعيار عليه ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾ تمييز ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الْءَاخِرَةِ مِنَ الْخَٰسِرِينَ ﴾ لمصيره إلى النار المؤبدة عليه وهذه الآية قطعت عمل كل عامل على غير ملة الإسلام ثم استفهم منكراً مبعداً فقال ﴿ كَيْفَ ﴾ أى لا ﴿يَهْدِى اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا ﴾ عطف على كفروا أى وشهادتهم ﴿ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَ ﴾ قد ﴿ جَآءَهُمُ الْبَيِّنَٰتُ ﴾ الحجج الظاهرات على صدق النبى نزلت فى رهط أسلموا ثم ارتدوا ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ﴾ الكافرين ﴿أُولَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَٰٓئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ يدل على جواز لعنهم ومنع لعن المؤمن ، وتقدم تفصيل ذلك فى البقرة ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أى اللعنة أو النار المدلول بها عليها ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝ إِلَّا﴾ لكن ﴿ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾ ما أفسدوا أو دخلوا فى الصلاح كالحارث بن سويد ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقيل الآية فى اليهود كفروا فى قوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بعيسى ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ بموسى ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا ﴾ بمحمد ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ إذا غرغروا وماتوا كفاراً ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ﴾ مقدار ما يملؤها ﴿ ذَهَبًا ﴾ تغليظ فى شأنهم وإبراز حالهم فى حال الآيس من الرحمة ، ولما كان الموت على الكفر سبباً لامتناع قبول الفدية أدخل

الفامهنا للإشعار به، وذهبا نصب على التمييز وقرئ بالرفع على البدل من ملء ﴿وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ وسمى لأنه غاية الكثرة عرفاً ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ مانعين منه ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ﴾ أى ثوابه وهو الجنة أو حقيقة البر التى تكونون به أبراراً ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا﴾ تصدقوا ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ من أموالكم أو أبدانكم فى إعانة المسلمين وأرواحكم فى سبيل الله إذ لا وصول إلى المطلوب إلا ببذل المحبوب، ولما نزلت تصدق أبو طلحة بحديقته بَيْرَحاء لأنها أحب أمواله إليه، وزيد بن حارثة بفرسه، وعمر بن الخطاب بسهمه بخيبر، وكان ابن عمر يشترى أعدال السكر يتصدق به فقيل له: لِمَ لا تتصدق بثمنها؟ قال: لأن السكر أحب إلىّ وحكايات الصحابة فى أمثال ما ذكر لا تحصى ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ﴾ قليل أو كثير محبوب أو غيره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فيجازى عليه بحسبه. ولما كانت هذه الآية للإنفاق مستطردة لمناسبة افتداء الكافر حين لا ينفع: عاد إلى قبائح اليهود المنكرين للنسخ القائلين للنبى: تزعم أنك على ملة إبراهيم وكان لا يأكل لحوم الإبل ولا يشرب ألبانها فأكذبهم بقوله ﴿كُلُّ الطَّعَامِ﴾ أى المطعومات التى فيها النزاع إذ منها ما هو محرم من آدم كالميتة والدم ﴿كَانَ حِلًّا﴾ حلالا مصدر بمعنى الفاعل نعت به ولذا يستوى فيه المذكر والمؤنث والواحد والجمع ﴿لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قبل إنزال التوراة ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ﴾ يعقوب ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ بإذن الله للتداوى وهو لحوم الإبل وألبانها لما حصل له عرق النسا بالفتح والقصر مرجعه من حران مع أخيه العيص إلى بيت المقدس وكانت أحب الطعام إليه فنذر إن شفى أن لا يأكلها شكراً لله أو فعل ذلك تقرباً إلى الله بترك الترفه فحرم عليهم وفيه استحباب ترك الترفه وكان أبو حازم الزاهد إذا رأى الفواكه الحسنة أو شيئاً من محاسن الدنيا يقول موعدكِ الجنة إن شاء الله لكن لو حرم الرجل الحلال لم يحرم عليه فى شرعنا إلا زوجته فتحرم عليه على الصحيح ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ وذلك بعد إبراهيم ولم تكن على عهده حراماً كما زعموا فلما نزلت حرمت عليهم بظلمهم أشياء تأتى ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا﴾ لتبين صدق قولكم: أمر أن يحاكمهم بكتابهم ويحاجهم به ليكون أبين فى كذبهم فى قولهم كل ما حرم علينا فهو محرم من زمن نوح وإبراهيم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيه فبهتوا ولم يأتوا بها خوف زيادة الفضيحة قال تعالى ﴿فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ بعد ظهور ما ذكرنا ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الكاملون فى الظلم المتجاوزون الحق إلى الباطل حيث كذبوا كتابهم ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿صَدَقَ اللَّهُ﴾ فى هذا كجميع ما أخبر به وكذبتم فى هذا كجميع ما أخبرتم ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ التى أنا عليها ﴿حَنِيفًا﴾ مائلا عن كل دين إلى الإسلام، ثم أوضح ملة إبراهيم بقوله ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بهم وتكذيب لهم فى ادعائهم أنهم على ملته. ثم أشار إلى حل شبهة أخرى لليهود فى قولهم قبلتنا قبل قبلتكم وهى قبلة إبراهيم والأنبياء جميعاً فأكذبهم بقوله ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ﴾ أى وضعه الله متعبداً ﴿لِلنَّاسِ﴾ فى الأرض ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ بالباء لغة فى مكة أو هى موضع البيت ومكة اسم القرية سميت

بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة أى تدقها ومكة لاجتلابها الناس ، بناه الملائكة قبل خلق آدم ووضع بعده الأقصى وبينهما أربعون سنة كما فى حديث الصحيحين وفى حديث : أنه وأول ماظهر على وجه الماء عند خلق السموات والأرض زبدة بيضاء فدحيت الأرض من تحته ، ثم بعد بناء الملائكة بناه آدم ثم بناه إبراهيم ثم جرهم ثم العمالقة ثم قريش» ، وعلم من قوله للناس أن الناس مشتركون فى مكة سواء العاكف فيه والبادى ﴿ مُبَارَكًا ﴾ حال من الذى أى ذا بركة بكثرة الخير لمن حجه واعتمره ومنه عزوف النفس عن الدنيا عند رؤيته وتضعيف ثواب الطاعات فيه ﴿ وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ لأنه قبلتهم ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ ﴾ منها ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ الحجر الذى قام عليه عند بناء البيت فأثر قدماه فيه بالغوص إلى الكعبين وبقى على تطاول الزمان وتداول الأيدى عليه ومنها أن الطير لا يعلوه وضوارى السباع تخالط الصيد فيه بلا إيذاء وقصم الجبابرة ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ﴾ لا يتعرض له بقتل أو ظلم وتقدم التفصيل فيه فى البقرة ، قال البيضاوى جملة ابتدائية أو شرطية معطوفة من جهة المعنى أى ومنها أمن من دخله إلى أن قال عليه السلام «من مات فى أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمناً » وعند أبى حنيفة : من لزمه القتل لم يتعرض له بل يلجأ إلى الخروج . اه . وفى غاية الأمانى ليس من الآيات بل بيان لشرفه والأمن إما فى الدنيا على ماذهب إليه ابن عباس وأبو حنيفة أو فى الآخرة أو مطلق فيتناولها وهو الأحسن . اه . وفى لباب التأويل : ومن دخله كان آمناً من الذنوب التى اكتسبها قبل ذلك ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ واجب شكراً على نعمه بفتح الحاء للجمهور وبكسرها لحمزة والكسائى وعاصم فى رواية حفص لغتان فى مصدر حج بمعنى قصد الأولى لأهل الحجاز والثانية لأهل نجد أو الفتح المصدر والكسر الاسم أى قصده للزيارة على الوجه المخصوص ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ بدل من الناس مخصص له وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستطاعة بالزاد والراحلة وبه تعلق الشافعى لكن لا يصح إسناده وقال مالك إنها بالبدن على من قدر على المشى والكسب فى الطريق وقال أبو حنيفة بمجموع الأمرين . قال ابن العربى فى الأحكام : لو صح حديث الزاد والراحلة لحملناه على غالب الناس فى الأقطار البعيدة ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ بالله أو بما فرضه من الحج ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ الإنس والجن والملائكة ، وعن عبادة فيه وعيد شديد على من أنعم عليه بصحة الجسم وسعة الرزق والقدرة فترك الحج وقد أكد الله وجوب الحج بوجوه منها وضع كفر موضع لم يحج وإيراد وجوبه بصيغة الخبر وإبرازه فى صيغة الاسمية وبعلى المفيد وجوبه لله فى رقاب الناس وتعميم الحكم أولا ثم خصص وذكر الاستغناء المؤذن للمقت وتعميمه بقوله «عن العالمين» لأنه تكليف ﴿ قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَٰتِ اللَّهِ ﴾ القرآن ولم تبق لكم شبهة فضلا عن حجة ﴿ وَاللَّهُ شَهِيدٌ ﴾ الواو للحال مطلع ﴿ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ فيجازيكم عليه والعاقل لا يرتكب ما لا نفع فيه فكيف بما فيه سخط القادر ﴿ قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ دينه ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ لم ترضوا

بضلالكم حتى تضموا إليه إضلال المسترشدين ﴿ تَبْغُونَهَا ﴾ تطلبون السبيل ﴿ عِوَجًا ﴾ مصدر بمعنى معوجة حال : أى مائلة عن الحق ، أو توهمون الناس أن فيها اعوجاجاً ﴿ وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ﴾ عالمون بأن الدين المرضى هو دين الإسلام كما فى كتبكم ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ من الكفر والتكذيب وإنما يؤخركم لوقتكم فيجازيكم ، وتكرير الخطاب فى الآيتين والاستفهام مبالغة فى التقريع ، ونفى العذر لهم ، وإشعار بأن كل واحد من الأمرين مستقبح مستقل باستجلاب العذاب ، ولما مر بعض اليهود وهو « شاس بن قيس » على الأوس والخزرج فغاظه تآلفهم فذكرهم بما كان بينهم فى الجاهلية من الحرب كيوم « بعاث » آخر حروبهم إذ دام الحرب بينهم مائة وعشرين سنة ثم انقطع بإسلامهم فلما ذكرهم ذلك تشاجروا وقالوا : السلاح . السلاح . وكادوا يقتتلون ، فبلغ ذلك رسول الله فخرج إليهم مع من معه من المهاجرين والأنصار وقال : « أتدعون بدعاء الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام » فعرف القوم أنها من نزغات الشيطان فتابوا وتعانقوا فلم يكن يوم أقبح أولا وأحسن آخراً من ذلك اليوم فانصرفوا ورسول الله بينهم كالبدر بين الأنجم ، نزل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ • وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ ﴾ استفهام تعجب وتوبيخ ﴿ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ يعظكم ويزيل شبهكم ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ ﴾ يتمسك بدينه وكتابه ﴿ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ حث لهم فى الالتجاء إلى الله وكتابه فى الوقائع ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ بأن يطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر ويذكر فلا ينسى ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ موحدون ، نهى عن مفارقة الإسلام ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ ﴾ دينه وكتابه ﴿ جَمِيعًا ﴾ استعارة تمثيلية على اعتبار تشبيه الحالة بالحالة ، فالحبل مستعار للقرآن والاعتصام للوثوق به والاعتماد عليه ، ترشيحاً للمجاز وإضافته إلى الله قرينة ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ نهى عن مفارقة الجماعة : لا تفعلوا شيئاً يوجب تفرقكم بعد الإسلام : كالتحاسد والتقاطع المؤدى إلى الفتنة وتشتيت الجماعة ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ اشكروها يا معشر الأوس والخزرج ﴿ إِذْ كُنتُمْ ﴾ قبل الإسلام ﴿ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ ﴾ جمع ﴿ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ بالإسلام ﴿ فَأَصْبَحْتُم ﴾ صرتم ﴿ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ متحابين مجتمعين على الأخوة فى الله قيل كان الأوس والخزرج أخوين لأبوين فوقع بين أولادهما العداوة حتى أطفأها الله بالإسلام ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا ﴾ طرف ﴿ حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ ﴾ ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلا أن تموتوا كفاراً ، وفيه أن قبور الكفار حفر من النار ﴿ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ بالإيمان ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ إلى الصواب فتنالوا الثواب ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ الدينى والدنيوى كالإسلام والطاعة والإصلاح ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ شرعاً وهو ما وافق الكتاب والسنة ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ ما خالفهما ﴿ وَأُولَٰئِكَ ﴾ الداعون الآمرون الناهون ﴿ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون ، و « من » قيل للتبعيض لأن

ما ذكر فرض كفاية ولا يلزم كل الأمة ولا يليق بكل أحد كالجاهل ، وقيل زائدة ، أى : لتكونوا أمة فيجب على كل مكلف بحسب علمه بيده أو بلسانه أو بقلبه وعطفهما على الخير من عطف الخاص على العام خاطب الجميع ثم طلب فعل البعض ليدل أنه واجب على الكل أولا حتى لو تركوه أثموا جميعاً ويكون الأمر واجباً ومندوباً على حسب ما يؤمر به ، والنهى عن المنكر واجب كله لأن جميع ما أنكره الشرع حرام ويجب على العلماء تنبيه الولاة وعلى سائر الناس الرفع إلى الولاة والحكام بعد النهى عنه قولا وإن نالهم أذى بذلك فيستحب ولا يجب . قال عليه السلام : « من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله وخليفتى » ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا ﴾ بسبب العداوة والهوى ﴿ وَاخْتَلَفُوا ﴾ فى الدين فرقاً ، نهى الله فى الآية المتقدمة عن التفرق ثم نهى عن المشابهة بمن تفرق مبالغة ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ للموجبات للاتفاق على كلمة الحق وهم اليهود والنصارى والمراد نهى الاختلاف الناشئ عن الأهواء فيخرج عنه اختلاف المجتهدين ، وأخرج أبو داود حديث « إن أهل الكتاب افترقوا على اثنين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين : ثنتان وسبعون فى النار ، وواحدة فى الجنة وهى الجماعة » ﴿ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٠ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ أى يوم القيامة والبياض والسواد سيما أهل السعادة والشقاوة يومئذ على الحقيقة أو كنايتان عن السرور والحزن ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ وهم الكفار فيلقون فى النار فيقال لهم توبيخاً ﴿ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ يوم أخذ الميثاق ، أو المراد المرتدون ، أو أهل الكتاب ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ٠ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ وهم المؤمنون ﴿ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ جنته ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وإطلاق الرحمة على الجنة من إطلاق الملزوم على اللازم إشارة إلى أن دخول الجنة بفضل رحمته لا بالعمل ، وإنما وسط حديث السواد لتكون الفاتحة والخاتمة بحلية المؤمنين ، وجملة هم مستأنفة لبيان حالهم فى الرحمة ، أو حال لأن صدر الاسمية ضمير فلا حاجة إلى الواو ﴿ تِلْكَ ﴾ هذه الآيات ﴿ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ بأن يأخذهم بغير جرم ، أى : لم يرد شيئاً منه لأحد منهم نفاه بنفى لازمه إذ لو وقع كان مراداً له ودل أن ظلم العباد فيما بينهم مراد له ، وإن لم يرض به فمن استدل به على أنه لا يريد ظلماً للعباد بعضهم بعضاً فقد زلت به القدم؛ قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ إيجاداً وملكا فكيف يتصور منه ظلم ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ فيجازيكم كلا بما فعل ﴿ كُنْتُمْ ﴾ يا أمة محمد فى علم الله وفى اللوح وفى الأمم الماضية ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ ﴾ أظهرت ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ والخطاب لأمته كافة أو للصحابة خاصة متعلق بأخرجت ، أى : أظهرت للناس حتى تميزت وعرفت ، أو بكنتم ، أى : كنتم للناس خير أمة تدخلونهم فى الإسلام كما فى البخارى عن أبى هريرة ، و « كان » ناقصة أو تامة و« خير » حال ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ استئناف لبيان الخيرية واللام للاستغراق أى كل

معروف وكل منكر مستمرون على ذلك وبه خرج الأمم ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ باتصافه بما يليق به، أخره للدلالة على أن أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر كان إيماناً بالله ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ﴾ لاندراجهم حينئذ فى زمرة خير أمة ﴿ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه والنجاشى وأصحابه ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ المتمردون على الكفر ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ ﴾ أى اليهود يا معشر المسلمين بشىء ﴿ إِلَّا أَذًى ﴾ باللسان كالطعن فى دينكم ودنياكم برثاثة حالكم ﴿ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ منهزمين ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ عليكم بل لكم النصر عليهم وقد صدق ماقال الله وأخبر به فى قريظة والنضير وبنى قينقاع ويهود خيبر ﴿ ضُرِبَتْ ﴾ ألزمت ﴿ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا ﴾ وجدوا شرقاً وغرباً فهى كالقبة عليهم على طريق الاستعارة بالكناية، والضرب تخييل وتشبيه إحاطتها بهم بإحاطة القبة على من فيها بالفعل استعارة تبعية فلا عِزَّ لهم ولا اعتصام ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ ﴾ استثناء من أعم الأحوال، أى: لا عز لهم فى حالة إلا فى حالة اعتصامهم بذمة الله وذمة المسلمين وإنما أعاد الحبل لتغاير الذمتين لأن حبل الله هو الإسلام وحبل المسلمين هو عقد الجزية ﴿ وَبَاءُو ﴾ رجعوا ﴿ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ﴾ خوف الفقر فهى محيطة بهم إحاطة البيت المضروب على الأهل ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ الحلال إلى الحرام فعلم أن الإصرار على المعاصى يؤدى إلى الكفر ﴿ لَيْسُوا ﴾ أهل الكتاب ﴿ سَوَاءً ﴾ مستوين أى لا مساواة بين الأقلين الذين أسلموا منهم وبين الأكثرين الفاسقين ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ مستقيمة أو عادلة ثابتة على الحق كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ اللَّهِ ءَانَاءَ الَّيْلِ ﴾ فى ساعاته ﴿ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ حال، أى: يتلون القرآن فى تهجدهم، عبر عنه بالتلاوة فى ساعات الليل مع السجود ليكون أبين وأبلغ فى المدح ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ تعريض لمقابليهم لأن إيمانهم ليس بإيمان ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ ولا يداهنون ﴿ وَيُسَٰرِعُونَ فِى الْخَيْرَٰتِ ﴾ كلها من فرط رغبتهم ﴿ وَأُولَٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴾ الذين صلحت أحوالهم عند الله ومنهم من ليسوا كذلك وليسوا من الصالحين ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن تُكْفَرُوهُ ﴾ لن تحرموا ثوابه ولتضمنه معنى الحرمان عدى إلى مفعولين، وقرأ حمزة والكسائى وحفص الفعلين بياء الغيبة والضمير لأهل الكتاب والباقون بالخطاب التفاتاً أو على سنن كنتم خير أمة ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ حث على الإخلاص وبشارة للمتقين ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِىَ ﴾ تدفع ﴿ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَا أَوْلَٰدُهُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ عذابه ﴿ شَيْـًٔا ﴾ من الإغناء أو من العذاب خص الأموال والأولاد لأن الإنسان تارة يدفع عن نفسه بالأموال وتارة بالأولاد ﴿ وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ لا يفارقونها ﴿ مَثَلُ ﴾ صفة إهلاك ﴿ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾ فى عداوة النبى أو صدقة لطلب الثناء وحسن الذكر

﴿كَمَثَلِ﴾ إهلاك ﴿رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ حر أو برد شديد مصدر، والشائع إطلاقه على الريح البارد كالصرصر ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ﴾ زرع ﴿قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ فلم ينتفعوا به فكذلك نفقاتهم ذاهبة لا ينتفعون بها ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بضياع نفقاتهم ﴿وَلَٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر الموجب لضياعها وإنما قيد الحرث بقوم ظلموا لأن الإهلاك عن سخط أشد وأبلغ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً﴾ أصفياء تطلعونهم على سركم ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾ أى غيركم من اليهود والمنافقين ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ﴾ لا يقصرون لكم ﴿خَبَالًا﴾ نصب بنزع الخافض أو على التمييز أى فساداً ﴿وَدُّوا﴾ تمنوا ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ أى عنتكم وهى شدة الضرر ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ﴾ العداوة لكم ﴿مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ بالوقيعة فيكم وإطلاع المشركين على سركم لأنهم لا يملكون أنفسهم بذلك لفرط بغضهم للمسلمين ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ﴾ من البغض ﴿أَكْبَرُ﴾ مما بدا ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ على عداوتهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ذلك فلا توالوهم لأن الآية نزلت فى رجال من المسلمين يواصلون اليهود لصداقة بينهم، أو جوار، أو حلف، أو رضاع: فنهوا عن ذلك لأنه تشبه بالمنافقين. قال ابن العربى فى الأحكام: لا خلاف بين العلماء أن المراد به النهى عن مصاحبة الكفار من أهل الكتاب وغيرهم حتى نهى عن التشبه بهم وقد صح أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن التشبه بالأعاجم. اهـ. قال ابن عطية: ويدخل فى هذه الآية استكتاب أهل الذمة وتصريفهم فى البيع والشراء ونحو ذلك. اهـ. والجمل المذكورة من قوله «لا يألونكم» مستأنفات كل منها علة مستقلة للنهى ولذا ترك تعاطفها ويجوز أن يكون كل لاحقة علة للسابقة سوى قوله «قد بينا لكم الآيات» فإنه لا يصلح تعليلا لبدو البغضاء فيكون كلاماً مبتدأ، قاله فى غاية الأمانى ﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ﴾ المؤمنون «أنتم» مبتدأ، و«أولاء» خبره ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ لقرابتهم منكم وصداقتهم ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ لمخالفتهم لكم فى الدين فلم توالونهم: بيان للخطأ فى موالاتهم وهو خبر ثان أو خبر «أولاء»، والجملة خبر أنتم كقولك: أنت زيد تحبه، أو حال والعامل فيها معنى الإشارة أو «أولاء» منادى بحذف يا ﴿وَتُؤْمِنُونَ﴾ الواو للحال ﴿بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ بالكتب كلها ولا يؤمنون بكتابكم فلا جامع بينهم وبينكم ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ﴾ أطراف الأصابع ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ شدة الغضب لما يرون من ائتلافكم ويعبر عن شدة الغضب بعض الأنامل وإن لم يكن ثم عض مجازاً ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ أى ابقوا عليه إلى الموت فلن تروا ما يسركم وقل لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ للمنافقين من الحنق والبغضاء وما يكون منهم فى حال خلوتهم ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ﴾ تصبكم ﴿حَسَنَةٌ﴾ نعمة كنصر وغنيمة ورخاء وخصب ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ تحزنهم ﴿وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ كهزيمة وجدب ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾ وجملة الشرط متصلة بالشرط قبل وما بينهما اعتراض، والمعنى: أنهم متناهون فى عداوتكم فاجتنبوهم ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾ على أذاهم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله فى موالاتهم وغيرها ﴿لَا يَضِرْكُمْ﴾ بكسر الضاد وسكون الراء لنافع وابن كثير وأبى عمرو وبضمها

وتشديد الراء للباقين ﴿ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ وكنتم فى كنف من الله وهذا تعليم من الله وإرشاد أن يستعان فى كيد العدو بالصبر والتقوى ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ من الصبر والتقوى وغيرهما ﴿ مُحِيطٌ ﴾ عالم فيجازيهم به ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ ﴾ من المدينة ﴿ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ من بيت عائشة وفيه منقبة لها تمشى على رجليك إلى أحد أى اذكر ذلك الوقت ليظهر لك أن النصر مع الصبر ولما لم يصبروا أصابهم ما أصابهم « خرج النبى صلى الله عليه وسلم لأحد فى شوال سنة ثلاث من الهجرة بعد أن صلى الجمعة واستشار أصحابه فرأى أكثرهم الإقامة فى المدينة وفيهم ابن أبىّ المنافق ورأى آخرون الخروج فقالوا اخرج بنا إلى هؤلاء الكلاب لا يرون أنا جَبُنَّا عنهم ورأيه صلى الله عليه وسلم عدم الخروج فألحوا عليه فدخل منزله ولبس لامته فخرج إليهم . فقالوا : افعل يا رسول الله مابدا لك فقال : لا ينبغى لنبى أن يلبس لامته ثم يرجع حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه . وكان من خرج معه ألفاً أو إلا خمسين وكان المشركون نزلوا بأحد يوم الأربعاء وهم ثلاثة آلاف فأصبح صلى الله عليه وسلم بالشعب يوم السبت سابع شوال وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وسوى صفوفهم كما قال تعالى ﴿ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى تنزلهم ﴿ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ أى مراكز من الميمنة والميسرة والقلب والمقدمة والساقة فأجلس صلى الله عليه وسلم خمسين رامياً وأمر عليهم « عبد الله بن جبير » بسفح الجبل وقال انضحوا عنا الخيل بالنبل لا يأتونا من ورائنا ولا تبرحوا غلبنا أو نصرنا وكانت مع قريش مائتا فرس على ميمنتها « خالد بن الوليد » وعلى ميسرتها « عكرمة بن أبى جهل » . ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأحوالكم ونياتكم ﴿ إِذْ ﴾ بدل من إذ قبله ﴿ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ ﴾ هم بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس جناحا العسكر ، والهمّ دون العزم فأول ما يمر بالقلب يسمى خاطراً فإن قوى فحديث نفس ووسوسة فإن قوى فهمٌّ فإن زاد فعزم ثم من بعده إما قول أو فعل ﴿ أَنْ تَفْشَلَا ﴾ تجبنا عن القتال وترجعا لما رجع عبد الله بن أبىّ وأصحابه وقال علام نقتل أنفسنا وأولادنا فقال له أبو جابر وهو عمرو بن حرام الأنصارى السلمى : أنشدكم بالله فى نبيكم وأنفسكم ، فقال ابن أبىّ : لو نعلم قتالا لاتبعناكم فثبتهما الله فلم ينصرفا ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ ناصرهما ، وفى البخارى قال جابر : فينا نزلت وما سرنى أنها لم تنزل لقوله والله وليهما ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ يثقوا به دون غيره لينصرهم كما نصرهم ببدر ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ حين توكلتم عليه ﴿ بِبَدْرٍ ﴾ اسم ماء بين مكة والمدينة سمى باسم صاحبه رجل من جهينة ، وقع هناك أول قتال بين رسول الله وبين المشركين سابع عشر رمضان سنة ثنتين من الهجرة فأعز الله فيه الإسلام وحزبه ﴿ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ بقلة العَدد والعُدد ، ولم يقل أذلاء ليدل على قلتهم ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ نعم النصر إذ قيل إنها نزلت لما هزموا فجعلوا يقولون أنى لنا هذا تذكيراً لهم أو المعنى لعلكم تنالون النعمة فتشكرون ، فوضع الشكر موضع الإنعام لأنه سببه ﴿ إِذْ ﴾ ظرف لنصركم ﴿ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تعدهم تطمينا ﴿ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ ﴾ يعينكم ﴿ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴾

بالتخفيف للجمهور والتشديد لابن عامر إنكاراً أن لا يكفيهم ذلك وإنما جيء بلن إشعاراً بأنهم كانوا كالآيسين من النصر لضعفهم وقلتهم وقوة العدو وكثرتهم ﴿بَلَىٰ﴾ إيجاب لما بعد لن أي يكفيكم ذلك وفي الأنفال « بألف » لأنه أمدهم أولا به ثم صارت ثلاثة ثم صارت خمسة كما قال تعالى ﴿إِنْ تَصْبِرُوا﴾ على لقاء العدو ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله في المخالفة ﴿وَيَأْتُوكُمْ﴾ أي المشركون ﴿مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ من ساعتهم هذه أو نهوضهم المسرع إليكم من غير ريث، وهو في الأصل مصدر فارت القدر إذا غلت فاستعير للسرعة ثم أطلق للحال التي لا ريث فيها ولا تراخي: وعدم الإمداد على الصبر والتقوى حثاً عليهما وتقوية لقلوبهم ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ بفتح الواو للجمهور وبكسرها لأبي عمرو وابن كثير وعاصم، أي: معلمين بالتسويم الذي هو إظهار السيما وقد صبروا وأنجز الله وعده بأن قاتلت معهم الملائكة على خيول بلق، عليهم عمائم صفر على قول عروة بن الزبير أو بيض على قول ابن عباس وعلي بن أبي طالب أرسلوها بين أكتافهم، وجمع بأن الملائكة أعلمت بعمائم بيض إلا جبريل فإنه أعلم بعمامة صفراء، أي: على مثل عمامة الزبير بن العوام والإشهار في الحرب بالعلامة سنة ماضية قصداً للهيبة على الأعداء قال ابن عباس: نزلت الملائكة مسومين بالصوف فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يسوموا أنفسهم وخيولهم بالصوف وقال تسوموا فإن الملائكة قد تسومت بالصوف الأبيض في قلانسهم ومغافرهم، وقيل بالصوف المصبوغ في نواصي الخيل وأذنابها وفائدته إظهار الشجاع نفسه وعدم التباس الجماعة عند التحام الحرب ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ الإمداد ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ بالنصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ بكثرة العدد ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ الغالب الذي لا يغلب ﴿الْحَكِيمِ﴾ بنصر المؤمنين بإنزال الملائكة تارة وبدونه أخرى يؤتي النصر من يشاء وليس بكثرة الجند ﴿لِيَقْطَعَ﴾ متعلق بنصركم الله على أن « إذ تقول » ظرف له لا بدل من وإذ غدوت، والمعنى نصركم يبدر ليهلك ﴿طَرَفًا﴾ طائفة ﴿مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر فقتل يبدر من ساداتهم سبعون وأسر سبعون، وقيل معناه ليهدم ركناً من أركان الشرك، وقيل متعلق بقوله « وما النصر إلا من عند الله » وهو أحسن لعمومه وجريانه على وجه البدل والظرف من « وإذ غدوت » ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ يذلهم بالهزيمة والغيظ وأصل الكبت الصرع على الوجه واليدين وفي القاموس كبته يكبته صرعه وأخزاه وصرفه وكسره ورد العدو بغيظه وأذله. اهـ ﴿فَيَنْقَلِبُوا﴾ يرجعوا ﴿خَائِبِينَ﴾ لم ينالوا ما راموه، ونزل لما هم النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو على الكفار أو لما دعا عليهم أو لما كسرت رباعيته وشج وجهه يوم أحد وقال كيف يفلح قوم خضبوا نبيهم بالدم كأنه استبعد فلاحهم ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ بل الأمر لله وإنما أنت منذر مأمور بالقتال وقد فعلت ما أمرت به اعتراض بين المعطوف عليه الذي هو « أو يكبتهم » والمعطوف وهو ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بالإسلام إن أسلموا ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ إن أصروا على الكفر، والمعنى: أن الله مالك أمرهم فإما أن يهلكهم أو يكبتهم

أو يتوب عليهم إن أسلموا أو يعذبهم إن أصروا . وليس لك من أمرهم شيء . وفيه المقابلة بين القطع والكبت في العاجل والتوبة والتعذيب في الآجل ويحتمل أن يكون أو يتوب معطوفاً على الأمر أو شيء بإضمار أن ، أي : ليس لك من أمرهم أو من التوبة عليهم أو من تعذيبهم شيء ، أو ليس لكم من أمرهم شيء ، أو التوبة عليهم أو تعذيبهم وأن يكون أو بمعنى : إلا أن ، أي ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب عليهم فتسر به أو يعذبهم فتتشفى منهم ، وقيل «ليس لك ..» نزل في أهل «بئر معونة» الذين قتلهم «عامر بن الطفيل» سنة أربع من الهجرة فقنت عليه السلام شهراً يدعو على القاتلين باللعن . والله أعلم ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ تتميم لبيان علة التعذيب أي قد استحقوا التعذيب بظلمهم ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تقرير لقوله ليس لك من الأمر شيء أي الأمر له لا لك لأن ما في السموات وما في الأرض ملكه ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ المغفرة له ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ لا علة لصنعه ملاك الأمر مشيئته ، والتقييد بالتوبة قول لا دليل عليه ومعارض لما تواتر من الأحاديث معنى ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لعباده تتميم بترجيح الرحمة على العذاب أي فلا تبادر بالدعاء عليهم . ولما أدخل الله قصة أحد في أثناء النهي عن موالاة الكفار إذ فيها أمور منها ذكر أثناءها ما كان من أخلاقهم فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ وهو ما يفعلون في الجاهلية عند حلول الدين من زيادة المال وتأخير الأجل ، وتقدم في سورة البقرة بجميع أنواعه ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ مصدر في موضع الحال من الربا إذ ربما فعلوا ذلك مراراً فيصير الدين أضعافاً ، ومضاعفة بألف للجمهور ودونها لابن كثير وابن عامر والتقييد بأضعافاً مضاعفة زيادة توبيخ وإشارة إلى ما كانوا فيه من الطريقة التي لا يرضاها ذو مروءة من أكل أموال الناس فلا مفهوم له ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما نهاكم عنه بتركه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لكي تفلحوا ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أن تعذبوا بها قال أبو حنيفة هذه أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكفار . قاله النسفي في مدارك التنزيل وقال البيضاوي في أنوار التنزيل : فيه تنبيه على أن النار بالذات معدة للكفار وبالعرض للعصاة ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وعد بعد وعيد ترغيباً وترهيباً ولعل وعسى في أمثال ذلك دليل على عزة التوصل إلى ما جعل خبراً له ﴿وَسَارِعُوٓا۟﴾ بلا واو لنافع وابن عامر وبها لغيرهما : بادروا وأقبلوا ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بالإقبال إلى ما يوصل إليها من التوبة والطاعة والإخلاص ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي كعرضهما لو وصلت إحداهما بالأخرى ، وذكر العرض للمبالغة في وصفها بالسعة لأنه دون الطول . وعن ابن عباس : لو بسطت السموات والأرض ووصلت كانت مقدار عرض الجنة ، وأما طولها فلا يحيط به إلا علام الغيوب . اهـ . وفي تنكير «مغفرة» و «جنة» تعظيم ، وفصل بينهما لأن المغفرة إزالة العقاب والجنة حصول الثواب ، ومذهب أهل السنة أنها فوق السموات تحت العرش ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الله الآتي وصفهم ، فيه دليل على أنها مخلوقة الآن ﴿ٱلَّذِينَ

يُنْفِقُونَ ﴾ فى طاعة الله ﴿ فِى السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ ﴾ اليسر والعسر : أى فى الأحوال كلها إذ الإنسان لا يخلو منهما ما قدروا عليه من قليل أو كثير ، وإنما بدأ فى العبادات بالإنفاق لأنه أشد على النفس لا سيما فى وقت العسر ﴿ وَالْكَاظِمِينَ ﴾ الجارعين ﴿ الْغَيْظَ ﴾ عند امتلاء نفوسهم به : أى الكافين عن إمضائه وإظهاره مع القدرة من كظمت القربة إذا ملأتها وشددت رأسها . وعن النبي صلى الله عليه وسلم « من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً » وفى لباب التأويل : والكظم حبس الشىء عند امتلائه وكظم الغيظ : هو أن يمتلئ غيظاً فيرده فى جوفه ولا يظهره بقول ولا فعل ويصبر عليه ويسكت عنه . اه . ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ الذين يظلمونهم ومنهم المماليك لسوء آدابهم ، أى التاركين عقوبتهم بالجرائم مع القدرة ، وهو أخص من كظم الغيظ بلا عفو . وعن النبي صلى الله عليه وسلم « إن هؤلاء من أمتى قليلون إلا من عصم الله وقد كانوا كثيراً فى الامم السابقة » ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ هؤلاء وغيرهم أى يثيبهم ﴿ وَالَّذِينَ ﴾ عطف على المتقين ﴿ إِذَا فَعَلُوا ﴾ فعلة ﴿ فَاحِشَةً ﴾ بالغة فى القبح كالزنا ﴿ أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بأى ذنب كان ﴿ ذَكَرُوا اللَّهَ ﴾ فى قلوبهم بصفات الجلال والجمال ﴿ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ رهبة ورغبة : أى لأجلها وأقلعوا عنها نادمين عازمين أن لا يعودوا إليها . وهذه شروط صحة التوبة ﴿ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ استفهام بمعنى النفى معترض بين المعطوفين للدلالة على سعة الرحمة وعموم المغفرة والحث على الاستغفار والردع عن اليأس والوعد بقبول التوبة ، وفى الحديث « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » والتوبة تجبّ ما قبلها ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا ﴾ لم يدوموا على الذنوب ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ حال أى عالمين به ﴿ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ المتداركين لتقصيرهم ، وأولئك وما بعده مستأنف لبيان ما للمتقين المحسنين والتائبين من المحبة والغفران ، وكم ما بين المحسن والمتدارك والمحبوب والمغفور له . روى أن إبليس بكى لنزول هذه الآيات . ولما أخبر الله المؤمنين بما أعد لهم ذكرهم بأحوال من تقدم ليعتبروا بهم فقال ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ طرائق ووقائع الامم المتقدمة بإمهالهم ثم أخذهم ، قيل نزلت فى هزيمة أحد ﴿ فَسِيرُوا ﴾ أيها المؤمنون ﴿ فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ الرسل آخر أمرهم فى الهلاك فلا تحزنوا لغلبتهم فأنا أمهلهم لوقتهم ، وهذا حث على الاعتبار بما يُشاهَد من أحوالهم وآثار هلاكهم . وقوله « فانظروا » نظر عين وفكر ، والأمر للندب ، وفيه زجر الكفار وتهديدهم ﴿ هَٰذَا ﴾ القرآن أو ما تقدم من سنن الماضين أو ما ذكر من أمر المتقين والتائبين ﴿ بَيَانٌ لِلنَّاسِ ﴾ عامة سوء عاقبة المكذبين وحُسن عاقبة غيرهم ﴿ وَهُدًى ﴾ من الضلالة : أى زيادة بصيرة ﴿ وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ خاصة والبيان إزالة الشبهة بعد حصولها . والهدى : طريق الرشد ، والموعظة : الزجر عما لا ينبغى فى الدين ؛ فالبيان جنس تحته النوعان بعده ، وهذه الآية هى أول ما نزل فى آل عمران

﴿ وَلَا تَهِنُوا ﴾ عن قتال الكفار بما أصابكم ، عطف على « فانظروا » وتسلية للمؤمنين ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ على ما أصابكم بأحد من قتل أو جرح أو فوات غنيمة ﴿ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾ بالغلبة عليهم لأنكم على الحق وقتالكم لله وقتلاكم في الجنة ، وهم على الباطل وقتالهم للشيطان وقتلاهم في النار . وفيه بشارة لهم بالغلبة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ حقا متعلق بتهنوا ، أي لا تهنوا إن صح إيمانكم ، أو بالأعلون ، أي أنتم الأعلون إن كنتم مصدقين بهذه البشارة وجواب «إن» دل عليه ماقبله ، أي إن كنتم مصدقين أن الله ينصركم فلا تهنوا ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ ﴾ يصبكم بأحد ﴿ قَرْحٌ ﴾ بفتح القاف للجمهور وضمها لحمزة والكسائي وابن كثير . وعياش عن عاصم لغتان : أي جهد من جراح ونحوه ﴿ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ ﴾ الكفار ﴿ قَرْحٌ مِثْلُهُ ﴾ ببدر ولم يضعفوا ولم يجبنوا وأنتم أولى بذلك ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا ﴾ نصرفها ﴿ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ يوماً لفرقة ويوماً للأخرى ، والمداولة نقل الشيء من واحد إلى آخر ، يقال : تداولته الأيدي ، إذا انتقل من واحد إلى آخر ، ويقال : الدنيا دُوَلٌ : أي تنتقل من قوم إلى آخرين ثم منهم إلى غيرهم و « الأيام » يحتمل الوصف والخبر و « نداولها » يحتمل الخبر والحال ، والمراد بها أوقات النصر والغلبة للناس ليتعظوا ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ ﴾ علم ظهور الذي يتعلق به الجزاء وهو العلم بالشيء موجوداً ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أخلصوا في إيمانهم من غيرهم ، والعلة محذوفة للدلالة على تعددها ، أي نداولها لكذا وكذا وليعلم ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ يكرمهم بالشهادة لأن قوماً من المسلمين فاتهم يوم بدر كانوا يتمنونها ، واختلفوا في معنى الشهيد ، وهو : مَن قُتل في سبيل الله فقيل لأنهم أحياء يحضرون دار السلام بأرواحهم ، أو لأن الله شهد لهم بالجنة أو لكونهم شهوداً عدولا لصدقهم بالثبات والصبر على الشدائد ، والله أعلم ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ الكافرين اعتراض بين العلل للدلالة أن إدالتهم على المسلمين استدراج ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إن كانت الدولة عليهم أي يطهرهم من الذنوب بما يصيبهم عطف على « ويتخذ » واللام بمعنى كي ، والتمحيص التنقية ﴿ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ يهلكهم قليلا قليلا إن كانت عليهم ، والمحق نقص الشيء قليلا قليلا ، والربع في الحالين للمؤمنين ، إذ المعنى إن قتلكم الكفار فشهادة وتطهير لكم ، وإن قتلتموهم فاستئصال وعزٌّ لهم ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ﴾ ومن لم يجاهد علم ظهور و « لمّا » كـ « لم » في نفي الماضي إلا أن فيه التوقع فيدل على أن الجهاد المنفي متوقع في المستقبل ﴿ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ في الشدائد ﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ ﴾ الخطاب لمن ألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرج بهم إلى العدو لينالوا شرف الشهادة ﴿ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ ﴾ فيه حذف إحدى التاءين ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ ﴾ تقولون : ليت لنا يوماً مثل يوم بدر لنال ما ناله شهداؤه ﴿ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ ﴾ حين يقتل دونكم من قتل من إخوانكم وانهزمتم ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ أعينكم إلى الثابتين يقتلون : توبيخ على تمني الموت والهزيمة بعده ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ نزل يوم أحد لما انهزم الكفار واتبعهم المسلمون حتى وصلوا

إلى الغنائم فأقبلوا عليها لجاءتهم خيل المشركين من ورائهم فانهزموا حتى وصل الكفار إلى النبي صلى الله عليه وسلم ورماه « عبد الله بن قمئة » وشجه فاعترضه « مصعب بن عمير » صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتله فصاح قتلت محمداً ، أو أشاع الشيطان ذلك لجعل المنافقون يقولون : لو كان نبيا ما قتل فارجعوا إلى دينكم الأول وإخوانكم ، أرسلوا إلى ابن أبيّ يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان ، فقال لهم « أنس ابن النضر » : إن قتل محمد فإن رب محمد حيٌّ لا يموت وما تصنعون بالحياة بعده فقاتل حتى قتل وجعل رسول الله يدعو : إلىّ عباد الله ، أنا رسول الله ، فانحاز إليه ثلاثون من أصحابه وكشفوا عنه المشركين وتفرق الباقون والقصر قصر قلب لمن اعتقد أن شأنه يخالف شأن الرسل وقصر إفراد لمن اعتقد منهم جمعه الوصفين الرسالة والتبرى من الموت ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ وصف رسول على الأول واستئناف على الثاني فسيخلو كما خلوا ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ كغيره ﴿ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ رجعتم إلى الكفر ، قدم الموت لأنه الذى لابد منه والقتل أحد أسبابه والجملة الأخيرة محل الاستفهام الإنكارى أى ما كان معبوداً فترجعوا وقد علمتم بخلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا به ﴿ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً ﴾ من الضرر أو من الأشياء وإنما يضر نفسه ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ نعمته بالثبات كـ « أنس بن النضر » و « عبد الله بن جبير » وأصحابه وأضرابهم ، وقال « عبد الرحمن الثعالبي » هذا استمرار فى عتبهم وإقامة الحجة عليهم المعنى أن محمداً عليه الصلاة والسلام رسول كسائر الرسل قد بلّغ كما بلغوا ولزمكم أيها المؤمنون العمل بمضمون الرسالة وليست حياته وبقاؤه بين أظهركم شرطاً فى ذلك لأنه يموت كما ماتت الرسل قبله ، ثم توعد سبحانه المنقلب على عقبيه ، ثم وعد الشاكرين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه كـ « سعد بن الربيع » ووصيته يومئذ الأنصار و « أنس بن النضر » وغيرهما ويدخل فى الآية الشاكرون إلى يوم القيامة . اهـ . ﴿ وَمَا كَانَ ﴾ لاينبغى ﴿ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بقضائه لا الإقدام يدنيه ولا الإحجام يقصيه تشجيع للمجاهدين على لقاء العدو ولما كان الموت قائماً بالنفس أخرجه مخرج فعل لها ﴿ كِتَاباً ﴾ مصدر مؤكد أى كتب الله ذلك كتاباً ﴿ مُؤَجَّلاً ﴾ مؤقتاً لا يتقدم بالإقدام ولا يتأخر بالإحجام ، فلم انهزمتم والهزيمة لا تدفع الموت ، والثبات لا يقطع الحياة ؟ فيه رد على المعتزلة فى قولهم بالأجلين ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ﴾ بعمله ﴿ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ ما قسم له ولا حظ له فى الآخرة : تعريض لمن شغلتهم الغنائم يوم أحد عن امتثال أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ من ثوابها ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ الذين لم يشغلهم شىء عن الجهاد كـ « عبد الله ابن جبير » وأصحابه القائمين فى سفح الجبل حتى قتلوا . قال الخازن فى لباب التأويل : والآية وإن نزلت فى الجهاد خاصة لكنها عامة فى جميع الأعمال . اهـ . ﴿ وَكَأَيِّنْ ﴾ كم ﴿ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ ﴾ وقرأ الكوفيون وابن عامر · قاتل ﴿ مَعَهُ ﴾ خبر مبتدؤه ﴿ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ جموع كثيرة نسبة إلى الربة بكسر الراء وفتحها ،

أي : الجماعة أو الربيون العلماء ، والعباد منسوبون إلى الرب ، والكسر من تغيير النسب ، وأصل كأين أيّ دخل عليها كاف التشبيه والنون أصله التنوين كتبت نوناً على غير قياس ، وقرأ ابن كثير وكائن على وزن قاض ، وفي قتل على القراءتين ضمير عائد على نبيّ ، والجملة بعده حالية ويحتمل أن يكون ربيون نائب الفاعل أو فاعلا ، وقواه في غاية الأماني بما روى عن الحسن أنه لم يقتل نبيّ في الحرب ولأن الكلام في تعيير من تزلزل يوم أحد ولم يثبت ثبات الربيين مع الأنبياء ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الوهن ضعف الرأي والبصيرة ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ عن مباشرة القتال بأجسامهم لأجل الجراح أو قتل الأنبياء وأصحابهم ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ ما خضعوا لعدوهم كما فعلتم حين قيل قتل النبي ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ على البلاء وينصرهم ويثيبهم ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ مع ثباتهم وقوتهم في الدين وكونهم ربانيين ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ إيذاناً بأن ما أصابهم لسوء فعلهم وهضماً لأنفسهم وقدم الاستغفار على طلب التثبيت لأنه أقرب إلى الإجابة لما فيه من الخضوع والاستكانة ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ بالمواظبة على الجهاد ﴿وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وإنما جعل قولهم خبراً باتفاقهم لأن «أن قالوا» أعرف لدلالته على جهة النسبة وزمان الحدث ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ﴾ بسبب الاستغفار والالتجاء إليه ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ النصر والغنيمة وحسن الذكر ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ بالجنة بالتفضيل فوق الاستحقاق ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ تزيين بما هو أفضل من كل ثواب حثا للمؤمنين أن يقولوا مثل هذا عند لقاء العدو ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المشركين أو المنافقين أو أهل الكتاب فيما يأمرونكم به والصحيح أن الخطاب للمؤمنين كافة أن يجانبوا جميع الكفار ولا يطيعوهم في شيء إذ النزول على حكمهم يجر إلى موافقتهم ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ أمركم الأول وهو الكفر ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ في الدنيا بالتذلل للكفار والآخرة بدخول النار ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ ناصركم فاستغنوا بنصره عن غيره ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ فأطيعوه دونهم ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ بسكون العين للجمهور وضمها لابن عامر والكسائي ، أي : الرعب منكم حتى تقهروهم ويظهر دين الإسلام على الأديان كلها ، وقد ألقى في قلوبهم الرعب يوم أحد فتركوا القتال من غير سبب ونادى أبو سفيان يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت فقال رسول الله : «إن شاء الله» . فألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان ولم يجئ كما يأتي وقد عزموا أيضاً بعد ارتحالهم من أحد على العود واستئصال المسلمين فرعبوا وجبنوا ولم يرجعوا . قال الفخر الرازي : لا أحد يخالف دين الإسلام . إلا ألقى في قلبه رعب عند القتال وعند المحاجة . اهـ . ﴿بِمَا أَشْرَكُوا﴾ بسبب إشراكهم ﴿بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ حجة على عبادته وهو الأصنام ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى﴾ مأوى ﴿الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين هي وضع الظاهر موضع المضمر للتغليظ والتعليل ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ إياكم بالنصر بشرط التقوى والصبر فانهزم الكفار واتبعتموهم ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُمْ﴾ تقتلونهم قتل استئصال ﴿بِإِذْنِهِ﴾

بإرادته من أحسه أبطل حسه ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ جبنتم وضعف رأيكم بالميل إلى الغنيمة ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أمر النبي صلى الله عليه وسلم للرماة الخمسين بالمقام في سفح الجبل فقال بعضهم: نذهب فقد نصر أصحابنا وقال أميرهم «عبد الله بن جبير» في نفردون العشرة: لا نخالف أمر النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ أمره فتركتم المركز لطلب الغنيمة ﴿مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم﴾ الله ﴿مَّا تُحِبُّونَ﴾ من النصر، وجواب إذا دل عليه ما قبله، أي منعكم من نصره ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ بترك المركز للغنيمة ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ فثبت به حتى قتل «كعبد الله بن جبير» وأصحابه ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ﴾ عطف على جواب إذا المقدر أي ردكم بالهزيمة ﴿عَنْهُمْ﴾ عن الكفار ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ فيظهر المخلص من غيره. قال ابن مسعود: والله ما كنت أظن أن أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا حتى نزل «منكم من يريد الدنيا».

وقال الثعالبي: تأمل رحمك الله ما يوجبه الركون إلى الدنيا وما ينشأ عنها من الضرر وإذا كان مثل هؤلاء السادة على رفعتهم وعظيم منزلتهم حصل لهم بسببها ما حصل من الفشل والهزيمة فكيف بأمثالنا. اهـ.

وخرج البغوي في المسند المنتخب له عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تفتح الدنيا على قوم إلا ألقت بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة. اهـ. وقال الثعالبي أيضاً: اعلم رحمك الله أن تيسر أسباب الدنيا لك مع إعراضك عن أمر الآخرة ليس من علامات الفلاح، وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا رأيت كلما طلبت شيئاً من أمر الآخرة وابتغيته يسر لك وإذا أردت شيئاً من أمر الدنيا وابتغيته عسر عليك فأنت على حال حسنة وإذا رأيت كلما طلبت شيئاً من أمر الآخرة عسر عليك، وإذا أردت شيئاً من أمر الدنيا يسر لك فأنت على حال قبيحة» فتأمله راشداً ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ ما ارتكبتموه ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالعفو أو في الأحوال كلها بالنصر والأجر سواء أديل لهم أو عليهم ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ تبعدون في الأرض هاربين متعلق بصرفكم أو بليبتليكم أو بمقدر كاذكر أي اذكروا ذلك الوقت لتعلموا قبح فعلكم وفضل الله عليكم بالعفو ﴿وَلَا تَلْوُونَ﴾ لا تلتفتون لشدة خوفكم ﴿عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ عبارة عن غاية انهزامهم وخوفهم العدو ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ أي جماعتكم المتأخرة مدح له بالشجاعة يقول: «إلى عباد الله أنا رسول الله من كر فله الجنة» قال البخاري في صحيحه: أخراكم. تأنيث آخركم أي بكسر الخاء المعجمة قال في الفتح والعمدة والتنقيح: فيه نظر لأن أخرى تأنيث آخر بفتح الخاء لا كسرها، وزاد في التنقيح أفعل تفضيل كفضلى وأفضل وتعقبه في المصابيح فقال: نظر البخاري أدق من هذا وذلك أنه لو جعل أخرى هنا تأنيث آخر بفتح الخاء لم تدل على التأخر، والمراد في الآية الدلالة على التأخر كما في «وقالت أولاهم لأخراهم» أي المتقدمة للمتأخرة واستعماله في هذا المعنى موجود في كلامهم بل هو الأصل. اهـ. ﴿فَأَثَابَكُمْ﴾ الله: عطف على صرفكم أي جازاكم عن فشلكم وعصيانكم ﴿غَمًّا﴾ مضاعفاً متصلاً ﴿بِغَمٍّ﴾ من الاغتمام بالقتل والجرح وظفر المشركين والإرجاف بقتل الرسول

أو لجازاكم غما بسبب غم أذقتموه رسول الله بعصيانكم ﴿ لِكَيْلَا ﴾ متعلق بعفا أو بأثابكم فلا زائدة أو غير زائدة والمعنى لكيلا ﴿تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من الغنيمة أى لتتمرنوا على الصبر فى الشدائد فلا تحزنوا فيما بعد على فائت ولا لاحق وقيل فاعل أثابكم هو الرسول أى جازاكم بأن اغتم بما نزل عليه كما اغتممتم تسلية لكم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من النصر ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ من القتل والهزيمة ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ بأعمالكم وبما قصدتم بها حث على الإخلاص ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً﴾ أمنا وهما بمعنى أو يكون الأمن مع زوال الخوف والأمنة مع بقاء سبب الخوف ﴿نُّعَاسًا﴾ بدل منها أو هو المفعول وأمنة حال منه متقدمة وهذا أوجه لقوله فى الأنفال « إذ يغشيكم النعاس أمنة » أو مفعول له أو حال من المخاطبين بتقدير مضاف أى ذوى أمنة أو على أنه جمع آمن ، روى البخارى عن أبى طلحة قال أخذنى النعاس ونحن فى المصاف حتى وقع السيف من يدى مرارا . وعن ابن مسعود : النعاس فى القتال من الله وفى الصلاة من الشيطان ﴿ يَغْشَىٰ ﴾ بالياء الجمهور أى النعاس وبالتاء الأمنة الكسائى وحمزة والتذكير أحسن لقربه ولقوله فى الأنفال يغشيكم النعاس ﴿طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ وهم المؤمنون وكانوا يميدون تحت الحجف وتسقط السيوف منهم ﴿ وَطَائِفَةٌ ﴾ أخرى وهم المنافقون ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أوقعتهم فى الهم فلا رغبة لهم إلا نجاتها فقط ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ ﴾ صفة أخرى لطائفة أو حال أو استئناف على وجه البيان لما قبله ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ نصب على المصدر أى ظنا غير ظن الحق به أى الذى يجب أن يظن به ﴿ ظَنَّ ﴾ الملة ﴿الْجَاهِلِيَّةِ﴾ بدل منه أى ظنا مختصا بالجاهلية لا يظن ذلك الظن إلا أهل الشرك الجاهلون حيث اعتقدوا أن النبى لا ينصر ﴿يَقُولُونَ هَل﴾ ما ﴿ لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ﴾ الذى وعدناه ﴿مِن﴾ زائدة ﴿شَيْءٍ﴾ من النصر والظفر أو المعنى : منعنا تدبير أنفسنا فلم يبق لنا من الأمر شىء ، قاله ابن أبىّ لما أخبر بقتل الخزرج والجملة استئناف أو حال أو بدل من يظنون لأن السؤال لما كان صادرا عن الظن بناء على أنه طلب علم فيما يشك أو يظن جاز إبداله منه إذ الظن والعلم متعلق بما يقال فى جواب ذلك الاستفهام فلا يلزم كون الاستفهام ترجمة للخبر قاله فى غاية الأمانى ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ﴾ بالنصب للجمهور توكيد والرفع لأبى عمرو مبتدأ خبره ﴿ لِلَّهِ ﴾ القضاء له يفعل ما يشاء ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم ﴾ حال من فاعل يقولون وقل إن الأمر كله لله اعتراض أو استئناف وهو أوجه لقلة الاعتراض بين الحال وصاحبه ولفوائد الاستئناف ﴿مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ خوفا من السيف ﴿ يَقُولُونَ ﴾ بيان لما قبله ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ فى هذه المعركة قاله « معتب بن قشير » ، أى لو كان الاختيار إلينا لم نخرج فلم نقتل لكن أخرجنا كرها ، أو المعنى : لو كان لنا من أمر النصر شىء ما قتل هؤلاء هاهنا أو لو كنا على الحق ما قتلنا هاهنا ﴿قُل﴾ لهم ﴿لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ وفيكم من كتب الله عليه القتل ﴿ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ ﴾ قضى ﴿ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ ﴾ منكم ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ مصارعهم فيقتلون ولم ينجهم قعودهم لأن قضاءه تعالى كائن لامحالة ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ﴾ أى يختبر

﴿ مَا فِي صُدُورِكُمْ ﴾ من الإخلاص والنفاق عطف على علة محذوفة مع معللها أى فعل ما فعل بأحد لمصالح جمة « وليبتلى . . الخ » ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ﴾ يميز ﴿ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ لا يخفى عليه شيء وإنما يبتلى ليظهر للناس ، وفيه وعد ووعيد وتنبيه على أنه غنى عن الابتلاء. وإنما فعل ذلك لإظهار حال المنافقين ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا ﴾ انهزموا ﴿ مِنْكُمْ ﴾ عن القتال ﴿ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ جمع المسلمين وجمع الكافرين بأحد وهم غالب المسلمين فلم يثبت مع النبي إلا اثنا عشر رجلا من المهاجرين « أبو بكر وعمر وعلى وطلحة والزبير وابن عوف وسعد » والباقون من الأنصار ﴿ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ أى طلب منهم الزلل بوسوسته فأطاعوه ﴿ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ من الذنوب وهو مخالفة أمر النبي صلى الله عليه وسلم والذنوب تجر إلى الدنيا وصاحبها لم يستحق التأييد الإلهى قال الثعالبي فى جواهره : واعلم رحمك الله أن أصل الوهن عن الجهاد هو حب الدنيا وكراهية بذل النفوس لله ألا ترى إلى حال الصحابة وقلتهم فى صدر الإسلام كيف فتح الله بهم البلاد ودان لدينهم العباد لما بذلوا أنفسهم فى الجهاد وحالنا اليوم كما ترى عدد أهل الإسلام كثير ونكايتهم فى الكفار يسير . وروى أبو داود فى سننه عن « ثوبان » قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يوشك الأمم أن تداعى عليكم » فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ قال « بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن » فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : « حب الدنيا وكراهية الموت » . اهـ . فانظر رحمك الله فهل هذا الزمان إلا زماننا بعينه وتأمل ملوكنا إنما همهم جمع المال من حرام وحلال وإعراضهم عن أمر الجهاد فإنا لله وإنا إليه راجعون على مصاب الإسلام . اهـ . كلام عبد الرحمن الثعالبي رحمه الله . ﴿ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ للمؤمنين ﴿ حَلِيمٌ ﴾ لا يعجل على العصاة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالنفاق أو الشرك ﴿ وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ ﴾ فى النسب أو المذهب أى لأجلهم ﴿ إِذَا ضَرَبُوا ﴾ سافروا ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ لتجارة أو غيرها فماتوا وكان حقه « إذ » لقوله قالوا لكنه جاء على حكاية الحال الماضية ﴿ أَوْ كَانُوا غُزًّى ﴾ جمع غاز فقتلوا ﴿ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ مفعول قالوا وهو يدل على أن إخوانهم لم يكونوا مخاطبين وكان الكفار والمنافقون لجهلهم إذا مات أحد منهم فى سفر أو قتل قالوا : لو كان مقيما لسلم ، فنهى الله المؤمنين عن مثل ذلك الاعتقاد ﴿ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ ﴾ القول فى عاقبة أمرهم ﴿ حَسْرَةً ﴾ غصة وغما ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ واللام للعاقبة متعلقة بقالوا أى لا تكونوا مثلهم لتكون الحسرة خاصة بهم ﴿ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ إبطال لذلك الوهم فلا يمنع عن الموت قعود فقد يحيى المسافر والمقاتل ويميت المقيم والقاعد ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ عالم بالتاء للجمهور : تهديد للمؤمنين على أن يماثلوا الكفار ؛ وبالياء لابن كثير وحمزة والكسائى : وعيد للكفار ﴿ وَلَئِنْ ﴾ لام قسم ﴿ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ ﴾ فيه بكسر الميم لنافع وحمزة والكسائى وضمها للباقين من مات يمات ويموت ﴿ لَمَغْفِرَةٌ ﴾ كائنة ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ لذنوبكم ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ منه لكم على ذلك ،

بين المعطوف عليه والمعطوف للتقرير والتقريع على ماتضمنه المعطوف ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ بمخالفة الأمر بترك المركز واختيار الخروج من المدينة أو بأخذ الفداء من أسارى بدر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومنه النصر ومنعه ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾ بأحد ﴿ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ بإرادته وقضائه ، سماه إذناً لأنه من لوازمه ﴿ وَلِيَعْلَمَ ﴾ الله علم ظهور ﴿ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ حقاً ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ﴾ أي : ليظهر إيمان هؤلاء ونفاق هؤلاء ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ﴾ وهم عبد الله بن أبيّ وأصحابه ﴿ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أعداء الله هو من تمام الصلة عطف على « نافقوا » أوكلام مستقل عطف على «وما أصابكم» ﴿ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ﴾ لأموالكم وأهليكم إن لم تقاتلوا نصرة لدين الله أو كثروا سواد المؤمنين فإنه مما يدفع والقائل لهم ذلك « أبو جابر عبد الله بن عمرو » الا انخذلوا بثلث العسكر ﴿ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا ﴾ لو نحسنه ﴿ لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ﴾ أو المعنى لو نعلم أن الذى تفعلون قتال لاتبعناكم لكنه ليس بقتال بل إلقاء نفس إلى التهلكة ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ بما أظهروه من خذلان المؤمنين وكانوا قبل أقرب إلى الإيمان من حيث الظاهر ، أو يقدر مضاف ، أى : لنصر أهل الكفر بقولهم وفعلهم ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم ﴾ تأكيد وتنفير ﴿ مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ ولو علموا قتالا لم يتبعوكم ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ من النفاق لأنه يعلمه تفصيلا بعلم واجب وأنتم تعلمونه مجملا بأمارات ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ﴾ بدل من الذين قبله أو مقطوع نصباً أو رفعاً على الذم ﴿ لِإِخْوَٰنِهِمْ ﴾ لأجلهم ﴿ وَ ﴾ قد ﴿ قَعَدُوا۟ ﴾ عن الجهاد ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا ﴾ أى شهداء أحد أو إخواننا فى القعود ﴿ مَا قُتِلُوا۟ ﴾ كما لم نقتل ، وقرأ هشام ما قتّلوا بتشديد التاء ﴿ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ ﴾ ادفعوا ﴿ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أن القعود ينجى منه لأن أنفسكم أهم والموت هو المهروب منه وأسبابه كثيرة منها القتل ألقمهم الحجر مع شدة عنادهم بما لا يقدرون على إنكاره إذ يعلمون أن القعود كما يكون سبباً للنجاة ، والقتال سبب الموت : قد يكون الأمر بالعكس ، ونزل فى الشهداء ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ ﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لابن عامر ﴿ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ لأجل دينه ﴿ أَمْوَٰتًۢا بَلْ ﴾ هم ﴿ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ « أرواحهم فى حواصل طيور خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت » كما ورد فى الحديث ﴿ يُرْزَقُونَ ﴾ يأكلون ويشربون من الجنة تأكيد لكونهم أحياء ﴿ فَرِحِينَ ﴾ حال من ضمير يرزقون ﴿ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ وهو شرف الشهادة والفوز بالحياة الأبدية والقرب من الله والتمتع بنعيم الجنة ﴿ وَ ﴾ هم ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يفرحون بالبشارة ﴿ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ من إخوانهم المؤمنين ويبدل بدل اشتمال من « بالذين » ﴿ أَلَّا ﴾ أى بأن ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ الذين لم يلحقوا بهم ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فى الآخرة المعنى يفرحون بأمنهم وفرحهم لما شاهدوا ما أعد الله لهم ، وفى الآية دليل على أن الإنسان غير الهيكل المحسوس وأنه لا يفنى بخراب البدن ولا يتوقف عليه إدراكه وتألمه وفيها حث على الجهاد وترغيب فى الشهادة وبعث على ازدياد الطاعات

واللام ومدخولها جواب القسم الساد مسد جواب الشرط وهو فى موضع الفعل مبتدأ خبره ﴿ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ بالتاء للجمهور والياء للغيبة لحفص والمعنى أن الجهاد لا يقدم الأجل ، وإن وقع موتكم فى سبيل الله فما تنالون من المغفرة والرحمة خير مما تجمعون من الدنيا ، وقدم القتل هنا لأنه الأشرف ثم قدم الموت فى قوله ﴿ وَلَئِنْ ﴾ لام قسم ﴿ مُتُّمْ ﴾ بالوجهين ﴿ أَوْ قُتِلْتُمْ ﴾ فى الجهاد وغيره ﴿ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ لا إلى غيره لأن المحشور موتاً أكثر ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ ﴾ « ما » زائدة للتأكيد ، والدلالة على أن لينه لهم ما كان إلا برحمة ﴿ مِنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ بعد ما خالفوك ولم تثربهم بل اغتممت لهم ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا ﴾ سيئ الخلق جافياً ﴿ غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ ﴾ قاسيه فأغلظت لهم ﴿ لَٱنفَضُّوا ﴾ تفرقوا ﴿ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ مخافة المؤاخذة أو اللوم ﴿ فَٱعْفُ ﴾ تجاوز ﴿ عَنْهُمْ ﴾ ما أتوه فيما يختص بك ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ ذنبهم مما هو حق لله كالفرار من الزحف ﴿ وَشَاوِرْهُمْ ﴾ استخرج آراءهم ﴿ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ أى شأنك : أى أمر كان من الحرب وغيره مما له مجال الرأى فيه بخلاف الأحكام إذ لا رأى فيها بل فيما يصح المشاورة فيه تطييباً لقلوبهم وتمهيداً لسنة المشاورة وكان عليه السلام كثير المشاورة لهم وأوجبه بعض العلماء عليه وأما غيره فواجب عليه بلا خلاف قال فى الجواهر قال ابن عطية : « من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب » هذا ما لا خلاف فيه ، وقد وردت أحاديث كثيرة فى الاستشارة ، ومشاورته عليه السلام إنما هى فى أمور الحرب والبعوث ونحوه من النوازل فأما فى حلال أو حرام أو حد فتلك قوانين الشرع « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » والشورى مبنية على اختلاف الآراء والمستشير ينظر فى ذلك الخلاف بالتقوى لا بالهوى ويتخير فإذا أرشده الله إلى ما شاء منه عزم عليه وأنفذه متوكلا على الله إذ هو غاية الاجتهاد المطلوب منه ، وصفة المستشار أن يكون عالماً متديناً . اهـ . وقال علىّ بن أبى طالب وقد خاطر من استغنى برأيه . اهـ . ومن فوائدها أن الإنسان يعزم على الأمر فيشاور فيه فيتبين له الصواب فى قول غيره فيعلم عجزه عن الإحاطة بالمصالح ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ ﴾ على إمضاء شىء بعد المشاورة ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ثق به لا بالمشاورة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ عليه علة للأمر فيهديهم إلى الأصلح ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ على عدوكم كيوم بدر ﴿ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ إذ لا نصر إلا من عنده ﴿ وَإِن يَخْذُلْكُمْ ﴾ كيوم أحد ﴿ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ بعد خذلانه غير الأسلوب استبعاداً للنصر ، أى : إذا جاوزتموه فلا ناصر لكم وفيه تنبيه على المقتضى للتوكل وتحريض على ما يستحق به النصر من الله وهو طاعته وتحذير عما يستجلب خذلانه وهو المعاصى ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ ﴾ لا على غيره ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ كأنهم لعلمهم أن لا مؤثر سواه ﴿ وَمَا كَانَ ﴾ ما صح ﴿ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ بالبناء للمفعول لنافع وابن عامر وحمزة والكسائى أى ينسب إلى الغلول ، وللفاعل للباقين أى يخون فى الغنيمة بأخذ شىء منها خفية : نزلت لما فقدت قطيفة حمراء يوم بدر فقال بعض الناس : لعل رسول الله أخذها لنفسه أو فى ظن الرماة به يوم أحد حين تركوا المركز للغنيمة

وقالوا : نخشى أن يقول رسول الله من أخذ شيئاً فهو له ولا يقسم الغنائم أو فى طلائع بعثهم وغنم بعدهم فقسم على من معه ولم يقسم للطلائع فسمى حرمان بعض المستحقين غلولا تغليظاً ومبالغة فى النهى وقيل ألح الأقوياء عليه فى القسم فنزل « وما كان لنبيّ أن يغلّ » بل يقسم بالسوية ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ حاملا له على عنقه وأما فى الدنيا ، فقال فى القوانين : فإن جاء به تائباً قبل القسمة لم يؤدب ، وردّ للغنائم ، وإن تاب بعد افتراق الجيش أدب وتصدق به . اه . وقال ابن العربى فى الأحكام : الغلول خيانة فى المغنم كما أن الإسلال سرقة الخطف من حيث لا يشعر به كما يفعل سودان مكة اليوم قال علماؤنا تحريم الغلول دليل على اشتراك الغانين فى الغنيمة فلا يحل لأحد أن يستأثر بشىء منها دون الآخر فمن غصب منها شيئاً أدب ، فإن وطئ جارية أو سرق نصاباً ، فرأى عبد الملك من أصحابنا لا حد عليه لأن له فيه حقاً بل يؤدب وقيل يحد . اه ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ﴾ جزاء ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ غلولا وغيره ولذا أورده عاما ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ شيئاً بزيادة ولا نقصان ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ فأطاع ولم يغل ﴿كَمَنْ بَاءَ﴾ رجع ﴿بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾ لمعصيته وغلوله ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ المرجع هى ، لا بل بينهما بون بعيد ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ﴾ أصحاب درجات أو لهم درجات ، أو متفاوتون كما تتفاوت الدرجات ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أى مختلفو المنازل فلمن اتبع رضوان الله الثواب ولمن باء بسخطه العقاب والدرجة منزلة لوحظ فيها العلو كما لوحظ فى الدركة النزول ففيها تغليب ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه منه شىء فيجازى عليه ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أى : عربياً مثلهم يعرفون نسبه وصدقه وأمانته ليفهموا عنه ويشرفوا به لا ملكا ولا عجميا فلا نعمة أجل منه ، وقرئ من أنفسهم أى : أشرفهم لأن « عدنان ذروة ولد إسماعيل » و « مضر ذروة نزار بن معد بن عدنان » و « خندف (اسم لليلى امرأة الياس لكن شهر فى ولدها منه) ذروة مضر » و « مدركة ذروة خندف » و « هاشم ذروة قريش » و « محمد ذروة هاشم » فهو خيرٌ من خيار ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ القرآن على الاستمرار براجعونه فى كل شبهة بعد ما كانوا جهالا ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ من دنس الطباع بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومن سوء العقائد والأعمال ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ السنة التى سنها لهم على لسان نبيه ﴿وَإِنْ﴾ مخففة أى إن الشأن أو إنهم ﴿كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ قبل بعثه ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ظاهر والجملة فى موضع الحال أو استئناف ﴿أَوَلَمَّا﴾ أى حين ﴿أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ بأحد بقتل سبعين منكم ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ﴾ أى والحال أنكم نلتم ﴿مِثْلَيْهَا﴾ ببدر بقتل سبعين منهم وأسر سبعين ﴿قُلْتُمْ﴾ متعجبين ﴿أَنَّى﴾ من أين لنا ﴿هَذَا﴾ الخذلان ونحن مسلمون ورسول الله فينا والجملة الأخيرة محل الاستفهام الإنكارى ولما ظرف مضاف إلى الجملة بعده وناصبه « قلتم » وأنى هذا مقول القول والواو عاطفة لما على مقدر نحو خالفتم الأمر أو لما أو على قوله « ولقد صدقكم الله » وما بعده من قصة أحد والهمزة متخللة

والحاد لمن يتمنى لإخوانه بمثل ما أنعم به عليه، وبشرى للمؤمنين بالفلاح ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ ﴾ ثواب لأعمالهم ﴿ مِنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ ﴾ زيادة عليه وتنكيرهما للتعظيم استبشروا أولا بحال إخوانهم وثانياً بحال أنفسهم ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ من جملة المستبشر به عطف على فضل، وقرأ الكسائى بكسر إن استئناف معترض دال على أن ذلك أجر لهم على إيمانهم وأن عدم الإيمان سبب ضياع العمل ويؤيد أن « الذين لم يلحقوا بهم » هم المؤمنون كافة أى لا يضيع أجر المؤمنين كما لا يضيع أجر الشهداء ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ دعاءه بالخروج للقتال الغد من وقعة أحد صبيحة الأحد لما بلغه أن أبا سفيان وأصحابه لما بلغوا « الروحاء » وهو موضع بينه وبين المدينة نحو أربعين ميلا. ندموا وقالوا لا محمداً قتلتم ولا الكواعب أردفتم بئس ما صنعتم وهموا بالرجوع وقال عليه الصلاة والسلام: « لا يخرج معنا إلا من كان معنا بالأمس » فقال جابر وكان لم يشهد أحداً : يا رسول الله خلفنى أبى على سبع أخوات ! فأذن له فخرج فى آثارهم واستخلف على المدينة « ابن أم مكتوم » حتى بلغ « حمراء الأسد » وهى من المدينة على ثمانية أميال وألقى الله الرعب فى قلوب المشركين فذهبوا فعسكر عليه السلام بحمراء الأسد يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء وكانوا يوقدون تلك الليالى خمسمائة نار فذهب صوت عسكرهم وتخوف نيرانهم فى كل وجه ثم رجع عليه السلام إلى المدينة وهذه هى غزوة «حمراء الأسد» وكان الصحابة تحاملوا الخروج وقروحهم تشخب دماء حتى لا يفوتهم الأجر كما قال تعالى ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ﴾ بالضم بفتح القاف للجمهور وحمزة والكسائى وأبى بكر بضمها لغتان والموصول صفة للمؤمنين أو نصب على المدح أو مبتدأ خبره ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ ﴾ بالخروج ﴿ وَٱتَّقَوْا ﴾ مخالفة الرسول ﴿ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لا يعلم قدره غير الله ومن للبيان والمقصود من ذكر الوصفين المدح والتعليل لا التقييد لأن المستجيبين كلهم محسنون متقون، قال فى فتوح الغيب: فالكلام فيه تجريد جرد من الذين استجابوا لله والرسول المحسن والمتقى. اهـ. وبعد « حمراء الأسد » سرية « أبى سلمة » إلى أرض « بنى أسد » ثم سرية « عبد الله بن أنيس » فقتل « سفيان بن خالد » الذى يجمع الجموع لرسول الله ثم بعث الرجيع ماء لهذيل عشرة أميرهم « عاصم بن ثابت » وفيه قصة « خبيب » ثم بعث سبعين أصحاب « بئر معونة » أميرهم « منذر بن عمرو » لتبليغ الدين فقتلوا جميعاً ثم غزوة «بنى النضير» ستأتى، ثم غزوة « ذات الرقاع » ستأتى، وفيها صلاة الخوف بنخلة ثم بدر الموعد وهى غزوة « بدر الصغرى » وإليها أشار بقوله ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ بدل من الذين قبله أو نعت ﴿ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ ركب « عبد القيس » أو « نعيم بن مسعود الأشجعى » ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ ﴾ « أبا سفيان » وأصحابه، والمعرفة المكررة هنا لم تكن عين الأولى للقرينة ﴿ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾ الجموع ليستأصلوكم وذلك أن «أبا سفيان» نادى عند انصرافه من أحد : يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت فقال عليه السلام : « إن شاء الله » فلما كان القابل خرج « أبو سفيان » فى أهل مكة حتى نزل « بمجنة »

بناحية «مرّ الظهران» ثم ألقى الله الرعب فى قلبه وبدا له أن يرجع فمر به ركب من «عبد قيس» يريدون المدينة للميرة فشرط لهم حمل بعير من زبيب على أن يثبطوا المسلمين، وقيل لقى «نعيم بن مسعود» وقد قدم معتمراً فسأله ذلك والتزم له عشراً من الإبل فخرج نعيم فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم: أتوكم فى دياركم فلم يفلت منكم إلا الشريد أفتريدون أن تخرجوا إليهم وقد جمعوا لكم ﴿فَاخْشَوْهُمْ﴾ ولا تخرجوا إليهم ففتر بعضهم. فقال عليه السلام: والذى نفسى بيده لأخرجن إليهم ولو وحدى فخرج فى سبعين راكباً وهم يقولون حسبنا الله فى شعبان واستعمل على المدينة «ابن رواحة»، ﴿فَزَادَهُمْ﴾ هذا القول ﴿إِيمَانًا﴾ بالله ويقيناً بوعده ﴿وَقَالُوا﴾ إظهاراً لحية الإسلام مع إخلاص النية وإعلام عدم الضعف ﴿حَسْبُنَا﴾ كافينا ﴿اللَّهُ﴾ وقالوا عطف على فزادهم والجملة بعد هذا القول نصب به، وحسب: بمعنى اسم الفاعل من أحسبه إذا كفاه، إذ لا يستفيد بالإضافة تعريفاً فى قولك هذا رجل حسبك ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ الموكول إليه هو تذييل. فى الحديث «إذا وقعتم فى الأمر العظيم فقولوا حسبنا الله ونعم الوكيل» ﴿فَانْقَلَبُوا﴾ فرجعوا من بدر ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ عافية وثبات على الإيمان وزيادة فيه ﴿وَفَضْلٍ﴾ ربح فى التجارة فإنهم لما أتوا بدراً وافوا بها سوقاً وكانت موضع سوق لهم فى الجاهلية يجتمعون إليها كل عام ثمانية أيام فأقاموا بها تلك الثمانية فباعوا فأصابوا بالدرهم درهمين وانقلبوا إلى المدينة سالمين كما قال تعالى ﴿لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ من عدو بقتل ولا جرح ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ بطاعة رسوله فى الخروج الذى هو مناط الفوز بخير الدارين ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ على أهل طاعته حيث تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الإيمان والتوفيق للمبادرة إلى الجهاد والتصلب فى الدين وإظهار الجرأة على العدو وبالحفظ من كل سوء وإصابة النفع مع ضمان الأجر، وفيه تحسير للمتخلف وتخطئة رأيه حيث حرم نفسه ما فازوا به ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ﴾ أى القائل «إن الناس» إلى آخره المثبط ﴿الشَّيْطَانُ﴾ خبر وما بعده بيان لشيطنته أو صفة وما بعده الخبر وهو ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ القاعدين عن الخروج مع رسول الله أو يخوفكم أولياءه الذين هم «أبو سفيان» وأصحابه ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ الضمير للناس الثانى على الأول وللأولياء على الثانى ﴿وَخَافُونِ﴾ فى ترك أمرى فجاهدوا مع رسولى ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يقتضى إيثار خوف الله على خوف الناس. قال المحاسبى كلما عظمت هيبة الله فى صدور أوليائه لم يهابوا غيره حياء منه أن يخافوا معه سواه. اهـ. وما تقدم من أن هذه الآيات نزلت فى قصة «غزوة بدر الصغرى» وأن قصة ركب «عبد قيس» و«نعيم بن مسعود» مما كانتا فيها هو ما فى أكثر التفاسير ومن المفسرين من يجعلهما فى قصة «حمراء الأسد» كالتى قبلها وبين فى لباب التأويل بأن قصة ركب «عبد القيس» كانت فى غزوة «حمراء الأسد» وقصة «نعيم» كانت فى غزوة «بدر الصغرى» حيث قال فيه: إن «أبا سفيان» وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا على انصرافهم إلى أن قال: ومرّ ركب من عبد القيس، فقال لهم: أبو سفيان: أين تريدون؟ قالوا: المدينة لأجل الميرة، قال:

فهل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة وأحمل لكم إبلكم زبيباً بعكاظ إذا وافيتموها قالوا نعم قال : إذا وافيتموه فأخبروه أنا سائرون إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم وانصرف أبو سفيان إلى مكة ومر الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذى قال أبو سفيان ؛ فقال هو وأصحابه : حسبنا الله ونعم الوكيل . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً إلى المدينة بعد ثالثة ، وقال مجاهد وعكرمة : نزلت هذه الآية فى غزوة بدر الصغرى ثم ذكر قصة خروج أبى سفيان وقصته مع نعيم ، والله أعلم . وقال فى الجواهر الحسان : فى قوله « الذين قال لهم الناس » الآية : وهذا القول قاله الركب من عبد القيس لرسول الله وأصحابه حين حملهم أبو سفيان ذلك فالناس الأول هم الركب والثانى عسكر قريش . هذا قول الجمهور وهو الصواب وقول من قال إن الآية نزلت فى خروج النبى صلى الله عليه وسلم إلى بدر الصغرى لميعاد أبى سفيان وأن الناس هنا « نعيم بن مسعود » قول ضعيف . اهـ وبعد بدر هذه غزوه عليه السلام بدومة الجندل جمعاً هناك يظلمون من يمر بهم ثم غزوة الخندق وسيأتى إن شاء الله ، والله أعلم ﴿ وَلَا يُحْزِنْكَ ﴾ بضم الياء وكسر الزاى لنافع وبفتحها وضم الزاى للباقين من حزنه لغة فى أحزنه ﴿ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ بنصره وهم أهل مكة أو المنافقون أو بجمع الجموع لمحاربتك أى لا تهتم بهم خوفاً أن يضروك ﴿ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ ﴾ أى دينه أو أولياء الله ﴿ شَيْئًا ﴾ بفعلهم وإنما يضرون أنفسهم ، وشيئاً مفعول مطلق أى شيئاً من الضرر أو مفعول به أى من الأشياء : وبيّن عدم الضرر بقوله ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا ﴾ نصيباً ﴿ فِي الْآخِرَةِ ﴾ فى الجنة فلذلك خذلهم وفى ذكر الإرادة إشعار بأن كفرهم بلغ الغاية حتى أراد أرحم الراحمين ألا يكون لهم حظ من رحمته التى وسعت كل شىء وأن الشر والخير بإرادة الله ، وفيه رد على القدرية والمعتزلة ، والحظ إذا أطلق إنما يتبادر إلى الخير ﴿ وَلَهُمْ ﴾ بدل الثواب ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فى النار وذلك أبلغ ما ضر به الإنسان نفسه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ ﴾ أى أخذوه بدله وهم جميع الكفار ﴿ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ﴾ وإنما ضروا أنفسهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم تكرير للتأكيد أو لتعميم الكفرة بعد تخصيص من نافق من المتخلفين أو ارتد من الأعراب أو تخصيص لأهل الكتاب الذين حرفوا واشتروا بآيات الله ثمناً قليلا ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ﴾ بياء الغيبة للجمهور وبتاء الخطاب لحمزة ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي ﴾ أى إملاءنا ﴿ لَهُمْ ﴾ بتطويل الأعمار وتأخيرهم أو الذى نطيله لهم من العمر يقال أملى لفرسه إذا أرخى طيله ﴿ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ﴾ أن ومعمولاها سدت مسد المفعولين فى قراءة التحتانية ومسد الثانى فى الفوقانية ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي ﴾ نمهل ﴿ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾ بكثرة المعاصى استئناف بما هو العلة للحكم قبلها وما : كافة ، واللام : لام الإرادة ، وعند المعتزلة لام العاقبة وفى الحديث المرفوع : « إذا رأيت الله يعطى على المعاصى فإن ذلك استدراج لخلقه » فالآية رد على الكفار فى قولهم : إن كوننا مولين أصحة دليل على رضى الله بحالتنا ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ذو إهانة

فى الآخرة ﴿مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ﴾ ليترك، واللام لتأكيد النفى ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ من اختلاط المخلص بغيره ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ﴾ بالتخفيف من ماز للجمهور والتشديد من التمييز لحمزة والكسائى أى يفصل ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ المنافق ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ المؤمن بالتكاليف الشاقة المبينة لذلك كبذل الأموال والأنفس فى سبيل الله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ فتعرفوا ما فى القلوب من كفر وإيمان قبل التمييز ولا تتوهموا أن الرسول يطلع على ما فى القلوب كاطلاع الله فيخبر عن كفرها وإيمانها من غير وحى ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى﴾ يختار ﴿مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فيطلعه على غيبه بالوحى كما أطلع النبى على حال المنافقين ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ بأنه عالم الغيب وأنه المخبر لرسله ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وهو الجنة بإيمانكم واتقائكم ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بالتحتية للجمهور والفوقية لحمزة، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة هنا وفى الموضعين قبل بفتح السين والباقون بكسرها ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ عبر به دون أموالهم زيادة للذم بأن اللائق بهم أن يحسنوا كما أحسن الله إليهم ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ أى بزكاته من المال، أو بما امتنعوا من إنفاقه فى سبيل الله وعلى ذوى الأرحام ﴿هُوَ﴾ أى بخلهم ﴿خَيْرًا لَّهُم﴾ مفعول ثان والضمير للفصل والأول بخلهم مقدراً قبل الموصول على الفوقانية وقبل الضمير على التحتانية ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ لاستجلاب العقاب عليهم ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بيان لشريته، أى: سيصير عذاب بخلهم لازما لهم كالطوق فى أعناقهم أو يطوقونه نفسه حقيقة لما روى البخارى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة يأخذ بلهزمتيه يقول: أنا مالك، أنا كنزك». ثم تلا هذه الآية. قلت ومعنى آتاه بمد الهمزة أعطاه ومُثل بضم الميم مبنياً للمفعول أى صُوِّر، وشجاعا نصب على الحال أى حية أقرع أى لا شعر على رأسه لكثرة سمه وطول عمره وزبيبتان نقطتان سوداوان فوق عينيه وهو أخبث ما يكون منها يطوّقه بفتح الواو المشددة أى يجعل طوقا فى عنقه ولهزمتيه بكسر اللام جانبى فمه، والله أعلم. قال ابن العربى فى أحكامه: قال علماؤنا: البخل منع الواجب والشح منع المستحب والصحيح المختار أن هذه الآية فى الزكاة الواجبة للوعيد. اهـ. قال فى الجواهر: وتعميمها فى جميع أنواع الواجب أحسن، وقيل الآية فى البخل بالعلم وكتمانه ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أى ما فيهما مما يتوارث ملك له فما للبخلاء يبخلون بملكه ولا ينفقونه فى سبيله أو أنه يرث منهم ما يمسكونه ولا ينفقونه فى سبيله بهلاكهم ويبقى عليهم الحسرة والعقوبة ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء للجمهور والياء لأبى عمرو وابن كثير من المنع والإعطاء ﴿خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه: حث على الإنفاق قبل فواته ووعيد للبخلاء ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ وهم اليهود قالوه لما نزل: «من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً» وقالوا: لو كان غنياً ما استقرضنا. هذا قول الحسن وقتادة. قال الحسن: وقائل «إن الله فقير» هو

« حي بن أخطب » وقال عكرمة والسدى كتب النبي صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر رضي الله عنه إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً فقال « فنحاص بن عازوراء » منهم : إن الله فقير حين سأل القرض ، يريد بذلك تكذيب القرآن فلطمه أبو بكر وقال لولا العهد الذي بيننا لضربت عنقك فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجحد ما قاله فنزلت والمعنى أنه لم يخف عليه وأنه أعد لهم العقاب عليه ﴿ سَنَكْتُبُ ﴾ نأمر بكتب ﴿ مَا قَالُوا ﴾ في صحف أعمالهم ليجازوا عليه إذ هو كفر بالله واستهزاء بالقرآن والرسول ، ولذلك نظمه مع قتل الأنبياء وقال ﴿ وَ ﴾ نكتب ﴿ قَتْلَهُمُ ﴾ بالنصب ﴿ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ وفيه تنبيه على أن قولهم ليس أول جريمة ارتكبوها وأن من اجترأ على قتل الأنبياء لم يستبعد منه أمثال هذا القول ، وقرأ حمزة سيكتب بالياء وضمها وفتح التاء . وقتلهم بالرفع والسين للتأكيد ولذا عطف عليه الماضي والعدول إلى المضارع مبالغة كأنه معدّ بين يدى الكاتب يطالعه حيناً فحيناً ﴿ وَنَقُولُ ﴾ بالنون وحمزة بالياء أي الله لهم في الآخرة على لسان الملائكة ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ أي العذاب المحرق وهو النار يحرق أحدهم في اليوم سبعين ألف مرة ، أي : نقول لهم هذا القول عند الانتقام إيفاء لمسامعهم مرارته حيث لم تصغ إلى الحق ، والحريق : النار العظيمة وفيه مبالغات في الوعيد ، والذوق إدراك الطعوم ويستعمل على الاتساع لإدراك سائر المحسوسات والحالات وذكره هنا لأن العذاب مرتب على قولهم الناشئ عن البخل بالمال وغالب حاجة الإنسان إليه لتحصيل المطاعم ومعظم بخله للخوف من فقدانه ولذلك كثر ذكر الأكل مع المال ويقال لهم إذا ألقوا فيها ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ العذاب ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ من قولكم ، إن الله فقير ، وقتل الأنبياء وسائر المعاصي ، عبر بالأيدي عن الأنفس لأن أكثر أعمالها بهن ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ ﴾ أي بذي ظلم ﴿ لِلْعَبِيدِ ﴾ فيعذبهم بغير ذنب وظلام وزن نسبة أو مبالغة لكثرة المتعلق والجملة عطف على بما قدمت وسببيتها للعذاب من حيث إن نفي الظلم يستلزم العدل المقتضي إثابة المحسن ومعاقبة المسيء ﴿ الَّذِينَ قَالُوا ﴾ لمحمد ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا ﴾ أمرنا أو وصانا في التوراة والموصول رفع أو نصب على الذم أو بدل من الذين أو من العبيد ﴿ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ﴾ فلا نؤمن لك حتى تأتينا به ، وهو ما يتقرب به إلى الله من نعم وغيرها فإن قبل جاءت نار بيضاء من السماء فأحرقته وإلا بقي مكانه قالوا ذلك افتراء على الله وقيل عهد إليهم ذلك إلا في المسيح ومحمد قال تعالى ﴿ قُلْ ﴾ لهم توبيخاً ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالمعجزات الموجبات للتصديق غير ما اقترحتموه ﴿ وَ ﴾ جاءوا ﴿ بِالَّذِي قُلْتُمْ ﴾ من القربان فقتلتموهم كزكرياء ويحيى فلو كان الموجب للتصديق هو الإتيان به لصدقتموهم فقد جاءوكم به وبمعجزات أخر ، والخطاب لمن في زمن نبينا وإن كان الفعل لأجدادهم لرضاهم به ﴿ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في أنكم تؤمنون عند الإتيان به

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾المعجزات ﴿ وَالزُّبُرِ ﴾ كصحف إبراهيم ﴿ وَالْكِتَابِ ﴾ ولابن عامر بإثبات الباء فيهما ﴿الْمُنِيرِ ﴾ الواضح هو التوراة والإنجيل تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بأن تكذيب الجهلة للأنبياء أمر قديم ليس مختصاً به ليصبر كما صبروا ، والزبُر جمع زبور وهي الصحف أو المواعظ والزواجر ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ لا محالة وعد ووعيد للمصدق والمكذب فلا يحزنك تكذيبهم إياك فرجع الخلق إلى الله فيجازيهم ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ ﴾ جزاء أعمالكم خيراً أو شراً ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ وما كان قبلها فى الدنيا والقبر بعض جزاء ﴿ فَمَن زُحْزِحَ ﴾ بُعِدَ ﴿ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ سعد ونجا ونال غاية مطلوبه ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى العيش فيها من لذاتها وزخارفها ﴿ إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ الباطل يتمتع به قليلا ثم يفنى شبهها بالمتاع الذى يدلس به على المشترى حتى يشتريه ، وهذا لمن آثرها على الآخرة ، وأما من طلب بها الآخرة فهى له متاع وبلاغ والغرور مصدر أو جمع غار وفى الحديث من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتى إلى الناس مايحب أن يؤتى إليه . ولما أخبر الله تعالى أن الدنيا زائلة سريعاً أخبر المؤمنين أنهم يلقون شدائد ليصبروا وينالوا الجنة مؤكداً لجواب القسم بالنون بقوله ﴿ لَتُبْلَوُنَّ ﴾ حذف منه نون الرفع والواو لام الفعل أو ضمير الجمع لالتقاء الساكنين وبقيت الضمة التى عليها أو قبلها لتدل عليها ولم تقلب ألفاً لأن حركتها عارضة : المعنى لتختبرن ﴿ فِي أَمْوَالِكُمْ ﴾ بالفرائض فيها والجوائح ﴿ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ بالعبادات كالجهاد وبالبلايا كالقتل والأسر والجراح والمخاوف والمصائب ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ اليهود والنصارى ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ من العرب ﴿ أَذًى كَثِيرًا ﴾ من السب والطعن فى الدين وإغراء الكفار عليكم أخبرهم الله بذلك عند قدومهم المدينة ليوطنوا أنفسهم على الصبر والاحتمال ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا ﴾ على ذلك ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ مخالفة أمر الله ﴿ فَإِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ الصبر والتقوى ﴿ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ أى من معزوماتها التى يعزم عليها لوجوبها أو من صواب التدبير الذى لا شك أن الرشد فيه أو مما عزم الله عليه ، أى أمر به وبالغ فيه ، والعزم فى الأصل : إثبات الرأى على الشىء نحو إمضائه وكان عليه السلام يتأول فى العفو ما أمره الله به حتى أذن الله له فيهم فكل من قام بحق ، أو أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر فلا بد أن يؤذى فما له دواء إلا الصبر فى الله والاستعانة به والرجوع إليه : قاله القسطلانى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ ﴾أى اذكر وقت أخذه﴿ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ يريد به العلماء ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ بالتاء فى الفعلين لنافع وابن عامر وحمزة وحفص ، وبالياء للباقين ، واللام جواب القسم الذى ناب عنه أخذ الميثاق والضمير للكتاب ﴿ فَنَبَذُوهُ ﴾ طرحوا الميثاق ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ فلم يعملوا به ﴿ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ متاعاً فانياً من الدنيا من سفلتهم برياستهم فى العلم فكتموه خوف فوانه عليهم ﴿ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ شراؤهم هذا ، قال فى غاية الأمانى :

والآية وإن نزلت فى أهل الكتاب فالحكم عام لقوله عليه السلام « من كتم علماً من أهله ألجمه الله بلجام من نار » . اه . وفى الجواهر أظهر الأقوال أن الآية نزلت فى اليهود ثم كل كاتم علماً من هذه الأمة يأخذ بحظه من هذه المذمة ، وفى مدارك التنزيل للنسفى : فى الآية دليل على أنه يجب على العلماء أن يبينوا الحق للناس وما علموه وأن لا يكتموا منه شيئاً لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة وتطييب لنفوسهم أو لجر منفعة أو دفع أذية . اه . ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا ﴾ فعلوا من إضلال الناس وكتمان الحق وترك الجهاد قرأ الجمهور «يحسبن» بالغيبة والكوفيون بالخطاب ﴿ وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ من رعى المصالح والوفاء بالميثاق وإظهار الحق ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ ﴾ تأكيد بالتاء للجمهور والياء لابن كثير وأبى عمرو مع ضم الموحدة هنا لكن ابن كثير وأبو عمرو يضمون الموحدة هنا ﴿ بِمَفَازَةٍ ﴾ بمكان ينجون فيه ﴿ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ فى الآخرة بل هم فى مكان يعذبون فيه وهو جهنم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم فيها ومفعولا تحسب الأولى دل عليهما مفعول الثانية على قراءة التحتانية وعلى الفوقانية حذف الثانى فقط ، والآية نزلت كما فى البخارى ومسلم فى قوم يتخلفون عن الغزو ثم يعتذرون بأنهم رأوا المصلحة فى التخلف ويستحمدون به ، وروى أنه عليه السلام سأل اليهود عن شيء مما فى التوراة فأخبروه بخلاف ما كان فيها وأروه أنهم قد صدقوا وفرحوا بما فعلوا فنزلت ، وهذا أيضاً فى البخارى عن ابن عباس ، وقيل نزلت فى المنافقين فإنهم يفرحون بمنافقتهم ، ويستحمدون إلى المؤمنين بالإيمان الذى لم يفعلوه على الحقيقة ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ بملك جميع مافيهما رد لقولهم إن الله فقير ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يقدر على تعذيب العاصى وإثابة المطيع ، وعيد ووعد ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ ﴾ من الارتفاع والاتساع وما فيها من الكواكب السيارة والثوابت وغيرها ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ من الانخفاض والكثافة والاتضاع وما فيها من البحار والجبال والأنهار والأشجار والنبات والحيوان والمعادن وغيرها ﴿ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ فى المجيء والذهاب والزيادة والنقصان ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ دلالات على صانع قديم عليم حكيم قدير ﴿ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ لذوى العقول الصافية من الجهل والوهم والهوى ، وتقدم تفصيل الاستدلال فى البقرة وأطنب هناك لأن الكلام مع عبدة الأصنام ، وأوجز هنا لأن الكلام مع الأحبار ولذلك فصل تلك بيعقلون وهذه بأولى الألباب تعريضاً للأحبار ، قال الفخر : واعلم أن المقصود من هذا الكتاب جذب القلوب والأرواح عن الاشتغال بالخلق والاستغراق فى معرفة الحق فكلما أطال الكلام فى تقرير الأحكام والجواب عن شبهات المبطلين عاد إلى إثارة القلوب بذكر ما يدل على التوحيد والكبرياء والجلال وذكر الأدعية ولذا ختم آل عمران بهذه الآيات بنحو ما فى سورة البقرة . اه . وفى الحديث كما فى البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من النوم قرأ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران وعنه عليه السلام « ويل لمن قرأها ولم يتفكر » ﴿ الَّذِينَ ﴾ نعت لما قبله أو بدل ﴿ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى

جُنُوبِهِمْ ﴾ مضطجعين أى يداومون على الذكر بألسنتهم وقلوبهم لأن الشخص لا يخلو من هذه الأحوال وقيل المراد يصلون على الهيئات الثلاث حسب طاقتهم لحديث عمران بن الحصين المروى فى البخارى والترمذى وغيرهما : « صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب » . قال مالك : « من قدر صلى قائماً بلا استناد فإن لم يقدر صلى معتمداً فإن لم يقدر صلى جالساً كذلك فإن لم يقدر صلى على جنبه الأيمن ثم الأيسر ثم على ظهره » . اه . ومن انتقل من هيئة إلى أخرى وهو قادر أعاد أبداً فإن لم يقدر على شىء نوى الصلاة بقلبه وفاقاً للشافعى وقيل تسقط عنه وفاقاً لأبى حنيفة وقيل مراد الآية القيام بأوامره والقعود عن زواجره والاجتناب عن مخالفته ذاكراً الله فى جميع ذلك ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ استدلالا واعتباراً وهو من أفضل العبادات ، قال عليه السلام : « لا عبادة كالتفكر » أى يتفكرون فيهما وما أبدع فيهما من عجائب المصنوعات ليدلهم على كمال قدرته . ودلائل التوحيد منحصرة فى الآفاق والأنفس ودلائل الآفاق أعظم . قال تعالى : لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس فإذا فكر الإنسان فى أصغر ورقة من الشجر وإن عرقاً واحداً يجد وسطه ممتداً يتشعب منه عروق كثيرة إلى الجانبين ثم يتشعب من كل عرق عروق دقيقة ولا يزال كذلك حتى لا يراه الحس فيعلم أن الخالق خلق فيها قوى جارية لنفاذها من قعر الأرض يتوزع فى كل جزء من أجزائها بتقدير العليم الحكيم فإذا تأمل ذلك علم عجزه عن الوقوف على كيفية خلقها وما فيها من العجائب فالفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية ، قال القشيرى : ثمرة التفكر الوصول إلى العلم ثم فكر الزاهدين فى فناء الدنيا وقلة وفائها لطلابها فيزدادون بالفكر زهداً وفكر العابدين فى جميل الثواب وعظيم العقاب فيزدادون نشاطاً رغبة ورهبة وفكر العارفين فى آلاء الله فيزدادون محبة لله . اه . يقولون ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا ﴾ الخلق الذى نراه من السموات والأرض وما فيهما ﴿ بَاطِلًا ﴾ حال عبثاً بل دليلا على كمال قدرتك وحكمتك ومن جملتها أن يكون مبدأ لوجود الإنسان وسبباً لمعاشه ودليلا يدله على معرفتك ويحثه على طاعتك لينال الحياة الأبدية فى جوارك ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ تنزيهاً لك عن العبث اعتراض ﴿ فَقِنَا ﴾ الفاء فصيحة تقتضى مقدراً يرتبط معها تقديره « ما خلقت هذا باطلا » بل للدلالة على معرفتك ومن عرفك أطاعك ونحن قد عرفناك وأطعناك فقنا ﴿ عَذَابَ النَّارِ ﴾ ودلت الفاء على أن علمهم بما لأجله خلقت السموات والأرض حملهم على الاستعاذة ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ ﴾ للخلود فيها ﴿ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾ أهنته غاية الإهانة ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ ﴾ الكافرين المخزيين فيه وضع الظاهر موضع المضمر إشعاراً بتخصيص الخزى بهم ودلالة على أن ظلمهم تسبب فى خزيهم ﴿ مِنْ ﴾ زائدة ﴿ أَنصَارٍ ﴾ يمنعونهم من عذاب الله ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى ﴾ الناس ﴿ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ أى إليه وهو محمد أو القرآن ، وفى إيقاع الفعل على المسمع وحذف المسموع لدلالة وصفه عليه مبالغة ليست فى إيقاعه على نفس المسموع ،

وفى تنكير المنادى وإطلاقه ثم تقييده تعظيم لشأنه وتفخيمه بـ ﴿ أَنْ ءامِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾ فامتثلنا ﴿ فَآمَنَّا ﴾ به ﴿ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ كبائرنا فإنها ذات تبعة ﴿ وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ﴾ صغائرنا فإنها قبيحة ولكن مكفرة باجتناب الكبائر ﴿ وَتَوَفَّنَا ﴾ اقبض أرواحنا ﴿ مَعَ ﴾ جملة ﴿ الْأَبْرَارِ ﴾ الأنبياء والصالحين أى مخصوصين بصحبتهم أو معدودين فى زمرتهم ، وفيه تنبيه على أنهم يحبون لقاء الله « ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » والأبرار جمع بَرّ أو بَارّ ﴿ رَبَّنَا وَءاتِنَا ﴾ أعطنا ﴿مَا وَعَدْتَنَا﴾ به ﴿عَلَى﴾ ألسنة ﴿ رُسُلِكَ ﴾ من الرحمة والفضل ، وسؤالهم ذلك وإن كان وعده تعالى لا يخلف : سؤال أن يجعلهم من مستحقيه لأنهم لم يتيقنوا استحقاقهم له وتكرير « ربنا » مبالغة فى التضرع . وعن جعفر الصادق من أحزنه أمر فقال خمس مرات « ربنا » فاستعاذ منه أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد ، وقرأ الآية ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ الموعد بالبعث والجزاء أو بإثابة المؤمن وإجابة الداعى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ دعاءهم وهو أخص من أجاب ويعدى بنفسه وباللام قاله البيضاوى . وفى غاية الأمانى : يقال : استجاب له وأجابه بمعنى ، مع ما فى السين من قوة المعنى ﴿ أَنِّى ﴾ أى بأنى ﴿ لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ ﴾ بنى الكلام فى الجواب على ما بنوا عليه من الإطناب غاية ولفظاً ﴿ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ﴾ بيان لعامل لأنه بمعنى شخص . روى الحاكم عن أم سلمة أنها قالت : يارسول الله لم أسمع الله يذكر النساء فى الهجرة فنزلت ﴿ بَعْضُكُمْ ﴾ كائن ﴿ مِنْ بَعْضٍ ﴾ فى الدين أو من أصل واحد الذكور من الإناث وبالعكس والجملة مؤكدة لما قبلها أى هم سواء فى المجازاة بالأعمال وترك تضييعها ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾ إلى آخره تفصيل لأعمال العمال وما أعد لهم من الثواب على سبيل المدح والتعظيم أى هاجروا الشرك والأوطان والعشائر للدين ﴿ وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ التى ولدوا فيها أو نشأوا فيها ﴿ وَأُوذُوا ﴾ بالشتم والضرب ونهب الأموال ﴿ فِى سَبِيلِى ﴾ بسبب دينى ، أى : إيمانهم بالله وطاعته ﴿وَقَاتَلُوا﴾ الكفار ﴿وَقُتِلُوا﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لابن كثير وابن عامر وفى قراءة لحمزة والكسائى تقديم المقصور على الممدود ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أسترها بالمغفرة ﴿ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا ﴾ مصدر من معنى « لأكفرن » مؤكد له ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ فيه التفات عن التكلم إلى الاسم الجامع دلالة على الألوهية التى من شأنها التفضل والعطاء ، أى : تفضلا من الله لا للأعمال ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ الجزاء تتميم لما تقدم وتوكيد له والإتيان بالمصدر مضافاً مبالغة . ولما قال بعض المسلمين : أعداء الله فيما نرى من الخير ونحن فى الجهد نزل ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ تصرفهم ﴿ فِى الْبِلَادِ ﴾ فى التجارة والكسب خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد أمته هو ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ فى جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة عما وعد المؤمنون . يتمتعون به فى الدنيا يسيراً ويفنى ، وفى البخارى : « إن آخر من يدخل الجنة له بقدر الدنيا عشر مرات » وفيه « ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يدخل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع » ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ

وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ الفراش هي ﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا﴾ هو ما يعد للضيف ونصبه على الحال من جنات والعامل فيها الظرف وقيل إنه مصدر مؤكد والتقدير أنزلوها نزلا ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ مما يتقلب فيه الفجار لقلته وسرعة زواله ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه وأربعين من نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا نصارى فأسلموا، وإنما دخلت اللام على الاسم للفصل بينه وبين إن بالظرف ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ أى القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من التوراة والإنجيل ﴿خَاشِعِينَ﴾ حال من ضمير يؤمن مراعى فيه معنى من أى متواضعين ﴿لِلَّهِ﴾ لكمال علمهم بكبريائه ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ التى عندهم فى التوراة من نعت النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ تعريض للمحرفين ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ثواب أعمالهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يؤتونه مرتين كما فى القصص ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لعلمه بالأعمال وما تستوجبه من الجزاء، واستغنائه عن التأمل، والمراد: أن الأجر الموعود سريع الوصول لأن سرعة الحساب يستدعى سرعة الجزاء فهو كناية عن قرب إنجاز ما وعد لأنه من لوازمه وعن كمال علمه على إحاطته بمقادير الأجور ومراتب الاستحقاق وفى الحديث «يحاسب الخلق فى قدر نصف نهار من أيام الدنيا» ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾ على الطاعات والمصائب وعن المعاصى ﴿وَصَابِرُوا﴾ غالبوا الكفار فى الصبر على الجهاد فلا يكونوا أشد صبراً منكم، وأنفسكم فى مخالفة الهوى، أفرده بالذكر لأنه أشق وأفضل ﴿وَرَابِطُوا﴾ أبدانكم وخيولكم فى الثغور مترصدين للغزو أو أنفسكم على الطاعة كما قال عليه السلام «من الرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة». روى البخارى عنه عليه السلام قال: «رباط يوم خير من الدنيا وما فيها» وروى مسلم عنه قال «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات أجرى عليه رزقه وعمله» وروى أبو داود عنه «كل ميت يختم على عمله إلا المرابط» وروى الترمذى «رباط يوم خير من ألف فيما سواه» قال فى غاية الأمانى: وفى ذكر الثلاثة إشارة إلى المراتب الثلاثة المعبر عنها بالشريعة والطريقة والحقيقة كأنه قال: اصبروا على مشاق الطاعة ومجاهدة النفس فى نقض المألوفات ومرابطة السر على جناب القدس لترصد الواردات. اهـ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى جميع أحوالكم بالمحافظة عليها ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تفوزون بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وفى مدارك التنزيل: «اصبروا فى محنى وصابروا فى نعمى ورابطوا أنفسكم فى خدمتى لعلكم تفلحون تظفرون بقربى». اهـ. رزقنا الله قربه ومجاورته فى دار رضوانه بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

[تم تفسير سورة آل عمران]

سورة النساء

مدنية مائة وخمس أو ست أو سبع وسبعون آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ • يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ خطاب يعم بنى آدم ﴿ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ أى عقابه بأن تطيعوه ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ آدم ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ حواء بالمد أمكم ﴿ وَبَثَّ ﴾ فرق ونشر ﴿ مِنْهُمَا ﴾ من آدم وحواء ﴿ رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ كثيرة بيان لكيفية تولدهم منهما ، روى أنها ولدت لآدم أربعين ولداً فى عشرين بطناً فى كل بطن ذكر وأنثى واكتفى بوصف الرجال بالكثرة عن وصف النساء بها إذ الحكمة تقتضى أن يكن أكثر وذكر الوصف حملا على الجمع ، وفى الآية تنبيه على الصانع ، وافتتاح وجود بنى آدم ، والحض على التواصل لحرمة النسب ، وترك التفاخر بالأنساب إذ ترجع إلى أصل واحد ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ رتب الأمر بالتقوى على هذه القصة لما فيها من الدلالة على القدرة القاهرة التى من حقها أن تخشى والنعمة الباهرة التى توجب طاعة ، وليها ﴿ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ ﴾ أى يسأل بعضكم بعضاً فيقول أسألك بالله وأصله تتساءلون فأدغمت التاء الثانية فى السين وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بطرحها ﴿ وَ ﴾ اتقوا ﴿ ٱلْأَرْحَامَ ﴾ أن تقطعوها ولحمزة بالجر عطفاً على الضمير فى « به » وكانوا يتناشدون بالرحم وهى القرابات واتفقت الأمة على أن صلة ذوى الأرحام واجبة وأن قطعها محرم : قاله ابن العربى فى الأحكام . قال البيضاوى : وقد نبه سبحانه إذ قرن الأرحام باسمه على أن صلتها بمكان منه وعنه عليه السلام « الرحم متعلقة بالعرش تقول : من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله » . اه . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ حافظاً لأعمالكم فيجازيكم بها أى لم يزل متصفاً بذلك . ولما كان رعْىُ أمر اليتامى والعدل فى نكاح النساء وفى المواريث والوصايا وما يتصل بذلك من صلة الأرحام أتبعه بها فقال : ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ ﴾ الصغار الأول لا أب لهم ﴿ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ إذا بلغوا وهى جمع يتيم من اليتم وهو الانفراد ومنه الدرة اليتيمة فالاشتقاق يقتضى وقوعه على الصغار والكبار لكن العرف خصه بمن لم يبلغ والمراد بهم فى الآية : إما البالغون اتساعا لقرب عهدهم بالصغر حثاً على أن يدفع إليهم أموالهم أول بلوغهم ، قبل أن يزول عنهم هذا الاسم إن أونس منهم الرشد ولذلك أمرنا بابتلائهم صغاراً أو المراد غير البالغين والحكم مقيد فكأنه قال : وآتوهم إذا بلغوا ، ويؤيد الأول ماروى أن رجلا من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم فلما بلغ طلب المال منه فمنعه فنزلت فلما سمعها العم قال : أطعنا الله ورسوله ونعوذ بالله من الحوب الكبير ﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ﴾ لا تتركوا الكسب الحلال وتأكلوا

أموال اليتيم أو لا تأخذوا الطيب من مال اليتيم وتعطوه الردىء مكانه كما تفعلون فى الجاهلية فتقولون : الدرهم بالدرهم والرأس بالرأس ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ ﴾ مضمومة ﴿إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ﴾ بغير ضرورة إذ يأتى « ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف » ﴿إِنَّهُ﴾ أى أكلها ﴿كَانَ حُوبًا﴾ ذنبا ﴿كَبِيرًا﴾ عظيما وقرئ حَوْباً بالفتح مصدر حاب أثم ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾ تعدلوا ﴿ فِى الْيَتَامَىٰ﴾ أى يتامى النساء إذا تزوجتم بهن ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ غيرهن : كانوا إذا كان عند الرجل يتيمة ذات مال وجمال يتزوجها ضنا بها ولا يعطيها صداق مثلها فنهوا أن ينكحوهن حتى يعدلوا أنهم يقسطون لهن فى الصداق وغيره : هذا سبب نزولها كما قال البخارى عن عائشة . وعن ابن عباس : كان الرجل فى الجاهلية يكثر النساء ولا يقدر على القيام بحقوقهن فلما نزلت الآية الأولى تحرجوا عن ولاية اليتامى فنزلت هذه فكأنه قيل لهم : فخافوا أيضاً ألا تعدلوا بين النساء فانكحوا إلى آخرها ، عبر عنهن « بما » ذهاباً إلى الصفة أى النوع الذى استطابته أنفسكم عام خصه قوله « حرمت عليكم أمهاتكم » أو ما حل لكم على أنه مجمل بُيِّنَ به ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ حال من فاعل طاب أى أبيح لكم نكاح الطيبات لكم مفصلات على هذه الأعداد وهى غير منصرفة للعدل والوصف أى من اثنين اثنين وثلاثاً ثلاثا وأربعاً أربعا ولا تزيدوا على ذلك واجتمعت الأمة على أنه لا يجوز لأحد أن يزيد على أربع نسوة وأن ذلك من خصائص النبى عليه السلام ويجوز للحر أن يجمع بين أربع نسوة وكذا للعبد عند مالك خلافاً لأكثر العلماء قالوا : إن العبد لا ينكح أكثر من امرأتين ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾ فيهن وبينهن فى النفقة والقسم ﴿فَوَاحِدَةً﴾ أى فانكحوا واحدة وذروا تلك الأعداد وقرئ بالرفع ، أى : فتكفيكم واحدة ﴿أَوْ﴾ اقتصروا على ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من السرارى من غير حصر إذ ليس لهن من الحقوق ما للزوجات فى القسم والوطء ﴿ذَٰلِكَ﴾ أى تقليلهن أو التسرى ﴿أَدْنَىٰ﴾ أقرب إلى ﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾ تميلوا أو تجوروا يقال عال الميزان إذا مال وعال الحاكم : جار أو المعنى لا تجاوزوا ما فرض الله عليكم ومنه عول الفرائض إذا جاوزت سهامها ، وقال الشافعى : أن لا تكثر عيالكم ويؤيده قراءة أن لا تعيلوا والمراد بالعيال الأزواج وإن أريد الأولاد فلجواز العزل فى التسرى فتقل الأولاد عادة ﴿وَآتُوا﴾ أعطوا ﴿ النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ﴾ جمع صدقة : مهورهن والخطاب للأزواج أو الأولياء الآكلين مهور بناتهم ﴿نِحْلَةً﴾ عطية عن طيب نفس بلا توقع عوض وهى أخص من الهبة ، سمى الصداق نحلة إذ لا يجب فى مقابلته غير التمتع دون عوض مالى يقال نحله كذا أعطاه إياه ومن فسرها بالفريضة فنظر إلى مفهوم الآية لا موضوع اللفظ ونصبها على المصدر لأنها فى معنى الإيتاء ، أو الحال من الواو أو الصدقات ، أى : آتوهن صدقاتهن ناحلين أو منحولة ، وقيل المعنى نحلة من الله ، وقيل ديانة من قولهم : انتحل فلان كذا إذا دان به على أنه معمول له أو حال من الصدقات : أى دينا من الله شرعه

﴿ فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ ﴾ من الصداق ﴿نَفْسًا﴾ تمييز محول عن الفاعل وضمير منه للصدقات حملا على المعنى لأنها بمعنى المال ومن لبيان الجنس لا للتبعيض إذ لو وهبته جميع صداقها جاز أى إن طابت أنفسهن لكم عن شيء من الصداق فوهبنه لكم غير مكرهات ﴿ فَكُلُوهُ ﴾ فخذوه ﴿ هَنِيئًا ﴾ طيباً لذيذاً ﴿ مَرِيئًا ﴾ سائغاً من غير غص محمود العاقبة لا ضرر فيه عليكم فى الآخرة ، نزل رداً على من كره ذلك ، وقيل هما بمعنى أقيما مقام مصدريهما أو وصف بهما المصدر أى أكلا هنيئاً مريئاً ، أو جعلتا حالا من ضميره وتقييد ذلك بطيب النفس يدل على ضيق المسلك ووجوب الاحتياط ولذا جعل بعضهم من التبعيض حثاً لها على عدم هبة الكل وإليه ذهب الليث فلم يجوّز التبرع إلا باليسير ، وروى عن مالك جوازه للثيب دون البكر والله أعلم ﴿ وَلَا تُؤْتُوا ﴾ أيها الأولياء ﴿ السُّفَهَاءَ ﴾ المبذرين من الرجال والنساء والصبيان ﴿ أَمْوَالَكُمُ ﴾ أى أموالهم التى فى أيديكم أضيفت إلى الأولياء لأنها فى تصرفهم وتحت ولايتهم وهذا يلائم الآيات المتقدمة والمتأخرة ، وقيل نهى لكل أحد أن يعمد إلى ما خوله الله من المال فيعطى امرأته وأولاده ثم ينظر إلى ما فى أيديهم وهو أوفق لقوله ﴿ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ بحذف الألف لنافع وابن عامر جمع قيمة ما تقوّم به الأشياء وبإثباتها للباقين مصدر قام أى يقوم بمعاشكم وصلاح أولادكم فيضيعوها فى غير وجهها ﴿ وَارْزُقُوهُمْ ﴾ أطعموهم ﴿ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ وفى الدر المنثور للسيوطى عن ابن عباس معنى الآية لا تعمد إلى مالك وما خولك الله وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك أو بنيك ثم تضطر إلى ما فى أيديهم ولكن أمسك مالك وأصلحه وكن أنت الذى تنفق عليهم فى كسوتهم ورزقهم ومؤنتهم ، وعن مجاهد : فى الآية نهى الرجال أن يعطوا النساء أموالهم وهن سفهاء كن أزواجا أو بنات أو أمهات وأمروا أن يرزقوهن فيه ويقولوا لهن قولا معروفاً ، وعن ابن جبير : هم اليتامى ، وعن أبى هريرة : هم الخدم . اهـ . وفى مدارك التنزيل للنسفى وكان السلف يقولون المال سلاح المؤمن ولأن أترك مالا يحاسبنى الله عليه خير من أن أحتاج إلى الناس ، وعن سفيان الثورى وكانت له بضاعة يقلبها : لولاها لتمندل بى بنو العباس . اهـ . ومعنى قولا معروفاً جميلا لأنه يؤثر فى القلب وهو كل كلام تأنس إليه النفوس ويقتضيه الشرع كأن يقول مالى مالكم أو يعدهم بإعطائهم إذا رشدوا ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ ﴾ اختبروهم قبل البلوغ فى ضبط المال وحسن التصرف فيه بأن يكل إليه مقدمات العقد ، وعند أبى حنيفة : بأن يدفع إليه ما يتصرف فيه ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ﴾ أى صاروا أهلا له بالاحتلام من الغلام والجارية واستكمال ثمانية عشرة سنة عند مالك وسبع عشرة للجارية وثمانى عشرة للغلام عند أبى حنيفة وخمسة عشر فيهما عند غيرهما وبالحيض والحمل للجارية ﴿ فَإِنْ آنَسْتُمْ ﴾ أبصرتم ﴿ مِنْهُمْ رُشْدًا ﴾ حفظا للمال عند مالك وأبى حنيفة أو مع صلاح فى الدين عند غيرهما ، ويروى عن مالك ﴿ فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ من غير تأخير عند البلوغ ، وإن : شرطية جواب إذا المتضمنة معنى الشرط ، والجملة غاية للابتلاء فكأنه قيل وابتلوا اليتامى

إلى وقت بلوغهم واستحقاقهم دفع أموالهم إليهم بشرط الرشد منهم فالبلوغ والرشد معتبران معاً عند الأئمة إلا أن أبا حنيفة قال : إذا زادت على سن البلوغ سبع سنين دفع إليه المال وإن لم يؤنس منه رشد لأنه مظنته . وخالفه باقي الأئمة ، والإيناس : الإبصار من غير شبهة استعير للتبين ونكر الرشد للاكتفاء بأدنى منه ، وحتى ابتدائية وفيها معنى الغاية والفاء دلت على وجوب الدفع بعد الإيناس من غير توقف ولذلك أمر بالابتلاء قبل البلوغ . قال ابن عطية : والبلوغ لم تسقه الآية سياق الشرط الذى هو الرشد ولكنه حاله الغالب على بنى آدم أن تتم عقولهم فيه فهو الوقت الذى لا يعتبر شرط الرشد إلا فيه فقال : إذا بلغ ذلك الوقت فلينظر إلى الشرط وهو الرشد وفصاحة الكلام تدل عليه لأن التوقيت بالبلوغ جاء بإذا التى لا يكون حرف شرط إلا فى ضرورة الشعر ، والرشد جاء بإن التى هى قاعدة حروف الشرط . اهـ . ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَا ﴾ أيها الأولياء ﴿ إِسْرَافًا ﴾ بغير حق حال أو مفعول له ﴿ وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ﴾ أى مسرفين ومبادرين كبرهم أو لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم يقال كبر كعلم فى السن وكحسن فى القدر والعظم وكذا فى القول ، ثم بين حال الأولياء وقسمهم قسمين فقال ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ عن أكل مال اليتيم ﴿ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ ﴾ منه ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ بقدر أجرة عمله غير متأثل به مالا ولا واق به ماله والمعنى إن كان قيم اليتيم غنياً فليقنع بما رزقه الله إشفاقاً عليه وطلباً لأجر الآخرة وإن كان فقيراً فليأكل بقدر القوت أجرة له ولفظ الاستعفاف والأكل بالمعروف مشعر بأن الولى له حق فى مال اليتيم لكن قيل فى مثل الركوب للدابة وشرب لبن المواشى وأكل ثمر النخل وخدمة الخادم لا كأخذ الدينار والدرهم إلا قرضاً والله أعلم ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ﴾ أنهم قبضوها دفعاً للتهمة والخصومة ووجوب الضمان وظاهره يدل على أن القيم لا يصدق فى دعواه الدفع إلا بالبينة وعليه مالك والشافعى وأحمد خلافاً لأبى حنيفة والأمر للندب والإرشاد ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ حافظاً أو محاسباً للمتجاوز عما حد له : حث على مراعاة مال اليتيم . ونزل رداً لما كان عليه الجاهلية من عدم توريث النساء والصغار ﴿ لِّلرِّجَالِ ﴾ الأولاد والأقرباء ﴿ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ﴾ المتوارثون بالقرابة ﴿ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ ﴾ أى المال ﴿ أَوْ كَثُرَ ﴾ بدل مما ترك بإعادة العامل ﴿ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ مقطوعاً بتسليمه إليهم نصب على أنه مصدر مؤكد أو حال ، إذ المعنى ثبت لهم مفروضاً نصيباً وفيه دليل على أن الوارث لو أعرض عن نصيبه لم يسقط حقه ، روى أن « أوس بن الصامت الأنصارى خلف زوجته أم كحة وثلاث بنات فحاز ابنا عمه سويد وعرفجة ميراثه على سنة الجاهلية فشكت ذلك إلى رسول الله فنزلت فبعث إليهما لا تفرقا من مال أوس شيئاً فإن الله قد جعل للنساء نصيباً حتى يبين فنزلت « يوصيكم الله » فأعطاها الثمن والبنات الثلثين والباقى لهما وهو دليل على جواز تأخير البيان عن الخطاب ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ ﴾ للتركات ﴿ أُولُو الْقُرْبَىٰ ﴾ ممن لا يرث ﴿ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم

منه) شيئاً قبل القسمة صدقة وتطييباً لقلوبهم وهو أمر ندب للبالغين من الورثة أو وجوب أول الإسلام ثم نسخ بآيات المواريث هذا مذهب جمهور الفقهاء الأئمة الأربعة وأصحابهم وعن ابن عباس محكمة ولكن تهاون الناس فيه . قال ابن العربي : لو وجب لكان استحقاقاً ومشاركة للورثة في التركة فتكون إحدى الجهتين مجهولة والأخرى معلومة وذلك مناقض للحكمة ولتنازعوا فيه منازعة تؤدى إلى القطيعة ، والمقصود بذلك الصلة . اهـ . والضمير في منه لما ترك أو للمقسوم الذي دل عليه القسمة (وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا) باستقلال ما أعطيتموهم والاعتذار إليهم إذا كان المال للصغار (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا) أى قاربوا أن يتركوا أو على ظاهره (مِنْ خَلْفِهِمْ) بعد موتهم (ذُرِّيَّةً ضِعَافًا) أولاداً صغاراً (خَافُوا عَلَيْهِمْ) الضياع : أمر للأوصياء بأن يخشوا الله في أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذريتهم الضعاف بعد وفاتهم ، أو للحاضرين المريض عند الإيصاء أن يشفقوا على أولاد المريض فلا يتركوه أن يضرّ بهم بصرف المال عنهم أو للورثة بالشفقة على من حضر القسمة من ضعفاء الأقارب واليتامى والمساكين متصورين أنهم لو كانوا أولادهم لاشفقوا عليهم ، فعلى أن الأمر للأوصياء فهو متصل بقوله «وابتلوا اليتامى» وعلى الوجهين بعده متصل بقوله « وإذا حضر القسمة » وعلى الوجوه الثلاثة معناه وليخش الذين شأنهم لو شارفوا الموت وكانت لهم صغارٌ لخافوا ضياعهم وودُّوا لهم كافلا محسناً فليكونوا مع صغار الغير على ذلك النمط (فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ) فيما تقدم ذكره أمرهم بالخشية أولا لأنها الباعثة على الامتثال وثانياً التقوى لأنها نهاية مقامات السالك مراعاة للبدأ والمنتهى ثم أمرهم أن يقولوا لليتامى مثل مايقولون لأولادهم بقوله (وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا) لليتامى يطيِّب قلوبهم كيابنى ، وتأدب بآداب الشرع وما يدل على محاسن الأخلاق ، أو للمريض بأن يتصدق بدون الثلث لأن الكلمة الطيبة صدقة (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى) من الأوصياء وغيرهم (ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ) ملئها (نَارًا) لأنه يجر إليها وفى الحديث «إن الله يبعثهم من قبورهم تأجج أفواههم ناراً » (وَسَيَصْلَوْنَ) بالبناء للفاعل الجمهور وللمفعول لابن عامر وابن عياش عن عاصم يدخلون (سَعِيرًا) ناراً شديدة يحرقون فيها من صلى النار قاسى حرها وصليته شويته وقرئ به مشدداً من صليته ألقيته فيها (يُوصِيكُمُ اللَّهُ) يأمركم ويعهد إليكم ويفرض لكم وعليكم (فِي) شأن ميراث (أَوْلَادِكُمْ) العدل فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث فأمر الله بالتسوية فى أصل الميراث ، وفضّل الذكر إذ عليه مؤونة النفقة والكلفة ، وبدأ بميراث الأولاد لأن تعلق القلب بهم أشد فأجمله ثم فصله بقوله (لِلذَّكَرِ) منهم حظ (مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ) إذا اجتمعتا معه فله نصف المال ولهما النصف فإن كان معه واحدة فلها الثلث وله الثلثان وإن انفرد حاز المال فإن كان معهم ذو سهم أخذه والباقى بينهم كذلك وهو عام فى الولد الأعلى والأسفل لكن الأعلى يحجب الأسفل فإن كان الأعلى ذكراً أسقط الأسفل أو أنثى أخذ الأسفل الباقى بعد حقها إن كان ذكراً

وإلا أعطيت العليا النصف والسفلى السدس تكملة الثلثين فإن كان الأعلى بنتين أخذتا الثلثين فلا ينال الأسفل الأنثى شيئاً إلا إن كان بإزائها ذكر أو أسفل منها فتأخذ معه ما بقى « للذكر مثل حظ الأنثيين » ﴿ فَإِنْ كُنَّ ﴾ أى الأولاد : أنث الضمير على تأويل المولودات أو لاعتبار الخبر وهو ﴿ نِسَاءً ﴾ خلصاً ليس معهن ذكر اثنتين أو ﴿ فَوْقَ اثْنَتَيْنِ ﴾ بالغة ما بلغت خبر ثان أو صفة نساء أى زائدات على اثنتين ﴿ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ المتوفى منكم ، دل عليه المعنى واجتمعت الأمة على أن الثلثين للاثنتين ، وما روى عن ابن عباس من أن لهما النصف لا يعتبر لأن الثلثين للأختين بقوله : فلهما الثلثان مما ترك فالبنتان أولى ولأن البنت تستحق الثلث مع الذكر فمع الأنثى أولى ، ولأن النبى صلى الله عليه وسلم قضى بالثلثين لابنتى « سعد ابن الربيع » قال فى لباب التأويل وهذا نص واضح فى المسألة ولأنه قضى فى بنت وبنت ابن وأخت بالسدس لبنت الابن والنصف للبنت تكملة الثلثين وما بقى للأخت فإذا كان للبنت مع بنت الابن الثلثان فأحرى مع أختها ، وفوق صلة لدفع توهم زيادة النصيب بزيادة العدد ﴿ وَإِنْ كَانَتْ ﴾ المولودة ﴿ وَاحِدَةً ﴾ بالنصب ، وقرأ نافع بالرفع فكان تامة ﴿ فَلَهَا النِّصْفُ ﴾ ومن هنا علم أن الذكر إذا انفرد له الكل إذ هو ضعف النصف ثم ثنى الله بميراث الوالدين بقوله ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ ﴾ أى الميت ﴿ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ ﴾ بدل بتكرير العامل للتنصيص على استحقاق « كل واحد منهما السدس » والتفصيل بعد الإجمال تأكيد ﴿ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ ذكر أو أنثى وألحق بالولد ولد الابن وبالأب الجد والأب يأخذ السدس مع الولد الذكر أو البنات بالفرض ومع البنت بالفرض ثم الباقى بالتعصيب ولفظ الولد عام فى الذكر والأنثى وولد الولد والأبوان لا يعم الأعلى من الآباء إذ لا عمومٌ فى التثنية ولقوله بعد : « فلأمه الثلث » والجدة لا ثلث لها بحال إجماعا ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ ﴾ فقط أو مع زوج ﴿ فَلِأُمِّهِ ﴾ بضم الهمزة للجمهور وبكسرها إتباعاً لحمزة والكسائى فى الموضعين ﴿ الثُّلُثُ ﴾ أى ثلث المال أو ما يبقى بعد الزوج والباقى للأب بالعصوبة ولما كان الوالدان يدليان بقرابة واحدة وهى الوالدية استويا مع وجود الولد ، وفضل الأب الأم مع عدمه بالذكورة والنصرة ووجوب المؤنة عليه ، وثبتت الأم على سهم لأجل القرابة : قاله ابن العربى فى الأحكام ﴿ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ ﴾ اثنان فصاعداً ذكور أو إناث ﴿ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ﴾ والباقى للأب ولا شىء للإخوة مع الأب . وإرث من ذكر مما ذكر ﴿ مِنْ بَعْدِ ﴾ تنفيذ ﴿ وَصِيَّةٍ يُوصِى ﴾ بالبناء للفاعل للجمهور والمفعول لابن كثير وابن عامر وأبى بكر إقامة للجار والمجرور مقام الفاعل فى قوله ﴿ بِهَا أَوْ ﴾ قضاء ﴿ دَيْنٍ ﴾ وأتى بأو دون الواو للدلالة على تساويهما فى الوجوب وتقديمهما على القسمة اجتمعا أو انفردا ، وقدمت الوصية على الدين وإن كانت مؤخرة عنه فى الوفاء اهتماماً بأدائها لأنها مظنة التفريط إذ لا قائم لها بخلاف الدين ﴿ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾ فى الدنيا والآخرة فظانٌّ أن ابنه أنفع له فيعطيه الميراث فيكون

الأب أنفع وبالعكس وإنما العالم بذلك الله ففرض لكم الميراث (فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ) مصدر مؤكد أو مصدر « يوصيكم الله » لأنه في معنى يفرض عليكم (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً) بالمصالح والمراتب (حَكِيماً) فيما قضى وقدر فاتبعوا ما حكم لكم ، وجملة آباؤكم إلى آخره معترضة بين ذكر الوارثين وأنصبائهم لتأكيد أمر القسمة وتنفيذ الوصية ، ثم ثلث بميراث الأزواج من الزوجات بقوله (وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ)من بطنهن أو من بنيهن أو بني بنيهن وإن سفل ذكراً كان أو أنثى منكم أو من غيركم (فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ) ثم ربع بميراث الزوجات من الأزواج بقوله (وَلَهُنَّ) أي الزوجات تعددن أم لا (الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ) لاحق بكم (فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ) منهن أو من غيرهن (فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ) وولد الابن كالولد في ذلك إجماعاً ، روعي شرف الزوج كما روعي شرف الذكر على الأنثى ، وترك ذكر الواحدة إشارة إلى عدم الفرق ، ولا يستوي الذكر والأنثى إلا في أولاد الأم والمعتق والمعتقة ، ثم خمس بميراث الإخوة والأخوات للأم بقوله (وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ) صفة رجل أي الميت والخبر (كَلَالَةً) أي قرابة غير ولادة أي لا والد له ولا ولد وهذا هو الصحيح أو لا ولد له لآية « قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد » ورد الاستدلال بأنها نزلت في جابر ولا ولد له ولا والد حينئذ من الكلال وهو الإعياء لكلالها عن القرابة المهمة كأنها أرادت أن تصل فكلت أو من تكلل بالشيء أحاط به لأنها في الجوانب إذ الإخوة الأعيان وأبناء الأعيان من أب وأم وأبناء الأخياف أمهم واحدة وآباؤهم شتى وأبناء العلات أبوهم واحد وأمهاتهم شتى والأخياف وأولاد العلات يحيطون بالميت كالإكليل يحيط بالرأس من جميع جوانبه وأعلاه وأسفله خاليان تطلق على الميت وعلى الوارث إطلاقاً للمصدر على العين أو بتقدير مضاف ، فالمعنى على الأول إن كان الميت يورث منه حال كونه كلالة ، وإن جعل يورث صفة فكلالة خبر كان كما قدرنا أولا ، وعلى الثاني ذا كلالة خبر كان أو حال ويجوز على الوجهين نصب كلالة على المفعول له (أَوِ امْرَأَةٌ) تورث كلالة (وَلَهُ) أي المورث كلالة (أَخٌ أَوْ أُخْتٌ) يعني من أم إجماعاً لأن حكم سواهم من الإخوة يأتي آخر السورة ولقراءة ابن مسعود به (فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ) مما ترك (فَإِنْ كَانُوا) أي الإخوة والأخوات من الأم (أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ) أي من واحد (فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ) يستوي فيه ذكرهم وأنثاهم لأنهم يرثون بقرابة الأم وهي لا ترث أكثر من الثلث ، ثم سدس آخر السورة بميراث الإخوة والأخوات للأبوين أو لأب ، ثم سبع آخر الأنفال بميراث أولي الأرحام العصبة وغيرهم في قوله « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ... الآية » وبينه عليه السلام بقوله : « ألحقوا الفرائض بأهلها فما أبقته فلأولى عصبة ذكر » ثم في زمان عمر بن الخطاب نزلت عارضة وهي ازدحام أرباب الفرائض عليها

مع زيادة فروضهم على مقدار المال مثاله : تركت زوجا وأما وأختاً فحكم بالعول وبين النبي عليه السلام أن الأخوات عصبة البنات إذا ترك بنتاً وأختاً فللبنت النصف وللأخت ما بقي بقضائه عليه السلام ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا ﴾ مالك حر مميز متصح من مميز عقل القرابة ، خلافا لأبي حنيفة ومن السفيه والكافر ، ويجب تنفيذ الوصية بقرابة واجبة كالزكاة والكفارات أو مندوبة كالصدقة والعتق ، واختلف في غيرها كبيع شيء وإن أوصى لوارث أو أكثر من الثلث إن أنفذه سائر الورثة نفذ وإلا فلا ، وإن أوصى بحرام كالنياحة حرم تنفيذه أو مكروه كره . والله أعلم . ﴿ أَوْ دَيْنٍ ﴾ كرر لئلا يتوهم اختصاصه بطائفة دون أخرى ﴿ غَيْرَ مُضَارٍّ ﴾ حال من ضمير يوصى أي غير مدخل الضرر على وارث أو غيره بأن يزيد على الثلث أو يقصد إضرار الورثة أو يقر بالدين لمن ليس له عليه ﴿ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ ﴾ مصدر مؤكد ليوصيكم أو منصوب بغير مضار على المفعول به ويؤيده أنه قرئ «غير مضار وصية» بالإضافة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالمضار وغيره ﴿ حَلِيمٌ ﴾ بتأخير العقوبة عمن خالفه . وخصت السنة في توريث من ذكر من ليس فيه مانع من قتل أو رق أو اختلاف دين أو الموت معاً أو جهل السبق ﴿ تِلْكَ ﴾ الأحكام المذكورة من أمر اليتامى وما بعده ﴿ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ شرائعه التي حدها لعباده ليعملوا بها ولا يتعدوها ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما حكم به ﴿ نُدْخِلْهُ ﴾ بالنون لنافع وابن عامر وفيه التفات وبالياء للباقين ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ حال مقدرة والجمع باعتبار معنى من ﴿وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي كل فوز دونه ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في شأن المواريث وغيرها ولم يرض بقسمة الله ورسوله ﴿ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ ﴾ باستحلالها ﴿ نُدْخِلْهُ ﴾ بالوجهين كما تقدم ﴿ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا ﴾ حال مقدرة كالأول والإفراد باعتبار لفظ من ﴿وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ذو إهانة لاستهانته بأحكام الله ، قال في لباب التأويل : فمن رد حكم الله ولم يرض بقسمته كفر بذلك فإذا كفر كان حكمه حكم الكفار في الخلود في النار إذا لم يتب قبل موته وإن مات وهو مصرّ على ذلك كان مخلداً في النار بكفره فلا دليل للمعتزلة بالآية على خلود العصاة في النار ﴿ وَاللَّٰتِي يَأْتِينَ الْفَٰحِشَةَ ﴾ الزنا ﴿ مِنْ نِسَائِكُمْ ﴾ أي المؤمنات ﴿ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ﴾ أي من رجال المسلمين العدول كما مر في البيع حملا للمطلق على المقيد بالدليل واشترط الاربعة في الزنا خاصة دون القتل وغيره تغليظاً على المدعى فيه وستراً من الله على عباده ولذا اشترط أيضاً رؤيتهم ذلك كالمرود في المكحلة ﴿فَإِنْ شَهِدُوا ﴾ عليهن بها ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ ﴾ وامنعوهن من مخالطة الناس واجعلوها سجناً عليهن ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ أي ملائكته أو يستوفي الموت أزواجهن ﴿ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ طريقاً إلى الخروج منها : أمروا بذلك أول الإسلام ثم جعل الله لهن سبيلا بجلد البكر مائة وتغريب الحر عاماً ورجم من أحصن ، وفي الحديث لما بين الحد قال : « خذوا عني خذوا عني ، قد جعل الله لهن سبيلا » رواه مسلم وأصحاب السنن عن « عبادة بن الصامت » ولا تغريب

فى المرأة خلافاً للشافعى وأحمد ولا فى العبد خلافاً للشافعى ولا يجمع بين الجلد والرجم خلافاً لأحمد وفى البيضاوى يحتمل أن يكون المراد التوصية بإمساكهن بعد أن يجلدن كيلا يجرى عليهن ما جرى بسبب الخروج ولم يذكر الحد استغناء بقوله « الزانية والزانى » اه . أى ويكون السبيل حينئذ النكاح المغنى عن السفاح ﴿وَاللَّذَانِ﴾ بتخفيف النون للجمهور وتشديدها لابن كثير ﴿يَأْتِيَانِهَا﴾ أى الفاحشة : الزنا أو اللواط ﴿مِنكُمْ﴾ من الرجال والنساء ففيه تغليب أو من الرجال فقط ﴿فَآذُوهُمَا﴾ بالسب والضرب بالنعال ﴿فَإِن تَابَا﴾ منها ﴿وَأَصْلَحَا﴾ العمل ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ ولا تؤذوهما لأن التوبة تجب ما قبلها ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا﴾ على من تاب ﴿رَّحِيمًا﴾ به علة للأمر بالإعراض ، وهذا منسوخ بالحد إن أريد بها الزنا وكذا إن أريد بها اللواط إذ يرجم فاعله والمفعول به فى مذهب مالك أحصنا أم لا ، حرين أو عبدين ، وقيل : العبد يجلد خمسين . وقال أبو حنيفة : كل منهما يعزر ولا حد عليه ، وقال الشافعى : يرجم الفاعل لا للمفعول به وإن كان محصنا بل يجلد ويغرب ، قال السيوطى فى التكملة : وإرادة اللواط أظهر بدليل تثنية الضمير . والأول قال : أراد الزانى والزانية ويرده تبيينهما بمن المتصلة بضمير الرجال واشتراكهما فى الأذى والتوبة والإعراض وهو مخصوص بالرجال لما تقدم فى النساء من الحبس . اه . قال البيضاوى : قيل هذه الآية سابقة على الأولى نزولا وكانت عقوبة الزناة الأذى ثم الحبس ثم الجلد وقيل الأولى فى المساحقات وهذه فى اللواطين ، والزانية والزانى فى الزناة ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ أى التى كتب على نفسه قبولها بفضله ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ﴾ الذنب عمداً أو خطأ حال كونهم ملتبسين ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ سفاهة باختيارهم اللذة الفانية على الباقية وقد أجمع أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم على أن كل شىء عصى الله به فهو جهالة عمداً كان أو غيره وكل عاص جاهل إذ لم يستعمل العلم أو المعنى جاهلين عقوبة الذنب أو فيهم شوب الجهل فإن من عرف عظمة الله لا يجترئ على معصيته وليس المراد بالجهالة الجهل بكونه معصية لأنه يقتضى عدم قبول توبة المتعمد وهو فاسد إجماعاً ، والتوبة مبتدأ على حذف مضاف ، أى : قبول التوبة و « على الله » خبره و « للذين » حال من الضمير فى الظرف أو هو الخبر و « على الله » حال من محذوف تقديره إذا كانت وكان تامة وصاحب الحال ضمير الفاعل . قاله الكواشى . و « إنما » حاصرة أى ليست التوبة إلا لهذا الصنف وتصح وإن نقضها فى ثانى حال ولو مع الإقامة على ذنب آخر غير نوعه خلافاً للمعتزلة فى قولهم لا يكون تائباً من أقام على ذنب ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن﴾ زمن ﴿قَرِيبٍ﴾ قبل أن يغرغروا إذ بين القرب فى الآية الثانية وفى الحديث المشهور « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » وعن ابن عباس : ما لم يشاهد ملك الموت . وفى لباب التأويل : الغرغرة أن يجعل المشروب فى فم المريض فيردده فى الحلق ولا يصل إليه ولا يقدر على بلعه وذلك عند بلوغ الروح إلى الحلقوم . اه . وقيل القرب قبل أن يشرب فى قلوبهم حبه فيطبع عليها فيتعذر عليهم الرجوع ومن للتبعيض أى يتوبون فى أى جزء من الزمان القريب ﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يقبل

توبتهم وعد بالوفاء بما وعد به وكتب على نفسه بقوله إنما التوبة على الله ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بخلقه بعلم إخلاصهم فى التوبة ﴿حَكِيمًا﴾ فى صنعه بهم لا يعاقب التائب بل يعفو ويصفح عنه ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ الذنوب ﴿ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ﴾ وأخذ فى النزع أى سوق الروح للخروج من الجسد ﴿ قَالَ ﴾ عند مشاهدة ما هو فيه ﴿ إِنِّى تُبْتُ الآنَ ﴾ فلا ينفعه ذلك ولا يقبل منه ﴿ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ إذا تابوا فى الآخرة عند معاينة العذاب لا تقبل منهم وقد سوى الله بين من سوف التوبة من الفسقة والكفار إلى حضور الموت وبين من مات على الكفر فى نفى التوبة البالغة فى عدم الاعتداد بها فى تلك الحالة ﴿ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ ﴾ هيأنا لهم من العتاد وهو العدة وقيل أصله أعددنا فأبدل الدال الأولى تاء ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ مؤلما تأكيد لعدم قبول توبتهم وبيان لعذاب أعده لهم وقال سعيد بن جبير : نزلت « إنما التوبة على الله » فى المؤمنين التائبين، وقوله « وليست التوبة » فى المنافقين والكفار . اهـ ورد باقتضائه أن تبقى حالة الفاسق المصر غير مبينة ، قال ابن عطية : والعقيدة فى هذه الآية أن من تاب من قريب لا يعذب ومن لم يتب حتى حضره الموت فإن كان كافراً يخلد فى النار وإن كان مؤمناً فهو فى مشيئة الله يغلب الخوف عليه ويقوى الظن فى تعذيبه مع القطع من جهة السمع أن من هذا الصنف من يغفر الله له تفضلا منه بلا تعذيب . وقال عبد الرحمن الثعالبى فى الجواهر الحسان : فى قوله « أولئك » إن كانت الإشارة إلى « الذين يموتون وهم كفار » فقط فالعذاب عذاب خلود مؤبد وإن كانت إليهم وإلى من ينفذ عليه الوعيد ممن لم يتب إلا مع حضور الموت فهو فى جهة هؤلاء عذاب لا خلود معه . اهـ . ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ ﴾ أى ذواتهن أو أموالهن ﴿ كَرْهًا﴾ بالفتح للجمهور والضم لحمزة والكسائى فى كل مواضعه لغتان أو بالفتح الإكراه والإجبار وبالضم المشقة ، أى مكرهات أو كارهات و « أن ترثوا » فى موضع رفع على الفاعلية والنساء مفعول به إما على حذف مضاف إن كان الخطاب للأزواج أى أن ترثوا أموال النساء : كان الرجل فى الجاهلية يمسك المرأة ولا غرض له فيها لكى تموت فيرثها أو تفتدى بمالها إن لم تمت أو بلا حذف إن كان الخطاب للأولياء وأقرباء الميت كانوا يرثون فى الجاهلية نساء أقربائهم أى ذواتهن فإن شاءوا تزوجها أحدهم بلا صداق أو زوجوها وأخذوا صداقها أو عضلوها حتى تفتدى بما ورثته أو تموت فيرثوها فنهوا عن ذلك ﴿ وَلَا ﴾ أن ﴿ تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ جزم بلا الناهية أو نصب عطف على أن ترثوا ولا لتأكيد النفى وفى الكلام حذف أى لا تمنعوهن من النكاح إن كان الخطاب للأولياء أو من الطلاق إن كان للأزواج وهو الأقوى أى بإمساكهن ولا رغبة لكم فيهن ضرراً ﴿ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ من المهر كان الرجل إذا لم يكن له حاجة من المرأة حبسها مع سوء العشرة لتفتدى منه بمال فنهوا عن ذلك ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾ بكسر الياء للجمهور وبفتحها لابن كثير وأبى بكر هنا وفى الأحزاب والطلاق ،

أى : هى بينة جلية أو بينت وهى الزنا والنشوز أو السلاطة وعدم التعفف وبغض الزوج فإذا فعلنها حل لكم أخذ مالهن بإضرار حتى يفتدين . قال ابن عطية : والزنا أصعب على الزوج من النشوز والأذى وكل فاحشة تحل أخذ المال . اه . فالاستثناء من أعم الأوقات أو أعم العلل أى لا تعضلوهن للافتداء فى كل وقت إلا وقت إتيان الفاحشة أو لا تفعلوا ذلك لكل علة إلا لعلة الفاحشة واللام فى «لتذهبوا» متعلق بتعضلوهن والباء للتعدية أو للمصاحبة والجار فى محل نصب على الحال متعلق بمحذوف أى لتقدير محذوف أى به ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالإنصاف ، فى الفعل : المبيت والنفقة ، وفى القول : بالإجمال ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ لدمامتهن من غير فاحشة ولا نشوز فاصبروا عن الأذاية وقلة الإنصاف ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ فى أنفسكم ﴿وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ بأن يرزق منها أولاداً صالحين أو يبدل البغضاء محبة فقد تكره النفس ما هو أصلح ديناً وأكثر خيراً وقد تحب ما هو بخلافه وليكن نظركم إلى ما هو أصلح للدين وأدنى للخير ، وفى الحديث « تنكح المرأة لجمالها ومالها ودينها فعليك بذات الدين تربت يداك» وأيضاً فى الصبر عليها رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ، و«عسى» فى الأصل للجزاء فأقيم مقامه والمعنى فإن كرهتموهن فاصبروا فعسى ... كما قدمنا ، وقيل فى معنى الآية : فإن كرهتموهن وفارقتموهن فربما جعل الله فى ذلك الفراق خيراً كثيرا بأن تخلص من الزوج الكاره لها وتتزوج خيراً منه ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ﴾ تطليق زوج وتزوج أخرى ﴿وَ﴾ قد ﴿آتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ﴾ أى الزوجات ﴿قِنْطَارًا﴾ مالا كثيراً صداقاً فيه جواز تكثير الصداق ولكن المندوب تقليله لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقلله ويقول : « خير النكاح أيسره » ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ﴾ من القنطار ﴿شَيْئًا﴾ قل أو كثر ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا﴾ أى ظلماً ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ بيناً ونصبها على الحال أو المفعول له والاستفهام للتوبيخ أى أتأخذونه مباهتين آثمين فلا تفعلوا مثل هذا الفعل مع ظهور قبحه فى الشرع والعقل ، والبهتان فى الأصل الكذب الذى يبهت به المكذوب عليه ويتحير فيه فاتسع فيه واستعمل فى كل باطل ولذا فسر هنا بالظلم ، وكان الرجل إذا كره امرأته رماها ببهتان من الفاحشة حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوج الجديدة فنهوا عن ذلك ، والكلام فى «وآتيتم» خرج مخرج الغالب لحرمة الأخذ وإن لم يؤتها المسمى بل كان فى ذمته أو يده ، أو المراد بالإيتاء التزامه كما فى قوله تعالى : «إذا سلمتم ما آتيتم» والجمع بينه وبين الإثم مبالغة والعطف باعتبار الصفات ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾ أى بأى وجه ، والاستفهام للإنكار ومحل «كيف» نصب حال إذ حكم «كيف» فى الإعراب حكم جوابها فالظرف به كان مقدراً فيها ، والجواب هنا منصوب حالا أى جائرين كما لو قيل لك كيف أخذت مال زيد فالجواب أخذته ظالماً أو عادلا ، قاله الكواشى ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ﴾ وصل ﴿إِلَى بَعْضٍ﴾ بالجماع المقرر للمهر وبسائر أنواع الامتزاج والاختلاط ، وأصل الإفضاء الوصول إلى الشىء بسعة من الفضاء : الموضع الواسع والخالى .

وفيه دليل على وجوب المهر بالخلوة الصحيحة خلافاً للشافعي في تخصيصه بالجماع فقط ﴿ وَأَخَذْنَ مِنْكُم مِيثَاقًا ﴾ عهداً ﴿ غَلِيظًا ﴾ شديداً وهو ما أمر الله به من إمساكهن بمعروف أو تسريحهن بإحسان . قال عليه السلام : « استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان في أيديكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله » قلت : عوان في الحديث جمع عانية أي أسارى ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ ﴾ ما موصولة بمعنى من أو مصدرية على إرادة المفعول من المصدر ﴿ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ بيان «ما نكح» على الوجهين ولو بالعقد فقط ولو فاسداً لم يتفق على فساده ، والنكاح الوطء فيشمل السراري أو العقد فتقاس السرية على المنكوحة ﴿ إِلَّا ﴾ لكن ﴿ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ من فعلكم ذلك فإنه معفو عنه استثناء منقطع أو متصل من المعنى اللازم للنهي فكأنه قيل تستحقون العقاب به إلا ما قد سلف ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي نكاحهن ﴿ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ شرعاً لم يرخصه الله لأمة من الأمم ﴿ وَمَقْتًا ﴾ عرفاً أي ممقوتاً عند ذوي المروآت وكانوا يسمونه نكاح المقت قبل النهي ﴿ وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ ذلك في المتعارف ومجرى العادات لأن زوجة الأب بمنزلة الأم فنكاحها من أقبح المعاصي ، وقيل نهي أن يطأ الرجل امرأة وطئها أبوه إلا ما قد سلف في الجاهلية من الزنا بالنساء لا على وجه النكاح فلا يحرم لأن الزنا فاحشة ومقت . و « ساء » كبئس في المبالغة في الذم ثم أشار إلى النساء المحرمات وهن إحدى وعشرون بقوله ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ أن تنكحوهن وشملت الجدات من قبل الأب والأم لأن الجدة أم ﴿ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ وشملت بنات الاولاد وإن سفلن ﴿ وَأَخَوَاتُكُمْ ﴾ من جهة الأب والأم ﴿ وَعَمَّاتُكُمْ ﴾ أخوات آبائكم وأجدادكم ﴿ وَخَالَاتُكُمْ ﴾ أخوات أمهاتكم وجداتكم ﴿ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ ﴾ ويدخل فيهن بنات أولادهن ﴿ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ ﴾ قبل استكمال الحولين ولو مصة عند مالك وأبي حنيفة وأحمد في أحد قوليه بخلاف الشافعي في اشتراط خمس رضعات متفرقات ﴿ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ ﴾ ويلحق بذلك بالسنة البنات من الرضاعة وهن من أرضعتهن موطوءته والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت منها لحديث « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » رواه البخاري ومسلم : فنص الله الأم والأخت ليدل بذلك على جميع الأصول والفروع وهؤلاء أربع عشرة : سبع من النسب وسبع من الرضاع ثم أشار إلى سبع أخر للصهر وغيره فقال ﴿ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ ﴾ جمع ربيبة وهي بنت الزوجة من غيره ولأنه يربها كما يرب ولده غالباً . فعيل بمعنى مفعول لحقه التاء لأنه صار اسماً ﴿ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ ﴾ صفة موافقة للغالب فلا مفهوم لها ﴿ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ﴾ أي جامعتموهن فيحرم على الرجل بنات امرأته وبنات أولادها وإن سفلن من النسب والرضاع بعد الدخول بالزوجة ومن ابتدائية متعلق بالربائب حال منه ﴿ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ في نكاح بناتهن إذا فارقتموهن أو متن قبل الدخول صرح به دفعاً للإلباس وليخالف حكم أمهات نسائكم فيحرمن بالعقد على بناتهن دخل بهن أم لا ولا يجوز أن يكون الموصول

الثانى صفة للنساء يْن لأن عاملهما مختلف وفائدة قوله فى حجوركم تقوية العلة وتكيلها لا تقييد الحرمة ، والدخول كناية عن الوطء فتحرم به اتفاقاً وبمقدماته من المباشرة والقبلة خلافاً الزنى وكذا بالنظر إلى باطن الجسد بشهوة على المشهور من مذهب مالك ويعتبر فى النكاح الحلال أو الذى فيه شبهة أو اختلف فيه فإن كان زناً محضاً لم تقع به حرمة المصاهرة ويحرم بالوطء بملك اليمين والتلذذ به ما يحرم بالوطء بالنكاح ، فن وطئ أو تلذذ بأمته حرمت على آبائه وأبنائه ، ويحرم من المملوكات بالنسب والرضاع والصهر ما يحرم من الحرائر بذلك كما بين بقوله ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمْ﴾ زوجاتهم سميت الزوجة حليلة لحلها أو لحلولها مع الزوج ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ احتراز عن المتبنين لا عن أبناء الولد ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ من نسب أو رضاع فى موضع رفع عطف على المحرمات بالنكاح أو بملك اليمين ويلحق بالأختين بالسنة الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها ويجوز نكاح كل واحدة على الانفراد وملكهما معاً ويطأ واحدة ﴿إِلَّا﴾ لكن ﴿مَا قَدْ سَلَفَ﴾ فى الجاهلية فمعفو عنه : استثناء منقطع أو متصل من لازم المعنى كما مر ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً﴾ لما سلف منكم قبل النهى ﴿رَحِيماً﴾ بكم فى ذلك ﴿وَ﴾ حرمت عليكم ﴿الْمُحْصَنَاتُ﴾ أى ذوات الأزواج ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ أن تنكحوهن قبل مفارقة أزواجهن حرائر مسلمات كن أو لا ، وقرأ الكسائى فى جميع القرآن غير هذا الحرف بكسر الصاد ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من الإماء بالسبى فلكم وطؤهن وإن كان لهن أزواج فى دار الحرب بعد الاستبراء لأن النكاح ارتفع بالسبى وقيده أبوحنيفة بما لم يسب معها زوجها ﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾ مصدر مؤكد أى كتب الله تحريم هؤلاء ﴿عَلَيْكُمْ﴾ كتاباً ، وقرئ كتب الله بالجمع والرفع أى هذه فرائض الله عليكم وكتب الله بلفظ الفعل ، لجميع هؤلاء مؤبدات التحريم إلا المحصنات وعنوعة الجمع وكذا الملاعنة فى المؤبدات والمنكوحة فى العدة خلافاً للشافعى والحنفى ، والمحرمات غير المؤبدات الكافرة غير الكتابية والخامسة والمعتدة والمبتوتة والأمة لواجد الطول والمحرمة للحج والمريضة واليتيمة بشروطها ﴿وَأُحِلَّ﴾ بالبناء للفاعل للجمهور ، والمفعول لحفص وحمزة والكسائى ﴿لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ أى سوى ما حرم عليكم من النساء بـ ﴿أَنْ تَبْتَغُوا﴾ تطلبوا النساء مفعول له أو بدل اشتمال من « ما وراء ذلكم » ﴿بِأَمْوَالِكُمْ﴾ بصداق أو ثمن ، وهذا دليل على وجوب الصداق ولا بد من كونه بما يسمى مالا شرعاً ، ولم يقع فيه فى أقل من ربع دينار ، ولذا حد المالكية أقل الصداق به ، وقال الحنفية : أقله عشرة دراهم ، وأجازه الشافعى وأحمد بكل قليل وكثير بعموم إطلاق الأموال ، وبحديث « التمس ولو خاتماً من حديد » ورد بأنه قد يتزين من الحديد بما قيمته أكثر من ربع دينار . ﴿مُحْصِنِينَ﴾ أى حال كونكم متزوجين أو متعففين بذلك ، والإحصان ـ لغة ـ المنع ، ويكون بالعفة كما فى قوله « والذين يرمون المحصنات » والحرية « فعليهن نصف ما على المحصنات » والإسلام « فإذا أحصن » والزواج كما فى المحصنات وما هنا ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ زانين ، من السفح : وهو صب المنى .

لأنه الغرض من الزنى ، بخلاف النكاح فغرضه الولد ونحوه ، وذكره بعد الإحصان لتعيين معناه المجمل ﴿ فَمَا ﴾ أى فمن ﴿ ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ ﴾ ممن تزوجتم بالوطء فالضمير لـ « ما وراء ذلكم » و « من » ابتدائية : أى فالذى تمتعتم به بجماع وخلوة ﴿ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ مهورهن : خبر الموصول ، والضمير فى « به » راجع إلى لفظ « ما » وفى « فآتوهن » إلى معناه ، وفى « منهن » إلى « ما وراء ذلكم » و « من » للبيان أو للتبعيض ، وسمى المهر أجراً لأنه كعوض عن البضع ويدل على أن الصداق إن لم يسمّ فى العقد وجب فى الدخول ﴿ فَرِيضَةً ﴾ حال من الأجور بمعنى مفروضة أو صفة مصدر محذوف أى إيتاء مفروضاً أو مصدر مؤكد أى التى فرضتم لهن فريضة ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم ﴾ أنتم وهن ﴿ بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ﴾ من حطها أو بعضها أو زيادة عليها أو تأخير أجلها ، وقيل : نزلت فى المتعة التى كانت ثلاثة أيام حين فتحت مكة ثم نسخت ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا ﴾ بالمصالح ﴿ حَكِيمًا ﴾ فيما شرع من الأحكام ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا ﴾ غِنًى وأصله الفضل والزيادة ، يقال : طال طولا بالفتح تفضل واتسع وطُولا بالضم : ضد قَصُر ﴿ أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾ الحرائر المؤمنات ، أى لم يكن عنده صداق حرة ولا يصبر عن النكاح ولا مفهوم المؤمنات لأنه جرى على الغالب وأن متعلق بطولا بتقدير على بدل منه محله نصب ، أو متعلق بمقدر أى طولا يبلغ به نكاح المحصنات ﴿ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم ﴾ الإماء ينكح ﴿ مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ لا الكافرات أو الكتابيات خلافاً لأبى حنيفة ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾ فاكتفوا بظاهره فيهن وغيرهن وكلوا السرائر إليه فإنه العالم بتفاضلها ورب أمة تفضل الحرة : فيه ترغيب فى نكاح الصالحات من الإماء وأن الأولى النظر إلى الدين لا الحرية ، ومنع لمن عدم الطول وخشى العنت عن الاستنكاف عن نكاح الإماء ، وردٌ للعرب فى تهجين ولد الأمة إذ غفلت أن أباها إسماعيل ابن أمة ولو كانت على بصيرة ما فعلت ﴿ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ أى أنتم وهن سواء فى الدين وأنتم جميعاً أولاد آدم فلا فخر إلا بالإيمان والتقوى فلا تستنكفوا عن نكاحهن ﴿ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾ مواليهن ، عبر بالأهل لأن مولى القوم منهم ولا يجوز بغير إذنهم فإن وقع فنكاح العبد يجوز بإجازة السيد بخلاف الأمة إذ لا ينعقد ﴿ وَءَاتُوهُنَّ ﴾ أعطوهن ﴿ أُجُورَهُنَّ ﴾ مهورهن ، فيه دليل على وجوب المهر على العبد للأمة ثم يكون للسيد إن أراد . وقال الشافعى : لا يكون لها بل للسيد لأنه عوض منفعة كالإجارة قلنا : هذا العقد لها لا له فعوضه لها بخلاف منافع الرقبة بالمعروف شرعاً من غير مطال ولا نقص ولا إضرار ﴿ مُحْصَنَٰتٍ ﴾ عفائف : حال من المفعول ﴿ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ ﴾ زانيات جهراً ﴿ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾ أخلاء يزنون بهن سرًّا . والزوانى فى الجاهلية قسمان : المسافحات المبتذلات اللواتى هن سوق الزنا ، ومتخذات الأخدان : هن المستترات اللواتى يصحبن واحداً واحداً يزنين خفية وكانوا يتنزهون عن المسافحات دون المتخذات ، فنهى الله عن الجميع كما يأتى إن شاء الله فى سورة النور ﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ ﴾

بالبناء للمفعول للجمهور أى زُوِّجن ، ولحمزة والكسائى وعاصم فى غير رواية حفص بالبناء للفاعل : تزوجن ﴿ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ ﴾ زنا ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ ﴾ الحرائر الأبكار إذا زنين ﴿ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ الحد فيجلدْن خمسين ولا يُغرّبن ، خلافاً للشافعى ، ويقاس عليهن العبيد ، والسيد هو الذى يقيم الحد على رقيقه لا الإمام ، خلافاً لأبى حنيفة ولم يجعل الإحصان شرطاً لوجوب الحد بل لإفادة أنه لا رجم عليهن أصلا ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى نكاح الإماء عند عدم الطّول ﴿ لِمَنْ خَشِيَ ﴾ خاف ﴿ الْعَنَتَ ﴾ الزنا وأصله المشقة ، سُمّىَ به الزنا لأنه سببها بالحد فى الدنيا والعقوبة فى الآخرة ﴿ مِنْكُمْ ﴾ وهذا شرط ثان لنكاح الحرّ الإماء بخلاف من لا يخافه من الأحرار فلا يحل له نكاحها ، وكذا من استطاع طَول حرّة ، وعليه الشافعى ، واختلف قول مالك فيه : فروى ابن القاسم عنه : إذا تزوج أمة على حرّة رُدّ نكاحه . وروى غيره عنه : إذا خشى العنت مع الحرّة ولم يقدر على صداق أخرى جاز إلى أن ينتهى إلى الأربع ولا خيار للحرة ، وقيل : لها الخيار ، والآية عند مالك والشافعى سيقت مساق الرخص فلا يسترسل فيها . وجوّز أبوحنيفة نكاح الأمة مطلقاً ، ولا يحل نكاح الإماء الكافرات وإن عدم وخاف ﴿ وَأَنْ تَصْبِرُوا ﴾ عن نكاح الإماء متعففين ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ لئلا يصير الولد رقيقاً ؛ ولقوله عليه السلام : « الحرائر صلاح البيت والإماء هلاكه » ولأنها خرّاجة ولاّجة ممتهنة مبتذلة وذلك كله نقصان ومهانة ولهذا كان مكروهاً . وفى أبيات الشافعى :

إِذَا لَمْ تَكُنْ فِي مَنْزِلِ الْمَرْءِ حُرَّةٌ • تُدَبِّرُهُ ضَاعَتْ مَصَالِحُ دَارِهِ

﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ ﴾ لمن لا يصبر ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بالتوسعة فى ذلك ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ شرائع دينكم ومصالح أموركم ومحاسن أعمالكم ، ليبين مفعول يريد واللام زائدة لتأكيد معنى الاستقبال اللازم للإرادة . وقيل المفعول محذوف وليبين مفعول له أى يريد الحق لأجله ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ﴾ طرق أى شرائع ﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ من الأنبياء وأهل الرشد لتسلكوا طرقهم ﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ يرجع بكم عن معصيته التى كنتم عليها إلى طاعته ويغفر لكم ذنوبكم ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بمصالحكم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما دبره وشرع لكم ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ ﴾ أى يحب ﴿ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ كرره للتأكيد وليبنى عليه ﴿ وَيُرِيدُ ﴾ الفجرة ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ ﴾ من الزناة واليهود والنصارى والمجوس الذين يحلون الأخوات من الأب وبنات الأخ والأخت ﴿ أَنْ تَمِيلُوا ﴾ عن الحق ﴿ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ موصلا إلى الكفر بموافقتهم على استحلال الشهوات المحرّمة ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ﴾ أحكام الشرع بالرخص عند الضرورات كنكاح الإماء والقصرى وعموم الجواز فى نكاح الحرائر مع أنهن حبائل الشيطان ليس على الإنسان أشق منهن فى دينه . وعن سعيد ابن المسيب : ما أيس شيطان من ابن آدم إلا أتاه من قِبل النساء ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ لا يصبر عن الشهوات ولا يتحمل مشاق الطاعات ، إشارة إلى علة التوسعة وأنها مقتضى الحكمة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

امَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ بالحرام فى الشرع كالربا والقمار والنصب والسرقة : أى لا تنتفعوا ، خص الأكل لأنه أهم المنافع وأكثرها ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ ﴾ تقع ﴿ تِجَارَةً ﴾ معاوضة ، استثناء منقطع لأن التجارة ليست من الباطل فى شىء ، أى لكن وقوع التجارة ﴿ عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾ غير منهىٍّ عنه ، « كان » تامة . وقرأ الكوفيون بالنصب أى إلا أن تكون الأموال أموال تجارة صادرة عن تراض منكم بالشراء عن طيب نفس ، وهذا نص على إبطال بيع المكره لفوات الرضى منه وحل جميع أفعاله عليه ، وفى القوانين : إذا أكره الرجل على غرم فى مال لغير حق فباع فيه شيئاً من ماله لم يجز البيع وأخذ البائع ما باعه من المشترى دون ثمن ورجع المشترى بالثمن على الذى أكره البائع سواء دفع الثمن إلى المكرَه أو إلى المكرِه ، وإذا أكره المشترى البائع على البيع فهو كالغاصب فى جميع أحكامه . اهـ .
و « عن تراض » صفة « تجارة » أى ما يدل على رضا المتبايعين بما تعاقدا عليه وقت الإيجاب والقبول خلافاً للشافعى فى تقييد الرضا بافتراقهما عن مجلس البيع والمشهور عند المالكية أن الفعل يدل على الرضى كالمعاطاة مطلقاً خلافاً لغيرهم مطلقاً ولبعض المالكية فى تخصيصه بالمحقرات ، وخص التجارة بالذكر لأنها أغلب أسباب المكاسب ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ بارتكاب ما يؤدى إلى هلاكها أيًّا كان فى الدنيا أو فى الآخرة ، ووصيته إياكم بحفظ المال والنفس رحمة منه لكم كما أشار إليه بقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ حيث بين لكم الأحكام وشرعها على وجه السهولة ولم يكلفكم ما لا تطيقون ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ﴾ الذى نهى عنه من قتل النفس أو أكل المال بالباطل وقتل النفس ، أو ما نهى من أول السورة أو من قوله « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً » لأن ما قبله قرن وعيده . قال ابن العربى فى أحكامه : والقول الأول أصح وما عداه محتمل . اهـ . ﴿ عُدْوَانًا ﴾ تجاوزاً عن الحق ﴿ وَظُلْمًا ﴾ بإتيان ما لا يستحقه أو العدوان التعدى على الغير ، والظلم ظلم النفس بتعريضها للعقاب ، وهما مصدران فى موضع الحال . قال أبو البقاء : نصباً على الحال أو على المفعول من أجله ﴿ فَسَوْفَ نُصْلِيهِ ﴾ ندخله ﴿ نَارًا ﴾ عظيمة ، يقال : أصليته النار ، إذا أدخلته للاحتراق محمول على من استحلّ أو مات من غير توبة إن لم يغفر له لقوله « ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ لا عسر فيه ولا صارف عنه لاستواء الممكنات فى قدرته من غير مزاحم ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ على لسان الرسل ، وهى ما ورد عليها وعيدٌ أو حدٌّ كالقتل والزنا والسرقة . وعن ابن عباس : هى إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع التى عدها النبى صلى الله عليه وسلم وهى : الشرك بالله ، وقتل النفس التى حرم الله ، وقذف المحصنة ، وأكل مال اليتيم ، والربا ، والفرار من الزحف ، وعقوق الوالدين . وقيل : صِغَر الذنوب وكِبَرها بالإضافة إلى ما فوقها وما تحتها : فأكبرها الشرك وأصغرها حديث النفس ، وبينهما وسائط يصدق عليها الأمران وقرئ « كبير » على إرادة الجنس ﴿ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ الصغائر بالطاعات قطعاً عند جماعة من

الفقهاء والمحدثين، وظنا قويا عند الأصوليين، وصحح القرطبي الأول لوعد الله الصدق، وأما الكبائر فلا يكفرها إلا التوبة، لحديث مسلم « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » ﴿وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا﴾ بفتح الميم لنافع وضمها لغيره إدخالا أو موضعه ﴿كَرِيمًا﴾ شريفاً هو دار السلام من كل مكروه. ولما أمر الله باجتناب الذنوب بيّن كيفية الخروج منها بالحث على مكارم الأخلاق فقال ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ من الأمور الدنيوية كالجاه والمال فلعل عدمه خيرٌ له، ومنع التمني لأنه يؤدي إلى التحاسد والتباغض وعدم الرضا بما قسم له، وكذا في الأمور الدينية كتمني النساء الجهاد ونحوه، لئلا يؤدي إلى عدم الرضا بما قسم له، وهذا إذا لم يقصد المرء به التقرب إلى الله لحديث البخاري « لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله علماً فهو يقضي به ويعلمه الناس ». اهـ.

والتمني: إرادة شيء مستقبل ممكناً أو محالا مع الحرص من تمنى: قرأ، إذ المتمني يناجي نفسه بالتمني ويقابله التلهف في الماضي. قال ابن عطية: التمني في الدنيا تحكمٌ على الشريعة وتطرق إلى دفع حكم الله تعالى، وأما التمني في الأعمال الصالحة فذلك هو الحسن. قال عليه السلام: « وددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا... الحديث » ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ ثواب ﴿مِّمَّا اكْتَسَبُوا﴾ بسبب ما عملوا مما خصهم من الجهاد وغيره ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ من طاعة أزواجهن وحفظ فروجهن، فاطلب الفضل بالعمل لا بالتمني والحسد، وهو بيان لما تقدم. المعنى: لا تتمنوا في أمر خلاف ما حكم الله به لاختيار ترونه أنتم، فإن الله قد جعل لكل أحد نصيباً من الفضل والأجر بحسب اكتسابه فيما شرع له.

روى الإمام أحمد عن أم سلمة أنها قالت: يا رسول الله، يغزو الرجال ولا نغزو ولنا نصف ما لهم من الميراث، فنزلت. وفيه حضٌّ على العمل وكسب الخير ﴿وَاسْأَلُوا﴾ بهمزة للجمهور وبدونها لابن كثير والكسائي ﴿اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ الديني والدنيوي يعطكم وذروا تمني ما لغيركم. وفي الترمذي عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يُسأل ». وقال القشيري عن شيخه أبي علي: من علامات المعرفة أن لا تسأل حوائجك قلت أو كثرت إلا من الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ يعلم من يستحق القبض والبسط فيفضل عن علم وبيان ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الرجال والنساء ﴿جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ ورثة يعطون ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ لهم من المال أو التقدير: لكل مال تركه هؤلاء جعلنا وراثاً يحوزونه «وما ترك» بيان «كل» مع الفصل بالعامل أو لكل ميت جعلنا وراثاً مما ترك على أن «من» صلة «موالي» لأنه في معنى الوراث. وفي «ترك» ضمير كل، والوالدان والأقربون استئناف مفسر للموالي، أو لكل قوم جعلناهم موالي نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، على أن جعلنا موالي صفة كل والراجع إليه محذوف كما قدرنا والجملة مبتدأ وخبر ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ﴾

بألف للجمهور ودونها للكوفيين ﴿أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ جمع يمين بمعنى القسم أو اليد أى الحلفاء الذين عاهدتموهم فى الجاهلية على النصرة والإرث وهى موالى الموالاة، أوهم الأزواج على أن العقد عقد النكاح، والموصول مبتدأ خبره ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ من الميراث وهو السدس على الأول وكان الأمر على ذلك فى ابتداء الإسلام حتى نسخ بقوله «وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض» وبحديث البخارى «ذهب الميراث ولكن يوصى له» وفسر بعضهم النصيب بالتناصر والنصيحة. وذهب أبو حنيفة إلى أن رجلا لو أسلم على يد رجل وتعاقدا على أن يتوارثا صح إن لم يكن له وارث آخر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ مطلعاً ومنه حالكم، تهديد فى منع نصيبهم، ثم أشار إلى حكم تفضيل الرجال على النساء فى الحظوظ بقوله ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ﴾ مسلطون وكلاء أمناء ﴿عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ فى إصلاحهن وأمرهن يؤدبونهن ويأخذون على أيديهن. يقال: قام بالأمر: حفظه ورعاه. وفلان قوّام أهله: أى يقيم شأنهم، وعلل ذلك بأمرين: موهبي وكسبي فقال ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بسبب تفضيل الرجال على النساء بكمال العقل وحسن التدبير ومزيد القوة فى الأعمال والطاعات، ولذلك خصوا بالنبوة والأمامة والإمارة وإقامة الشعائر والشهادة فى مجامع القضايا ووجوب الجهاد والجمعة والتعصيب وزيادة السهم فى الميراث والاستبداد بالفراق ﴿وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ فى نكاحهن كالمهر والنفقة. روى أن سعد بن الربيع أحد نقباء الأنصار نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبى زهير فلطمها فانطلق بها أبوها إلى رسول الله وشكاه فأمر بالقصاص فنزلت، فقال: أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذى أراد الله خير ﴿فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ﴾ منهن ﴿قَـٰنِتَـٰتٌ﴾ مطيعات لأزواجهن بعد طاعة الله ﴿حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ ماغاب عن علم زوجها مما استرعته، أى ما يجب حفظه من الفروج والأموال والأسرار، فلا تفعل فى غيبته ما يكره إن رآه فى حضوره، وفى إيقاع الحفظ على الغيب مبالغة فى الوصف بالحفظ. وعنه عليه السلام «خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرتك وإن أمرتها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك فى مالها ونفسها» وتلا الآية ﴿بِمَا حَفِظَ﴾ هن ﴿ٱللَّهُ﴾ حيث أوصى عليهن الأزواج أو بالأمر بحفظ الغيب والحث عليه بالوعد والوعيد، فالحفظ مسند إلى السبب الآمر، والباء للمقابلة أو بحفظ الله إياهن عن الخيانة أو بالوعد على المحافظة والوعيد على الخيانة، على أن الحفظ مجاز عن سببه، و «ما» مصدرية على الوجوه ﴿وَٱلَّـٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ عصيانهن لكم بأن ظهرت أماراته، والنشوز ـ لغة: الارتفاع فإنها بالعصيان ترتفع عن رتبتها وعن مطاوعة الزوج فتستخف بحقه ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ بما أعد الله للمطيعات من الثواب والناشزات من العقاب كلعنة الملائكة كما فى الصحيح ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾ فى المراقد إن لم يرجعن بالوعظ بأن تعتزلوا إلى فراش آخر فإن ذلك شديد عليهن، وكان عمر بن عبد العزيز إذا غاضب بعض نسائه يفترش فى حجرتها فى ليلتها وتبيت هى فى بيتها ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ ضرباً خفيفاً لا كسر فيه ولا جراح ليس فى الوجه

ولا الأعضاء الرئيسية إن لم يرجعن بالهجران بشرط إن ظننتم إفادته ، فإن شككتم لم يجز وأحرى إن تحققتم عدمها . قال ابن العربي في أحكامه : فسّر النبي صلى الله عليه وسلم الضرب بقوله : « ضرباً غير مبرّح » يعني لا يظهر له أثر على البدن قال : فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وفيه دليل على أن الناشزة لا نفقة لها ولا كسوة . اهـ. قال عبد الباقي : ومثل المبرّح المكرة . والناشزة : هي الخارجة عن الطاعة بمنع الوطء أو الاستمتاع أو بالخروج بلا إذن ، والأمر في الضرب للإباحة ولكن من الناس من لا يقيمه إلا الأدب فله أن يؤدب بشرطه والترك أفضل وفي الهجران كفاية والثلاثة مرتبة ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ في إحدى تلك الأحوال ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ بالتوبيخ والإيذاء واجعلوا ما كان منهن كأن لم يكن ؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له . ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا﴾ عليكم ومع ذلك يعفو عن سيئاتكم ﴿كَبِيرًا﴾ فاحذروه أن يعاقبكم إن ظلمتموهن ، وإذا ثبت أن الزوج هو الذي يضرها زجره الحاكم بما يكفه ، وإن ادعى كلٌّ من الزوجين ضرر صاحبه ولم يثبته أسكنهما الحاكم بين قوم صالحين إن لم يكونا بينهم وكلفهم تفقد أمرهما واستعلامه ، وإن أشكل الأمر بعث حكمين كما قال تعالى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ علمتم أيها الحكام والولاة ﴿شِقَاقَ﴾ خلاف ﴿بَيْنِهِمَا﴾ بين الزوجين ، والإضافة مجاز تشبيهاً بالمفعول به اتساعاً في الظرف كسارق الليلة ، أو بالفاعل بجعل البين شاقاً نحو : نهارك صائم . وأضمر الزوجين وإن لم يجر ذكرهما لتقدم ما يدل عليهما ﴿فَابْعَثُوا﴾ إليهما وإن لم يرضيا ، خلافاً للشافعية والحنفية إن أشكل عليكم حالهما لتبيّن الأمر أو إصلاح ذات البين رجلا عدلا ﴿حَكَمًا﴾ أي صالحاً للحكومة بأن يكون مأموناً ﴿مِنْ أَهْلِهِ﴾ أقاربه ﴿وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ على وجه الاستحباب أو الوجوب إن أمكن ؛ لأن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال وأطلب للصلاح ، فلو بُعثا من الأجانب جاز ، والأظهر لم يجز عندنا ، إذ تردّد اللخمي في نقض الحكم إذا حكم القاضي لأجنبيين مع وجود الأهل . وقال خليل في التوضيح : ظاهر الآية أن كونهما من الأهلين مع الوجدان واجب شرطاً . اهـ. وندب كونهما مطلقاً جارين ؛ وتأكد الندب في الأجنبيين . ولا يُبعث الحكمان إلا مع شدة الخوف والشقاق . ومذهب مالك وجمهور العلماء أن الحكمين ينظران في كل شيء ويحملان على الظالم ويمضيان ما رأياه من بقاء أو فراق على مال أولا . قال ابن العربي : وقولُ الشافعية : لا يكون الحكمان إلا برضى الزوجين فيوكل الزوج حكمه في طلاق وقبول عوض عليه ، وتوكل هي حكمها في الاختلاع ـ خطأ صريح ؛ فإن الله قد خاطب غير الزوجين بإرسال الحكمين ، فكيف يكون بتوكيل الزوجين . ولا يصح للحكمين حكم إلا بما اجتمعا عليه ، وتوكيل كل من الزوجين لا يكون إلا بخلاف الآخر . وقوله تعالى : « حكما من أهله وحكما من أهلها » نص في أنهما نائبان لا وكيلان . اهـ . ﴿إِنْ يُرِيدَا﴾ أي الحكمان ﴿إِصْلَاحًا﴾ بين الزوجين بنية صادقة وقصدا لخيراً ونصحا

﴿يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ بين الزوجين بإيقاع الألفة بينهما . وقيل الضمير للحكمين : أي بين كلمتيهما فيحصل الغرض ، وقيل الضميران للزوجين ، أي إن تابا عن الضرار يبدل الله البغض بالمحبة والشقاق بالوفاق ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالظواهر ﴿خَبِيرًا﴾ بالبواطن ، فيعلم كيف يرفع الشقاق ويوقع الوفاق . وفيه تحذير الحكمين عن السعي بالفساد ، كما أن الأول ترغيباً في الإصلاح . ولما استوفى الله تعالى جملة من الأحكام عاد إلى التوحيد الذي هو ملاك الأمر فقال ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحدوه ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ نصب على المصدر أي شيئاً من الإشراك خفيًّا أو جليًّا ، أو على المفعول به أي شيئاً ما صنما أو غيره ﴿وَ﴾ أحسنوا ﴿بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ برًّا في الأقوال والأعمال مع لين جانب ﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ القرابة في النسب من قِبَل الأب والأم فالإحسان إليه صدقة وصلة رحم ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ في الجوار أو النسب أو الدين . وفي البخاري عن عائشة : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلت : إن لي جارين فإلى أيهما أهدي فقال : « إلى أقربهما باباً » ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ البعيد عنك في الجوار أو النسب ، فأبعده من بينكما أربعون داراً . قاله الزهري . وحق كل جار الإكرام وكف الأذى . وفي البخاري ومسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » وفي الحديث أيضاً « خير الجيران خيرهم لجاره » ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ الرفيق في كل أمر حسن كتعلم وتصرف وصناعة وسفر فإنه صحبك وحصل بجنبك ، وقيل المرأة ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وهو الضيف ينزل بك يوماً وليلة وما وراء ذلك فصدقة ولا يحل له الثواء حتى يحرجك ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من الأرقاء بالرفق والعفو وإطعامهم مما طعم وإلباسهم مما لبس . قال عليه السلام في مرض موته « الصلاةَ الصلاةَ وما ملكت أيمانكم » فجعل يكررها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾ متكبراً يأنف عن أقاربه وجيرانه وأصحابه ولا يلتفت إليهم ، يقال : خال الرجل واختال : تكبر وأعجب بنفسه ﴿فَخُورًا﴾ على الناس بعطام الدنيا ، وخص هذين الوصفين لمنعهما امتثال ما تقدم من الإحسان إلى من ذكر ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ بما منحوا مما وجب عليهم ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ﴾ أي الذين يظنون أنهم يطيعونهم ﴿بِالْبُخْلِ﴾ بضم الباء وسكون الخاء للجمهور ، ولحمزة والكسائي بفتحهما لغتان ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ من العلم والغنى بالتفاقر للناس : ليس عندنا ، ليس معنا ! وهو حرام لقوله تعالى « وأما بنعمة ربك فحدث » وهم اليهود وكل من اتصف بذلك ، والموصول بدل من قوله « من كان » أو نصب أو رفع على الذم ، أو مبتدأ خبره محذوف أو لهم وعيد شديد دلّ عليه قوله ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾ بذلك وبغيره ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ ذا إهانة ، فيه وضع الظاهر موضع المضمر إشعاراً بأن مَن هذا شأنه فهو كافر بنعمة الله مستحق أن يهان كما أهان النعمة بالبخل والإخفاء . وفي الحديث « إياكم والشح فإنه أهلك مَن قبلكم » وفي الترمذي : « خصلتان لا يجتمعان في المؤمن : البخل وسوء الخلق » ﴿وَالَّذِينَ﴾ عطف على « الذين » قبله ﴿يُنفِقُونَ﴾

أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾ مرائين لهم وهم المشركون والمنافقون ليقال إنه جواد . روى مسلم عن أبي هريرة «أول من يدخل النار مسلمٌ صرف ماله في وجوه البرّ لا إخلاصاً بل ليقال ، فذلك حظه» ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ حتى يكون باعثاً له على الحذر مما يحبط العمل﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا ﴾ في الدنيا يزيّن له القبائح أو في الآخرة بأن يقرن به في النار كهؤلاء ﴿ فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ هو فعيل بمعنى فاعل من المقارنة : الملازمة وكل إنسان يقارنه شيطان ، لكن الموفق عاص له ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ﴾ أىْ أىُّ ضرر عليهم فى الإيمان والإنفاق فى سبيل الله ؟ استفهام إنكار وتوبيخ على الجهل بمكان المنفعة ، و «لو» مصدرية أى لاضرر فيه وإنما الضرر فيما هم عليه والعاقل يسارع إلى ما فيه احتمال نفع ، فكيف والمدعوّ إليه منبع كل سعادة ، ثم توعدهم بقوله ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ فيجازيهم بما عملوا ، أو عليما بأنهم لا يؤمنون فلذا لا تجدى فيهم الآيات ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ ﴾ أحداً ﴿ مِثْقَالَ ﴾ وزن ﴿ ذَرَّةٍ ﴾ أصغر نملة بأن ينقصها من حسناته أو يزيدها فى سيئاته . وعن ابن عباس أنه أدخل يده فى التراب وأخرجها وقال : كل هذا ذرات . والمثقال : مِفعال من الثقل ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةٌ ﴾ بالرفع لنافع وابن كثير فكان تامة ، وبالنصب فناقصة أى إن تك الذرة أومثقال الذرة ، أنث الضمير لتأنيث الخبر أولإضافة المثقال إلى المؤنث ، وحذف النون تخفيفاً ﴿ يُضَاعِفْهَا ﴾ من عشرة إلى أكثر من سبعمائة ، ولابن كثير وابن عامر «يضعّفها» بالتشديد ، وهما بمعنى ﴿ وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ ﴾ من عنده مع المضاعفة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يقدره أحد تفضلا منه ، ولما نبّه على عدله وفضله يوم القيامة أتبعه بشهادة الشهداء يومئذ فقال ﴿ فَكَيْفَ ﴾ حال الكفار أو صنيعهم أو كيف يصنعون ﴿ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ يشهد عليها بعملها وهو نبيها ﴿ وَجِئْنَا بِكَ ﴾ يا محمد ﴿ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾ أى أمتك ﴿ شَهِيدًا ﴾ أى على صدقهم لحصول علمك بعقائدهم بدلالة كتابكوشرعك على قواعدهم ، وكيف استفهام توبيخ فى محل رفع خبر مبتدأ محذوف والعامل فى « إذا » مضمون الجملة أى عظم الأمر ، أو العامل هو المبتدأ المقدر ، أو فى محل نصب بفعل محذوف هو العامل فى « إذا » ونصب « كيف » على التشبيه بالحال عند سيبويه أو بالظرف عند الأخفش . وجملة « وجئنا بك » فى موضع جر عطفاً على « جئنا » الأول . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية فاضت عيناه . وفىالبخارى عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى : « اقرأ علىّ القرآن » قلت : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : « إنى أحب أن أسمعه من غيرى » فقرأت سورة النساء حتى بلغت « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » فقال « حسبك » فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تذرفان . وفيه أيضاً عن عقبة ابن عامر : قال عليهالسلام « إنى بين يديكم فَرَطٌ وأنا عليكم شهيد وإن موعدكم الحوض وإنى لأنظر إليه من مقامى هذا وإنى لست أخشى عليكم أن تشركوا ولكنى أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها » قال عقبة :

فكانت آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم المجيء ﴿ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ ﴾ أى أن ﴿ تُسَوَّىٰ ﴾ بإدغام ثانى التاءين فى السين مع فتح الأولى لنافع وابن عامر، وبضمها مع الشد مبنياً للمفعول لأبى عمرو وابن كثير وعاصم، وبحذف الثانية مع فتح الأولى مبنيا للفاعل لحمزة والكسائى إذ أصله تتسوى ﴿ بِهِمُ الْأَرْضُ ﴾ بأن يكونوا تراباً مثلها لعظم هوله كما فى آية أخرى « يا ليتنى كنت ترابا » أو كناية عن الموت والدفن، أو بأن لم يبعثوا ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ مما عملوه، وفى وقت آخر يكتمون «والله ربنا ما كنا مشركين» أو يكتمون بالألسن فينطق الله أبدانهم « يوم تشهد عليهم جلودهم » والجملة عطف على « يود » و« يومئذ » متعلق بالفعلين، ويجوز عطفهما على « تسوى » داخلة تحت التمنى، أو حالا من الضمير ، والرسول هنا للجنس شرف بالذكر وهو مفرد معناه الجمع. ولما ذكر أهوال القيامة أردفها بالمحافظة على أشرف الوسائل فى ذلك اليوم وهو الصلاة فقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ ﴾ نفسها أو مواضعها، ورد بأنه يقال فى اللغة لا تقربن كذا ـ بفتح الراء ـ أى لا تلتبس بالفعل، وإن كان معناه : لا تدن من الموضع فهو بضم الراء ﴿ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ ﴾ من الشرب لأن سبب نزولها صلاة جماعة فى حال السكر قبل تحريم الخمر، والمراد النهى عن شربها فى أوقات الصلاة، وقرئ « سَكارى » بالفتح، وسكرى كهلكى وحُبلى، صفة للجماعة ﴿ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ ومن لم يدر ما يقول لشغل باله لا صلاة له، لكن من استشعر النية حال التكبير ثم ذهل فإنه يسامح فى الذهول بعدُ ﴿ وَلَا ﴾ تقربوا الصلاة أو مواضعها ﴿ جُنُبًا ﴾ ونصبه على الحال عطفاً على « وأنتم سكارى » لأن الجمل التى لها محل من الإعراب فى حكم المفردات، والجنب يطلق على المفرد والجمع ذكراً كان أو أنثى بإيلاج أو إنزال ﴿ إِلَّا عَابِرِي ﴾ مجتازى ﴿ سَبِيلٍ ﴾ أى إلا مسافرين فتيمموا وصلوا وأنتم جنب، لأن التيمم يبيح الصلاة ولا يرفع الحدث، وهو حال مقدرة للفعل المقيد بالحال كأنه قيل : لا تقربوا الصلاة فى حال الجنابة إلا ومعكم حال أخرى تعذرون فيها وهى كونكم مسافرين، وفيه إيماء إلى أن سائر الأعذار مثل السفر، وذكره لأنه الغالب فلا ينافى هذا الحصر ما يذكر بعد من الموجبات، ويجوز أن يكون وصفاً للحال : أى جنباً غير عابرى سبيل ﴿ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ﴾ غاية النهى وفيه إشعار بوجوب النية فى الغسل، إذ لفظ « اغتسل » يقتضى الاكتساب ولا يكون إلا مع النية خلافاً للحنفية، وبأنه ينبغى للمصلى أن يكون مراعياً لطهارة الباطن مما يلوّث كالحقد والحسد. ومن قدر مواضع الصلاة ـ أى المساجد ـ جوّز للجنب عبورها من غير مكث وبه قال الشافعى، وجوز له الحنبلى الجلوس فيه. وقال أبو حنيفة : لا يجوز له المرور فى المسجد إلا إذا كان فيه الماء أو الطريق، ومنعه المالكية مطلقاً فى المشهور، وإذا احتلم فى المسجد يجوز له الخروج من غير تيمم وسقفه وصحنه كهو، بخلاف فنائه. وفائدة « عابرى سبيل » مع جعله مسافراً مع قوله « أو على سفر » إلى « فتيمموا » إعلامٌ

عدم ارتفاع الحدث بالتيمم مع إباحة الصلاة، وما يأتي لا يفيد إلا جواز التيمم عند عدم الماء فافهم ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ ﴾ مرضاً يضرّه الماء بأن خاف التلف بسببه وكذا إن خاف المرض أو زيادته بسببه عند المالكية خلافاً للشافعية فيهما لأن ذلك مظنون ﴿ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ أى مسافرين وأنتم جنب أو محدثون ولم تجدوا ماء ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ ﴾ كناية عن الحدث الخارج من السبيلين المعتاد لجرى عادة العرب بقضاء الحاجة فيه وهو المكان المنخفض ﴿ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ بألف للجمهور وبدونها لحمزة والكسائى وهما بمعنى من اللمس وهو الجس باليد وكذا باقى البشرة إن قصد اللذة أو وجدها، وينتقض الوضوء مطلقاً عند الشافعى، ولا ينقض عند أبى حنيفة مطلقاً. وعن ابن عباس: اللمس هنا هو الجماع، وينتقض بمس الذكر وإن بلا لذة على المشهور وفاقاً للشافعى، ولا ينقض عند أبى حنيفة مطلقاً، ومس الدبر لا ينقض خلافاً للشافعى، وكذا مس ذكر الصبى والبهيمة، وفى مس المرأة فرجها النقض مطلقاً وفاقاً للشافعى وعدمه مطلقاً وفاقاً لأبى حنيفة، أو إن ألطفت وإلا فلا ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً ﴾ تطهرون به للصلاة بعد طلبه طلباً لا يشق عليه عند المالكية ومطلقاً عند الشافعية. ولا يلزمه الطلب عند الحنفية وهو راجع إلى ما عدا المرضى لأن الآية فيها تقسيم، وهو أن المترخص بالتيمم إما محدث أو جنب وسببه إما مرض أو سفر غالباً، والجنب لما سبق ذكره اقتصر على بيان حاله، والمحدث لما لم يجر له ذِكرٌ ذَكرَ أسبابه واستغنى عن تفصيل أحواله بتفصيل حال الجنب وبيان العذر مجملا، وكأنه قيل: وإن كنتم جنباً أو مرضى أو على سفر أو محدثين بالمجىء من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء ﴿ فَتَيَمَّمُوا ﴾ اقصدوا بعد دخول الوقت ﴿ صَعِيدًا ﴾ وجه الأرض على أىّ حال كان من رمل أو حجر أو مدر أو تراب، وتخصيصه بالتراب فقط مذهب الشافعية ولابدّ عندهم أن يعلق شىء من التراب باليدين ﴿ طَيِّبًا ﴾ أى طاهراً وفسره الشافعية بمُنبتاً كقوله «والبلد الطيب» فاضربوا به ضربتين ﴿ فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ تعليم لكيفية التيمم ولم يبين غاية المسح لأنه مبين فى الوضوء بقوله «إلى المرافق» وبفعل النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ ولذا رخص لكم وخفف عليكم ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ بعينك أو بقلبك ﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا﴾ حظاً ﴿مِّنَ الْكِتَابِ﴾ التوراة وهم اليهود، عدى «رأى» بإلى لتضمينه معنى انتهى ﴿ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ ﴾ بالهدى مع ذلك العلم بإنكار نبوة محمد وأخذ الرشا وتحريف التوراة ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾ إلى الحق لتكونوا مثلهم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ﴾ منكم وقد أخبركم بعداوة هؤلاء فاحذروهم ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا ﴾ حافظاً لكم فلا توالوهم ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ مانعاً من كيدهم فتوكلوا عليه واكتفوا به عن غيره، والباء فى الموضعين صلة تؤكد الإسناد لأن حروف الجر لإيصال معانى الأفعال إلى الأسماء ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ بيانٌ للذين أوتوا نصيباً فإنه يحتملهم وغيرهم، وما بينهما اعتراض أو بيان لأعدائكم أو صلة لـ «نصيراً»، أى ينصركم من الذين هادوا بمعنى يحفظكم كقوله

« ونصرناه من القوم » ويجوز تعلقه بما بعده : أى من الذين هادوا قومٌ ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ يغيرون ﴿الْكَلِمَ﴾ الذى أنزل الله فى التوراة ﴿عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ التى وضع عليها بتغيير اللفظ وقد فعلوا ذلك فى الأقل ، أو بتغيير التأويل بما يشتهونه وقد فعلوا هذا فى الأكثر وإليه ذهب الطبرى ، وهذا كله فى التوراة على قول الجمهور ، وقالت طائفة : هو كلم القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم بالتأويل ﴿وَيَقُولُونَ﴾ للنبى إذا أمرهم بشىء ﴿سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك كفراً وطغياناً ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ حال بمعنى الدعاء عليه بالصمم أو الموت أو أنت غير مسمع جواباً ترضاه ، وله وجه مدح يورّى به أى غير مسمع مكروهاً من قولهم : أسمعه فلان : إذا سبه ، قالوه نفاقاً ﴿وَ﴾ يقولون له ﴿رَاعِنَا﴾ حتى نفهم كلامك وهى كلمة سب عندهم وقد نهى عن خطابه بها ﴿لَيًّا﴾ فتلاً وتحريفاً مفعول له أو حال ﴿بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ لصرف الكلام إلى ما يشبه السبّ يضمون ما يظهر الدعاء والتوقير إلى ما يضمرون من السبّ والتحقير نفاقاً ﴿وَطَعْناً فِي الدِّينِ﴾ استهزاء به وسخرية يقصدون السب ويظهرون أنهم أرادوا الدعاء بمعنى الرعاية ، قال ابن عطية فى تفسيره : وهذا اللىّ باللسان إلى خلاف مافى القلب موجود إلى الآن فى بنى إسرائيل ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ بدل « وعصينا » ﴿وَاسْمَعْ﴾ فقط ﴿وَانظُرْنَا﴾ انظر إلينا بدل « راعنا » ﴿لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ﴾ مما قالوه ﴿وَأَقْوَمَ﴾ أعدل منه ، وإنما وجب حذف الفعل أى : ثبت بعد « لو » لدلالة « أن » عليه ووقوعه موقعه ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ طردهم وأبعدهم عن هداه ورحمته ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ لأجله ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ منهم كعبدالله بن سلام وأصحابه أو إلا إيماناً قليلا لا يعتبر به وهو الإيمان ببعض والكفر ببعض ، أو الإيمان باللسان دون القلب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ من القرآن ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم﴾ من التوراة ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً﴾ نمحو آثارها ونزيل محاسنها من العيون والأنوف والحواجب ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ فنصير على هيئة الأقفاء ، أو ننكسها إلى ورائها فى الدنيا أو فى الآخرة أو نسلب وجاهتها ونكسوها الصغار بالإجلاء ، ويقرب منه قول من قال إن المراد بالوجوه الرؤساء ، أو من قبل أن نعمى الأبصار عن الاعتبار ونصم الأسماع عن الإصغاء إلى الحق بالطبع ونردها عن الهداية إلى الضلالة ، وأصل الطمس : إزالة الأعلام والآثار ، يقال : ليل طامس وطريق طامس : يتعدى ويلزم ، وقد يطلق على معنى الطمس أى إزالة الصورة وعلى مطلق التغيير ، والفاء للسببية أو للتعقيب بالتوعد بالطمس وتعكيس الحال ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ على لسانك أى نمسخهم قردة ﴿كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ منهم على لسان داود بأن مسخناهم قردة وخنازير ، والضمير لأصحاب الوجوه أو للذين على طريق الالتفات أو للوجوه إن أريد به الوجهاء ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ قضاؤه ﴿مَفْعُولاً﴾ نافذاً كائناً فيقع ما وعدتم به لامحالة إن لم تؤمنوا ، وهذا وعيد متوقع فى بنى إسرائيل سيقع ، وقيل كان مشروطاً بعدم إيمان جميعهم فلما أسلم بعضهم رفع كعبدالله ابن سلام لما سمع الآية أسلم مكانه ، ولما قدم جرائم اليهود والمشركين رغّب فى الإيمان فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ

لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ الإشراك به ممن لم يتب لقوله « يُغفرْ لهم ما قد سلف » والمراد من الشرك : الكفر مطلقا لقوله ، ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ، وإنما عبر بالشرك لأنه حال المخاطبين من اليهود وعبدة الأوثان ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أى سوى الكفر من الذنوب صغيرة أوكبيرة ﴿ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ المغفرة له وإن لم يتب برحمته بأن يدخله الجنة بلا عقاب ومن يشاء عذبه من المؤمنين بذنوبه ثم يدخله الجنة . قال فى غاية الأمانى : هذا صريح أنه لا يغفر الشرك ويغفر ما دونه لمن يشاء ، وأيده سائر الآيات والأحاديث المتواترة معنى ، فمن قيد الثانى بالتوبة فقد حزف الكلم اه . وقال فى الجواهر الحسان : هذه الآية هى الحاكمة ببيان ما تعارض من آيات الوعد والوعيد وتلخيص الكلام فيها أن يقال: الناس أربعة أصناف : كافر مات على كفره : فهذا مخلد فى النار بإجماع ، ومؤمن محسن لم يذنب قط ومات على ذلك : فهذا فى الجنة بإجماع ، وتائب مات على توبته فهو عند جمهور أهل السنة فى الجنة ومن المتكلمين من قال : فى المشيئة . ومذنب مات قبل التوبة : موضع الخلاف الطوائف قال أهل السنة : فى المشيئة . والمعتزلة قالوا فى النار إن كان صاحب كبيرة . وقالت الخوارج : مخلد فى النار مطلقا ، إذ كل ذنب عندهم كبيرة . وقالت المرجئة : هو فى الجنة بإيمانه لا يضره الذنب ، فالآية نص فى موضع النزاع إذ قوله « لا يغفر أن يشرك به » مجمع عليه . وقوله « ويغفر ما دون ذلك » رد على المعتزلة والخوارج . وقوله « لمن يشاء » رد على المرجئة لبيانه أن غفران ما دون الشرك إنما هو لقوم دون قوم بخلاف ما زعموه من أنه مغفور لكل مؤمن اه . ملخصا . وفى نظم عقيدة السنوسى الكبرى لشيخ شيوخنا طاهر رحمه الله :

وَالْحَقُّ فِيهِ أَنَّهُمْ قِسْمَانِ : • مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرٌ ، فَالثَّانِي
مُخَلَّدٌ فِى النَّارِ بِالْإِجْمَاعِ • وَذَاكَ ضَرْبَانِ بِلَا نِزَاعِ
مَحْفُوظٌ مُحْرِزٌ مِنَ الْمَعَاصِي • فِى جَنَّةٍ وَالْخُلْفُ عَنْهُ قَاصِي
وَغَيْرُهُ قِسْمَانِ : ذُو الصَّغَائِرِ • لَا غَيْرُهَا ، وَصَاحِبُ الْكَبَائِرِ
إِنْ تَابَ فِى الْجَنَّةِ قُلْ هَٰذَانِ • وَالْغَيْرُ فِى مَشِيئَةِ الرَّحْمَٰنِ

ولما أخبر الله أنه لا يغفر الشرك قبحه بقوله ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ ارتكب ما يستحقر دونه الآثام ، وهو إشارة إلى المعنى الفارق بينه وبين سائر الذنوب . والفرية : أقبح الكذب وهو الاختلاق من الفرى وهو القطع ، لأنه اخترعه من عنده يطلق على القول والفعل والمراد به القدر المشترك ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ هم اليهود حيث قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ، لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، وغير هذا من مختلقاتهم ، وفى معناهم كل من زكى نفسه وأثنى عليها أى ليس الأمر بتزكيتهم أنفسهم ﴿ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي ﴾ يطهر ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ بالإيمان والطاعة : تنبيه على أن تزكيته هو المعتد بها دون تزكية غيره لأنه العالم بما ينطوى عليه الإنسان من حسن وقبح وقد ذمهم .

وأصل التزكية نفي ما يستقبح فعلا أو قولا ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ ﴾ لاينقصون من أعمالهم أو لا يظلمون بالذم والعقاب بغير حق ﴿ فَتِيلاً ﴾ أقل قليل وهو الخيط الذى فى شق النواة يضرب به المثل فى الحقارة والقلة ، أو اسم لما يفتل من الوسخ بين الاصبعين ﴿ ٱنظُرْ ﴾ متعجباً ﴿ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ بذلك الزعم والتزكية ﴿ وَكَفَىٰ بِهِۦ ﴾ بذلك القول الافتراء ﴿ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾ بينا لايخفى على أحد . ثم انتقل إلى تعجيبهم بنوع آخر من الأباطيل فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ صنمان لقريش ، وهم طائفة من اليهود منهم « حيي بن أخطب » و « كعب بن الأشرف » ، خرجوا بعد بدر إلى مكة وحالفوا قريشاً على محاربة النبي صلى الله عليه وسلم ، وحرضوهم على أخذ الثأر فقالت لهم قريش : أنتم أهل كتاب مثل محمد وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا فلا نأمن مكركم حتى تسجدوا لهذين الصنمين لنا ، ففعلوا وقالوا : عبادة الأصنام أرضى عند الله مما يدعو إليه محمد ، والجبت فى الأصل اسم صنم فاستعمل فى كل ما عبد من دون الله ، وقيل أصله الجبس وهو الذى لا خير فيه فقلبت سينه تاء ، والطاغوت يطلق على كل باطل من معبود وغيره ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أى لأجلهم أبى سفيان وأصحابه حين قالوا لهم أنحن أهدى سبيلا ونحن ولاة البيت نسقى الحاج ونقرى الضيف ونفك العانى ، أم محمد وقد خالف دين آبائه وقطع الرحم وفارق الحرم وجمع سرّاق الحاج من غفار ؟ ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ أى أنتم ﴿ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾ أقوم طريقا ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ مانعاً من عذابه بشفاعة أو غيرها ، ونفيُ الأخص وهو النصير أخص من الناصر ونفيه لا ينفيه لإرادة أن الكامل فى النصر إذا لم يقدر على نصرهم فغيره أحرى ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ جحد لما زعموا أن الملك سيصير إليهم أى ليس لهم شيء منه ﴿ فَإِذًا ﴾ لو كانوا ملوكا ﴿ لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾ أى ما يوازيه أى شيئاً تافهاً قدر النقرة فى ظهر النواة لفرط بخلهم وهو إشارة إلى أنهم غير أحقاء بالملك وفيه مبالغة إغراق فى بيان شحهم بخلهم بالنقير وهم ملوك فما ظنك بهم فقراء ، وفيه الاستتباع بذمهم بالبخل بعد ذمهم بتزكية أنفسهم كذباً ، والاتصاف بالرذيلة أبلغ ذما من الخلو عن الفضيلة وكل ذلك مناف للملك ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ أى النبي محمداً صلى الله عليه وسلم أو هو وأصحابه أو العرب أو الناس جميعاً لأن من حسد على النبوة فكأنما حسد الناس كلهم ، وهو إضراب عن الإضراب تدرجاً فإن الحسد أشنع من البخل إذ هو بخل واعتراض على الحكم وعدم الرضا بما قسم ، وهما أى الحسد والبخل شر الرذائل فكأن بينهما تلازماً وتجاذباً ﴿ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ من النبوة وكثرة النساء أو النصر المتواتر والعز المتظاهر يوماً فيوما أو جعل النبي الموعود منهم ، أى يتمنون زواله عنه ذكر ويقولون فى النبي لو كان نبياً لاشتغل عن النساء فرد عليهم الله بقوله ﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ جدّه ، كموسى وداود وسليمان ﴿ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ النبوة ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ فلا يبعد أن يؤتى الله هؤلاء مثل

ما آتاهم ، والفاء فصيحة أى إن كان حسدهم على ما أوتى هؤلاء فقد عرفوا أن أسلافهم أوتوا مثل ذلك فلا بدع أن يخوّل الله محمداً ما خوّل غيره وهو أفضل الرسل . روى عنه عليه السلام أنه قال : وخيرنى الله بين أن أكون نبياً ملكا وأن أكون نبياً عبداً فاخترت أن أكون نبياً عبداً فأنا آكل كما يأكل العبيد وأجلس كما يجلس العبيد » اهـ . قلت : معناه امتناعه عن صفات الملوك ورضاه بصفات العبيد والفقراء . لجملة آكل . . . الخ مفسرة له والله أعلم ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ من اليهود ﴿ مَنْ آمَنَ بِهِ ﴾ بمحمد أو بما ذكر من حديث آل إبراهيم ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ ﴾ أعرض ﴿ عَنْهُ ﴾ ولم يؤمن به ، وقيل معناه من آل إبراهيم من آمن به ، ومنهم من كفر ، ولم يكن فى ذلك توهين أمره ، فكذا لا يوهن كفر هؤلاء أمرك ﴿ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ ناراً موقدة عذاباً لمن لا يؤمن ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ ﴾ ندخلهم ﴿ نَارًا ﴾ يحترقون فيها هذا كالبيان والتقرير لما مر ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ ﴾ احترقت ﴿ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ فى الصفة بأن تعاد إلى حالها الاول غير نضيجة فى الصورة أو يخلق جلود أخر مكانها ، إذ العذاب فى الحقيقة للنفس العاصية المدركة لا لآلة إدراكها فلا محذور ، وفى حديث ابن ماجه : تبدل جلودهم فى الساعة الواحدة مائة وعشرين مرة ، وروى الإمام أحمد مرفوعا : أن ما بين شحمة أذن الكافر وعاتقه مسيرة سبعمائة عام وغلظ جلده سبعون ذراعا اهـ . ﴿ لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ على الدوام . ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا ﴾ لا يعجزه شيء ﴿ حَكِيمًا ﴾ فى خلقه وفيما أعد من العذاب لمن خالفه ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ فيناناً لا جدب فيه وافياً ليس فيه شائبة حر ، دائماً لا تنسخه شمس وهو ظل الجنة ، وهو إشارة إلى النعمة التامة والظليل صفة مشتقة من الظل لتأكيده كشمس شامس وليل أليل . ولما قدم ذكر الكفار بالخيانة وتحريف الكلم أردفه بأمر المؤمنين كافة بأداء الأمانات فقال ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ ﴾ لله وللعباد أى ما ائتمنتم عليه من الحقوق ﴿ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ والخطاب فى الأمانات عام بقرينة الجمع وإن نزلت فى عثمان بن أبى طلحة بن عبد الدار فى أمر مفتاح الكعبة يوم الفتح لما أقبل عليه السلام حتى أناخ راحلته بفناء الكعبة ثم دعا عثمان بن أبى طلحة فقال ائتنى بالمفتاح فذهب إلى أمه سلافة فأبت أن تعطيه فقال : والله لتعطينه أو ليخرجن هذا السيف من صلبى فأعطته إياه فجاء به النبىّ صلى الله عليه وسلم ففتح الباب . رواه مسلم وبعضه فى البخارى . وفى التفاسير أن عثمان بن أبى طلحة لما أمره عليه السلام بإيتاء المفتاح أبى وقال لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه فلوى علىّ يده فأخذ منه المفتاح فلما خرج عليه السلام من البيت سأله العباس أن يعطيه المفتاح ليجمع له السقاية والسدانة فأنزل الله هذه الآية ، وأمر عليه السلام علياً أن يرد المفتاح إلى عثمان ففعل فقال : ها كه خالدة تالدة فأسلم لذلك وأعطاه عند موته لأخيه شيبة فبقى فى ولده ، قال ابن ظفر : قولهم إنه قال لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه إلى آخره وهمٌ لأنه أسلم قبل ذلك ولو قاله لكان مرتداً ، قال الكلبى : لما

طلب عليه السلام المفتاح وجاء به عثمان قال العباس ما قال فقال عثمان لرسول الله ها كه بالأمانة فنزلت ، قال ابن ظافر : وهذا أولى بالقبول . اه . انظر المواهب اللدنية للقسطلانى . قال ابن العربى فى أحكامه : أمهات الأمانات فى الأحكام خمسة : الوديعة ، واللقطة ، والرهن ، والإجارة ، والعارية . اه . وقال عبد الرحمن فى الجواهر : والآية تتناول الولاة فيما لديهم من الأمانات فى قسمة الأموال ورد الظلامات والعدل فى الحكومات وتتناول غيرهم فى حفظ الودائع والشهادات . والصلاة والزكاة والصيام وسائر العبادات أمانات الله . اه . ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ ﴾ الذين حكموكم أو جاءوا لحكمكم بأمركم ﴿ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ السوية وهذا عام فى الحكام والولاة وغيرهم من جميع المسلمين لحديث « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا ﴾ فيه إدغام ميم نعم فى « ما » النكرة الموصوفة وتقدم فى البقرة ما فيه من القراءات أى نعم شيئاً ﴿ يَعِظُكُم بِهِ ﴾ تأدية الأمانة والحكم بالعدل ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا ﴾ لأقوالكم فى الأحكام ﴿ بَصِيرًا ﴾ بأحوالكم فى الميل إلى الحق أو الباطل وما تفعلون فى الأمانات ، ولما أمر الأمراء بالعدل عقبه بأمر طاعتهم عليه تنبيهاً على أن وجوب طاعتهم ما داموا على الحق فقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ من الخلفاء الراشدين ومن سلك طريقهم فى العدل من الولاة والعلماء والقضاة وأمراء السرايا ، وقال أكثر التابعين : هم العلماء ، واختاره مالك ، قال ابن العربى فى أحكامه : والصحيح عندى أنهم الأمراء والعلماء ، أما الأمراء فلأن الحكم إليهم ، وأما العلماء فلأن سؤالهم متعين على الخلق ، وجوابهم لازم ، وامتثال فتواهم واجب ، لكن لما كان أمر الأمراء عاد إلى الجهال تعين العلماء وهو ما نظر إليه مالك ، فإن الأمر قد وقف على العلماء وزال عن الأمراء لجهلهم واعتدائهم ، والعادل منهم مفتقر إلى العالم كافتقار غيره . اه . وقال فى الجواهر : أولو الأمر الأمراء على قول الجمهور ، والأمر على هذا هو ضد النهى ومنه لفظة الأمير ، أو هم أهل العلم أتباع السنة اه . ويدخل فيهم تأمر الزوج على الزوجة ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ ﴾ اختلفتم أنتم وأولو الأمر ﴿ فِي شَيْءٍ ﴾ من أمر الدين ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أى كتابه ﴿ وَالرَّسُولِ ﴾ مدة حياته وبعده إلى سنته أى اكشفوا عليه منهما ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ولا دليل فى هذا لمنكرى القياس ، إذ الرد إليهما قد يكون بالجامع وهو القياس ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الرد إليهما ﴿ خَيْرٌ ﴾ لكم من التنازع والقول بالرأى ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ مآلا وعاقبة ، فيه أن طاعة الأمراء لا تجب إلا إن وافقوا الشرع ، إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ونزل لما اختصم يهودىّ وبشرٌ المنافق فدعا المنافق إلى كعب بن الأشرف ليحكم بينهما لعلمه أنه يحكم بالرشوة ، ودعا اليهودى إلى النبى صلى الله عليه وسلم لعلمه أنه لا يرتشى فأتياه فقضى لليهودى فلم يرض المنافق ، وأتيا عمر بن الخطاب فذكر له اليهودى ذلك فقال للمنافق : أكذلك ؟ فقال نعم ، فقال مكانكما حتى أخرج ، فدخل فأخذ سيفه ثم خرج فقتل المنافق وقال : هكذا أقضى لمن لم يرض

بقضاء الله ورسوله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّٰغُوتِ ﴾ الكثير الطغيان وهو كعب بن الأشرف ، وفى معناه كل من يحكم بالباطل ويؤثره لأجله ، سمى بذلك لفرط طغيانه أو لتشبيه بالشيطان أو لأن التحاكم إليه تحاكم إلى الشيطان من حيث أنه الحامل عليه كما قال ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ بالشيطان أو بالمشبه به فلا يوالوه ﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ﴾ عن الحق ﴿ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ مستمراً إلى الموت وإسناد البعد إلى الضلال مجاز مبالغة فى ضلال صاحبه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ فى القرآن من الحكم ﴿ وَإِلَى الرَّسُولِ ﴾ ليحكم بينكم ﴿ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ ﴾ رؤية عين لمن جاهره منهم ورؤية قلب بالقرائن لغيره ﴿ يَصُدُّونَ ﴾ يعرضون ﴿ عَنْكَ ﴾ إلى غيرك ليغروه بالرشوة ﴿ صُدُودًا ﴾ والجملة فى محل الحال يدل على أنهم كانوا مستمرين على الإعراض ﴿ فَكَيْفَ ﴾ يصنعون ﴿ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ ﴾ بالدنيا كقتل المنافق أو فى الآخرة إذا عاقبهم الله ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ من الكفر والمعاصى كالتحاكم إلى غيرك وعدم الرضى بحكمك تهويل للعذاب الذى سينزل بهم ﴿ ثُمَّ جَاءُوكَ ﴾ حين يصابون للاعتذار عطف على يصدون ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴾ حال ﴿ إِنْ أَرَدْنَا ﴾ بالمحاكمة إلى غيرك ﴿ إِلَّا إِحْسَانًا ﴾ صلحاً ﴿ وَتَوْفِيقًا ﴾ بين الخصمين بالتقريب فى الحكم دون الحمل على غير الحق ، أى ما أردنا بذلك إلا الفصل بالوجه الأحسن أو إلا إحساناً إليك أى لا نشغلك بالمحاكمة ، وقيل جاء أولياء بشر المنافق يطالبون عمر بدمه وقالوا : ما أردنا بالتحاكم إلى عمر إلا أن يحسن إلى صاحبنا ويوفق بينه وبين خصمه ، فنزل وقال جبريل إن عمر فرق بين الحق والباطل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت الفاروق فأهدر دم المنافق ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ من النفاق والعداوة وكذبهم فى عذرهم فلا يغنى عنهم الكتمان والحلف الكاذب من العقاب ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ بالصفح مجاملة لإظهارهم الإيمان ولئلا يقال إن محمداً يقتل أصحابه ﴿ وَعِظْهُمْ ﴾ خوفهم الله بالزجر والإنكار لتكفهم عما هم عليه كما هو شأن الناصح ﴿ وَقُلْ لَهُمْ فِي ﴾ شأن ﴿ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أو خالياً بهم فإن النصح فى السر أنجع ﴿ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ مطابقاً للمقصود بالتأثير فيهم أو مؤثراً فى أنفسهم يستشعرون منه الخوف ويتمنون به كأن يقول حالكم فى النفاق معلوم وإن بدا منكم شيء آخر من المخالفة لم يبق إلا استئصالكم والجار على الأول متعلق بقل ، والبليغ من البلاغة . وعلى الثانى فالبليغ من البلوغ بمعنى الوصول والتأثير لكن فيه ضعف لأن معمول الصفة لا يتقدم الموصوف ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ ﴾ فيما يأمر به ويحكم ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بسبب أمره المبعوث إليهم أن يطيعوه بيان على أن الذى لم يرض بحكمه كافر وإن أظهر الإسلام مستوجب للقتل لأن انحصار الفائدة فى طاعته يدل أن من أباه قد نازع الله فى أحكامه فكان قتله عين الصواب ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالنفاق والتحاكم إلى الطاغوت ﴿ جَاءُوكَ ﴾ تائبين ﴿ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ ﴾ بالتوبة والإخلاص ﴿ وَاسْتَغْفَرَ

لَهُمُ الرَّسُولُ ﴾ بالشفاعة ، فيه التفات عن الخطاب تعظيما لشأنه بالرسالة التي يستحق بها الشفاعة في كبائر الذنوب ﴿ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً ﴾ قابلا توبتهم ﴿ رَحِيماً ﴾ بهم ووجد بمعنى علم وإن فسر بصادق فتوابا حال ، ورحيما بدل منه أو حال من الضمير فيه وعن العتبي قال : كنت جالساً عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لجاء أعرابي فقال السلام عليك يارسول الله سمعت الله يقول ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم ... الآية وقد جئتك مستغفراً من ذنوبي مستشفعاً بك إلى ربي فانصرف فغلبتني عيناي فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقال لي : يا عتبي ، الحق بالأعرابي فبشره أن الله قد غفر له . اه . من حلية النووي ﴿ فَلَا ﴾ زائدة أو ليس الأمر كما يقولون ﴿ وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لايحسن إيمانهم ﴿ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ ﴾ اختلف واختلط ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ ومنه الشجر لتداخل أغصانه وفي لفظ التحكيم إشارة إلى أنه يجب أن يكونوا هم الطالبين منك الحكم الساعين إليك ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً ﴾ ضيقاً أو شكاً ﴿ مِمَّا قَضَيْتَ ﴾ به ﴿ وَيُسَلِّمُوا ﴾ ينقادوا لحكمك ﴿ تَسْلِيماً ﴾ انقياداً ظاهراً وباطناً من غير معارضة . روى البخاري ومسلم أنها نزلت في الزبير ورجل من الأنصار اختصما في شراج من الحرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك » فقال الأنصاري : بأن كان ابن عمتك ، فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « اسق يا زبير حتى يرجع الماء إلى الجدر . . . » الحديث — الجدر الحائط كالجدار جمعه جدر وجدران — كان في الأولى أمره بما فيه رفق لصاحبه فلما أحفظه استوفى للزبير حقه قال ابن العربي في الأحكام : كل من اتهم النبي صلى الله عليه وسلم في الحكم فهو كافر وبعد النبي صلى الله عليه وسلم كل من لم يرض بحكم الحاكم العدل بعده فهو عاص . اه . وقال ابن عطاء الله في التنوير : في الآية دلالة على أن الإيمان الحقيقي لا يحصل إلا لمن حكّم الله ورسوله على نفسه قولا وفعلا ، أخذاً وتركا ، حبًا وبغضاً . اه . ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ على الذين أمروا بطاعة الرسول في حكمه من المنافقين أو جميع المسلمين ﴿ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ في الجهاد أو في التوبة كما كتبنا على بني إسرائيل ، وأن مصدرية أو مفسرة لأن كتبنا في معنى أمرنا ﴿ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ بالهجرة كأمر بني إسرائيل بالخروج من مصر ، بضم نون أن والواو للجمهور ولعاصم وحمزة كسرهما ، ولأبي عمرو كسر النون ﴿ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ بالرفع على البدل للجمهور والنصب على الاستثناء لابن عامر ﴿ مِنْهُمْ ﴾ كأبي بكر وثابت بن قيس وابن مسعود وعمار بن ياسر قالوا لو أمرنا لفعلنا والحمد لله الذي عافانا فبلغه عليه السلام فقال « إن من أمتي لرجالا الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي » ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ ﴾ من طاعة الرسول والرضا بحكمه ﴿ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ ﴾ في الدارين ، فيه إشارة إلى أن أوامره من قبيل الوعظ الذي كالدواء المر من الطبيب ﴿ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً ﴾ تحقيقاً لإيمانهم أو لثواب أعمالهم ونصبه على التمييز ﴿ وَإِذاً لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً ﴾ هو الجنة عطف على الجزاء وزيادة إذاً للدلالة على أن

هذا الجزاء مرتب على السابق ، ويحتمل القسم أى إذاً والله لآتيناهم ﴿ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ﴾ لا اعوجاج فيه ، أخره عن إعطاء الأجر لأنه المقصود منه أو صراطاً يصلون به جناب القدس فيفتح عليهم أبواب الغيب ، قال عليه السلام « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » ثم رغب فى الطاعة بالوعد عليها مراقبة أكرم الخلائق فقال ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ فيما أمرا به ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ ﴾ أفاضل أصحاب الأنبياء لمبالغتهم فى الصدق والتصديق : صدقوا الرسل بألسنتهم وقلوبهم وصدق ظاهرهم بالمعاملة وباطنهم بالمراقبة ﴿ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ القتلى فى سبيل الله ﴿ وَالصَّالِحِينَ ﴾ غير من ذكر ﴿ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً ﴾ رفقاء فى الجنة والرفيق كالصديق يطلق على الفرد والجمع والظاهر أنه جمع تمييز أو حال بأن يرافقهم ويستمتع برؤيتهم وزيارتهم والحضور معهم وإن كان مقرهم فى درجات عالية بالنسبة إلى غيرهم ، لأن الحجاب إذا زال شاهد بعضهم بعضاً وليس المراد كون الكل فى درجة واحدة ، روى أن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شكوا إليه شدة حبهم إياه وخوفهم من فراقه فى الجنة لأنه يرفع إلى أعلى المنازل فنزلت ، وجاء فى الصحيح أن المرء مع من أحب ﴿ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ ﴾ أى كونهم مع من ذكر ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ تفضل به عليهم لأنهم نالوه بطاعتهم وفيه حث على الدخول فى زمرتهم ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيماً ﴾ بمن هو أهل لذلك وبثواب الآخرة فثقوا بما أخبركم به « ولا ينبئك مثل خبير » ولما ذكر فضل الشهداء أتبعه بأمر الجهاد المسبب للشهادة منبهاً على أن المقصود به إعلاء كلمة الله بإهلاك أعدائه بأسبابه وآلاته بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ من عدوكم أى احترزوا منه وتيقظوا له بالحزم واستعداد الآلات ﴿ فَانْفِرُوا ﴾ أخرجوا إلى الجهاد حال كونكم ﴿ ثُبَاتٍ ﴾ جماعات متفرقة كالسرايا سرية بعد سرية جمع ثبة من ثبيت فلاناتثبية إذا ذكرت متفرق محاسنه ﴿ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً ﴾ مجتمعين ﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ ﴾ وهو المنافق يتأخرن عن القتال جعله منهم من حيث الظاهر واللام الأولى للابتداء دخلت على اسم إن للفصل بالخبر والثانية جواب قسم محذوف والقسم بجوابه صلة من والراجع إليه ما استكن فى ليبطئن ، والتقدير وإن منكم لمن أقسم بالله ليبطئن ، من بطأ بمعنى تبطأ والتشديد للتكثير أو للتعدية أى يبطئ غيره ويدعوه إلى التخلف عن المغازى كما هو حال المنافقين ﴿ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ ﴾ كقتل وهزيمة ﴿ قَالَ ﴾ المبطئ ﴿ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً ﴾ فيصيبنى ما أصابهم : يعد ذلك من نعم الله عليه ﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ ﴾ كفتح وغنيمة ﴿ لَيَقُولَنَّ ﴾ نادماً ، أكده تنبيهاً على فرط تحسرهم ﴿ كَأَنْ ﴾ مخففة واسمها محذوف أى كأنه ﴿ لَمْ يَكُنْ ﴾ بالياء للجمهور والتاء لابن كثير وحفص ﴿ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ﴾ معرفة وصداقة وهذا راجع إلى قوله « قد أنعم الله عليّ » اعترض به بين القول ومقوله وهو ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ ﴾ فى هذه الغزوة التى غنموا فيها ﴿ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ آخذ حظاً وافراً من الغنيمة ، وفى قوله « كأن لم يكن » تهكم ،

لأن تشبيه حالهم بحال عديم المودة يشعر بثبوت المودة بينهم ومعلوم أن لا مودة تنبيها لضعفة المسلمين الذين يظنون المودة ، وفي قوله « فأفوز فوزاً عظيما » تنبيه على أن دخولهم في المسلمين إنما هو لطلب المال وأنهم يعظمونه ، إذ غاية نظرهم وأملهم حطام الدنيا ، وفيه تنفير المؤمنين عن تعظيم الدنيا ، إذ هو حال الكفار ، ثم حث المؤمنين على الجهاد وترك المبالاة بالمنافقين المثبطين بقوله ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لإعلاء دينه ﴿ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ﴾ يبيعون ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ﴾ الفاء جواب شرط مقدر ، والمعنى إن تبطأ هؤلاء المؤثرون للحياة الدنيا فليقاتل لإعلاء كلمة الله الذين باعوا الحياة الدنيا واشتروا بها الآخرة ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كائنا من كان ﴿فَيُقْتَلْ﴾ يستشهد ﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾ يظفر بعدوه ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ثواباً جزيلا ، وفيه ترغيب في الجهاد وتكذيب قول المنافق : قد أنعم الله عليّ ، وقدم القتل على الغلبة تشجيعاً للمقاتل لنفور النفوس منه ، وإعلاماً بأن الغلبة لا تكون غالباً إلا لمن وطّأ نفسه على الشهادة ، سوّى الله الشهيد والغالب في ثبوت الأجر لهما وإن كان الأول أعظم أجراً لحديث « أيما سرية أخفقت كل لها الأجر ، وأيما سرية غنمت ذهب ثلثا أجرها » ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ مبتدأ وخبر ، أي أيّ صارف لكم حال كونكم ﴿لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استفهام توبيخ ، أي لا مانع لكم من القتال وقد ظهر دواعيه ﴿وَ﴾ في تخليص ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ في أيدي الكفار بالأسر والأذى ومنع الهجرة من عطف الأخص على الأعم ، لأن سبيل الله يعم جميع البر وتخليص ضعفاء المسلمين أعظمه وأخصه ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ بيان للمستضعفين على وجه الترقي من الأقوى لأنه إذا كان تخليص المستضعف من الرجال واجباً فما بعده أولى ، وذكر النساء والولدان للدلالة على فرط ظلمهم حيث عذبوا الأطفال الذين هم محل الرأفة والترحم وقيل الولدان العبيد والإماء والأول أوجه لما روى البخاري عن ابن عباس قال كنت أنا وأمي ـ اسمها لبابة ـ منهم ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ داعين يا ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ مكة ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ وصفت بوصف أهلها ، والظالم صفة لقرية ذكر لتذكير ما أسند إليه ، وأهلها رفع على الفاعلية وأل موصولة أي التي ظالم أهلها والظالم جار على القرية لفظاً وهو لما بعده معنى ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ يلي أمورنا ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ يمنعنا عنهم ، وقد استجاب الله دعاءهم فيسر لبعضهم الخروج إلى المدينة وجعل لمن بقي منهم خير نصير وولي : بفتح مكة على نبيه ، فنصرهم وولى عليهم عتاب ابن أسيد وكان ابن ثمانية عشرة سنة فأنصف مظلومهم من ظالمهم ، قال ابن العربي في الأحكام : أوجب الله في هذه الآية القتال لإنقاذ الأسرى من يد العدو مع ما في القتال من تلف النفس فبذل المال في فدائهم أوجب لاسيما وقد قال عليه السلام : « فكوا العاني » وقال مالك : على الناس أن يفكوا الأسارى بجميع أموالهم . اه . وقال ابن جزيّ في القوانين : يجب على الأسير الغني فداء نفسه وعلى الإمام فداء الفقراء من بيت المال ، وإن لم يف فبجميع أموال المسلمين ، ومن فدى الأسير بأمره رجع عليه بالفدية

اتفاقاً ، وإن فداه بغير علمه وأمره رجع أيضاً عليه ، خلافاً للشافعى ، ولا يجوز للمسلم الأسير أن يجعل حراً مسلما رهناً فى موضعه ، ويجوز الكافر أن يرهن كافراً من أقاربه أو من غيرهم وإن شرط أن يكون هذا المرهون عبداً إن لم يأت بالمال فله شرطه ، وإن رهن ولده أو غيره ولم يأت بالفداء فإن كان لعذر من موته أو حبسه أو غير ذلك لم يسترق الرهن ، وإن كان لغير عذر استرق . اه . ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ لإعلاء كلمته وابتغاء مرضاته : ترغيب للمؤمنين أن يكون قتالهم لإزالة أنجاس المشركين وإماطة الأذى عن سبيل الله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ فى طاعة الشيطان الموصل إلى النار ، ولما ذكر مقصد الفريقين أمر أولياءه بقتالهم بقوله ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ أنصار دينه تغلبوهم لقوتكم بالله تعالى ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ ﴾ بالمؤمنين أى سعيه بالفساد على جهة الاحتيال ﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾ بالإضافة إلى كيد الله ، إذ غاية كيد الشيطان الوسوسة والكذب ، فلا تخافوا أولياءه ، وهذا تشجيع للمؤمنين ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ﴾ عن قتال الكفار لما طلبوه بمكة لأذى الكفار لهم وهم جماعة من الصحابة منهم عبد الرحمن بن عوف والمقداد وقدامة بن مظعون الجمحى وسعد ابن أبى وقاص ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ ﴾ مما أمرتم به ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ ﴾ الكفار أى عذابهم فى القتل ﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ أى كخشيتهم عذاب الله . وإذا للمفاجأة جواب لما وكخشية الله من إضافة المصدر إلى المفعول فى موضع المصدر أو الحال من فاعل « يخشون » أى مشبهين بأهل خشية الله ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ من خشيتهم له ، عطف على كخشية إن جعل حالا لا مصدراً ، لأن أفعل التفضيل إذا نصب ما بعده لم يكن من جنسه بل هو معطوف على اسم الجلالة ، أى : أو كخشية أشد خشية منه على الفرض اللهم إلا أن يجعل الخشية ذات خشية كقولهم جد جده ، وقد مرّ فى البقرة مثله فى أشد ذكراً ، والله أعلم ﴿وَقَالُوا﴾ جزعا من الموت ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ فنموت على الفراش زيادة توبيخ حيث لم يكتفوا بما فى ضميرهم من الخوف حتى أظهروه ويحتمل أنهم قالوه فى أنفسهم ، فحكاه الله عنهم ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ سريع الفناء ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ الجنة ﴿خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ الله بترك مخالفته فلم تطلبون الإقامة على هذا القليل السريع الزوال ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بالتاء للجمهور والياء لابن كثير وحمزة والكسائى لا تنقصون من أعمالكم وآجالكم ﴿فَتِيلًا﴾ أدنى شىء قدر قشرة النواة فجاهدوا ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا﴾ من الأمكنة ﴿يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾ فلا خلاص منه ﴿ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ﴾ حصون أو قصور ﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾ حصينة مرتفعة . وعن السدى فى بروج السماء ، والبروج فى الأصل : بيوت على أطراف القصر من تبرّجت المرأة : ظهرت ، فإذا كان الموت أمراً محتوماً أو قدراً مقدوراً فلا وجه لطلب التأخير عن القتال ، إذ الإقدام فيه لا يدنيه والإحجام لا يقصيه ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ أى المبطئين ، وما بينهما استطراد ، أو اليهود بقرائن الألفاظ فى معنى أقوالهم ﴿حَسَنَةٌ﴾

خصب وغنيمه ﴿ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ لا بركة اتباعك والإيمان بك ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ جدب وبلاء أو هزيمة كما حصل لليهود عند قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة من الجدب ﴿يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ يا محمد ، أي بسببك ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ كُلٌّ ﴾ من الحسنة والسيئة ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ من قبله لا خالق سواه يبسط ويقبض بحسب إرادته ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ يوعظون به وهو القرآن ، ولو فهموه لعلموا أن الكل من الله ، وهو استفهام تعجب من فرط جهلهم ، ونفي مقاربة الفعل أشد من نفيه ﴿مَا أَصَابَكَ ﴾ أيها الإنسان ﴿مِنْ حَسَنَةٍ ﴾ خير ﴿فَمِنَ اللَّهِ ﴾ أتتك فضلا منه ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ ﴾ بلية ﴿ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ حيث ارتكبت ما يوجبها من الذنوب ، وهذا لا ينافي قوله « كل من عند الله » فإن الكل منه إيجاداً وإيصالا إلا أن الحسنة امتنان والسيئة مجازاة وما يعفو الله أكثر ، وقيل الخطاب للنبي والمراد غيره ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ ﴾ يا محمد ﴿ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾ حال مؤكدة ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ على رسالتك بخلق المعجزات ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ لأن الرسول مبلغ والآمر هو الله ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ عن طاعته فلا يهمنك ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ حافظاً لأعمالهم بل نذيراً وإلينا أمرهم فنجازيهم ، وحفيظا حال من الكاف ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي المنافقون إذا جاءوك أمرنا ﴿طَاعَةٌ ﴾ لك والأصل النصب ورفعها للدلالة على الثبوت ﴿ فَإِذَا بَرَزُوا ﴾ خرجوا ﴿ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ بإدغام التاء في الطاء لأبي عمرو وحمزة فقط دبرت ليلا وأضمرت رأياً ﴿ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ لك في حضورك من الطاعة أي عصيانك ﴿وَاللَّهُ﴾ علام الغيوب ﴿ يَكْتُبُ ﴾ يأمر بكتب ﴿مَا يُبَيِّتُونَ﴾ في صحائفهم ليجازوا عليه ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ بالصفح ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ثق به فإنه كافيك ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ مفوضاً إليه ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ وما فيه من المعاني البديعة من المواعظ والأوامر والنواهي مع الفصاحة وأخبار الغيب في أحوال الأولين والمنافقين وما يأتي وعدم التناقض ، أفلا يتدبرون هذا فيستدلون به على رسالتك ، وأصل التدبر النظر في دبر الشيء وعواقبه والفكر النظر في مقدماته ثم استعمل في كل تأمل ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ لفظاً بأن يوجد فيه موضع طعن يدركه أرباب البلاغة فيدركون فيه الغث والسمين والركيك والفصيح ، أومعنى بأن يوجد فيه نقل مخالف لما في زبر الأولين مع احتوائه على أحوال المبدإ والمعاد وأحكام الشرائع أصولا وفروعا ، أو مخالف العقل في أحكامه لنقصان القوة البشرية ، وأما اختلاف الأحكام بالنسخ فلاختلاف الأحوال والمصالح ، وإنما امتنع التعارض في القرآن لأنه كلام المحيط بكل شيء علماً . قال ابن عطية فإن عرضت لأحد شبهة وظن اختلافاً فيه فليتهم نظره وليسأل من هو أعلم منه ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ﴾ عن سرايا النبي مما حصل لهم ﴿ مِّنَ الْأَمْنِ﴾ بالنصر ﴿ أَوِ الْخَوْفِ ﴾ بالهزيمة ﴿أَذَاعُوا بِهِ ﴾ أفشوه ، نزل في جماعة من المنافقين وضعفاء المؤمنين كانوا يفعلون ذلك فيضعف قلوب المؤمنين ويتأذى به النبي لأن المنافقين

يفشون إلى ما يسيئه فإذا جاءهم خبر فتح ضعفوه وحقروا شأنه وأذاعوا ذلك التحقير ، وإذا سمعوا خبر خوف أو مصيبة عظموه وأذاعوا ذلك ، والباء زائدة ، أو ضمن أذاع معنى تحدث ، والآية عطف على ويقولون طاعة ، وقوله « أفلا يتدبرون . . . الآية » اعتراض لتحذير إضمار ما يخالف الظاهر والتنبيه أن فى تدبره ما يوجب طاعة المنزل عليه ، وفى الصحيح : أن عمر بن الخطاب جاء إلى المسجد فوجد قوماً يقولون : طلق رسول الله نساءه . قال : فقلت يا رسول الله أطلقت نساءك ؟ فقال : لا ، قال فقمت على باب المسجد فقلت : ألا إن رسول الله لم يطلق نساءه ، فأنزل الله « وإذا جاءهم أمر . . الآية » ، قال : وأنا الذى أستنبطه . اهـ . قال القسطلانى : ظاهر أقوال المفسرين أن سبب نزول الآية الإخبار عن السرايا والبعوث بالأمن والخوف ، وهو خلاف ما فى حديث مسلم . اهـ . ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ أى الخبر ﴿إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ من أكابر الصحابة ، أى لو سكتوا عنه حتى يخبروا به ﴿لَعَلِمَهُ﴾ على أى وجه يذكره أو هل هو مما يذاع أو لا ﴿الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ يطلبون علمه وهم المذيعون ﴿مِنْهُمْ﴾ من الرسول وأولى الأمر وهم الذين يستنبطونه بأفكارهم الثاقبة ، وأصل الاستنباط إخراج النبط وهو الماء يخرج من البئر أول ما يحفر ، فمن على الأول ابتدائية ، وعلى الثانى بيانية أو تجريدية أو تبعيضية ، وفى الآية إنكار على من يتبادر إلى أخبار الأمور قبل تحققها وقد لا تصح ، فى الحديث « كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع » رواه مسلم ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ لكم بالقرآن ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾ فيما يأمركم به من الفواحش ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منكم وفقه الله بعلم من لدنه قبل القرآن والإسلام كزيد بن عمرو بن نفيل موحد الجاهلية ، أو المعنى : لاتبعتم الشيطان بالإصغاء إلى المثبطين فى ترك القتال ، إلا قليلا : هو الرسول وأولو الأمر . قال فى غاية الأمانى · وهذا أنسب بالمقام . وقيل : الاستثناء من فاعل « أذاعوا » ، أى أذاعوا به إلا قليلا منهم ، وما بينهما اعتراض . روى عن ابن عباس ﴿فَقَاتِلْ﴾ يا محمد ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لإعلاء دينه ونصر المستضعفين ، ثبطوا أو تركوا ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ أى إلا فعل نفسك فلا يضرك مخالفتهم وتقاعدهم فتقدم إلى الجهاد وإن لم يساعدك أحد فإن الله ناصرك لا الجنود . والآية نزلت فى قصة بدر الصغرى فى لقاء أبى سفيان المتقدمة فى آل عمران ، فقال عليه السلام : والذى نفسى بيده لأخرجن ولو وحدى . قال العلماء : هذا الخطاب للنبى ولكل واحد من الأمة بالاقتداء فى خاصة نفسه . وقد خرج عليه السلام للقاء أبى سفيان وما معه إلا سبعون . وقد اقتدى به أبو بكر الصديق فى قتال أهل الردة فقال : لأخرجن إليهم ولو وحدى ولو خالفتنى يمينى لجاهدتهم بشمالى . قال عبدالرحمن الثعالبى : ولهذا ينبغى لكل مؤمن أن يعزم على الجهاد ولو وحده . اهـ . وقرئ « لاتُكلفْ » بالجزم ، و « لا نكلف » بالنون وكسر اللام مبنياً للفاعل : أى لا نكلف أحداً إلا نفسه ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ رغبهم فى القتال بذكر الثواب والعقاب ولا تطلب تعنيفهم ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ﴾ حرب

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بإلقاء الرعب فى قلوبهم كما فعل بأبى سفيان ﴿ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا ﴾ من كل ذى بأس ﴿ وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ تعذيباً منهم وهذا كاللازم للأول وفيه تهديد لمن لم يتبعه ، ولما كان الجهاد من شفاعة المسلمين رغب فيه بقوله ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً ﴾ موافقة للشرع بأن راعى بها حق مسلم فى دفع الضر وجلب النفع فى حوائجه ابتغاء وجه الله ، ويدخل فيه الإصلاح بين المسلمين وشفعهم فى جهاد عدوهم والدعاء لهم فى ظاهر الغيب ﴿ يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ ﴾ من الأجر ﴿ مِّنْهَا ﴾ بسببها ﴿ وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً ﴾ مخالفة للشرع كأن يريد بها محرماً كقبول الهدية عليها ، ويدخل فيها النميمة ونقل الحديث لإيقاع العداوة بين المسلمين وشفع الكفار فى قتال المؤمنين ﴿ يَكُن لَّهُ كِفْلٌ ﴾ نصيب من الوزر ﴿ مِّنْهَا ﴾ بسببها أو من بعضها . والشفاعة من الشفع ، لأن الشافع يضم نفسه إلى ذى الحاجة ، والكفل فى الأصل : المثل ، من الكفالة وهو القيام بمثل ما على الغريم ، أو الكفل : الضعف من الشىء ، واشتقاقه من الكفل لمشقة الركوب عليه لارتفاعه ، ثم استعمل فى الحمل على كل شدة ، انظر الكواشى ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴾ مقتدراً فيجازى كل أحد بما عمل ، من أقات على الشىء : اقتدر . قال الزبير بن عبد المطلب :

وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ ۞ وَكُنْتُ عَلَى إِسَاءَتِهِ مُقِيتَا

أو معناه حفيظاً من القوت لأنه يحفظ النفس . ثم أردف الشفاعة التى هى من حقوق المسلمين ما هو أفضل منها وهو السلام فقال ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ ﴾ كأن قيل لكم : السلام عليكم ﴿ فَحَيُّوا ﴾ المحيّى ﴿ بِأَحْسَنَ مِنْهَا ﴾ بأن تقولوا له : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ﴿ أَوْ رُدُّوهَا ﴾ أى مثلها بأن تقولوا كما قال ، أى الواجب أحدهما والأول أفضل . والتحية فى الأصل مصدر : حياك الله ، أى جعل لك حياة طويلة وهو تحية الجاهلية فلما جاء الإسلام أبدل بالسلام ، وهو المراد فى الآية لأنه أتم وأحسن ، لأن طول الحياة بلا سلامة عناء ، وإذا كان فى حياته سليما كان أتم . والابتداء بالسلام سنة على الكفاية متأكدة ، لأنه من شعار الإسلام فيتأكد إظهاره . وأما الرد على المسلِّم فقد أجمع العلماء على وجوبه : لأن تركه إهانة للمسلم ، وإذا ردّ واحد من الجماعة سقط الفرض عن الباقين وإن تركوه أثموا كلهم ، ويسلم الراكب على الماشى ، والماشى على القاعد ، والقليل على الكثير ، والصغير على الكبير ، كما فى صحيح البخارى ومسلم . وإذا تلاقى رجلان فالمبتدئ بالسلام هو الأفضل ، كما فى الترمذى وأبى داود . وعن أبى هريرة قال عليه السلام : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » اه أخرجه مسلم . ويبدأ بالسلام قبل الكلام وكل حاجة . وكان عليه السلام إذا مرّ على جماعة من الصبيان يسلم عليهم كما فى الصحيحين . وقوله « بأحسن منها » هو أن يزيد عليه « ورحمة الله » فإن قاله المسلم زاد «وبركاته» وهى النهاية ، فإن قالها المسلم ردّ عليه مثله كما فى الصحيح ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ محاسباً أو مقتدراً أو كافياً أو عالماً فيجازى عليه ، ومنه ردّ السلام ، وخصت السنة الكافر

والمبتدع والفاسق والمسلّم على قاضي الحاجة ومن في الحمام والآكل ، فلا يجب عليهم الرد ، بل يكره في غير الأخير ، ويقال للكافر : عليك . وحكم النساء مع النساء في السلام كالرجال مع الرجال ، ولا يسلم الرجل على الشابة الأجنبية بخلاف المتجالة ، والمصافحة جائزة أو مستحبة ، ويكره تقبيل اليد عند مالك والله أعلم ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ مبتدأ وخبر ، أو « الله » مبتدأ والخبر ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ وما بينهما اعتراض لتأكيد معنى الألوهية ، واللام جواب قسم محذوف تعليل لما قبله . وعدى بإلى لتضمين معنى الحشر ، أى والله ليحشرنكم من قبوركم ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أى إلى محل قيام يوم القيامة ، أو إلى بمعنى في : أى قيام الناس من القبور أو للحساب : مصدر قام قياماً وقيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى في يوم القيامة حال منه ، أو في الجمع صفة المصدر ﴿ وَمَنْ ﴾ أى لا أحد ﴿ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ قولا ، فلا يتطرق الكذب إلى خبره ﴿ فَمَا لَكُمْ ﴾ مبتدأ وخبر ، أىْ أىُّ شيء ظاهر لكم من أمارات الإيمان ﴿فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ يجوز تعلقه بما تعلق به الخبر ، أو بمحذوف هو حال من قوله ﴿ فِئَتَيْنِ ﴾ فريقين ، نصب على الحال كقولك : مالك قائماً أى فما لكم جماعتين تفترقون في المنافقين . ومعنى الافتراق مستفاد من « فئتين » واختلف المفسرون في هؤلاء المنافقين . وعن ابن عباس : هم قوم كانوا بمكة أظهروا الإيمان لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في كتب بعثوا بها إلى المدينة ليتمكن لهم التجارة ، فخرجوا إلى الشام فأعطاهم كفار قريش بضائع يقولون لهم أنتم لا تخافون أصحاب محمد لأنكم تخدعونهم بإظهار الإيمان ، فاتصل خبرهم بالمدينة فاختلف المسلمون فيهم ، فقالت فرقة : نخرج إليهم فإنهم منافقون ، وقالت فرقة : لا سبيل إليهم ، وقيل : في قوم جاءوا إلى المدينة لأمر وأسلموا ثم استأذنوا رسول الله في الخروج إلى مكة ليأتوا ببضائع لهم يتجرون فيها فخرجوا وأقاموا بمكة فاختلف المسلمون فيهم . وقيل : في ناس منهم قدموا وأسلموا ثم ندموا واستأذنوه عليه السلام في الخروج إلى البدو لاجتواء المدينة فخرجوا كهيئة المتنزهين ، فلما بعدوا عن المدينة كتبوا إلى رسول الله : إنا على الذى فارقناك عليه ولكن اشتقنا إلى أرضنا فلحقوا بالكفار ثم خرجوا للتجارة فاختلف المسلمون فيهم ، ويؤيد هذه الأقوال ما يأتى من قوله « حتى يهاجروا » وقيل : في ناس رجعوا مع ابن أبيّ عن رسول الله يوم أحد فاختلف الناس فيهم فقال فريق اقتلهم ، وقال فريق : لا ، وهذا ما في البخارى ومسلم ، وعلى هذا معنى « حتى يهاجروا » أى يرجعوا عما نهى الله عنه ، والله أعلم ﴿ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم ﴾ ردهم إلى الكفر وبددهم ﴿ بِمَا كَسَبُوٓا ﴾ من أسبابه ، وأصل الركس : رد الشيء مقلوباً والجملة حالية تؤكد معنى الإنكار ، ولذا أتبعه بقوله ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ﴾ أى تعدوهم من جملة المهتدين ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ إلى الهدى ﴿ وَدُّوا ﴾ أى تمنى الراجعون إلى الكفر ﴿ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ كفراً ﴿ كَمَا كَفَرُوا ﴾ والكاف صفة مصدر محذوف ، و « ما » مصدرية أى كفراً مثل كفرهم ﴿ فَتَكُونُونَ ﴾ أنتم وهم ﴿ سَوَآءً ﴾ في الكفر فتكونون عطف على تكفرون ، وجملة « ودوا » استئناف لبيان بُعد حالهم

عن الاهتداء ﴿ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ توالونهم وإن أظهروا الإيمان ﴿ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ﴾ من الكفار ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فتحكموا بإيمانهم بهجرة صحيحة لله ورسوله لا لأغراض الدنيا ، أو حتى يهاجروا : أي يخرجوا من ديارهم إلى الجهاد ، أو يهجروا ما نهى الله عنه ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أعرضوا عن ذلك الإيمان وأقاموا على ما هم عليه ﴿ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ إذ لا فرق بينهم وبين سائر الكفار ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا ﴾ توالونه ﴿ وَلَا نَصِيرًا ﴾ تنتصرون به ، وفيه دليل على أن الزنديق إذا عثر عليه يقتل ولا تقبل توبته . وفي الآية مبالغات في النهي عن موالاتهم بتكرار النهي وتنكير المفعول وتكرير « لا » ثم استثنى طائفة من هذا النوع فقال ﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ ﴾ وينتهون ﴿ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ﴾ عهد بالأمان لهم ولمن وصل إليهم كما عاهد النبي صلى الله عليه وسلم هلال بن عويمر الأسلمي وقت خروجه إلى غزوة الفتح والاستثناء من قوله « فخذوهم واقتلوهم » لا من « لا تتخذوا منهم ولياً » لأن ولاية الكفار حرام بلا استثناء بخلاف ترك القتل لأن النبي عاهده أن لا يعينه ولا يعين عليه ، ومن وصل إليه ولجأ فله الجوار ﴿ أَوْ ﴾ الذين ﴿ جَاءُوكُمْ ﴾ وقد ﴿ حَصِرَتْ ﴾ ضاقت ﴿ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ ﴾ مع قومهم ﴿ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ﴾ معكم ، أي ممسكين عن قتالكم وقتالهم كبني مدلج ، وهو عطف على الصلة أي إلا من رجع عنكم ووصل إلى المعاهدين ، أو من أتى الرسول وكف عن قتال الفريقين ، ويجوز عطفه على صفة « قوم » ، والمعنى : أو الذين يصلون إلى قوم حصرت صدورهم فإن المتصل بمن كفّ حكمُه حكمُه ، والأول أوجه كما في البيضاوي وغاية الأماني ، لأن المتصل بالكافّ عن القتال كافّ فلا وجه لإلحاقه به ، بخلاف المتصل بالمعاهد ، ولأن قوله « فإن اعتزلوكم » للكف لا للاتصال ، ولأن هؤلاء هم بنو مدلج سيدهم سراقة بن مالك جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاهده على أن لا يقاتله وأخبره أنه عاهد قريشاً أن لا يقاتلهم وسأله أن يعاهد قومه فإن أسلم قريش أسلموا نعاهدهم على ذلك ، ولأن كراهة قتال الفريقين صلة لحصرت صدورهم ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ بأن يقوّي قلوبهم ﴿ فَلَقَاتَلُوكُمْ ﴾ ولكنه لم يشأه فألقى في قلوبهم الرعب ، وفيه إشارة إلى تذكير المسلمين المنة في كف بأس المعاهدين عنهم وتأكيد للكف عنهم بعد كفهم ، ولذا أمره بقوله ﴿ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ ﴾ بعد ذلك الاعتزال ﴿ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ ﴾ أي الصلح أي انقادوا ﴿ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ بالقتل وأخذ الأموال ، وهذا الحكم ـ من أن الكافر إذا اعتزل القتال لا سبيل عليه ـ كان أول الإسلام ثم نسخ على قول بعض المفسرين بقوله في براءة « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » وقال بعضهم : لا نسخ إذ هذه الآيات في المعاهدين فكيف يقال بنسخها ﴿ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ ﴾ بإظهار الإيمان عندكم ﴿ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ ﴾ بوفاقهم على الكفر إذا رجعوا إليهم وهم منافقو الأعراب : أسد وغطفان كانوا إذا أتوا إلى المدينة أظهروا الإيمان ليسهل لهم الميرة ، وإذا رجعوا إلى قومهم نقضوا العهد وبيّنوا

الكفر ، فإذا قيل لأحدهم : سمعنا أنك آمنت ! يقول : آمنت بهذا العقرب أو الخنفساء أو القرد ، وإذا رجعوا إلى المدينة ينكرون ذلك ويقولون : والله إنا على دينكم يريدون الأمن من الفريقين ﴿ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ ﴾ الكفر ﴿ أُرْكِسُوا فِيهَا ﴾ وقعوا أشد وقوع ﴿ فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ ﴾ لم يتركوا قتل وأخذ مال من وجدوا فرصته في البادية من المسلمين ﴿ وَ ﴾ لم ﴿ يُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ ﴾ الصلح ﴿ وَ ﴾ لم ﴿ يَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ ﴾ عنكم ﴿ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ في أي مكان تمكنتم منهم أبلغ من « حيث وجدتموهم » لأن الثقافة في الأصل الخفة والحذق ﴿ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ برهاناً بيناً على قتالهم وسبيهم لغدرهم وانكشاف حالهم ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا ﴾ بغير حق أي ما كان له ذلك في شرع الله . أو النفي بمعنى النهي ﴿ إِلَّا خَطَأً ﴾ فإنه على عرضته ، ونصبه على الحال أو المفعول له ، أي لا يقتله في شيء من الأحوال إلا حال الخطأ ، أو لا يقتله لكل علة إلا للخطأ ، أو على أنه صفة مصدر محذوف ، أي إلا قتلا خطأ ، أو الاستثناء منقطع : أي لكن إن قتله خطأ فجزاؤه مايذكر ، والخطأ : عدم القصد للفعل أو للشخص إن قصدَ رمي غيره كصيد أو شجر ، أو ضربه بما لا يقتل غالباً ، أو بكونه غير مكلف ، والآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي أخي أبي جهل لأمه لما قتل الحارث ابن زيد العامري وهو لا يعلم بإسلامه ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ نسمة ﴿ مُؤْمِنَةٍ ﴾ عليه ، أو فواجبه تحرير رقبة مؤمنة سليمة من العيوب صغيرة أو كبيرة بأن كانت الصغيرة لمسلمين أو لمسلم ، وكذا من وُلد بين المسلمين حكمه حكم المسلم في العتق والصلاة عليه وجميع الأحكام ، قاله ابن العربي في الأحكام ﴿ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ ﴾ مؤداة ﴿ إِلَىٰ أَهْلِهِ ﴾ أي ورثة المقتول يقتسمونها كسائر المواريث ، فإن لم يكن له ورثة فلبيت المال ﴿ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا ﴾ يتصدقوا عليه بها بأن يعفوا عنها ، وبينت السنة أنها مائة من الإبل ، ولا خلاف في هذا : عشرون بنت مخاض ، وكذا بنات لبون وبنو لبون وحقاق وجذاع ، وأنها على عاقلة القاتل إن ثبتت ببينة لا باعتراف ، موزعة عليهم ثلاث على سنين على حسب حالهم في المال فيؤدي كل ما لا يضرّ به بشرط كونه ذكراً بالغاً عاقلا موسراً موافقاً في الدين والدار ويبدأ بالأقرب فالأقرب ، فإن لم يفوا ، فمن بيت المال ، فإن تعذر فعلى الجاني ، فإن عدمت الإبل فقد قال مالك : على أهل الذهب ألف دينار ، وعلى أهل الورق اثنا عشر ألف درهم ، وقال أبو حنيفة : عشرة آلاف درهم . وقال الشافعي : بل قيمة الإبل بحساب الوقت . قال ابن العربي : لامدخل في الدية لغير الإبل والذهب والفضة من ثياب أو بقر أو طعام خلافاً لأبي يوسف . اهـ . وما ذكره هو مشهور مذهب مالك ، وروى أن عمر جعل على أهل البقر مائتي بقرة ، وعلى أهل الشاء ألفي شاة ، وعلى أهل الحلل مائتي حلة . أخرجه أبو داود ﴿ فَإِنْ كَانَ ﴾ المقتول ﴿ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ كحربيّ أسلم ولم يتمكن من الهجرة فقتل مسلماً ، أو لم يرث من جميع ورثته في دار الحرب ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ على قاتله كفارة ، ولا دية تسلم إلى أهله

لحرابتهم كواقعة الحارث بن زيد . وقيل: إن قتل فى بلد المسلمين وقومه حربٌ ففيه الدية لبيت المال والكفارة . ذكره ابن عطية فى تفسيره ﴿وَإِنْ كَانَ﴾ المقتول ﴿مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ عهد ، كأهل الذمة . قال مالك : يعنى وهو مؤمن حملا له على ما قبله . وقال الشافعى : هو الكافر له ولقومه العهد ﴿فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ وهى نصف دية المسلم عند مالك وأحمد ، لحديث أبى داود عنه عليه السلام « دية المعاهد نصف دية الحر » وحديث النسائى « لأهل الذمة نصف عقل المسلمين » وهم اليهود والنصارى . وقال أبو حنيفة : مثل دية المسلم . وقال الشافعى : ثلث دية المسلم إن قتل كتابياً ، وخمس الثلث إن كان مجوسياً ثمانمائة درهم ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ على قاتله ، وإن قتل كافرٌ ذمّىٌ مؤمناً خطأ فعليه الدية إجماعا : قال مالك: هو النصف . أنظر الأحكام لابن العربى . وأتى كلٌّ على نصفه ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ الرقبة بأن فقدها وما يحصلها به ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ عليه كفارة ولا ينتقل إلى الإطعام إذلم يذكره الله هنا ﴿تَوْبَةً﴾ نصب على المفعول له ، أى شرع ذلك توبة ، من تاب الله عليه : قبل توبته ، أو على المصدر : أى تاب عليكم توبة ، أو حال بحذف مضاف ، أى فعليه صيام شهرين ذا توبة ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ صفتها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأحوال عباده ﴿حَكِيمًا﴾ فى شرع الأحكام على الوجه المذكور ، لم يوجب القصاص على الجانى خطأ ولم يهمل شأن المقتول رأساً ، وشرع الدية والتحرير رعاية لحق الله وحق عباده ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ لأجل إيمانه ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ فى النار ، وهذا مؤول بأن هذا جزاؤه إن جوزى ، أو بمن يستحله : إذ روى أن الآية نزلت فى مِقيس ابن ضبابة حين وجد أخاه مقتولا فى بنى النجار ولم يدر قاتله فألزمهم النبى صلى الله عليه وسلم بالدية فأعطيها مقيس ثم قتل به رجلا مؤمناً وارتد ولحق بالكفار ، واستثناه النبى صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة ممن أمّن من أهلها ، فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة ، لقوله «ويغفر ما دون ذلك» جمعاً بين الأدلة ، وعن ابن عباس أنها على ظاهرها وأنها ناسخة لغيرها من آيات المغفرة . وبينت آية البقرة أن قاتل العمد يقتل به وأن عليه الدية إن عُفى عنه ، وسبق قدرها ، ولا كفارة فيه عند مالك وأبى حنيفة ، خلافاً للشافعى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ﴾ سافرتم فى الجهاد ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ ولحمزة والكسائى بالمثلثة فى الموضعين : أى بالغوا فى الكشف والاحتياط حتى لا تقعوا فى محرم كقتل من ترونه فى دار الحرب إذ ربما كان مسلماً ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ اللام للتبليغ و « من » موصولة أو موصوفة ، و « ألقى » بمعنى يلقى ، و « السلم » بلا ألف لنافع وابن عامر وحمزة : الانقياد والطاعة بكلمة الشهادة التى هى مناط حقن الدم ، وبألف للباقين بمعناه ، أو هو التحية : أى من حياكم بتحية الإسلام التى هى أمارة على إسلامه ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ وإنما قلت هذا تقية لنفسك ومالك فتقتلوه . روى البخارى عن ابن عباس : كان رجل فى غنيمة له فلحقه المسلمون فقال السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنمه فنزلت . وفى القسطلانى :

فالرجل هو عامر بن الأضبط والذى قتله محلم بن جثامة . اه . وفى البخارى ومسلم أن سرية أغارت على فدك فرأوا رجلا فى غنمه فشد عليه أسامة بالسيف فقال : لا إله إلا الله ، فقتله ، فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق عليه فقال « كيف بك إذا جاء يوم القيامة ولا إله إلا الله معه » قال : إنما قاله خوفاً من السيف ، قال : « فهلا شققت عن قلبه » قال أسامة : فلم يزل يكررها حتى تمنيت أن لو أسلمت ذلك اليوم . قال القسطلانى : واسم المقتول : مرداس بن نهيك ، ولا مانع من تعدد الأسباب ﴿ تَبْتَغُونَ ﴾ تطلبون بذلك ﴿ عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾ متاعها من الغنيمة فتمنعكم من التثبت والبحث عن حال من تقتلونه ﴿ فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ تغنيكم عن قتل مثله لماله ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ ﴾ تعصم دماؤكم وأموالكم بكلمتى الشهادة من غير بحث قلوبكم ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ بالثبات فى الإيمان والاشتهار به والاستقامة ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ وافعلوا بالداخل فى الإسلام كما فعل بكم ولا تبادروا بالقتل ظناً بنفاقه ، فإبقاء ألف كافر أهون عند الله من قتل مسلم واحد ، وتكريره تأكيد لتعظيم الأمر وترتيب الحكم على ما ذكر من حالهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ عالماً به وبالغرض منه فلا تتهافتوا فى القتل واحتاطوا فيه . وفى لباب التأويل : قال العلماء : إذا رأى الغزاة فى بلد أو قرية أو حى من العرب شعار الإسلام يجب عليهم أن يكفوا عنهم ولا يغيروا عليهم لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث جيشاً أو سرية يقول لهم : « إذا رأيتم مسجداً أو سمعتم مؤذناً فلا تقتلوا أحداً » أخرجه أبو داود والترمذى . اه . ولما كان الأمر بالتثبت يوقع فى وهم التقاعد عن الجهاد حث الله على المبادرة إليه بقوله ﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ ﴾ عن الجهاد حال كونهم ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ ﴾ بالنصب على الاستثناء أو الحال لنافع وابن عامر والكسائى ، وبالرفع للباقين صفة للقاعدين إذلم يقصد بهم معينون أو بدل منه وقرئ بالجر على أنه صفة للمؤمنين أو بدل منه ﴿ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ ذوى العاهات كالعمى والمرض والعرج ، وغيرهم الأصحاء القاعدون اكتفاء بغيرهم لأن الجهاد فرض كفاية ، لا يستوون هم ﴿ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ أى لامساواة بينهم وبين من قعد عن الجهاد من غير علة . وفائدة ذكر عدم المساواة وإن كان معلوماً لتذكير ما بينهما من التفاوت ليرغب القاعدون فى الجهاد لنيل المراتب ، وأما أولو الضرر أى العذر فإنهم يساوون المجاهدين فى أصل الثواب لا فى المضاعفة ، لأنها تتعلق بالفعل ، ثم أوضح كيفية نفى الاستواء بقوله ﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ نصب على نزع الخافض ، أى بدرجة أو على المصدر ؛ لأنه تضمن معنى التفضيل ووقع موضع المرة منه أو على الحال ، أى ذوى درجة ﴿ وَكُلًّا ﴾ من الفريقين مفعول أول لـ ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾ أى المثوبة أو المنزلة الحسنة مفعوله الثانى وهى الجنة ، ثم كرر التفضيل للحث على الجهاد بقوله ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ نصب على المصدر لتضمن « فضل » معنى أجر ﴿ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ ﴾ نصب على البدل من « أجرا » أو على المصدر كقولك : ضربته أسواطاً كأنه قيل : فضلهم تفضيلات

﴿ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ﴾ عطف على درجات ، أو منصوبان بفعلهما المقدر ، وإفراد الدرجة أولا وجمعه ثانياً إشارة إلى أن التنكير للتعظيم فهى فى المعنى درجات ، أو الأولى درجتهم عند الله ، والثانية مراتبهم فى الجنة أو الدرجة فى الدنيا من الغنيمة والذكر الجميل ، والدرجات فى الآخرة ، ولذلك أردفها بالمغفرة والرحمة ، أو الدرجة الجهاد الأصغر ، والدرجات الجهاد الأكبر جهاد النفس على ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى انصرافه من تبوك قال : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » قاله فى غاية الأمانى . وفى لباب التأويل والتكملة : تفضيلهم درجة على القاعدين لضرر ، ودرجات على القاعدين لغير ضرر . لأن المجاهد باشر الجهاد بنفسه وماله مع النية وأولو الضرر لهم نية فقط فنزلوا عن المجاهدين درجة . اهـ . وقال فى فتوح الغيب : والذى تقتضيه البلاغة أن المراد بالقاعدين هم غير أولى الضرر فى الموضعين معاً ، وإنما كرر « فضل الله المجاهدين » ليناط به من الزيادة ما لم ينط به أولا ، ويطابقه أن « غير أولى الضرر » نزل لما قال ابن أم مكتوم حين سمع « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون » لو أستطيع الجهاد لجاهدت ، كما فى البخارى . ويلائم حديث أنس مرفوعاً « لقد خلفتم فى المدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم » قاله حين رجع من غزوة تبوك إلى المدينة ، والحديثان يؤذنان بالمساواة بين المجاهدين وأولى الضرر وعليه دلالة مفهوم الصفة ، والاستثناء فى « غير أولى الضرر » . اهـ ملخصاً .

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً ﴾ لأوليائه ما فرط منهم ﴿ رَحِيماً ﴾ بهم بما وعد لهم . ونزل فيمن أسلم بمكة ولم يهاجر حين هاجر النبى صلى الله عليه وسلم وخرج مع المشركين إلى بدر فقتل معهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّـٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ يحتمل الماضى والمضارع ، قال فى فتوح الغيب : وإذا حمل على الاستقبال يكون من باب حكاية الحال الماضية ، والملائكة : ملك الموت وأعوانه ﴿ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ بترك الهجرة والخروج مع المشركين وتكثير سوادهم حتى قتلوا معهم ببدر منهم عمرو بن أمية والعاصى بن منبه والحارث بن زمعة وقيس بن الفاكه والوليد بن عتبة ، لأن الله لم يقبل الإسلام من أحد بعد هجرة النبى صلى الله عليه وسلم حتى يهاجر إليه ثم نسخ ذلك بعد فتح مكة . قاله فى لباب التأويل ﴿ قَالُوا ﴾ أى الملائكة لهم ﴿ فِيمَ كُنتُمْ ﴾ من أمر الدين فى فريق المسلمين أو المشركين ، والسؤال للتوبيخ ، يعنى لم تركتم الهجرة والجهاد والنصرة ؟ ﴿ قَالُوا ﴾ معتذرين ﴿ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ ﴾ عاجزين عن إقامة الدين كالجهاد ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أرض مكة ﴿ قَالُوٓا ﴾ لهم تكذيباً ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ من أرض الكفر إلى بلد آخر كما فعل غيركم تكذيباً لهم فى قولهم « كنا مستضعفين » كما دل عليه قوله ﴿ فَأُولَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيراً ﴾ هى . وفى الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن الرجل فيه من إقامة دينه . ذكره البيضاوى . وفيها ذم من كثر سواد المشركين فى جيوشهم وإن لم يرد بقلبه موافقتهم ، وكذا كل جيش لبس لإعلاء الدين ، نبه عليه القسطلانى . قال ابن عطية : والذى يجرى مع الأصول أن من مات من هؤلاء مرتدا فهو كافر

ومأواه جهنم على جهة الخلود ، ومن مات منهم مؤمناً وأكره على الخروج أو مات بمكة فإنما هو عاص بترك الهجرة ومأواه جهنم على جهة العصيان دون الخلود . اه ثم استثنى سبحانه من كان استضعافه حقيقة فقال ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ استثناء منقطع لعدم دخولهم فى الموصول وضميره والإشارة ، قاله البيضاوى وغيره ، زاد القسطلانى : لأن المتوفين إما كفار أو عصاة بالتخلف وهم قادرون على الهجرة فلم يندرج فيهم المستضعفون فكان منقطعاً ﴿مِنَ الرِّجَالِ﴾ الزمنى ومن إليهم ﴿وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ والظرف فى محل نصب حالا ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ على الهجرة بعدم القوة والزاد ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ إلى أرض الهجرة بأنفسهم ولا بدليل ، وجملة « لا يستطيعون » صفة للمستضعفين إذ لا تعيين فيهم ، فأل فيهم ليس للتعريف ، أو حال عنهم ، أو عن الضمير المستكن فيهم ، واستطاعة الحيلة وجدان أسباب الهجرة وما تتوقف عليه ، وإنما أدخل الولدان فى حكم الرجال والنساء مع أنهم لا يستحقون الوعيد وإن استطاعوا لعدم التكليف مبالغة فى شأن الهجرة وإيهاماً بأن غير المكلف لو استطاع لوجب عليه وإيماء إلى أن لا محيص عنها بعد البلوغ وإن قوّامهم يجب عليهم أن يهاجروا بهم إن أمكن ، أو لبيان أن الرجال والنساء الذين لا يستطيعون صاروا فى انتفاء الذنب كالولدان ولذا ذكروا معهم ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ ذكر « عسى » تضييق فى ترك الهجرة بأن من لم تجب عليه يحتاج إلى العفو على تركها وأنه مرجوّ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا﴾ عن المضطر ﴿غَفُورًا﴾ ستاراً لزلاته . وعن الطبرى وابن أبى حاتم : لما نزل « إن الذين توفاهم الملائكة ... الآية » كتبها بعض المسلمين إلى من بقى بمكة من المسلمين وأنهم لا عذر لهم ، فخرجوا فلحقهم المشركون ففتنوهم فرجعوا فنزلت « ومن الناس من يقول آمنا بالله . . . الآية » فكتب إليهم فخرجوا فلحقوهم فنجا من نجا وقتل من قتل . وعن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من جامع المشرك أوسكن معه فإنه مثله » رواه أبو داود ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا﴾ مهاجراً أو طريقاً واسعاً ، من الرغام : التراب ، أو متزحزحاً عما يكره ﴿كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ فى الرزق والبلاد ، المعنى : يجد متحوّلا كثيراً على رغم أنف قومه خلاف ما يقولون له ، ولو هاجر هؤلاء الذين بمكة لأرغموا أنوف قريش بحصولهم فى منعة منهم فتلك المنعة هى موضع المراغمة . قال ابن عطية : وتفسير السعة بسعة البلاد هوالذى تقتضيه الفصاحة ، إذ بذلك تكون السعة فى الرزق والصدر وغير ذلك من وجوه الفرج . وهذا المعنى ظاهر من قوله تعالى « ألم تكن أرضُ الله واسعة » .ا قال مالك بن أنس رحمه الله الآية تعطى أن كل مسلم ينبغى له أن يخرج من البلاد التى تغير فيها السنن ويعمل فيها بغير الحق . ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ فى الطريق قبل بلوغه إلى مهاجره ﴿فَقَدْ وَقَعَ﴾ ثبت ﴿أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ نزلت فى ضمرة بن جندب فى قول الأكثر . ويقال جندع بن ضمرة لما سمع قوله "لا يستطيعون حيلة . قال لأولاده احملونى على السرير . وكان شيخاً كبيراً لا يستمسك على

الراحلة . فلما بلغ التنعيم . أدركه الموت فضرب بيمنه على شماله . وقال اللهم هذه لرسولك وهذه لك أبايعك على ما بايعك عليه رسولك . فقال المسلمون لو وصل لكان أتم . وضحك المشركون فقالوا ما أدرك ماطلب . فأكذبهم الله . قال ابن عطية : ومن هذه الآية رأى بعض العلماء أن من مات من الذين وقد خرج غازياً فله سهمه من الغنيمة . اه . وفي لباب التأويل : ودخل فيه كل من قصد طاعة فعجز عن إتمامها فله ثواب تلك الطاعة كاملا . اه . وفي إيثار «قد» ولفظ الوقوع و«على» الدالين على اللزوم والتعبير بالأجر دون الثواب . وإبهامه وإتيان اسم الجلالة مبالغات لا تخفى ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً ﴾ لما فرط منه ﴿ رَحِيمًا ﴾ حيث جعل قاصد الفعل كفاعله ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ ﴾ سافرتم ﴿ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ الرباعية بإسقاط ركعتين ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ينالوكم بمكروه بيان للواقع إذ ذاك إذ أسفارهم غزوات وسرايا فلا مفهوم له . لأن النبي قصر من غير خوف وبين في السنة أن المراد بالسفر الطويل وهو أربعة برد عند مالك والشافعي وأحمد ، وهو مرحلتان أي ثمانية وأربعون ميلا وعند الحنفية ستة برد ، وهو سنة عند مالك لمواظبة النبي عليه . ورخصة عند الشافعي لقوله « فليس عليكم جناح » ولحديث عائشة في البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قصر وأتم . وواجب عند الحنفي لحديث البخاري ومسلم عن عائشة : فرضت الصلاة ركعتين ركعتين . فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر ، فإن أتم المسافر أعاد أبداً على الوجوب . وفي الوقت على السنة ، ولا يعيد على الرخصة ، وإن صلى مقيم خلف مسافر ، أتم بعد سلامه وهو مكروه ، وإن صلى مسافر خلف مقيم - وهو آكد كراهة - انتظره بعد ركعتين حتى يسلم بعده ، وقيل يتم ، وقيل تبطل صلاته ، وقال داود الظاهري جواز القصر مخصوص بحال الخوف ، ويجوز في كل سفر طويل أو قصير ﴿ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ علة للتخفيف ﴿ وَإِذَا كُنْتَ ﴾ يا محمد حاضراً ﴿ فِيهِمْ ﴾ وأنتم تخافون العدو وكذا باقي الأئمة لأنهم نوابه ، لحضورهم كحضوره . فلا حجة فيه لنفي صلاة الخوف بحضرة غيره إذ أمته تأتم به فيما لم يثبت الخصوصية به ، ولأنها إذا جازت مع وجوده فبدونه أولى ﴿ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴾ فاجعلهم فرقتين ﴿ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ ﴾ مصلين ولتتأخر طائفة تجاه العدو ﴿ وَلْيَأْخُذُوا ﴾ أي المصلون أمر ندب عند المالكية والحنبلية ، وقال الشافعية والحنفية أمر وجوب ﴿ أَسْلِحَتَهُمْ ﴾ معهم ﴿ فَإِذَا سَجَدُوا ﴾ أي المصلون ﴿ فَلْيَكُونُوا ﴾ أي غير المصلين ﴿ مِنْ وَرَائِكُمْ ﴾ يحرسونكم إلى أن تقضوا الركعة مع الإمام عند المالكية وتتموا لأنفسكم وينتظر الإمام قائماً وتذهب هذه الطائفة للحراسة ﴿ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ ﴾ الركعة الثانية ﴿ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ معهم ويسلم الإمام ويتموا لأنفسهم قضاء بالفاتحة وسورة . وعند الشافعية ينتظرهم الإمام قاعداً حتى يتموا صلاتهم ويسلم بهم هكذا فعل عليه السلام بذات الرقاع كما في الصحيحين ، ويحتمل أن الإمام يصلي مرتين بكل طائفة مرة كما فعله

عليه السلام ببطن نخل . وقال أبو حنيفة يصلى بالأولى ركعة ثم تذهب إلى العدو وهى على صلاتها ، وتأتى الثانية فتصلى معه ركعة ويتم صلاته ويسلم ، ولا يسلمون بل يذهبون إلى وجه العدو ، وترجع الأولى إلى موضع الإمام فتقضى بقية صلاتها ، فتذهب ، ثم الثانية كذلك . ويدل عليه حديث النسائى . وكل هذا فى الثنائية أصلا أو قصراً ، وإلا فيصلى بالأولى ركعتين ثم ينتظر الثانية قائماً أو جالساً . وكل هذا إن أمكن ترك القتال للبعض ، وإلا أخرت لآخر الوقت الاختيارى ثم صلوها إيماء أفذاذاً مشاة وركباناً . كما تقدم فى البقرة ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ ﴾ إذا قمتم إلى الصلاة ﴿ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ فيشدوا عليكم شدة واحدة فيأخذوكم لنيل الغرة . وهذا بيان ما لأجله أمروا بأخذ السلاح ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ﴾ فلا تحملوها إذا ثقلت عليكم بسبب مطر أو مرض . واستدل به من قال بوجوب أخذها أولا . والآية نزلت فى عبد الرحمن بن عوف كان مريضاً فوضع سلاحه فى الجيش فعنفه بعض الناس ، كما فى البخارى ﴿ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ من العدو : احترزوا منه ما استطعتم كيلا يهجم عليكم العدو ؛ وإن وضعتم السلاح لعذر ، فإن الجيش ما جاءه قط مصيبة إلا من التفريط فى الحذر ، قال القسطلانى : وهذا يدل على وجوب الحذر عن جميع المضار المظنونة . اهـ . ﴿ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ ذا إهانة وعد للمؤمنين بالنصر على الكفار بعد الأمر بالحذر بتقوى قلوبهم وليعلموا أن الأمر بالحذر ليس بضعفهم وغلبة عدوهم ، بل لأن الواجب أن يحافظوا فى الأمور على مراسم التيقظ والتدبر ، فيتوكلوا على الله تعالى ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ ﴾ فرغتم منها ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ أى فى جميع الأحوال ، أو المعنى إذا أردتم الصلاة فى شدة الخوف فصلوها كيفما أمكن قياماً مسايفين وقعوداً مترامين ، وعلى جنوبكم مثخنين ﴿ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ ﴾ سكنت قلوبكم من الخوف ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ بأركانها وشرائطها تامة ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا ﴾ مكتوباً أى مفروضاً أو محدوداً بأفعال وأقوال ﴿ مَوْقُوتًا ﴾ مقدراً وقتها فلا تؤخر عنه ، هذا يؤيد وجوب الأداء حال المسايفة خلافاً لأبى حنيفة كما تقدم . والمراد بالمؤمنين : البالغين ، فلا تجب على الصبيان لكن يؤمرون بها لسبع ويضربون عليها لعشر ، وأما الكفار فهى فريضة عليهم بشرطها : الإسلام ، إذ هم مكلفون بالفروع على المشهور ، ولما خفف على المؤمنين لأجل الجهاد أشد التخفيف حثهم على النهوض إليه ببرهان جلىّ فقال ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ﴾ لا تضعفوا فى طلب الكفار لتقاتلوهم ﴿ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ ﴾ تجدون ألم الجراح ﴿ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾ أى هم مثلكم فى ذلك ولم يجبنوا عن قتالكم فكيف تجبنون أنتم ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ﴾ من النصر والثواب عليه ﴿ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ فأنتم تزيدون عليهم لذلك فينبغى أن تكونوا أرغب منهم فيه . والآية نزلت فى بدر الصغرى وقد تقدم ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بأعمالكم وضمائركم ﴿ حَكِيمًا ﴾ فيما يأمر وينهى . ولما كان

الكلام فى شأن المنافقين وتخلفهم عن الجهاد والهجرة ،دخل فيه كلام السفر استطراداً ، عاد إلى استيفاء أحوالهم بقصة طعمة بن أبيرق سرق درعاً لجاره قتادة بن النعمان فى جراب دقيق وأودعه عند زيد بن السمين اليهودى . وكان الدقيق ينتثر فى الطريق . فلما أصبحوا تتبعوا الدقيق فوجدوا الدرع عند اليهودى . فقال اليهودى أودعنيه طعمة . وشهد له ناس من اليهود ، فأنكر طعمة . فاحتكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبادر إخوة طعمة بشير وبشر ومبشر ، وقالوا : يا رسول الله إن لم تجادل لنا نفتضح مع اليهود . وأحب رسول الله أن يظهر الحق لطعمة فنزل ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ القرآن ﴿ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ عرفك فيه وأوحى به إليك وليس بمعنى العلم وإلا لطلب ثلاثة مفاعيل ﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ ﴾ لأجلهم كطعمة ﴿ خَصِيمًا ﴾ مخاصماً عنهم ﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ﴾ مما هممت به من ظهور الحق لطعمة . لأن ذلك فى رفيع قدره موجب لاستغفاره إذ يقتضى استواء الخصمين عنده فى ظهوره أى استغفر الله عن ذلك الخاطر الذى لم يثبت ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ لمن يستغفره ﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ يخونونها بالمعاصى كائناً من كانوا لأن وبال خيانتهم عليهم هم طعمة وقومه . خان نفسه بالسرقة ورمى اليهودى بها وقومه بالشهادة على براءته والخصام عنه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا ﴾ مبالغاً فى الخيانة مصراً عليها ﴿ أَثِيمًا ﴾ منهمكا فيه فيعاقبه . وفى المبالغة إشارة إلى كثرة خيانة طعمة فلذا لما نزلت هرب إلى مكة مرتداً فنقض حائطاً بها ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فوجد تحته ميتاً ﴿ يَسْتَخْفُونَ ﴾ طعمة وقومه حياء ﴿ مِنَ النَّاسِ ﴾ ولذا يطلبون الجدال باطلا ﴿ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ بعلمه وهو أحق أن يستحى منه ﴿ إِذْ يُبَيِّتُونَ ﴾ يدبرون ليلا لأن ذلك الوقت أخلى . وللرأى أصفى ﴿ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ رمى البرىء بالخيانة وتبرئة الخائن بالحلف على ذلك ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ علماً لا يخفى عليه منه شىء ﴿ هَا ﴾ للتنبيه ﴿ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ ﴾ مبتدأ وخبر ، أى أنتم الموصوفون بالوصف العجيب ، ثم بينه بقوله ﴿ جَادَلْتُمْ ﴾ والخطاب للمتعصبين لأهل المعاصى ، الخائنين كقوم بنى أبيرق ﴿ عَنْهُمْ ﴾ عن بنى أبيرق طعمة وإخوته وقرئ «عنه» ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ إذا عذبهم ﴿ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ يتولى أمرهم ويذب عنهم ، أى لا أحد يفعل ذلك ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا ﴾ ذنباً يسوء به غيره ﴿ أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ﴾ بذنب قاصر عليه ، كالشرك ﴿ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ﴾ منه أى يتب ﴿ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ متفضلا عليه ، وفيه حث لطعمة وقومه على التوبة والاستغفار ولا يلزم من هذا إسقاط حق الغير بالاستغفار ، إذ المراد به التوبة . ومن شروطها الاستحلال من حق الغير أو الأداء . وأيضاً لا يلزم أداء حق الغير من ماله وعمله فقط ، بل يمكن أن يؤديه الله من خزائن كرمه إن قبل توبته ورضى عنه ، دلت عليه الأحاديث الصحيحة دلالة ظاهرة ، قاله فى غاية الأمانى . ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾ لا يتعداه وباله ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بأحوال عباده

﴿ حَكِيمًا ﴾ في صنعه لا يؤاخذ أحداً بفعل غيره ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً ﴾ صغيرة اسم للخطء بكسر الخاء أو بما لا عمد فيه ﴿ أَوْ إِثْمًا ﴾ كبيرة ، أو ما كان عن عمد ﴿ ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا ﴾ منه كما رمى طعمة زيداً ووحد الضمير للعطف بأو ﴿ فَقَدِ احْتَمَلَ ﴾ تحمل ﴿ بُهْتَانًا ﴾ برميه وتبرئة نفسه الخاطئة ﴿ وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ بيّناً بكسبه ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ ﴾ يا محمد ، بإعلام ما هم عليه بالوحي ﴿ وَرَحْمَتُهُ ﴾ بالعصمة ﴿ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ﴾ من قوم طعمة بني ظفر ﴿ أَنْ يُضِلُّوكَ ﴾ أي لا أثر همهم في إضلالك عن القضاء بالحق لتلبيسهم عليك : ظاهر أن التأثير في الإضلال لم يقع ، كما قال ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ، وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ ﴾ زائدة ﴿ شَيْءٍ ﴾ أقل قليل ، لأن وبال إضلالهم عليهم ، والله يعصمك وما خطر ببالك كان اعتماداً على ظاهر الأمر ، لا ميلا في الحكم . و «من شيء» في موضع النصب على المصدر ، أي شيئاً من الضرر ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ القرآن ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ ما فيه من الأحكام امتنان عليه وإشارة إلى أنه بعيد عما راموه من الإضلال ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ بالكسب والنظر كأحوال المعاد وسائر المغيبات التي أخبر بها ﴿ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ إذ لا فضل فوق النبوة والمعرفة « وقد آتيناك من لدنا علماً » ، قال في لباب التأويل : في هذه الآية تنبيه من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على ما حباه من ألطافه وما شمله من فضله وإحسانه ليقوم بواجب حقه . اهـ ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ ﴾ أي تناجي الناس ، ومنهم قوم طعمة ، وفيه تقبيح لما تساروا به في إضلال النبي بالمجادلة ، أو من متناجيهم ، كقوله : « وإذ هم نجوى » ﴿ إِلَّا ﴾ نجوى ﴿ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ ﴾ عمل بر كقرض وإغاثة ملهوف وكل ما يستحسنه الشرع ، ولا ينكره العقل ﴿ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ في ذات البين فيما اختلفوا وتنازعوا فيه ، ففي نجوى هذا خير ، والمعروف يعم الصدقة والإصلاح ، فذكرهما اهتمام بشأنهما لعظم غنائهما في مصالح العباد ، وفي البخاري الأمر بالمعروف صدقة ، وفي الترمذي ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا : بلى . قال : إصلاح ذات البين ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم : ليس الكذاب من أصلح بين الناس ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور ﴿ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ لا غيره من أمور الدنيا كالرياء والترؤس ، لأن الأعمال بالنيات ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ ﴾ بالنون الجمهور ، وبالياء أي الله لأبي عمرو وحمزة ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ تنبيه على تحقير ما يفوت في جنب هذا الأجر من أغراض الدنيا ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ ﴾ يخالفه كطعمة حين ارتد من الشق الجانب فإن كلا من المتخالفين في شق غير شق الآخر ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ ﴾ ظهر له الحق بالمعجزات ﴿ وَيَتَّبِعْ ﴾ طريقاً ﴿ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ غير ما هم عليه من اعتقاد وعمل بأن يكفر ﴿ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ نكله إلى ما اختاره من الضلال ﴿ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ﴾ ندخله فيها في الآخرة . من أصليته النار ، أدخلته فيها . وسكن هاء نصله أبو عمرو وحمزة وأبو بكر تخفيفاً ﴿ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ مرجعاً هي ، والآية تدل على حرمة مخالفة الإجماع ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ

﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ كرره اهتماماً كتكرير سائر الأحكام والقصص المهمة ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عن الحق : وصف الضلال بالبعد مجاز مبالغة إذ لا ضلال فوق الشرك وإنما ختم هذه بالضلال مناسبة لقصة طعمة وقومه الضالين ، الساعين فى إضلال سيد المعصومين ، وختم المتقدمة بقوله فقد افترى إثماً عظيماً لاتصالها بقصة أهل الكتاب المحرفين للكلم ، المفترين فى أشياء كثيرة ﴿إِنْ يَدْعُونَ﴾ ما يعبد المشركون ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أى غير الله ﴿إِلَّا إِنَاثًا﴾ أصناماً مؤنثة كاللات والعزى ومناة ، ولذا يقولون لصنم كل حىّ أنثى بنى فلان ، ولأنها جمادات وهى تؤنث : استئناف لتحقير ما اتخذوه شريكا ، تدليلا على تناهى جهلهم وفرط حماقتهم ، وإناث جمع أنثى ، كرباب وربّى ، وقرئ أنثى على التوحيد ، وأنثاً على أنه جمع أنيث كخبث وخبيث ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ﴾ ما يعبدون لعبادتها ﴿إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ خالياً عن الطاعة لطاعتهم له فى عبادتها ، لأنه الذى أغراهم عليها فأطاعوه ، وفى مدارك التنزيل للنسفى : مريداً ماردا ، أى عارياً من كل خير وظهر شره ، من قولهم شجرة مرداء إذا سقط ورقها ، وظهر شوكها وعيدانها . اه . والشيطان هو إبليس ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أبعده عن رحمته . صفة له ثانية ﴿وَقَالَ﴾ الشيطان ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ واجباً لى . أدعوهم إلى طاعتى ولى من كل ألف منهم تسعة وتسعون وتسعمائة . عطفٌ على الصفة السابقة ، وهو صفة أخرى له ، أى شيطاناً مريداً جامعاً بين لعنة الله ، وهذا القول الدال على فرط عداوته للناس ، برهن الله على أن الشرك ضلال بعيدٌ ، بكون آلهتهم جمادات مؤنثات تنافى الألوهية ، وبأنه طاعة شيطان وهى أقبح الضلال ، لأنه مريدٌ ملعون بالغ الغاية فى عداوتهم والسعى فى هلاكهم ، فموالاة هذا ضلال بعيد ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ عن الحق بالوسوسة والتزيين للدنيا ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ الأمانى الباطلة كطول الحياة ، وأن لا بعث ولا عقاب ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ يقطعن ﴿آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ لتحريمها كما فعل بالبحائر ، قال ابن العربى فى الأحكام : وهى تعذيب للحيوان وتحريم بالطغيان ، والآذان جمال للأنعام ومنفعة : فلهذا نهى عن المقطوعة والمشقوقة فى الأضاحى ، إذا جاوز الثلث ، لكن ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يَسِم الغنم فى آذانها ويشعر أى يشق جلد الهدى ، وهذا مستثنى ، وقال أبو حنيفة : الإشعار بدعة ، كأنه لم يسمع هذه الشعيرة ، وهى فى الدين أشهر منه فى العلماء ، وكذا وسم الإبل والدواب بالنار فى أعناقها وأفخاذها مستثنى من تغيير خلق الله ، وأما الخصاء فصية فى الآدمى وفى البهائم مكروه ، وقيل جائز وعليه الأكثر . اه . ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ كالوصل للشعر والوشم والتنمص والتفليج لما فى البخارى ومسلم عن ابن مسعود لعن الله الواصلات والمستوصلات والواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله . وعن مجاهد وابن عباس خلق الله : دين الله . وفطرته التى فطر الناس عليها . قال البيضاوى : ويندرج فيه فقأ عين الحامى ، وخصاء العبد . والجمل الأربع حكاية عما ذكره الشيطان قطعاً ، أو أتاه فعلا ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾

متجاوزاً عن ولايته ﴿فَقَدْ خَسِرَ﴾ فى الدارين ﴿خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ جلياً ، لا يحتاج إلى تأمل وروية . إذ ضيع رأس ماله وبدل مكانه فى الجنة بمكانه فى النار المؤبدة عليه ﴿يَعِدُهُمْ﴾ ما لا ينجز كطول العمر ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ ما لا ينالون فى الدنيا ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ باطلا لا حقيقة له وهو إظهار النفع فيما فيه الضرر ، وهذا الوعد إما بالخواطر الفاسدة ، أو بلسان أوليائه ﴿أُولَـٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ معدلا ومهرباً ، من حاص إذا عدل ، و«عنها» حال منه ، وليس صلة له لأنه اسم مكان . وإن جعل مصدراً فلا يعمل أيضاً فيما قبله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ولم يتبعوا أمر الشيطان ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ وعده وعداً ، وحقه حقا ، فالأول مؤكد لنفسه لأن مضمون الجملة الاسمية التى قبله وعد ، والثانى مؤكد لغيره ويجوز أن ينتصب الموصول بفعل يفسره ما بعده ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ قولا جملة مؤكدة بليغة لدلالته على صدق أخباره ، وألا أصدق منه ، وهذه المبالغات بإزاء مبالغات إبليس الكذاب ﴿لَيْسَ﴾ ثواب الله المذكور ينال ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ الخطاب للمسلمين ﴿وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ القائلين لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ، نزلت لما افتخر المسلمون وأهل الكتاب بأنبيائهم وكتبهم أو خطاب للمشركين المدعين كذباً أن لهم الحسنى عند الله ، أو أن لا جنة ولا نار ، بل نيل الثواب منوط بالعمل الصالح ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ إما فى الآخرة أو فى الدنيا بالبلاء والمحن ، كما ورد فى الحديث ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ يحفظه ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يمنعه منه ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ﴾ شيئاً ﴿مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ بعضها إذ لا يعمل كلها أحد وليس مكلفاً بها ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ﴾ فى موضع الحال بيان ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إذ لا يعتد بعمل دون الإيمان ﴿فَأُولَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ﴾ بالبناء للفاعل للجمهور ، وللمفعول لأبى عمرو وابن كثير وأبى بكر ﴿الْجَنَّةَ﴾ لا غيرهم رد لقول أهل الكتاب ، لما سمعوا الآية المتقدمة نحن وأنتم سواء ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ أى الفريقان أو المؤمنون ﴿نَقِيرًا﴾ قدر نقرة النواة ، ومنها تنبت النخلة ، فعيل بمعنى مفعول ﴿وَمَنْ﴾ لا أحد ﴿أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ انقاد وأخلص له عمله ، عبر عن الذات بالوجه ، لأنه أشرف الأعضاء ومحل السجود الذى هو أقصى الخضوع ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ مخلص فى ذلك العمل . فسره الحديث بأن تعبد الله كأنك تراه ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ الموافقة لملة الإسلام ﴿حَنِيفًا﴾ مائلا عن سائر الأديان كلها إلى الدين القيم حال من إبراهيم أو المتبع ، وخص إبراهيم لأنه مقبول عند جميع الأمم العرب واليهود والنصارى . وشرعه داخل فى شرع نبينا ، فيلزمهم اتباعه ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ صفيا خالص المحبة له ، ترغيب فى اتباعه . ولم يختص بالخلة لحديث البخارى صاحبكم خليل الله من الخلة وهى أقصى غاية المحبة . كأنها دخلت فى أعماق قلبه وخلاله ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكا فله أن يختار من يشاء ، وفيه إشارة إلى احتياج الخليل إليه ، وعدم احتياجه هو إلى الخليل ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ إحاطة علم وقدرة

يجازى كلا بعمله ، ويختار من هو أهل للاختيار . ولما كان مبنى السورة على أحكام النساء واستطرد أحكام الجهاد وأحوال المنافقين فيما عاد إليها بقوله ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ يطلبون منك الفتوى فى ميراث النساء إذ كانوا لا يورثونهن فى الجاهلية وفى نكاح اليتامى منهن ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ يبين لكم حكمه فيهن والإفتاء تبيين المبهم ﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ القرآن من آية الميراث ، وقوله فإن خفتم ألا تقسطوا الآية ، و«ما» عطف على اسم الله أو ضميره المستكن فى يفتيكم على حد أعجبنى زيد وكرمه ، فالأول توطئة ، والثانى المقصود بالذكر ﴿فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ صلة «يتلى» أو بدل من «فيهن» بدل بعض ﴿اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ﴾ فرض ﴿لَهُنَّ﴾ من الميراث والحقوق ، عبر عنه بكتب مبالغة فى الوجوب ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ فى نكاحهن إن كن جميلات لتأكلوا مالهن أو عن نكاحهن إن كن دميمات لتعضلوهن طمعاً فى ميراثهن والواو تحتمل الحال والعطف ، روى عن ابن عباس كانوا فى الجاهلية إذا كانت عند أحدهم يتيمة ألقى عليها ثوبه ، فإن كانت جميلة تزوجها وأكل مالها ، وإن كانت دميمة منعها عن الزواج حتى تموت فيرثها ، فنهوا عن ذلك ، وعن السدى كان لجابر بنت عم دميمة ولها مال ورثته من أبيها ، ورغب جابر عن نكاحها وإنكاحها . فسأل النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فنزلت . وكان عمر بن الخطاب يقول لولىّ اليتيمة إذا بلغت وكانت جميلة غنية : زوجها غيرك . وإن كانت فقيرة دميمة يقول زوجها أنت ﴿وَ﴾ فى ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ الصغار ﴿مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ أن تعطوهم حقوقهم المتلوّة فى قوله «يوصيكم الله فى أولادكم ... الآية» عطف على يتامى النساء ، وكذا قوله ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ إن لم يكن بدلا من «فيهن» والخطاب فى شأن يتامى النساء : للأولياء خاصة ؛ وفى المستضعفين : لهم وللورثة البالغين ؛ وفى «وأن تقوموا» للأئمة والقوّام . ومعنى بالقسط بالعدل فى الميراث والمهر ، والمتلوّ فيهم قوله ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ونحوه ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ فيجازيكم عليه : ترغيب فيما أمروا به ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ﴾ مرفوع بفعل يفسره ﴿خَافَتْ﴾ توقعت ﴿مِنْ بَعْلِهَا﴾ زوجها ﴿نُشُوزًا﴾ تجافياً عنها ، وترفعاً عليها بتقليل نفقتها وترك مضاجعتها وخشونة القول ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ عنها بوجهه بتقليل المجالسة والمحادثة والمؤانسة بسبب كبر سنها أو دمامتها ، أو طموح عينه إلى أجمل منها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَصَّالَحَا﴾ بإدغام التاء فى الأصل فى الصاد الجمهور ويُصلحا من أصلح الكوفيين ﴿بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ فى القسم بأن تطيب له نفساً عنه ، والنفقة بأن تترك له شيئاً من ذلك ، طلباً لبقاء الصحبة ، فإن رضيت بذلك وإلا فعلى الزوج أن يوفيها حقها ، أو يفارقها . وفى البخارى عن عائشة رضى الله عنها هى المرأة تكون عند الرجل ليس بمستكثر منها ، يريد أن يفارقها ، فتقول : أجعلك من شأنى فى حلّ فنزلت . قال ابن العربى فى الأحكام رضوان الله على الصديقة المطهرة لقد وفت بما حملها ربها من العهد فى قوله «واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله» ﴿وَالصُّلْحُ﴾ الذى تسكن إليه النفوس ويزول به الخلاف للزوجين وغيرهما ﴿خَيْرٌ﴾ من الخصومة فى كل

شيء ، أو من الفرقة أو النشوز والإعراض أو خير من الخيور ، كما أن الخصومة شر من الشرور . وعلى كل تقدير فهو اعتراض يؤكد نفي الجناح ، بل مندوب فضلا عن الجواز . قال تعالى في بيان ما جبل عليه الإنسان ﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾ شدة البخل وأقبحه . وهو الحرص على منع الخير . أي جبلت عليه فكأنها حاضرته لا تغيب عنه ، فهي مطبوعة عليه . المعنى أن المرأة لا تكاد تسمح بنصيبها من زوجها ، والرجل لا يكاد يسمح عليها بنفسه إذا رغب عنها . فكل واحد يطلب راحته . فقوله « والصلح خير » ترغيب في المصالحة ، وما بعده تمهيد للعذر في المماكسة ، ثم حث على مخالفة الطباع وموافقة ما أحب الشرع بقوله ﴿ وَإِنْ تُحْسِنُوا ﴾ عشرة النساء ـ وإن كرهتموهن مراعاة لحق المصلحة ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ النشوز والإعراض ونقص الحق وكل أذى ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الإحسان والتقوى ﴿ خَبِيرًا ﴾ فيجازيكم به ، وإقامة العلم مقام الإثابة : من إقامة السبب مقام المسبب ، دلالة على أن الوفاق عند الله أحب من الفراق ، روى أبو داود وابن ماجه عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ ﴾ لأن العدل أن لا يقع ميل البتة في القسمة والنفقة والتعهد والنظر والإقبال والمحادثة والمفاكهة وهو متعذر في الحب والجماع ، إذ قد ينشط لواحدة ما لا ينشط للأخرى ، لكن إذا لم يكن ذلك بقصد منه فلا حرج ، والعدل الواجب على من له زوجتان فأكثر في المبيت سواء المريضة والنفساء والحائض وغيرها لقصد الأنس ، وكذا الحرة والأمة لمن حلت له على المشهور ، وقيل للحرة ثلثان وللأمة ثلث ولا يدخل في يوم واحدة على أخرى ، إلا زائراً أو لحاجة لا لميل . ولا يجمعهن في منزل إلا برضاهن ، بل يفرد لكل واحدة منزلا يأتيها فيه ولا يجب القسم بين أمهات الأولاد ولا الإماء ولا بينهن والزوجة ، ولكن يستحب حسن العشرة ، ويجب كف الأذى ﴿ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ على ذلك ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه ثم يقول يارب هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك . يعني القلب . أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي ولو كان ممكناً لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى به ، والمنهي إظهار ميل القلب بالقول أو الفعل ، وهو يقدر على تركه وهو كل الميل ، كما قال تعالى ﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ ﴾ ظاهراً أو باطناً إلى التي تحبونها في القسم والنفقة وحسن العشرة ، قال في الجواهر : كل الميل هو أن يفعل فعلا لما يقصده من التفضيل وهو يقدر أن لا يفعله وهو المنهي عنه ، وإن كان في أمر حقير اه . وفي البيضاوي : كل الميل بترك المستطاع فإن ما لا يدرك كله ، لا يترك كله ﴿ فَتَذَرُوهَا ﴾ تتركوا المال عنها ﴿ كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ التي ليست ذات بعل ولا مطلقة فهي كالشيء المعلق ، لا هو في السماء ولا على الأرض وهي المسجونة التي غاب عنها بعلها ﴿ وَإِنْ تُصْلِحُوا ﴾ ما وقع من الخلاف والنشوز ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ في المستقبل عن ارتكاب مثله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا ﴾ لما مضى من ميلكم ﴿ رَحِيمًا ﴾ بكم في ذلك ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا ﴾ الزوجان بالطلاق أو الخلع ولم يصلحا ﴿ يُغْنِ

اَللّٰهُ كُلًّا ﴾ عن صاحبه ببدل أو سلو ﴿ مِنْ سَعَتِهِ ﴾ من فضله الواسع بغناه وقدرته ﴿ وَكَانَ اللّٰهُ وَاسِعًا ﴾ لخلقه فى الفضل وتحليل النكاح أو مقتدراً فى أفعاله ﴿ حَكِيمًا ﴾ فيما دبره لهم . وربما كانت الفرقة أحسن عاقبة لهما ، ولذا أباح التسريح بإحسان ﴿ وَلِلّٰهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ﴾ برهان على سعة فضله . لأن من ملكهما لا تفنى خزائنه ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ بمعنى الكتب السماوية ﴿ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ اليهود والنصارى ﴿ وَإِيَّاكُمْ ﴾ يا أهل القرآن فيه فى مواضع شتى ﴿ أَنِ اتَّقُوا اللّٰهَ ﴾ أن مفسرة لأن التوصية بمعنى القول ، أو مصدرية : أى بأن ، والمعنى أن الأمر بالتقوى شرع قديم لم يخل عنه كتاب ولا أمة ﴿ وَ ﴾ قلنا لهم ولكم ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا ﴾ بما وصيتم به ﴿ فَإِنَّ لِلّٰهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ﴾ فلا يتضرر بكفركم ، كما لا ينتفع بشكركم وتقواكم ، وإنما وصاكم لرحمته لا لحاجة . ثم قرر ذلك بقوله ﴿ وَكَانَ اللّٰهُ غَنِيًّا ﴾ عن الخلق وعبادتهم ﴿ حَمِيدًا ﴾ محموداً بذاته حُمد أو لم يحمد لكثرة نعمه ، والأكوان كلها حامدة بلسان الحال ، حيث أوجدها وأعطى كل شىء خلقه ثم هدى ﴿ وَلِلّٰهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ﴾ كرره تأكيداً لما قبله ، وتمهيداً لما بعده ﴿ وَكَفَىٰ بِاللّٰهِ وَكِيلًا ﴾ موكولا إليه ، راجع إلى قوله « يغن الله كلا من سعته » فإنه توكل بكفايتهما ، وما بينهما تقرير لذلك ، فقوله « ولله ما فى السموات وما فى الأرض » الأولى تقرير لسعته وتمهيد لقبول وصيته . وفى الثانية تقرير لعدم تضرره بكفر من كفر ، وعدم انتفاعه بطاعة من أطاع ، وتمهيد لغناه . والثالثة تقرير لغناه ، وتمهيد لأن يتوكل عليه ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ يفنكم ﴿ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾ ويوجد قوماً آخرين أصلح منكم إن كان الخطاب للحاضرين أو خلقاً آخرين مكان الإنس إن كان الخطاب لجميع بنى آدم ﴿ وَكَانَ اللّٰهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ ﴾ الإعدام والإيجاد ﴿ قَدِيرًا ﴾ بليغ القدرة ، لا يعجزه مراده ، وهذا أيضاً تقرير لغناه وقدرته وتهديد لمن كفر به وخالف أمره ، ثم قبح العمل لغير الله فقال ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ﴾ بعمله ﴿ ثَوَابَ الدُّنْيَا ﴾ كالجهاد للغنيمة فقط ، فقد أخطأ ﴿ فَعِنْدَ اللّٰهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ لمن أراده لا عند غيره فلمَ يطلب أحدهما الأخس ، وهلا طلب الأعلى بإخلاصه له حيث كان مطلبه لا يوجد إلا عنده ﴿ وَكَانَ اللّٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ عارفاً بالأغراض فيجازى كلا بحسب قصده ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ ﴾ شديدى القيام ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ بالعدل . جادين فيه ، مواظبين على إقامته ﴿ شُهَدَاءَ ﴾ بالحق ﴿ لِلّٰهِ ﴾ لوجه الله . خبر ثان أو حال ﴿ وَلَوْ ﴾ كانت الشهادة ﴿ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ﴾ فاشهدوا عليها بأن تقروا الحق الذى عليكم ولا تكتموه لأن الشهادة بيان الحق ، سواء كان عليه أو على غيره ﴿ أَوِ الْوَالِدَيْنِ ﴾ دليل على قبول شهادة الابن عليهما ولا يمنع برهما ، بل هو برهما ﴿ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ ولا تحابوا أحداً ولا تخافوا فى الله لومة لائم ، قدم القسط هنا ، وأخره فى المائدة ، اهتماماً بالعدل فى النفس والوالدين والأقربين لأن ذلك مظنة العدول ﴿ إِنْ يَكُنْ ﴾ المشهود عليه ﴿ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ منكم وأعلم بمصالحهما وثنى الضمير لئلا يتوهم

اختصاص الاولوية بأحدهما ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى ﴾ فى شهادتكم بأن تحابوا الغنى لرضاه أو الفقير رحمة له ، ل ﴿ أَنْ ﴾ لا ﴿ تَعْدِلُوا ﴾ تميلوا عن الحق أوكراهة العدل بين الناس ، وإرادة العدول عن الحق ﴿ وَإِنْ تَلْوُوا ﴾ بسكون اللام الجمهور ألسنتكم بتحريف الشهادة أو تمطلوا حقاً فلن تنفذوه إلا بعد بطء ، ولابن عامر وحمزة بضمها من الولاية أى بأن وليتم الهوى فى الشهادة بالباطل أو من اللىّ ، حذفت الواو الاولى تخفيفاً فتوافق القراءة الاولى فى المعنى ﴿ أَوْ تُعْرِضُوا ﴾ من أدائها جملة ، أو عن أحد الخصمين ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ فيجازيكم به ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا ﴾ داوموا على الإيمان ﴿ بِاللَّهِ ﴾ واستمروا عليه ﴿ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ محمد وهو القرآن ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ على الرسل بمعنى الكتب ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو بالبناء للمفعول فى الفعلين ، أو المعنى آمنوا بقلوبكم كما آمنتم بألسنتكم إن كانت فى المنافقين أو آمنوا بالله وبمحمد كما آمنتم بموسى وعيسى إن كانت فى أهل الكتاب ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ عن الحق ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بموسى وهم اليهود ﴿ ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ بعبادة العجل ﴿ ثُمَّ آمَنُوا ﴾ بعد عود موسى إليهم ﴿ ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ بعيسى ﴿ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا ﴾ بمحمد ﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ ما أقاموا عليه ﴿ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ طريقاً إلى الحق ، وقيل المراد قوم تكرر منهم الارتداد ثم أصروا على الكفر . روى عن على بن أبى طالب أن من تكرر منه الارتداد لا تقبل توبته ، بل يقتل ، وعليه أحمد بن حنبل ، وذهب أكثر العلماء إلى قبول توبته مالم يغرغر ، لعموم قوله «قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف » وقيل : الآية فى المنافقين المتلاعبين بالدين وخبر كان فى أمثال هذا محذوف . تعلق به اللام مثل لم يكن الله مريداً ليغفر لهم ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ ﴾ أخبرهم يامحمد ﴿ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ هو النار : استعارة تهكمية تدل على أن الآية المتقدمة فى المنافقين الذين آمنوا ظاهراً وكفروا باطناً مرة بعد أخرى ، ثم ازدادوا كفراً بالاستهزاء بالدين وإفساد الأمر على المؤمنين ﴿ الَّذِينَ ﴾ فى محل نصب أو رفع على الذم بمعنى أريد الذين ، أو هم الذين ﴿ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ لما يتوهمون فيهم من القوة ويقولون إن أمر محمد لا يتم ﴿ أَيَبْتَغُونَ ﴾ يطلبون بموالاتهم ﴿ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ ﴾ استفهام إنكار ، أى لا يجدونها عندهم ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ فى الدنيا والآخرة ، لا يعز إلا من أعزه وقد كتب العزة لأوليائه بقوله « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ولا يؤبه بعزة غيرهم ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ ﴾ بالبناء للمفعول الجمهور والفاعل لعاصم أى الله ﴿ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ ﴾ القرآن فى سورة الأنعام ﴿ أَنْ ﴾ مخففة أى أنه وهو نائب الفاعل ﴿ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا ﴾ حالان من الآيات جىء بهما لتقييد النهى عن المجالسة فى قوله ﴿ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ ﴾ مع الكافرين والمستهزئين ﴿ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ وهذا تذكير بما أنزل بمكة من قوله « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا » الآية ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا ﴾

إن قعدتم معهم ﴿ مِثْلُهُمْ ﴾ فى الإثم ، لا فى جميع الصفات : إن لم ترضوا به . لأنكم قادرون على الإعراض والإنكار أو مثلهم فى الكفر إن رضيتم به . لأن الرضى بالكفر كفر ، والرضا بالشىء استحسانه . قال فى لباب التأويل : دخل فى الآية كل محدث فى الدين ؛ ومن رضى بمنكر أو خالط أهله ، كان بمنزلتهم فى الإثم ، وإن لم يباشره . وقال فى الجواهر : فى الآية دليل قوىٌّ على وجوب تجنب أهل البدع والمعاصى وأن لا يجالسوا . اهـ . و « إذاً » ملغاة لوقوعها بين الاسم والخبر ، ولذا لم يذكر بعدها الفعل وإفراد مثلهم لأنه كالمصدر أو للاستغناء بالإضافة إلى الجمع ، وقرئ بالفتح على البناء لإضافته إلى مبنىّ ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ كما اجتمعوا فى الدنيا على الكفر والاستهزاء ﴿ الَّذِينَ ﴾ بدل من الذين قبله منصوب أو مرفوع أو مجرور صفة المنافقين ﴿ يَتَرَبَّصُونَ ﴾ ينتظرون ﴿ بِكُمْ ﴾ الدوائر أن تقع عليكم ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ ﴾ ظفر وغنيمة ﴿ مِنَ اللَّهِ قَالُوا ﴾ لكم ﴿ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ فى الدين والجهاد مظاهرين لكم فأعطونا سهمنا من الغنيمة ، كما شاركناكم فى القتال ﴿ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ ﴾ من الظفر عليكم ﴿ قَالُوا ﴾ لهم ﴿ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ ﴾ نغلبكم حين كان الظفر للمسلمين ، وكنا قادرين على قتلكم وأسركم ، وقد أبقينا عليكم ﴿ وَ ﴾ ألم ﴿ نَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أن يظفروا بكم بتخذيلهم ومراسلتكم بأخبارهم فلنا عليكم المنة فأشركونا فيما أصبتم ، وإنما سمى ظفر المسلمين فتحاً لتعظيم شأنه بفتح أبواب السماء له ، حتى ينزل النصر عليهم وسمى ما للكافرين نصيباً لتحقيره وقصره على الدنيا وكونه استدراجاً ولم يقل استحوذ تنبيهاً على أصله المرفوض . وهو سماعى ، وعن أبى زيد قياس مطرد ، يقال استجاب واستجوب ذكره فى غاية الأمانى ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ وبينهم ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ بأن يدخلكم الجنة ويدخلهم النار ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ فى الآخرة بالتوبيخ وغيره ، ولا فى الدنيا بالحجة أو استئصال دولة المسلمين ، قال ابن العربى : إلا أن يتواصوا بالباطل ولا يتناهوا عن المنكر ، ويتقاعدوا عن التوبة فيكون تسلط العدو من قبلهم ، أو لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا فى الشرع . فإن وجد فعلى خلاف الشرع . واحتج به العلماء على أن الكافر لا يملك العبد المسلم أو لا يرث المسلم ، ولا يقتل المسلم بالذمىّ ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ وتقدم فى البقرة ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ مع المؤمنين ﴿ قَامُوا كُسَالَى ﴾ متثاقلين : قرأ الكسائى بفتح الكاف . وفى الصحيحين : أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ، وسبب كسلهم عدم رجاء الثواب لا يصلون إلا خوفاً من الناس ﴿ يُرَاءُونَ النَّاسَ ﴾ بصلاتهم ليقولوا إنهم مؤمنون ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ ﴾ لا يصلون ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ رياءً حيث يراهم الناس ولا يذكرون الله فى صلاتهم إلا بالتكبير والتسليم وفى الصحيح تلك صلاة المنافقين يجلس أحدهم حتى إذا اصفرت الشمس وكانت بين قرنى الشيطان قام ينقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلا ، قال ابن العربى : وقد بين الله صلاة المؤمنين بقوله « الذين هم فى صلاتهم خاشعون » ومن خشع خضع . ولم ينقر صلاته

ولم يستعجل اهـ . ﴿ مُذَبْذَبِينَ ﴾ مترددين حال من واو يراءون أى يراءونهم غير ذاكرين مذبذبين أو منصوب على الذم ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ الكفر والإيمان من الذبذبة جعل الشيء مضطرباً ، وأصله الذب بمعنى الطرد ، وقرئ بكسر الذال بمعنى يذبذبون قلوبهم أو دينهم ﴿ لَا ﴾ منسوبين ﴿ إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾ الكفار لإظهارهم الإيمان ﴿ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾ المؤمنين لكفرهم ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ إلى الهدى . وروى مسلم عن ابن عمر عنه عليه السلام : « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين غنمين ، تعير إلى هذه مرة ، وإلى هذه مرة » قلت : معنى العائرة بالعين المهملة المتحيرة المترددة . ومعنى تعير تتردد والله أعلم . ولما ذم الله المنافقين بالتذبذب نهى المؤمنين عن التخلق بأخلاقهم بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإنه صنيع المنافقين فلا تتشبهوا بهم ﴿ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ بموالاتهم ﴿ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ برهاناً بيناً على نفاقكم . أو تسليطاً يسلط به عليكم عقابه ، لأنهم أعداء الله ، ومصادقة عدو الصديق معاداة للصديق . قال الشاعر :

تَوَدُّ عَـــدُوِّى ثُمَّ تَزْعُمُ أَنَّنِى • صَدِيقُكَ لَيْسَ النُّوكُ عَنْكَ بِعَازِبِ

ثم بين مقر المنافقين فقال ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ ﴾ المكان ﴿ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ وهو قعرها ، لأنهم أخبث الكفرة ، إذ ضموا إلى الكفر خداع المسلمين . وقرأ الكوفيون بسكون الراء لغة . وسميت طبقات النار دركات ؛ لأنها متداركة بعضها فوق بعض ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ مانعاً من العذاب ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ من النفاق ﴿ وَأَصْلَحُوا ﴾ ما أفسدوا من أسرارهم وأحوالهم فى حال النفاق ﴿ وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ ﴾ وثقوا به وتمسكوا بدينه ﴿ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ من الرياء عكس ما كانوا عليه ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فيما يؤتونه ومن عدادهم فى الدارين ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ فى الآخرة هو الجنة ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ ﴾ نعمه ﴿ وَآمَنْتُمْ ﴾ به والاستفهام بمعنى النفى ، أى لا يعذبكم حينئذ ، وقدم الشكر لأن الناظر يدرك النعمة أولا فيعرف المنعم ، ثم يؤمن به ﴿ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا ﴾ لأعمال المؤمنين ، يقبل اليسير ويعطى الكثير ﴿ عَلِيمًا ﴾ بحق شكركم وإيمانكم ، وسمى الجزاء شكراً على سبيل الاستعارة والله أعلم ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ من أحد وكذا السر به ولكن الجهر أفحش فيعاقب عليه ﴿ إِلَّا ﴾ جهر ﴿ مَنْ ظُلِمَ ﴾ فلا يؤاخذ بالإخبار عن ظلم ظالمه ، ولا يزيد عليه ومعنى الآية لا يجوز إظهار أحوال الناس المستورة إلا لمن ظلم . يقول سرق منى أو غصبنى أو يشتم بمثل ما شتم به «ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل» والحديث «المستبّان ما قالا فعلى البادئ منهما» رواه مسلم ، قال ابن عباس يرخص للمظلوم أن يدعو على ظالمه وإن صبر فهو خير له . قال الحسن البصرى : بأن يقول اللهم أعنى عليه ، اللهم استخرج لى حقى ، اللهم حل بينى وبين ما يريد ونحوه من الدعاء ، قال ابن العربى : كل هذا إذا كان مؤمناً ، وإذا كان كافراً فأرسل لسانك فيه ، وادع بالهلكة وبكل دعاء .

وإذا كان الرجل مجاهراً بالظلم دعى عليه جهراً ولم يكن له عرض محترم ولا بدن محترم ولا مال محترم . اهـ.
وقال مجاهد نزلت فى الضيافة إذا نزل رجل على رجل فلم يقم بحقه : جاز أن يذكر ذلك عنه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعاً﴾ لقول المظلوم ﴿عَلِيماً﴾ بحال الظالم ﴿إِن تُبْدُوا خَيْراً﴾ مكان الجهر بالسوء ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ أو أن تظهروا البر أو تسروه ﴿أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ﴾ كظلم أصابكم بمحوه عن قلوبكم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ كثير التجاوز ﴿قَدِيراً﴾ بليغ القدرة على الانتقام ومع ذلك يعفو ، فتخلقوا أنتم بأخلاقه إرشاد إلى الأفضل بعد تجويز الأدنى .
ولذلك جعل إبداء الخير وإخفاءه تمهيداً وأوقع العفو جزاء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ بالكفر ببعض رسله ، إذ الكفر بالرسول كفر بالله ، أو بأن لهم ولداً ﴿وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ بتكذيبهم ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ﴾ من الرسل ﴿وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ منهم ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ الكفر والإيمان ﴿سَبِيلاً﴾ إلى الله ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ﴾ الكاملون فى الكفر ، إذ لاعبرة بإيمانهم ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله ، أى حق كونهم كاملين فى الكفر ، حقاً أو صفة لمصدر الكافرين أى هم الذين كفروا كفراً حقاً . أى محققاً لاشك فيه ، لأن إنكار واحد من الرسل إنكار للكل . لاشتراكهم فى العلة وهى المعجزة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾ أى لهم ولكل كافر ﴿عَذَاباً مُّهِيناً﴾ لإهانتهم الرسل المكرمين ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ كلهم ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ﴾ تقدم ما فى أحد ﴿مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ نُؤْتِيهِمْ﴾ بالنون للجمهور والياء لحفص ﴿أُجُورَهُمْ﴾ ثواب أعمالهم وسوف. لتأكيد الوعد لتأخر الموعود، لأن المضارع يحتمل الحال والاستقبال ، فإذا دخل سوف أكد الاستقبال مثله : والمراد أنه كائن لامحالة وإن تأخر ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً﴾ كثير الغفران لأوليائه بستر السيئات ﴿رَّحِيماً﴾ بالغ الرحمة بأهل طاعته ، بقبول حسناتهم وتضعيفها . ولما قال له أحبار اليهود إن كنت صادقاً فأتنا بكتاب جملة بخط سماوى كموسى ، نزل ﴿يَسْأَلُكَ﴾ يا محمد ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ﴾ بالتشديد ولابن كثير بالتخفيف ﴿عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ جملة كما أنزل على موسى تعنتا ﴿فَقَدْ سَأَلُوا﴾ أى آباؤهم ﴿مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ جواب شرط مقدر أى إن سألوك هذا فلا تضجر فإن آباءهم سألوا موسى أعظم مما سألك هؤلاء. أو إن استكبرت ذلك ، فليس بأول جهالاتهم وجناياتهم فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ﴿فَقَالُوا أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ عياناً كما يرى بعضنا بعضاً ، نصب على المصدر ، أو الحال ، والفاء لتفصيل المجمل ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّاعِقَةُ﴾ نار جاءت من السماء فأهلكتهم ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ بتعنتهم بسؤال ما يستحيل فى تلك الحال التى كانوا عليها، وذلك لا يقتضى امتناع الرؤية مطلقاً ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ﴾ المعجزات التسع الدالة على صدق موسى ووحدانية الله ، وهذه هى الجناية الثانية لهم ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ بعد توبتهم ولم نستأصلهم تفضلا ﴿وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَاناً مُّبِيناً﴾ حجة ظاهرة على من خالفه أو تسلطا بينا عليهم حين أمرهم بقتل أنفسهم توبة من عبادة العجل فأطاعوه ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ بسبب أخذ الميثاق عليهم ليخافوا

فيقبلوا ولا ينقضوا ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ﴾ باب القرية ﴿سُجَّدًا﴾ سجود انحناء وتقدم ذلك فى البقرة وهو باب المسجد الأقصى حين فتحه يوشع بعد موسى ، وقول من قال من أهل التفسير وقلنا لهم ادخلوا الباب والجبل مظل عليهم سهو ، لأن نتق الجبل فوقهم كان فى زمن موسى قاله فى غاية الأمانى ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ﴾ على لسان داود أو على لسان موسى لأن شرع السبت كان فى زمنه ، ولكن كان الاعتداء والمسخ فى زمن داود عليه السلام ﴿لَا تَعَدُّوا﴾ بفتح العين وتشديد الدال لورش عن نافع أى تعتدوا وبإسكان العين والتخفيف للباقين مضارع عدا يعدو ، لا تجاوزوا الأمر ﴿فِي السَّبْتِ﴾ باصطياد الحيتان فيه ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ على هذه الأشياء : وميثاقهم قولهم سمعنا وأطعنا فنقضوه ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ﴾ ما زائدة للتأكيد والباء سببية متعلقة بمحذوف أى لعناهم بسبب نقضهم ﴿مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ التى أنزلت على موسى ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ استحقاق للقتل فى عقدهم ، كزكرياء ويحيى ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ محجوبة عن وعظك لا تعى ما تقول أو أوعية للعلم فلا حاجة لنا إلى علمك ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ بعيسى ثانياً ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه أو إلا إيماناً قليلا لا عبرة به ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ ثالثاً بمحمد ، وكرر الباء للفصل بينه وبين ماعطف عليه لأنه معطوف على فبما نقضهم ، وقوله بل طبع الله عليها بكفرهم مستطرد بنفى قولهم قلوبنا غلف ، والعطف على بكفرهم مرجوح لأن أحد الكفرين مستقل بالسببية للطبع ، قاله فى غاية الأمانى ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ نسبتها إلى الزنا بعد ما رأوا منها الكرامات ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ مفتخرين ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ نعت أو بيان ، أى بزعم النصارى ، قالوه استهزاء أو ذكره الله به تعظيما أى بمجموع ذلك عذبناهم . قال تعالى تكذيباً لهم فى قتله ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ المقتول والمصلوب وهو صاحبهم بعيسى أى ألقى الله عليه شبهه ، فظنوه إياه ، وهو شمعون صاحب عيسى ، رضى أن يلقى عليه شبه عيسى ليقتل بسببه أو منافق ذهب ليقتل عيسى ، فرفع عيسى وألقى عليه شبهه ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ فى عيسى ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ من قتله ، حيث قال بعضهم لما رأوا المقتول الوجه وجه عيسى والجسد ليس بجسده ، فليس به ، وقال آخرون بل هو هو ، ولا يخرجون من هذا الشك إذ ليس له بيان إلا فى القرآن وهم لا يؤمنون به ﴿مَا لَهُمْ بِهِ﴾ بقتله ﴿مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ استثناء منقطع أى لكن يتبعون فيه الظن الذى تخيلوه ، قال البيضاوى : ويجوز أن يفسر الشك بالجهل والعلم بالاعتقاد الذى تسكن إليه النفس جزماً كان أو غيره ، فيتصل الاستثناء ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ قتلا ﴿يَقِينًا﴾ كما زعموا أو حال مؤكدة لنفى القتل أى متيقنين ، أو عدم قتله متيقن قيد للنفى ، دل عليه قوله ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ إلى محل كرامته ، وهذا الوجه الأخير أولى لأن الأول قد علم مما تقدم . ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يغلب على ما أراد ﴿حَكِيمًا﴾ فى صنعه كرفع عيسى إليه ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أحد ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ بعيسى ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾

يؤمن بالكتابي حين يعاين ملائكة الموت فلا ينفعه إيمانه . وهذا كالوعيد لهم ، والتحريض على معاجلة الإيمان به قبل أن يضطروا إليه ، ولا ينفعهم ، وقيل الضميران معاً لعيسى . أى قبل موت عيسى لما ينزل قرب الساعة كما ورد فى الصحيحين . وإن نافية والخبر عنه محذوف قامت صفته مقامه ، أى وما أحد من أهل الكتاب ، و «ليؤمنن» جواب قسم محذوف ، والاستثناء من أعم الأوصاف ، والموصوف مبتدأ مقدم أو فاعل للظرف ، أى وإن أحد من أهل الكتاب ، أو وإن من أهل الكتاب أحد ، والقسم وجوابه هو الخبر ، قال الزجاج : حذف أحد مطلوب فى كل نفى يدخله استثناء ، نحو ماقام إلا زيد ، أى ماقام أحد (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ) عيسى (عَلَيْهِمْ شَهِيدًا) بما فعلوه لما بعث إليهم (فَبِظُلْمٍ) أى بسبب ظلم عظيم من الكبائر التى عدت قبل (مِنَ الَّذِينَ هَادُوا) هم اليهود (حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ) هى التى فى قوله «وحرمنا عليهم كل ذى ظفر .. الآية» أى ما حرمناها عليهم إلا بسببه (وَبِصَدِّهِمْ) الناس (عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) دينه صدًّا (كَثِيرًا) أوناساً كثيراً (وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ) فى التوراة وهو حرام فى سائر الشرائع ، وفيه دلالة على أن النهى للتحريم عند عدم الصارف (وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ) بالرشوة على الأحكام ، وسائر الوجوه المحرمة (وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ) دون من آمن بعد (عَذَابًا أَلِيمًا) مؤلما فى الآخرة عطف على «حرمنا» وتعليل الأحكام القديمة بالأفعال الحادثة فعل شرعى لا تعليل عقلى (لَكِنِ الرَّاسِخُونَ) الثابتون (فِى الْعِلْمِ مِنْهُمْ) كعبد الله بن سلام (وَالْمُؤْمِنُونَ) منهم ومن المهاجرين والأنصار (يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ) خبر «الراسخون» (وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ) نصب على المدح ، وقرئ بالرفع عطفاً على «الراسخون» أو مبتدأ والخبر «أولئك» (وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) رفعه على الوجهين (وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) قدم عليه الإيمان بالأنبياء والكتب وما يصدقه من اتباع الشرائع لأنه المقصود بالآية ، (أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ) بالنون للجمهور ، والياء لحمزة (أَجْرًا عَظِيمًا) هو الجنة (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) جواب لسؤال أهل الكتاب المنزل عليهم كتاباً من السماء وما بينهما استطراد لبعض قبائحهم : دلالة على أن ذلك السؤال ليس بأول منكر ارتكبوه ، فأخبرهم الله أن أمر محمد فى الوحى كسائر الأنبياء بقوله (كَمَا أَوْحَيْنَا) والكاف نصب بمصدر محذوف ، أى إيحاء مثل إيحائنا ، أو على أنه حال من ذلك المصدر المحذوف ، وما مصدرية لا تفتقر إلى عائد على الصحيح ، أو موصولة والعائد محذوف (إِلَى نُوحٍ) بدأ به لأنه أول الرسل إلى الكفار ، وأنه آدم الثانى ، ومعجزته كانت فى نفسه ، عاش ألفاً ونيفاً ولم يشب ، ولم يسقط له سن (وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ) المعنى أنكم يا معشر اليهود تقرون بنبوة نوح والأنبياء المذكورين بعده ، وما أنزل على أحد منهم كتابا جملة مثل ما أنزل على موسى ، فلما لم يكن ذلك قادحاً فى نبوتهم فلا يقدح فى نبوة محمد إذ أنزل عليه كما أنزل عليهم ، ولما ذكرهم جملة خص جماعة منهم بالذكر آثنى عشر لفضلهم ، وهم المشاهير ، فقال (وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ) ابنيه (وَيَعْقُوبَ)

ابن إسحق ﴿ وَالْأَسْبَاطِ ﴾ أولاده ﴿ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا ﴾ أباه ﴿ دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ بالفتح للجمهور : اسم للكتاب المؤتى . والضم لحمزة . بمعنى مزبوراً أى مكتوباً . وكتاب داود مائة وخمسون سورة . ليس فيها حكم ، بل كلها تسبيح وتقديس وتمجيد . وثناء على الله . وإنما لم يذكر موسى فيهم لإنزال التوراة عليه جملة . والمقصود ذكر من لم ينزل عليه كتاب جملة واحدة . قاله فى لباب التأويل . وقال فى فتوح الغيب : لم يذكره فيهم ليبرزه بقوله « وكلم الله موسى تكليما » اختصاصاً له بالتكليم دونهم . اه . ﴿ وَ ﴾ أرسلنا ﴿ رُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل هذه السورة فى الأنعام والأنبياء والصافات ﴿ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ نمط آخر لذكر الرسل أعم من الأول . روى عن أبى ذر مرفوعاً أن جلتهم مائة وعشرون ألفاً والرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر عدد أهل بدر ، وليس فى الآية ما ينافيه ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ ﴾ بلا واسطة ﴿ تَكْلِيمًا ﴾ هذا منتهى مراتب الوحى ، وأكده بالمصدر دفعاً للتجوز ، ثم ثلث ذكرهم على أسلوب يجمعهم فى وصف عام على جهة المدح سار فى غيرهم بقوله ﴿ رُسُلًا ﴾ بدل من « رسلا » قبله أو تأكيد أو نصب على المدح ، وهو أوجه ﴿ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ بالثواب والعقاب ، أرسلناهم ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ ﴾ تقال ﴿ بَعْدَ ﴾ إرسال ﴿ الرُّسُلِ ﴾ إليهم فيقولوا « ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين » فبعثناهم لقطع عذرهم ، واستدل بهذا الأشعرى على أن لا تكليف قبل البعثة ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا ﴾ فى ملكه يفعل ما يريد ﴿ حَكِيمًا ﴾ فى صنعه كإرسال الرسل لعدم اهتداء العقل إلى أحوال المعاد . ولما نزل إنا أوحينا إليك الآية قالوا ما نشهد لك بهذا فنزل ﴿ لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ ﴾ استدراك من مفهوم الكلام السابق من تكذيبهم إياه أى يبين نبوتك وأن المنزل عليك كلامه ﴿ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴾ من القرآن المعجز أى بجعله معجزاً خارقاً فالباء آلة أو يشهد لك بأن المنزل عليك كلامه . فالباء صلة ﴿ أَنْزَلَهُ ﴾ ملتبساً ﴿ بِعِلْمِهِ ﴾ استئناف يؤكد شهادته أى عالما به كما إذا رأيت فعلا متقناً تقول فعله بعلم ، أو عالماً بأنك أهل لذلك ، أو أنزله ملتبساً بعلمه بمصالح العباد أى مشتملا على بيانها أو محفوظاً من الشيطان ، فالجار والمجرور حال من الفاعل على الأولين . ومن المفعول على التاليين ؛ والكل بيان لصفة الإنزال ، أى أنزله بعلم تام وحكمة بالغة ، وفيه حجة قوية لأهل السنة فى إثبات العلم على المعتزلة القائلين عالم بلا علم ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ لك أيضاً بما شهد الله علموا ذلك بإخباره وعلمت شهادة الملائكة بإخبار الله الصادق ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ على ذلك بما أقام من الحجج ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالله ورسله ﴿ وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ دين الإسلام بكتمهم نعت محمد ، وهم اليهود ﴿ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ عن الحق لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالله ﴿ وَظَلَمُوا ﴾ نبيه بكتمان نعته وعباده بإضلالهم ﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ إن ماتوا على ذلك ، أو لا يستر قبائح أفعالهم بل يفضحهم فى الدنيا ويعاقبهم بالقتل والسبى والجلاء ، وفى الآخرة بالنار ، وهو

قوله ﴿ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴾ من الطرق يوم القيامة ﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ مقدرين الخلود فيها إذا دخلوها ﴿ أَبَدًا ﴾ وفى ذكر الهداية تهكم ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ لا يصعب عليه ولا يستعظمه ، وفى الحديث القدسى « خلقت هؤلاء للنار ولا أبالى » . ولما قرر أمر النبوة وبين الطريق الموصل إلى العلم بها ، ووعيد من أنكرها ، خاطب الناس جميعاً بالإجابة فقال ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ والجارّ والمجرور فى الموضعين حالٌ الأول من الفاعل والثانى من المفعول ﴿ فَآمِنُوا ﴾ به إيماناً ﴿ خَيْرًا لَكُمْ ﴾ مما أنتم فيه واقصدوا خيراً لكم أو يكن خيراً لكم عند الكوفيين ، وأنكر البصريون حذف كان مع اسمه إلا فيما لابد منه ، لأنه يؤدى إلى حذف الشرط وجوابه ﴿ وَإِنْ تَكْفُرُوا ﴾ به بعد ظهور الحق بالدلائل وهذا النصح ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فهو غنىٌّ عنكم ولا يضره كفركم ولا ينفعه إيمانكم ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بخلقه من يؤمن ومن يكفر ﴿ حَكِيمًا ﴾ فى صنعه بهم ، لا يسوّى بين المؤمن والكافر فى الأجر ، ولما أزاح الشبهة عن حال محمد أراد إزاحتها عن عيسى عليهما السلام فقال ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ الإنجيل أى النصارى ﴿ لَا تَغْلُوا ﴾ تتجاوزوا الحد ﴿ فِي دِينِكُمْ ﴾ وهو رفع عيسى فوق منزلته ﴿ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا ﴾ القول ﴿ الْحَقَّ ﴾ من تنزيه عن الشريك والولد والحلول والاتحاد فى بدن الإنسان فنزهوا الله عن ذلك ، ولما منعهم من الغلو فى دينهم أرشدهم إلى الحق فى أمر عيسى فقال ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ وعيسى عطف بيان من المسيح ، لأنه أشهر منه ﴿ وَكَلِمَتُهُ ﴾ كن فكان من غير واسطة وتسميته بالكلمة تسمية الشىء باسم سببه ﴿ أَلْقَاهَا ﴾ أوصلها ﴿ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ وحصلها فيها ﴿ وَرُوحٌ ﴾ يحيى الموتى والقلوب صدر ﴿ مِنْهُ ﴾ تعالى بخلقه كسائر الأرواح ، وإنما أضافه إليه تشريفاً وتكريماً ، وفى تنكير روح تعظيم أيضاً أى روح أىّ روح ، وإنما للحصر ، أى لا تجاوزوه على هذا ، فليس كما زعمتم ابن الله أو إله معه ، أو ثالث ثلاثة ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ وعيسى من جملتهم ﴿ وَلَا تَقُولُوا ﴾ الآلهة ﴿ ثَلَاثَةٌ ﴾ الله وعيسى وأمه ، أو الإله ثلاثة أقانيم : الأبُ والابن وروح القدس . أى مركب منها ، يريدون بالأب الذات ، وبالابن العلم ، وبالروح الحياة . وضلالتهم ظاهرة ، فلا حاجة إلى إيراد خرافاتهم هنا بين كلام الله ، وقد رددناها فى كتبنا الأصولية كنظمى لوسطى السنوسى وغيره ﴿ انْتَهُوا ﴾ عن ذلك التثليث ، وأتوا ﴿ خَيْرًا لَكُمْ ﴾ منه ، وهو التوحيد ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ لا شريك له ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيهاً له عن ﴿ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ لأنه يشبه الوالد ، والله ليس كمثله شىء ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ خلقاً وملكاً ، والملكية تنافى البنوّة ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ شهيداً على ذلك ، وحافظاً يوكل إليه الأمور : تقرير لغناه ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ ﴾ لم يتكبر ولم يأنف عن ﴿ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ ﴾ من نكفت الدمع نحيته بأصبعى كيلا يُرى أثره علىَّ ، فإن عبوديته شرف يتباهى به ﴿ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ عند الله كجبريل

وميكائيل لا يستنكفون أن يكونوا عبيداً لله ، وهذا من أحسن الاستطراد : ذكر للرد على من زعم أنها آلهة ، كما ردّ على النصارى المقصود خطابهم ، فلا دليل فيه على تفضيل الملائكة على الأنبياء ، أو يقال غايته تفضيل المقربين من الملائكة على المسيح ، ولا يستلزم فضل أحد الجنسين على الآخر . انظر البيضاوى . قال فى غاية الأمانى : تمسك بهذا من فضّل الملائكة على الأنبياء بأن هذا أسلوب الترقى وهذا مستقيم لو سيق الكلام لبيان الأفضلية بين الفريقين ، وليس كذلك ، بل إنما سيق لدفع شبهة النصارى فى إلهية المسيح بأنه موجود من غير أب مع كمال العلم والقدرة على إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، ولا شك أن الملائكة فى باب التجرد والاطلاع على المغيبات والقدرة على الأعمال الخارقة لا سيما المقربين منهم أعلى شأناً فى ذلك من عيسى عليه السلام ، وناهيك ماجرى على المؤتفكات بريشة من جناح جبريل عليه السلام ، والقول بأنه رد على النصارى وعبدة الملائكة مع كون السياق يأباه لا يدفع شبهة الترقى ، وكذا القول بأن غايته كون المقربين أفضل من عيسى . اهـ . ﴿ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ ﴾ عطف على الاستنكاف لأنه أخص من الاستكبار : لأنه تكبرٌ مع الإعراض . قاله فى غاية الأمانى . وقال البيضاوى : الاستنكاف دون الاستكبار ولذا عطف عليه . وإنما يستعمل حيث لا استحقاق عليه بخلاف التكبر فإنه قد يكون باستحقاق ﴿ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ فى الآخرة ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ ثواب أعمالهم ، سماها أجوراً تنبيهاً على استحقاقهم ودلالة على لزوم ثبوتها ﴿ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا ﴾ عن عبادته ﴿ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ هو النار ﴿ وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ تفصيل للمجازاة العامة ، المدلول عليها من فحوى الكلام ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ حجة قاطعة هو النبي أى معجزاته الواضحات ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ هو القرآن ، المعنى : جاءكم دلائل العقل وشواهد النقل ولم يبق لكم عذر ولا علة ، وسمى القرآن نوراً لهدايته إلى كل خير ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ ﴾ يعنى بالله فى أن يثبتهم على الإيمان ويصونهم عن زيغ الشيطان ، أو بالنور وهو القرآن بالعمل به ﴿ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ ﴾ تنجيهم من عذابه وهى الجنة ﴿ وَفَضْلٍ ﴾ زيادة عليها كرؤية الله ، وفيه إطلاق الحال على المحل ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ ﴾ إلى الله ، أو إلى الموعود ﴿ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ هو الإسلام ، أخره اهتماماً بالمقصود ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ ﴾ فى الكلالة ، والمستفتى هو جابر بن عبد الله . وفى الصحيحين أن جابر بن عبد الله فى حجة الوداع كان مريضاً فدخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يعقل فتوضأ وصب عليه من وضوئه فأفاق فقال يارسول الله لا يرثنى إلا الكلالة فكيف الميراث ؟ فنزلت . وفى الترمذى : وكان لى تسع أخوات ﴿ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾ تقدم الكلام فى تفسيرها أول السورة ﴿ إِنِ امْرُؤٌ ﴾ مرفوع بفعل يفسره ﴿ هَلَكَ ﴾ مات ﴿ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ ولا والد إذ لو كان

الأب لما ورثت الأخت شيئاً إجماعاً ، والجملة صفة امرؤ أو حال من المستكن فى هلك ﴿ وَلَهُ أُخْتٌ ﴾ لأبوين أو لأب ، الواو للحال أو للعطف ﴿ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴾ فرضاً والباقى لبيت المال إن لم يكن عاصب ، وأخذها النصف مع البنت ، والثلث مع البنتين فأكثر تعصيب لا فرض ، والكلام هنا فى الفرض ﴿ وَهُوَ ﴾ المرء أى الأخ كذلك ﴿ يَرِثُهَا ﴾ أى أخته إن كان الأمر بالعكس : جميع ما تركت ﴿ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ﴾ فإن كان لها ولد ذكر فلا شىء له أو أنثى فله ما فضل عن نصيبها ، ولو كانت الأخت أو الأخ من أم : ففرضه السدس كما تقدم أول السورة ﴿ فَإِنْ كَانَتَا ﴾ الأختان ﴿ اثْنَتَيْنِ ﴾ أى فصاعداً والضمير لمن يرث ثُنّى حملا على المعنى ﴿فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ الأخ ﴿وَإِنْ كَانُوا﴾ أى الورثة ﴿إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ﴾ منهم ﴿ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ شرائع دينكم ﴿ أَنْ تَضِلُّوا ﴾ أى كراهة أن تضلوا أو لئلا تضلوا الحذف لا ، وهو قول الكوفيين ، وفيه أن الذى بينه من أول السورة إلى الخاتمة أحكام أصولا وفروعاً ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ كامل العلم بمصالح العباد فى المحيا والممات ، ومنها الميراث .

روى الشيخان عن البراء : أن هذه الآية آخر آية نزلت أى من الفرائض . رزقنا الله فهم ما فى القرآن والعمل به . والموت على الإيمان .

[تم تفسير سورة النساء]

سورة المائدة

مدنية مائة وعشرون أو وثنتان أو وثلاث آيات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ العهود المؤكدة التى بينكم وبين الله كالتكاليف ، وبين الناس كالأمانات والمعاملات . أى قوموا بموجبها ، والأمر للوجوب فى الواجبات والندب فى غيرها ، ولما كانت السورة مشتملة على أمهات الأحكام أصولا وفروعاً ، أجملها أولا براعة للاستهلال ، ثم فصلها بقوله ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ ﴾ الإبل والبقر والغنم وما شابهها ، كالظباء وبقر الوحش أكلا بعد الذبح . والبهيمة كل حىّ لا يميز ، وقيل ذوات الأربع ، وإضافتها إلى الأنعام للبيان ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ تحريمه فى « حرمت عليكم الميتة ... الآية » فالاستثناء منقطع ويجوز أن يكون متصلا ، والتحريم لما عرض من الموت ونحوه ﴿ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ جمع حرام أى محرمون وغير ، حال من ضمير « لكم » و « أنتم حرم » حال من فاعل « محلى » و « الصيد » يحتمل المصدر والمفعول ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ من تحليل وتحريم لا اعتراض عليه ، ولا يسأل عما يفعل ، وهذا تقوية لهذه

الأحكام الشرعية المخالفة لأحكام الجاهلية ، قال ابن عطية : هذه الآية مما تلوح فصاحتها وكثرة معانيها على قلة ألفاظها لكل ذى بصر بالكلام ، وقد حكى النقاش أن أصحاب الكندى قالوا للكندى : أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن ، فقال : نعم أعمل لكم مثل بعضه ، فاحتجب أياماً ثم خرج فقال : والله ماأقدر عليه ، ولا يطيق هذا أحد ، إنى فتحت المصحف فخرج أول المائدة ، فنظرت ، فإذا هو قد أمر بالوفاء ونهى عن النكث وحلل تحليلا عاما ، ثم استثنى استثناءً بعد استثناء ، ثم أخبر عن قدرته وحكمته فى سطرين ولا يستطيع أحد أن يأتى بهذا ، إلا فى مجلدات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا﴾ لاتتهاونوا فى ﴿شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ مناسك الحج ، جمع شعيرة ، اسم ما جعل شعاراً غلب على معالم الحج : أعماله ومواقفه : لأنها علامات الحج والإضافة للتشريف ، أى لا تفعلوا ما لا يحل فيها . وعن ابن عباس كان المشركون يحجون ويُهدون ، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم فنهاهم الله عن ذلك ، وعنه فى معنى لا تحلوا شعائر الله هى أن تصيد وأنت مُحرِمٌ . وقيل شعائر الله شرائعه ، لا تحلوا شيئاً من فرائضه ونواهيه بالترك والفعل ﴿وَلَا﴾ تحلوا ﴿الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ بالقتال فيه وتقدم . أو بالنسىء فيه وسيأتى ﴿وَلَا الْهَدْيَ﴾ ما يهدى للكعبة من النعم بالتعرض له بالغصب وبالمنع من بلوغ محله ﴿وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ جمع قلادة ما يقلد به الهدى من شجر الحرم علامة أنها لله ، المراد ذوات القلائد من الهدايا من عطف الخاص على العام ، لأنها لتعريف الهدايا أو لا تحلوا نفس القلائد فضلا عن البُدْن المقلدة ﴿وَلَا آمِّينَ﴾ قاصدين ﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ لزيارته وهم الحجاج والعمار كافرين أو مسلمين لا تحلوا التعرض لهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا﴾ رزقاً ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ بالتجارة ﴿وَرِضْوَانًا﴾ منه بقصده . روى أنها نزلت عام القضية فى حجاج اليمامة ، لما همّ المسلمون أن يتعرضوا لهم بسبب كون « حطم » الذى أغار على سرح المدينة غدراً فيهم ، فنهوا عن ذلك ، وعلى هذا فهو منسوخ بآية براءة ، وجملة «يبتغون» حال من المستكن فى «آمّين» لا صفة له ، لأنه عامل ، والمختار أن اسم الفاعل الموصوف لا يعمل ، وفائدتها التنبيه على المانع ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ من الإحرام ﴿فَاصْطَادُوا﴾ أمر إباحة إن كان للمعاش ، ويندب للتوسعة على العيال ، ويجب لإحياء نفس عند الضرورة ، ويكره للهو ، ويحرم للتعذيب فقط ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يحملنكم ولا يكسبنكم ﴿شَنَآنُ﴾ بفتح النون للجمهور ، وسكونها لابن عامر وابن عياش ﴿قَوْمٍ﴾ شدة بغضهم وهو مصدر أضيف إلى المفعول أو الفاعل لأجل ﴿أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ عام الحديبية عن العمرة مفعول له بتقدير اللام على فتح الهمزة قراءة الجمهور . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسرها : شرط أغنى عن جوابه ، لا يجرمنكم ﴿أَنْ تَعْتَدُوا﴾ تتجاوزوا عليهم بالانتقام بالقتل وغيره ، مفعول ثان ليجرمنكم ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ﴾ فعل الخير كالعفو والإغضاء ﴿وَالتَّقْوَى﴾ اتقاء المحارم ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا﴾ فيه حذف إحدى التاءين فى الأصل ﴿عَلَى الْإِثْمِ﴾ المعاصى ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ التعدى فى حدود الله كالظلم ، وعند ابن عباس : البر متابعة السنة ، والعدوان

البدعة . وفى مسلم : البرُّ حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس . وفى البخارى : آنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . قيل : هذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً ؟ قال : تمنعه من الظلم ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ فانتقامه أشد ، ثم عد ما يتلى مما استثنى من بهيمة الأنعام بقوله ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ الميت حتف أنفه ، وكل ما لم يذك الذكاة الشرعية أى أكلها ﴿ وَٱلدَّمُ ﴾ المسفوح كما فى الأنعام كانوا يفصدون البعير ويأكلون دمه ﴿ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ تقدم فى البقرة ﴿ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ ﴾ الميتة خنقاً بكحبل بقصد أولا ﴿ وَٱلْمَوْقُوذَةُ ﴾ المقتولة بضرب كخشب : كانوا يضربونها حتى تموت فيأكلوها ﴿ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ ﴾ الساقطة من مكان عال فاتت ﴿ وَٱلنَّطِيحَةُ ﴾ المقتولة بنطح أخرى لها ، والتاء لعدم ذكر الموصوف ﴿ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ ﴾ أى ما بقى مما افترسه ذو ناب أو ظفر أو مخلب من الحيوان فمات ، وكانت العرب تأكل هذه المذكورات ولم تعتقدها ميتة بل الميتة عندهم ما مات حتف أنفه بالوجع ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ أدركتم الروح فيه من هذه الأشياء فذكيتموه الذكاة الشرعية بذبح المذبوح ونحر المنحور وعقر غير المقدور عليه من الوحش ، ولا تصح الذكاة عند مالك إلا بقطع الحلقوم والمرىء والودجين ، ولم يشترط الشافعى قطع الودجين ، ولو ذبح من القفا لم يؤكل عندنا ويؤكل عند الشافعى فالاستثناء متصل أو منقطع : أى لكن ما ذكيتم من غيرها فكلوه ، ولها أربعة أحوال : ما مات منها قبل الذكاة لم تؤكل إجماعاً ، وما أنفذت مقاتلها لم تؤكل باتفاق فى المذهب ، وإن لم تنفذ مقاتلها ورجيت ذكيت وأكلت إجماعاً ، وإن أيس من حياتها ولم تنفذ ذكيت وأكلت عند ابن القاسم وفاقاً للشافعى وأبى حنيفة ، وقيل لا تؤكل . والفرق بين الشك فتؤكل وبين اليأس فلا تؤكل ، والحلقوم : مجرى النفس ، والمرىء ـ كأمير ـ مجرى الطعام : والودجان : عرقان بصفحتى العنق يقطعان عند الذبح ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾ جمع نصاب وهى الأصنام أى على اسمها وتقدم ﴿ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا ﴾ تطلبوا إظهار القسم أى النصيب والحكم ﴿ بِٱلْأَزْلَٰمِ ﴾ جمع زلم بفتح الزاى وضمها مع فتح اللام ـ قدح صغير لا ريش له ولا نصل ، ويقال للسهم أول ما يقطع : قِطعٌ : إن نحت فبرى ، وإن قوّم فقدحٌ ، وإن ركب مع النصل فسهم : أى حرم عليكم طلب معرفة ما قسم لكم دون ما لم يقسم بالأزلام ، وهى ثلاثة : مكتوب على أحدها أمرنى ربى ، وعلى الآخر نهانى ربى . والثالث غفلٌ : يجعلونها فى جعبة يجيلونها ثم يخرجونها ، فإن خرج أمرنى فعلوا ، أو نهانى تركوا ، أو الثالث استأنفوا ، أو المراد استقسام الجزور بالأقداح السبعة على الأنصباء المعلومة فى الميسر ، وتقدم ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ الاستقسام أو جميع ما تقدم ﴿ فِسْقٌ ﴾ خروج عن الشرع لأنه توسل إلى علم الغيب من غير الله ، وهو معصية وضلال ، إن اعتقد أن ذلك طريق إليه ، وافتراء على الله إن أريد بربى الله ، وشرك إن أريد به الصنم وكذا لا يجوز طلب الغيب من الكهنة وأهل التنجيم ، وليس منه القرعة الشرعية ، لما فى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه ﴿ ٱلْيَوْمَ ﴾ أى يوم

عرفة عام حجة الوداع ، إذ فيه نزل ، أو المراد : الآن ، لايوم بعينه ﴿ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ ﴾ من إبطاله أو أن ترتدوا عنه إلى دينهم بتحليل هذه الخبائث لما رأوا من قوته ، أو يئسوا من أن يغلبوكم ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ ﴾ بعد إظهار الله دينه ﴿ وَاخْشَوْنِ ﴾ أخلصوا الخشية لى ، وخافوا مخالفة أمرى ، ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ بدل من اليوم ، وفى البخارى : نزلت والنبى صلى الله عليه وسلم واقف على ناقته بعرفة يوم الجمعة ، ومعنى الإكمال : أن الحج آخر أركان الإسلام الخمسة ، اتفاقاً ، قاله فى غاية الأمانى . وقال البيضاوى : أكملت لكم دينكم بالنصر والإظهار على الأديان كلها ، أو بالتنصيص على قواعد العقائد والتوقيف على أصول الشرائع وقوانين الاجتهاد . وقال الخازن فى لباب التأويل : يعنى بالفرائض والسنن والحدود والأحكام والحلال والحرام ؛ فلم ينزل بعد هذه الآية حلال ولا حرام ، ولا شىء من الفرائض اهـ . وروى ابن جرير أن عمر بن الخطاب بكى لما نزلت ، فقال له عليه السلام : « ما يبكيك ؟ » فقال : كنا فى زيادة من ... أما إذ أكمل ، فإنه لا يكمل شىء إلا نقص ، فقال صدقت . وعاش عليه السلام بعدها واحداً وثمانين يوماً ، وتوفى يوم الاثنين بعد مازاغت الشمس لليلتين خلتا من ربيع الأول ، أو لاثنتى عشرة منه . قال الخازن : وهو الأصح ـ سنة إحدى عشرة من الهجرة ﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ بإكمال الدين وبدخول مكة آمنين وتطهير البيت من الأصنام ومنع المشركين من دخول الحرم بعد العام وهدم الجاهلية ﴿ وَرَضِيتُ ﴾ اخترت ﴿ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ من بين الأديان ، ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق ، كما فى الحديث . والكمال إزالة النقصان فى الصفات ، والتمام فى الذات ولذا عبر عن الأول فى الدين لأنه لا نقص فى ذاته من أول الإسلام ، لكن كل بظهوره على الأديان كلها ، وهو من صفاته وبه تم ذات النعمة ، و « ديناً » حال من الإسلام أى رضيته لكم ، حين بلغ صفته اليوم وهو نهاية الكمال ، فالزموه ولا تفارقوه ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ ﴾ متصل بالمحرمات قبل وما بينهما اعتراض يؤكد معنى التحريم وهو أن تناولها فسوق ، وحرمتها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام المرضى : أى فمن اضطر ﴿ فِي مَخْمَصَةٍ ﴾ مجاعة إلى أكل شىء من هذه المحرمات ﴿ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ ﴾ مائل قاصد ﴿ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ له ﴿ رَحِيمٌ ﴾ به فى إباحة الفعل ، والمائل هو قاطع الطريق ، أو الباغى ، وتقدم مستوفى فى البقرة . ولما تلا عليهم ما حرم سألوا عما أحل لهم فنزل ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ يا محمد ﴿ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ﴾ من المطاعم ﴿ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾ المستلذات . مما لم يدل نص ولا قياس على حرمته ﴿ وَ ﴾ صيد ﴿ مَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ ﴾ الكواسب من الكلاب والسباع والطير أو جواب عما يجوز اتخاذه من الكلاب فلا حاجة إلى تقدير مضاف لأنه الذى سألوه ، وقوله « أحل لكم الطيبات » زيادة فى الجواب بالأهم ﴿ مُكَلِّبِينَ ﴾ حال مؤكدة ، أى مكلبين آداب الصيد ، والمكلب مؤدب الجوارح من كلبت الكلب بالتشديد أرسلته على الصيد ، ويقال له الكلاب وشرطه أن يكون مسلماً مميزاً ويرى الصيد ويعينه وينوى اصطياده ويسمى الله عند الإرسال أو الرمى ، فإن ترك

التسمية فكحكم الذبح ، وتقدم . ويتبع الصيد بعد الإرسال أو الرمى ، فإن رجع ثم أدركه غير منفوذ المقاتل ذكاه ، وإن أنفذت لم يأكل إلا أن يتحقق أن مقاتله أنفذت بالصيد ﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ ﴾ حال من ضمير مكلبين ، ﴿ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ من الحيل وطرق التأديب بإلهام وتجربة ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ وإن قتله وإن أكلت منه فى مذهب مالك ، لحديث أبى داود «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل وإن أكل» خلافا للشافعى وغيره ، واحتجوا بحديث الصحيحين «فإن أكل فلا تأكل» ولا يحل صيد غير المعلمة ، وعلامة المعلمة أن تنتقل عن طبعها الأصلى فتصير منصرفة بحكم الصائد كالآلة تستشيل إن أشيلت وتنزجر إذا زجرت ، وتجىء إذا دعيت ، وأما ترك الأكل فاشترطه الشافعى مطلقاً ولم يشترطه مالك مطلقاً ، واشترطه الحنفى فى السباع دون الطير ، وفى الصحيحين أن صيد السهم إذا أرسل وذكر اسم الله عليه كصيد المعلم من الجوارح ، لكن إن كان مسموماً لا يؤكل ما لم تدرك ذكاته ، وإن أدركت أكل إن أمن السم ، ﴿ وَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ على ما علمتم عند إرساله ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ﴾ احذروا مخالفته فيما أحل لكم ، أو حرم عليكم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ فيؤاخذكم بما جلّ ودقّ : تخويف لمن خالفه ﴿ ٱلْيَوْمَ ﴾ بدل من « اليوم أكملت لكم » والسؤال والجواب بينهما اعتراض ﴿ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَاتُ ﴾ كرر للتأكيد ولبيان أنه كما أكمل الدين فى ذلك الوقت وأتم النعمة فيه فكذلك إحلال الطيبات إنما تم فيه ﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ ﴾ الذبائح وغيرها ، صريحاتهم ودخلائهم كتنصرة العرب من بنى تغلب وغيرهم ، خلافاً للشافعى فإنه لم يجوّز ذبائح المتنصرة ﴿ حِلٌّ لَكُمْ ﴾ أن تأكلوه لاحترامهم عن النجاسات والقاذورات فى دينهم بخلاف المجوس وعبدة الأصنام فى الذبائح وغيرها . قال ابن العربى فى الأحكام : المجوس الذين لا تؤكل ذبائحهم لا يؤكل طعامهم ، إذ يستقذرون فى أوانيهم ، فغسل آنية المجوس عند إرادة الاستعمال فرض ، وغسل آنية أهل الكتاب فضل . اه . لكن قال فى لباب التأويل : وأجمعوا على أن المراد بطعام الذين أوتوا الكتاب ذبائحهم خاصة لأن سائر الطعام لا يختلف باختلاف من تولاه من كتابى أو غيره ، وإنما تختلف الذكاة اه . قلت : ولعل ابن العربى راعى تنجس طعام غير أهل الكتاب غالباً ، وصاحب اللباب راعى أصل الطعام والله أعلم . ﴿ وَطَعَامُكُمْ ﴾ أى إطعامكم إياهم ﴿ حِلٌّ لَهُمْ ﴾ وإن كانوا كافرين فلا جناح عليكم أن تطعموهم وتبيعوه منهم ، أو طعامكم حل لهم ، فليس كالنكاح ذكر للتمييز بين النوعين ﴿ وَٱلْمُحْصَنَاتُ ﴾ الحرائر العفائف ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ ﴾ حث على الأولى أو تحريم لغيرهن وتقدم التفصيل فى الإماء ﴿ وَٱلْمُحْصَنَاتُ ﴾ الحرائر ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ وإن كن حربيات حل لكم أن تنكحوهن لكن تكره الحربيات . ولا يجوز نكاح إمائهم مطلقاً خلافاً لأبى حنيفة ، وفسر المحصنات بالعفائف ﴿ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ مهورهن ، المراد التزام الإيتاء كما فى المسلمات وإيثار الإيتاء مبالغة حثاً على الأولى ﴿ مُحْصِنِينَ ﴾ أعفة بالتزوج دفع لتوهم حل الأجر على معناه ، واستدل بظاهره الإمام أحمد ، فمنع عقد

الفاجر على العفيفة ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ غير مجاهرين بالزنا بهن ، حال مؤكدة ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ منهن ، تسرون بالزنا بهن ، جمع خدن : الصديق يقع على الذكر والأنثى ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ أى يرتد بإنكار شرائع الإسلام ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ الصالح ، وتقدم فى البقرة ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ إذا مات على ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أى أردتم القيام إليها من إقامة المسبب مقام السبب ، أو اللازم عن الملزوم للإيجاز وأنتم محدثون : فالخطاب للمحدثين بقرينة الحال ، وبتصريحه فى البدل للإجماع على عدم وجوب الوضوء على من لم يحدث ، والوضوء لكل صلاة مستحب عند الجمهور ، خلافاً لمن أوجبه لظاهر الآية لأنه خلاف الإجماع ولأنه عليه السلام صلى الخمس بوضوء واحد يوم الفتح ، فقال له عمر : صنعت شيئاً لم تكن تصنعه ، فقال عمداً فعلته ، ومن قال الأمر فى هذه الآية للندب تخصيص لا دليل عليه ، وكذا من ادعى النسخ ، لأن المائدة نزلت بعد الفتح فى آخر ما نزل ، فأحلوا حلالها وحرموا حرامها ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ والغسل إسالة الماء مع الدلك عند المالكية خلافاً للشافعية والوجه مابين منبت الشعر المعتاد إلى آخر الذقن طولا ، وما بين الأذنين عرضاً ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ أى معها جمع مرفق بالكسر والفتح ، متصل الذراع والعضد ، والجمهور على وجوب غسله احتياطاً واتباعاً للسنة أى فعل النبي صلى الله عليه وسلم فى إدخاله ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ الباء للتأكيد ، أى امسحوا جميع رءوسكم ، فمسح جميعه واجب عند مالك ، وأصح الروايات عن أحمد ، والواجب عند الحنفى ربع الرأس ، وعند الشافعى أقل ما يصدق عليه المسح ، وبعض شعرة ، ولكل أدلة فى الأحاديث والقياس ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالنصب لنافع ، وابن عامر ، والكسائى وحفص ، عطفاً على أيديكم والجر على الجوار للباقين ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ أى معهما عند الجمهور ، كما بينته السنة ، وهما العظمان الناتئان فى كل رجل ، عند مفصل الساق والقدم ، والفصل بين الأيدى والأرجل المغسولة بالرأس الممسوح يفيد وجوب الترتيب فى طهارة هذه الأعضاء عند الشافعى وعند مالك وغيره سنة ووجوب النية فيه ثابت بحديث « إنما الأعمال بالنيات » خلافا لأبى حنيفة ، وفى وجوب الموالاة عند القدرة وعدم النسيان وسنيتها قولان عندنا ، وهذه فرائض الوضوء . ومابقى سنن أوفضائل والإجماع على استحسان مسح الرأس باليدين جميعا ، وعلى الإجزاء بواحدة ، ولو بإصبع واحدة على المشهور . وقيل هذا لا يجزئ لأنه لعب إلا لضرر مرض ونحوه . فلا يختلف فى الإجزاء . وأوجب أبو حنيفة مسح الأذنين والظاهرية السواك قبله . وقوم التسمية ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ بالغوا فى الطهارة بغسل البدن كله . أصله تطهروا : أدغمت التاء : فاجتلبت الهمزة . وتعميم البدن واجب إجماعا . والدلك خلافا للشافعى وأحمد وأبى حنيفة كالفور مع الذكر والقدرة والنية خلافا لأبى حنيفة ، وهذه الفرائض . وأوجب أبو حنيفة فيه المضمضة والاستنشاق والشافعى تخليل الشعر وحلّ عقاصه ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ﴾ مرضا يضره الماء ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ أى أحدث ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾

سبق مثله فى آية النساء ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ فى هذه الأحوال الحقيقة ، أو تقديراً باحتياجه لعطش محترم ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾ طاهراً ، أو اقصدوه بنية إباحة الصلاة به عند جميع الأئمة ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ وقد سبق وكرر ليتصل الكلام فى بيان أنواع الطهارة ، فإن عدم الماء والصعيد سقطت الصلاة ، وقضاؤها عند مالك ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ أدنى ضيق بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمم ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ من الذنوب بذلك كله ومن الأحداث بالوضوء والغسل لا التيمم ، إذ لا يرفع الحدث خلافاً لأبى حنيفة جعل التيمم بدل الوضوء إذ قل من يعدم التراب ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ ببيان شرائع الدين والتوسعة فى أسباب الطاعات ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمه ، وفيه إشارة إلى كون الإنسان كفوراً . وفى الآية سبعة أمور كلها مثنى ، طهارتان أصل وبدل ، والأصل مستوعب وغير مستوعب ، وغير المستوعب باعتبار الفعل غسلٌ ومسحٌ . وباعتبار المحل محدود وغير محدود ، وآلتهما مائع وجامد ، وموجبهما حدث أصغر وأكبر ، والمبيح للعدول إلى البدل مرض أو سفر ، والموعود عليهما تطهير الذنوب وإتمام النعمة ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام وغيره ، ليذكركم المنعم ، ويرغبكم فى شكره ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ ليلة العقبة أو بيعة الرضوان أو عند مبايعة الرسول وكان كل من أسلم يبايعه على السمع والطاعة فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره ﴿إِذْ قُلْتُمْ﴾ للنبى ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ حين بايعتموه فى كل ما تأمر به وتنهى عنه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى نقض الميثاق ونسيان النعمة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بخفيات الضمائر ، فغير ذلك أولى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ﴾ قائمين ﴿لِلَّهِ﴾ بحقوقه ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل للقريب والبعيد ، والصديق والعدو ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ أى الكفار ﴿عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ فيهم فتعتدوا إلى ما لا يحل ، كمثلة وقذف وقتل نساء وصبيان : نهىٌ عن ترك العدل فى المشركين ، فما ظنك بالمسلمين ﴿اعْدِلُوا﴾ فى العدو والولى ﴿هُوَ﴾ أى العدل ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ والجور مقتضى الهوى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم به ، وعد ووعيد ، ولذا بينهما بقوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وعداً حسناً وهو ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ هو الجنة ، وحذف ثانى مفعولى «وعد» استغناء ببيانه وهو «لهم مغفرة» وقيل الجملة فى موضع المفعول فإن الوعد ضرب من القول ، ثم أتبع الوعيد بقوله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ فى الوعيد : وعد للمؤمنين وتطييب لقلوبهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، إِذْ هَمَّ قَوْمٌ﴾ هم قريش ، كما يأتى فى الفتح أو هم بنو النضير حين أمروا من يطرح رحّى على النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره جبريل بذلك فقام وتركهم ، وعلى هذا القول الجمهور . قال عبد الرحمن الثعالبى : ويؤيده ما يأتى فى الآيات فى غدر يهود ، ونقضهم المواثيق . أو هم المشركون بنو محارب الذين ودُّوا أن يميلوا على المسلمين فى الصلاة ميلة واحدة بنخلة فى غزوة ذات الرقاع كما تقدم

أو المراد الأعرابى الذى وجد الرسول تحت الشجرة نائماً ، فسل سيفه عليه ، فكفه الله وسقط السيف من يده ، فأخذه الرسول ثم عفا عنه ، وهذا ما فى البخارى ومسلم والله أعلم ﴿أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ ليفتكوا بكم ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ وعصمكم مما أرادوا بكم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى أمره ونهيه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه الكافى لإيصال الخير ، ودفع الضير ، وأعاد المظهر لدلالته على النعوت الموجبة للتوكل عليه . ولما أمر بحفظ الميثاق ذكر نقض بنى إسرائيل ميثاقهم وما حل بهم تحذيراً للسلمين بقوله ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، ويعملوا بما فى التوراة فنقضوه ﴿وَبَعَثْنَا﴾ فيه التفات عن الغيبة : أقمنا ﴿مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ كفيلا شهيداً قائماً بأمر قومه من كل سبط نقيب ، يكون كفيلا على قومه بالوفاء بالعهد توثقة عليهم . روى أن بنى إسرائيل لما فرغوا من فرعون واستقروا بمصر ، أمرهم الله بالمسير إلى « أريحاء » قرية بالشام يسكنها الجبابرة الكنعانيون ، وقال إنى كتبتها لكم داراً وقراراً فاخرجوا إليها وجاهدوا من فيها ، فإنى ناصركم ، وأمر موسى أن يأخذ من كل سبط كفيلا عليهم بالوفاء بما أمروا ، فأخذ عليهم الميثاق ، واختار منهم النقباء ، وسار ، فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون الأخبار ، ونهاهم أن يحدثوا قومهم فرأوا أجراماً عظيمة ، فرجعوا وحدثوا قومهم إلا كالب بن يوقنا ، من سبط يهوذا ، ويوشع بن نون من سبط افرائيم بن يوسف ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ بالعون والنصر ، ثم ابتدأ الكلام مخاطباً لهم بإزالة العقاب وإيصال الثواب على خمسة شروط بقوله ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة ﴿وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ المفروضة عليكم ﴿وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ جميعاً ، وأخره لإيمانهم بما تقدم من الصلاة والزكاة بخلاف جميع الرسل إعلاماً لهم بأن الإيمان لا يتم إلا بجميعهم ، واكتفى بهما ، لأنهما أمّا العبادات ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ نصرتموهم من العزر ، وهو المنع والذب والردع ، ومنه التعزير ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بالإنفاق المندوب فى سبيله ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ كناية عن إزالة العقاب ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ كناية عن إيصال الثواب ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الميثاق المعلق به الوعد العظيم ﴿مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أخطأ الطريق المستقيم من إضافة الصفة إلى الموصوف ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ﴾ ما زائدة للتأكيد ﴿مِيثَاقَهُمْ﴾ بتكذيب الرسل بعد موسى وقتلهم ، ونبذ الكتاب وراء ظهورهم ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾ أبعدناهم من رحمتنا ، وأهناهم بالمسخ وضرب الجزية ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ يابسة صلبة لا تلين ولا تنفعل بالآيات ، ولا تفارق الكفر ؛ والقسوة : اليبس والصلابة مجاز عن عدم تأثرها بالآيات ، وقرأ حمزة والكسائى قسية ، وهى أبلغ ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ بيان لقسوتها إذ لا قسوة أشد من تحريف كلام الله والافتراء عليه ﴿وَنَسُوا﴾ تركوا ﴿حَظًّا﴾ نصيباً ﴿مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ فى التوراة من اتباع محمد ، أوحرفوا الكلم فنسوا بشؤم ذلك الذنب حظاً وافياً من العلم ، وعن ابن مسعود

أن المرء ينسى بعض العلوم بالمعصية وتلا الآية . وفي الجواهر نص على سوء فعلهم بأنفسهم أى قد كان لهم حظ عظيم فيما ذكروا به ، فنسوه وتركوه . اهـ . ومن تبعيضية والنسيان مجاز عن الترك أو من للابتداء ﴿ وَلَا تَزَالُ ﴾ فيما يأتى من الزمان خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ ﴾ خيانة ﴿ مِّنْهُمْ ﴾ بنقض العهد وغيره لأن ذلك عادة آبائهم مصدر كالعافية أو وصف لمقدر كنفس وفرقة أو التاء للمبالغة كراوية ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ وهم من أسلم ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ ﴾ تجاوز عن ذنبهم ﴿ وَاصْفَحْ ﴾ أعرض بترك المعاتبة على الخيانة فلا نسخ فى هذا بآية السيف ، لأنه فيما يتعلق به من خياناتهم ولإطباق الجمهور على ألا نسخ فى المائدة . ولقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ لحسن موقعه على ذلك التقدير ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ﴾ متعلق بقوله ﴿ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ ﴾ كما أخذنا على بنى إسرائيل اليهود ، ولم يقل ومن النصارى إشارة إلى أنهم ليسوا من النصارى إلا زعماً وادّعاءً ، وإعلاماً بأنهم الذين ابتدعوا هذا الاسم وسموا به أنفسهم لا أن الله سماهم به يعنى كتبنا عليهم فى الإنجيل أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ ونقضوا الميثاق ﴿ فَأَغْرَيْنَا ﴾ ألزمنا ، من غرى بالشىء لصق به ﴿ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ بتفرقهم : نسطورية ويعقوبية وملكانية ، كل فرقة تكفر الأخرى . أو بينهم واليهود ﴿ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ ﴾ فى الآخرة ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ فيجازيهم عليه ، وترتيب اللعن على نقض اليهود ، ووصفهم بالقسوة والخيانة والاكتفاء فى النصارى بالإغراء ونسيان الذكر ، دليل على غلوّ اليهود فى الكفر ، وأنهم أسوأ حالا من النصارى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ اليهود والنصارى خطاب للجنس بعد بيان حال كل فريق ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا ﴾ محمد ﴿ يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ التوراة والإنجيل ، كآية الرجم وصفته عليه السلام ، وبشارة عيسى به ﴿ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ من ذلك ، فلا يبينه إذا لم يكن فيه مصلحة إلا افتضاحكم أو عن كثير منكم فلا يؤاخذه بجرمه ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ ﴾ هو النبي ﴿ وَكِتَابٌ ﴾ قرآن ﴿ مُّبِينٌ ﴾ أو كلٌّ للقرآن قدم أشرف وصفيه ؛ والمبين من أبان لازماً ، ومتعدياً . ولم يعطفه لاستقلاله بالهداية ، قاله فى غاية الأمانى ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ ﴾ وحد الضمير لأن المراد بهما واحد ، أو لأنهما كواحد فى الحكم ﴿ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ ﴾ بأن آمن به واتبع ما ارتضاه من الدين ﴿ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ طرق السلامة أو سبل الله ، لأن السلام من أسمائه ﴿ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ الكفر ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ الإيمان ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ بإرادته ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ دين الإسلام ، وجمع السبل تعظيما أو لإرادة الفروع ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ اتحد اللاهوت بالناسوت ، وهم اليعقوبية فرقة من النصارى ، والقائلون ثالث ثلاثة هم النسطورية والمدعون بالأقنومية هم الملكانية ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ ﴾ أن يدفع ﴿ مِنَ ﴾ عذاب ﴿ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أو من يمنع من قدرته وإرادته شيئاً ؟ ﴿ إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾

أى لا أحد يملك ذلك ولو كان المسيح إلهاً لقدر على ذلك فهو مقهور قابل للفناء كسائر الممكنات ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ كيف شاء، ومن ذلك عيسى وأمه ، وأنى يتوهم لشىء شأن الألوهية ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن ذلك خلق عيسى من غير أب إزاحة لما عرض لهم من الشبهة فى أمره ، والمعنى أنه تعالى قادر على الإطلاق ، يخلق من غير أصل كما خلق السموات والأرض ومن أصل كما بينهما ، ومن أصل ليس من جنسه كآدم أو من جنسه ذكر وحده كحواء أو أنثى وحدها كعيسى أو منهما كسائر الناس ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ﴾ أى كل منهم ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ أى كأبنائه فى القرب والمنزلة وهو كأبينا فى الرحمة والشفقة ﴿وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ قال فى لباب التأويل : جملة الكلام أن اليهود والنصارى كانوا يرون لأنفسهم فضلا على من سواهم بسبب أسلافهم الأفاضل حتى انتهوا فى تعظيم أنفسهم إلى أن قالوا هذه المقالة ، فأكذبهم الله بقوله ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ بالمسخ والنار أياما معدودة على زعمكم ، ولا يعذب الأب ولده ، ولا الحبيب حبيبه ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ﴾ جملة ﴿مِمَّنْ خَلَقَ﴾ من البشر ، لكم ما لهم وعليكم ما عليهم ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ مؤمناً كان أو كافراً إن لم يتب ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كرره ليرتب عليه أمر المعاد، كما رتب على الأول أمر المبدأ ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ المرجع فيجازى كل أحد عن عمله ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ شرائع الدين أو ما كنتم تكتمون ، أو لازم بمعنى يبذل لكم البيان والجملة فى موضع الحال ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ﴾ انقطاع متعلق بجاء ﴿مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أحوج ما يكون لتعدوه أعظم نعمة إذ لم يكن بينه وبين عيسى رسول ، ومدة ذلك ستمائة سنة ، كما فى البخارى عن ابن عباس ، وقيل خمسمائة وستون ، وقيل كان بينهما أربعة أنبياء ، ثلاثة من بنى إسرائيل ، وواحد من العرب ، خالد بن سنان العبسى وبين موسى وعيسى ألف نبى ﴿أَن تَقُولُوا﴾ لئلا تقولوا إذا عذبتم معتذرين ﴿مَا جَاءَنَا مِن﴾ زائدة ﴿بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ لا تعتذروا بذلك ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ فلا عذر لكم إذن ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقدر على الإرسال تترى ، وعلى فترة ﴿وَ﴾ اذكر لهم ما كان غيباً فى كتبهم ليتحققوا نبوتك وهو ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ﴾ أى منكم ﴿أَنبِيَاءَ﴾ إذ لم يبعث فى أمة ما بعث فى بنى إسرائيل من الأنبياء ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ أى أحراراً تملكون أنفسكم بعد أن كنتم عبيداً فى أيدى القبط ، وعن ابن عباس أصحاب خدم وحشم قال قتادة كانوا أول من ملك الخدم ولم يكن لمن قبلهم خدم ﴿وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ من المن والسلوى وفلق البحر وغير ذلك ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ المطهرة بالأنبياء وهى أرض المحشر ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فرض عليكم دخولها وسكناها ، أو كتبها فى اللوح أنها تكون لكم إن أطعتم ، تشجيع لهم ، وهى الشام كله من نهر الفرات إلى وادى العريش ، الوادى الأيمن ، وقيل هى الطور وما حوله ، وقيل هى أريحاء.

وفلسطين وبعض الأردن، وقيل هي دمشق (وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ) إلى مصر أو بمخالفة موسى (فَتَنْقَلِبُوا) جزم بالعطف أو نصب على الجواب (خَاسِرِينَ) خير الدارين (قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ) من بقايا عاد طوالا ذوى قوة، والجبار من يجبر الناس على ما يريد، أو يقتل إذا غضب لكن ما يذكره المفسرون من وضع بنى إسرائيل فى عظمة هؤلاء الجبارين وأنه كان فيهم عوج بن عنق بنت آدم، وأن طوله كذا وكذا فخالف لما فى الصحيح «إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن» ثم ذكروا أن عوجاً كان كافراً ولم يغرق بالطوفان، وهذا كذب وافتراء لقوله تعالى «ثم أغرقنا بعد الباقين» وقوله حكاية عن نوح «لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً» وقال «لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم»، وإذا كان ابن نوح غرق فكيف يبقى عوج، وهو كافر. وهذا لا يسوغ فى عقل ولا شرع، ثم فى وجود رجل يقال له عوج نظر، والله أعلم. نبه على هذا القسطلانى وغيره من علماء السنة، (وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا) بغير قتالنا (فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ) لها، ولا طاقة لنا بحربهم (قَالَ رَجُلَانِ) هما يوشع وكالب المتقدمان فى النقباء (مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ) الله كأنه قال من الكمل، وقيل هما رجلان من الجبابرة أسلما وصارا إلى موسى، فعلى هذا الواو لبنى إسرائيل والراجع إلى الموصول محذوف، أى من الذين يخافهم بنو إسرائيل (أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا) بالهداية والوفاء بالعهد أو بالإسلام على الثانى (ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ) باب القرية بغتة، ولا تخشوهم فإنهم أجساد بلا قلوب (فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ) قالا ذلك تيقناً بنصر الله وإنجاز وعده (وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) بوعده ولا مؤثر غيره، فلما قالا ذلك كاد بنو إسرائيل أن يقتلوهما وقالوا فلنجعل لأنفسنا رئيساً ينصرف بنا إلى مصر، فلما هموا بذلك (قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا) نفوا الدخول على أبلغ وجه بلن، ثم قيدوه بزمن الأبد، ثم أشاروا إلى مرادهم بالأبد وأنهم لم يريدوا به معناه بقولهم (مَا دَامُوا فِيهَا) بدل من أبداً بدل البعض (فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا) هم، قالوا ذلك جهلا واستهانة بأمر الله ورسوله، أو مرادهم وربك معك يعينك فأنت منصور من عند الله، كما شاهدنا ذلك من حالك مع فرعون (إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) عن القتال أو لا نرجع بل ننتظر خبرك معهم، ولما سمع موسى قولهم وأيس منهم، ولم يبق معه موافق يثق به غير هارون عليه السلام تبرأ إلى الله منهم، وخر ساجداً، وبعدها هارون والرجلان معه (قَالَ) داعياً عليهم (رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ) فى نصر دينك أحداً (إِلَّا نَفْسِي وَ) إلا (أَخِي) يحتمل نصبه بالعطف على نفسى أو على ضمير «إنى» ورفعه على الضمير فى «أملك» وجره عند الكوفيين على الضمير فى «نفسى» ولم يذكر الرجلين إذ لا وثوق فى بعض الأحوال بغير معصوم، أى لا أملك غيرهما فأجبرهم على الطاعة (فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) وخلصنا من صحبتهم أو من شرهم، أو بأن تحكم لنا بما نستحقه وعليهم بما يستحقون (قَالَ) تعالى له (فَإِنَّهَا) أى الأرض المقدسة (مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ) أن يدخلوها لعصيانهم (أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ)

يتحيرون ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ فالتحريم مؤقت لا مؤبد ، فلا يخالف قوله « التي كتب الله لكم » ومارُوى أن موسى أو يوشع بعده سار بمن بقي وفتحها وقيل لم يدخلها أحد ، قال لن ندخلها ، بل هلكوا في التيه ، وإنما دخلها أولادهم ، ولما سمع موسى ذلك ندم على الدعاء عليهم ، رحمة : فخاطبه الله بقوله ﴿ فَلَا تَأْسَ ﴾ تحزن ﴿ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ روى أنهم لبثوا أربعين سنة في ستة فراسخ ، يسيرون الليل جادين فإذا أصبحوا إذاهم في الموضع الذي ابتدأوا منه ، ويسيرون النهار كذلك ، حتى انقرضوا كلهم إلا من لم يبلغ العشرين قبل ذلك . وكانوا ستمائة ألف ومات هارون ثم موسى بعد سنة في التيه ، وكان رحمة لهما وعذاباً لأولئك ، وسأل موسى ربه عند موته أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر ، فأدناه كما في الحديث ، ونبئ يوشع بعد الأربعين ، وأمر بقتال الجبارين ، فسار بمن بقي معه ، وقاتلهم ، وكان يوم الجمعة بعد العصر ، فخاف دخول السبت : فدعا الله ؛ فوقفت له الشمس ساعة حتى فرغ من قتالهم ، وروى أحمد في مسنده حديث « إن الشمس لم تحبس على بشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس » اهـ . ثم أمر الله نبيه أن يقص على حاسديه ما جرى بسبب الحسد ليتركوه ويؤمنوا ، فقال ﴿ وَاتْلُ ﴾ يا محمد ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ على قومك أو على أهل الكتاب ﴿ نَبَأَ ﴾ خبر ﴿ ابْنَيْ آدَمَ ﴾ هابيل وقابيل ، أوحى الله إلى آدم أن يزوج كل واحد منهما توأم الآخر ، فسخط منه قابيل ، لأن توأمته كانت أجمل ، فقال لهما آدم : قرّبا قرباناً ، فمن أيكما قبل ، تزوجها . فقبل قربان هابيل ، كما قال ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ صفة مصدر محذوف ، أي تلاوة ملتبسة بالحق ﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ﴾ ظرف للنبأ أو حال منه ، أو بدل على حذف مضاف ، أي نبأ ذلك الوقت ، والقربان اسم لما يتقرب به إلى الله كالحلوان لما يحلى أي يعطى ؛ وهو كبش لهابيل وقمح لقابيل ﴿ فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا ﴾ وهو هابيل بأن نزلت نار من السماء فأكلت قربانه ، وقيل رفعته ، وهو الذي أتى به إلى إبراهيم في فدية ابنه ﴿ وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ ﴾ وهو قابيل لأنه سخط حكم الله ، ولم يخلص النية في قربانه ؛ فغضب وأضمر الحسد في نفسه إلى أن حج آدم ﴿ قَالَ ﴾ له ﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ قال لِمَ ، قال لتقبل قربانك دوني ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ وإنما ابتليت من قبل نفسك لا من قبلي ، وفيه إشارة إلى أن الحاسد ينبغي أن يرى حرمانه من تقصيره ويجتهد في تحصيل ما به صار المحسود محظوظاً ، لا في طلب إزالة حظه ، فإن ذلك مما يضره ، ولا ينفعه ، وأن الطاعة لا تقبل إلا من مؤمن متق قاله البيضاوي ، وقال ابن عطية : إجماع أهل السنة في معنى هذه الألفاظ ، إنما هو اتقاء الشرك ، فمن اتقاه وهو موحد فأعماله التي تصدق فيها نيته مقبولة ، وأما المتقي للشرك والمعاصي فله الدرجة العليا من القبول اهـ . قال في الجواهر : قول ابن عطية في معنى هذه الألفاظ يعني حيث وقعت في الشرع ، وأما في هذه الآية فليس باتقاء شرك على ما سيأتي من قول هابيل « ما أنا بباسط يدي إليك ... الآية » اهـ ﴿ لَئِنْ ﴾ لام قسم ﴿ بَسَطْتَ ﴾ مددت ﴿ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾ وإن كنت أقوى منك : أكد بالاسمية ، والباء مبالغة في الخروج عن الاتصاف بهذه

الرذيلة ، إنما استسلم لأخيه فى القتل ، وترك الدفع عن نفسه ، خوفاً من الله ، لأن الدفع لم يبح حينئذ ، أو تحرياً لما هو الأفضل . قال عليه السلام « كن خير ابنى آدم مظلوماً ولا تكن ظالما » ﴿ إِنِّى أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ فى قتلك ﴿ إِنِّى أُرِيدُ أَن تَبُوٓءَ ﴾ ترجع ﴿ بِإِثْمِى ﴾ بإثم قتلى ﴿ وَإِثْمِكَ ﴾ الذى ارتكبته من قبل فى عقوق أبيك ومخالفة أمر ربك ، والحسد لأخيك ، وهو تعليل ثان للامتناع عن قتله و « بإثمى وإثمك » فى موضع الحال ، أى ترجع ملتبساً بالإثمين ، حاملا لهما ، ولم يرد حصول المعصية والشقاء لأخيه ، بل قصده : إن كان لا محالة واقعا فأريد أن يكون لك ، لا لى ، فالمقصود بالذات أن لا يكون أصلا ، ويحتمل أن يكون المراد بإثمى الذى فرط منى ، فإن الظالم إذا لم يكن له حسنات ، يحمل يوم القيامة سيئات المظلوم ، ﴿ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ ﴾ لكفرك بإنكار ما شرع الله ؛ وهذا يدل أنه قبل ذلك لم يكن كافراً . قال ابن عطية : ولو كان كافراً لم يكن للتحرج فى قتله وجه . اهـ . ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ عند الله ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾ سهلته له ووسعت ، من طاع له المرتع : اتسع ﴿ فَقَتَلَهُۥ ﴾ بحراء، أو بالبصرة ، وله عشرون سنة ﴿ فَأَصْبَحَ ﴾ صار ﴿ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴾ دينا ودنيا ، فبقى مدة عمره مطروداً محزونا ، ولم يدر كيف يصنع به ، لأنه أول ميت على وجه الأرض من بنى آدم ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا ﴾ إليه ، سمى غرابا لفعله بأمر غريب لم يفعل قبله ﴿ يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بمنقاره ورجليه ، ويثيره على غراب ميت ، حتى واراه ﴿ لِيُرِيَهُۥ ﴾ الله أو الغراب ﴿ كَيْفَ يُوَٰرِى ﴾ يستر ﴿ سَوْءَةَ ﴾ جيفة ﴿ أَخِيهِ ﴾ والجملة ثانى مفعولى يرى ، وسماها سوءة ، لأنه مما يستقبح أن يرى ﴿ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ﴾ الألف بدل من ياء المتكلم ، أى : هلكتى احضرى فهذا أوانك ، وندائها مجاز ﴿ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ ﴾ أهتدى إلى مثل ما اهتدى إليه ، ثم أشار إلى وجه الشبه بقوله ﴿ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ﴾ ما يستحى من رؤيته منه من السوء ، ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ على قتله بتحيره واسوداد لونه ، وتبرئ أبويه منه ، ثم حفر له وواراه ، روى أن الأرض رجفت بقتله ، وتغيرت الأطعمة : فرجع آدم من الحج : فسأله عن أخيه ، فقال : ما كنت عليه وكيلا ، فقال : بل أنت قتلته ، اذهب طريداً ؛ فأخذ أخته وهرب بها إلى عدن من أرض اليمن . فأتاه إبليس على صورة ناصح . فقال : إنما أكلت النار قربان هابيل لأنه كان يعبدها فانصب أنت ناراً تكون لك ولعقبك ، فبنى بيت النار ، فهو أول من عبد النار ، واتخذ أولاده آلات اللهو من الطبول والزمور ، والعيدان . وانهمكوا فى اللهو وشرب الخمر ، والفواحش حتى غرقوا بالطوفان فى زمن نوح ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ ﴾ الذى فعله قابيل ، وما تولد منه من المفاسد ﴿ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ قضينا وفرضنا عليهم و « أجل » فى الأصل مصدر أجل شراً : جناه ، ثم استعمل فى تعليل الجنايات و« من» ابتدائية ، متعلقة بكتبنا ، أى ابتداء الكتب من أجل ذلك ﴿ أَنَّهُۥ ﴾ أى الشأن ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ بغير قتل نفس يوجب القصاص ﴿ أَوْ ﴾ بغير ﴿ فَسَادٍ ﴾ أتته ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ من كفر أو زنى أو قطع طريق

﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ من حيث أنه هتك حرمة الدماء ، وسن القتل ، وجرأ الناس عليه . ومن حيث أن قتل الواحد وقتل الجميع سواء فى استجلاب غضب الله والعذاب العظيم . وفى ابن ماجه : قال عليه السلام « من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة ، لقى الله مكتوبا بين عينيه : آيس من رحمة الله » وفى البخارى عن أبى قلابة : والله ما علمت نفسا حل قتلها فى الإسلام إلا من زنى بعد إحصان ، أو قتل نفسا بغير نفس ، أو حارب الله ورسوله ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ تسبب لبقاء حياتها ، بعفو أو منع عن القتل ، أو استنقاذ من غرق ، أو حرق ، أو نحوه . ﴿ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ أى فكأنما فعل ذلك بالناس جميعا ، والمقصود تعظيم قتل النفس وإحيائها ، وتخصيص بنى إسرائيل بالذكر ، لأنه فى عد مثالبهم[1] وإعلاما للنبى بأنهم بعد أن كان هذا فى كتابهم قتلوا الأنبياء : تسلية له عن أذاهم . قوله : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ ﴾ أى بنى إسرائيل ﴿ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ المعجزات ﴿ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ الكتب والآيات ﴿ فِى الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ بالكفر والقتل ، ولا يبالون به ، وبهذا اتصلت القصة بما قبلها . ثم ذكر حكم المسرفين من بنى إسرائيل وغيرهم ، فقال ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ بمخالفة أمرهما ومحاربة المسلمين ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ بقطع الطريق ، أومفعول له ، ليحاربون ، أوحال . أى مفسدين ، نزلت فى قوم من أهل الكتاب ، نقضوا العهد ، وأفسدوا ، أو فى هلال بن عويمر الأسلمى الذى عاهد النبى أن لا يعين عليه أحداً ، ولا يتعرض لمن يصل إليه وله مثل ذلك ، فر قوم من كنانة يريدون الإسلام بقومه ، فقطعوا عليهم الطريق ، فقتلوهم وأخذوا أموالهم ، أو فى ثمانية نفر من عرينة وعكل ، قدموا المدينة سنة ست ، وأسلموا ، فاجتووا المدينة ، فأذن لهم النبى صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا إلى إبل الصدقة ، فلما شربوا ألبانها وأبوالها وصحوا ، ارتدوا ، وقتلوا راعى النبى صلى الله عليه وسلم وسملوا عينيه واستاقوا الإبل : فبعث النبى صلى الله عليه وسلم فى أثرهم الطلب ، فجىء بهم ، فقطع أيديهم ، وسمل أعينهم ، وتركوا فى الحرة حتى ماتوا على حالهم ، أورد هذا البخارى ومسلم وأبو داود وغيرهم . فقيل الآية ناسخة لفعله عليه السلام بقصر حدهم على قوله ﴿ أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ ﴾ أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى من الرسغ ﴿ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أرض النازلة إلى أخرى ولابد أن يكون بينهما يومان فأكثر فيحبسون هناك إلى أن تظهر توبتهم . وقال أبوحنيفة : معنى النفى : الحبس ، فيسجن فى بلده حتى تظهر توبته ، والنفى خاص بالحر ، و « أو » للتخيير ، فالإمام مخير فى قطاع الطريق بين هذه العقوبات بالنظر لا بالهوى على مذهب مالك وهو ظاهر الآية . وقال باقى الأئمة : « أو » للتفصيل والتنويع على ترتيب الأحوال ، فالقتل لمن قتل فقط ، والصلب لمن قتل وأخذ المال ، والقطع لمن أخذ المال ولم يقتل ، والنفى لمن أخاف فقط ، وهذا منهم تحكم ويجمع بين القتل والصلب ، فيقدم الصلب عند ابن القاسم ، ويؤخر عند أشهب . واتفق الأئمة على أن من قتل منهم يُقتل . ومعنى

(١) المثالب : جمع مثلب ــ بكسر اللام ــ وهو المكان ، أو « مثلب » بفتح اللام وهو المصدر من ثلب يثلب ، إذا عاب .

الصلب : أن يربط جميعه حيًّا بالخشبة إلا من أعلاه فقط كإبطيه ووجهه أوظهره إلى الخشبة غير منكوس ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الجزاء المذكور ﴿ لَهُمْ خِزْيٌ ﴾ ذل ﴿ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ في النار . والمحارب قاطع طريق أو آخذ مال على وجه يتعذر معه الغوث في قفر أو مصر خلافاً لأبي حنيفة أو داخل دار ليلا أو نهاراً قاتل ليأخذ المال . قال في القوانين : وكذا كل من حمل السلاح على الناس بغير عداوة ولا ثائرة أي فتنة ، وحكم من أعان المحارب حكمه . اهـ . وأما من قطع الطريق لطلب إمرة أو لعداوة بينه وبين جماعة فليس بمحارب ، قاله عبد الباقي ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ من المحاربين والقطاع ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لهم ما أتوه ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بهم ، عبر بذلك دون : فلا تحدوهم : ليفيد أنه لا يسقط عنهم بالتوبة ، إن كانوا غير حربيين إلا حد الحرابة ، دون غيره مما هو لله أو لآدمي كزنى ، وقذف وقتل مكافئ ودية غير مكافئ ، وقيمة رقيق ، ومتاع ونحو ذلك . قال السيوطي في التكملة : لا يسقط بتوبته إلا حدود الله دون حقوق الآدميين ، كذا ظهر لي ، ولم أر من تعرض له والله أعلم . اهـ . قلت : هذا منه عجيب ، فقد تعرض له كل الأئمة . إذ ما قاله هو قول الشافعي مطلقاً ، وقال مالك : إن كان بيده مال يعرف . أو قام ولي يطلب دمه ، فله أخذه والقصاص منه . وقال الليث : لا يطلب بشيء . قال ابن العربي : وهو ضعيف . اهـ . وأما إن تاب بعد القدرة عليه فلا تفيد توبته عنه بسقوط شيء عنه ، قال البيضاوي : وتقييد التوبة بالتقدم على القدرة ، يدل على أنها بعد القدرة لا تسقط الحد ، وإن أسقطت العذاب ، وأن الآية في قطاع المسلمين لأن توبة المشرك تدرأ عنه العقوبة قبل القدرة وبعدها ، وقال في لباب التأويل : معظم أهل التفسير أن المراد بهذا الاستثناء المشرك المحارب ، إذا آمن قبل القدرة عليه ، سقط عنه جميع الحدود التي ذكرت في هذه الآية وكذا بعد القدرة عليه بالإجماع . اهـ . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بترك ما نهى عنه ﴿ وَابْتَغُوا ﴾ اطلبوا ﴿ إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ القرب بامتثال ما أمر ، فعيلة اسم لما يتقرب به ، من وسل إليه بكذا : تقرب ، وقيل معناها المحبة ، أي تحببوا إليه بالطاعات ﴿ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ ﴾ لإعلاء دينه ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ تفوزون بالخلود في جنته ، وخص الجهاد بالذكر وإن كان داخلا في معنى الوسيلة ، تشريفاً له ، إذ هو قاعدة الإسلام ، قاله الثعالبي ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ ﴾ ثبت ﴿ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ من صنوف الأموال ناطقاً وصامتاً ﴿ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ ﴾ أي بالمذكور ﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ﴾ جواب لو ، ولو بما في حيزه خبر أن ، والجملة تمثيل للزوم العذاب لهم ، وأنهم لا سبيل لهم إلى الخلاص منه . وفي البخاري ومسلم عن أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذاباً : لو كانت الدنيا كلها لك أكنت مفتدياً بها ؟ فيقول نعم . فيقول : قد أردت منك أيسر من هذا أن لا تشرك بي » ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ تصريح بالمقصود به ، وكذا قوله ﴿ يُرِيدُونَ ﴾ يتمنون ﴿ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ ﴾ إذا فارت بهم إلى

حاشيتها فيطمعون فى الخروج ﴿ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ﴾ أكد بالاسمية والباء للرد على أبلغ وجه ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أبداً لا يفارقهم ردٌّ لما يقوله الملحدة : من أن الكفار يتمادون فلا يحسون بالألم ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ ﴾ البالغان العاقلان ، و « أل » فيهما موصولة ، مبتدأ ، ولشبهه بالشرط دخلت الفاء فى خبره ، وهو ﴿ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ أى يمين كل منهما من الكوع ، وبينت السُّنة أن الذى تقطع فيه ربع دينار فصاعداً ، وأنه إن عاد قطعت رجله اليسرى من مفصل القدم ، ثم اليد اليسرى ، ثم الرجل اليمنى ، وبعد ذلك يعزَّر ويحبس ، لظهور توبته ، ونفقته وأجرة الحبس عليه إن كان له مال ، وإلا فن بيت المال . وإن تعذر فعلى المسلمين . هذا مذهب مالك والشافعى . وقال أحمد وأبو حنيفة : تقطع يده اليمنى ، ثم اليسرى ، ولا يقطع فى ثالثة ولا رابعة . والسرقة : أخذ مال الغير خفية ، وإنما يوجب القطع فى إخراج ربع دينار فصاعداً من حرز مثله ، لم يضطر إليه بجوع ، قال ابن العربى فى الأحكام : والسارق من يأخذ المال من حرز مثله ، فإن شعر به هرب ، وأما من يدخل بالسلاح فإن شعر به حارب ، فهو محارب يحكم عليه بحكم المحارب . اهـ . وأما غُرم المسروق فإن كان قائماً ردّه باتفاق ، وإن استهلكه موسراً يوم القطع ضمن قيمة السرقة وإن كان عديماً لم يضمن ، وقيل يضمن فى اليسر والعسر ، وإن كان المسروق مما لا يجب فيه القطع غرمه باتفاق فى العسر واليسر ، وتثبت السرقة باعتراف أو شهادة ، فإن اعترف بغير ضرب ولا تهديد ، قطع حراً أو عبداً ، وبهما لم يقطع بمجرد إقراره ، وإن رجع عن الإقرار لم يسقط عنه الغرم ، وسقط عنه القطع ، وإن أقر السيد بسرقة عبده من شخص وحلف الشخص ، فالغرم بلا قطع ، وإن أقر العبد فقط ، وحلف الطالب فالقطع بلا غرم ، فإن أقر العبد وشهد عليه واحد ، وحلف معه المدعى فالقطع والغرم ﴿ جَزَاءً ﴾ نصب على المصدر ﴿ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا ﴾ عقوبة لهما ﴿ مِّنَ اللَّهِ ﴾ مفعول له ، وترك العاطف لأن المعنى أن القطع الذى للجزاء القصد به النكال ، وقدم السارق لأن السرقة أكثر ما يكون فى الرجال ، وقطع العضو الجانى منه ، دون الزانى ، محافظة على العورة ، أو بقاء النسل ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ غالب على أمره ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى كل ما شرع من الزواجر ﴿ فَمَن تَابَ ﴾ من السرقة ﴿ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ ﴾ ما أفسده بالرد أو الاستحلال ، والعزم ألا يعود إليها ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾ يقبل توبته ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ للذنوب ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بقبول توبته وعدم تعذيبه فى الآخرة . أما القطع فلا يسقط بها عند الأكثرين ، وقال الشافعى : إن عفى عنه قبل الرفع إلى الإمام سقط القطع ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾ الخطاب لكل أحد والاستفهام للتقرير ﴿ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومنه التعذيب والمغفرة . قدم التعذيب لأن الكلام فى موجب العقاب ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ﴾ صنع ﴿ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ فى تقوية أسبابه ، وإعانة أعوانه ، ويظاهرونه إذا وجدوا فرصة ﴿ مِنَ ﴾ للبيان ﴿ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ بألسنتهم متعلق

بقالوا ﴿ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ الواو للحال، أو العطف، وهم المنافقون ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ عطف على من الذين قالوا ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ خبر محذوف، أى هم سماعون. والضمير للفريقين، أو للذين يسارعون، ويجوز أن يكون مبتدأ، ومن الذين خبره أى ومن اليهود قوم سماعون، واللام فى «للكذب» زائدة للتأكيد، أو لتضمن السماع معنى القبول، أى قابلون لما تفتريه الأحبار، أو للعلة، والمفعول محذوف، أى سماعون كلامك ليكذبوا عليك فيه، بقولهم سمعنا منه كذا وكذا لما لم يسمعوا ﴿ سَمَّاعُونَ ﴾ منك يعنى بنى قريظة وأمثالهم ﴿ لِقَوْمٍ ﴾ لأجل قوم ﴿ آخَرِينَ ﴾ من اليهود من أكابرهم ﴿ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾ لتكبرهم وهم أهل خيبر، زنى فيهم محصنان شريفان، فكرهوا رجمهما، فبعثوا قريظة ليسألوا النبى عن حكمهما لحكم بالرجم، فأبوا، لجىء بهما، فرجما، كما فى الصحيحين ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ ﴾ الذى فى التوراة كآية الرجم ﴿ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ التى وضعه الله عليها، أى يبدلونه. وجملة «يحرفون» صفة أخرى لقوم، أو صفة لسماعون، أو حال من الضمير فيه، أو استئناف لا موضع له، أو فى موضع رفع. خبر لمحذوف، أى هم يحرفون، وكذلك ﴿ يَقُولُونَ ﴾ لمن أرسلوهم مع الزانيين ﴿ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا ﴾ المحرف، أى الجلد، أى أفتاكم به «محمد» ﴿ فَخُذُوهُ ﴾ فاعملوا به ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ ﴾ بأن أفتاكم بالرجم ﴿ فَاحْذَرُوا ﴾ قبوله، فهو باطل، ثم قال تعالى لنبيه عليه السلام على جهة قطع الرجاء عنهم: ﴿ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ ﴾ إضلاله ﴿ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ فى دفعها، هذا يدل على أن حزنه كان شفقة عليهم ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ من الكفر، ولو أراده لكان ﴿ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ ذل بالفضيحة والجزية ﴿ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ بالتخليد فى النار ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ كرره للتأكيد ﴿ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ بسكون الحاء لنافع وابن عامر وعاصم وحمزة، وبضمها لغيرهم، لغتان. أى الحرام، كالرشا فى الحكم، من سحته: استأصله، لأنه مسحوت البركة، أو ساحت لها، وكان الحاكم منهم إذا أتاه أحد برشوة، جعلها فى كمه، يريها إياه، ويتكلم بحاجته، فيسمع منه ولا ينظر إلى خصمه إن لم يأت بمثله أو أكثر. وعن أبى هريرة: لعن رسول الله، الراشى والمرتشى فى الحكم. أخرجه الترمذى وأبو داود: قال الحسن البصرى: هو أن يرشيه ليحق له باطلا أو يبطل عنه حقاً، وقال ابن مسعود: من شفع شفاعة فأهدى إليه، فقبل فهو سحت، فقيل له: إنما ذلك الأخذ على الحكم، قال الأخذ على الحكم كفر ﴿ فَإِن جَاءُوكَ ﴾ لتحكم بينهم ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ تخيير للنبى وحكام أمته بعده وهذا التخيير قيل منسوخ بقوله «وأن احكم بينهم ...» الآية فيجب الحكم بينهم إذا ترافعوا إلينا، على أصح قولى الشافعى، قال ابن العربى: وهذا القول دعوى بلا دليل لعدم علم المتأخر. اهـ. وقال كثير من العلماء: الآية محكمة. قال مالك: الخيار ثابت، ولا يحكم بينهم إذا اختار الحكم إلا فى المظالم، فيحكم بينهم بما أنزل الله، لا فى الزنى ونحوه، فيردون فيه إلى أساقفتهم، وقال ابن العربى: إنما أنفذ النبى الحكم بينهم

فى الرجم لبيان تبديلهم التوراة وكذبهم . اه . لكن إذا ترافعوا إلينا مع مسلم ، وجب إجماعاً ، وعند أبى حنيفة يجب مطلقاً ﴿ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً ﴾ تحقير لشأنهم وبيان لعصمته ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴾ بالعدل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ العادلين فى الحكم ، أى يثيبهم . وفى مسلم : قال عليه السلام « إن المقسطين عند الله على منابر من نور » ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ ﴾ تعجيب من طلبهم الحكم منه وهم لا يؤمنون به إعلاماً أنهم إنما تحاكموا إليه لغرض ﴿ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ ﴾ أى والحال أن الحكم منصوص فى كتابهم ، أى لا يحكمونك بصدق ، وقد خالفوا حكم التوراة التى يزعمون أنهم يصدقونها ﴿ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾ بالرجم ، فإن تولوا عن حكم الله فيها ، فأحرى عن حكمك . بل لا يحكمونك إلا رغبة فى ميلك إلى أهوائهم ، وما هو أهون عليهم ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ ﴾ عن حكمك بالرجم الموافق لكتابهم ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ التحكيم استبعاد للتولى بعد الرضى بالحكم ، داخل تحت التعجيب ﴿ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ بكتابهم فضلا عن غيره ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى ﴾ إلى الحق ﴿ وَنُورٌ ﴾ كاشف للشبهات وما استبهم من الأحكام تعظيم للتوراة وتوبيخ لهم ﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ ﴾ من بنى إسرائيل من لدن موسى إلى محمد ﴿ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ﴾ أى انقادوا لحكم الله ، لا هؤلاء الفساق ، أو مدحوا بالإسلام تعظيما لشأنه ، وتعريضاً لليهود بأنهم ليسوا على الإسلام ﴿ لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ تابوا من الكفر ، واللام متعلق بيحكم أو أنزلنا ﴿ وَالرَّبَّانِيُّونَ ﴾ الحكماء الزهاد منهم ﴿ وَالْأَحْبَارُ ﴾ الفقهاء السالكون طريقة أنبيائهم ، عطف على النبيون ﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴾ الضمير للأنبياء ومن عطف عليهم ، استحفظهم الله الحكم بكتابه ، وحفظه من التحريف والتبديل ، والراجع إلى ما محذوف ومن للتبيين ﴿ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ أنه حق ، أو رقباء يحفظونه من التبديل ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ ﴾ فى إظهار ما عندكم ، خطاب لحكام اليهود ، ودخل فيه جميع الحكام ، نهوا أن يخشوا غير الله فى حكوماتهم ، ويداهنوا فيها ، خشية سلطان أو ظالم ، أو مراقبة كبير ﴿ وَاخْشَوْنِ ﴾ فى كتمانه ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا ﴾ تستبدلوا ﴿ بِآيَاتِي ﴾ أحكامى التى أنزلتها ﴿ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ من المال والجاه ، تتأولونه على كتمان الحق لطلب رضى الناس ، والمعنى كما نهيتم عن تغيير الأحكام لأجل خوف الناس ، كذلك نهيتم عن ذلك ، لأجل الطمع فى المال والجاه ، فالكل متاع قليل ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ إهانة وإنكاراً ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ حقيقة لاستحلالهم الحرام المجمع عليه ، أو المراد بالكفر ، كفر دون كفر إن كان بغير استحلال ، فلا دليل للخوارج بالآية فى التكفير بالمعاصى : وأما تخصيصها باليهود لأنها نزلت فيهم فضعيف ، لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، قاله الفخر ﴿ وَكَتَبْنَا ﴾ فرضنا ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ بنى إسرائيل ﴿ فِيهَا ﴾ فى التوراة ﴿ أَنَّ النَّفْسَ ﴾ تقتل ﴿ بِالنَّفْسِ ﴾ إذ قتلها بغير حق ﴿ وَالْعَيْنَ ﴾ تفقأ ﴿ بِالْعَيْنِ ﴾ لكن إن فقأ صحيح عين أعور ، فعليه الدية كاملة عند مالك ، وقال الشافعى وأبو حنيفة : نصف الدية . وفى العكس القصاص عندهما ، والتخيير عند

مالك في القصاص والدية ﴿ وَالْأَنْفَ ﴾ تجدع ﴿ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ ﴾ بسكون الذال لنافع ، تقطع ﴿ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ ﴾ تقلع ﴿ بالسِّنِّ ﴾ وفي الزائدة الحكومة ، وقرأ الكسائي فقط بالرفع في الأربعة : العين فما بعدها ﴿ وَالْجُرُوحَ ﴾ بالنصب لنافع وعاصم وحمزة ، وبالرفع للباقين ﴿ قِصَاصٌ ﴾ أي ذات قصاص يقتص فيها ، وكذا باقي الأعضاء إذا أمكن ، كاليد ، والرجل ، والذكر ، ونحو ذلك ، ومالا يمكن لخوف التلف أو عدم تحقيق المساواة ، ففيه الحكومة ، وهذا الحكم ـ وإن كتب عليهم ـ هو مقرر في شرعنا . وكل هذا في العمد . وأما في الخطأ فالدية في مال الجاني ، إن كانت أقل من ثلث الكاملة ، وإلا ففي العاقلة ، وعلها كتب الفقه ﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ ﴾ من المستحقين ﴿ بِهِ ﴾ بالقصاص بأن عفا عنه ، سمي صدقة ترغيباً فيه ﴿ فَهُوَ ﴾ أي التصدق بمعنى العفو ﴿ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ لذنوبه ، يعظم الله به أجره ، قال عليه السلام « مامن رجل يصاب بشيء في جسده ، فتصدق به ، إلا رفع الله له به درجة ، وحط عنه به خطيئة » رواه الترمذي . وعن أنس : « ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع إليه شيء فيه قصاص إلا أمر فيه بالعفو » أخرجه أبو داود والنسائي . أو الضمير للجارح الجاني ، أي لا يؤاخذ به في الآخرة ، ولا يحق بعده ، أو المعنى من جنى وجهل أمره ، فاعترف بذلك ، ومكن من نفسه ، فذلك الفعل كفارة لذنبه ، تعبيراً عن الاعتراف بالتصدق ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ في القصاص وغيره ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ الكاملون في الظلم ﴿ وَقَفَّيْنَا ﴾ هم ، أي أتبعناهم ﴿ عَلَىٰ آثَارِهِمْ ﴾ أي النبيين الذين أسلموا ، أو مفعول قفينا الأول محذوف لدلالة الجار والمجرور عليه . والثاني ﴿ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ يقال قفيت زيداً بعمرو ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ قبله ﴿ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ﴾ ليؤمنوا به ﴿ فِيهِ هُدًى ﴾ من الضلالة ﴿ وَنُورٌ ﴾ بيان للأحكام والجملة في موضع الحال ، ﴿ وَمُصَدِّقًا ﴾ حال ﴿ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ لما فيها من الأحكام ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، وقلنا ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ من الأحكام ، وقرأ حمزة بكسر اللام ونصب يحكم عطف على معمول آتيناه ، أي ليؤمنوا وليحكم ، على أن اللام لام كي ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ عن حكمه أو عن الإيمان ، إن كان مستهيناً به ، والآية تدل على أن الإنجيل مشتمل على الأحكام ، وأن اليهودية منسوخة ببعث عيسى وأنه كان مستقلا بالشرع ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ القرآن ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ متعلق بأنزلنا أي بسبب إثبات الحق ، وبيان الصواب من الخطأ ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ الكتب فأل في الأول للعهد ، وفي الثاني للجنس ﴿ وَمُهَيْمِنًا ﴾ شاهداً ﴿ عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ إليك ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ بالانحراف عنه إلى ما يشتهونه ، فمن صلة « ولا تتبع » لتضمنه معنى الانحراف ، أو حال من فاعله ، أي لاتتبع أهواءهم مائلا عما جاءك ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ ﴾ أيها الأمم ﴿ شِرْعَةً ﴾ شريعة وهي الطريق إلى الماء ، شبه بها الدين لأنه طريق إلى ما هو سبب الحياة الأبدية ﴿ وَمِنْهَاجًا ﴾ طريقاً واضحاً من نهج إذا وضح ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ على شريعة

واحدة فى جميع الأعصار، من غير نسخ وتحويل ﴿ وَلَـٰكِن ﴾ فرقكم فرقاً ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ ليختبركم ﴿ فِى مَآ ءَاتَاكُمْ ﴾ من الشرائع المختلفة، لينظر المطيع منكم والعاصى ﴿ فَاسْتَبِقُوا ﴾ فابتدروا ﴿ الْخَيْرَاتِ ﴾ المأمورات قبل الفوات بالوفاة ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ بالبعث ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين، ويجزى كلا منكم بعمله، وعد ووعيد للبادرين والمقصرين ﴿ وَأَنِ احْكُم ﴾ عطف على الكتاب، أى أنزلنا إليك الكتاب والحكم، أو على الحق أى أنزلناه بالحق وبالحكم ﴿ بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ أى يضلوك ويصرفوك عنه، وأن بصلته بدل من هم، بدل اشتمال أى احذر فتنتهم، أو مفعول له، أى احذرهم مخافة أن يفتنوك، روى أن أحبار اليهود قالوا اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فقالوا يا محمد قد عرفت أنّا أحبار اليهود، وأنا إن اتبعناك اتبعنا اليهود كلهم، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فنتحاكم إليك، فتقضى لنا عليهم، ونحن نؤمن بك، فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية، والتى تقدمت فى رجم المحصن حين طلبوا أن يجلده، وهذه فى الدماء والديات، فلا تكرار ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ عن الحكم المنزل وأرادوا غيره ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم ﴾ بالعقوبة فى الدنيا ﴿ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ وهو التولى عن حكم الله، ويجازيهم على جميعها فى الآخرة، وفيه تنبيه على أن لهم ذنوباً كثيرة، هذا مع عظمه بإبهامه واحد منها، وخص إصابتهم ببعضها، إعلاماً بأنه كاف فى إهلاكهم وتدميرهم، قاله الفخر الرازى ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾ ومنهم هؤلاء ﴿ لَفَاسِقُونَ ﴾ خارجون عن طاعة الله ﴿ أَ ﴾ يعدلون ﴿ فَحُكْمَ ﴾ الملة ﴿ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ التى هى متابعة الهوى، والمداهنة فى الحكم ﴿ يَبْغُونَ ﴾ بالياء للجمهور، والتاء لابن عامر: يطلبون، استفهام إنكار، وقيل نزلت فى بنى النضير، وكانوا أشرف من قريظة. فكان حكم الجاهلية بينهم: لا يقتل النضيرى بالقرظى، بل الدية. ودية القرظى نصف دية النضيرى: فتحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لحكم بالسواء، فقالوا: نرجع إلى حكم آبائنا، وفيه توبيخ لهم حيث كانوا أهل علم ﴿ وَمَنْ ﴾ أى لا أحد ﴿ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ ﴾ عند قوم ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ به، خصوا بالذكر لأنهم الذين يتدبرون، واللام للبيان، كما فى قوله هيت لك. ولما نقض بنو قينقاع لحاصرهم النبى صلى الله عليه وسلم وتمكن منهم وأراد قتلهم، وقام عبد الله ابن أبىّ المنافق مخاصماً لهم يقول يا محمد أحسن فى موالىّ، فإنى امرؤ أخاف الدوائر، فوهبهم له رسول الله صلى الله عليه وسلم: نزل نهياً عن موالاة أعداء الدين ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ تعاشرونهم معاشرة الأحباب، وتوالونهم موالاة المؤمنين ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ على خلافكم ومضاداتكم لاتحادهم فى الكفر، علة للنهى ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ من جملتهم، قال النسفى: وهذا تغليظ من الله وتشديد فى وجوب مجانبة المخالف فى الدين. قال البي[illegible]: تشديد فى وجوب مجانبتهم، وقال فى فتح الرحمن: فإن قلت هذا يقتضى أن و[illegible] [illegible]ن كفراً وليس كذلك؟ قلت: إنما قال ذلك

مبالغة فى اجتناب المخالف فى الدين، أو الآية فى المنافقين وهم كفار . اهـ . ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بموالاة الكفار، وكان عمر بن الخطاب يقول: ليتق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً، يريد الموالاة ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ نفاق كابن أبىّ، أو ضعف اعتقاد كبعض العوام ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ فى موالاتهم . كما فعل ابن أبىّ فى بنى قينقاع، لما برئ منهم حليفهم عبادة بن الصامت، قال ابن أبىّ إنى لا أبرأ من حلفائى لا أدرى ما يكون من ريب الزمان ودوائره كما أخبره تعالى عنه بقوله ﴿يَقُولُونَ﴾ معتذرين عنها ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ يدور بها الدهر، فتكون الدولة للكفار، ولا يتم أمر محمد فيدور علينا الأمر، قال تعالى ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ﴾ لرسوله على أعدائه كفتح مكة وخيبر، وفدك، وغيرها، ويظهر أمر المسلمين، ويظهر دينه على جميع الأديان ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ كهتك أستار المنافقين، واستئصال اليهود بإخراجهم من بلادهم بلا كلفة، وقد فعل كل ذلك بفضله ﴿فَيُصْبِحُوا۟﴾ أى المنافقون الموالون لليهود ﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من أنه لا يتم أمر محمد، ودسهم الأخبار إلى الكفار ﴿نَٰدِمِينَ﴾ فضلا عما أظهروه مما أشعر على نفاقهم ﴿يَقُولُ﴾ بالرفع لغير أبى عمرو، استئناف بلا واو لنافع وابن عامر وابن كثير، وبه للباقين. وبالنصب لأبى عمرو عطفاً على يأتى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بعضهم لبعض وقت إظهار الله نفاق المنافقين تعجباً ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ غاية اجتهادهم فيها، أو أغلظها: نصب على المصدر، لأنه بمعنى أقسموا ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ فى الدين والنصر على الكفار . أو المعنى يقول الذين آمنوا لليهود أهؤلاء المنافقون الذين أقسموا بالله إنهم لمعكم فى النصر فى قولهم «وإن قوتلتم لننصرنكم» ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ الصالحة: بطلت، من مقول الله، أو المؤمنين ﴿فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ الدنيا بالفضيحة، والآخرة بالعقاب، وفى الكلام معنى التعجب: أى ما أحبط أعمالهم وما أخسرهم! ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدِدْ﴾ بالفك لنافع، وابن عامر، والإدغام للباقين: يرجع ﴿مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ إلى الكفر لا يضر الله بذلك شيئاً: إخبار عن غيب قد وقع، على وفق ما أخبر معجزة، وعد الله هذه الأمة، أن من ارتد منها فإنه يجىء بقوم يغنون عنه وينصرون الدين، وقد ارتد آخر زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث فرق: بنو مدلج ورئيسهم ذو الحمار: وهو الأسود العنسى، تنبأ باليمن، وأخرج عمال رسول الله عن بلاد اليمن، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل وسادات اليمن، فأهلكه الله على يد فيروز الديلمى، فأخبر رسول الله عليه السلام بقتله: وقتل من الغد: وأتى خبر قتله فى آخر ربيع الأول، وبنو حنيفة قوم مسيلمة، قتل أيام الصديق، وبنو أسد قوم طليحة حين تنبأ: فبعث عليه السلام إليه خالد بن الوليد، ففر إلى الشام ثم أسلم بعد. وسبع فرق فى عهد أبى بكر: وهم فزارة قوم عيينة بن حصن . وبنو سليم قوم الفجاءة بن عبد ياليل . وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة . وبعض تميم قوم سجاح المتنبئة . وكندة قوم أشعث . وبنو بكر ابن وائل قوم الحطم بن زيد: فكفى الله أمرهم على يدى أبى بكر . وفرقة فى خلافة عمر: وهم غسان قو-

جبلة بن الأيهم ؛ فكفى الله أمرهم ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ ﴾ بدلهم ﴿ بِقَوْمٍ ﴾ هم المهاجرون والأنصار أو أهل اليمن أو فارس ﴿ يُحِبُّهُمْ ﴾ بالهداية والتوفيق فى الدنيا ؛ وإعطاء حسن الجزاء بالآخرة . ﴿ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ بطاعته وترك معاصيه : قدم حبه إذ لولاهو لما صاروا محبين ، والضمير الراجع إلى «من» محذوف أى بقوم مكانهم ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ عاطفين عليهم متذللين لهم ﴿ أَعِزَّةٍ ﴾ شداد متغلبين ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ من « عزه » غلبه ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ صفة أخرى لقوم أو حال من الضمير فى أعزة ﴿ وَلَا يَخَافُونَ ﴾ عطف على يجاهدون ﴿ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ مرة من اللوم . وفيها وفى تنكير لائم : مبالغتان ، بخلاف المنافقين الخائفين فى الجهاد لوم أوليائهم من اليهود ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من الأوصاف ﴿ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ ﴾ كثير الفضل ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمن هو أهله ؛ وعن أبى ذر « أوصانى النبى صلى الله عليه وسلم بسبع : بأن أنظر إلى من هو دونى لا إلى من هو فوقى فى شأن الدنيا ، وبحب المساكين والدنو منهم ، وبأن أقول الحق وإن كان مرًّا ، وبأن أصل رحمى وإن أدبرت ، وبأن لا أخاف فى الله لومة لائم ، وبأن لا أسأل الناس شيئاً ، وبأن أستكثر من لاحول ولا قوة إلا بالله » اهـ . ولما ذكر من يجب معاداتهم ذكر من يجب موالاتهم حاصراً لهم بقوله ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا : الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ خاشعون أو مصلون صلاة التطوع ، قيل نزلت لما قال ابن سلام : يارسول الله إن قومنا هجرونا ، والموصول رفع أو نصب على المدح أو بدل من الموصول قبله ، وراكعون خاشعون مدح لهم بحسن الأعمال ظاهراً وباطناً ، أو حال من يؤتون الزكاة ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى من اتخذهم أولياءه فى العون والنصر ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ لنصره إياهم واعتضادهم بمن لايغلب ، أوقعه موقع فإنهم بياناً لكونهم من حزبه : أى أتباعه وأصله الطائفة المجتمعة لأمر حزبهم أى أهمهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا ﴾ مهزوءاً به ﴿ وَلَعِبًا ﴾ بإظهار الإيمان مع إسرار الكفر ، كرفاعة بن زيد وسويد بن الحارث . والغرض من الهزؤ تحقير المهزوء به ؛ ومن اللعب جلب الفرح ، وهو إيماء إلى علة النهى عن موالاتهم ﴿ مِنَ ﴾ للبيان ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ ﴾ المشركين بالنصب للجمهور ، عطفاً على الموصول الأول ، والجر لأبى عمرو والكسائى على الثانى لتضاعف كفرهم ﴿ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بترك موالاتهم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فالإيمان يأبى موالاة أعداء الدين ﴿ وَ ﴾ الذين ﴿ إِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ بالأذان فيه دليل على ثبوت الأذان بنص الكتاب ﴿ اتَّخَذُوهَا ﴾ أى الصلاة أو المناداة ﴿ هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ يتضاحكون بها يقولون ماهذا الصياح إلا كصياح العير ، ويقولون قاموا لا قاموا صلوا لا صلوا عند ركوع المؤمنين وسجودهم وهم يضحكون وكان رجل نصرانى بالمدينة . كلما سمع فى الأذان : أشهد أن محمداً رسول الله ؛ يقول حرق الكاذب . فدخل خادمه ذات ليلة بنار وهو وأهله نيام : فطارت منها شرارة فاحترق البيت : واحترق هو وأهله ﴿ ذَٰلِكَ ﴾

الاتخاذ ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ولذا اتخذوا أفضل الأعمال على مناجاة الرب هزواً . ونزل لما قال اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم بمن تؤمن من الرسل ؟ فقال بالله وما أنزل إلينا الآية : فلما ذكر عيسى قالوا لا نعلم ديناً شراً من دينكم ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ ﴾ تنكرون وتعيبون ، نقم منه كذا أنكره وانتقم كافأه عليه ﴿ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا ﴾ إلا إيماننا ﴿ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ إلى الأنبياء تأكيداً للمدح بما يشبه الذم ﴿ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ عطف على « أن آمنا » المعنى ماتنكرون إلا إيماننا ومخالفتكم فى عدم قبوله المعبر عنه بالفسق اللازم منه ، وليس هذا مما ينكر ، وفيه المجاز المرسل ، ثم أجاب عن قولهم لا نعلم ديناً شراً من دينكم بقوله ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ ﴾ أخبركم ﴿ بِشَرٍّ مِنْ ﴾ أهل ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذى تنقمونه ﴿ مَثُوبَةً ﴾ تمييز لشر ، أى ثواباً بمعنى جزاء وفيه الاستعارة التهكمية ، فى وضع المثوبة موضع العقوبة ﴿ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ هو ﴿ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ ﴾ أبعده عن رحمته ﴿ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ بسبب الكفر والمعاصى بعد وضوح الآيات ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ ﴾ بالمسخ ﴿ وَ ﴾ من ﴿ عَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ الشيطان بطاعته . وراعى فى « منهم » معنى من وفيما قبلها لفظها وهم اليهود ، وقرأ حمزة بضم باء « عبد » وإضافته إلى مابعده اسم جمع لعبد ، ونصبه بالعطف على القردة ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ الملعونون ﴿ شَرٌّ مَكَانًا ﴾ تمييز لأن مأواهم النار ﴿ وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ طريق الحق ، وأصل السواء الوسط ، وذكر « شر » و « أضل » فى مقابلة قولهم لا نعلم ديناً شراً من دينكم ، واسم التفضيل فى أمثال هذا مجاز بناء على زعم الخصم ، وإلا فلا مشاركة بين المؤمنين واليهود فى الشر والضلال ، وفى إسناد الشر إلى المكان كناية عن ثبوته لهم كقولهم المجد بين برديه ﴿ وَ ﴾ منافقو اليهود ﴿ إِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا ﴾ إليكم متلبسين ﴿ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ﴾ من عندكم كما دخلوا لايؤثر فيهم الوعظ ، والجملتان حالان من فاعل قالوا ، و « بالكفر » و « به » حالان من فاعل دخلوا وخرجوا ، وقد وإن دخلت لتقريب الماضى من الحال ليصح أن يقع حالا ، أفادت أيضاً لما فيها من التوقع أن أمارات النفاق كانت لائحة عليهم ، وكان الرسول يظنه ، ولذا قال ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴾ من الكفر ، وفيه وعيد لهم ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ ﴾ من اليهود ﴿ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ ﴾ الذنب القاصر عليهم كقولهم عزير ابن الله ، وتحريف الآيات ﴿ وَالْعُدْوَانِ ﴾ الظلم المتعدى إلى غيرهم ﴿ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ﴾ الحرام ، كالرشا . خصه بالذكر مبالغة فى التنفير ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ عملهم هذا ﴿ لَوْلَا ﴾ هلا ﴿ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ ﴾ منهم ﴿ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ ﴾ الكذب ﴿ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ﴾ تحضيض للعلماء والزهاد على النهى عن المنكر ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ ترك نهيهم ، فهو أبلغ من يعملون ، إذ الصنع عمل الإنسان بعد تدرب فيه وترو وتحر وإجادة ففيه زيادة توبيخ لهم ، لأن مرتكب المنكر له داعية التلذذ بمباشرته بخلاف تارك النهى عنه فكان جديراً بأبلغ الذم ، ولذا قال ابن عباس : هى أشد آية فى القرآن ، وقال الضحاك هى أخوف آية ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ ﴾ قاله فنحاص بن

عازوراء منهم ، فرضى به قومه لعنة الله عليه وعليهم ، لما ضيق عليهم بتكذيبهم النبي ، بعد أن كانوا أكثر الناس مالا ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ مقبوضة عن إدرار الرزق علينا ، كنوا به عن البخل ، تعالى الله عن ذلك ، قال تعالى ﴿ غُلَّتْ ﴾ أمسكت ﴿ أَيْدِيهِمْ ﴾ عن فعل الخيرات دعاء عليهم بالبخل ، ولذا لا ترى أبخل من اليهود ، ولا أنكد عيشاً منهم حيث كانوا ، أو بحقيقة الغل فى الدنيا بالأسر والرق . وفى الآخرة بالأغلال فى أعناقهم إلى جهنم ﴿ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ إثبات لما نفوه من جوده على أبلغ وجه ، مبالغة فى الوصف بالجود ، وثنى اليد لإفادة الكثرة ، إذ غاية ما يبذله السخى من ماله أن يعطى بيديه ﴿ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ استئناف لبيان بسط اليدين ، أو حال من مفهومه لأنه فى معنى الجواد ، أى ينفق على وفق حكمته من توسيع وتضييق لا اعتراض عليه ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ من القرآن ﴿ طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴾ وهم قبل ذلك طاغون كافرون ، كما يزداد المريض مرضاً من تناول الغذاء الصالح للأصحاء ، والغذاء كالكساء ، ما به نماء الجسم وقوامه ، ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ فكل فرقة منهم تخالف الأخرى ، لا تتوافق قلوبهم ولا تتطابق أقوالهم ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ ﴾ لحرب النبي بإثارة الشر عليه ﴿ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾ أى كلما أرادوها ردهم بإيقاع المنازعة بينهم ، أو كلما أرادوا حرب أحد غلبوا ، فإنهم لما خالفوا حكم التوراة سلط الله عليهم بختنصر ، ثم بعده فطروس أو فسطوس ، أو طنطوس الرومى ، ثم بعده المجوس من الفرس ، ثم المسلمين إلى يوم القيامة ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً ﴾ بإثارة الحرب والفتن وهتك المحارم ، وأخذ الرشا ، وتحريف الكتاب وتضليل العوام ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ منهم ومن غيرهم بمعنى يعاقبهم ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا ﴾ بمحمد ﴿ وَاتَّقَوْا ﴾ ما عددناه من معاصيهم ونحوه ﴿ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ لأن الإيمان يجب ما قبله ﴿ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ تفضلا بعد العفو عن جناياتهم ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ بتبيين ما فيهما والعمل بأحكامهما ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ من الكتب أو القرآن ﴿ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ بأن يوسع عليهم الرزق ، ويفيض من كل جهة أو يفيض عليهم بركات السماء والأرض ، أو يكثر ثمرات الأشجار ، وغلة الزروع أو يجتنوا الثمار فوقهم من رأس الأشجار ويلتقطوا ما تساقط على الأرض . بيان بأن ما كف عنهم بشؤم كفرهم ومعاصيهم ﴿ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ﴾ عادلة غير غالية ولا مقصرة تعمل بما ذكر وهم من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ ﴾ ككعب بن الأشرف وأصحابه ﴿ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ من الإفراط فى العداوة ، وتحريف الحق والإعراض عنه ، وفيه معنى التعجب : أى ما أسوأ عملهم ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ﴾ فى المستقبل جميع ﴿ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ ولا تكتم شيئاً منه ، خوفاً أن تنال بمكروه ، ولا تراقب أحداً ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ ﴾ بأن كتمت أدنى شىء من الوحى ﴿ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَاتِهِ ﴾ بالجمع لنافع وابن عامر وأبى بكر باعتبار الأحكام ، والإفراد للباقين ، أى لبطل كونك

رسولا ، كالمصلى إذا ترك ركناً لم يكن مصلياً . روى الشيخان عن عائشة « من قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبلغ شيئاً مما أنزل إليه فقد كذب والله يقول بلغ ما أنزل إليك » . اه . وما قيل المراد تبليغ ما يتعلق بمصالح العباد ، فإن من الأسرار الإلهية ما يحرم إفشاؤه : قول بلا دليل . مناقض للحديث وعموم ما دل عليه كلمة « ما » قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ عدة وضمان من الله بعصمته من الأعادى ، وإزاحة لمعاذيره فى عدم التبليغ : نزلت فى غزوة الرقاع ، أو حجة الوداع . فلا إشكال فى كسر رباعيته وشج رأسه يوم أحد قبل العصمة ، وقيل عصمته من القتل ، وكان يحرس حتى نزلت ، فقال انصرفوا عنى فقد عصمنى الله ، رواه الحاكم . قال ابن العربى : لعلمائنا فى الآية تأويلات أصحها أن العصمة عامة فى كل مكروه ، وأن الآية نزلت بعد أن شج وجهه وكسرت رباعيته ، وقيل أريد من القتل خاصة والأول أصح ، وقد أوتى بعض العصمة بمكة ، بقوله «إنا كفيناك المستهزئين» ثم كملت بالمدينة . اه . قال الثعالبى فى الجواهر الحسان : كما وجب على النبى التبليغ وجب على علماء أمته ، بقوله «بلغوا عنى» اه . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ لا يرشدهم ولا يمكنهم مما يريدون بك ، تأكيد للعصمة ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ من الدين معتد به ﴿ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ من القرآن بأن تعملوا بما فيه ومنه الإيمان بى والإذعان لأحكامى ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ ككفرهم به كرره ليرتب عليه قوله ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ لا تحزن عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم بما تبلغه إليهم فإن ضرره لا يتخطاهم . وفى المؤمنين مندوحة لك عنهم . والأسى شدة الحزن ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بألسنتهم ، وهم المنافقون ﴿ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ وهم اليهود : مبتدأ ﴿ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ ﴾ فرقة منهم ﴿ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾ ويبدل من المبتدأ ﴿ مَنْ ءَامَنَ ﴾ منهم ﴿ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فى الآخرة خبر المبتدإ ، ودال على خبر إن ، ويحتمل ارتفاع الصابئون على الابتداء ، والخبر محذوف على ما اختاره سيبويه ، أى كذلك على حد « فإنى وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبُ » «وقيار اسم جمل» . أو المذكور خبره ، ويقدر لـ «إنّ» خبر ، على ما اختار سيبويه فى نحو زيد وعمرو قائم ، ولم يذكر هنا مالهم أجرهم اكتفاء بآية البقرة لتقدمها نزولا ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ على الإيمان بالله ورسله ﴿ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ﴾ ليتبعوهم فى دينهم فأبوا ، وكرر أخذ الميثاق هنا ليرتب عليه سائر قبائحهم ، وليعلم أن نقض الميثاق منهم كان من وجوه شتى ﴿ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ ﴾ من العمل بالشرع كذبوه وناصبوه ﴿ فَرِيقًا ﴾ منهم ﴿ كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا ﴾ منهم ﴿ يَقْتُلُونَ ﴾ كزكريا ويحيى ، والتعبير به دون قتلوا حكاية للحال الماضية للفاصلة وتصوير تلك الفعلة الفاحشة ﴿ وَحَسِبُوٓا۟ ﴾ ظنوا ﴿ أَلَّا تَكُونَ ﴾ بالنصب للجمهور ، والرفع لأبى عمرو وحمزة والكسائى فأن مخففة ، أى أنه لا تكون ﴿ فِتْنَةٌ ﴾ عذاب ولا بلاء لهم بتكذيب الرسل وقتلهم :

﴿ فَعَمُوا ﴾ بذلك عن الدين ودلائل الهدى ﴿ وَصَمُّوا ﴾ عن الوعظ ﴿ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ لما تابوا ﴿ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا ﴾ ثانياً ، والمراد بهؤلاء أعقاب أولئك ﴿ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ﴾ بدل من الضمير ، ومن البلاغة وأعلام الآداب إسناد التوبة التي هي من أشرف الأفعال إليه ، وإسناد العمى والصمم إليهم ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ فيجازيهم به ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ أعاده ، لأن ما تقدم مقالة من عاصر النبي صلى الله عليه وسلم من وفد نجران ، وهذا لمن عاصر عيسى بدليل قوله ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ فإني عبد ولست بإله . ردٌّ على اليعاقبة منهم ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾ في العبادة غيره ﴿ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ ﴾ منعه أن يدخلها ﴿ وَمَأْوَاهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ ﴾ صلة ﴿ أَنْصَارٍ ﴾ يمنعونهم من عذاب الله ، وضع الظاهر موضع المضمر تسجيلا على أنهم ظلموا بالإشراك فهو من تمام كلام عيسى ، نصحاً لهم . أو من كلام الله نبه به أنهم قالوا ذلك تعظيما لعيسى ، وهو قد عاداهم بذلك . فما ظنك بغيره ! وجمع الأنصار باعتبار زعمهم أو لمقابلة الجمع بالجمع ، أو بتقدير مضاف أي جنس الأنصار ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ﴾ آلهة ﴿ ثَلَاثَةٍ ﴾ أي أحدها ، والآخران عيسى وأمه ، وهم النسطورية فرقة من النصارى والذين يدعون الأقنومية والاتحاد هم الملكانية ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ أي ما في الوجود مستحق للعبادة من حيث إنه مبدئ جميع الموجودات ﴿ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ أي إلا إله موصوف بالوحدانية متعال عن قبول الشركة ، و«من» مزيدة للاستغراق ﴿ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ من التثليث ويوحدوا ﴿ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي ثبتوا على الكفر ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من النصارى ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي نوع منه شديد الألم لا يطاق وصفه ، ولذا نكره ، وضع الظاهر موضع المضمر تكرير للشهادة على كفرهم ، وتنبيهاً على أن العذاب على من لم يتب ، ولذا قال ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ بالانتهاء عما قالوا ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ﴾ بالتوحيد والتنزيه عن الاتحاد والحلول بعد هذا التقرير والتهديد ، استفهام توبيخ وتعجيب من إصرارهم ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ ﴾ لمن تاب ﴿ رَحِيمٌ ﴾ به ﴿ مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ قصر إفراد لنفي الألوهية ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ صفة لرسول ، أي ما هو إلا رسول مثل رسل قبله ، خصه الله بالآيات كما خصهم ، فأحيي الموتى على يده ، كما أحيي العصا وجعلها حية على يد موسى وهو أعجب ، وخلقه من غير أب كما خلق آدم من غير أب وأمّ وهو أغرب ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ مبالغة في تصديق الرسل كالنساء المصدقات ، وفيه دلالة على أنها لم تكن نبية ، ولما ذكر كمالها ، وبيّن أن الناس شركوهما فيه نبه على ما ينافي الربوبية عنهما ظاهراً فقال ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ أي يفتقران إليه كغيرهما من الحيوانات ومن كان كذلك لا يكون إلهاً لتركيبه وضعفه وما ينشأ منه من البول والغائط ﴿ ٱنْظُرْ ﴾ متعجباً ﴿ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَاتِ ﴾ على وحدانيتنا وبطلان قولهم ﴿ ثُمَّ ٱنْظُرْ أَنَّىٰ ﴾ كيف ﴿ يُؤْفَكُونَ ﴾ يصرفون عن الحق مع قيام البرهان ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي غيره كعيسى ﴿ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾

أى شيئاً من المضار والمنافع ديناً ودنيا ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لأقوالكم ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بأحوالكم والاستفهام للإنكار ، أى أتعبدون العاجز وتذرون القادر ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ ﴾ اليهود والنصارى ﴿ لَا تَغْلُوا ﴾ لا تجاوزوا الحدّ ﴿ فِي دِينِكُمْ ﴾ غلواً ﴿ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾ وصف مؤكد كأمس الدابر ، لأن الغلوّ لا يكون حقاً ، وباطلا فلا يوصف بالحقية قط ، ألا ترى إلى حديث « إياكم والغلو فى الدين » فغلوّ اليهود فى عيسى بوضعه بنسبته إلى غير الرشدة ، والنصارى بنسبته إلى الألوهية ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا ﴾ بغلوهم ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ قبل بعث محمد وهم أسلافهم والأهواء جمع هوًى : ماتدعو شهوة النفس إليه ، قال الشعبى ما ذكر الله الهوى فى القرآن إلا ذمه ، وقال أبو عبيدة : لايوضع الهوى إلا فى الشر . لا يقال فلان يهوى الخير ، إنما يقال يحب الخير ويريده . اه . ﴿ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ من الناس ﴿ وَضَلُّوا ﴾ بعد بعث النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ عَن سَوَاءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ متعلق بضلوا ، لفظاً ، وبالثلاث معنى ، ثم نفّر عن اتباعهم بكونهم ملعونين بقوله ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ ﴾ بأن دعا عليهم لما اعتدوا فى السبت ، فسخوا قردة ، وهم أصحاب أيلة ﴿ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ لما كفروا نعمة المائدة ، دعا عليهم فسخوا خنازير ، وكانوا خمسة آلاف رجل ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ اللعن ﴿ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ ثم فسر الاعتداء والعصيان بقوله ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ ﴾ لا ينهى بعضهم بعضاً ﴿ عَن ﴾ معاودة ﴿ مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ فعلهم هذا ، وفى الترمذى قال عليه السلام لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم وآكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ، وفى أبى داود : أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان يلقى الرجل أخاه على منكر فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع ، ثم يلقاه من الغد على حاله ، فلايمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قال : كلا لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ثم لتأخذنّ على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ، ثم يلعنكم كما لعنهم اه . قلت : ومعنى لتأطرنه لتعطفنه ولتردنه إلى الحق ، والأطر العطف والله أعلم . وفى الجواهر الإجماع على أن النهى عن المنكر واجب ، لمن أطاقه بيده ، أو بلسانه ، وإن تعذر فبقلبه ، والاغالط أهل ذلك المنكر اه . ﴿ تَرَىٰ ﴾ يا محمد ﴿ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من أهل مكة ، بغضاً لك ، أى ترى بهم الحال فى الضلال حتى يوالون من باشر أشد المنكرات وهو الكفر فضلا عن النهى عنه ﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ من العمل لمعادهم الموجب لهم ﴿ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ مخصوص بالذم على تقدير المضاف ، أى موجب سخط الله ﴿ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ۝ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ إيماناً خالصاً بلا نفاق ﴿ وَٱلنَّبِيِّ ﴾ أى نبيهم ، وإن كانت الآية فى المنافقين ، فالمراد نبينا محمد ﴿ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ خارجون عن الإيمان فلا دين لهم أصلا ﴿ لَتَجِدَنَّ ﴾ يا محمد ﴿ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ

عداوةً لِلَّذِينَ ءامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ من أهل مكة لتضاعف كفرهم وجهلهم ، وانهما كهم فى اتباع الهوى ، وركونهم إلى التقليد ، ومعاداة الأنبياء ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ﴾ للين جانبهم وقلة حرصهم على الدنيا ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ قرب مودتهم للمؤمنين ﴿ بِأَنَّ ﴾ بسبب أن ﴿ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ ﴾ علماء ﴿ وَرُهْبَانًا ﴾ عباداً ﴿ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن اتباع الحق إذا فهموه ، كما يستكبر اليهود وأهل مكة ، نزلت فى النجاشى وأصحابه لما أسلموا على يد جعفر بن أبى طالب لما سمعوا القرآن وفى السبعين القادمين من الحبشة ، فقرأ عليه السلام عليهم سورة يس فبكوا وأسلموا ، وقالوا ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى ؛ وفيه دليل على أن مكارم الأخلاق كالتواضع والإقبال على العلم ، والعمل به والإعراض عن الشهوات محمودة ولو من كافر ، ولما أعتق عليه السلام بنت حاتم الطائى وأعطاها نفقة ؛ قال أكرموها فإن أباها كان يقرى الضيف ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ ﴾ من القرآن ﴿ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾ عطف على يستكبرون ، يقال فاض الماء إذا كثر وسال عن جوانب الحوض : أطلق على الامتلاء إطلاق المسبب على السبب . وهو من المجاز المرسل ، والإسناد أيضاً مجاز عقلى ، مثل جرى النهر ، والدمع فى الأصل مصدر جعلت أعينهم من فرط البكاء كأنها تفيض بأنفسها مبالغة ﴿ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ من الأولى للابتداء والثانية للتبيين ، وما موصولة أو مصدرية ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءامَنَّا ﴾ بما سمعنا أو بنبيك محمد وكتابك ﴿ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ المقرين بتصديقهما أو مع أمة محمد الذين هم شهداء على جميع الأمم يوم القيامة ﴿ وَ ﴾ قالوا فى جواب من عيرهم بالإسلام من اليهود ﴿ مَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ ﴾ القرآن ، أى لا مانع لنا من الإيمان مع وجود مقتضيه ، و«لا نؤمن» حال من الضمير ، والعامل ما فى اللام من معنى الفعل ، أى أى شىء حصل لنا غير مؤمنين بالله ، أى بوحدانيته ، والاستفهام للإنكار والاستبعاد ﴿ وَنَطْمَعُ ﴾ عطف على نؤمن ﴿ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ المؤمنين الجنة . ويحتمل أن «نطمع» خبر محذوف والواو للحال ، أى ونحن نطمع والعامل فيها عامل الأولى مقيداً بها أو نؤمن . قال تعالى : ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا ﴾ بذلك القول الناشئ عن خلوص اعتقاد ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ بالإيمان والإحسان فى جميع الأمور . والآيات الأربع روى أنها نزلت فى النجاشى وأصحابه كما تقدم ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ والتكذيب بالآيات وإن دخل فى الكفر إلا أنه أخرج فى مقابلة المصدقين بما جاءهم من الحق ، ونزل لما وعظ النبى صلى الله عليه وسلم وذكر الناس بأهوال القيامة فبكوا وهمّ قوم منهم أن يلازموا الصوم والقيام ولا يقربوا النساء والطيب واللحم والنوم على الفراش ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ لا تتركوها ترك الحرام كما فعل أهل الكتاب . وفى اللباب : أى لا تعتقدوا تحريمها ؛ فإن من اعتقد تحريم شىء أحله الله فقد كفر . أما ترك لذات الدنيا وشهواتها والانقطاع إلى الله والتفرغ لعبادته من غير

إضرار بالنفس ، ولا تفويت حق غير ، فقضية لا منع منها اه . ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ لا تتجاوزوا حد الاعتدال إلى السرف ، أو بتحريم الطيبات ، أو لا تظلموا مطلقاً ، وقال الحسن بن أبي الحسن : أي لا تشددوا فتحرموا حلالا ، ولا تترخصوا فتحلوا حراماً . اه . وفي الصحيحين أن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوا أزواجه عن عمله سرا فكأنهم تقالوه ، وقالوا أين نحن منه ، قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فقال بعضهم أنا لا أتزوج النساء وقال بعضهم أنا لا أنام على الفراش فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ما بال أقوام يقولون كذا وكذا والله إني لأخشاكم وأعلمكم بالله لكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وآكل اللحم وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » اه . وفي بعض الروايات : « ليس في ديني ترك اللحم والنساء ، وإن رهبانية أمتي الجهاد » اه . قيل للحسن : إن بعض الزهاد لا يأكل الفالوذج ، قال : لأنه لا يؤدي شكره ، فقال : أيشرب الماء البارد ؟ قالوا : نعم . قال إنه جاهل ، إن نعمة الله فيه أكثر من الفالوذج اه . ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ المتجاوزين أمره . قال ابن العربي : هذا إذا كان الدين قويماً . ولم يكن المال حراماً ؛ وأما إذا فسد الدين وعم الحرام فالتبتل وترك اللذات أولى . وإذا وجد الحلال فحال النبي صلى الله عليه وسلم أفضل . اه . ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ مفعول والجار والمجرور قبله حال متعلق به ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد للوصية بما أمر به ، لأن الإيمان به يوجب التقوى ، وفي الآية دليل على أن الله تكفل بالرزق ، فليترك العبد الحرص ، وليحسن في الطلب ، قال في فتوح الغيب : المعنى : وليس المطلوب من المؤمنين الزهادة عن المستلذات وتحريم الطيبات ، وإنما المطلوب الإيمان والتقوى . اه . ولما نزل « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ... الآية » قالوا يارسول الله كيف نصنع بأيماننا ؟ فنزل ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ﴾ الكائن ﴿فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ وتقدم في البقرة ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ عليه . بالتشديد للجمهور . والتخفيف لحمزة والكسائي وابن عياش ، وقرأ ابن ذكوان ، عاقدتم ، بأن حلفتم عن قصد وحنثتم ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾ أي اليمين إذا حنثتم فيه ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ طعاماً ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ﴾ منه ﴿أَهْلِيكُمْ﴾ في القدر ، أي أقصده : لأن من الناس من يسرف في إطعام أهله ، ومنهم من يقتر عليهم ، فأمر الله بالعدل في الكفارة ، وهو مدٌّ لكل مسكين عند مالك والشافعي ، ونصف صاع بر ، وصاع من غيره عند أبي حنيفة . ومدُّ بُرٍّ ونصف صاع من غيره عند أحمد بن حنبل . وقيل معنى الأوسط في النوع ، لا أعلاه ولا أدناه ، وقيل الأوسط الأفضل : أي من خير ما تطعمون أهليكم ، ومحل « من أوسط » نصب صفة مفعول محذوف ، كما قدرنا ، أو رفع على البدل من « إطعام » ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ عطف على « إطعام » بما يجوز الصلاة به عند مالك وأحمد . أو ما يسمى كسوة كقميص أو إزار أو رداء عند الشافعي ولا يجوز دفع ما ذكر إلى مسكين واحد ، خلافاً لأبي حنيفة ، فلو عشى المساكين وغداهم . أو أخرج

الدقيق أو الخبز أجزأه عندنا ، أو أعطى القيمة لم يجزه خلافاً لأبي حنيفة ﴿أَوْ تَحْرِيرُ﴾ عتق ﴿رَقَبَةٍ﴾ مؤمنة كما في كفارة القتل والظهار ، حملا للمطلق على المقيد ، خلافاً لأبي حنيفة سليمة من العيوب خلافاً للظاهرية ، ولا يجوز عتق المرتد إجماعاً ، وأجزأ المكاتب عند أبي حنيفة خلافاً لغيره ، والحانث مخير في الثلاث ، والإطعام أفضل في مذهب مالك . وقال غيره : العتق أفضل ، ثم الكسوة ، ثم الإطعام . ولكن بدأ الله بالإطعام لأنه أعم وجوداً ، والمقصود منه التنبيه على أنه سبحانه يراعي التخفيف والتسهيل في التكاليف ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ واحداً مما ذكر ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ كفارته . ولا يشترط التتابع خلافاً لأبي حنيفة لكن يستحب ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وحنثتم ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ أن تنكثوها ما لم تكن على فعل بر أو إصلاح بين الناس ، كما في سورة البقرة وأن تبتذلوها في كل أمر ، وأن لا تكفروها إذا حنثتم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما بين لكم ما ذكر ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على ذلك . فإن مثل هذا التبيين يسهل لكم المخرج منه . ولما نزل « لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » والخمر مما يستطاب - بين الله عدم دخولها في الحلالات بقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ﴾ المسكر الذي يخامر العقل ﴿وَالْمَيْسِرُ﴾ القمار وتقدما في البقرة ﴿وَالْأَنْصَابُ﴾ الحجارة التي تنصبها الكفار للعبادة ويذبحون عندها ﴿وَالْأَزْلَامُ﴾ القداح التي يتفاءلون بها ، أو يستقسمون بها الجزور ﴿رِجْسٌ﴾ خبيث مستقذر أفرد وإن كان خبراً عن أشياء لكونه في الأصل مصدراً ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ بتزيينه بيان لرجاسته ، وهو عام في كلها ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ أي الرجس المعبر به عن هذه الأشياء أن تفعلوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تدركون الفلاح ، واعلم أن الله أكد تحريم الخمر والميسر في هذه الآية بأمور : أن صدر الجملة بإنما ، وقرنهما بالأصنام والأزلام اللذين هما من أمارات أهل الأوثان ، وسماهما رجساً ، وجعلهما من عمل الشيطان . وأمر باجتنابهما . وجعله سبباً يرجى به الفلاح ، ثم قرر ما فيهما من المفاسد الدنيوية والدينية المقتضية للتحريم فقال ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ إذا أتيتموهما لما يحصل فيهما من الشر والفتن . أفردهما بالذكر تنبيهاً على أنهما المقصود بالبيان ، إذ الكلام مع المؤمنين وهم لا يتعاطون الأنصاب والأزلام ، فذكرهما أولا للدلالة على أن الخمر والميسر مثلهما في الشر ، لقوله عليه السلام : « شارب الخمر كعابد الوثن » وشارب الخمر تزيل عقله ، فيتكلم بالفحش وربما أفضى إلى المقاتلة فيسبب العداوة والبغضاء ، والميسر يسبب أن يقمر الرجل على أهله وماله ؛ فيقعد حزيناً سليباً ينظر إلى ماله في يد غيره ، فيورث العداوة والبغضاء ، فهذه من مفاسدهما في الدنيا ، وأشار إلى مفاسدهما في الدين بقوله ﴿وَيَصُدَّكُمْ﴾ بالاشتغال بهما ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الذي يحيي به القلوب ﴿وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ التي هي عماد الدين ، خصهما بالذكر تعظيما لهما ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ أبلغ من انتهوا : لأن العاقل إذا تأمل ماسبق من الأوصاف ؛ ارتدع لامحالة . كأنه قال : قد تلي عليكم مافيهما من المفاسد ،

فبعد هذا البيان هل أنتم منتهون أم لا ؟ إيذاناً بأن الأمر فى المنع والتحذير بلغ الغاية ، وأن الأعذار قد انقطعت ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيما أمرا به ﴿وَاحْذَرُوا﴾ ما نهيا عنه أو مخالفتهما ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾وقدبلغ وجزاؤكم علينا ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾ مما لم يحرم عليهم أو من الخمر والميسر قبل التحريم ، لأنها نزلت لما قال بعض اليهود أو غيرهم : قتل قوم والخمر فى بطونهم فما بالهم .لكن الحكم عام وإن خص السبب فالجناح مرتفع عن كل من طعم شيئاً إذا ما اتقى الله فيما حرم عليه كما قال ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ المحرمات ﴿وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾أى ثبتوا على الإيمان والأعمال الصالحات﴿ ثُمَّ اتَّقَوْا ﴾مايتجدد حرمته كالخمر﴿ وَآمَنُوا ﴾بأنه حكم الله﴿ ثُمَّ اتَّقَوْا ﴾استمروا على اتقاء المعاصى ﴿ وَأَحْسَنُوا ﴾ أخلصوا فى ذلك كله لقوله عليه السلام : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه أو أحسنوا على الناس بما أمكنهم ، وقيل إشارة فى المواضع الثلاثة : إلى مراتب التقوى . الأول : اتقاء المحارم تقوى العوام ، والثانى : اتقاء الشبهات تقوى الخواص ، والثالث : اتقاء غير الله وهو ربط سره على الله ، تقوى خواص الخواص . نهى مراتب المبدأ والوسط والمنتهى ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يثيبهم على إحسانهم ، وهذا مدح على الإيمان والتقوى والإحسان ، لأن هذه المقامات من أشرف الدرجات ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ ﴾ ليختبرنكم ﴿ بِشَيْءٍ ﴾ يرسله لكم ، قلله وحقره باعتبار ما أباح لهم من النعم ﴿ مِنَ الصَّيْدِ ﴾ بمعنى المصيد ، ومن للتبعيض أو لبيان الجنس ، هى ومجرورها فى محل جر صفة شىء ﴿ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ ﴾ أى الصغار منه كالبيض والفرخ وما لا يقدر على الفرار ﴿ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ الكبار منه ، كما وقع للصحابة مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وهم محرمون فكانت الوحش والطير تغشاهم فى رحالهم ﴿ لِيَعْلَمَ اللَّهُ ﴾ علم ظهور يتعلق به الثواب والعقاب ﴿ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾ حال أى غائباً لم يره فيجتنب الصيد لقوة إيمانه ممن لا يخافه لضعف إيمانه ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ النهى عنه فاصطاده ﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فى الدنيا بالأدب وا لآخرة بالنار . والصحيح أن خطاب الآية عام لجميع الناس الحلال والمحرم ، وبيّن التكليف بقوله﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ﴾ أى المصيد وهو كل حيوان متوحش ، مأكول لحمه أم لا . خلافاً للشافعى فى تخصيصه بالمأكول . فيجب الضمان عند غيره على قاتل سبع ونمر ونحوه . ماشياً أو طائراً فى الحرم أو غيره ، ولا تأمروا به ، ولا تشيروا إليه ، ولا تدلوا عليه ﴿ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ أى محرمون بحج أو عمرة جمع حرام داخل الحرم أو المحرم ، واستثنى الشارع خمس فواسق يقتلهن المحرم : الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور . والإجماع على قتل الحية ، ولا يجوز قتل : كالبعوض مما لا يشتد ضرره فإن أمر المحرم أو دلّ فقد أساء ، ولا كفارة عليه ، ولا يأكل لحم صيد صِيدَ له ، خلافاً لأبى حنيفة ، ويجوز له ما صاد الحل لنفسه فى الحل ، وكل ما ذبحه المحرم من الصيد أو قتله ـ عمداً أو خطأً ـ فهو ميتة لا يجوز له ولا لغيره ، خلافاً للشافعى فى قوله : إن ذكاته ذكاة ويجوز له ذبح المواشى الإنسية كالأنعام

والطير الذى لا يطير كالدجاج ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنكُمْ مُتَعَمِّدًا﴾ كأبي اليسر طعن حمار وحش فقتله ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ بالإضافة للجمهور ، والتنوين للكوفيين : أى فعليه جزاء يماثل المقتول فى الصورة حال كونه من جنس النعم ، وذكر العمد لبيان الواقع فلا مفهوم له ، فيجب الجزاء عمداً أو خطأ عند جميع الأئمة ، إلا الظاهرية قالوا : لا جزاء إلا فى العمد ، وليترتب عليه حكم التأثيم بقوله : « ليذوق وبال أمره ، ومن عاد فينتقم الله منه » ﴿يَحْكُمُ بِهِ﴾ أى بالماثل رجلان ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنكُمْ﴾ من فقهاء المسلمين لهما فطنة يميزان بها أشبه الأشياء به ، إذ لم يكن منصوصاً من الشارع ، وقد حكم ابن عباس وعمر فى النعامة ببدنة ، وابن عباس وأبو عبيدة فى بقر الوحش وحماره ببقرة ، وابن عمر وابن عوف فى الظبى بشاة ، وحكم بها ابن عباس وعمر فى الحمام لأنه يشبهها فى عب الماء ، فاتبعهم الأئمة مالك والشافعى وأحمد فى اعتبار المماثلة بالخلقة والهيئة ، وما لا مثل له فى النعم فالقيمة . واعتبر أبو حنيفة القيمة مطلقاً ﴿هَدْيًا﴾ حال من جزاء ، أو من الهاء فى به ﴿بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ أى يبلغ به الحرم والكعبة أم الحرم ، والحرم كله منحر لهذا الهدى ، لكن لا بد أن يجمع فيه بين الحل والحرم حتى يكون بالغاً للكعبة ، لكن لا ينحر إلا فى الحرم ، باتفاق الأئمة ينحره عندنا بمنى ، إن أوقفه بعرفة ، وإلا فبمكة ويتصدق به على المساكين حيث شاء ، وخصه الشافعى بمساكين الحرم ، ونصب بالغاً على أنه نعت لهدياً وإن أضيف ، لأن إضافته لفظية لا تفيد تعريفاً ﴿أَوْ﴾ عليه ﴿كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ بالإضافة للبيان لنافع وابن عامر ، وبالتنوين للباقين ، وإن وجد الهدى ، فطعام بدل أو عطف بيان أى من غالب قوت البلد ، مايساوى قيمة الجزاء ، لكل مسكين مدٌّ عند مالك والشافعى ، ونصف صاع عند أبى حنيفة والقولان لأحمد . وأصل المسألة أن الصوم مقدر بطعام اليوم وهو المدُّ عند الأولين ، ونصف صاع عند أبى حنيفة ﴿أَوْ﴾ عليه ﴿عَدْلُ ذَٰلِكَ﴾ أى مثل ذلك الطعام ﴿صِيَامًا﴾ يصومه عن كل مد يوماً ، وإن وجده ، وله أن يصوم حيث شاء ، واتفقت الأئمة على كون الثلاث على التخيير ، وأن الخيار لقاتل الصيد لا للمحكمين ، خلافاً لمحمد بن الحسن من الحنفية ، وعلى أن موضع التقويم هو المكان الذى قتل فيه الصيد ، لا مكة خلافاً للشعبى . وجب عليه ذلك ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ﴾ ثقل جزاء ﴿أَمْرِهِ﴾ الذى فعله من مخالفة أمر الله بهتك حرمة الإحرام ، وأصل الوبل والوبال ، الثقل ، ومنه الطعام الوبيل ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ من الصيد قبل التحريم أو فى هذه المرة ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى مثل ذلك ﴿فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ بالكفارة والعقوبة ، والجملة خبر مبتدإ محذوف ، أى فهو ينتقم الله منه ، لأن الجزاء إذا كان مضارعاً لا يدخله الفاء ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ من عصاه لا يقدر على منعه أحدٌ إذا أراد ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ أيها الناس حلالا كنتم أو محرمين ﴿صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ المالح والعذب ، أى مصيده سمكا أو غيره ، خلافاً لأبى حنيفة من غير ذكاة ، طالت حياته ببرٍّ أم لا عند المالكية خلافاً لغيرهم ، مات بسبب كالصيد أو لا ، كالميت الطافى خلافاً لأبى حنيفة ، والمراد بالبحر جميع المياه ﴿وَطَعَامُهُ﴾

مايقذفه ميتاً أوالضمير للصيد ، وطعامه أكله ﴿مَتَاعًا﴾ مفعول له أى تمتيعاً ﴿لَكُمْ﴾ تأكلونه ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ المسافرين منكم يتزودونه ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ﴾ مايعيش فيه ويفرخ فيه ، وإن كان يعيش فى الماء فى بعض الأوقات ، كالبط فإنه برىّ لأنه يتوالد فى البر ، والبحر مرعًى له ، قاله فى مدارك التنزيل ، يعنى حرم عليكم أن تصيدوه ﴿مَادُمْتُمْ حُرُمًا﴾ فلو صاده حلال لنفسه فللمحرم أكله كما تقدم ، بينته السنة ، والجراد من صيد البر عند الجمهور لا يحل للمحرم صيده ، وكذلك طير الماء كله من صيد البر ، قاله فى لباب التأويل ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ مبالغة فى التحذير من مخالفته . ولما حرم صيد الحرم أشار إلى شرف الكعبة التى هى أصل هذه الحرمات بقوله ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ﴾ سميت بها لتكعبها وارتفاعها ﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ بدل أو عطف بيان على المدح لا الإيضاح ، أو مفعول ثان أى صيرها ﴿قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ سبب صلاحهم وانتعاشهم ، إذ يقوم به أمر دينهم بالحج إليه ، ودنياهم بأمن داخله ، وعدم التعرض له وجبى ثمرات كل شىء إليه ، وقرأ ابن عامر قيماً على أنه مصدر كقيام ، أعل كما أعلّ فعله ، ونصبه على المصدر أو الحال ، وقيم الشىء وقيامه ما به صلاحه واستقامته ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ بمعنى الأشهر الحرم ، وهى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب فهى قيام لهم بأمنهم القتال فيها ﴿وَالْهَدْيَ﴾ قياماً لهم بالتمتع للفقراء ، والثواب للمتقربين به ﴿وَالْقَلَائِدَ﴾ أى ذوات القلائد أفردها لأنها أشرف وأكثر ثواباً كما تقدم ، أو لأمن صاحب القلائد ، وهى حبل يفتله الرجل ويعلق عليه نعلين أو نعلا يقلده بعيره فكل من لقيه لم يرعه ، ويكون حاجزاً بينه وبين من يطلبه ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجعل المذكور ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ لا يخلو فعله من حكمة ، لجعله ذلك لجلب المصالح ودفع المضار عنكم قبل وقوعها دليل على علمه بما فى الوجود وما هو كائن كما عممه بقوله ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تعميم بعد تخصيص ومبالغة بعد إطلاق ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لأعدائه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لأوليائه . قدم صفة الجلال فى الوعد والوعيد لأنه فى مقام التكليف ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ الإبلاغ لكم ، وقد أدى ما عليه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ من تصديق وتكذيب وفعل وعزيمة ، فيجازيكم به ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي﴾ فى الهدايا والصدقات ﴿الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ من الأشخاص والأعمال والأموال ، فلا يستوى الحرام والحلال ، والردىء والجيد ، والكافر والمؤمن ، والصالح والطالح ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ لأن عاقبته عاقبة سوء ، والمحمود القليل خير من المذموم الكثير ترغيب فى صالح الأعمال والأحوال ، وحلال الأموال ، كما قال ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك الخبيث ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لكى تفوزوا . قال فى الجواهر الحسان : قوله لا يستوى الخبيث والطيب عام فى جميع الأمور فى المكاسب ، وعدد الناس والمعارف ، ونحو ذلك . اهـ . ونزل لما أكثر الأعراب سؤال النبى صلى الله عليه وسلم عما لم يأمرهم وما لا يعنيهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ الشرط وما عطف عليه صفة لأشياء ، أى إن تظهر لكم

تغمكم لما فيها من المشقة . روى الترمذى أنهم سألوه فى حجة الوداع أفى كل عام ؟ أى وجوب الحج . فسكت . ثم قالوا : أفى كل عام ؟ فقال : لوقلت نعم لوجبت ، دعونى ما تركتكم ، فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم . فنزلت . وروى البخارى أن رجلا قال لرسول الله : من أبى ؟ فقال «أبوك فلان» فنزلت ، وعن ابن عباس قال رجل أين أبى ؟ فقال «فى النار» ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ﴾ أى فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ﴿تُبْدَ لَكُمْ﴾ المعنى إذا سألتم عن أشياء فى زمنه ، ينزل القرآن بإبدائها ، فربما ساءتكم لما فيها من المشقة ، فتتعرضوا العقاب بالتقصير عنها ، فلا تسألوها ، وقد كره بعض السلف السؤال والجواب لما لم يقع ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ عن مسائلكم فلا تعودوا ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلكم بعقوبة ما يفرط منكم ، ويعفو عن كثير ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾ أى مثل مسائلكم أو مثل تلك الأشياء ﴿قَوْمٌ﴾ أنبياءهم فأجيبوا ببيان أحكامها وهم بنو إسرائيل وأصحاب المائدة ونحوهم ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ متعلق بسألها وليس صفة لقوم ، فإن ظرف الزمان لا يكون صفة لجثة ، ولا حالا منها ، ولا خبراً عنها ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا﴾ أى بسببها ﴿كَافِرِينَ﴾ بترك العمل بها ، ولما منع سؤال أشياء وهو من أمر الجاهلية ، أردفه بمنع ما كان من أخلاق الجاهلية فقال ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ﴾ ما شرع ﴿مِنْ﴾ زائدة ﴿بَحِيرَةٍ﴾ مشقوقة الأذن فعيلة بمعنى مفعولة ، ﴿وَلَا سَائِبَةٍ﴾ اسم فاعل ساب بمعنى جرى ومشى مسرعاً ، بمعنى مسيبة أى مهملة ﴿وَلَا وَصِيلَةٍ﴾ فعيلة بمعنى فاعلة ﴿وَلَا حَامٍ﴾ اسم فاعل حمى : حفظ . قال القسطلانى : يجوز كون جعل بمعنى سمّى ، فيتعدى لاثنين ، أحدهما محذوف ، أى ما سمّى الله حيواناً بحيرة ، وهو قول أبى البقاء ، ومنع أبو حيان : كون «جعل» هنا بمعنى شرع ووضع أو أمر قال إذ لم يذكر النحويون لها هنا . وخرج الآية على التصيير ، وجعل المفعول الثانى محذوفاً ، أى ماصير الله بحيرة مشروعة . قال الثعالبى : كلام أبى حيان شهادة على نفى وعلى تقدير صحته ، فيحمل كلام غيره على أنه تفسير معنى لا تفسير إعراب . اهـ . قلت الأولى لا تفسير لغة . والله أعلم . روى البخارى عن سعيد بن المسيب قال : البحيرة التى يمنع درها للطواغيت ، فلا يحلبها أحد من الناس ، وقال غيره : من النساء . والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم ، لا يحمل عليها شىء . والوصيلة الناقة البكر ، تبكر فى أول نتاج الإبل بالأنثى ثم تثنى بعدها بأنثى ، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر . والحامى فحل الإبل ، يضرب الضراب المعدود يعنى حتى يولد له عشرة أولاد ، فإذا قضى ضرابه ودعوه : أى تركوه للطواغيت ، وأعفوه من الحمل فلم يحمل عليه شىء ، وسموه الحامى . اهـ . قلت : هذا مافى البخارى ، وقد ذكروا فيها غير ذلك ، والله أعلم ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ فى ذلك ونسبته إليه ، ويزعمون أنه شرع إبراهيم . روى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رأيت عمرو بن لحى فى النار يجر قصبه ، وهو أول من سيب السوائب وغيّر دين إبراهيم عليه السلام . قلت قصبه بضم القاف وسكون الصاد المهملة بعدها موحدة ، يعنى

أمامه ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أن ذلك افتراء لأنهم قلدوا فيه آباءهم . وفيه أن منهم من يعرف بطلان ذلك ، ولكن منعه حب الرياسة وتقليد الآباء أن يعترف به ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ ﴾ أى إلى حكمه من تحليل ما حرمتم ﴿ قَالُوا حَسْبُنَا ﴾ كافينا ﴿ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ بيان لقصور عقلهم وانهما كهم فى التقليد ، وألا سند لهم سواه ﴿ أ ﴾ حسبهم ذلك ﴿ وَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ إلى الحق والاستفهام للإنكار والواو للحال ، أى الاقتداء إنما يصح بمن عُلم أنه عالم مهتد ، وذلك لا يعرف إلا بالحجة لا بالتقليد ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ نصب على الإغراء والجار والمجرور قبله اسم بمعنى ألزموا إصلاحها وحفظها عن المعاصى ، والإصرار عليها بعد ما أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر ، ولم تقدروا عليه لفساد الزمان ، لما فى الترمذى عن أبى ثعلبة الخشنى سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية قال : « تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوًى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بخاصة نفسك فإن من ورائكم أياماً ، الصبر فيهن على الحق كالقبض على الجمر ، للعامل فيهن أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم ﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ ﴾ مستأنف أو جزم على الجواب ﴿ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ بعد ما أديتم ما عليكم من الأمر والنهى ، قال الثعالبى : هذا - يعنى ما فى حديث أبى ثعلبة - هو التأويل الذى لا نظر لأحد معه ، لأنه مستوف الصلاح ، صادر عن النبى صلى الله عليه وسلم وجملة ما عليه أهل العلم فى ذلك أن الأمر بالمعروف متعين ، متى رُجى القبول أو رجى ردُّ المظالم ، ولو بعنف ، ما لم يخف الآمر ضرراً يلحقه فى خاصته ، أو فتنة يدخلها على المسلمين ، إما بشق عصًا ، وإما بضرر يلحق طائفة من الناس . فإذا خيف هنا ، فعليكم أنفسكم ، محكم واجب أن يوقف عنده ، اه . وفى لباب التأويل : قال أبو بكر الصديق أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم » وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الناس إذا رأوا ظالماً فلم يأخذوا على يديه ، أوشك أن يعمهم الله منه بعقاب » أخرجه الترمذى ، وقال حسن صحيح . وأخرجه أبو داود وزاد فيه : « وما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى ثم يقدرون على أن يغيروا ولم يغيروا ، إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب » وقال قوم فى معنى الآية : عليكم أنفسكم إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر ، فلم يقبل منكم . قال ابن مسعود مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ما قبل منكم ، فإن رد عليكم فعليكم أنفسكم فإذا اختلفت قلوبكم وأهواؤكم ، وألبستم شيعاً يذيق بعضكم بأس بعض جاء تأويل هذه الآية ، وقال الطبرى : أصح التأويلات فى هذه الآية ما روى عن أبى بكر اه . ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وعد ووعيد للفريقين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ هذه الآية إلى قوله تعالى : « يوم يجمع الله الرسل » أشكل ما فى القرآن إعراباً ومعنى وحكماً ، قاله مكى وغيره . قال ابن عطية : هذا كلام من لم يقع له الثلج فى تفسيرها اه . ثم إنا نبين أولا سبب نزولها ، ثم نشير إلى معناها ليتأنس به قبل

الدخول فى تفسير النص . ثم نبين الإعراب فى ضمن ذكر النص إن شاء الله . قال ابن عطية : لا خلاف أن سببها أن تميما الدارى وعدىّ بن بداء - وكانا نصرانيين - سافرا إلى المدينة يعنى من مكة يريدان الشام . بتجارتهما وقدم المدينة أيضاً ابن أبى مارية . قلت اسمه بزيل . بزاى مصغراً مولى عمرو بن العاص ، يريد الشام تاجراً ، قال الفخر - وهو مسلم - فخرجوا رفاقاً فمرض ابن أبى مارية فى الطريق ، وأوصى إلى تميم وعدى ، أن يؤديا ما ترك إلى أوليائه من بنى سهم ، قال تميم وذكر القصة ، وكان معه جام فضة ، يريد به الملك ، فأخذته أنا وعدى ، فبعناه بألف وقسمنا ثمنه ، فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة تأثمت من ذلك ، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر ، وأديت خمسمائة فوثبوا إلى عدىّ فأتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلف عمرو بن العاص ورجل آخر معه ، ونزعت من عدىّ خمسمائة ، قال ابن عطية : وقد اختلفت ألفاظ هذه القصة ، وما ذكرته هو عمود الأمر ، ولم تصح لعدى صحبة ولا إسلام ، وأما معنى الآية من أولها إلى آخرها[1] أن الله أخبر المؤمنين أن حكمه فى الشهادة على الموصى ، إذا حضره الموت : أن تكون شهادة عدلين : فإن كان فى سفر ولم يكن معه من المؤمنين أحدٌ فليشهد شاهدين ممن حضره من أهل الكفر ، فإذا قدما وأديا الشهادة على وصيته حلفا بعد الصلاة أنهما ما كذبا ولا بدلا ، فيحكم بشهادتهما فإن عثر بعد ذلك أنهما كذبا أو خانا ، حلف رجلان من أولياء الموصى فى السفر ، وغرم الشاهدان ما ظهر عليهما ، هذا معنى الآية عند أكثر المفسرين المعتبرين ، ولكن اختلفوا ، هل نسخ شهادة آخرين من غيركم ، أى من الكفار بقوله : وأشهدوا ذوى عدل ، وبما عليه الإجماع من أن شهادة الكافر لا تجوز أولا نسخ ، وكذا فى تحليف الشاهد : فالمراد بغيركم الأجانب من المؤمنين لا الكفار ، أو على ظاهره ، فشهادة الكفار جائزة غير منسوخة فى هذه الحالة ، وعليه أحمد بن حنبل وغيره قالوا : من كان بأرض غربة ، ولم يجد مسلماً يشهد على وصيته : فليشهد كافرين على أى دين كانا ، لأنه من الضرورات وهى تبيح المحظورات ، والشاهدان فى الآية هما الوصيان ، إذ الوصية إشهاد على النفس كالإقرار . والله أعلم . ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ مبتدأ أضيف إلى الظرف على الاتساع ، والمراد بالشهادة الإشهاد على الوصية ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أى أسبابه ظرف للشهادة ، أى شارفه الموت ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ بدل من إذا ، أو ظرف لحضر ، وخبر المبتدإ ﴿اثْنَانِ﴾ على تقدير مضاف ، أى شهادة اثنين ، خبر بمعنى الأمر ، أى ليشهد أحدكم اثنين ، وإذا كانت الشهادة بمعنى الحضور : فمعناه ليشهد أحدكم عند الموت إن أراد الوصية اثنان ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أى من أقاربكم ، أو من المسلمين ، وهما صفتان لاثنان ﴿أَوْ آخَرَانِ﴾ عطف على اثنان ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من الأجانب ، أومن غير ملتكم ، هذا شرطه ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ﴾ سافرتم ﴿فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ أى شارفتم أى فأشهدوا الأجانب أو غير المسلمين عند ضرورة السفر وحلول الموت فيه ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ توقفونهما صفة آخران ، وما بينهما اعتراض أو استئناف بيانى ، كأنه قيل كيف نعمل بالشاهدين ؟ فقال تحبسونهما

﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ أي صلاة العصر ، لأنه وقت اجتماع الناس ، وتصادم ملائكة الليل وملائكة النهار ، وقيل أي صلاة كانت ، لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أيها الورثة ، أي شككتم فيهما . ويقولان ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ﴾ بالله ﴿ثَمَنًا﴾ عوضاً ، نأخذ بدله من المال ، بأن نحلف أو نشهد به كاذبين لأجله ، و«لانشترى» مُقسمٌ عليه ، و «إن ارتبتم» اعتراض ، يفيد اختصاص القسم بحال الارتياب ، وهذا التحليف إذا كانا كافرين عند أحد ، ولا يحلف الشاهد المسلم اتفاقاً ، لأنه إن ارتيب لم تجز شهادته ، وإلا فلاحاجة إلى يمينه ، والأولى جعلهما وصيين وهما يقسمان إن اتهما ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المقسم له أو المشهود له ﴿ذَا قُرْبَى﴾ ذا قرابة منا ، والعرب أميل الناس إلى قراباتهم ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ التي أمرنا بإقامتها وإظهارها ، والإضافة للتعظيم ﴿إِنَّا إِذًا﴾ إن كتمناها ﴿لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ بمخالفة قوله تعالى «كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ اطلع بعد حلف الوصيين ﴿عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ أي فعلا ما يوجبه من خيانة وكذب في اليمين : بأن وجد عندهما مثلا ما اتهما به ، وادعيا أنهما ابتاعاه من الميت ، أو أوصى لهما به ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ في توجه اليمين عليهما ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ الوصية ، أي جُني عليهم وهم الورثة ، ومعنى الاستحقاق هنا الغلبة ، كما تقول لظالم يظلمك ، قد استحق هذا مالى علىّ ظلماً ، فشبه بالمستحق حقيقة ، حين غلب ماتملكه ، على الاستعارة ، ويبدل من آخران ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ بالميت أي الأقربان إليه ، وقرأ حمزة وأبو بكر : الأوَّلين بتشديد الواو وكسر اللام ، جمع أول صفة أو بدل من الذين ، وقرأ حفص استحق على بناء الفاعل ، على أن الأوليان فاعل ، أي استحق الأوليان على سائر الورثة إقامتهما الشهادة في مقابلة شهادة الجانيين ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ على خيانة الوصيين ويقولان ﴿لَشَهَادَتُنَا﴾ يميننا ﴿أَحَقُّ﴾ أصدق ﴿مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ يمينهما ، أو ما أخبرنا أولى بالقبول من خبرهم ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ في هذه الشهادة ما هو الحق ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ استعظام وتقبيح للظلم ، وتخصيص الحلف في الآية باثنين من أقرب الورثة لخصوص الواقعة ، وهما عمرو بن العاص . والمطلب بن أبي وداعة ؛ فلو كان واحداً لحلف مكانهما واستحق ﴿ذَلِكَ﴾ الحكم المذكور من رد اليمين على الورثة ﴿أَدْنَى﴾ أقرب إلى ﴿أَنْ يَأْتُوا﴾ أي الشهود أو الأوصياء ﴿بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ فلا يخونوا فيها ﴿أَوْ﴾ أقرب إلى أن ﴿يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ على الورثة المدعين : فيحلفون على خيانتهم وكذبهم ، فيفتضحون ويغرمون ؛ فلا يكذبوا ؛ فربما تركوا الحلف كاذبين إذا خافوا هذا الحكم ، وجمع الضمير لأن هذا حكم يعم الشهود كلهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك الخيانة والكذب ﴿وَاسْمَعُوا﴾ ما تؤمرون به سماع قبول ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين من طاعته ، إلى سبيل الخير ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ متعلق بيهدى أو نصب باذكر ونحوه وهو الأولى ، والأول ضعيف كما قال الثعالبي : إن براعة الآية أن يكون هذا الكلام مستأنفاً ، وخص الرسل بالذكر لأنهم قادة الخلق ،

وهم المكلمون أولا، وهو يوم القيامة ﴿فَيَقُولُ﴾ لهم توبيخاً لقومهم ﴿مَاذَا﴾ أى الذى ﴿أُجِبْتُمْ﴾ به حين دعوتم إلى التوحيد والطاعة ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ كعلمك فيهم لانك تعلم ما أضمروا وما أظهروا ونحن لا نعلم إلا ما أظهروا، أو لاعلم لنا إلا علمٌ أنت أعلم به منا، وهذا قريب من الاول، أولا علم لنا بعاقبة أمرهم: فلا نعلم ما كان منهم بعد وفاتنا مما أحدثوا. كقوله: «كنت أنت الرقيب عليهم» وفى حديث الحوض: «فيقال لى: لاتدرى ما أحدثوا بعدك فأقول سحقاً» وقال فخر الدين: علموا أن الأدب فى ذلك الوقت السكوت وتفويض الأمر إلى علم الله وعدله فقالوا لا علم لنا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ تعلم ما غاب من باطن الأمور ونحن لا نعلم إلا ما نشاهد ولا يخفى عليك ما عندنا من العلم، وما قيل من أنه ذهب عنهم علم ذلك لشدة هول القيامة وفزعهم ثم بعد ذلك يشهدون ضعيف، لقوله «لا يحزنهم الفزع الأكبر» «إنى لا يخاف لدىّ المرسلون» ونحو ذلك، قاله فى لباب التأويل والجواهر الحسان. وقرأ حمزة وأبو بكر بكسر الغين ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ بدل من «يوم يجمع» أو نصب باذكر «وقال» بمعنى يقول ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ باصطفائها على نساء العالمين، والنعمة على الأصول نعمة على الفروع وذكر النعمة شكرها ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ﴾ قوّيتك ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ جبريل أو الكلام الذى به حياة القلوب لقوله ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ طفلا معجزة ﴿وَكَهْلًا﴾ تبليغاً أى فى الحالين على السواء، وفيه دلالة على أنه رفع بعد الكهولة، وهى ما فوق الثلاثين، لانه رفع وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وفيه دلالة على أنه ينزل فى آخر الزمان، لانه حين رفع لم يكن كهلا، وليس بشىء، لانه حين النزول يكون شيخاً، قاله فى غاية الامانى ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾ الخط ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ صواب القول والفهم، والاطلاع على أسرار العلوم ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ. وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي. فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي. وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ سبق تفسيره فى سورة آل عمران، وكذا قراءة نافع «طائراً» ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ﴾ حين هموا بقتلك ﴿إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ظرف لكففت ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا﴾ الذى جئت به ﴿إِلَّا سِحْرٌ﴾ وقرأ حمزة والكسائى «ساحر» يريدون عيسى ﴿مُبِينٌ. وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ أمرتهم على لسانك، أو أوحيت إليهم إلهاماً ﴿أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ عيسى، وأن مصدرية أو مفسرة ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ بهما بقلوبنا ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ منقادون مخلصون لما أمر بظواهرنا أى بايعنا على ذلك. اذكر ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ أى يفعل إن سألته، من إطلاق اللازم على الملزوم. وقرأ الكسائى بالفوقانية، ونصب ما بعده، أى هل تقدر أن تسأله ﴿أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ وهى الخوان إذا كان عليه الطعام. من ماد: تحرك أو أعطى ﴿قَالَ﴾ لهم عيسى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى اقتراح الآيات ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بكمال قدرته، وصحة نبوتى ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ تبركا به واستغناء بذلك عن طلب

المعاش؛ لتتفرغ لطاعة الله، تمهيد عذر وبيان لما دعاهم إلى السؤال ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ بزيادة اليقين بقدرته ﴿وَنَعْلَمَ﴾ نزداد علماً ﴿أَنْ﴾ مخففة أي أنك ﴿قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ في النبوة عياناً كما علمناه استدلالا ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ بما عاينا لمن بعدنا الداعين لهذا الشرع بسببها. روى أن سؤالهم كان بعد أن أمرهم عيسى بصوم ثلاثين يوماً فأتموها فأرادوا أن تكون المائدة عيداً ذلك الصوم ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لما رأى لهم غرضاً صحيحاً بعد أن لبس جبة شعر ورداء شعر يصلي ويبكي ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا﴾ أي يوم نزولها ﴿عِيدًا﴾ فرحاً وسروراً عائداً نعظم ذلك اليوم ونشرفه ﴿لِأَوَّلِنَا﴾ بدل من لنا بإعادة الجار ﴿وَآخِرِنَا﴾ ممن يأتي بعدنا، روى أنها نزلت يوم الأحد ولذا اتخذه النصارى عيداً لهم، وقيل يأكل منها أولنا وآخرنا ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ على قدرتك ونبوتي ﴿وَارْزُقْنَا﴾ إياها ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ لأنك خالق الرزق ومعطيه بلا عوض وغيرك واسطة، وأنت الرازق حقيقة ﴿قَالَ اللَّهُ﴾ مستجيباً له ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ بالتشديد لنافع وابن عامر وعاصم والتخفيف لغيرهم ﴿عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ﴾ بعد نزولها ﴿مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ﴾ الضمير للمصدر أو العذاب، إن أريد به ما يعذب به، على حذف حرف الجر ﴿أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ فنزلت الملائكة بمائدة حمراء منكوسة، تطير بها بين غمامتين حتى أنزلوها بين أيديهم، فبكى عيسى ثم قال: اللهم اجعلني من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة لنا، وصلى ركعتين وبكى، ثم كشفها فإذا فيها كل نوع طعام من الخبز واللحم والبقول وغير ذلك، وقالوا يا روح الله، أمن طعام الدنيا أو الجنة؟ فقال: ليس منهما، ولكنه اخترعه الله بقدرته كلوا ما سألتم واشكروا يمدكم الله من فضله، وكانوا أكثر من ألف، فأكلوا حتى شبعوا ثم طارت، وكانت تنزل عليهم كل يوم بكرة وعشياً يأكل منها الأغنياء والفقراء، لا يأكله مريض إلا برئ، ثم أوحى الله إلى عيسى أن اجعل مائدتي في الفقراء والمرضى، دون الأغنياء والأصحاء ولا يدخروا لغد، فخان بعضهم وادخر، فرفعت عنهم. ومسخ الذين كفروا النعمة منهم قردة وخنازير: عذاب لم يعذب به غيرهم بعدهم، قال ابن العربي في الأحكام: شاهدت المائدة يعني مرساها بطور سيناء مراراً وأكلت عليها ليلا ونهاراً وذكرت الله فيها سراً وجهاراً، وكان ارتفاعها أشف من القامة بنحو الشبر، وكانت صخرة لا تؤثر فيها المعاول، وكان الناس يقولون مسخت صخرة إذ مسخ الله أربابها، والذي عندي أن هذه كانت صخرة في الأصل قطعت من الأرض وجعلت محلا للمائدة النازلة من السماء، وكل ما حولها محفوف بقصور، وقد نحتت في ذلك الحجر الصلب بيوت ومجالس منها وغاناتها من جوانبها وبيوت خدمتها قد صورت من الحجر، كما تصوّر من الطين والخشب، فإذا دخلت في قصر من قصورها ورددت الباب، وجعلت من ورائه صخرة، لتردهم لم يفتحه أهل الأرض للصوقه بالأرض. وإذا هبت الريح وحثت تحته التراب لم ينفتح إلا بعد صب الماء تحته والإكثار منه، حتى تسيل بالتراب فينفرج الباب، وقد مات بها قوم بهذه العلة، وقد كنت أخلو بها كثيراً للدرس، ولكني كنت في كل حين أكنس حول الباب مخافة

ماجرى لغيرى فيها . اهـ . واذكر ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ أى يقول يوم القيامة ، أو قاله بعد مارفعه ﴿يَاعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أى سوى الله على أنه صفة إلهين فتكون الآلهة ثلاثة أو يتعلق باتخذونى ، ومعنى «دون» المغايرة ، إذ من عبد الله مع غيره فكأنه عبد غيره فقط ، أو القصور بمعنى لم يعتقدوا أنهما مستقلان باستحقاق العبادة ، بل عبادتهما توصل إلى عبادة الله ، فهى قاصرة عنها كقول المشركين « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله » ﴿قَالَ﴾ عيسى ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهاً لك عما لا يليق بك من الشريك وغيره ﴿مَا يَكُونُ﴾ ينبغى ﴿لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ خبر ليس و « لى » للتبيين أى لا أقول قولا لا يحق إذ لا أستحق العبادة فكيف أدعو إليها ، ثم رأى أن المقام مقام تواضع وتأدب فسلم علم ذلك إلى الله ، هل وقع منه أم لا ، فقال ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ هذا غاية الأدب حين فوض الأمر إلى علمه ﴿تَعْلَمُ مَا﴾ أخفيه ﴿فِى نَفْسِى﴾ كما تعلم ما أعلنه ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ أى معلومك ، عبر عنه بما فى نفسك مشاكلة ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ﴾ لا غيرك ، تقرير للجملتين لأن الحصر يشتمل على الإثبات والنفى ، فالإثبات تقرير لتعلم ما فى نفسى ، والنفى تقرير لقوله ولا أعلم ما فى نفسك ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ تصريح بنفى المستفهم عنه بعد تقديم ما يدل عليه ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ أن مفسرة لمعنى القول على تأويله بالأمر ، كأنه قال ما أمرتهم إلا ما أمرتنى به ، فعدل إلى « ما قلت لهم » تأدباً أن يجعل ربه ونفسه آمرين ولموافقة قوله « أأنت قلت » ويجوز كون أن مصدرية بدلا من المجرور فى به ، ولا يقدح فيه بقاء الموصول بلا عائد ، إذ ليس من شرط البدل استقامة المعنى به مع طرح المبدل ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ رقيباً أمنعهم مما يقولون ﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾ قبضتنى بالرفع إلى السماء ، والتوفى أخذ الشىء وافياً ، والموت نوع منه ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ الحفيظ لأعمالهم ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ مطلع ومنه قولى لهم وقولهم بعدى ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ أى من أقام على الكفر منهم أو جميع الخلق ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وأنت مالكهم تتصرف فيهم كيف شئت لا اعتراض عليك ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أى لمن آمن منهم ، أو لجميعهم ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فى صنعه ، فعزتك وحكمتك تقتضى ذلك فإن عذبت فعدل وإن غفرت ففضل ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ بنصب يوم على المفعول فيه لنافع والإشارة إلى قوله « أأنت قلت للناس » أى هذا القول لعيسى فى ذلك اليوم ، وبالرفع لغيره أى هذا اليوم يوم ينفع الصادقين صدقهم على أنه خبر . ويجوز ذلك على قراءة النصب بجعله مبنياً ، وإن أضيف إلى معرب ، وإن منعه بعضهم . قال ابن مالك فى الخلاصة : ومن بنى فلن يفندا ، ثم بين ذلك النفع بقوله ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بطاعته ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بثوابه ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ تكذيب للنصارى ، لأن عيسى وأمه من جملة ما فى

السموات والأرض ، وغلب ما لا يعقل لكون الكلام صادراً عن مقام الكبرياء والسخط على من اتخذ إلهاً دونه . فالعاقل كغيره فى انتفاء الألوهية عنه ، ولأن ما يتناول الأجناس كلها فهو أولى ، بإرادة العموم والله أعلم بأسرار كتابه .

[تم تفسير سورة المائدة]

سورة الأنعام

مكية ـ إلا (وما قدروا الله ...) الآيات الثلاث
مائة وخمس أو ست وستون آية

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، الْحَمْدُ) أى الوصف بالجميل ثابت (لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) خصهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات للناظرين ، وأخبر عن حمده بالجملة الاسمية الدالة على انحصار المحامد فيه ، لينبه على ثبوت حمده على هذه النعم ، حُمد أو لم يحمد ، وبدأها بخلق السموات والأرض لأنها أصول النعم التى تعم الملائكة والثقلين وغيرهما ، وقدم السماء لعلوها وشرفها وجمعها دون الأرض لثقل جمعها وخفة جمع السماء (وَجَعَلَ) أنشأ (الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ) كل ظلمة ونور ، وجمعها دونه لكثرة أسبابها أو أراد بالنور الجنس ، ولم يعكس ليكون فيه نوع طباق السموات والأرض . والفرق بين الخلق والجعل : ملاحظة التقدير والتسوية فى الأول ، والارتباط بين الشيئين فى الثانى كالظلمات والنور ينشآن من تكاثف الأجرام والنيرات ، وكل ذلك من دلائل وحدانيته (ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) مع قيام هذا الدليل (بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) عنه أو يسوون غيره فى العبادة به ممن لا يقدر على شىء ، والجملة عطف على الاسمية أو الفعلية ، والباء على الأول متعلقة بكفروا ، وصلة يعدلون محذوفة أى يعدلون عنه ، ليقع الإنكار على نفس الفعل ، وعلى الثانى متعلقة بيعدلون أى يسوون الأصنام بربهم ، وثم على الوجهين للاستبعاد . ولما كان المقصود فى السورة إثبات التوحيد والبعث قدم دليله من أصول العالم ، الآفاق ، ثم ثنى بالفصول آدم وأبنائه بقوله (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ) بخلق أبيكم آدم أصل البشر منه . وعن أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع ألوان الأرض فجاء بنو آدم قدر الأرض . منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والسهل والحزن ، والخبيث والطيب » أخرجه أبو داود والترمذى (ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا) لكم تموتون بعد انتهائه (وَأَجَلٌ مُّسَمًّى) مضروب (عِندَهُ) لبعثكم تفرد به لا يعلمه غيره ، أو الأول النوم والثانى الموت ، وتنكير مسمى للتعظيم . ولهذا قدم على الظرف بخلاف نحو

عندى ثوب جيد ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ ﴾ أيها الكفار ﴿ تَمْتَرُونَ ﴾ تشكون فى التوحيد والبعث بعد علمكم أنه ابتدأ خلقكم، ومن قدر على الابتداء فهو على الإعادة أقدر، وثم للاستبعاد فوق الاستبعاد الاول لانضمام دليل الأنفس إلى دليل الآفاق مع اشتماله على المبدإ والمعاد؛ ولذلك قدم الضمير لتقوى الحكم، وخاطب الذين هم يعدلون توبيخاً لهم وتقبيحاً لما هم فيه من الامتراء بعد هذا البرهان الجلى. أو الآية الاولى دليل التوحيد والثانية دليل البعث ﴿ وَهُوَ اللَّهُ ﴾ المنفرد بالالوهية ﴿ فِى السَّمَوَاتِ وَفِى الْأَرْضِ ﴾ فالجار متعلق بما دل عليه لفظ الجلالة من الصفات التى اشتهر بها، قال ابن عطية: كأنه قال وهو الله الخالق الرازق، المدبر للأمر، المحيط بما فى السموات وفى الأرض، كما تقول زيد السلطان فى المشرق والمغرب، أى الآمر الناهى الناقض المبرم الذى يعزل ويولى فيهما، فأقمت السلطان مقام هذه، وهذا مقتضى فصاحة اللفظ وجزالة المعنى ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ ما تسرون وتجهرون به بينكم من أحوال النفس، بيان لتفرده بالألوهية لأن الذى يكون السر والجهر عنده سواء هو الله لا شريك له فى ذلك، أو خبر بعد خبر ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ من سائر أعمال الجوارح، تعميم بعد تخصيص، وأشار إلى أنه كما تفرد بإيجاد السموات والأرض والظلمات والنور فيها، وخلق البشر من الطين، وحكم عليهم بالموت ثم بالبعث كذلك، تفرد بالتدبير والألوهية فى السموات والأرض، والعلم الشامل بأقوالهم سراً وجهراً، بل بجميع ما يأتون وما يذرون لا يعزب عنه مثقال ذرة، ثم غيّر الاسلوب إلى الغيبة، تبعيداً لهم عن ساحة الحضور، والمكالمة لإنكارهم الدلائل الباهرة فقال ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ ﴾ زائدة ﴿ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ من القرآن ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ تاركين للنظر فيها، غير ملتفتين. و «من» الأولى مزيدة للاستغراق، والثانية للتبعيض ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ ﴾ القرآن ﴿ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ فى معرض جزاء شرط مقدر، أى إن كانوا معرضين عن الآيات الدالة على نبوتك فلا تعجب، لأنهم كذبوا بما هو أعظم الآيات وهو القرآن. أو هو كاللازم لما قبله، أى لما كانوا معرضين كذبوا، أو كالدليل عليه أى لما أعرضوا عن القرآن أعظم الآيات فكيف لا يعرضون عن غيره، ولذا رتب عليه بالفاء ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ ﴾ أى سيظهر لهم عند ظهور الإسلام، أو عند نزول العذاب بهم فى الدنيا والآخرة ﴿ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أى عواقبه كناية عن عظم العذاب، لأن الواقعة إذا عظمت تواترت الاخبار بها مختلفة ﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴾ يعتبروا بقلوبهم أو ألم ينظروا فى أسفارهم إلى الشام وغيرها ﴿ كَمْ ﴾ خبرية بمعنى كثيراً ﴿ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أمة من الامم الماضية. والقرن الأمة المقترنة فى مدة من الزمان أو هو المدة نفسها، وهو على حذف مضاف، أى أهل قرن: واختلف فى قدرها. قال عياض: من عشر سنين إلى مائة وعشرين. اه. والصحيح المائة، لقوله عليه السلام فى عبد الله بن بسر المازنى: إنك تعيش قرناً، فعاش مائة سنة ﴿ مَكَّنَّاهُمْ ﴾ جعلنا لهم مكاناً ﴿ فِى الْأَرْضِ ﴾ أو جعلناهم متمكنين فيها يتصرفون كيف شاءوا فى أعمار طويلة وأموال مزيدة ﴿ مَا لَمْ

نُمَكِّنْ لَكُمْ ﴾ فيه التفات عن الغيبة إيقاظاً لهم عن سنة الغفلة ﴿ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ ﴾ المطر أو السحاب أو المظلة ، أى حقيقة السماء . فإن مبدأ المطر منها ﴿ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا ﴾ متتابعاً ، جمعه مدارير ، من الدرة ، وهي سيلان اللبن ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ ﴾ تحت مساكنهم ، والمراد كثرة البساتين فعاشوا فى الخصب بين الأنهار والثمار ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ فلم تغن عنهم تلك الأسباب والقوى ﴿ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ يعمرون الأرض ويسكنونها ، فنحن قادرون على أن نفعل بكم مافعلنا بأولئك ، وربما كان بفناء الأشياخ وبقاء الأطفال . قال فى لباب التأويل : وفى هذه الآية ما يوجب الاعتبار والموعظة بحال من مضى من الأمم السالفة ، فإنهم مع ما كانوا عليه من القوة وسعة الرزق وكثرة الأتباع أهلكناهم لما ظلموا ، فكيف حال من هو أضعف منهم . فيجب الانتباه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة . اهـ . ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا ﴾ وحياً سماويًّا مكتوباً ﴿ فِي قِرْطَاسٍ ﴾ ما يكتب فيه من رق أو صحيفة ﴿ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ أبلغ من عاينوه ، لأنه أنفى للشك ، وذكر اليد لدفع التجوز ، إذ يتجوز باللمس عن الفحص . نحو « وأنا لمسنا السماء » . نحو أبصرته بعينى . وسمعته بأذنى ﴿ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ ﴾ ما ﴿ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ عناداً ، وآثر المظهر ليدل على أن ذلك القول ناشئ عن كفرهم كما قالوا فى انشقاق القمر . فلا ينفع معهم شىء ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﴾ على محمد ﴿ مَلَكٌ ﴾ يشهد له بالرسالة ﴿ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا ﴾ كما اقترحوه ، فلم يؤمنوا ﴿ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ بهلاكهم ﴿ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴾ لا يمهلون لتوبة أو معذرة كعادة الله فيمن قبلهم ، من إهلاكهم عند وجود مقترحهم إذا لم يؤمنوا ، أو معنى لقضى الأمر : لماتوا من هول رؤية الملك وعظم خلقته ، ووجّه الأول صاحب غاية الأمانى ، والثانى صاحب الجواهر الحسان ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ ﴾ أى المنزل عليهم ﴿ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ ﴾ أى الملك ﴿ رَجُلًا ﴾ على صورته ليتمكنوا من رؤيته ، إذ لاقوة للبشر على رؤية الملك وهذا جواب ثان ﴿ وَ ﴾ لو أنزلناه وجعلناه رجلا ﴿ لَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ لخلطنا وشبهنا عليهم ﴿ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ على أنفسهم بأن يقولوا ما هذا إلا بشر مثلكم ، والعمدة فى تصديق الرسول المعجزة ، وهؤلاء لا يؤمنون بها ، فلا فائدة فيما سألوه ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ﴿ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ وهو العذاب ، فكذا يحيق بمن استهزأ بك : تقوية للنبى بوعيد مكذبيه والمستهزئين به ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ من هلاكهم بالعذاب : لما قصر إدراكهم عن الدلائل العقلية ، أمرهم بالنظر فى الأمور الحسية ، لا سيما البصر ، فإن مدركه أجلى من كل بديهى ، وقال هنا « ثم » وفى آية أخرى « فانظروا » لأن السير هنا مقصود بذاته للتجارة وغيرها وهناك للنظر فقط ، إذ دل الفاء على سببية الأول للثانى ﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ سؤال تبكيت ﴿ قُلْ لِلَّهِ ﴾ إذ هو متعين لايقدرون على إنكاره ، إذ لا يمكنهم أن يذكروا غيره

﴿ كَتَبَ ﴾ قضى والتزم ﴿ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ فضلا منه . ولذا أرسل الرسل وأمهل بعد التكذيب . وفيه تلطف فى دعائهم إلى الإيمان . وفى البخارى : إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتى سبقت غضبى ، فهو مكتوب عنده فوق العرش . وفى رواية مسلم : فهو موضوع عنده . زاد البخارى فى بعض الروايات « على العرش » واتفقا على قوله « إن رحمتى تغلب غضبى » وفى صحيحهما عن أبى هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل فى الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » زاد البخارى «ولو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب لم يأمن من العذاب» ولمسلم : «إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة ، بين الجن والإنس والبهائم والهوام ، فبها يتراحمون . وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة » ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ فى القبور مبعوثين ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ فيجازيكم على شرككم أو « إلى » بمعنى « فى » هو استئناف وقسم للوعيد على الشرك ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ فى اليوم أو فى الجمع ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ﴾. بإبطال فطرتها التى هى رأس مالهم بالغواية وعدم النظر فى الآفاق والأنفس والتعرض للعذاب الدائم ، مبتدأ خبره ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فعدم الإيمان سبب الخسران ، والمؤدى إليه إبطال الفطرة بالانهماك فى التقليد وإغفال النظر ﴿ وَلَهُ ﴾ عطف على « لله » ﴿ مَا سَكَنَ ﴾ حل ﴿ فِى اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ من السكنى ، أى ما اشتمل عليه أو من السكون ضد الحركة ، أى ما سكن فيهما ، واكتفى بأحد الضدين عن الآخر ، وآثر السكون لأنه أدخل فى كونه نعمة ، والمعنى : كل شىء فهو ربه وخالقه ومالكه ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لما يقال ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما يفعل . فكما لا يخرج شىء عن ملكه فكذلك لا يخفى على سمعه سرٌّ ولا يعزب عن علمه ذرة : وعيد للمشركين على أقوالهم وأفعالهم ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ ﴾ الذى له ما فى السموات والأرض ، وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم ﴿ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ أى معبوداً ناصراً ، لأنه ردٌّ لمن دعاه إلى الشرك ، وهو إنكارٌ لاتخاذ غير الله ولياً ، لا لاتخاذ الولى ، فلذلك قُدِّم وأولى الهمزة ﴿ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ مبدعهما . بالجر نعت لله ، لأنه بمعنى الماضى أو بدل منه ، واختاره أبو البقاء ، كأنه رأى الفصل بين البدل والمبدل منه أسهل ، لأن البدل فى المشهور على نية تكرار العامل ، وقرئ بالرفع والنصب على المدح ، وأصل الفطر الشق والإبداع . وعن ابن عباس : ما كنت أعلم معنى الفاطر ، حتى اختصم إلىّ أعرابيان فى بئر فقال أحدهما أنا فطرتها ، ولعله لم يكن لغة قريش ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ يَرزُق ولا يُرزق ، وإيثار الإطعام بشدة الحاجة إليه ، والمعنى : كيف أشرك بمن هو فاطر السموات والأرض : ما هو نازل عن رتبة الحيوان ﴿ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ لله من هذه الأمة ، إذ كل نبىّ سابق أمته فى الدِّين لأنه الداعى إلى الله ، فلا يمكن تقديم غيره عليه ﴿ وَ ﴾ قيل لى

﴿ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ به : عطف على « أمرت » قدم الدليل العقلى على عدم جواز عبادة غيره ، لأنه لا ينفع ولا يختاره ذو عقل على النقل ، بكون الخلق والأمر له ، لكون العقل عمدة ، ولعدم اعترافهم بصحة النقل ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ بعبادة غيره ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ هو يوم القيامة ، وهو مبالغة أخرى فى قطع أطماعهم ، وتعريض لهم بأنهم عصاة ، مستوجبون للعذاب ، والشرط معترض بين الفعل والمفعول ، وجوابه محذوف دل عليه الجملة ، وآثر لفظ الرب إيماء إلى أن من كان محسناً فعصيانه فى غاية القبح ﴿ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ ﴾ بالبناء للمفعول للجمهور : أى العذاب ، وللفاعل لحمزة والكسائى ، وأبى بكر ، والعائد محذوف ، أى يصرفه عنه ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ فقد أنجاه ، ومن أنجاه ﴿ فَقَدْ رَحِمَهُ ﴾ تعالى : أراد له الخير ، أى الثواب ، وذكر الرحمة عن صرف العذاب لئلا يتوهم صرف العذاب فقط بلا حصول رحمة ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ الصرف مع الرحمة ﴿ الْفَوْزُ ﴾ الفلاح ﴿ الْمُبِينُ ﴾ الواضح ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ بلاء كمرض وفقر ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ ﴾ كصحة وغنى ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومنه مسك به ، ولا يقدر على رده عنك غيره فله إيصال الخير وإزالته ، وقدّم الشر على الخير ، لأن دفع المفاسد أهم من جلب المصالح ، فينبغى دوام التذكر بمعنى هذه الآية : من أن الأشياء كلها بيد الله ، إن ضرّ فلا كاشف لضره ، وإن أصاب بخير فكذلك . وعن ابن عباس : كنت خلف النبى صلى الله عليه وسلم يوماً ، فقال « يا غلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء ، لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » رواه الترمذى ، وقال حسن صحيح . وفى رواية غيره « احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا » ولما ذكر الله انفراده بتصرفه بما يريده من خير وشر ، وقدرته على الأشياء ، ذكر قهره بقوله ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ ﴾ القادر الذى لا يعجزه شىء ، مستعلياً ﴿ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ قال أبو حيان : القهر الغلبة ، والحمل على الشىء من غير اختيار المحمول عليه اه . وهو تصوير لعلو شأنه ونفاذ أمره فيهم ، وتقرير للكلام السابق ، فإن من تفرد بالعلو ونفاذ الأمر ، إليه يرجع الأمر كله فى الشر والخير ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ فى أمره وتدبيره ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ بالعباد وخفايا أحوالهم ، فكما هو متصف بصفات الجلال ، كذلك متفرد بنعوت الكمال ، قال فى لباب التأويل : وإنما قال فوق عباده ، لأنه وصف نفسه بقهره إياهم ، ومن صفة كل قاهر شيئاً أن يكون مستعلياً عليه ، المعنى هو المذلل لهم ، العالى عليهم بتذليله إياهم ، فهو فوقهم بقهره إياهم وهم دونه اه . ونزل لما قال المشركون للنبى صلى الله عليه وسلم من يشهد لك بالرسالة ، فإنا قد سألنا أهل الكتاب فلم يعرفوك ؟ ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ﴾ تمييز محول عن المبتدأ ، والشىء

يقع على كل موجود ؛ وقيل على كل متعقل يمكن الإخبار عنه ، موجوداً كان أو معدوماً ، محالا أو ممكناً : فهو أبلغ فى العموم من أى شىء أكبر (قُلِ اللَّهُ) أكبر شهادة إن لم يقولوه لا جواب غيره : ثم ابتدأ هو (شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) على صدق ، ويجوز أن يكون «والله شهيد» هو الجواب . لأنه تعالى إذا كان الشهيد . كان أكبر شىء شهادة (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ) أى وأبشركم به ، أيها الموجودون (وَمَن بَلَغَ) عطف على ضمير أنذركم أى بلغه القرآن من الثقلين إلى يوم القيامة ، واكتفى بالإنذار لكونه أهم ، وهو دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله ومن بعدهم ، وأنه لا يؤاخذ بها من لم تبلغه ، وهو بيان لشهادة الله بنبوة النبى ، بإيحاء القرآن المعجز إليه ، قال محمد بن كعب من بلغه القرآن فكأنما رأى النبى صلى الله عليه وسلم وكلمه ، وقال أنس : لما نزلت هذه الآية ، كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر وكل جبار يدعوهم إلى الله ، وفى البخارى أنه قال « بلغوا عنى ولو آية » ففيه الأمر بإبلاغ ما جاء به إلى من بعده ، من قرآن وسنة ، وفى أبى داود تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن يسمع منكم (أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ) استفهام إنكار ، واستبعاد أن يكون آلهة مع من لم يصلح أن يكون معه إله آخر (قُل لَّا أَشْهَدُ) بذلك (قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) أى : بل أشهد أن لا إله إلا هو (وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) معه من الأصنام ، تصريح لما علم ضمناً وإيجاب للتوحيد ، وسلب لكل شريك ، وتبرؤ من كل معبود سوى الله ، قال العلماء : يستحب لمن أسلم أن يأتى بالشهادتين ويتبرأ من كل دين خالف الإسلام ، لقوله : « وإنى برىء مما تشركون » (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ) أى محمداً بنعته فى كتابهم ردٌّ لقولهم : إن أهل الكتاب أنكروا معرفتك بعد أن بين أن شهادة الله كافية له (كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ) فى كمال العلم (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ) منهم (فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) به استئناف لبيان عدم إيمانهم ، أى ليس عدم الإيمان لعدم المعرفة ، بل لأنهم أفسدوا فطرة الله فيهم بما تقدم (وَمَنْ) لا أحد (أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) بنسبة الشريك إليه ، وأنه يشفع عند الله (أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ) القرآن وهم اليهود والنصارى والمشركون ، آثر « أو » وإن كانوا جامعين ذلك دلالة على أن كل واحد من الأمرين كاف فى أظلمية المتصف به ؛ فكيف بمن جمع (إِنَّهُ) أى الشأن (لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) فكيف بالأظلم (وَ) اذكر (يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا) للجزاء (ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا) بالله توبيخاً (أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) أنهم شركاء الله ، تشفع لكم ، لعلها لم تكن حاضرة حين هذا القول ، أو لعدم غنائها كأنها ليست بحاضرة (ثُمَّ لَمْ تَكُن) بالفوقية للجمهور ، والتحتية لحمزة والكسائى (فِتْنَتُهُمْ) بالنصب لنافع وأبى عمرو والكوفيين ، على أن الاسم « أن قالوا » والتأنيث للخبر ، وبالرفع للباقين على أنها الاسم ، أى معذرتهم أو ضلالهم أو كفرهم أو عاقبته (إِلَّا أَن قَالُوا) أى قولهم (وَاللَّهِ رَبِّنَا) بالجر للجمهور نعت ، وبالنصب لحمزة والكسائى نداء (مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) يكذبون ويحلفون مع علمهم بأنه لا ينفع من فرط

الدهشة ، قال تعالى ﴿ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ بنفى الشريك عنهم ﴿ وَضَلَّ ﴾ غاب ﴿ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ على الله من الشركاء ، ويحملونه عدّة لذلك اليوم ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ من المشركين ﴿ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ القرآن ، إذا قرأت ، كأبى سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبى جهل ، وأضرابهم ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أغطية لا يصل إليها الحق ، جمع كنان : مايستر الشىء ﴿ أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ كراهة أن يفهموا القرآن ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ صمماً فلا يسمعونه لفقد آلته . روى أنهم قالوا للنضر بن الحارث : مايقول محمد ؟ فقال : ما أدرى ما يقول ، إلا أنى أراه يحرك لسانه ، وقد علمت أنه يقول : أساطير الاولين . اه . وتقديم القلوب على الآذان لأنها مناط الفائدة ، قال فى لباب التأويل : وفى هذا دليل على أن الله تعالى يقلب القلوب ، فيشرح بعضها للهدى والإيمان فتقبله ، ويجعل بعضها فى أكنة فلا تفقه كلام الله ولا تؤمن به ، كما قال ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ لفرط عنادهم ﴿ حَتَّى ﴾ بلغ تكذيبهم إلى أنهم ﴿ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ ﴾ أى يجيئون للمجادلة لا للإيمان : لم يرضوا بالتكذيب فقط ، حتى يجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، وحتى هى التى تقع بعدها الجمل ، لا عمل لها ، والجملة إذا وجوابه وهو : ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ ﴾ ما ﴿ هَذَا ﴾ القرآن ﴿ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أكاذيبهم وترهاتهم ، كالأضاحيك والأعاجيب : جمع أسطورة ، بضم الهمزة أو إسطارة بكسرها ، أو جمع إسطار ، جمع سطر ، بمعنى الخط ، أى ماسطروا من الأخبار والتواريخ مما لا تحقيق فيه ، ويجوز أن تكون حتى جارة ، وإذا جاءوك فى موضع الجر ، ويجادلونك جوابه ، ويقول تفسير له ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ ﴾ الناس ﴿ عَنْهُ ﴾ عن اتباع النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيَنْأَوْنَ ﴾ يتباعدون ﴿ عَنْهُ ﴾ فلا يؤمنون به ، ولما قال النضر ماتقدم ، قال أبو سفيان : إنى لأرى بعض ما يقول حقا ، فقال أبو جهل : كلا والله للموت أهون علينا من هذا ، وقيل نزلت فى أبى طالب : كان ينهى عن أذاه ولا يؤمن به ، وهو القائل للنبى صلى الله عليه وسلم :

وَاللهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ . حَتَّى أُوَارَى فِي التُّرَابِ دَفِينَا
وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ . مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا

فى أبيات . . . ﴿ وَإِنْ ﴾ ما ﴿ يُهْلِكُونَ ﴾ بالنأى عنه ﴿ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴾ لأن ضرره عليهم ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ بذلك : فيه مبالغة فى نفى العلم ، إذ فيه إشارة إلى أنهم دون البهائم ﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ يا محمد الذين ينأون عنك ﴿ إِذْ وُقِفُوا ﴾ عرضوا ﴿ عَلَى النَّارِ ﴾ حين يعاينونها ، أو يطلعون عليها ، أو يدخلونها فيعرفون مقدار عذابها ، جواب لو محذوف ، أى لرأيت هولا عظيما ونحوه ﴿ فَقَالُوا يَا ﴾ للتنبيه ﴿ لَيْتَنَا نُرَدُّ ﴾ إلى الدنيا ﴿ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ برفع الفعلين لنافع وأبى عمرو وابن كثير استئنافاً ، ونصبهما لحمزة وحفص فى جواب التمنى ورفع الاول عطفاً على نرد ، ونصب الثانى على الجواب لابن عامر ، ثم أضرب عن تمنيهم راداً عليهم فقال ﴿ بَلْ ﴾ للإضراب عن إرادة الإيمان المفهوم من التمنى ﴿ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ﴾

يكتمون بقولهم : « والله ربنا ما كنا مشركين » بشهادة جوارحهم فتمنوا ذلك من غير عزم على الإيمان ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ إلى الدنيا فرضاً ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ من الشرك لكونهم فى علم الله من أصحاب النار ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فى وعدهم الإيمان ﴿وَقَالُوا﴾ عطف على لعادوا ، أو نهوا ، أى ولو ردوا لكفروا ، وقالوا كما كانوا يقولون قبل معاينة العذاب وهو ﴿إِنْ﴾ ما ﴿هِيَ﴾ أى الحياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ توكيد للسابق ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ قضائه وجزائه ، مجاز عن الحبس للسؤال ، والتوبيخ كما يوقف العبد الجانى بين يدى مولاه ، وهذا الوقوف أشد من الاول ، ولذا أخره ، أى لرأيت أمراً عظيما ﴿قَالَ﴾ لهم على لسان الملائكة موبخاً ﴿أَلَيْسَ هَذَا﴾ البعث والثواب والعقاب ﴿بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ إنه لحق إقرار مؤكد بالقسم ، وآثروا لفظ الرب لعلمهم بأن ما كلفوا به فى الدنيا كان تفضلا وتربية مع ما فيه من الاستعطاف ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ باشروه مباشرة الذائق ، وهى استعارة بليغة تفيد أنهم فى كل حال يجدون ألم العذاب وجدان الذائق فى شدة الإحساس ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ به فى الدنيا ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ البعث وما بعده إذ فاتهم النعيم واستوجبوا العذاب الأليم ﴿حَتَّى﴾ غاية للتكذيب ﴿إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾ القيامة من سوع بمعنى حضر ، سميت بها لسرعة مجيئها كأنها حاضرة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة مصدر بغت الأمر ، وقع فجأة : نصب على الحال أو على المصدر لأنها نوع من المجىء ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا﴾ هى شدة التألم ونداؤها مجاز ، أى هذا أوانك فاحضرى ، وهى من حسر كه : كشفه : لأنها تكشف عن الحزن الكامن ﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا﴾ قصرنا ﴿فِيهَا﴾ فى الدنيا لسبق ذكرها لأنها محل التفريط فى الأعمال الصالحة ، أو فى الساعة أى فى شأنها ، والإعداد لها : والتفريط : التقصير من فرطت القوم سبقتهم ، لأنه لما فاته الأمر ، كأنه سبقه فلم يدركه ، قال عليه السلام « ما من أحد يموت إلا ندم » قالوا : وما ندامته يارسول الله ؟ قال « إن كان محسناً : ندم ألا يكون ازداد ، وإن كان مسيئاً ندم ألا يكون نزع » . رواه الترمذى ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ أثقالهم يعنى آثامهم ﴿عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ أى يقولون ذلك القول والحال أن ظهورهم مثقلة بالآثام . وأصل الوزر الثقل ، وذكر الظهر معه لكون الأثقال أكثر ما تحمل على الظهر ، بأن تأتيهم آثامهم عند البعث فى أقبح شىء صورة ، وأنتنه ريحاً : فتركبهم لحديث بذلك أخرجه الطبرى وغيره ﴿أَلَا سَاءَ﴾ بئس ﴿مَا يَزِرُونَ﴾ يحملونه حملهم ذلك ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فى سرعة زوالها وقلة الطائل لها ﴿إِلَّا لَعِبٌ﴾ ما يجلب به السرور ﴿وَلَهْوٌ﴾ ما يدفع به الهم : أى ما الاشتغال بها إلا هذا : فهى منحصرة فى هاتين الرذيلتين ؛ وقدم اللعب هنا لأن الكلام مع الكفار الذين كالأنعام ؛ إذ هو ردّ عن قولهم « إن هى إلا حياتنا الدنيا » المتقدم ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ ولابن عامر : ولدار الآخرة بالإضافة ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الدنيا باتقاء الشرك والمعاصى ؛ لخلوص منافع الآخرة ودوامها ؛ وذكر المتقين تنبيه على أنه ليس من أعمالهم لعب ولهو ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء لنافع وابن عامر وحفص : والياء لغيرهم فتؤمنون ﴿قَدْ﴾

للتحقيق ﴿ نَعْلَمُ إِنَّهُ ﴾ الشأن ﴿ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴾ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ بالتخفيف لنافع والكسائي والتشديد لغيرهم لا ينسبونك إلى الكذب ولا يكذبونك في السر لعلمهم أنك صادق ﴿ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ وضعه موضع المضمر دلالة على ظلمهم بالجحود مع التيقن ﴿ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ القرآن ﴿ يَجْحَدُونَ ﴾ كما قال له أبو جهل : ما نكذبك وإنك عندنا لصادق ، وإنما نكذب ما جئتنا به ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ الموعود فاصبر حتى يأتيك النصر بإهلاك قومك ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ مواعيده كقوله وإنا لننصر رسلنا والذين آمنوا ، الآية ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكَ ﴾ ما فيه التسلية ﴿ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ « من » صلة عند الأخفش وتبعيضية عند غيره ، أو بعض أخبارهم فاعل جاء ، أو فاعله محذوف كما قدرنا ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ ﴾ عظم وشق ﴿ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ عن الإيمان بما جئت به ﴿ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا ﴾ سرباً ﴿ فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا ﴾ مصعداً ﴿ فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ﴾ تسبب تصديقهم فافعل . بيان لشدة حرصه على إيمانهم أي لا تستطيع ذلك فاصبر حتى يحكم الله ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ لكن لم يشأ ذلك فلم يؤمنوا ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ بذلك ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ﴾ دعاءك إلى الإيمان ﴿ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ وهم المؤمنون الذين فتح الله أسماع قلوبهم وأحياهم بالإيمان ﴿ وَالْمَوْتَىٰ ﴾ أي الكفار شبههم بهم في عدم السماع ﴿ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾ في الآخرة فيسمعون حين لا ينفعهم ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ يردون فيجازيهم بأعمالهم ﴿ وَقَالُوا ﴾ عناداً وتعنتاً ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ مما اقترحوا ، كالناقة والعصا والمائدة ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لابن كثير ﴿ آيَةً ﴾ مما اقترحوا أو آية تضطرهم إلى الإيمان كنتق الجبل ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن نزولها بلاء عليهم لوجوب هلاكهم إن جحدوها أو لا يعلمون قدرته على ذلك لجهلهم بالله وبصفاته ﴿ وَمَا مِنْ ﴾ زائدة ﴿ دَابَّةٍ ﴾ تدب ﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ ﴾ في الهواء ﴿ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ تأكيد قطعاً لمجاز السرعة ونحوها أي ليس شيء من هذين الجنسين ﴿ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ في حفظ أحوالها مقدرة أرزاقها وآجالها . والمقصود من الآية الدلالة على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره ، ليكون كالدليل على أنه قادر على أن ينزل آية ، وجمع الأمم مع كون المبتدأ مفرداً ، للحمل على المعنى لأن قوله من دابة ولا طائر دال على الاستغراق ، ومغن أن يقال : وما من دواب ولا طيور . وفي لباب التأويل : قال العلماء جميع ما خلق الله لا يخرج عن هاتين الحالتين : إما أن يدب على الأرض أو يطير ، حتى ألحقوا حيوان الماء بالطائر ، وخص ما في الأرض بالذكر دون ما في السماء ، وإن كان ما في السماء مخلوقاً له ، لأن الاحتجاج بالمشاهد أظهر وأولى مما لا يشاهد . اهـ . وقيل فالمماثلة في معرفة الله وتسبيحه والصلاة له وفهم بعضها عن بعض وتآلف الجنس بجنسه وطلب الرزق واتقاء المهالك ومعرفة الذكر الأنثى ، والخلق والموت والبعث والحساب ، حتى يقتص للجماء من القرناء ، وغير ذلك .

روى أنه انتطحت عنزان فقال عليه السلام : «أتعلمون فيما انتطحتا ؟ قالوا لا . قال : فإن الله يعلم وسيقضى بينهما» (مَا فَرَّطْنَا) ماتركنا . التفريط : التقصير فى الشىء مع القدرة (فِى الْكِتَابِ) اللوح المحفوظ الضابط لأمور الملك والملكوت (مِنْ شَىْءٍ) فلم نكتبه : بيان لكمال قدرته وعلمه ، وجهلهم بأنه لو كان نزول الآية من مصالحهم لأنزلها . أو المراد بالكتاب القرآن ، وهو أظهر فى السياق إذ فيه تبيان كل شىء تفصيلا أو إجمالا ، عبارة أو إشارة ، ودلالة واقتضاء . قال البيضاوى · و «من» زائدة و «شىء» فى موضع المصدر ، لا المفعول به . فإن فرط لا يتعدى بنفسه ، وقد عُدى بفى إلى الكتاب اه . وقال أبوحيان : أصل فرطنا أن يتعدى بفى ثم يضمن معنى أغفلنا ، فيتعدى إلى مفعول به وهو هنا كذلك فيكون «من شىء» فى موضع المفعول به . اه . (ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) يعنى الأمم كلها ، ذكر الضمير تغليباً للعقلاء فيقضى بينهم حتى يقتص للجماء من القرناء ، ثم يقول لها كونى تراباً . وعن أبى هريرة : «يحشر كل ذى نفس لينصف المظلوم من الظالم حتى ينصف للجماء من القرناء» . وعن ابن عباس : حشرها : موتها . ويرده حديث مسلم عن أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لتؤدنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) القرآن مع هذه الدلائل (صُمٌّ) عن سماعها سماع قبول (وَبُكْمٌ) عن النطق بالحق خابطون (فِى الظُّلُمَاتِ) مستغرقون فيها لأن أحوال الدواب والطيور مشاهدة فمن لم يستدل بها على وحدانيته . فهو غريق فى ظلمات الكفر والعناد والجهل والتقليد (مَنْ يَشَإِ اللَّهُ) إضلاله (يُضْلِلْهُ) عدلا منه ، لا يسأل عما يفعل ، وهو دليل واضح لنا على المعتزلة (وَمَنْ يَشَأْ) هدايته (يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) دين الإسلام ، مستعلياً عليه ، متمكناً تمكن الراكب من مركوبه ، ولذا غيّر الأسلوب ليدل على غلبة رحمته ، ثم احتج على الكفار فقال (قُلْ) يا محمد لعابدى الأصنام (أَرَأَيْتَكُمْ) أى أخبرونى : لما كان العلم والمشاهدة سببى الإخبار ، صح وضع كل منهما موضع طلب الإخبار والكاف حرف خطاب أكد به الضمير لا محل له من الإعراب ، إذ لا رافع ولا خافض ، ولو نصبه «أرى» لكان هو الفاعل فى المعنى فيكون تقديره أرأيتكم أنفسكم وليس الغرض أن يروا أنفسهم بل غيرهم ، بل الفعل معلق أو المفعول محذوف . تقديره أرأيتكم شركاءكم تنفعكم . وقرأ نافع بتسهيل الهمزة بعد الراء فى جميع أمثاله والكسائى بحذفها والباقون يحققون (إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ) فى الدنيا (أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ) المشتملة عليه ، من تدعون ؟ (أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ) تخصونه بالدعاء لخلاصكم . لا (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) أن الأصنام تنفعكم فادعوها (بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ) فى الشدائد لا غيره (فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ) إلى كشفه والفاء دلت على أن كشفه لا يتراخى عن الدعاء لكمال قدرته ، ووفور رأفته (إِنْ شَاءَ) كشفه وقيده بالمشيئة ليدل على أنه متفضل فى ذلك وأنه يرعى المصالح ولا يشاء ذلك فى الآخرة (وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ) معه من الأصنام فلا تدعونه أى تتركونه لما ركز فى العقول أنه القادر على

كشف الضراء دون غيره ، عبر عن الترك بأعظم وجوهه ، الذى هو مع الترك ذهول وإغفال لتشديد التوبيخ على عبادة من ينسى فى هذه الحالة لحقارته ، ثم سلى نبيه بقوله ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ رسلا ﴿ إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ أى كائنة قبل زمانك ، ومن ابتدائية ، إذ لا يشترط معها تقدير الانتهاء ، نحو : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . وقيل زائدة وليس بمرضى؛ لأن الكلام موجب، قاله فى غاية الأمانى ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ أى فكفروا وكذبوا الرسل فأخذناهم ﴿ بِالْبَأْسَاءِ ﴾ الفقر والجوع ﴿ وَالضَّرَّاءِ ﴾ البلاء والمرض فى النفس والمال ، اسمان مؤنثان لا مذكر لها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ بذل عتوهم ويتوبون من ذنوبهم ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾ بالتوبة ، و «لولا» حرف تحضيض للوم على ترك التضرع مع قيام الموجب وعدم الصارف ﴿ وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ لم تلن للإيمان ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من المعاصى فأصروا عليها ، استدراك بما يوجب شدة الانتقام منهم ، أى لامانع لهم إلا قساوة قلوبهم وإعجابهم بأعمالهم التى زينها الشيطان لهم ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ من البأساء والضراء فلم يتعظوا ﴿ فَتَحْنَا ﴾ بالتخفيف للجمهور ، والتشديد لابن عامر ﴿ عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من النعم : من الصحة والسعة والتمكن ، وهو كناية عن كثرة النعم على عادة الله ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا ﴾ فرح بطر ، أى : ظنوا أن ذلك باستحقاقهم فلا يلتفتون إلى الشكر ﴿ أَخَذْنَاهُمْ ﴾ بالعذاب ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ آيسون من كل خير ، مطرقون حزناً . روى عن بعض العلماء : رحم الله عبداً تدبر هذه الآية . وروى عقبة بن عامر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا رأيت الله يعطى العباد ما يشاءون على معاصيهم فذلك استدراج» ثم تلا « فلما نسوا ... الآية» أسنده الطبرى ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى آخرهم بأن استؤصلوا ؛ لأن الدابر هو الذى يأتى فى دبرهم ، وإذا لم ينج هو فمن تقدمه أولى ، من دبره : اتبعه ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ على هلاكهم لأن هلاك الظالم لا نعمة فوقه . وفى الحديث « الكافر إذا مات يستريح منه البلاد والعباد » وإذا مات كافر أو ظالم أو فاسق فينبغى لكل مسلم أن يقول : الحمد لله رب العالمين ؛ لأنه مصيبة زالت ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أخبرونى ﴿ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ ﴾ فأصمكم وأعماكم قدم السمع لأنه أشرف لأنه آلة تلقى الأوامر والنواهى من الرسل ﴿ وَخَتَمَ ﴾ طبع ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ بما يزيل عقلكم وفهمكم فلا تعرفون شيئاً ولا تفهمونه من أمور الدنيا ، وخص هذه الأعضاء الثلاثة ؛ لأنها أشرف أعضاء الإنسان ، فإذا تعطلت فسد أمره وبطلت مصالحه فى الدين والدنيا ، والمقصود من هذا الكلام ذكر ما يدل على وجود الصانع الحكيم المختار ؛ فالقادر على إيجاد هذه الأعضاء وأخذها هو المستحق للعبادة لا الأصنام ولذا قال ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴾ بما أخذه منكم بزعمكم ﴿ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ الدالة على وحدانيتنا وصدقك كيف نكررها ونبينها لهم بأساليب مختلفة تارة من جهة المقدمات العقلية ، وتارة من جهة الترغيب والترهيب ، وتارة بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين والاستفهام

للتعجيب ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ يعرضون وينفرون عنها ، و « ثم » لاستبعاد الإعراض بعد هذه الآيات ، أى لا يعرض من له عقل عن مثلها ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً ﴾ بلا أمارة كقارون ﴿ أَوْ جَهْرَةً ﴾ بظهور الأمارات كقوم صالح، أو ليلا أو نهاراً، أو غير مؤقت ومؤقتاً ﴿ هَلْ يُهْلَكُ ﴾ هلاك سخط وتعذيب ﴿ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾ بالكفر ، أى لا يهلك به إلا هم ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ ﴾ من آمن بالجنة ﴿ وَمُنْذِرِينَ ﴾ من كفر بالنار ، حال فيها معنى العلة ، أى للتبشير والإنذار لا لأن يأتوا الكفار بما اقترحوا من الآيات ﴿ فَمَنْ آمَنَ ﴾ بهم ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ عمله لله وندم على ما فعل قبلُ ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ فى الآخرة بالعذاب ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ لفوات الثواب ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أسند المس وهو اللمس باليد إلى العذاب كأنه الطالب لهم كناية عن سرعة نفاذ أمره واستغنى بتعريفه عن التوصيف ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ يخرجون عن الطاعة : تنبيه على العلة ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ ﴾ التى منها رزق فأعطيكم ما تريدون : جمع خزانة : مايحفظ فيها الأموال . جواب لقولهم : إن كنت رسولا وسّع علينا عيشنا بتفجير المياه وإذهاب الجبال ﴿ وَلَا ﴾ إنى ﴿ أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ ما غاب عنى ولم يوح إلىّ ، جواب لقولهم : متى هذا الوعد ؟ لما كان يوعدهم العذاب . محله نصب عطفاً على « عندى خزائن الله » ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ جواب لقولهم « ماهذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون » ونحوه : أى لم أقل لكم أقدر على ماتقدر الملائكة عليه أى لم أدّع لكم شيئاً من هذه الأشياء فتنكرون أمرى ، وإنما نفاها عن نفسه اعترافاً بالعبودية ولئلا يقترحوا عليه الآيات العظام ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ أى ليس لى من الصفات إلا اتباع الوحى: حصرٌ إضافى يراد به التبرّى من الدعاوى الباطلة مع إثبات ماهو نهاية كمالات البشر ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ الكافر والمؤمن والجاهل والعالم ومدعى المستحيل كالألوهية والملكية ومدعى المستقيم كالنبوّة . أى لا يستويان ، وتقديم الأعمى لأن الكلام مع المتصف بالعمى ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ فى ذلك فتؤمنون ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ ﴾ أى بما يوحى إليك وهو القرآن ﴿ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ هم العصاة المؤمنون لأنهم مظنة النفع ومن لا يعتقد الحشر ولا يخافه لا وجه لإنذاره . قاله فى غاية الأمانى . وقال فى لباب التأويل : قيل المراد بهم جميع الخلق فيدخل فيه كل مؤمن معترف بالحشر وكل كافر منكر له ، لأنه ليس أحد إلا وهو يخاف الحشر سواء اعتقد وقوعه أو كان يشك فيه ، لأن دعوة النبى صلى الله عليه وسلم وإنذاره عامة لجميع الخلق . اهـ . وقال البيضاوى : هم المؤمنون المفرطون فى العمل أو كل مجوّز للحشر مؤمناً كان أو كافراً مقرّاً به أو متردداً فيه فإن الإنذار ينجع فيهم دون الفارغين الجازمين باستحالته ﴿ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى غيره ﴿ وَلِيٌّ ﴾ قريب ينصرهم ﴿ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ يشفع لهم وجملة النفى حال من ضمير « يحشروا » وهى محل الخوف ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الله بإقلاعهم عما هم فيه ، وعمل الطاعات . ولما

أمر الله نبيه بإنذار غير المتقين ليتقوا ، أمره بإكرام المتقين ، وتقريبهم بقوله ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ﴾ ولابن عامر بالغدوة بالضم ﴿وَالْعَشِيِّ﴾ أى بالدوام أو فى صلاتى الصبح والعصر ، التين ابتدأ بهما بمكة ، وعبر بالدعاء عن الصلاة لاشتمالها عليه أو المراد حقيقة الدعاء ﴿يُرِيدُونَ﴾ بعبادتهم ﴿وَجْهَهُ﴾ تعالى ، لا شيئاً من أغراض الدنيا وهم فقراء المسلمين ، وكان المشركون طعنوا فيهم ، وطلبوا أن يطردهم ليجالسوه ، وأراد النبى ذلك طمعاً فى إسلامهم ، روى مسلم عن سعد بن أبى وقاص : كنا ستة نفر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وابن مسعود ، ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما ، فقال المشركون اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا فوقع فى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع ، فأنزل الله « ولا تطرد الذين ... الآية » اهـ . قلت وأما ذكر سلمان فيهم فضعيف ، لأن إسلامه كان بالمدينة ، وسورة الأنعام مكية ، وتقييد الدعاء بالإخلاص ، للتنبيه على أنه ملاك الأمر ، وترتيبه على النهى إشعار بأنه يقتضى إكرامهم ، وينافى إبعادهم ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ إن كان باطنهم غير مرضى ، لأن الكفار يقولون له : ما تبعك يا محمد هؤلاء إلا لفقرهم واحتياجهم ؛ لأنه عليه السلام كان يواسيهم . فرد الله تعالى مقالتهم ، بأنه على تقدير صحة ما يقولون لست مؤاخذاً بذلك ، فإن حسابهم لا يتعداهم إليك ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أردف هذا ما تقدم الذى سيق الكلام له لاستيفاء معنى « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ومن الثانية زائدة لتوكيد معنى الاستغراق ، والأولى ابتدائية ، والجار والمجرور حال من شىء ، قدم عليه لكونه نكرة ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ نصب لكونه جواب النفى ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ جواب النهى ، والمعنى لا تطردهم فتدخل فى زمرة الظالمين والنبى صلى الله عليه وسلم لم يطردهم ولا هم بطردهم ، استخفافاً بهم ، بل لمصلحة وهى التلطف بإدخال الأشراف فى الإسلام ، لظنه أن ترجيح هذا الجانب أولى فأعلمه الله أن إدناء هؤلاء الفقراء أولى ، فلا دليل فى الآية لمن يريد القدح فى عصمة الأنبياء ، لأن هذا من باب ترك الأفضل ، لا من باب ترك الواجبات والله أعلم ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أى مثل الفتن ، الذى فتن به رؤساء قريش مع ضعفاء المؤمنين ﴿فَتَنَّا﴾ ابتلينا سائر الناس ﴿بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ الشريف بالوضيع والغنى بالفقير ، بأن قدمنا الوضعاء والفقراء بالسبق إلى الإيمان ﴿لِيَقُولُوا﴾ أى الشرفاء والأغنياء منكرين ﴿أَهَؤُلَاءِ﴾ الوضعاء والفقراء ﴿مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ بالهداية ، أى لو كان ما هم عليه هدى ، ما سبقونا إليه ، واللام للعاقبة أو التعليل ، على تضمين فتنا : معنى خذلنا . فسبقُ الفقراء إلى الإسلام فتنة مانعة للأغنياء من الدخول فيه ، وفتنة الفقراء بالأغنياء ما يرون من سعة رزقهم ، وخصب عيشهم ، فيفتنهم ذلك عن الرضى بما رزقهم الله ، ولما كان مقال الكفار اعتراضاً على الله ، أجابهم بقوله ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ له فيهديهم ، بلى . وقد اقتضت الحكمة بأن يكون الشاكر منعماً عليه بالإسلام ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ هم الذين يدعون ربهم ، وصفهم بالإيمان بالقرآن ، بعد وصفهم بالعبادة ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ﴾

قضى ﴿رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أمر بإكرامهم مكان طردهم لوصفهم بما يوجب ذلك من العلم والعمل، وبتبشيرهم بأن الله قد أعد لهم وراء هذا الإكرام من رحمته ماتقر به أعينهم وعبر عن ذلك بالكتب مبالغة فى صدق الوعد، وقيل هذا فى قوم جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا أصبنا ذنوباً عظاماً، فلم يرد عليهم شيئاً، فانصرفوا فنزلت. قال ابن العربى: قال علماؤنا كتب معناه أوجب وعندى أنه كتب حقيقة، قال النبى صلى الله عليه وسلم: إن الله خلق القلم، فقال له اكتب، فكتب مايكون إلى يوم القيامة اه. قال الشعرانى: أجمع العارفون بالله على أنه إذا أوجب على نفسه شيئاً لا يدخل تحت حد الواجب على عباده فيه لأنه يفعل ما يريد، بخلاف العبد فإنه تحت التحجير والتكليف، فيأثم إذا ترك ما أوجبه على نفسه، كالنذر مع القدرة عليه، عقوبة له، حيث زاحم الشارع فى التشريع، وأوجب على نفسه شيئاً لم يوجبه الله عليه اه. ﴿أَنَّهُ﴾ أى الشأن بالفتح لنافع وابن عامر وعاصم بدلا من الرحمة: والكسر للباقين استئناف ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ منه بما يتعلق به من المضرة فى الدين، حال أو المعنى فاعلا فعل الجهلة، من غير روية، إذ الحكيم لا يرتكب شيئاً إلا بعد تأمل، ونظر فى العاقبة ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ بعد ذلك العمل السوء ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالتدارك والعزم على ألا يعود ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فتحه من فتح الأول إلا نافعاً ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما بينا ما ذكر ﴿نُفَصِّلُ﴾ نبين ﴿الْآيَاتِ﴾ القرآن ليظهر الحق فيعمل به ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ يا محمد ﴿سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ بتاء الخطاب ونصب السبيل [illegible] على معنى ولتستوضح سبيلهم يا محمد وتعامل كلا بما يليق به فصلنا ذلك التفصيل، وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وحفص عن عاصم بتاء التأنيث ورفع سبيل على معنى لتتضح سبيلهم، والباقون بالياء والرفع على تذكير السبيل فإنه يذكر ويؤنث، ويجوز عطف تستبين على علة مقدرة أى ليظهر الحق ولتستبين سبيل المجرمين كما قدرنا أولا، وخص سبيل المجرمين لأنهم الذين أثاروا ما تقدم من الأقوال وهو أهم فى هذا الموضع لأنها آية رد عليهم، وأيضاً فتبين سبيلهم يتضمن سبيل المؤمنين ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾ بأدلة العقل والنقل ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أو ما تسمونه آلهة ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ فى عبادتها، تأكيد لقطع أطماعهم وإشارة إلى موجب النهى وعلة الامتناع وهو أنه اتباع للأهواء ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ إن اتبعتها، تعريض بأنهم ضلوا ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ لست إذاً معدوداً فى زمرتهم تعريض أيضاً ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ بيان ﴿مِنْ رَبِّي﴾ تنبيه على مايجب اتباعه بعدما بين مالا يجوز اتباعه، والبينة دليل مبين للمطلوب نقلا وعقلا ﴿وَ﴾ قد ﴿كَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ بربى أو بالبينة لأنها فى معنى الدليل ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب بقولكم «فأمطر علينا حجارة من السماء أو آتنا بعذاب أليم» وقولكم «متى هذا الوعد» ﴿إِنِ الْحُكْمُ﴾ فى ذلك وغيره ﴿إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ بالصاد المهملة لنافع وابن كثير وعاصم أى يتبعه أو يقوله، وللباقين بالضاد المعجمة أى يقضى القضاء الحق ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ الحاكمين ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب أى

لو كان فى قدرتى ﴿ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ بأن أعجله لكم غضباً لربى وأستريح ولكنه عند الله ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾ وسيجازيهم بظلمهم . وهو فمعنى الاستدراك أى لكن الأمر إليه وهو أعلم بكم ﴿ وَعِندَهُ ﴾ تعالى ﴿ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ﴾ خزائنه جمع مَفتح بفتح الميم وهو المخزن ليس لأحد وصول إليها . ويؤيده «وإن من شىء إلا عندنا خزائنه» أو الطرق الموصلة إلى علمه جمع مِفتح بكسر الميم بمعنى المفتاح . ويؤيده قراءة مفاتيح شبه الغيب بالأشياء المستوثق بها بالأقفال استعارة بالكناية وأثبت لها المفاتيح تخييلا . ومن عنده المفتاح يعرف كيف يفتح به هو الذى يتوصل إلى ما فى الخزانة والله تعالى هو المنفرد بالغيب ﴿ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ لا يتوصل إلى المغيبات أحد غيره ، وفيه رد على المنجم المخذول الذى يدعى علم الغيب ، والفلسفى المطرود الذى يزعم أن الله تعالى لا يعلم الجزئيات . وفى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مفاتح الغيب خمس : إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام وماتدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت » . قال القسطلانى علم الساعة علم قيامها لا يعلم ذلك نبى مرسل ولا ملك مقرب ، ولا يعلم وقت إنزال الغيث من غير تقديم ولا تأخير وفى بلد لا يجاوزه إلا الله ، لكن إذا أمر به علمته ملائكته الموكلون به ومن شاء الله من خلقه ، وكذا مافى الأرحام من ذكر أو أنثى سعيد أو شقى ، وكذا كسب النفس فى دنياها وأخراها من خير وشر ، وبأى أرض تموت ، قال : وقولنا إذا أمر به علمته ملائكته الخ . مستفاد من قوله «فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول» والولى تابع للرسول يأخذ عنه اه . وقال ابن العربى فى الأحكام : فكل من قال ينزل الغيث غداً فهو كافر بأمارة أولا ، ومن قال يعلم مافى الرحم بلا أمارة فكافر ، فإن كان بأمارة كقوله إن كان الثدى الأيمن مسود الحلمة فهو ذكر ، وإن وجدت الجنب الأيسر أثقل فالولد أنثى ، وادعى ذلك تجربة لا واجباً لم يكفر ولم يفسق ومن ادعى علم الكسب فيما يستقبل فكافر ، وكذا من أخبر فيما يكون قبل كونه اه . وقيل مفاتح الغيب خزائن الأرض ، وقيل وقت نزول العذاب ، وقيل ما غاب من الثواب والعقاب ، وقيل انقضاء الآجال وأحوال العباد من السعادة والشقاوة وخواتيم أعمالهم والله أعلم . ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ ﴾ من الغرائب ﴿ وَالْبَحْرِ ﴾ من العجائب إذ هو الذى أبدعها وأودعها فيهما ، وقيل البر القفار والبحر القرى التى على الأنهار ، وعلى كل فهو عطف للإخبار عن تعلق علمه بالمشاهدات على الإخبار عن اختصاص العلم بالمغيبات ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ قبل سقوطها مبالغة فى إحاطة علمه بالجزئيات ﴿ وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ ﴾ عطف على ورقة بحسب المعنى ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ بدل من إلا يعلمها بدل الكل إن كان المراد بالكتاب علمه تعالى أو بدل الاشتمال إن أريد به اللوح المحفوظ ، وقرئت الثلاثة بالرفع عطفاً على محل من ورقة أو على الابتداء والخبر إلا فى كتاب ، والمعنى يعلم عدد ماسقط من أوراق الشجر ومابقى ، ومابطن فى الأرض من الحبوب قبل النبات وكل رطب ويابس ، أشار بهذه الأشياء إلى تفصيل بعض ما أجمله فى مفاتح الغيب ليدل بها على غيرها

فقدم البر والبحر لكثرة ما فيهما من العجائب والغرائب مما يعجز الوصف عن إدراكه ، ثم ذكر ما هو أقل من ذلك وهو مشاهد لكل أحد كالورقة لكن لا يعلم عددها وكيفية خلقها إلا هو ، ثم ذكر ما هو أصغر منها وهي الحبة ، ثم ذكر ما يعم الجميع وهو الرطب واليابس ولا يخرج شيء من هذه الأشياء عن علمه فسبحان العليم الخبير ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ أي ينيمكم ﴿بِاللَّيْلِ﴾ استعير التوفي من الموت للنوم لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز ، إذ أصل التوفي قبض الشيء بتمامه ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ﴾ كسبتم ﴿بِالنَّهَارِ﴾ خص الليل بالنوم والنهار بالكسب جرياً على الغالب المعتاد ، وقدم التوفي لأنه أغرب وأدل على كمال القدرة ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ في النهار برد أرواحكم بالإيقاظ ، أطلق البعث عليه ترشيحاً للتوفي ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ هو أجل الحياة ، أي ليبلغ المتيقظ آخر أجله المسمى له في الدنيا ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ بعد البعث ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم به وقيل الآية خطاب الكفار فقط لقوله بعد « ثم أنتم تشركون » ، ولذا بسط الكلام الذي أوجزه في مفاتح الغيب ثم ضرب لهم المثل في بعثهم وجزائهم على أعمالهم بتوفيهم بالليل وإلقائهم كالجيف على مضاجعهم ثم بعثهم لكسب الآثام إلى أجل ثم بعثهم بعد الموت ففيها إيضاح الآيات المضروبة للنظر وضرب المثال للبعث ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ الغالب مستعلياً ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ بالتصرف فيهم كيف شاء ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ملائكة تحصي أعمالكم وهم الكرام الكاتبون والحكمة في ذلك أن الإنسان إذا علم أن له رقباء يضبطون حركاته وسكناته ويواجهونه بها على رءوس الأشهاد ينزجر عن القبائح بخلاف ما إذا كان الأمر مفوّضاً على علم مولاه فربما يعتمد على لطفه ولذا ترى أكثر الناس يستحيون من الناس ولا يستحيون من الله ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ﴾ وحمزة توفاه ﴿رُسُلُنَا﴾ ملك الموت وأعوانه قيل هم أربعة عشر سبعة من ملائكة الرحمة يسلم إليهم روح المؤمن ، وسبعة من ملائكة العذاب يسلم إليهم روح الكافر ، والأرض بين يديه كالطست لا يرفع بصره عنها فإذا حان أجل واحد خط عليه خطة فيعلم بذلك ولا يعلمه قبل ذلك إلا علام الغيوب ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ بالتواني والتأخير وقرئ بالتخفيف لا يتجاوزون عن ذلك الوقت ﴿ثُمَّ رُدُّوا﴾ المتوفون ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ إلى حكمه وجزائه ﴿مَوْلَاهُمُ﴾ مالكهم الذي يتولى أمرهم ﴿الْحَقِّ﴾ الثابت العدل ليجازيهم أو المعنى سيدهم على الحقيقة لأن سائر الموالي مجازية ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ القضاء النافذ فيهم لا حكم لغيره فيه صدره بحرف التنبيه إيقاظاً السامع ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ إذ لا يشغله حساب عن حساب ولا يحتاج إلى فكر وروية يحاسب الخلق كلهم في قدر نصف نهار من أيام الدنيا ، لحديث بذلك . أو مقدار حلب شاة ثم وبخ العادلين به الأوثان بقوله : ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ كناية عن شدائدهما وأهوالهما أو ظلمات البر الصواعق في الغيم والليل وظلمات البحر الأمواج في الغيم والليل أو الخسف في البر والغرق في البحر ﴿تَدْعُونَهُ﴾ جملة حالية ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ ، معلنين الضراعة ومسرين تقولون ﴿لَئِنْ﴾ لام قسم ﴿أَنْجَيْتَنَا﴾ وحمزة والكسائي

وعاصم أنجانا أى الله ﴿ مِنْ هَٰذِهِ ﴾ الظلمات والشدائد ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ المؤمنين ﴿ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ ﴾ بالتخفيف للأكثر والتشديد للكوفيين ﴿ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ﴾ غم سواها ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ به لا توحدونه فضلا عن أن تشكروه : قدم الضمير ليفيد التقوى فى الحكم وبرزت الجملة إسمية دالة على الاستمرار للزيادة فى التوبيخ حيث بدلوا بالشكر على تلك النعمة الشرك ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ ﴾ أى الذى عرفتموه قادراً ﴿ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ من السماء بالطوفان والريح والصيحة والحجارة كقوم نوح وهود وصالح ولوط ، وقيل : أو من سلاطينكم وقضاتكم أو من مطركم ﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ من الأرض كالخسف والغرق أو من سفلتكم أو من نباتكم ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ ﴾ يخلطكم ﴿ شِيَعًا ﴾ فرقاً مختلفة الأهواء متحزبين فينشب القتال بينكم ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ بالقتال . قال صلى الله عليه وسلم لما نزلت : «هذا أهون أو أيسر» ولما نزل ماقبله : «أعوذ بوجهك» رواه البخارى ، وروى مسلم حديث : « سألت ربى ألا يجعل بأس أمتى بينهم فمنعنيها » وفى حديث : لما نزلت قال : أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد وهو من علامات القيامة وهو أيام الهرج لكن قد بدت مقدماتها والله أعلم ﴿ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ﴾ نبين لهم ﴿ الْآيَاتِ ﴾ على قدرتنا ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ أن ما هم عليه باطل ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ ﴾ بالقرآن أو العذاب ﴿ قَوْمُكَ ﴾ قريش ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ الصدق أو الواقع لا محالة ﴿ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ بمسلط عليكم حتى أجبركم على التصديق به إنما أنا منذر وأمركم إلى الله ﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ ﴾ خبر ﴿ مُسْتَقَرٌّ ﴾ وقت يقع فيه ويستقر ، ومنه عذابكم ﴿ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك إذا وقع : تهديد لهم ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ بالتكذيب والاستهزاء ، والخوض : المشى فيما لم يحصل حقيقته كالخائض فى الماء الذى لا يدرى باطنه ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ لا تجالسهم ﴿ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ ذكر الضمير لكون الآيات عبارة عن القرآن ﴿ وَإِمَّا ﴾ فيه إدغام نون إن الشرطية فى ما المزيدة ﴿ يُنْسِيَنَّكَ ﴾ بسكون النون والتخفيف للجمهور ، وفتحها والتشديد لابن عامر ﴿ الشَّيْطَانُ ﴾ فقعدت معهم ، والإسناد مجاز لكونه بوسوسته ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ ﴾ تذكره ﴿ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى معهم فوضع الظاهر موضعه دلالة على أنهم ظلموا بوضع التكذيب والاستهزاء موضع التصديق والاستعظام . ولما نزلت قال المسلمون : إن قنا كلما خاضوا لم نستطع أن نجلس فى المسجد وأن نطوف فنزل ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ الله ﴿ مِنْ حِسَابِهِمْ ﴾ الخائضين ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ إذا جالسوهم للضرورة ﴿ وَلَٰكِنْ ﴾ عليهم ﴿ ذِكْرَىٰ ﴾ تذكرة لهم ووعظ وإظهار الكراهة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الخوض وتنفعهم الذكرى ، أو يتركونه حياء من إساءة الإخوان . قال ابن عطية : إباحة الجلوس معهم إنما هى فى القدر الذى يحتاج إليه من التصرف بين المشركين فى عبادة ونحوها . وقيل : إن هذه الآية الأخيرة ليست إباحة بوجه وإنما معناها ليس نهيكم عن القعود لأجل أن عليكم شيئاً من حسابهم وإنما هو ذكرى لكم ، ويحتمل المعنى ذكرى لهم لعلهم إذا جانبتموهم يتقون بالإمساك عن الاستهزاء ، ويحتمل المعنى : ولكن

ذكروهم ذكرى ، وينبغى المؤمن أن يمتثل حكم هذه الآية مع أهل الخصومات . اهـ. ﴿ وَذَرِ ﴾ اترك ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا ﴾ أى جعلوا دينهم ما لا ينفعهم عاجلا وآجلا وهو عبادة الأصنام ، أو اتخذوا دينهم الذى كلفوه سخرية واستهزاء ، أو جعلوا عيدهم الذى جعل ميقات عباداتهم زمان لهو ولعب ، إذ قيل لكل قوم عيد اتخذوه لعباً ولهواً إلا المسلمين فإن عيدهم الصلاة والصدقة والتكبير ، والمعنى : أعرض عنهم لاتبال بأفعالهم وأقوالهم : تهديد لهم ، ومن حمله على الأمر بالكف عنهم جعله منسوخاً بآية السيف وليس بقوىّ ، بل المراد ترك مخالطتهم وموالاتهم لاترك الإنذار والتخويف ، ويدل عليه قوله ﴿وَذَكِّرْ﴾ عظ ﴿ بِهِ ﴾ بالقرآن الناس مخافة﴿أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾ تمنع من الخلاص وتسلم إلى الهلاك وترهن ﴿ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ عملت ، وأصل البسل : التحريم والمنع ومنه شجاع باسل لامتناعه من قرنه ، وهذا عليك بسل أى حرام ممنوع ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى غيره ﴿ وَلِيٌّ ﴾ قريب يلى أمرها ، أو ناصر ينصرها بالقوة ﴿ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ يمنع عنها العذاب بالمسألة ، والجملة صفة نفس أو حال من فاعل كسبت ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ تفد كل فداء ، نصب كل على أنه مفعول مطلق ، وقال أبو عبيدة «وإن تعدل» هو العدل ضد الجور ﴿ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾ ماتفدى به ، وفى غاية الأمانى : الفعل مسند إلى الجار والمجرور ، ولا يجوز إسناده إلى ضمير المصدر ولا يسند إليه وإلى ضميره إلا إذا كان للنوع أو المرة ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ﴾ المتخذون دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا ﴿ أُبْسِلُوا ﴾ أسلموا الهلاك ﴿ بِمَا كَسَبُوا ﴾ بسبب كسبهم تلك الجرائم من العقائد الزائغة والأعمال القبيحة ﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ ماء بالغ نهاية الحرارة وهو استئناف لتفصيل ذلك الإبسال أو حال من ضمير أبسلوا مبين لهيئته ﴿ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ باستمرارهم على الكفر ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا ﴾ نعبد ، أطلق الدعاء على العبادة لأنه أعم منها لأن من جعل شيئاً موضع دعائه فإياه يعبد وعليه يتكل ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا ﴾ بعبادته ﴿وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ بتركها وهو الأصنام ﴿ وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا ﴾ إلى الشرك ﴿ بَعْدَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ إلى الإسلام فنكون ﴿ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ ﴾ ذهبت به وأضلته ، استفعال من هوى يهوى بالكسر إذا ذهب أو سقط من الأعلى إلى الأسفل أو بالفتح استدعت هواه وأمالته ، ومحل الكاف نصب على الحال من ضمير نرد ، أى مشبهين به أو على المصدر أى رداً مثل رد الذى استهوته ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ المهمه ﴿ حَيْرَانَ ﴾ متحيراً ضالا لا يدرى أين يذهب ، حال من الهاء ﴿ لَهُ ﴾ لهذا المستهوى ﴿ أَصْحَابٌ ﴾ رفقة ﴿ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ﴾ أى الطريق المستقيم ليهدوه إليه يقولون له ﴿ ائْتِنَا ﴾ رحمة عليه وتعطفاً وهو لا يجيبهم فهلك والاستفهام للإنكار أى لا نكون كهذا الرجل ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ ﴾ الذى هو الإسلام ﴿هُوَ الْهُدَىٰ ﴾ وما عداه ضلال . قال بعض العلماء : من نازع أحداً فرد عليه بالقرآن والحديث فهو كمن يدعو إلى الهدى . ومن نازع الزائغ بالجدل فهو كمن عدل عن الطريق الواضح فيخاف عليه أن يضل . اهـ . ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ ﴾ أى بأن نسلم﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

من جملة المقول عطف على « إن هدى الله » واللام لتعليل الأمر أو بمعنى الباء أو زائدة ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ ﴾ عطف على لنسلم أى للإسلام ولإقامة الصلاة ﴿ وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ لا إلى غيره فيجازيكم على وفق أعمالكم ، وقول من قال إن الآية المتقدمة نزلت فى أبى بكر لما أمره ابنه عبدالرحمن بالرجوع إلى الأوثان ضعيف ، ولذا لم نذكر قصته ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ قائماً ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أو خلقاً ملتبساً بالحق لا بالباطل واللعب ، بل ليتدبروا فى شأنهما ويستدلوا بذلك على كمال قدرة مبدعهما وعلى وحدانيته وتفرده بالألوهية ، وقيل : الباء بمعنى اللام ، أى لإظهار الحق ﴿ وَ ﴾ اذكر الخلق أو الإعادة ﴿ يَوْمَ ﴾ أى حين ﴿ يَقُولُ ﴾ لشىء من الأشياء ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أو المراد باليوم يوم القيامة يقول للخلق قوموا فيقوموا ﴿ قَوْلُهُ الْحَقُّ ﴾ الصدق الواقع لامحالة ، ويحتمل أن الظرف خبر مقدم و« قوله » مبتدأ مؤخر ، والحق صفته ، مثل قولك : القتال يوم الجمعة ، والجملة اسمية ، والمعنى قوله كائن حين يقول لكل شىء من الأشياء « كن فيكون » فهو برهان لخلق السموات والأرض بالحق لدخول كينونتهما تحت هذا العموم ، وقيل يوم منصوب بالعطف على السموات أو على الهاء فى « واتقوه » . وفى مدارك التنزيل المعنى أنه خلق السموات والأرض بالحق والحكمة ، وحين يقول لشىء من الأشياء كن فيكون قوله الحق والحكمة ، أى لا يكوّن شيئاً من السموات والأرض وسائر المكونات إلا عن حكمة . اهـ . ﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ ﴾ مبتدأ وخبر ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ ﴾ ظرف له أى لاملك فى ذلك اليوم لاحقيقة ولا مجازاً إلا له تعالى . والصور قرن فيه أرواح الخلائق فإذا كان وقت البعث نفخ فيه إسرافيل فطار كل روح إلى جسده ، وهى النفخة الثانية ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ رفع على المدح خبر مبتدإ محذوف ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ فى صنعه فى الإفناء والإحياء ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ بباطن الأشياء كالحساب والجزاء ، كالفذلكة للآية . ولما كان المشركون يعبدون الأصنام ومع ذلك يزعمون أنهم على ملة إبراهيم الذى هو أول من كسر الأصنام ، كذبهم بقوله ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾ هو لقبه واسمه تارح ـ بحاء مهملة ـ ابن ناحور بن شاروخ بن عابر بن فالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح . وقيل آزر وتارح علمان له . وفى لباب التأويل : إن الصحيح أن آزر اسم لأبى إبراهيم لأن الله تعالى سماه به وما نقل عن النسابين والمؤرخين أن اسمه تارح ، ففيه نظر ، لأنهم إنما نقلوه من أصحاب الأخبار وأهل السير من أهل الكتاب ، ولا عبرة بنقلهم . وقد أخرج البخارى عن النبى « يلقى إبراهيم أباه آزر ـ الحديث » فسماه آزر أيضا ، ولم يقل تارح ، فثبت أن اسمه آزر لا تارح والله أعلم . ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾ تعبدها ؟ استفهام توبيخ ، وأتى بصيغة الجمع مبالغة فى تجهيله حيث لم يرض بإله واحد آخر من دون الله ﴿ إِنِّى أَرَاكَ ﴾ رؤية قلب وبصر ﴿ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَالٍ ﴾ عن الحق ﴿ مُبِينٍ ﴾ بيّن ، لأن ما لا يسمع ولا يبصر بينه وبين الألوهية بون بعيد ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ كما أريناه إضلال أبيه وقومه ﴿ نُرِى إِبْرَاهِيمَ ﴾ يبصره وبصيرته ﴿ مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ لطائفها وبدائعها

والملكوت أعظم الملك إذ التاء فيه للمبالغة ، ليستدل بها على وحدانيتنا ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ بها حساً وعلماً ، وقولى فى «نرى» ببصره وبصيرته رعاية للقولين فى ذلك . روى أنه أقيم على صخرة فكشف له عن السموات حتى رأى العرش والكرسى وما فى السموات من العجائب حتى رأى مكانه فى الجنة وكشف له عن الأرض حتى نظر إلى أسفل الأرضين ورأى ما فيها من العجائب . وقال قتادة : ملكوت السموات الشمس والقمر والنجوم ، وملكوت الأرض : الجبال والشجر والبحار . وقيل الرؤية كانت بعين البصيرة لأن الملكوت عظيم الملك ، وذلك لا يعرف إلا بالعقل والله أعلم . وجملة «وكذلك» وما بعدها اعتراض وعطف على قال ﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾ أظلم ﴿عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أو « هذا » تفصيل لرؤيته الملكوت ﴿رَأَى كَوْكَبًا﴾ قيل هو الزهرة أو المشترى ﴿قَالَ﴾ لقومه ، وكانوا نجامين يعبدون الأصنام والكواكب ، فأراد أن يوقظهم من غفلتهم ويرشدهم إلى طريق الاستدلال ويعرفهم أن النظر الصحيح يأبى أن يكون شيء منها إلهاً لظهور أمارة الحدوث منها ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ على زعمكم ، لأن المستدل على فساد قول يحكيه على ما يقوله الخصم ثم يكر عليه بالإفساد ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ غاب ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ ويلزم من عدم المحبة عدم العبادة بالأولى ، لأن الرب لا يجوز عليه التغير والانتقال لأنهما من شأن الحوادث ، فلم ينجع فيهم ذلك ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا﴾ طالعاً ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ على زعمكم ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ يثبتنى على الهدى ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ تعريض لقومه بأنهم على ضلال ، وتنبيه على استعجاز النفس والاستعانة بالرب فى درك الحق ، فإنه لا يهتدى إليه إلا بتوفيقه ، وأن القمر لتغير حاله لا يصلح للألوهية ، فمن عبده فهو ضال ، فلم ينجع فيهم ذلك ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا﴾ ذكره لتذكير خبره وصيانة الرب عن التأنيث ﴿رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ﴾ من القمر والكواكب ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ وقويت عليهم الحجة ولم يرجعوا ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ بالله من الأصنام والأجرام المحدثة المحتاجة إلى محدث ، واستدل بالأفول دون البزوغ مع أن كلا منهما أمارة للحدوث ، لأن الأول أظهر فى الدلالة عليه . وإذا كانت الكواكب النيرات الرفيعة لا تصلح للربوبية ، فالأصنام التى نحتوها من الخشب والأحجار أحرى . ولما أبطل شبهة قومه وأدى ما عليه من النصح على التدريج ، وصرح بالبراءة من شركائهم بين لهم من استحق الألوهية والربوبية بقوله ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ قصدت بعبادتى وأخلصتها ﴿لِلَّذِي فَطَرَ﴾ خلق ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الله ﴿حَنِيفًا﴾ مائلا إلى الدين القيم ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ به ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ خاصموه فى التوحيد وهددوه بالأصنام أن تصيبه بسوء إن تركها ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ﴾ فى وحدانيته بتخفيف النون لنافع وابن عامر بحذف نون الرفع وبتشديدها لغيرهما ﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾ إليها ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ من الأصنام أن تصيبنى بسوء لعدم قدرتها على شيء ﴿إِلَّا﴾ لكن ﴿أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ من المكروه يصيبنى فيكون ، أى إلا وقت مشيئة الله ذلك فحينئذ أخافه وإنما قال

إبراهيم ذلك لاحتمال أنه قد يصيبه شيء من الله فينسبونه إلى الأصنام ، ففي تلك الشبهة بأنه لو رأيتم شيئاً حصل فيّ فهو من ربي ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ وسع علمه كل شيء كأنه علة الاستثناء فلا يبعد أن يكون في علمه إصابة المكروه بي من جهتها ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أنها لاتقدر على شيء لأنها جماد فتميزوا بين القادر والعاجز ، توقيف وتنبيه وإظهار لهم لموضع التقصير منهم ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ﴾ بالله من الجماد الذي لا يضر ولا ينفع استبعاد ﴿ وَلَا تَخَافُونَ ﴾ أنتم من الله ﴿ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ في العبادة ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ ﴾ بعبادته ﴿ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً ﴾ حجة النقل ولابرهان العقل أي أتنكرون عليّ الأمن في موضع الأمن ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ﴾ أنحن أم أنتم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ من الأحق به وهو نحن فاتبعوه ولم يقل أينا أنا وأنتم احترازاً من تزكية نفسه وهذا النوع يسمى الإنصاف ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ﴾ يخلطوا ﴿ إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ أي بشرك كما فسر بذلك في حديث الصحيحين ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ ﴾ من العذاب جواب لقوله فأي الفريقين أحق بالأمن من إبراهيم أو من الله تعالى وهو عام في إبراهيم وغيره من كل مؤمن وبذلك يتبين ارتباط الكلام بما قبله ﴿ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ إلى سبيل الرشاد ﴿ وَتِلْكَ ﴾ الحجة التي احتج بها إبراهيم على وحدانية الله من أفول الكواكب وما بعده مبتدأ والخبر ﴿ حُجَّتُنَا ﴾ أي إنما علمه بهدايتنا لأنه استعان بنا حيث قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين أو بدل من تلك والخبر ﴿ آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ أرشدناه لها ﴿ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ متعلق بحجتنا على الوجهين ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾ بالإضافة للجمهور والتنوين للكوفيين أي بالعلم والمعارف والحكم وعلى التنوين فنصب درجات على المصدر أو التمييز والدرجات أصلها في الأجسام ثم استعمل في المراتب المعنوية أي كما رفعنا درجات إبراهيم بالعمل وغيره على قومه . قال ابن العربي في الأحكام : قال مالك ليس العلم بكثرة الروايات وإنما هو نور يضعه الله في قلب من يشاء . وقال ابن مسعود إنما هو خشية الله ، وروى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : « همة السفهاء الرواية وهمة العلماء الدراية » وقال مالك لابني أخته أبي بكر وإسماعيل : إن أحببتما أن ينفعكما الله بهذا الشأن فأقلا منه وتفقها فيه اهـ . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ في صنعه ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمن يستحق الرفع والوضع ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ ﴾ عطف على آتينا ﴿ إِسْحَاقَ ﴾ ولداً من صلبه ﴿ وَيَعْقُوبَ ﴾ ابن إسحق نافلة فإن الذرية الصالحة من النعم الجزيلة ﴿ كُلًّا ﴾ منهما مفعول ﴿ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل إبراهيم عده نعمة على إبراهيم . لأن شرف الآباء يسري إلى الأبناء ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ ﴾ الضمير لنوح لقربه ولأن لوطاً ويونس ليسا من ذرية إبراهيم وقيل الضمير لإبراهيم والمذكورون من ذريته تغليباً ، قال في غاية الأماني : ولعل هذا هو الراجح لأن سوق الكلام له فإنه لما قرر حجة التوحيد وذب عنها أكرمه الله برفع الدرجات وجعل مشاهير الأنبياء من ذريته ﴿ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ ابنه ﴿ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ ﴾ بن يعقوب ﴿ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ ﴾ كما جزيناه ﴿ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ جزاء مثل ما جزينا إبراهيم من الكرامات

برفع الدرجات وكثرة الأولاد الصلحاء والنبوة فيهم ﴿وَزَكَرِيَّاءَ وَيَحْيَىٰ﴾ ابنه ﴿وَعِيسَىٰ﴾ ابن مريم يفيد أن الذرية تتناول أولاد البنت ﴿وَإِلْيَاسَ﴾ ابن أخي هرون أخي موسى ، وفي البيضاوى من أسباط هرون أخي موسى ﴿كُلٌّ﴾ منهم ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ الكاملين في الصلاح وهو الإتيان بما ينبغي وترك مالا ينبغي ﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ ابن إبراهيم ﴿وَالْيَسَعَ﴾ اللام زائدة وقرأ حمزة والكسائي والليسع بتشديد اللام وسكون الياء على أنه أعجمي دخلته اللام ﴿وَيُونُسَ﴾ بن متى ﴿وَلُوطًا﴾ هو ابن هاران أخي إبراهيم ﴿وَكُلًّا﴾ منهم ﴿فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بالنبوة وفيه دليل على فضلهم على من عداهم من الخلق إذ يدخل الملائكة في العالمين ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ عطف على كلا أو نوحاً ومن للتبعيض لان بعضهم لم يكن له ولد وبعضهم كان في ولده كافر ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ عطف على فضلنا أوهدينا ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تكرير لبيان ما هدوا إليه ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذى هدوا إليه ﴿هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ دليل على أنه متفضل بالهداية ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ فرضاً مع فضلهم وعلو شأنهم ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كما يحبط عمل غيرهم لان الله غني عن العالمين وآثر «لو» للدلالة على استحالة وقوع الشرط لعلم الله بعدمه ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ بمعنى الكتب ﴿وَالْحُكْمَ﴾ الحكمة أو فصل الامر على ما يقتضيه الحق ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ ذكرها بعد إيتاء الكتاب دفعاً للتجوز فإن الكتاب يضاف إلى الأمة نحو لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا﴾ بهذه الثلاثة ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ أى أهل مكة ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ أرصدنا لها ﴿قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ هم الأنبياء المذكورون أو أصحاب الرسول عليه السلام أو الانصار أو الفرس أو كل من آمن بها ومعنى التوكيل القيام بحقوقها ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الانبياء هم ﴿الَّذِينَ هَدَى﴾ هم ﴿اللَّهُ﴾ للكمالات البشرية الدينية والدنيوية ﴿فَبِهُدَاهُمُ﴾ أى طريقهم من التوحيد والكمالات ﴿اقْتَدِهْ﴾ لابغيرها بهاء السكت وقفاً ووصلا للجمهور وبحذفها وصلا لحمزة والكسائي وبكسرها وإشباعها لابن عامر في رواية ابن ذكوان على أنها ضمير المصدر وبغير إشباع في رواية هشام واستدل به على أن نبينا متعبد بشرع من قبله في كل ما لم ينسخ ﴿قُل﴾ لاهل مكة ﴿لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على التبليغ للقرآن ﴿أَجْرًا﴾ جعلا تعطونيه حتى تتهموني وفيه دليل على أن أخذ الأجر على تبليغ الدين ان وجب عليه ذلك لا يجوز كما لم يجز لأحد من الأنبياء ﴿إِنْ هُوَ﴾ أى هذا التبليغ أو القرآن المشتمل عليه ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ عظة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ لجميع من يعقل من الثقلين ولما ذكر الأنبياء واتفاقهم على الهدى جهّل من أنكر الرسالة فقال ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أى ما عظموه حق عظمته من قدره كضربه أو ما عرفوه حق معرفته من قدره كقتله عرف مقداره ﴿إِذْ قَالُوا﴾ للنبي وقد خاصموه وقال مالك بن الصيف حبرهم : ألم تر في التوراة : إن الله لايحب عالما سميناً . فقال رأيت ذلك وكان سميناً . فقال له النبي : أنت ذلك العالم . فضحك القوم فغضب وقال : ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ فعتبه قومه قالوا له ولا على موسى . فقال : أغضبني محمد . وقيل نزلت

فى فنحاص بن عازوراء حين قالت اليهود يا محمد : أنزل الله عليك كتاباً . فقال نعم . فقال فنحاص : والله ما أنزل الله من السماء كتاباً قط . (قُلْ) لهم ﴿ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ ﴾ بالتاء للجمهور والياء لابن كثير وأبى عمرو فى المواضع الثلاثة ﴿قَرَاطِيسَ﴾ أى أوراقاً متفرقة تكتبونه فى دفاتر مقطعة لتتمكنوا من إبداء ما أردتم وإخفاء ما أردتم ﴿ تُبْدُونَهَا ﴾ ما تحبون إبداءه منها ﴿ وَتُخْفُونَ كَثِيراً ﴾ مما فيها كنعت محمد إلزام لليهود بما لا يقدرون على إنكاره مدرجاً فيه نهاية الذم فى جعل الكلام المنزل على موسى جملة على حسب أغراضهم فى أوراق متفرقة ﴿ وَعُلِّمْتُمْ ﴾ أيها اليهود فى القرآن ﴿ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ﴾ من التوراة بيانا لما التبس عليكم واختلفتم فيه وغير ذلك من المعارف والحكم ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ أنزله إن لم يقولوه لا جواب غيره وفيه تنبيه على أنهم بهتوا بحيث لا يقدرون على مخالفة هذا الجواب ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ ﴾ لا تتبعهم فيه ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾ تهديد ووعيد فلا نسخ فيه بآية السيف على الأصح ولما أمره بالجواب فى الرد عليهم بإنزال التوراة أجاب فى إنزال القرآن بنفسه مسنداً له إلى ضمير الجمع الدال على عظم المنزل إجلالا للقرآن بقوله ﴿ وَهَذَا ﴾ القرآن ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ كثير الفائدة والنفع ﴿مُصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ قبله من الكتب ﴿ وَلِتُنْذِرَ ﴾ بالخطاب للجمهور والغيبة لأبى بكر عن عاصم عطف على معنى ما قبله أى أنزلناه للبركة والتصديق والإنذار ﴿ أُمَّ الْقُرَى ﴾ مكة لأنها قبلة سائر القرى ، وهى مكان أول بيت وضع للناس ، ولأن الأرض دحيت من تحتها ، ولأن الناس يرجعون إليها فى المواسم ، ولعظم شأنها بأن فيها بيت الله ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أهل الشرق والغرب من جميع الجوانب إلى انقطاع الأرض ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالقرآن ، وفيه تعريض لليهود بأنهم لم يؤمنوا بالآخرة إيماناً معتبراً ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ خصها لأنها عماد الدين وعلم الإيمان فمن حافظ عليها لا يخل بغيرها فى الأغلب لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ومن ضيعها فهو لغيرها أضيع ﴿وَمَنْ﴾ أى لا أحد ﴿ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ كمالك بن الصيف فى قوله : ما أنزل الله على بشر من شىء وكسيلمة والأسود العنسى فى ادعاء النبوة ولم ينبأ ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ كعبدالله بن سعد بن أبى سرح وكان يكتب للنبى فنزل أول « قد أفلح » فسمعه إلى قوله « خلقاً آخر » فقال « فتبارك الله أحسن الخالقين » فقال له النبى صلى الله عليه وسلم اكتبها فكذلك نزلت فشك وقال: لئن كان محمد صادقاً : لقد أوحى إلى كما أوحى إليه فارتد ثم رجع إلى الإسلام وأكثر بلاد المغرب فتحت على يديه فى زمان عثمان ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ كالمستهزئين القائلين لو نشاء لقلنا مثل هذا وفى الجواهر الحسان هذه ألفاظ عامة فكل من واقع شيئاً مما يدخل تحت هذه الألفاظ فهو داخل فى الظلم الذى قد عظمه الله عز وجل اه . وفى لباب التأويل : قال العلماء دخل فى حكم هذه الآية كل من افترى على الله كذباً فى ذلك الزمان وبعده ، لأنه لا يمنع خصوص السبب عموم الحكم اه . ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يا محمد ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ ﴾ المذكورون أو جنسهم

خذف مفعول ترى لدلالة الظارف عليه أى ولو ترى الظالمين ﴿ فِي غَمَرَاتِ ﴾ سكرات ﴿ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ ﴾ إليهم بالضرب والتعذيب يقولون لهم تعنيفاً وتشديداً فى الإزهاق ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ﴾ إلينا لنقبضها أى أخرجوها كرهاً من أجسادكم ، لان المؤمن يحب لقاء الله بخلاف الكافر ، وقيل معناه خلصوا أنفسكم من هذا العذاب إن قدرتم على ذلك فيكون هذا القول توبيخاً لهم ﴿ الْيَوْمَ ﴾ أى وقت الإماتة ﴿ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ إلى ما لا يتناهى ، أى العذاب المتضمن للشدة والإهانة وإضافته إلى الهون لعراقته وتمكنه فيه ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ بادعاء النبوة والإيحاء كذباً ﴿ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ وجواب لو لرأيت أمراً فظيعاً أى شديد القبح ، ويقال لهم إذا بعثوا ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ للحساب والجزاء ﴿ فُرَادَى ﴾ جمع فريد أى منفردين عن الأموال والأولاد والأهل وسائر ما آثرتموه من الدنيا أو عن الأعوان والأوثان التى زعمتم أنها شفعاؤكم وما قدمنا من أن فرادى جمع فريد كأسير وأسارى هو ما فى مدارك التنزيل ، وفى أنوار التنزيل جمع فرد ، والألف للتأنيث ككسالى وكسلى ، وفى غاية الأمانى جمع فرد على خلاف القياس ، كأنه لما كان بمعنى الفردان على وزن السكران جمع جمعه . قلت وفى الإتقان عن الأخفش جمع أفراد . جمع فرد اه . وفى القاموس شىء فارد وفَرَد وفرِد كجبل وكتف وكندس وعنق وسحبان وحليم وقنو أى منفرد ، وقال قبل ذلك الفرد نصف الزوج والمتحد والجمع فرادومن لانظير له والجمع أفراد وفرادى اه . ﴿ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى حفاة عراة غرلا وهو بدل من فرادى أى على الهيئة التى ولدتم عليها فى الانفراد أو حال ثانية إن جوز التعدد فيها أو حال من الضمير فى فرادى أى مشبهين ابتداء خلقكم ، أو صفة مصدر جئتمونا أى مجيئاً كخلقنا لكم أول مرة ﴿ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ ﴾ أعطيناكم من الأموال فاشتغلتم به عن الآخرة ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ فى الدنيا بغير اختياركم ولم تقدموا منه شيئاً ليوم تشتد فيه الحاجة . قال فى الجواهر : واعلم يا أخى أن هذه الآية الكريمة ونحوها وإن كان مساقها فى الكفار فللمؤمن فيها معتبر ومزدجر ﴿ وَ ﴾ يقال لهم توبيخاً ﴿ مَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ ﴾ الأصنام ﴿ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ ﴾ أى فى استحقاق عبادتكم ﴿ شُرَكَاءُ ﴾ لله ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ ﴾ ما ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ بالنصب لنافع والكسائى وحفص عن عاصم أى تقطع الاتصال بينكم ، وبالرفع للباقين أى تقطع وصلكم وتشتت جمعكم ﴿ وَضَلَّ ﴾ ذهب ﴿ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ فى الدنيا من شفاعتها ، ثم برهن على التوحيد بعد إبطال الإشراك بقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ ﴾ خالقه أو شاقه عن النبات ﴿ وَالنَّوَى ﴾ عن النخل ، وفاعل هذا لكم هو المستحق لعبادتكم دون غيره ، وقيل المراد الشق الذى فى النواة والحنطة والأول أوجه ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ ﴾ ما ينمو من الحيوان والنبات ليطابق ما قبله ﴿ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ ما لا ينمو كالنطف والحب ، أو المؤمن من الكافر أو العالم من الجاهل ، وهذا أبعد معنى ثم الأول أوفق للمقام ﴿ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ ﴾ كالنطفة والبيضة والحب اليابس والنوى اليابس ﴿ مِنَ الْحَيِّ ﴾ من الحيوان والنبات

ذكره بلفظ الاسم حملا على فالق الحب ، فإن قوله « يخرج الحي » واقع موقع البيان له ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ الفالق المخرج ﴿ اللَّهُ ﴾ المستحق للعبادة ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف تصرفون عن الإيمان مع قيام البرهان ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ﴾ خالقه ومظهره مصدر بمعنى الصبح ، أو شاق عموده ، وهو أول ما يبدو من النهار عن ظلمة الليل ، أو عن بياض النهار ، أو شاق ظلمة الإصباح وهو الغبش الذي يليه قاله البيضاوي . وفي لباب التأويل : فإن قلت ظاهر الآية يدل على أنه تعالى فلق الصبح ، والظلمة هي التي تفلق بالصبح فما معنى ذلك؟ قلت : ذكر العلماء فيه وجوهاً : الأول أن يكون المراد فالق ظلمة الصبح الأول وهو الفجر الكاذب لأنه يضمحل بنور الصبح الثاني ، الوجه الثاني أنه تعالى كما شق ظلمة الليل بنور الصباح فكذلك يشق نور الصبح بضياء النهار ، الثالث ظلمة الصباح وهي الغبش الذي يليه ، الرابع فالق الإصباح الذي هو عمود الفجر ، الخامس الفلق بمعنى الخلق أي خالق الإصباح ، وعلى هذا القول يزول الإشكال . اه . قلت : أنكر الطبري فلق بمعنى خلق وقال لا يعرف في كلام العرب فلق الله الشيء بمعنى خلق ، لكن نقل الأزهري عن الزجاج سماعه ويؤيده ما في القاموس فالق الحب خالقه أو شاقه . والله أعلم ﴿ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ﴾ يسكن إليه ويطمأن للاستراحة ، ولذا سميت المرأة سكناً ، أو يسكن فيه ، كقوله « لتسكنوا فيه » وانتصابه بفعل دل عليه « جاعل » لأنه في معنى الماضي فلا يعمل ويدل عليه قراءة الكوفيين . وجعل الليل حملا على معنى المعطوف عليه أو بجاعل على أن المراد منه جعل مستمر في جميع الأزمنة ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ بالنصب عطفاً على محل الليل ﴿ حُسْبَانًا ﴾ مصدر حسب كنصر ، أو جمع حساب كشهبان وشهاب ، أي حساباً للأوقات ، أو الباء محذوفة وهو حال مقدر ، أي يجريان بحساب ، أي عدد الأيام والشهور والسنين . وقال مجاهد كما في صحيح البخاري بحسبان كحسبان الرحا وهو الدولاب ، أي العود الذي عليه دورانه ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من الفلق والجعل ﴿ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ ﴾ القهار الذي سخر الأشياء على ما أراد ﴿ الْعَلِيمِ ﴾ الكامل العلم أناط بكل شيء سخره ما يليق من المصالح ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ ﴾ خلقها لكم ﴿ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ في الأسفار ، أي في ظلمات الليل ، وأضافها للبر والبحر للملابسة ، أو في مشتبهات طرقها ، وسماها ظلمات على الاستعارة ، وهو من أفراد منافعها التي أجملت في قوله « لكم » واللام الأولى للتخصيص والثانية للعلة ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ﴾ بينا ﴿ الْآيَاتِ ﴾ على الوحدانية فصلا فصلا ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ يتدبرون لأنهم الذين يفهمون الدلائل ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ آدم ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ أي لكم استقرار في أصلاب الآباء ، أو فوق الأرض أو مكانه ، واستيداع في الأرحام ، أو تحت الأرض أو مكانه ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر القاف ، أي فنكم مستقِرٌّ أي قارٌّ ومنكم مستودع على أن الأول اسم فاعل والثاني اسم مفعول لأن الاستقرار منا دون الاستيداع ، هذا ما في أنوار التنزيل وغاية الأماني ، أو مستقر في الرحم ومستودع في الصلب كما للسيوطي في التكملة ، وهذا هو قول الجمهور كما في الجواهر وهو أكثر الروايات

عن ابن عباس وقرأ فى ذلك « ونقر فى الأرحام مانشاء » ومما يدل على ذلك ـ كما فى الجواهر : أن النطفة لا تبقى فى صلب الأب زماناً طويلا ، والجنين يبقى فى رحم الأم زماناً طويلا ، لحملُ الاستقرار على المكث فى الرحم أولى . وقال ابن عطية : والذى يقتضيه النظر أن ابن آدم مستودع فى ظهر أبيه وليس بمستقر فيه استقراراً مطلقاً لأنه ينتقل إلى الرحم ثم إلى الدنيا ثم إلى القبر ثم إلى المحشر ثم إلى الجنة أو النار فيستقر فى أحدهما استقراراً مطلقاً وليس فيها مستودعا لأنه لا نقلة له بعد ، وهو فى كل رتبة متوسطة بين هذين الطرفين مستقر بالاضافة إلى التى قبلها ومستودع بالإضافة إلى التى بعدها لأن لفظ الوديعة يقتضى نقله .اه . وقال الخازن فى لباب التأويل : والفرق بين المستقر والمستودع أن المستقر أقرب إلى الثبات من المستودع ، لأن المستقر من القرار ، والمستودع معرّض لأن يرد ولهذا اختلفت عبارات المفسرين فى معنى هذين اللفظين . اه . ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ مايقال ، لهم ذكر مع النجوم «يعلمون» لأن أمرها ظاهر ، وذكر مع خلق بنى آدم «يفقهون» لأن إنشاءهم من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة دقيق يحتاج إلى استعمال فطنة ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ بالماء ﴿ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ من أصناف ما ينبت فالسبب واحد والمسببات مختلفة ، وهو من دليل كمال علمه وقدرته وتفرده بالإيجاد ، ولهذا أسنده إلى ضمير المتكلم ملتفتاً إليه من أسلوب الغيبة ، وقيل المراد بالنبات غذاء كل شىء من الأنعام والطير والوحش وبنى آدم إذ ينبتون به وينمون ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ ﴾ من النبات أو الماء شيئاً ﴿ خَضِرًا ﴾ غضا طرياً مع يبس الحبة المخرج منها ، والخضر والأخضر بمعنى وهو جميع الزروع والبقول الرطبة ، أو الخضر بمعنى الغض النضير والأخضر حقيقته فى اللون وفى النضارة مجاز ﴿ نُخْرِجُ مِنْهُ ﴾ من الخضر ﴿ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾ بعضه فوق بعض كما يشاهد فى سنابل الحنطة ونحوها ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ ﴾ خبر ويبدل منه ﴿ مِنْ طَلْعِهَا ﴾ أول مايخرج منها والمبتدأ ﴿ قِنْوَانٌ ﴾ أعذاق جمع قنو ، وهو من النخيل بمنزلة العنقود من الكرم ويسمى العذق والعرجون عوده الذى فيه ينتظم التمر ، ويحتمل أن يكون التقدير وأخرجنا من النخل نخلا من طلعها قنوان ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ قريبة من المتناول ، ومن النخل ما يثمر وهو قصير القامة حتى يكون أعذاقه على الأرض أو ملتفة قريب بعضها من بعض ، واقتصر على ذكر الدنو لدلالتها على المقابل وزيادة النعمة فيها بالقرب ﴿ وَ ﴾ أخرجنا به ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ بساتين ﴿ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ عطف على نبات كل شىء وقرئ بالرفع على الابتداء أى ولكم جنات لا على العطف على قنوان ، إذ العنب لايخرج من النخل ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ ﴾ عطف على نبات أيضاً أو حباً ، والأحسن النصب على الاختصاص لكونها أشرف الثمار ﴿ مُشْتَبِهًا ﴾ ورقهما ﴿ وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ ثمرهما ، حال منهما أو من الجميع ، أى بعض الثمار متشابه وبعضه غير متشابه فى الهيئة والقدر واللون والطعم ، يقال اشتبه وتشابه بمعنى . قال فى لباب التأويل : ذكر فى هذه الآية أربعة أنواع من الشجر بعد ذكر الزرع ، وقدم الزرع إذ هو غذاء ، وثمار الأشجار فواكه غالباً ، وقدم فى الأشجار

النخلة لأن ثمرها يجرى مجرى الغذاء ، وفيها من المنافع والخواص ماليس فى غيرها من الأشجار ، وعقب العنب لأنه من أشرف أنواع الفواكه ، ثم الزيتون لما فيه من البركة والمنافع الكثيرة ، ثم الرمان لما فيه من المنافع لأنه فاكهة ودواء ثم قال تعالى ﴿ انْظُرُوا ﴾ يا مخاطبين نظر اعتبار واستدلال ﴿ إِلَىٰ ثَمَرِهِ ﴾ بفتح الثاء والميم للجمهور وبضمهما لحمزة والكسائى ﴿ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ أول ما يبدو كيف يخرج من الشجر كثيفا يابسا رطباً لطيفاً لا لون له ولا طعم ضئيلا لا يكاد ينتفع به ﴿وَ﴾ إلى ﴿ يَنْعِهِ ﴾ نضجه إذا أدرك كيف يعود ضخما ذا لون وطعم ، مصدر مضاف إلى الفاعل أو جمع كتجر وتاجر ، ويعلم نضج بعضه باحمرار واصفرار وعليه يقف جواز بيعه ، وبه يطيب أكله وتبين عنه العاهة قاله فى الأحكام ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ ﴾ على قدرته تعالى على البعث وغيره ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ خصوا بالذكر لأنهم المنتفعون بها بخلاف الكافرين ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾ الملائكة لاجتنانهم ، أو الشياطين حيث أطاعوهم فى عبادة الأوثان ، أو فى قولهم : الله خالق الخير وكل نافع ، والشيطان خالق الشر وكل ضار ، كما هو رأى الثنوية . قال ابن عطية وغيره : الجن هو المفعول الأول لـ « جعل » و « شركاء » الثانى و « لله » متعلق بشركاء أو حال منه ، وجوّز بعضهم أن يكون الجن بدلا من شركاء ، ولله فى موضع المفعول الثانى وشركاء الأول ، ورده أبو حيان بأن البدل حينئذ لا يصح أن يحل محل المبدل منه ، إذ لو قلت : وجعلوا لله الجن لم يصح ، وشرط البدل أن يكون على نية تكرار العامل على الأشهر . قال الصفاقسى : وفيه نظر . وقال عبد الرحمن الثعالبى : وما قاله أبو حيان عندى ظاهر ، وفى نظر الصفاقسى نظر . اهـ . قلت قد بين وجه النظر صاحب غاية الأمانى بقوله : لا يشترط استقامة المعنى بذلك لأن المبدل منه ليس فى حكم التنحية من كل وجه اهـ . ﴿وَ﴾ قد ﴿خَلَقَهُمْ﴾ فكيف يكونون شركاءه ﴿وَخَرَقُوا﴾ بالتشديد لنافع والتخفيف لغيره ، اختلقوا وافتروا ﴿لَهُ بَنِينَ﴾ بقول اليهود عزير ابن الله ، والنصارى المسيح ابن الله ﴿ وَبَنَاتٍ ﴾ بقول مشركى العرب الملائكة بنات الله ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ بلا دليل حال من الواو أو المصدر ، أى خرقاً بغير علم ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيها له ﴿ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ بأن له شريكا أو ولداً ، هو ﴿ بَدِيعُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها أو إلى الظرف ، وهو تقرير لتعاليه عن تلك الصفات بإثبات ما يضادها ، هو أن السموات والأرض التى هى من مخلوقاته بديعة أى معدومة النظير فكيف يكون له ولد ، أو أنه عديم النظير فيهما ، وقيل معناه المبدع ، وقد سبق الكلام فيه فى البقرة ، ورفعه على الخبر والمبتدأ محذوف ، أو على الابتداء وخبره ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾ من أين أو كيف يكون له ولد استبعاد لذلك ﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ﴾ زوجة يكون منها الولد وهم يعترفون بذلك ، وهذا توبيخ وتجهيل لمن أثبت له الولد مع اعترافه بأن لا صاحبة له ﴿ وَخَلَقَ

كُلَّ شَيْءٍ ﴾ والولد شيء لا محالة ، وما كان مخلوقا له لا يكون ولدا لأنه ملك وهو ينافي البنوة ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي كما تفرد بخلق الأشياء فكذلك تفرد بالعلم الكامل الشامل ؛ فانسدت أوجه الاحتياج إلى الولد ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ الموصوف بهذه الصفات للألوهية ﴿ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أخبار مترادفة ، ويجوز أن يكون البعض بدلا أو صفة والبعض خبراً ، وأعاد وصف الخالقية لأنه أجلى البراهين ، ولذلك يردده كثيراً في القرآن الكريم ﴿ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ وحدوه بالعبادة ، وهو مسبب عن تلك الصفات وإن كان مستحقاً ذلك لذاته ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ حفيظ ، حال من المفعول توكيد للأمر بالعبادة ، أي وهو مع تلك الصفات موصوف بكونه موكولا إليه جميع الأمور يتولاها فكلوها إليه وتوسلوا بعبادته ، وحفيظاً لأعمالكم يجازيكم عليها ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أي لا تحيط به ، هذا تفسير الجمهور ، أو لا تراه ، وذلك مخصوص برؤية المؤمنين له في الآخرة لقوله تعالى «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة» وحديث الشيخين «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر» والأبصار : جمع بصر وهو النور المودع في الجارحة الذي به رؤية الأشياء ، ويطلق على الجارحة لأنها محله . والأول المراد لقوله ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ يحيط علمه بها لأن تفرده إنما هو في إدراك البصر لا الجارحة ﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ﴾ الرفيق لأوليائه ، من لطف كنصر ﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾ بهم ، وقيل من باب اللف ، أي لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف ، من لطف ككرم : دق ، وهو يدركها لأنه الخبير ، فيكون اللطيف مستعار من مقابل الكثيف لما لا يدرك بالحاسة ولا ينطبع فيها ، قل لهم يا محمد ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ جمع بصيرة وهي للقلب كالبصر للعين ، والمراد الدلائل القاطعة جعلها بصائر دلالة على غاية جلائها ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ ﴾ها بقلبه فآمن ﴿ فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ أبصر لأن ثواب إبصاره له ﴿ وَمَنْ عَمِيَ ﴾ قلبه عن إدراكها ﴿ فَعَلَيْهَا ﴾ وبال ضلاله ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ لأعمالكم ، إنما أنا نذير والله هو الحفيظ عليكم يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها ، أو المراد لا أقدر أن أدفع عنكم ما يريده الله بكم ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ كما بينا ما ذكر ﴿ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ نرددها ونبينها ليعتبروا أو ليلزمهم الحجة ﴿ وَلِيَقُولُوا۟ ﴾ أي الكفار في عاقبة الأمر ﴿ دَرَسْتَ ﴾ لنافع والكوفيين أي كتب الماضين ، ولابن كثير وأبي عمرو «دارست» بألف ، أي أهل الكتاب وناظرتهم وجئت بهذا مما ذكر ، ولابن عامر «درست» بإسناد الفعل إلى الآيات ، أي ترددت في سماعهم حتى بليت وصارت كأساطير الأولين ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُۥ ﴾ اللام على أصله من التعليل ، والضمير للآيات باعتبار المعنى لأنها القرآن أو للمصدر ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ لأن الجاهل بمعزل عن الفهم ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي القرآن بالتدين به ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ اعتراض أكد به إيجاب الاتباع ، أو حال مؤكدة من ربك بمعنى منفرداً في الألوهية

﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ لا تلتفت إلى أقوالهم وآرائهم ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾ صريح فى أن إشراكهم بمشيئته ﴿ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ رقيباً فتجازيهم بأعمالهم ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ متولّ أمرهم، ولما كان المسلمون يطعنون آلهتهم وقالوا لتنتهن أو لنهجونّ إلهك نزل ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾هم ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى الأصنام، والسب ذكر مساوئ الشىء على سبيل النقص والتحقير ووصف الله به آلهتهم من أنها حصب جهنم ونحوه استدلال على عدم صلاحيتها للألوهية ﴿ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا ﴾ تجاوزا عن الحق ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ بمن يليق به السب، وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة وجب تركها فإنّ ما يؤدى إلى الشرّ شرٌّ. قال ابن العربى فى الأحكام تعلق علماؤنا بهذه الآية فى سد الذرائع وهى كل جائز فى الظاهر يمكن أن يوصل إلى المحظور اه. ودل هذا أن المحق يكف عن حقه إن أدى إلى ضرر دينى إن كان الحق جائزاً وأما إن كان واجباً فلا يتركه إلا لأعظم منه ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كما زينا لهؤلاء ما هم عليه ﴿ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ من الخير والشر فأتوه ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ ﴾ فى الآخرة ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ مجاز عن الحساب والمجازاة عليه، قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَأَقْسَمُوا ﴾ أى كفار مكة ﴿ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ ﴾ مما اقترحوا ﴿ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ ومرادهم التعنت ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ينزلها كما يشاء وإنما أنا نذير، وكان المؤمنون يتمنون مجىء الآى المقترحة لعلها تكون سبباً لإيمانهم فرد الله ذلك عليهم بقوله ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ استفهام إنكار أى ما يدريكم بإيمانهم إذا جاءت أى أنتم لا تدرون ﴿ أَنَّهَا ﴾ بالفتح للجمهور: أن الآية المقترحة ﴿ إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لما سبق فى علمى فالنفى إنما توجه إلى ما هو الواقع إلى مدعاهم، وقيل لا مزيدة وأن معمول لما قبلها أو بمعنى لعل. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم بالكسر استئناف، وقرأ ابن عامر وحمزة لا تؤمنون بتاء الخطاب والإنكار فيما يشعركم للكافرين على حلفهم ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ ﴾ نحول قلوبهم عن الحق فلا يفهمونه عطف على لا يؤمنون داخل تحت الإنكار، أى وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم ﴿ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ عن الحق فلا يرونه ولا يؤمنون ﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ ﴾ أى بما أنزل من الآيات ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ قبل الاقتراح ﴿ وَنَذَرُهُمْ ﴾ نتركهم ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ تجاوزهم عن الحق ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يترددون متحيرين عطف على لا يؤمنون ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ ﴾ كما اقترحوا فى لولا أنزل علينا الملائكة ﴿ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ ﴾ كما قالوا فأتوا بآبائنا ﴿ وَحَشَرْنَا ﴾ جمعنا ﴿ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ﴾ بكسر القاف وفتح الباء لنافع وابن عامر أى معاينة وبضمتين للباقين جمع قبيل، ككفيل بصحة ما تقول، أو جماعة أى فوجاً فوجاً أمة بعد أمة يخبرون بصدقك وهو على هذه الوجوه حال من كل شىء وجاز ذلك لعمومه ﴿ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ فى كل حال لما سبق فى علم الله من كفرهم ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ إيمانهم

فيؤمنون استثناء من أعم الأحوال أى إلا حال مشيئته به وهو حجة واضحة على المعتزلة القائلين إن الله أراد الإيمان من جميع الكفار ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أن لو أتوا بكل آية لم يؤمنوا فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يشعرون أو ولكن أكثر المؤمنين يجهلون ذلك فيتمنون نزول الآية طمعا فى إيمانهم وإنما قال أكثرهم إذ منهم من اعتقد أن الآية لوجاءت لا يؤمن ولذا قال مكى: أكثرهم يجهلون أى فى مخالفتك وهم يعلمون أنك صادق. قال أبو سفيان للنبي صلى الله عليه وسلم بعد الفتح: والله ما شككت فى صدقك قط ولا أقاتلك إلا حسداً، فالحمد لله الذى نزع ذلك من قلبى ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما جعلنا هؤلاء أعداءك ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ ويبدل منه ﴿شَيَـٰطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ أو هو أول مفعولى جعلنا وعدوا الثانى ولكل متعلق به أو حال منه وهو تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وجعل للرسل عدو من مردة الفريقين لينالوا بذلك الأجر العظيم وليتسلى بهم العلماء إذا عاداهم الجهال ويتأسوا بالأنبياء. وبدأ بشياطين الإنس لأنهم أشد من شياطين الجن لأنك إذا تعوذت هربت شياطين الجن بخلاف شياطين الإنس. وللحديث «قرناء السوء شر من شياطين الجن» وقيل المراد بشياطين الإنس الشياطين التى معهم وبشياطين الجن التى معهم، وأضيفوا إليهم لإغوائهم لأن إبليس يبعث فريقاً من شياطينه إلى الإنس وفريقاً إلى الجن يضلونهم ﴿يُوحِي﴾ يوسوس ﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ والوحى الكلام الخفى، والمراد به وسوسة الشياطين أى يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس أو بعض الجن إلى بعض، وبعض الإنس إلى بعض ما يفتنون به المؤمنين والصالحين، وهذا على الوجه الأول، وعلى الثانى: فالمراد تقول شياطين الإنس لشياطين الجن أضللت صاحبي بكذا: فأضل أنت صاحبك بمثله، وتقول شياطين الجن لشياطين الإنس كذلك، فذلك وحى بعضهم إلى بعض ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾ مموهه من الباطل وهو ما زينوه من الإغراء على المعاصى من زخرفه: زينه، والزخرف فى الأصل الذهب فكثر استعماله فى مموّهه لكثرته ﴿غُرُورًا﴾ خداعاً ليغروهم نصب على العلة أو الحال ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أى الإيحاء المذكور صريح فى أن وقوع الشر بمشيئته وهو رد أيضاً على المعتزلة ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ اترك الكفار وفريتهم من الكفر وغيره مما زين لهم، قيل منسوخ بآية السيف وتقدم مافيه من أمثاله ﴿وَلِتَصْغَىٰ﴾ عطف على غرورا أى ولتميل ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى الزخرف ﴿أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ﴾ لأنفسهم ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا﴾ يكتسبوا ﴿مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ من الذنوب فيعاقبوا عليه، واللام فى الثلاث لام كى متعلقة بما تعلق به غروراً وهو يوحى كما قاله أكثر المفسرين لا لام العاقبة كما قال فى غاية الأمانى والله أعلم. ونزل لما طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل بينه وبينهم حكما قل لهم ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي﴾ أطلب ﴿حَكَمًا﴾ قاضياً بينى وبينكم، والهمزة للإنكار،

و«غير» مفعول أبتغى و«حكما» حال منه وعكسه لا يستقيم لأن غير معرفة بالإضافة لتعين الضد والحكم هو الحاكم مطلقاً ، وفى المثل فى بيته يؤتى الحكم وفى الحديث «يوشك أن ينزل ابن مريم حكما عدلا» وماقيل يختص بالحاكم العدل فلاسند له . قال فى غاية الأمانى يشير به إلى رد قول البيضاوى : وغير مفعول أبتغى وحكما حال منه ويحتمل عكسه ، وحكما أبلغ من حاكم ولذا لا يوصف به غير العادل اه . وفى لباب التأويل الحكم والحاكم واحد عند أهل اللغة غير أن بعض أهل المعانى قال : الحكم أكمل من الحاكم لأن الحاكم من شأنه أن يحكم والحكم أهل أن يتحاكم إليه وهو الذى لا يحكم إلا بالحق اه . وفى الجواهر الحسان : حكما أبلغ من حاكم إذ هى صيغة للعدل من الحكام والحاكم جار على الفعل فقد يقال للجائر اه . وفى القاموس الحاكم منفذ الحكم كالحكم محركا اه . والله أعلم . ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ ﴾ القرآن المعجز ﴿مُفَصَّلًا﴾ فيه الحق من الباطل أو مفصلا بالسور والآيات ، وهو دليل على صدق ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ من علماء اليهود والنصارى ﴿ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ ﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لابن عامر وحفص عن عاصم لموافقته ما فيه مافى كتبهم ﴿مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ عضد دلالة الإعجاز على صدق القرآن بعلم أهل الكتاب ذلك من كتبهم ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أنهم يعلمون ذلك والخطاب له ، والمراد غيره من الأمة أى لا يليق الامتراء فى هذا لكل أحد لوضوحه ﴿ وَتَمَّتْ ﴾ استقرت فى الأزل ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ بالجمع للجمهور والكوفيين بالإفراد أى جميع ما تكلم به فى كتبه ﴿ صِدْقًا ﴾ فى أخبار القرون وما هو كائن إلى قيام الساعة والوعيد والوعد ﴿ وَعَدْلًا ﴾ فى الأحكام الاوامر والنواهى والتخييرات ، ونصبهما على الحال أو التميز أو المفعول له ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ بالتحريف أو بإتيان ما هو أصدق أو أعدل منها أو بنقص أو خلف ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لما يقال ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما يفعل ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ الكفار أو الجهال أو أتباع الهوى ﴿يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ دينه فإن الضال لا يأمر إلا بالضلال ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ الذى هو أكذب الحديث فى أن آباءهم على الحق ، وفى جواز الميتة بأن ما قتل الله أحق أن يؤكل ، وغير ذلك من آرائهم الفاسدة ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون فى ذلك الظن أو يقدرون أنهم على شيء. وأصل الخرص التقدير ، والتخمين ، ولما حصر حالهم فى الظن وهو محتمل للصدق حصر ظنهم فى الكذب فهو كالعلة للنهى عن إطاعتهم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ ﴾ أى عالم ﴿ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ ومن موصولة أو موصوفة فى محل النصب بفعل دل عليه اسم التفضيل لأنه لا يعمل النصب فى الظاهر ، قاله البيضاوى وصاحب غاية الأمانى . قلت جعله السيوطى بمعنى اسم الفاعل فيعمله عليه والله أعلم . ﴿ فَكُلُوا ﴾ أى فلا تتبعوا الضالين المحلين للحرام بعد النص وكلوا ﴿ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ أى ذبح

على اسمه فقط لا الميتة رد لقولهم ما قتل ربكم أولى أن تأكلوه مما قتلتم ﴿إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ وأورد إن - وإن كان إيمانهم مقطوعا به - لما عالج قلوب بعضهم من شبهة الكفار وتهويل أكل غيره ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ أى ما عرض لكم وأى مانع لكم ﴿أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ خاصة وهذا القيد علم من الوصف نحو كل من مال النبيّ ﴿وَقَدْ فَصَّلَ﴾ بالبناء للفاعل لنافع والكوفيين وللمفعول لغيرهم، أى فصل الله ﴿لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ بالبناء للفاعل لنافع وحفص وللمفعول للباقين مما لم يحرم، وجملة «وقد فصل» حالية، وما فصل من المحرمات هو ما فى آخر هذه السورة من قوله «قل لا أجد ...» إلى آخر الآية، فإنه وإن كان متأخراً فى الوضع متقدم نزولا، وجمهور المفسرين قالوا هو ما فى آية «حرمت عليكم الميتة» وأورد عليه فخر الدين الرازى إشكالا بأن سورة الأنعام مكية والمائدة من آخر ما نزل بالمدينة والمفصل يتقدم وجوباً. قال بل الأولى أن يقال هو قوله «قل لا أجد» الآية اه. وأجاب بعضهم عن الجمهور بأن الله لما علم أن المائدة تتقدم ترتيباً ساغ ذلك والله أعلم ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ منه فهو أيضاً حلال لكم، المعنى: لا مانع من أكل ما ذكر خاصة، وقد بين لكم المحرم أكله ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ﴾ بفتح الياء للجمهور وضمها للكوفيين هنا وفى يونس فى قوله «ليضلوا عن سبيلك» فيه إشارة إلى أن الضلال ليس خاصاً بالمشركين ﴿بِأَهْوَائِهِم﴾ بما تهواه أنفسهم من تحليل الحرام ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعتمدونه من الشارع فى ذلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ المتجاوزين الحلال إلى الحرام فيجازيهم ﴿وَذَرُوا﴾ اتركوا ﴿ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ علانيته وسره أو ما كان بالجوارح وبالقلوب أو المحرمات والشبهات، والإثم كل معصية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ﴾ ظاهراً أو باطناً ﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ يكتسبون ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ من الذبائح، فإن ترك الذابح التسمية عمداً لم تؤكل وسهواً أكلت هذا مذهب مالك وأبى حنيفة، وقال أحمد إن تركها ناسياً أو عامداً حرم أكل الذبيحة. وقال الشافعى: ما ذبحه المسلم ولم يسم عمداً أو نسياناً فهو حلال، وفسر ما لم يذكر اسم الله عليه بما مات أو ذبح على اسم غير الله وتقدمت المسئلة ﴿وَإِنَّهُ﴾ أى عدم التسمية عمداً أو إن الأكل مما ذكر ﴿لَفِسْقٌ﴾ خروج عن الطاعة ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ﴾ يوسوسون ﴿إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ من الكفار ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ فى تحليل الميتة ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ فى استحلال ما حرم الله ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ إذ جعلتم لله شريكا فى تشريع الأحكام، وحسّن حذف الفاء فى الجواب كون الشرط ماضياً فى اللفظ. قال ابن العربى فى الأحكام: إنما يكون المؤمن بطاعة المشرك مشركا إذا أطاعه فى الاعتقاد الذى هو محل الكفر والإيمان، وأما إن أطاعه فى الفعل وعقده سليم مستمر على التوحيد والتصديق فهو عاص فافهموا ذلك فى كل موضع اه. وأنزل فى حمزة وأبى جهل وأمثالهما ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ بالكفر والضلال

﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بالإيمان والعلم ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً﴾ من اليقين وهو نور الإيمان والحكمة ﴿يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ حيث أراد من غير تعب يعني يبصر به الحق من غيره وهو المؤمن ﴿كَمَن مَّثَلُهُ﴾ مثل زائدة للدلالة على الحال والصفة أي كمن هو خابط ﴿فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ وهو الكافر؟ لا ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما زين للمؤمنين الإيمان ﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما جعلنا فساق مكة أكابرها ﴿جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ وأكابر مفعول ثان لجعل والأول مجرميها قدم الثاني عليه، ويجوز أن يكون في كل قرية أكابر مفعوليه ومجرميها بدلا أو مضافاً إليه. بدليل قراءة أكبر مجرميها ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ بالصد عن الإيمان ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ لأن وباله عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك، وتخصيص الأكابر لأنهم أقوى على استتباع الناس، والمكر بهم ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ أكابر مكة كأبي جهل والوليد بن المغيرة ﴿آيَةٌ﴾ على صدق النبي صلى الله عليه وسلم ﴿قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ من الرسالة والوحي إلينا، قال تعالى رداً عليهم ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ﴾ بالجمع للجمهور، والإفراد لابن كثير وحفص، و«حيث» مفعول به لفعل دل عليه «أعلم» لأنه اسم تفضيل لا ينصب المفعول به، ولأن الفعل واقع على «حيث» لا فيه، هكذا قالوا في الوجهين، وفيه نظر عند كتب العربية، أي يعلم الموضع الصالح لوضعها فيه، فيضعها حيث شاء، ليس كثرة المال وكبر السن من أسبابها ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ من أكابرها كأبي جهل بقولهم ذلك ﴿صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ بسبب مكرهم ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ﴾ يعرفه طريق الحق ويوفقه للإيمان ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ بأن يقذف في قلبه نوراً فينفسح له ويقبله كما ورد في الحديث وعلامة ذلك الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً﴾ بالتشديد للجمهور، والتخفيف لابن كثير، ينبو عن قبول الحق ﴿حَرَجاً﴾ بالكسر لنافع وأبي بكر عن عاصم، شديد الضيق، وبالفتح للباقين، وصف بالمصدر ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ﴾ بتشديد الصاد وفتح العين للجمهور، وبإسكان الصاد وتخفيف العين لابن كثير، ولأبي بكر يصاعد ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ شبه مبالغة في ضيق صدره بمن يزاول ما لا يقدر عليه كالصعود إلى السماء استبعاداً لذلك ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما يضيق صدره ويبعد قلبه عن الحق ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ﴾ العذاب أو الخذلان ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيه وضع الظاهر موضع المضمر للتعليل ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن أو الإسلام ﴿صِرَاطُ رَبِّكَ﴾ الذي ارتضاه ﴿مُسْتَقِيماً﴾ لا عوج فيه، حال مؤكدة، والعامل فيها معنى الإشارة ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ الدالة على حقيقة تلك الصراط ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أن الله حكيم عادل في العباد، أو يذكرون العهد الذي أخذ

عليهم فى عالم الذر وفى الكتب السماوية على لسان الأنبياء ﴿ لَهُمْ ﴾ للذكرين ﴿ دَارُ السَّلَامِ ﴾ أى دار الله أضاف الجنة إلى اسمه تعظيما لها ، أو دار السلامة من كل مكروه ، أو دار تحيتهم فيها سلام ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ذخيرة عنده لا يعلم كنهها غيره ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ ﴾ ناصرهم ومتولى أمرهم فى إيصال ذلك الجزاء إليهم لا غيره تشريفاً لهم ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ بسبب أعمالهم الصالحة ، فكما لم يشركوا أحداً معه فى تلك الأعمال فكذلك لا يشرك فى جزائهم أحداً ولا يطلعه على حقيقته ﴿ وَ ﴾ اذكر إذ نقول ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ بالنون للجمهور والياء لحفص أى الله الخلق ، والحشر الجمع بكره ﴿ جَمِيعًا ﴾ والضمير لمن يحشر أو للشياطين وأوليائهم الذين تقدم ذكرهم ، ثم نقول لهم توبيخاً وتقريعاً على سوء صنيعهم ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ ﴾ الشياطين ﴿ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴾ من إغوائهم أو بإغوائكم وجعلكم إياهم أتباعكم لحشروا معكم ، كقولهم استكثر الأمير من الجنود ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ ﴾ الذين أطاعوهم ﴿ مِنَ الْإِنْسِ ﴾ تحسراً أو اعتذاراً ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ انتفع الإنس بتزيين الجن لهم الشهوات ، والجن بطاعة الإنس لهم ، أو الإنس بالتعوذ بهم والأمن فى المفاوز والمخاوف ، والجن بالتعظيم بذلك ، وقيل بعضنا ببعض فى الإنس خاصة . قال فى لباب التأويل : لأن استمتاع الجن بالإنس وبالعكس أمر نادر لا يكاد يظهر ، وأما استمتاع الجن والإنس بعضهم ببعض فظاهر فوجب حمل الكلام عليه . اه . وإنما خاطب الجن وأجاب الإنس لأن خطاب الجن كان لتقريع الإنس بكونه مع شرفه صار تابعاً لهذا الشرير الخسيس .

فكان الجواب منهم لكونهم يحتاجون إلى نوع اعتذار ذكره فى غاية الأمانى ﴿ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ ﴾ حددت ﴿ لَنَا ﴾ وهو الموت أو البعث ، ثم ذهب الأجل بلا استعداد وبقى التحسر ﴿ قَالَ ﴾ تعالى لهم على لسان الملائكة ﴿ النَّارُ مَثْوَاكُمْ ﴾ مأواكم ، وهذا الاعتذار لا يغنى شيئاً فالنار مقركم حال كونكم ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ من الأوقات التى يخرجون فيها لشرب الحميم وعذاب الزمهرير فإن ذلك خارجها داخل حفرتها ، كما قال «ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم» أو إلا ما شاء قبل الدخول ورجحه الزجاج ، ونقل جمهور المفسرين عن ابن عباس أن الاستثناء فى المسلمين الذين يخرجون من النار ، فما بمعنى من أى قال الذين استمتع بعضهم ببعض النار مثواكم خالدين فيها إلا من شاء الله خروجه منكم وهم المؤمنون والله أعلم قال ابن عطية : والإجماع على التخليد الأبدى فى الكفار . اه . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ فى أفعاله متقن فى كل ما دبر ﴿ عَلِيمٌ ﴾ كامل العلم بأحوال الثقلين وأعمالهم ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ كما ولينا الجن والإنس ﴿ نُوَلِّي ﴾ من الولاية أو الاتباع ﴿ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ﴾ فى الإغواء والوسوسة أو فى العذاب يوم القيامة . وفى الحديث : «يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» أو نسلط فى الدنيا بعض الظالمين على بعض ، وفى الحديث :

من أعان ظالماً سلطه الله عليه . وفى لباب التأويل : إن الرعية متى كانوا ظالمين سلط الله عليهم ظالماً مثلهم فلا يخلصون منه إلا أن يتركوا الظلم . اه . ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من الكفر والمعاصى ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ المعشر جماعة أمرهم واحد ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ أى من مجموعكم الصادق بالإنس أو رسل الجن نذرهم الذين يسمعون كلام الرسل فيبلغون قومهم . وعن الضحاك وغيره : بعث الله إلى الجن منهم كما بعث إلى الإنس نظرا إلى ظاهر الآية ، ورد بقوله وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا وفيه مافيه والله أعلم بأسرار كتابه ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ﴾ أن قد بلغنا وأقررنا بالجرم واستحقاق العذاب ، قال تعالى ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ ولم يؤمنوا ، أى قالوا ذلك والحال أنهم كانوا مغرورين بالحياة الدنيا والملذات السريعة الزوال حتى أعرضوا عن الآخرة ﴿ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ كرر الشهادة لأن الأولى حكاية حالهم والثانية ذم لهم وتحذير للسامعين من مثل حالهم ﴿ ذَلِكَ ﴾ أى إرسال الرسل خبر مبتدأ محذوف ، أى الأمر ذلك ﴿ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ ﴾ تعليل للحكم واللام مقدرة وأن مصدرية أو مخففة من الثقيلة ، أى الأمر ذلك لانتفاء كون ربك أو لأن الشأن لم يكن ربك ﴿ مُهْلِكَ الْقُرَى ﴾ أهلها ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ بسبب ظلم عملوه أو ملتبسين به ﴿ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ لم يرسل إليهم رسول يبين لهم ، هذا تفسير الجمهور . وقال الفراء : لم يكن ليهلكهم بظلم منه وهم غافلون . والأول أقوى ، وبظلم على الأول حال من القرى بتقدير الأهل أو متلبسين بظلم فى حال غفلتهم ، وعلى الثانى من فاعل «مهلك» أى ملتبساً بظلم أو الباء العلية كما تقدم ، وفيه دليل للشيخ الأشعرى أن لاتكليف قبل البعثة ﴿ وَلِكُلٍّ ﴾ من العاملين بطاعة الله أو بمعصيته ﴿ دَرَجَاتٌ ﴾ منازل ﴿ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ لأجل أعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وأطلق الدرجات على النوعين التغليب أو لتفاضلهما فى الارتفاع والانخفاض كتفاضل الدرج ، وهذا يكون فى الثواب والعقاب على قدر أعمالهم ، هذا قول جمهور المفسرين ، وقيل لكل درجات يختص بأهل الطاعة لأن لفظ الدرجة لا يليق إلا بهم ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ بالياء للجمهور والتاء لابن عامر على تغليب الخطاب على الغيبة ، أى لا يخفى عليه عمل أو قدر ما يستحق به من ثواب أو عقاب ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ﴾ عن العباد وعبادتهم ﴿ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ البالغة ولذا أرسل الرسل وشرع الأحكام تكميلا للعباد بالمعارف والأعمال الصالحة ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ تقرير للغنى ، أى ليس له إليكم حاجة وإنما أبقاكم رحمة لتداركوا ما فرطتم ﴿ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ ﴾ من الخلق آثر «ما» على من قصداً إلى الوصف ، أى الطائع لأمره ﴿ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ أذهبهم جيلا بعد جيل ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ ﴾ من ظهور هذا الدين على كل الأديان والبعث والجزاء ﴿ لَآتٍ ﴾ لا محالة ﴿ وَمَا أَنْتُمْ

بِمُعْجِزِينَ ﴾ طالبكم به بمعنى فائتين من أعجزه الشيء إذا فاته مأخوذ من عجز الشيء وهو مؤخره ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ بالإفراد للجمهور والجمع لأبى بكر عن عاصم : تمكنكم واستطاعتكم ، مصدر مكن كـكرم مكانة فهو مكين تمكن غاية ما يمكن ، أو على ناحيتكم وحالتكم التى أنتم عليها من الكفر والمعاصى ، وهى بمعنى المكان ، يقال مكان ومكانة والأمر على الوجهين للتهديد ﴿ إِنِّى عَامِلٌ ﴾ على حالتى من المصابرة والثبات على الإسلام ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تعرفون ﴿ مَنْ ﴾ موصولة مفعول تعلمون ﴿ تَكُونُ ﴾ بالتاء للجمهور والياء لحمزة والكسائى ﴿ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ﴾ أى العاقبة المحمودة فى الدار الآخرة أنحن أم أنتم ، ويحتمل أن تكون «مَن» استفهامية بمعنى أينا فى محل رفع وفعل العلم معلق عنه ، وإضافة العاقبة إلى الدار لأنها تحصل فيها ، وفى الكلام مع الإنذار إنصاف فى المقال حيث لم ينسب الخصم إلى الضلال صريحاً ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ الكافرون وغيرهم ، ووضعه موضع الكافرين لأنه أعم وأكثر فائدة ﴿ وَجَعَلُوا۟ ﴾ مشركوا العرب ﴿ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ ﴾ خلق ﴿ مِنَ ٱلْحَرْثِ ﴾ الزرع ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ المواشى ﴿ نَصِيبًا ﴾ يصرفونه إلى الضيفان والمساكين ولشركائهم نصيباً يصرفونه إلى سدنتها ﴿ فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ ﴾ بالفتح للجمهور والضم للكسائى لغتان ﴿ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ فكانوا إذا سقط شيء من نصيبها فى نصيب الله التقطوه وفى نصيبها شيء من نصيبه تركوه وقالوا الله غنى عن هذا ، كما قال تعالى ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أى لجهته ﴿ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ حكمهم هذا ، حيث أشركوا بالخالق جماداً من خلقه لا يقدر على شيء ثم رجحوه عليه ، وفى قوله «بزعمهم» تنبيه على أنهم اخترعوه لم يرد به شرع ولا يحسنه عقل ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ عطف على جعلوا ، أى وكما زين لهم ما ذكر جهلا ﴿ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ ﴾ بالوأد ﴿ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ من الشياطين بالرفع للجمهور فاعل زين ، ولابن كثير ببنائه للمفعول ورفع قتل ونصب الأولاد به وجر شركائهم بإضافته ، وفيه الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول وهو جائز ، وإضافة القتل إلى الشركاء لأمرهم به ، وسمى الشياطين شركاء لأنهم أشركوها مع الله فى طاعة ما أمرتهم ، وقيل المراد بها سدنة الأصنام وكانوا يزينون لهم ذلك ﴿ لِيُرْدُوهُمْ ﴾ يهلكوهم بالإغواء ﴿ وَلِيَلْبِسُوا۟ ﴾ يخلطوا ﴿ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ الذى كانوا به وهو الدين الحق ، أو دينهم الذى كانوا عليه قبل شركهم وهو دين إبراهيم ، واللام للتعليل إن كان التزيين من الشياطين ، وللعاقبة إن كان من السدنة ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ المشركون والشركاء جميع ما ذكر ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ من نسبته إلى الله ﴿ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ ﴾ حرام فعل بمعنى مفعول كالذبح يستوى فيه الواحد والكثير والذكر والأنثى ﴿ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ ﴾ من خدمة الأصنام ومن أردنا من الرجال دون النساء ﴿ بِزَعْمِهِمْ ﴾

لا حجة لهم فيه ﴿ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ فلا تركب ، كالسوائب والبحائر والحوامى ﴿ وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ عند ذبحها ، بل يذكرون اسم أصنامهم أو لا يحجون عليها ولا يلبون على ظهورها ، والمعنى أنهم قسموا أموالهم إلى هذه الأقسام الثلاثة ونسبوا ذلك إلى الله ﴿ افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ عليه ، ثم أشار إلى نوع آخر من أباطيلهم بقوله ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ ﴾ المحرمة وهى السوائب والبحائر ﴿ خَالِصَةٌ ﴾ حلال ﴿ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ﴾ إناثنا إن ولد حياً ، أنث خالصة وذكّر محرم ، حملا على لفظ «ما» على غير الغالب من تقديم رعى اللفظ ثم المعنى ، لأن ما فى معنى الأجنة ، أو التاء فى «خالصة» للمبالغة كراوية الشعر ، أو هو مصدر كالعافية وقع موقع الخالص ﴿ وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً ﴾ بالنصب مع تذكير الفعل للجمهور ، والرفع وتأنيث الفعل لابن عامر وشعبة وابن كثير إلا أنه يذكر الفعل ﴿ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ﴾ الرجال والنساء فيه سواء ، والتذكير فى «فيه» لأن المراد بالميتة مايعم الذكر والأنثى فغلب الذكر ﴿ سَيَجْزِيهِمْ ﴾ الله ﴿ وَصْفَهُمْ ﴾ ذلك بالتحليل والتحريم أى جزاءه ، وأصل الوصف الكشف والإظهار . تقول وصفت زيداً بكذا : أظهرت ما فيه مدحاً أو ذماً ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ ﴾ فى ذلك الجزاء ﴿ عَلِيمٌ ﴾ باستحقاقهم ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا ﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لابن كثير وابن عامر ﴿ أَوْلَادَهُمْ ﴾ بالوأد ، وهم قوم من ربيعة ومضر لخوف الفقر أو السباء . قال ابن عطية : جمهور العرب لايفعله . اه . وأعاده هنا وإن تقدم لبيان خسرانهم فى الدنيا بإزالة ما أنعم الله به عليهم ، وفى الآخرة بالعذاب ﴿ سَفَهًا ﴾ جهلا بأن الله الرازق والحافظ ، نصب على الحال أو المصدر أو العلة ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ حجة فى موضع الحال يؤكد معنى السفه ﴿ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ﴾ من البحائر ونحوها ﴿ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ إلى الحق والصواب قط ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ ﴾ خلق ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ من الكروم وغيرها عطف على القصة السابقة لإبطال ماتقدم من الأحكام التى اخترعوها ﴿ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ رفع قضبانها من الأرض ﴿ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ ما كان على الأرض قال النسفى يقال عرشت الكرم إذا جعلت له دعائم وسمكا تعطف عليه القضبان اه . وقال ابن العربى يعنى رفعت على الأعواد وصنت عن تدلى ثمرها ، والعرش كل ماارتفع فوق غيره ، وقال ابن عباس المعروشات ما انبسط على الأرض وانتشر مما يعرش مثل الكرم والقرع والبطيخ ، وغير معروشات ماقام على ساق كالنخل والزرع ، وقيل المعروشات ما غرسه الناس واهتموا بتعريشه ، وغير معروشات ما أنبته الله فى البرارى والجبال ﴿ وَ ﴾ أنشأ ﴿ النَّخْلَ وَالزَّرْعَ ﴾ وهذا يؤيد أن الجنات فى غيرهما ﴿ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ ﴾ ما يؤكل منه فى اللون والطعم والريح والحجم وتذكير الضمير باعتبار المذكور ، ومختلفاً حال مقدرة لأنه لم يكن كذلك عند الإنشاء ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ

مُتَشَٰبِهًا﴾ ورقهما ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ طعمهما أو يتشابه بعضها فى اللون والطعم ولا يتشابه بعضها ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ أمر إباحة ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ قبل النضج ذكر لدفع توهم عدم جواز التناول منه بناء على كون المساكين شركاء فيه ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُ﴾ وهو ما يعطيه المالك لمن حضر تبرعا لا الزكاة المفروضة إذ مقدارها لم يبين إلا بالمدينة والسورة مكية ، وقيل المراد زكاته والآية مدنية ﴿يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ بالكسر لنافع وابن كثير وحمزة والكسائى وبالفتح لغيرهم لغتان من العشر أو نصفه غلب الحصاد على الجذاذ كما غلب الثمر أولا على الحب والأمر بإيتاء الزكاة يوم الحصاد ليهتم به حينئذ حتى لا تؤخر عن وقت الأداء وهو بعد التصفية أو ليعلم أن الوجوب بالإدراك لا بالتنقية ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ بإعطاء كله فلا يبقى لعيالكم شىء أو بالإنفاق فى المعاصى ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ لا يرتضى فعلهم ﴿وَ﴾ أنشأ ﴿مِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً﴾ صالحة للحمل عليها كالإبل الكبار قال الثعالبى والبقر عند من عادته أن يحمل عليها ﴿وَفَرْشًا﴾ لا تصلح له كالإبل الصغار والغنم سميت فرشاً لأنها كالفرش للأرض لدنوها منها أو لأنها تفرش وقت الذبح أو لأن الفرش يتخذ من صوفها ووبرها وشعرها ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ مما أحل لكم منه ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ فى التحليل والتحريم ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة من لدن آدم ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أصناف مختلفة أو متعددة بدل من حمولة وفرشاً أو مفعول كلوا ، وأزواج جمع زوج ضد الفرد وهو ما معه آخر من جنسه يزاوجه ﴿مِنَ الضَّأْنِ﴾ زوجين ﴿اثْنَيْنِ﴾ ذكر وأنثى الكبش والنعجة بدل من ثمانية إن صح وقوع البدل عن المبدل وإلا فهو بدل من حمولة وفرشاً ﴿وَمِنَ الْمَعْزِ﴾ بسكون العين لنافع والكوفيين وفتحها لغيرهم ﴿اثْنَيْنِ﴾ التيس والعنز ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ من الضأن والمعز ﴿حَرَّمَ﴾ الله عليكم ﴿أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ منهما المقصود إنكار التحريم وإنما أورد فى صورة إنكار المفعول ليكون إنكاراً له بطريق الأولى إذ لا بد للفعل من شىء يتعلق به فإذا نفى جميع ما يتعلق به مفصلا لزم نفيه ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ ذكراً كان أو أنثى وأم متصلة عطف على المتصلة الأولى ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾ بأمر معلوم يدل على أن الله حرم شيئاً من ذلك أو بعلم عن كيفية تحريم ذلك ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فى دعوى التحريم عليه ، المعنى من أين جاء التحريم فإن كان من قبل الذكورة لجميع الذكور حرام أو الأنوثة لجميع الإناث حرام أو اشتمال الرحم فالزوجان حرام ، فمن أين التخصيص والاستفهام للإنكار ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ﴾ بل أ ﴿كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ حضوراً ﴿إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا﴾ التحريم فاعتمدتم ذلك لا بل أنتم كاذبون فيه وهذا مقابل لقوله نبئونى بعلم : أضرب عن البرهان إلى العيان لأنه أبلغ فى التبكيت لأنهم حين لم يؤمنوا بالنبى لا طريق لهم إلى

سيرة أمثال ذلك إلا بالمشاهدة (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) بذلك (لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) تكذيب لهم بأبلغ وجه حيث حكم بأنه لا أظلم منهم وأتى بمن ليعمهم وكل مفتر على الله ، فكل من أدخل فى دين الله ما ليس منه فهو داخل فى هذا الوعيد ، وأدخل عليه الفاء إشعاراً بسببية ما تقدم وعلل فعل المفترى بأقبح علة وهو الإضلال بالجهل الذى كل عيب دونه

(قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ) شيئاً أو غيره شيئاً (مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ) جاداً كان المطعوم أو حيواناً (إِلَّا أَنْ يَكُونَ) بالياء للجمهور والتاء لابن كثير وحمزة وابن عامر (مَيْتَةً) بالنصب للجمهور ولابن عامر بالرفع على أن «كان» تامة (أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا) سائلا بخلاف ما خالط اللحم فجائز لأنه لا يمكن الاحتراز منه قاله ابن العربى فى الأحكام (أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ) أى لحمه (رِجْسٌ) حرام (أَوْ فِسْقًا) عطف على لحم (أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ) صفة جارية مجرى التعليل (فَمَنِ اضْطُرَّ) إلى شيء مما حرم فأكله (غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ) له ما أكل (رَحِيمٌ) به حيث أنعم عليه بحله والآية لا تنفى حرمة شيء آخر غير المذكورات إذ غاية الأمر أنه لم يجد من بدء الوحى إلى ذلك الوقت محرما سواها وقد حرم بعدها الخمر بآيتها وغيرها بالأحاديث . واختلف العلماء فى ذلك للاحتمالات ، فها أنا أبين لك ما ذكر علماؤنا : وهو أن جميع الجمادات نبات أو غيره حلال إلا النجاسات وما خالطه والمسكرات والمضرات كالسموم والطين مكروه وقيل حرام وجميع الحيوان من الفيل إلى النمل والدود لا يحرم إلا الآدمى والخنزير فهما محرمان إجماعا والسباع مكروهة وقيل يحرم العادية منها والطير كله مباح ذو مخلب وغيره وقيل ذو المخلب حرام وفاقا للشافعى وأبى حنيفة وأحمد ، والحشرات والهوام جائزة وقيل لا ، والله أعلم (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا) اليهود (حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ) وهو ما لم يفرق أصابعه كالإبل والنعام أراد به ما سوى البقر والغنم لقوله : (وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا) الثروب بضم الثلاثة شحم يغشى الكرش والأمعاء وشحم الكلى كرر الفعل وأضاف الشحوم مبالغة فى التحريم (إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا) من الشحم فإنه باق على إباحته (أَوِ) حملته (الْحَوَايَا) الأمعاء جمع حاوية أو حاوياء أو حوية وقيل هو عطف على شحومهما وأو بمعنى الواو (أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ) منه وهو شحم الإلية والقوائم والرأس والعيون فإنه أحل لهم أو حرم قال فى فتوح الغيب : والحاصل أنك إذا عطفت أو الحوايا أوما اختلط بعظم على شحومهما دخلت الثلاث تحت حكم التحريم وإذا عطفتها على المستثنى لم يحرم سوى الشحوم وأو على الأول للإباحة وعلى الثانى للتنويع اه ، واختلف فى تحريم تلك الشحوم على المسلمين من ذبائح اليهود : فمن مالك كراهيتها (ذَلِكَ) التحريم (جَزَيْنَاهُمْ) به (بِبَغْيِهِمْ) بسبب ظلمهم بما سبق فى سورة النساء (وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) فى أخبارنا

ومواعيدنا وفى اختصاص التحريم بهم بظلمهم ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ فيما جئت به ﴿فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ حيث لم يعاجلكم بالعقوبة وفيه تلطف بدعائهم إلى الإيمان أو المراد لا تغتروا بإمهاله فإنه لا يهمل ويدل عليه ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾ عذابه إذا جاء ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أو ذو رحمة واسعة على المطيعين وذو بأس شديد على المجرمين فأقام مقامه ولا يرد بأسه لتضمنه التنبيه على إنزال البأس عليهم مع الدلالة على أنه لا يمكن رده عنهم. ولما أبطل ما كانوا عليه ولزمتهم الحجة أخبر عنهم بما سيقولونه بقوله ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ نحن ﴿وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ فإشراكنا وتحريمنا بمشيئته فهو راض به صدقوا فى الأول وكذبوا فى الثانى إذ لا تلازم بين المشيئة والرضى عند الله قال تعالى ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما كذب هؤلاء ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ رسلهم ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ عذابنا ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ بأن الله راض بذلك ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ مجاراة للخصم للتبكيت أى لا علم عندكم ﴿إِنْ﴾ ما ﴿تَتَّبِعُونَ﴾ فى ذلك ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ الذى لا ينفع فى محل القطع ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ تكذبون فيه وفيه دليل على منع اتباع الظن فى الأصول ﴿قُلْ﴾ إن لم تكن لكم حجة ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ غاية المقصد فى الأمر الذى يحتج له أو التى بلغت الغاية فى الوضوح على جميع خلقه حتى إبليس الذى هو الواسطة فى الوسوسة لجميع العصاة بالمعاصى. قال عبدالوهاب الشعرانى: بلغنا أنه قال يارب كيف تريد منى السجود لآدم ولم يسبق ذلك فى علمك؟ فقال له الحق جل وعلا متى علمت أنه لم يسبق فى علمى السجود أقبل الإباية أو بعدها؟ فقال بعدها فقال له الحق وبهذا أخذتك فتأمل يا أخى ما فى هذا المحل فإنه يكتب بنور الأحداق اه. ﴿فَلَوْ شَاءَ﴾ هدايتكم ﴿لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بالتوفيق للهداية والحمل عليها ولكن شاء هداية قوم وضلال آخرين ﴿قُلْ هَلُمَّ﴾ أحضروا ﴿شُهَدَاءَكُمُ﴾ وهو اسم فعل لا يتصرف عند أهل الحجاز وفعل يؤنث ويجمع عند تميم يكون متعديا كما فى الآية ولازما كقوله هلم إلينا ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ الذى حرمتموه استحضار الشهود على ذلك ليظهر أن لا شاهد لهم على ذلك والمقصود تثبيت النبى صلى الله عليه وسلم. ولذا قال ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ فرضا ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ بل بين لهم فساده ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فيه وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أن مكذب الآيات متبع للهوى لا غير والتعميم بعد التخصيص ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يشركون ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ مشتق من العلو أصله أن يخاطب به من كان فى سفل ثم اتسع فيه لما أبطل ما ابتدعوه من الأحكام بالقواطع دعاهم إلى الحق الواضح بقوله تعالوا ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ وما موصولة منصوبة بفعل التلاوة والجملة مفعول أتل لأنه فى معنى القول وعليكم يصح تعلقه بكل من الفعلين ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ وأن مفسرة ولا تشركوا نهى ليصح

عطف الأمر عليه وشيئا يحتمل المصدر والمفعول به ﴿وَ﴾ أحسنوا ﴿بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وضعه موضع النهي عن الإساءة إليهما للمبالغة والدلالة على أن ترك الإساءة في شأنهما غير كاف بخلاف غيرهما ولذا ثنى بالوصية بالإحسان إليهما بعد الوصية بتوحيده لما لهما من حق التربية والشفقة والحفظ من المهالك في حال الصغر ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ بالوأد ﴿مِنْ﴾ أجل ﴿إِمْلَاقٍ﴾ فقر تخافونه من الملق وهو الحق ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ منع لموجبية ما كانوا يفعلون لأجله واحتجاج عليه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ الذنوب الكبائر كالزنا وقذف المحصن ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ علانيتها وسرها ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كالقود وحد الردة ورجم المحصن ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور مفصلا ﴿وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ بحفظه والتوصية أمر بالشيء مع التأكيد ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تستعملون عقولكم وترشدون لأن المذكورات أمور ظاهرة بعد توجه العقل. قال كعب الأحبار: هذه الآيات يعني قل تعالوا إلى آخرها هي مفتتح التوراة وقال ابن عباس هي المحكمات المذكورة في آل عمران اجتمعت عليه شرائع الخلق ولم تنسخ قط ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي﴾ أي بالفعلة التي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ وهي ما فيه صلاحه كحفظه وتثميره ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ كمال عقله وقواه كأن يحتلم رشيداً وهو مفرد أو جمع لا مفرد له وليس جمع شدة قاله في غاية الأماني رداً على قول البيضاوي جمع شدة كنعمة وأنعم ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل وترك البخس ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ طاقتها في ذلك فإن أخطأ في الكيل والوزن والله يعلم صحة نيته فلا مؤاخذة عليه. كما ورد في حديث ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ في حكم أو شهادة أو غيرهما ﴿فَاعْدِلُوا﴾ بالصدق ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المقول له أو عليه ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ قرابة ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ ما عهد إليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع وما في قوله «إن الله يأمر بالعدل» الآية ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ بالتشديد للجمهور تتعظون وبالسكون لحمزة والكسائي وحفص ﴿وَأَنَّ﴾ بالفتح والتشديد للجمهور وبالتخفيف لابن عامر على تقدير اللام وبالكسر مشدداً لحمزة والكسائي استئناف ﴿هَٰذَا﴾ الذي وصيتكم به من أول السورة من إثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة ﴿صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ حال وقرأ ابن عامر صراطيَ بفتح الياء ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ المخالفة له وهي دواعي الشهوات ومسالك الهوى ﴿فَتَفَرَّقَ﴾ فيه حذف إحدى التاءين تميل ﴿بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ دينه الذي هو اتباع الوحي واقتفاء البرهان ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الاتباع ﴿وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الضلال والتفرق عن الحق، وأتى بلعل إيماء إلى أن سلوكها أمر خطر ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة، عطف على «ذلكم» و «ثم» لترتيب الإخبار لا لترتيب الأزمنة ﴿تَمَامًا﴾ للنعمة ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ بالقيام بها، أي تماماً لكرامة كل محسن، أو على الذي أحسنه موسى من العلم والمعارف، أي

زيادة على ماعنده من العلم ، وقرئ برفع أحسن خبر محذوف أى على الذى هو أحسن ﴿ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ يحتاج إليه فى الدين ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ وتماماً ، وما بعده نصب على العلة أو الحال أو المصدر ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ أى بنى إسرائيل ﴿ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ بالبعث ﴿ يُؤْمِنُونَ ۝ وَهَٰذَا ﴾ القرآن ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ كثير النفع لما فيه من التوسعات وأنواع الخيرات والبركة الزيادة ﴿ فَاتَّبِعُوهُ ﴾ يا أمة محمد بالعمل بما فيه دعاء إلى الدين ﴿ وَاتَّقُوا ﴾ مخالفته ، أمر بالتقوى العامة فى جميع الأشياء ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ لكى ترحموا واسم الإشارة عطف على « آتينا » داخل فى حيز « ثم » وإيثار الاسمية المصدرة بالإشارة الدالة على كال التميز ووصفه بالإنزال الدال على العلو والبركة التى تشمل كل نفع إظهار لشرف القرآن على التوراة وغيرها ولذا ختم الآية بالرحمة التى هى صفته ، وختم الأولى بالإيمان الذى هو صفتهم . أنزلناه ﴿ أَن تَقُولُوا ﴾ كراهة أن تقولوا ، أو لئلا تقولوا ، بحذف المضاف عند البصريين ، وحرف النهى عند الكوفيين علة لأنزلناه ﴿ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾ اليهود والنصارى ، وصح الحصر إذ لم يشتهر عند العرب كتاب غيرهما حينئذ ﴿ وَإِن ﴾ مخففة ، ولذا دخلت اللام الفارقة خبر كان أى وإنا ﴿ كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ ﴾ قراءتهم ﴿ لَغَافِلِينَ ﴾ لعدم معرفتنا لها إذ ليست بلغتنا ، والمعنى أنزلناه بلغتكم قطعاً لعذركم ﴿ أَوْ تَقُولُوا ﴾ عطف على الأول ﴿ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَٰبُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾ لجودة أذهاننا وسرعة إدراكنا ودقة نظرنا ﴿ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ حجة واضحة لا تقبل الشبهة ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ لمن اتبعه : جعله نفس الهدى والرحمة مبالغة وهو حجة بالنظر إلى الخصم ، وهدى إلى المطلوب ، ورحمة إلى الطالب ، أو هدى لمن تأمل ، ورحمة لمن عمل به ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ بعد أن عرف صحتها لا أظلم منه ﴿ وَصَدَفَ ﴾ أعرض أو صد ﴿ عَنْهَا ﴾ فضل وأضل ﴿ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ أى أشده ، من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أى العذاب السيئ ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾ بإعراضهم أو صدهم ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ ما ينتظر المكذبون للقرآن والرسول والاستفهام بمعنى النفى ولذا صح الاستثناء فى ﴿ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ ﴾ بالتاء للجمهور والياء لحمزة والكسائى ﴿ الْمَلَائِكَةُ ﴾ ملائكة الموت أو العذاب ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ للحكم وفصل القضاء يوم القيامة و « ربك » على حذف مضاف ، أى أمره بالعذاب والآيات كلها يوم القيامة ، ولذا قابله بقوله ﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ يريد أشراط الساعة . روى مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال : طلع علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن نتذاكر الساعة فقال : ما تذكرون ؟ قالوا : نذكر الساعة . قال : إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدجال والدخان والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ويأجوج ومأجوج وثلاث خسوف

خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى المحشر (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ) وهى طلوع الشمس من مغربها كما جاء فى حديث الصحيحين (لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ) لأن الأمر عيان حينئذ ، والإيمان المعتبر هو الإيمان بالغيب ، وجملة ولم تكن، صفة نفسا أو حال من الضمير المجرور (أَوْ) نفسا لم تكن (كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا) أى طاعة ، أى لا تنفعها توبتها كما فى الحديث . والمراد يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا لم تكن مؤمنة قبلها إيمانها بعد ، ولا نفسا لم تكسب فى إيمانها خيرا قبل ما تكسبه من الخير بعد . وفى حديث مسلم عن عمرو بن العاص مرفوعا : إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها . وفى حديث الحاكم : إن أول الآيات ظهور الدجال ثم نزول عيسى ثم خروج يأجوج ومأجوج ثم خروج الدابة ثم طلوع الشمس من مغربها وهو أول الآيات العظام المؤذنة بتغير أحوال العالم العلوى ، وذلك أن الكفار يسلمون فى زمن عيسى ولو لم ينفعهم إيمانهم أيام عيسى لما صار الدين واحداً ، فإذا قبض عيسى ومن معه من المسلمين رجع أكثرهم إلى الكفر فعند ذلك تطلع الشمس من مغربها والله أعلم (قُلِ انتَظِرُوا) أحد هذه الأشياء (إِنَّا مُنتَظِرُونَ) ذلك فلنا فيه النيل ولكم الويل (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ) بعدوه ، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض واختلفوا فيه وهم اليهود والنصارى . قال عليه السلام « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها فى الهاوية إلا واحدة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة كلها فى الهاوية إلا واحدة ، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين كلها فى الهاوية إلا واحدة » وقرأ حمزة والكسائى «فارقوا» أى باينوا (وَكَانُوا شِيَعًا) فرقاً كل فرقة تشيع إماماً (لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) أنت برىء منهم ، فلا تسأل عن أصحاب الجحيم ، أو لا تتعرض لهم وعليه فهو منسوخ بآية السيف وتقدم أمثاله (إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ) يتولى جزاءهم (ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) كناية عن العقاب ، تقول لمن جنى عليك مهدداً له : سأخبرك بما فعلت (مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ) أى لا إله إلا الله ، أو كل حسنة (فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) أى جزاء عشر حسنات تفضلا منه تعالى ، وهذا أقل ما ورد ، وقد صح سبعمائة إلى أضعاف لا يعلمها إلا الله ، وذلك باعتبار الإخلاص والأمكنة والأوقات ، وقيل المراد بالعشرة الكثرة ، وإنما حذف التاء لأن الأمثال فى معنى الحسنات (وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا) إن لم يعف عنها ، وخلود الكافر جزاء بالمثل لأنه كان عازماً على الاستمرار أن لو عاش أبداً (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) بنقص الثواب وزيادة العقاب ، وكل هذا وضع على المتعارف ، وإلا فالظلم من المالك المحقق مستحيل ، وإن زاد ونقص (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) بالوحى ويبدل من محله (دِينًا قِيَمًا) مستقيما لا اعوجاج فيه ، أو مقوما لأمور معاش ومعاد ، وقرأ ابن عامر والكوفيون قيما على أنه مصدر نعت به وكان قياسه قوماً كعوض فأعل لإعلال فعله كالقيام (مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ) عطف بيان لدينا (حَنِيفًا) مائلا عن الباطل ، حال من إبراهيم

﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ رد على المشركين الذين يزعمون أنهم على ملته ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾ عبادتي كلها، وأفرد الصلاة لزيادة شرفها، أو قرباني في الحج والعمرة ﴿ وَمَحْيَايَ ﴾ بسكون الياء الأخيرة لنافع وفتحها لغيره، أي حياتي ﴿ وَمَمَاتِي ﴾ موتي، أو مايقارن حياتي وما يقارن مماتي كالعلم والصدقة الجارية والولد الصالح، مما نطق به الحديث، أو الحياة والممات أنفسهما ﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ في ذلك، أمر أن يعلن بأن مقصده في جميع تصرفاته وأحواله طلب رضى ربه، وأن جميع ذلك بيد الله، وله التصرف في جميع ذلك كيف شاء، وينبغي لكل مؤمن التأسي به في ذلك، على كلا التأويلين، وقوله ﴿ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ ﴾ راجع إلى صلاتي وما بعدها على التأويل الأول، وإلى قوله « لا شريك له » فقط على الثاني، وهو تصريح بما علم ضمناً ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ من هذه الأمة ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا ﴾ إلهاً، أي لا أطلب غيره ﴿ وَهُوَ رَبُّ ﴾ مالك ﴿ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ومنه ما تعبدونه، وهو حال في موضع العلة للإنكار والدليل له، أي وكل ماهو سواه مربوب مثلي لا يصلح للربوبية ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ ذنباً ﴿إِلَّا عَلَيْهَا﴾ لا يتخطاها ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ لاتحمل نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾ آثمة ﴿وِزْرَ﴾ نفس ﴿أُخْرَىٰ﴾ جواب عن قولهم واتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم، ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ ﴾ يوم القيامة الجزاء ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ يبين المحق من الباطل ويجازي المحق والمبطل ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ صفة أخرى دالة على عدم جواز الإشراك، ولما كان صلى الله عليه وسلم آخر الرسل كانت أمته خلائف سائر الأمم أو يخلف بعضهم بعضاً أو هم خلفاء الله في أرضه يتصرفون فيها ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ بالعلم والملك والشرف والرزق والقوة والجاه وجودة الأذهان وغير ذلك ﴿ دَرَجَاتٍ ﴾ متفاوتة ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ أعطاكم من المال والجاه وغير ذلك، ليظهر المطيع منكم والعاصي ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه إذا جاء وقته، أو بمعنى شديد ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ﴾ للمؤمنين ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم، وصف العقاب ولم يضفه إلى نفسه، ووصف ذاته بالمغفرة وضم إليها الوصف بالرحمة وأتى بيناء المبالغة واللام المؤكدة تنبيها على أنه تعالى غفور بالذات معاقب بالعرض كثير الرحمة مبالغ فيها، قليل العقوبة مسامح فيها، وافتتح السورة بالحمد وختمها بالرحمة التي لا نعمة أجل منها فانتظم آخرها بأولها غاية الانتظام وهو اللائق بكلام الملك العلام.

اللهم اجعلنا من شمله رحمتك وغفرانك بجودك وإحسانك لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، وأنت أرحم الراحمين.

[تم تفسير سورة الأنعام]

فهرس

الجزء الأول

من

ضياء التأويل : فى معانى التنزيل

صفحة	
٢	مقدمة الطبع
٣	مقدمة السيد أبو بكر محمود ثالث قاضى قضاة نيجيريا الشمالية ونبذة عن حياة المؤلف
٧	مقدمة المؤلف رحمه الله تعالى
٨	تفسير سورة الفاتحة
١٠	» » البقرة
١١٥	» » آل عمران
١٦٢	» » النساء
٢٢٣	» » المائدة
٢٦٣	» » الأنعام